

الاستقبال والانسجام
الخطاب السردي

د. جليّة يعقوب

الإستكمال وإنسجام الخطاب السّرّيّ

الكتاب
الاستدلال وانسجام الخطاب السردّي

المؤلف
د. جليلة يعقوب

الغلاف/التوطيب الفني
سيرين بن مبارك

الناشر



شقة عدد 1 - مدرج H5 - إقامة الإمرود - العوينة 2046 - تونس

الهاتف: القار: +216 70 632 497

الجوال : +216 29 317 817

البريد الإلكتروني

etablissement.yafa@gmail.com

الطبعة الأولى - تونس 2023

الترقيم الدولي للكتاب

978-9938-29-078-3

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة يافا للبحوث والدراسات والنشر والتوزيع ©

المقدمة

1. الطرح العام للإشكالية

يتعلق البحث بالاستدلال على انسجام الخطاب السردى¹ تفاعلاً بين مستويات اللغة التي تساوي الجملة وتزيد عليها، وبين السرد² إذ ينتمي إلى نظرية «الأجناس» الأدبية بحثاً في آثار المعنى التي يُنتجها كلٌّ منهما من خلال «ظاهرة الابتكار الدلالي ذاتها» (Ricoeur، I، 1983: 13)، ويكون ذلك باستقراء النصوص في اتجاهين: أفقي وعمودي؛ على أن الاختلاف في الاتجاه لا يعني إلا الاقتران والتقاطع في نقاط التقاء، وكل ذلك يؤدي إلى شبكة علاقات بين مكونات الخطاب في مختلف تجلياتها التي اصطلاحنا على تسميتها بـ: الأبنية الصغرى - الأبنية الكبرى - الأبنية العليا - في صيغة الجمع التي تنشأ من صيغة المفرد وحدة دنيا تضمن وجود اللفظ في بعده المادي بما يوازي المنطوق أو المكتوب، والمعنوي بما يستدعي المضمون أو الموضوع؛ والتلازم بين البعدين قد ينشأ من البنية العليا أصلاً للإجراء، كما قد ينشأ نتيجة له، وهو ما يطرح إشكالية السبب والنتيجة، أو الأصل والفرع، أو الجنس والنوع بين «الأنموذج الأوفى» وما يمكن أن يُفرزه من ثنائية السنة والغدول.

نقترح أولاً الفرضية التي على أساسها سيكون فهم الخطاب عامّة، والسردى منه خاصّة، فهما يقترن بالوصف في بعدين: عِلِّي واجتماعي،

1 ما المقصود بالسردية؟ أو أي قرائن نعتمد لتبيين حضور السردية في نصّ ما؟ «يُمكّن القول بذلك متى وصّف نصّ وضع بداية في شكل علاقة امتلاك شيء ذي قيمة؛ هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، في إطار حدث أو سلسلة أحداث مؤلدة لحالة جديدة مناقضة أو مختلفة عن الحالة الأولى». (Hénault، 1979: 145)

2 «يُعَدّ مصطلح علم السرد أو السردية (Narratology) من المصطلحات التي دخلت دائرة التوظيف النقدي تحت تأثير البنيوية، هدفه توفير الوصف المنهجي للخصائص التفاضلية للنصوص السردية، ليشمل الجوانب النظرية والتطبيقية في دراسة منهجية للسرد وبنيتها». (يان مانفريد، 2011: 7)؛ فهذا العلم «يسعى إلى كبح جماح النزعة التفسيرية في قراءة النصوص، ويحدث كثيراً في النقد الأدبي. فبدلاً من تفسير النصوص، يسعى علم السرد إلى استخراج القوانين التي تمنح النصّ ما يجده المفسّر من دلالات» (الزولي، 2002: 105)؛ ولمزيد التوسع في مفهوم علم السرد، انظر المرجع نفسه: 103 - 106.

والآثار التي يتركها كلاهما آنياً وزمانياً. والآنية والزمانية ستكونان أيضاً من المرجعيات التي ستحكم المدونة المعتمدة في الدراسة والبحث عن الروابط التي تجمع النصوص فيما بينها، وبينها والخطاب الذي قد يحتويها، ثم المقارنة بين أجناس الخطاب المتعددة.

وسنسعى في فرضية ثانية، إلى النظر في الأجناس في بُعد هيكلي تجريدي في علاقة الأدبي بالمعرفي باللغوي النحوي الإعرابي من ناحية، والرياضي الرمزي من ناحية أخرى؛ وهو ما يفسر حركية النصوص والخطابات عامة في أبنيتها وأنظمتها وأنساقها - حتى وإن كانت محكومة بمجموعة قواعد ومبادئ معرفية ثقافية قد توجه القراءة والتأويل - وهو ما يدعو إلى التفكير في التواصل واقتترانه بمسارات الإنتاج وإعادة الإنتاج، وبالتفاعل، وبالسياق، ذلك أنه إذا كان هنا إنتاج واحد للمعنى، فإنه توجد قراءات عديدة له ممكنة.

وفي فرضية ثالثة، نريد الانتهاء إلى الخطاب من خلال تجلياته، يكون بالبحث في العناصر الكفيلة بتفسير الصيغة التي أنتج وفقها النص وربط ذلك بمختلف السياقات المتعلقة به، والقوانين المسيجة له، والتأويلات التي قد يفرزها، تجلياً آخر من تجليات اللغة صيغاً وأنماطاً، قد يفرز المقارنة بين النص الأصل والنص أو النصوص المنتجة حوله بما يمكن من تمييز مستويات أخرى من تنظيم الأبنية اللغوية خروجاً من التفصيل إلى الإجمال، ومنهما إلى التجريد، بمعنيين: أولهما: يتعلق بإنشاء المتلقي جملة افتراضات تتخذ - مبدئياً - صبغة الانطباعات حول النص ومحتواه، افتراضات قد «يصدق» بعضها، وقد تبدو جميعاً لا صلة لها بالنص أصلاً، وهو ما قد يُنتج القطيعة بين العالمين المادي والمعنوي أو التجريدي؛ وثانيهما: التحول من النص الإجرائي إلى الخطاب صيغة هيكلية تقوم على الرمز يحتوي المعنى ويُخفيه.

ويعود هذا المنهج في الدراسة إلى تصنيف مكونات الخطاب وفق مرجعيّاته (بين لغة نحو وبلاغة، فبناء تراكيب ووحدات قول وإنشاء) أولاً، وحسب الاهتمامات والأبعاد (بين ممارسة النصوص، والاستناد إليها عرفاناً وإدراكاً وإعادة إنتاج وبناء) ثانياً؛ فمن خصوصيات منهج البحث أن ندرس

الخطاب السردِيّ «انطلاقاً من تجزئته إلى وحداتٍ دلاليّة رمزيّة، والتعامل مع هذه الوحدات نفسها كدوالٍ تَدْخُلُ في علاقة مع بعضها البعض لِتَكُونِ كَلِيّة النّصّ، وذلك بواسطة دراسة هذه العلاقة وفق نظرة تحويليّة تساعد على فهم تطوّر النّصّ» (الحمداني، 1990: 92).

وُثِرَ العناية بالأبنية برغبةٍ في التّعرّف إلى الخيوط النّاطمة لنصّ ما بجانبٍ صريحٍ أو مصرّحٍ به من ناحية، وبجانبٍ ضمنيٍّ أو مسكوتٍ عنه من ناحية أخرى ومختلف الأنظمة التي قد تُسيج النّصّ والخطاب في أنٍ حسب المشغل الذي ينطلق منه صاحب النّصّ كما متلقّيه، والوظائف التي تؤدّيها الأنساق في جدليّة بين اللّغة والفكر، لا تُكرّس العلاقة بالمنهج التّاريخيّ إلّا من حيث صلة تحليل الخطاب بما سبق من مناهج الدّرس اللّغويّ اللّسانيّ، ولكنّها جدليّة تصل الفكرَ بالجانب العرفانيّ التّدوليّ، والبنية بالمواضيع أُطرّ بناء واحتواء من ناحية، ومجالات قراءة ودراسة وبحث من ناحية أخرى.

وفي فرضيّة رابعة، يقوم هاجسنا على التّوصّل إلى العلاقات التي تنتظم صلات البناء بالفكر في الخطاب، وفي طُرُق التّواصل اللّغويّ النّصّيّ بما يعكس انفتاحاً على العالم في بُعديّه المادّيّ والتّصوّريّ (Dirven & Rad-den, 2006: 17) يُصاغ أبنيةً صغرى تبدأ بالعلاقات مكوّناتٍ دنيا لتبلغ الجملةً معنى ودلالة قد تعني الحقيقة، كما قد ترتبط بالرمز الذي يتّسع لمختلف الثقافات ولتعدد الأفكار نُويّاً بالدّالّ عن المدلول، وبكليّهما عن الدّلالة الواحدة التي تقتزن بالّلزوم، أو بالمشافهة، أو بالاستمراريّة. ويعني الانتقال من الإجراء إلى التّجريد طرح مسألة الأصنافيّة أو نظريّة الطّراز بما تعنيه من وجوه التّشابه والالتقاء أو تجلّيات التّباين والاختلاف، ولا تعني المقارنة المفاضلة بقدر ما تقتزن بالتميّز والخصوصيّة اللّذين يقومان على المركز أو النّواة بنية عليا تُلقّي بأشعتها على الأبنية الصّغرى وكذلك الكبرى، دون أن تتفصل التّجربة عن التّصوّر في مكوّنات النّصّ ومرجعيات الخطاب قراءة وتأويلاً.

والعناية بتحليل الخطاب تولّدت من النّظرة إلى النّصّ على أنّه كلّ متجانس ترتبط فيه شروط البناء بالأنساق اللّغويّة إذ تحيل على المعنى فمعنى المعنى دلالة قد تتّسع أو تضيق حسب منطلقات منشئ النّصّ وقراءة المتلقّي، ومن هذه وتلك، تتولّد جدليّة علاقة النّصّ بالخطاب تحوّلًا من المُنجز اللّفظيّ انتهاءً إلى التّمثيل الصّوريّ، أو منهجًا في اتّجاهٍ عكسيّ قد لا يقضي بحلّ

قطعيّ أو حكم باتّ في أسبقية النصّ على الجنس، أو في ضبط المنوال لما قد يوافقه من إنتاج النصّ.

وإذا كان ضمان التعرّف إلى خصوصيّة النصّ في مختلف مكوّناته هو الانسجام توافقاً بين المبنى والمعنى، فإنّ الاستدلال هو سبيل التحوّل من مكوّن إلى آخر، ومن مرجعيّات القول وسجلّاته إلى تجريده استقلالاً بين النصّوص وتفاعلاً بينها في أنّ على أساس السّمات المُشتركة، وانفتاحاً على العوالم الممكنة بين النّظرية والإنجاز، وهو التّوافق القائم على أساس درجة الشّبه بينهما، وليس على أساس التّحقّق من سماتٍ أو قيود ضروريّة وكافية.

وفي فرضيّة خامسة، نهتمّ بالمعنى في علاقته بمرجعيات الطّراز سعيّاً إلى تجريد هيكل ينتظم نصّاً ما - وأي نصّ من جنسه - لا يتمّ إلّا من خلال البحث في كلّ الأطر الحافّة به بما أنّ تحليل الخطاب لا يستقيم - وفق أسسه التّنظيريّة - إلّا إذا اقترن بأصوله التي قد يتجاوزها لكنّه لا ينفصل عنها، فـ «محلّ الخطاب يحاول أن يعامل بياناته على أنّها سجلّ لمسار ديناميكيّ تُستعمل فيه اللّغة أداة تواصل في سياق ما من قبل متكلّم/ كاتب للتّعبير عن معانٍ وتحقيق انطباعات تمثّل جميعها الخطاب. واستناداً إلى تلك البيانات، يكون هدف المحلّ وصف القواعد في النّظم اللّسانية التي يستعملها النّاس لتبليغ تلك المعاني والانطباعات (Brown & Yule، 1983: 26). على أنّ محلّ الخطاب يتجاوز حدود التّقنين والتّقييد، فلا ينظر إلى الخطاب - أو أيّ مكوّن من مكوّناته - في صلة أحديّة الجانب بعنصر مخصوص أو بطرف محدّد حتّى وإن كان هذا الطّرف منشئه ذاته، فكلّ العناصر والأطر الحافّة تساهم في إنشاء الخطاب سواء أكان ذلك بصفة مباشرة أم غير مباشرة.

يقترن المعنى ومرجعيات الطّراز بالنّص وبمسار التّكوّن وبالعناصر اللفظيّة والتّركيبية التي تخضع لعدّة معايير منها الدّقة والكثافة، والأصناف الأصليّة والأخرى الفرعيّة (وهذا لا يتعلّق بنوع من الأبنية دون الآخر، بل جميعها يتّصف بهذه الخاصيّة التّوزيعيّة)؛ وترتبط هذه الأصناف بالثقافة والتّصوّر يجتمعان في الدّلالة التّداوليّة بين الباتّ والمتلقّي، والتّداول يمكن أن يقترن بالخلف في الفهم والتّأويل، أو في ربط النصّ بمنواله، بما أنّ المنوال يقوم على تراصّ شبكاتٍ عديدة.

ووفق المنهج الذي نتّبع في القسمين النّظريّ والتّطبيقيّ على حدّ سواء، تعاملنا مع المفاهيم والمصطلحات على أنّها مراجع قائمة قد تبلورت في مناهج

لسانيات الخطاب، فكانت غايتنا البحث لها في النصوص عن تجليات - قد تتشابه وقد تختلف - في البنية والمعنى والدلالة في اتجاه كلي شمولي، دون الوقوع في تكرار ما تمّ البحث فيه حدًا وتاريخًا، فسعينا إلى الاستدلال على انسجام الخطاب السردّي استنادًا إلى أسس النحو (أنظمة وقواعد، ومسارات بناء وإنشاء نصّي) وإلى أصول تحليل الخطاب.

2. القضايا والإشكاليات والأسئلة

إن الجمع بين الاستدلال جزءًا من خطاب منطقي حجاجي، وبين خصوصيات الخطاب السردّي بما يوحي به مبدئيًا من اندراج في التّحليل وفي خطاب اللامحدود معاني ودلالات إذ لا يقف الخطاب السردّي عند ظاهر معناه، وإنّما يستدعي باطنه - وإنّ ينسب متفاوتة من نصّ إلى آخر - هو جمع يبرره ما يلفت انتباه القارئ أو المتلقّي عامّة من اعتماد صاحب النصّ خطة في البناء والإنشاء لا بدّ أنّ لها خلفيات وأسبابا «منطقية» على الأقلّ - وبصفة أولية - بالنسبة إليه، ومهما يُغري النصّ بخصوصيته وبتميّزه، فلعلنا واجدون بينه وغيره من النصوص من التفاعل والانسجام ما يدفع إلى المقارنة للإجابة على جملة من التساؤلات من خلال البحث النظريّ أولاً، وما قد تُقرّزه النصوص المنجزة من خصائص ثانيًا.

اتّخذت بحوث فان ديك وغيره من الباحثين في لسانيات النصّ وتحليل الخطاب بيان خصوصيات النصوص من حيث أصنافيتها وأجناسيتها وأشكال الخطاب: الأنماط السردية ونشأة التصنيف، وإبراز أبنية كلّ صنف وهيكلته تجريديًا. وإنّا نتخذ نتائج هذه البحوث قواعد نبني عليها تساؤلات نسعى إلى تبينها وهي التالية:

1/ التحوّل من التّنظير إلى التّطبيق أو العكس: فيم، وكيف، ولماذا؟

2/ البحث في كنيّة انسجام النصّ من خلال العلاقات بين أبنيته ووظائف أبرزها، والاستدلال على غلبة بعض الأبنية في نصّ على خلاف نصّ أو نصوص أخرى؛

3/ انسجام النصّ: هل هو مُسلمة نقطع بها ونسعى فقط، إلى الاستدلال عليها، أم أنّ الأمر محلّ نظر وشكّ حتّى يقطع الجانب التّطبيقيّ باليقين؟

4/ كيف يُمكن للاستدلال أن يكون في الآن ذاته آلية بحث ونظر في

النصوص كما في الخطاب، وجزءاً من بنائهما وإنشائهما ارتباطاً باختيارات صاحب النص وبمدى تفاعله مع النظرية - إذ تسبق النص، أو ربّما تلحقه! - ثم، كيف يكون الاستدلال غايةً في النص والخطاب في مستوى الإنتاج، وهو غاية بحث في النظرية وفيما يمكن أن يعكسها من مُنتج نصي، أو ممّا قد يُعاد إنتاجه؟!

5/ إذا تصوّرنا - وهو أمر لا يمكن أن ننفية - استقلال الأبنية بعضها عن بعض وتمييزها، فما الذي يُسوّغ لنا الحديث عن انسجام بينهما؟ ووفق أي منطق يمكن أن يأتلف المختلف؟

ثم، هل نتحدّث في النص والخطاب السردية عامةً، عن انسجام في اللغة، أم في الصبغة الأدبية، أم أن لا علاقة لكليتيهما بالانسجام، وإنّما هو رهين أبنية رياضية تجريدية؟

6/ إذا كان من الأبنية ما له صبغة معنوية - ونقصد الأبنية الكبرى -، فهنا يتولّد إشكال آخر يقترن بالمصطلح والمفهوم قبل أن يتصل بالتجلي وصيغته! وهل يعني هذا إمكانية دراسة المعنى بمعزل عن المبنى؟ أم أن كليهما سيدلان على انسجام الخطاب في التئامهما لا في تباعدهما - رغم الخصوصية في الصفة والمرجع -؟

7/ في الجانب التطبيقي، وإذا اعتمدنا مدونة نصية معيارنا الأول في اختيارها هو التّنوُّع في الجنس الأدبي، فنحن نفترض وجود فروق بينهما على الأقل فيما ساد من اعتبارها نماذج على أجناس مختلفة وعلى مصطلحات تستدعي الخصوصية في الميثاق وفي الطراز!

وإذا كان الأمر كذلك، ففيم إدراجها ضمن منهج بحث واحد وهو الاستدلال على انسجام الخطاب السردية؟ فهل سيكون ذلك بالنظر في النص الواحد دون أن نكون معنيين بعلاقته بغيره؟ أم أنّ هناك من النتائج ما سيؤجّه البحث إلى النظر في نتائج أخرى تتجاوز الدراسة الأحادية إلى اعتبار المدونة في كليتها، اهتماماً بالخطاب السردية: الفروق ونقاط الالتقاء - إن وُجدت! -

8/ قد توجد نصوص تقوم على لغة الإحياء والرّمز، بما يعنيان من غموض وربّما التباس في المعنى؛ بل قد توجد نصوص لا تتميز بمرجعية واحدة أو مساوقة لزمان إنشائها! فكيف ستكون صيغة استقرائها والاستدلال على تجليات

الانسجام فيها؟

ثُمَّ، ما قيمة الجمع بين التراث والحداثة، وبين الأصالة والمعاصرة؟ وفيَم يمكن أن يخدم هذا الجانب البحث: مداخل وإجراء ونتائج؟

9/ العناية بأبنية النص والاستدلال على انسجامه تُثير في الباحث الرغبة في معرفة علاقة الملفوظ بصاحبه: علاقة قد يُقصيها البعض على اعتبار أن دراسة نص ما يُفترض أن تُسلط عليه دون صاحبه مادام هو محور الاهتمام؛ لكن، لماذا إثارة مثل هذه الإشكالية؟

الواقع أن الحديث عن شكل أو عن إطار يستدعي - شئنا ذلك أم أبينا - النظر في محتواه مهما يكن نوعه - حتى وإن كان خواءً - والصيغة التي يتخذها المحتوى مرتبطة بخلفية صاحبه الإيديولوجية؛ والنص السردى ليس استثناءً، بل لعله أكثر النصوص مرونةً لاحتواء مثل هذه الخلفية. وبناءً على ذلك، فهو لن يكون خالياً من صبغة جدلية تستدعي ضرورةً وجودَ مخاطبٍ أو متلقٍ قد يكون مبدئياً هاجساً من هواجس صاحب النص وهو يقيم نصه فكرةً فتجلياً، لكن، وما إن انفصل النص عن صاحبه يصبح المتلقي حقيقةً فعليةً وطرفاً فاعلاً في إنشائه أو إعادة صياغته، ولا يتحقق ذلك إلا استناداً إلى مقومات ثلاثة هي: السياق، والمقام، والمعرفة، مقومات تُخرج الباحث من إطار النص والخطاب الفني التخيلي إلى البحث في غاياته ونتائجه في بُعد تداولي جزءاً من تحليل الخطاب؛ وهو ما يُبرر دراسته من مدخلين: داخلي وآخر خارجي؛

10/ الجانب النظري يصوغ الكلي ويضبط المصطلحات والمفاهيم، فيكون كل ذلك مدخلاً لقراءة النص والخطاب على ضوء النقد؛ وهو منهج لا يتحقق إلا باتخاذ الاستدلال سبيلاً لبيان مدى اتفاق النص مع الخطاب؛ وهل من الضروري أن يكون هذا الاتفاق؟ والاتفاق بأي معنى، ومن وجهة نظر من؟ وهل المنطلق هو النص أم الخطاب؟ وهل صاحب النص ملزم - إذا كان نصه لاحقاً للخطاب - باتباع «الأنموذج»؟ وإذا كان «الأنموذج» هيكلًا رياضيًا تجريدياً، فكيف يُمكن للمتلقى أن يستبين العلاقات بين النص والخطاب؟

11/ أي نص هو محاورة بين صاحبه ومتلقيه، وقد تكون شكلاً ومحتوى وغاية، وقد تقتصر على الغاية في مستوى النص الضمني، وهو ما يفترض

وجود صبغة جدلية قائمة في كل نص!

بناءً على هذا، هل يعني أن كل نص هو جدلي وليس سردياً في إطاره العام؟ أم أن المنطلق في الدراسة ينبغي أن يكون النص بما يقدمه من خصوصيات، أما ما يوحي به فيكون تابعاً له، ناشئاً عنه يؤول إلى القراءة والتأويل، وليس إلى الإنتاج والبناء؟ وبالتالي، علينا أن نُميِّز بين الأصل والفرع، أو بين المتن والحاشية، فإذا البُعْد التداولي هو تابع للنص، ناتج عن الخطاب وليس مقدمةً لهما أو فيهما قياساً بالأبنية والهيكل؟!

إن الاستدلال وانسجام الخطاب السردى لا يعني التقرير والتسليم بثوابت بالنسبة إلينا، وإنما نتناول الصيغة ومكوناتها تناولاً إشكالياً في العلاقات بينها، وفي مبررات الاختيار، وفي طبيعة الخطاب والنصوص المعتمدة في الدراسة في شبكات تواصل أردناها تنشأ تنظيراً وتؤول إليه، إما بنفس الصيغة والمحتوى، أو بالغدول عنهما - جزئياً أو كلياً - ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بالغبور بالجانب التطبيقي استناداً إلى نصوص اعتمدناها ونوضحها: اختيارات ومرجعيات وأنواعاً في القسم الثاني من الأطروحة توضيحاً عبر الأهداف الإجرائية مقدمات، ومن خلال القراءة المرحلية والتجزئية حرصاً على الوصول إلى نتائج يفرزها التفكيك والتحليل، فالتأليف والنقد على أساس الانتهاء إلى خصوصيات الخطاب السردى استناداً إلى:

- الاستدلال منهجاً، وصيغة خطاب (أدبي ونقدى)؛

- الانسجام غاية بحث ودراسة؛

- الخطاب السردى مرجعية لإثبات النظرية أو لتنسيبها عبر اللغة والأطر اللسانية وتحليل الخطاب.

إنه بحث يقوم على تجاوز الكليات والمداخل العامة والخصوصيات الشمولية إلى البحث في الجزئيات والتفاصيل التي منها يُنسج النص ويكتسب ميزته، وفي الخطاب ثنائية سنة وغدول، ومنطق رياضي وبناء إجرائي قد لا يُرشح منه إلا العنصر والعنصرين من الأبنية الصغرى، فتكون بالتالي، سائر الأبنية: الكبرى والعليا (الأصلية منها والفرعية) هي ذاتها محل جدل ليس فقط من حيث الخصائص والعلاقة بـ «الأنموذج»، ولكن في وظائفها في النص والخطاب.

3. أهداف هذه الدراسة ومقاصدها

نسعى إلى البحث في علاقة الخطاب بالاستدلال والانسجام، ما الذي يجمع أو يفرق أدبيًا، ومنطقيًا، وثقافيًا، واجتماعيًا؟ على مستوى الأنظمة والممارسة والنظرية. والإطار المعرفي في هذا البحث متنوع، وكذلك المنهج ذلك أن الاستناد إلى لغة الخطاب لن يقتصر على احتواء الجملة بنية وتركيبًا، بل باعتبارها جزءًا من علم النص تحليلًا للفئات النحوية والكلمات والعبارات التي تكون متتاليات صغرى هي جزء من إنتاج المعنى وتأسيس نظريته، استنادًا إلى الاتساق والانسجام والملاءمة في الخطاب، ذلك أن «تحليل النص ينبغي أن ينطلق من بنيته الداخلية ذاتها، وأن لا يُضاف إليها شيء خارج عنها، وأن تكون دائمًا غاية البحث في النص هي التوصل إلى معرفة «بنيتها الدالة» التي يمكنها أن تلخص مدلوله العام» (غولمان، 1981: 12).

ولا يتم الانتهاء إلى هذه الخصائص إلا بتتبع العلامات اللغوية والاتساق التي تقوم عليها النصوص، إما في اتجاه خطي، أو بدراسة مقارنة لمحاولة فهم كيف تؤدي مختلف أصناف العبارات إلى الاتساق بما يساعد على التفاعل في قراءة النص وتأويله في علاقة تلازم بين المعرفة والتواصل، إذ لم تتفصل الأفكار عن التاريخي في سيرورة وصيرورة دائمة، وكلا المجالين قد سيّج بالعقل لإنتاج المعرفة من خلال الحوادث الخارجة عن النص الموجهة له في آن على مستوى الوظائف والخصائص.

إننا نتناول تحليل الخطاب استنادًا إلى أدوات مفهومية وإجراءات تفسيرية لمقاربة النصوص استعانة بالمنظور اللساني الخطابي الذي أرسى أسسه فان ديك وتوسع آدام في إبراز خصوصياته استنادًا إلى الخطاب السردّي تحديدًا، وإلى المنظور التحليلي الخطابي بقيادة براون ويول. ولا بدّ، في هذا المنهج أيضًا، من توقّف بعض المعايير النّداوليّة العرفانيّة التي تكون بمثابة التّعليمات التّفسيرية للعمليات الاستدلالية، خاصّة وأنّ الروابط قد تكون لفظيّة، وقد تكون عقلية تتعلق بالمعنى أكثر ممّا بالتركيب النّحويّ وبالمواضع التّوزيعيّة المخصوصة.

وإن تكن بين نصوص المدوّنة فوارق، فإننا باحثون عمّا يشرع لاندراجها ضمن نفس منظومة البحث ووفقًا عند تخوم التّواصل، حتّى وإن بدت قبل الجانب الإجرائي ضبابية، أو ذات اتجاهات وتمفصلات متنوّعة مختلفة. وإننا ساعون منهجيًا، إلى البحث عن شبكات التّواصل والانسجام، ليس بالانصهار فيما هو وحدات لغويّة، وإنّما بالبحث أيضًا في العلاقة التي تميّز نصوص

المدونة على مستوى التّظهير الأجناسي، من حيث الأهمية التي يؤليها للتفاعل الخطابي ومدى ما يعكسه من الأشكال الخطابية والأنظمة المنطقية.

هي مبادئ تتفتح على غائيتين أخريين من البحث هما التعرّف إلى الصياغة العامة التي تمتزج فيها اللغة بالأدب وبالمعرفة، والسياقات التي تضمن أنساق الخطاب في تنظيم النصوص، وفهم أنظمتها إنتاجاً وقراءةً وتقييماً، لتبيّن أصناف النصوص التي أنجزت، والتي يمكن أن تنتج في إطار الخطاب السردّي من خلال البحث في أدبيته عبر لغته في أعمال إجرائية للتعرف إلى مختلف العلاقات بين مكونات النصّ الجزئية انتهاءً إلى النصّ بأكمله؛ والعلاقات هي في الآن ذاته بنيوية ومعنوية: الصريحة منها والصّمنية والمجازية في مستويات عديدة؛ وتؤدي هذه الغاية الأولى إلى استخلاص القواعد والنظم والمواثيق التي يُنتجُ وفقها النصّ، وتكون مرايا للطراز الأجناسي: المفرد أو المتعدد؛ بقي أن الإشكال الذي يُطرح: هل يُربطُ الجنس بالبعد البلاغيّ الأدبي فتكون هذه هي وظيفته بالحصص أو بالأولوية، أم هل سينعقد الاهتمام بالجنس في بعده التّبليغيّ الاجتماعيّ؟ أم أن الأمر يتعلّق بتكامل بين المستويين، أو ربّما ترشيح أحدهما على الآخر ارتباطاً بوظائف النصّ والخطاب، وبمناهج المعرفة صياغةً وغايةً؟

4. حدود المدونة

- عناصر البحث

تمثّل دراسة الأبنية النصّية مرحلة من مراحل المباحث اللسانية وتجديد نظرياتها وتطويرها في إطار تنوع المقاربات من منطلقات تاريخية وفكرية معرفية، واجتماعية تداولية. وإذا اتّخذنا من دراسات فان ديك منطلقاً للبحث وأبرز محور فيه، فلأننا رأينا أنه يمثّل علم النصّ الإجماليّ بحثاً في الأبنية مفاهيم وتجليات تعكس نسيج النصّ واتّساقه وانسجامه. واقرن علم النصّ بالثقافة واللغة، والنحو والدلالة، والطراز الخطابي، وهي إمّا مقدّمات أو نتائج إلى نسيج النصّ في تنظيمه الشكليّ على أساس متتاليات محكومة بنحو النصّ الإجماليّ القائم على بناء ذي ثلاثة مستويات يراها فان ديك في الأبنية الصغرى والكبرى والعليا؛ وهو تنظيم حسب قواعد تحاكي نحو الجملة لكن بمفاهيم وتجليات أوسع منها محورها الاتّساق والانسجام. ولسانيات النصّ عامةً هي نموذج تعرّف إلى الأعمال اللغوية، ولكن كذلك هي نموذج إنتاج

وتأويل يقتزن بالسّياقين المقالّي والمقامي⁴ بما يمهد لتداوليّة النّصوص، ومن الطّبعي ألا يكون فان ديك وحده من يمثّل هذه المرحلة في النظريات اللّسانية في ما يتجاوز مفهوم الجملة إلى ما هو أوسع منها وأشمل لكن دون نفيها أو إعلان القطعية معها. على أنّ مفهومي الاتّساق والانسجام ليسا بمعزل عن مفهوم التّقدّم الموضوعي إذ يتطوّر وفق أنماط متعدّدة بيّنها عديد اللّسانيين في أعمالهم، وخاصّة آدام في بعدين نظريّ وإجرائيّ من حيث لسانيات الوحدات النّصيّة الكبرى، واشتغال النّص وفق منظومتي الترابط والتّتالي في النّص والسّياق⁵.

مناهج ونظريات لها منحى تأسيسي لمقومات النّص البنيويّة، ولأنواع النّصوص وأجناس الخطاب؛ وإنّا اتخذنا نتائج هذه البحوث أسسًا وقواعد للنّظر في عدّد من الفرضيات والإشكاليات تلك التي بيّناها في المستويين الأوّل والثّاني من المقدّمة، وهي لا تخرج في هذا البحث، عن إطار دراسة انسجام النّص المُقترن باتّساق تراكيبه وتراتب أنظّمته؛ وسيكون النّظر في ذلك من خلال:

- المنطق المُتّبع في بناء النّص عامّة، وفي علاقة اللفظ بالمعنى خاصّة، والسّياقات التي يختارها صاحب النّص لنسجه على منوال أو على غير مثال، سياقات تكون آليات إنشاء بالنّسبة إليه، وهي أدوات استدلال على انسجام الخطاب بالنّسبة إلى المتلقّي؛

- فيم غلبة بنية صُغرى أو عدّد من الأبنية محدود على نصّ ما حتّى تُكوّن هي الدّالة على خصوصيّة، بل على اندراجها ضمن بنية عليا محدّدة دون غيرها؟

4 لمزيد التّوسّع في هذه النّقطة، انظر: Paveau & Sarfati, 2003: 184 - 185 + 188 - 189.

5 تندرج بحوث فان ديك ضمن تحليل الخطاب استنادًا إلى مكّونات اللّغة. والبحث عن تماسك النّص عنده اقترن بالأبنية وبكيفية الاتّساق بيّنها على المستويين: التركيبيّ والمعنويّ، في إطار متتاليات قائمة على التّرتيب والترابط وفق نسقين: دلاليّ وسياقيّ، في علاقتهم بالفكرة الأساسيّة لنظريّته في هذا الإطار وهي أنّ ليس فقط الوضع الاجتماعيّ الذي يؤثّر على الحديث وعلى هياكل النّص، وإنّما يرتبط الأمر كذلك بتعريف الخصائص ذات العلاقة بالوضعيّة التّواصلية من قبيل المشاركين في الخطاب.

لقد بحثّ فان ديك في العلاقات بين استعمال اللّغة والاعتقادات والتّفاعل من ناحية، كما بين الخطاب والمجتمع من ناحية أخرى في إطار مقارنة معرفيّة لصياغة نظريّة هي من أكثر النظريات تأثيرًا في دراسات الخطاب النّقدّي والمنهجّي القائم على الكثير من التّأليف بين المواضيع والقضايا والتّخصّصات.

- العلاقات بين الأبنية والتفاعل بينها، وما يحققه من انسجام الخطاب، استدلالاً على أن النصوص قد تكتسب بعض خصوصياتها ارتباطاً بسياقات القول ومقامات التلقظ؛ إلا أن هناك إطاراً جامعاً هو الطراز في مفهوم هيكلية تمثيلي تجريدي، وما يمثل عقد الربط يتجلى في الأبنية الصغرى في أي مرجعية من مرجعياتها؛

- البناء الفني ومرجعياته: الأدبية - الفكرية - الواقعية - الرمزية - التاريخية: التقاطع والتشابه والاختلاف؛

- تجليات الانسجام في المعجم، وفي التركيب النحوي الإعرابي الدلالي، وفي ثنائية التصريح والتلميح، أو الكشف والإيحاء والرمز، وفي الاختيارات المرجعية وتوازيها مع عامل الزمان وأثره في تحديد ماهية النص وصوغ هيكلية الخطاب، وفي نشر الذات، وإيجاد منهج وصيغة لإعادة بنائها، الذات على وجه الإبداع إنتاجاً ونقداً، المرجع والصدى، أو في مفهوم الغرابة والتغريب في العدد⁶ كما في الجنس⁷؛

- النص، وهو أدبي في الأصل، هل من الضروري أن تكون له غاية نفعية (في أبعاد الحياة المتعددة وربما المختلفة المتناقضة) أو معرفية بالمفهومين الموسوعي من ناحية، واللغوي من ناحية أخرى؛

- الاستدلال باعتباره منهجاً في البحث، وجماع طرقه: اللغوية، والمضمونية كما الهيكلية (المنجز منها والمفترض)، وسبيل إنجازها وغايتها: يبدأ فعلياً مرجعياً، وينتهي جمالياً فنياً نموذجاً في الأدب، ورياضياً افتراضياً نقداً للأدب من خلال حركة اللغة في الزمان، وفي مسارات البحث المتعلقة بنظرية الأبنية السردية، وهي ليست بمعزل عن النص في تجليهِ اللغوي وفق مرجعيته المعجمية والنحوية والتركيبية الخاصة المميزة لكل واحدة منها، ولكنها

6 العدد: 1/ في علاقة الذات المفردة بالجماعة أو بالمجتمع قياساً على المرجع؛ 2/ وفي علاقة الكاتب بتجليات قد تكون صورة منه إليه في الصياغة الفنية وفي الرؤية النقدية، وقد تكون إنكاراً منه لها وتباعداً موضوعياً وفكرياً؛ والمقصود بهذه التجليات: الشخصية (في صيغة أفراد أو جمع)، والسارد ثم الراوي بمظاهره ورؤيته في زواياها المتعددة المختلفة؛ 3/ في علاقة الكاتب بغيره من الكتاب في عصره أو في ما سبقه أو لحقه: القراءة المقارنة بين النصوص أو بين الأجناس: إلام يمكن أن تُفضي؟

7 الجنس: الأدبي السردية: ثنائية الثوابت والأصول مقابل التحولات والمتغيرات، وما تُفرزه من انبثات لا يشي إلا بطيف الخيال من القوانين والأسس المرجعية في خطاب الحداثة والتجريب.

المتجانسة في أبنية النصّ الشاملة التجريدية؛ جدل نقطة الالتقاء فيه تتمثل في الانسجام الدلالي والتصور المعرفي الأصلي الذي يتجلى أساساً في الأبنية الكبرى التي وإن تعلقت بالمواضيع والمعاني، فإنها تخضع لا محالة، لقواعد انتظام هي جزء من منطق البناء العام، وهو ما يصطلح فان ديك على تسميته بـ «الوحدة الدلالية - (الكبرى)»؛

- المقومات السردية باعتبارها علامات دالة على أجناسية الخطاب، وعوامل مساعدة على الاستدلال على انسجامه - رغم ما تشهده من انزياحات هي وليدة زمان الكتابة من ناحية، وزمان القراءة من ناحية أخرى؛

- الجنس الأدبي: هل يكون محضاً في إنتاج نصّ ما، أم أنّ هناك انفتاحاً على غيره من الأجناس؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل هي الدوافع أم الاختيارات؟ وهل هذه الاختيارات فنيّة، أم معنويّة، أم إيديولوجيّة؟ وما الذي يوجّه إحداها ويرشّحها دون سواها؟

- التعرّف إلى النصّ ثمّ إلى الخطاب كيف يتمّ، وهل من الممكن، أو من الضروريّ، فصل النصّ عن صاحبه؟ وما الذي يُبرّر أحد التوجّهين: هل هو النصّ ذاته، أم هناك عوامل تداوليّة، أم أنّ المسألة تتعلق بالنقد الأدبيّ من حيث أسسه ومبادئه؟

- علاقة البناء بالجنس الأدبيّ: السُنّة والغدول، أو القاعدة والتجاوز؛ وأيهما أسبق إنتاج النصّ أم التّظهير له؟ وهل يُمكن القطع بأجناسيّة خطابٍ ما؟ وهل هناك مقومات لغويّة وبنويّة لا يمكن أن توجد لها أشباه ونظائر في غير ما تتجلى فيه من نصّ أو جنس؟

- موضع النصّ من الأثر أولاً، ثمّ في علاقته بغيره من النصوص المدروسة من نفس الجنس الإطار، وفي مستوى ثالث: الأصداء التي يُمكن أن تتوقّف بين نصوص المدونة جميعاً بما يُسوِّغ اندراجها ضمن مجال بحث واحد وهو الاستدلال على انسجام الخطاب السرديّ.

- مصادر البحث

لتحقيق الفرضيات التي ذكرنا سابقاً، لا بدّ من تحديد حقل الدّراسة من خلال ضبط المدونة، للتّنبّت من الخطوط الكُبرى التي رسمنا، ونسعى إلى الاستدلال عليها استناداً إلى آثارٍ تمتدّ زمانياً من سنة 1929 إلى سنة

1981؛ ونصّتها حسب معيارين: أولهما الجنس الأدبي الذي يُفترض⁸ أن المصدر المُعتمد مندرج فيه؛ وثانيهما حسب سنوات نشرها⁹، والأمر يتعلق بدراسة ستة آثار هي:

في الأقصوصة:

* «المُعذّبون في الأرض» (1946 - 1948): مجموعة قصصية للكاتب المفكر الناقد المصري طه حسين (1889 - 1973). تحتوي على إحدى عشرة قصة قصيرة تعكس أزمت الحياة المصرية في مرحلة الأربعينات، وتبين معاناة الناس بشتّى أشكالهم الفقراء منهم والمعدمين والمرضى، وكيف ظلمتهم الحياة.

ورغم صبغة هذه المجموعة القصصية الأدبية، فهي تُعبّر عن شعور طه حسين الإصلاحية الاجتماعيّة في فترة من أكثر فترات مصر اضطراباً، حيث وُجدت طبقتان، وبدا انتقاء العدالة الاجتماعيّة أمراً واقعاً، وكانت مصر تمرّ بالظلم والوباء، وحيث مشكلة الفقر بأقصى درجاتها - الجوع - كانت تفرض نفسها فرضاً مُريعاً، وقد راح في بداية هذه الفترة يضرب على وتر العدالة الاجتماعيّة المفقودة بين طبقتين. (عبد الغني، 1997: 237)

وطه حسين، في هذه المجموعة، يكتب التاريخ ببُعْد رمزيّ، يوظفهما في تأويل

-
- 8 المسألة تنأى عن الحسم واللبّ في الجنس الأدبيّ، لأنّ البحث أفرز إشكالياتٍ هي:
- مدى تمحّص النّصّ - الجزئيّ أو الكلّي - للجنس الغالب عليه؛
 - في علاقة الأبنية - بمختلف أنواعها - بالجانبين الذاتيّ والموضوعيّ؛ ثمّ، هل يمكن الحديث عن تدخل مباشر لهذه المكوّنات البنيويّة من ناحية، الموضوعيّة من ناحية أخرى (في جانب المعنى والدلالة) في انسجام الخطاب؟ وما هي آليات الاستدلال على ذلك؟
 - الجدلية القائمة بين التّظهير والتّطبيق، أو الهيكل/ الطّراز والتّجليّ.
- 9 ذلك أنّ تاريخ ظهور المصدر قد وُلد تساؤلاتٍ هي:
- هل يُقرأ المصدر قراءة آنيّة، أم أخرى زمنية؟ أم هي القراءة الجامعة من حيث إمكانية تطوّر الجنس! وإذا كان الأمر كذلك، فهل عامل الزّمان وحده كفيلاً بذلك؟
 - هل يعنّي تطوّر الجنس - إن وُجد - غياب انسجام الخطاب مع النّصّ، على أساس أنّ النّصّ ذاته لا يمثّل هاجس الكاتب ولا بعضاً من غاياته، وإنّما هناك شواغل أخرى وأهداف هي التي تتحكّم في نسيج النّصّ، وفي طبيعة العلاقات بين أبنيتها؟
 - إلّا ما يُمكن أن تُخصّي الدراسة المقارنة بين المصدرين أو المصادر المندرجة ضمن نفس «الجنس الأدبيّ»، إذا ما راعينا النّظرة التاريخيّة التّطوريّة؟ وهل الاستدلال على انسجام الخطاب السّرديّ هو جزء من بناء النّصّ، وعنه ينبثق؟ أم أنّ ذلك جزء من منهج في الدراسة والبحث؟

سياسي واجتماعي. وإذ طُبِعَتْ وتنبّه القارئون على الحُكْم إلى خطورتها وصلّتها بالوضع الذي كان قائماً، صادروا الكتاب حال ظهوره، ثم أعيد نشره.¹⁰

والتركيز في هذا البحث على الأقصوصة الحادية عشرة التي تحمل عنوان: «مصر المريضة»

نشرت هذه المجموعة في مجلة الكاتب المصري سنة 1948، ثم طُبِعَتْ في صيدا سنة 1949، وطُبِعَتْ في سلسلة اقرأ، طبعتها الشركة العربية سنة 1958.

* «النمور في اليوم العاشر»: مجموعة قصصية للكاتب السوري زكريا تامر (1931). تتكون من قصص قصيرة إما مفردة أو مجموعة في إطار أوسع منها لا تخرج عن مجال البناء الأقصوي بما فيه من خصوصيات في مفهوم عام شامل، أما التفاصيل ففيها نظرٌ استناداً إلى الحادثة والتجريب يتجلّيان في الرمز والإيحاء والإغراق في السخرية من الواقع مجتمعاً ودولة ومؤسّسات؛ سخرية قائمة على مجاز يصوغ الحقيقة كما يراها الكاتب وكما يريد سخطاً وإنكاراً.

والتركيز في هذا البحث هو على الأقصوصة الأولى التي تحمل عنوان «الأعداء»، وجاءت في ستّ وعشرين (26) قصة قصيرة جداً، إذ لا تتجاوز الواحدة منها الفقرتين؛ ولغة الخطاب فيها بقدر ما توهم بالسهولة في المعجم، فإنّها مُغرقة في الغموض من حيث الدلالة الناتجة عن التركيب في الصورة، كما في الطريقة السردية المتبعة.

و«النمور في اليوم العاشر» هي مجموعته القصصية الأولى، صدرت في طبعتها الأولى سنة 1978 عن دار الآداب - بيروت.

في الرواية:

* «دعاء الكروان»: رواية لطف حسين، تحكي واقعا استمدت أحداثه من الصعيد المصري بما فيه من أوضاع اجتماعية، وبما يحكمه من مرجعيات أخلاقية لم تكن هي الأصل والمنتهى بقدر التعبير عن خرقها والتمرد عليها،

10 اقرأ قصة هذا الكتاب، وقصة هذا الأدب «الرمزي» عامة في مقدمة طه حسين لكتاب: «المُعذَّبون في الأرض» (سلسلة الكتاب الفضي)، القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، 1958: 8 فما بعدها.

وانظر كذلك - في علاقة الكتاب وصاحبه بردود الأفعال وما كان يروج في مصر في نهاية الأربعينات -: الجميني، ا، 1993: 646 - 647.

وهو ما وُلد عُقدًا كثيرة في الأحداث والأفعال تقوم بها شخصيات مفردة وخاصة «أمنة»، لتعكس آثارها وتبعاتها على سائر الشخصيات، علاقات لا تعني التوافق بقدر ما تتضمن توترًا وصراعاتٍ عديدة وفي اتجاهات متباينة عبّرت عن مأساة الإنسان يبحث عن حقيقته فلا يفوز منها إلا بالسراب والصدى.

والعناية في هذا البحث، هي بالصفحة الأخيرة من الرواية، حسب الطبعة المعتمدة.

وقد فرغ طه حسين من كتابة هذه الرواية سنة 1934، وصدرت سنة 1941 عن دار المعارف المصرية، وأعيد طبعها عدة مرات عن نفس الدار.

وترجمت الرواية إلى الفرنسية، وصدرت أول نسخة منها سنة 1949 عن دار دينويل الفرنسية «Denoël»، والتي أصدرت طبعة ثانية من الرواية سنة 1989.

* «الوجوه البيضاء»: في هذه الرواية، يختار إلياس خوري (1948) نمط السرد اللّاحق، فالأحداث وقعت منذ قُبيل 1976 وهو تاريخ استشهاد أحمد خليل جابر عام 1980 أو مقتله بالضبط صبيحة يوم 13 نيسان، كما تؤكد ذلك التقارير الطبية. ولا شك أن السارد قد روى هذه الحكاية بعد هذا التاريخ، فهو يذكر أنه قرأ خبر مقتل الرجل في جريدة يومية أي يوم 14 نيسان 1980 ولكن، وهو يتحدث الآن، لسنا ندري متى روى هذه الحكاية لأنّ المقام السردّي ليس مؤرخًا، والأكد أنه لاحقٌ للأحداث التي وقعت. أمّا المقامات السردية الثانوية (شهادات شخصيات ذات علاقة بالقتل) فبعضها مؤرخ، من ذلك أن الزوجة روت حكايتها وشهادتها للسارد يوم 17 نيسان 1980 أي يوم دُفن القتل، فسردها لاحق؛ ولكن المسافة الزمنية التي تفصل بين الوقائع والسرد قصيرة إذا افترضنا أن الوقائع بدأت تحدث عام 1976، وأن الزمن الروائي يمتدّ على أربع سنوات نذكر أن السرد جاء مباشرة بعد انتهاء هذه الوقائع. أمّا بقية المقامات فهي غير مؤرخة وإذا كانت في الأصل مقامات «أمنية» باعتبار السرد فيها كان بمثابة شهادة تُقدّم إلى المُحقّق، فهي قريبة من الأحداث التي رُويت أي أنها لحقت مباشرة الواقعة. (الباردي، 2004 (ب): 105) والرواية عمومًا، هي شهادة على أهوال الحرب اللبنانية.

طُبعت ثلاث طبعات: الأولى: 1981، الثانية: 1986، الثالثة: 2003.

في السيرة الذاتية:

* «الأيام»: يروي كتاب «الأيام» في جزئه الأول طفولة طه حسين في القرية أي إلى حدود سنة 1902 تقريباً، في حين يروي الجزء الثاني حياة طه حسين في الأزهر أي إلى حدود سنة 1909 تقريباً، أما الجزء الثالث فيروي حياة طه حسين في الجامعة المصرية الأهلية وجامعة باريس وعودته إلى مصر ومباشرة التدريس في الجامعة إلى حدود سنة 1922. فحاصل الفترة التي كتب عنها طه حسين لا يتجاوز العقود الثلاثة إلا قليلاً، وهي مرحلة التكوين أساساً.

إنّ الجزأين الأولين من «الأيام» يحتويان على فترة كبيرة من حياته قبل دخوله إلى الجامعة المصرية قوامها تسعة عشر عاماً، وهي الفترة التي عرف فيها شيوخ الدين من الأزهر، وترك لنا فيهم رأيه بصراحة بعد أن عرّج على شيوخ الكتاتيب في القرية وشيوخ الطُّرق وما إلى ذلك من الشيوخ الذين كانوا حينئذٍ، معلّماً هاماً من معالم الحياة في مصر.

ويحتوي هذان الجزآن أيضاً على ثلاثة أعوام أو أربعة على وجه التقريب، بعد دخوله الجامعة، وهي فترة لم تنقطع فيها صلته تماماً برجال الدين وممثليه، وهي فترة لقائه بأساتذته من الغربيين ممّا يُتيح له فرص المغالاة عند عقد المقارنة.

ويمكن أن نُضيف إلى ذلك أنّ الجزء الأول كُتب في نهاية عام 1926، العام الذي لقي فيه طه حسين الأمرين من الأزهريين بسبب أزمة (الشعر الجاهلي)، ومن ثم، يُصوّر لنا بشكلٍ ما ردود فعل طه حسين في تجربة صاغها أو صاغته بشكلٍ جادٍ.

أما الجزء الثالث، الذي نُشر في عام 1955، فقد احتوى العديد من زوايا الرؤية بالنسبة إلى طه حسين بعد أن دَخَلَ مرحلة جديدة من حياته نضجت فيها أفكاره وتفتّحت آراؤه حول رجال الدين، وهو الذي قد عرّف التعليم الغربي وعاش الحياة الفكرية والسياسية زهاء ربع قرن فيما بعد. (عبد الغني، 1997: 451)

وقد صدر الجزء الأول من «الأيام» عن مطبعة أمين عبد الرحمان سنة 1929، وكان قد نُشر قبل ذلك، مسلسلاً بمجلة الهلال في تسع حلقات بداية من الجزء الثاني ديسمبر 1926 إلى الجزء الثاني جويلية 1927. وصدر الجزء الثاني عن دار المعارف سنة 1939. وصدر الجزء الثالث عن دار الآداب البيروتية سنة 1967 تحت عنوان «مذكرات طه حسين»؛ ونُشر ثانية

- عن نفس الدّار وتحت نفس العنوان - لكن في طبعة لم يُذكر تاريخها. ثم صدر عن دار المعارف بمصر سنة 1972 تحت عنوان «الأيّام، الجزء الثالث»، ولكنّه قد نُشر قبل ذلك مسلسلاً بمجلّة آخر ساعة (المصريّة) بداية من العدد 1066 - 30 مارس 1955 إلى العدد 1089 - 29 جوان 1955 (الجمني، 2001: 30).

* «الخبز الحافي»: من أشهر النّتاج الأدبيّ للكاتب المغربيّ محمّد شكري (1935 - 2003).

سيرة ذاتٍ أثارت العديد من الأسئلة الموضوعيّة والنّقديّة في علاقة الحياة بالواقع، وعلاقة الذات بكليهما، وبالعقل: ملكة تفكير وتأمّل، وقيّدًا حال دون نشر الكتاب ولكنّ إلى حينٍ عرف بعده انتشارًا كبيرًا واسعًا في البلاد العربيّة كما عرفه في بلاد الغرب.

وهي سيرةٌ تعكس عذابات الكاتب وشقاءه، وتنتشر أيضًا حياة البؤساء والمعذّبين المغاربة في واقعهم - في الفترة التي تحدّث عنها محمّد شكري ترجمة ذاتيّة وتاريخًا وحدّدها - واقع فقر وتهميش وهيمنة أجنبيّة.

ومن المفارقات اللافتة أن كتاب «الخبز الحافي»، الذي كُتب عام 1972، لم يُنشر بالعربيّة إلا عام 1982. وهو يشكّل الجزء الأول من سيرة الكاتب شكري الذاتية، إلى جانب «زمن الأخطاء» و«وجوه». وولد الكتاب بتحفيز من الكاتب الأميركي بول بولز الذي ترجمه إلى الإنكليزيّة سنة 1973، وكان يقيم، وقتها، في طنجة؛ فيما تكفل الطاهر بن جلون بترجمته إلى الفرنسيّة سنة 1982، وأثار عند صدوره ضجّة كبيرة، إلى درجة منعه في أغلب الدّول العربيّة، بسبب جراته غير المألوفة.

وفيما أخذ الكتابُ في النسخة العربيّة «الخبز الحافي» عنوانًا، ونفس المعنى في الفرنسيّة، فقد أخذ في النسخة الإنكليزية عنوان «من أجل الخبز وحده». تُرجم الكتابُ إلى 38 لغة أجنبيّة.

- مقاييس البحث

اختيارنا لهذه المدونة يدور في فلك توجّهاتٍ ثلاثة:

1 - دراسة نصّ بعينه قد يكون جزءًا من أثر، أو أثرًا في كليّته بما قد يفتح عليه من خصوصيات ومميّزات؛

2 - الاهتمام بجنس أدبي واحد من خلال أثرين لتبيين ثنائية السُّنة والغُدول، والعوامل المُكرِّسة لها، أو المُعَيِّبة لها؛

3 - المقارنة بين النصوص والخطابات في هياكلها وصيغها التجريدية للاستدلال على تجليات الانسجام بينها: المظاهر والحدود؛ العوائق والمبررات؛ ثم، هل البنية العليا مفهوم مجرد مطلق، أم هو رهين شروط وظروف تعقد علاقة تلازم بين الإجرائي والتجريدي، فلا يتم تبين أحدهما إلا من خلال الآخر؟

الهدف إرجاعها جميعاً إلى نظرية واحدة وهي تحليل الخطاب أو نحو النص أو بلاغته،¹¹ ويقوم المنهج على عددٍ من الوسائل والآليات والنظم العلمية المعرفية. وقراءة المدونة ليست بمعزل عن مكوناتها اللغوية، ولا عن مجالاتها الاجتماعية، ولا عن أبعادها الزمانية: «أنا» وأنتا في الإنتاج والقراءة.

الإشكالية التي تُطرح هل أن المدونة المنتقاة كفيلة بالإجابة عن التساؤلات العديدة المطروحة؟

مبدئياً الإجابة لا نسعى إليها في المطلق، لأن في ذلك ضرباً من العبث، لكن في إطار موضوع البحث وخصوصياته صلة خطاب سردي بالانسجام من زاوية الاستدلال عليها على ضوء مختلف الأبنية: خصائص ووظائف وعلاقات في إطار نظرية تحليل الخطاب.

ثم، إننا وفي جانب إجرائي دائماً، نروم تحقيق الأهداف موزعة على النصوص المختارة وتوزيعها ليس قسراً، لكن بطريقة انسيابية يعكسها النص محور الاهتمام ذاته، فتكون الدراسة سعياً إلى الخطوط المرسومة فيه والتي تميزه إلى أقصى حدٍ ممكن.

وهنا تُطرح إشكالية ثالثة: هل يمكن أن توافق آليات الاستدلال منهجاً، محتوى النص أو النصوص في بُعد تحليلي: لساني - تداولي؟

وبطبيعة الحال لن يكون الاستدلال بمعزل عن خصوصيات أي نص في لغته وفي جنسه، وكلاهما يعكس - على الأقل مبدئياً - أنظمتها وأنساقها، إن اختيارنا لنصوص المدونة كان على أساس حدود مبدئية مشتركة بينها تعكس

11 نقصد بالعبارات الثلاث معنيين يفتقران لكتهما لا ينفصلان، أولهما الترادف علاقة الكل بالكل؛ وثانيهما التدرج من الإطار العام إلى الأجزاء التي يحتويها، أو في علاقة المنهج بالمرجعيات التي تشبهه وتمثل محتواه.

التشابه في الجنس - وإن بصفة إجمالية - لأنّ البحث لن يخلو من إيجاد تمايز في الأشكال وفي المعاني، وفي آليات الإنتاج والقراءة. والغاية هي الانتهاء إلى المنوال والطراز الذي سيكون العقد - على امتداد الزمان - الجامع بين متعدّد المُنتَج النَّصِّي، وأيضًا العقد في مختلف السياقات السوسيو - ثقافية في القراءة والاستقراء.

5. تنظيم العمل

نتناول نظريّة «تحليل الخطاب» في علاقتها بالاستدلال صيغةً في الإنجاز، وطريقةً في العرّض والتّبويب ومنهجًا وغايةً في إبراز انسجام الخطاب عامّةً، والسّرديّ منه خاصّةً؛ انسجام يتحقّق في المعنى ولا يتمّ إلّا من خلال اتّساق الأبنية في جزئياتها وتفصيلها، كما في شبكات علاقاتها الأفقيّة منها والعموديّة. والبحث في جنس الخطاب والاستدلال على انسجام مقوماته لا يتمّ فقط، بالنظر في الأساليب اللفظيّة، لكن أيضًا، في أشكال التّلَفْظ وأوضاعه، كما في علاقة الصّنف الأجناسيّ بالموضوع الذي يطرحه ويحتويه.

إذن، يتعلّق البحث بما به يكون الخطاب خطابًا وسرديًّا بالتّحديد؛ وكيف يمكن أن يعكس جوهر الجنس وميثاقه، ولأيّ هدفٍ؟ وليست الغاية تعريفًا بقدر ما تمثّل طرحًا إشكاليًّا يؤسّس للنظريّة ويثبتها من خلال الإجراء، سلطة نصّ تتجلى لغة وتتبلور في الواقع الاجتماعيّ، وتعكس مرحلة من مراحل التّاريخ الأدبيّ والثّقافي عبر الأسئلة المعرفيّة.

هو تحليل الخطاب من وجهة نظر سرديّة، بحثًا في نصوص نماذج باعتبارها مسارات وأحداثًا؛ وأنّ نربط منهجيًّا ومضمونيًّا ونظريًّا، بين النصّ والخطاب، فهذا يعني أنّ التّحليل سيكون بمعنى واسع ومن وجوه متعدّدة: لسانيّ، دلاليّ وتداوليّ، وربما أيضًا فلسفيّ ونفسيّ.

إنّ العلاقة بين تحليل الخطاب والاستدلال هي علاقة تلازم على أساس أنّ ثانيهما هو عنصر من العناصر التي تُكوّن الخطاب؛ ولا يمكن اعتبار الاستدلال جُكرًا على مجالٍ معرفيّ دون سواه أو بسياق مخصوص لعلّه في الغالب الأعمّ الحجاج، ولكنّ الاستدلال يتفاعل مع كلّ النّزعات النّظريّة والتّوجّهات الفكرية أو الأدبيّة، والقيود الاجتماعيّة كما المؤسّساتيّة التي تغيّر أنماط الخطاب. والاستدلال أيضًا، هو جزء من البلاغة ومقوم من مقومات الخطاب تتصلّ بفعل التّلَفْظ والتّواصل، البلاغة بمفهوميّ البيان والتّبيين بما

يستدعيانه من مسارات فهم أو إفهام، وحجاج وإقناع وفق ثنائية الصريح والضمني، والذاتي والموضوعي في انعكاسهما على تشكيل الخطاب: في لغته، وفي معاني ألفاظه إذ تتكوّن في سلاسل منطقية محكومة بالمعجم، وبالصيغة، وبالتركيب، وهذا يعني أنّ الاستدلال ينعكس في متن الخطاب بنيةً، ومنهجًا وشبكةً تنسج المعنى في اللفظ.

وتُترجمُ العلاقة بين تحليل الخطاب والاستدلال من خلال الجانب الإجرائي: في التحليل، وفي النقد والتقويم، وهو ما يفضي إلى نتائج عديدة مختلفة متباينة، وإن يكن المنهج واحدًا، لأنّ الظرف متغيّر متبدّل، وطبيعة القراءة ذاتها ليست هي نفسها من طرف إلى آخر. وإن تكن النظرية قد تكونت وتبلورت، فإننا سنهتم بتحليل الخطاب على ضوء ما يعكسه النصّ المُجزئ من منهج أو مناهج قد تتقاطع فيها نظريات لسانية متعدّدة: شكلائية¹²، ووظيفية،

12 - الشكلائية: هي مقارنة نظرية تعتبر اللغة نظامًا من الأشكال أكثر منها مادة مجردة أو محتوى. وقد أحدثت ثورة في مجال النقد الأدبي من خلال إعطاء إطار ونهج مُبتكرين. وأوّل انتشار لهذه المقاربة كان بين سنتي 1914 و 1936 من قبل مجموعة من الشكلائين الروس بقيادة رومان جاكسون (JAKOBSON Roman). وللشكلائين الروس تأثير كبير على السيميائية واللسانيات في القرن العشرين، ولا سيما من خلال البنيوية.

- الوظيفية: مصطلح يُشير إلى مدرسة فكرية دعت إليها مجموعة من علماء اللغة الذين ساروا على نهج دي سوسير (SAUSSURE De). وتُركّز هذه المدرسة على مفهوم وظيفة اللغة التواصلية لمحاولة إيجاد آثار «الاختيار» المختلفة الصريحة في البيانات التي يقدّمها المتكلّم.

واللغوي الأكثر شهرة بالنسبة إلى هذا التيار هو أندري مارتنّي (André MARTINET) الذي ساعد من خلال كتابه «عناصر اللسانيات العامة» «Eléments de Linguistique Générale» في نشر الأفكار الوظيفية. ويُمثّل التّركيز على «وظيفة الاتّصال» في اللغة الأساس، إذ تُحدّد الوظيفة كما طبيعة العناصر التي تلعب دورًا في التّواصل.

- اللسانيات المعرفية: أو ما اقترن به «المنعرج المعرفي» منذ 1956 في الولايات المتّحدة الأمريكية، باجتماع ممثلي تخصصات معرفية مختلفة حول مشروع ابستمولوجي مُشترِك عُرف باسم «البرنامج المعرفي»؛ وهؤلاء هم: اللساني نولم تشومسكي (Noam CHOMSKY)، وعالم النفس ألبري سيمون (Albert SIMON)، والأخصائي في الذكاء الاصطناعي مارفان مينسكي (Marvin MINSKY)، وكانوا يهدفون إلى وصف اشتغال الفكر والعقل عبر القدرات التي يطوّرانها، وخاصة ملكة اللغة.

ويحاول هذا النهج المعرفي وصف القواعد المُتَحَكِّمة في الهيكل والتّظيم، إذ يُفترض أنّ تنظيم المعارف هرميًا يتم على مستوى البنية المعرفية في علاقتها بالموضوع، البنية في المرجعيات المعرفية المتعدّدة: المعجم، والنحو، والصّرف، والبلاغة وخاصة ما يقوم على الاستعارة ولغة الإشارة والإيماء.

ومعرفية. وأن نربط بين تحليل الخطاب والتداولية، فذلك لا ينفصل عن منهج البحث العام الذي يقوم على قسمين: نظري، وآخر تطبيقي، فتحليل الخطاب ينطلق من أسس نظرية قد تكون لبعضها علاقات بالطريقة الفلسفية التداولية إذ تتصل بما هو «حقيقي» وله نتائج واقعية في العالم، والمنهجي في تحليل الخطاب هو مزيج من قواعد كبرى تمثل أصول النظريات، ولكنها في المرجعيات هي «واقعية» (بين سياسي، واجتماعي، واقتصادي، وفكري، وإيديولوجي)، وإن كان إطارها الجامع لغوي أدبي نقدي لا يبحث في الثوابت، بقدر تتبّع المتغيرات بما أنها هي التي تمثل العلامات المميزة في تطوّر تاريخ العلوم والآداب، وتمثّل مفاصل المراحل فيها.

ورغم أن أصول النظريات التي اعتمدنا هي غربية بالأساس، فهذا لا ينفي انعدام الأسس العربية بين قديمة وأخرى حديثة¹³، ليست في قطيعة مع الغربية، وإنما هي حلقات متتابعة متواصلة، تختلف في مناهج البحث وصيغ التناول. والمهم بالنسبة إلى مختلف النظريات ليس الجانب المعرفي المحدود المقصود لذاته، وإنما فيما تولّده من ردود أفعال ونتائج في جدل قائم دائم على مستويي الفكر والتجربة. ومهما يكن المدخل الخاص الذي نتخذه في تحليل

وكانت فرضية هذا المشروع التأسيسي هي الإدراك البشري والمعرفة الإنسانية بصفة عامة. ولمزيد التوسّع انظر: «الفصل الأول: المدارس اللغوية المعاصرة» من كتاب إبراهيم خليل: «في اللسانيات ونحو النص»، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان - الأردن، ط. 1، 2007.

+ WAHL François : Qu'est – ce le structuralisme ? 5. Philosophie La philosophie entre l'avant l'après du structuralisme, Editions du Seuil, 1968 ;

+ LEPSCHY Giulio C. : La linguistique structurale, petite bibliothèque payot, Paris, 1976 [Traduit de l'italien par Louis – Jean CALVET, est paru en première édition française dans la collection « Etudes et Documents Payot »]

+ DELBEQUE Nicole : **Linguistique cognitive** Comprendre comment fonctionne le langage, Collection : **Champs linguistiques**, de boeck. Duculot, Bruxelles, 2006, 2^{ème} éd. ;

+ PAVEAU Marie – Anne & SARFATI George – Elia : **Les grandes théories de la linguistique** De la grammaire comparée à la pragmatique, ARMAND COLIN, 2003, 1^{ère} éd.

13 تُبرزها قائمة المصادر والمراجع المعتمدة عامةً، وتتجلى خصوصياتها ومحتوياتها فيما نُشر تحليلًا ونقدًا في النصوص في القسم التطبيقي.

أي نصّ، فالغاية المشتركة بين النصوص جميعاً هي البحث في التماسك والانسجام بما يؤدي إلى بنيته الكلية، وإلى علاقة النصّ بالخطاب.

إنّ النظريّ يتّجه نحو الشمول والتعميم وإعطاء الأنموذج، في حين أنّ النصّ لا يستدلّ إلاّ على جانب أو جوانب محدّدة تتعلّق بالنصّ السرديّ في تجلّيات متعدّدة، وربّما مختلفة، أريد تناولها إجرائيّاً، فتكون المقارنة بينها سبيلاً إلى الانتهاء إلى جملة من النتائج في مستويات هي: في علاقة النصّ بالنصّ؛ وفي علاقة النصّ بالجنس؛ وفي علاقة الجنس بالجنس؛ وكلّها تنشأ من خلال تحليل أنسجة النصّ والبحث فيها وعبرها، عن الثابت والمتحوّل، بما يساعد على تبين علاقة التّظهير بالإجراء، أو العكس، ويتحقّق ذلك من خلال البحث في:

- عناصر الحياة والوجود والكون، وطبيعة العلاقات بينها، وهو ما يفتح المجال في تحليل الخطاب على المضمون أو المعنى أو البنية الكبرى؛

- العلاقة أو العلاقات بين الباثّ ونصّه، وبينهما والمتلقّين: في المقول وفي المسكوت عنه من النصّ سواء اتّعلّق الأمر بالبنية الشكلية أم بالبنية الموضوعية، أم بصلة إحداها بالأخرى، بحثاً في الدّراسة عن مستويات التّبيير والمحور الكلاميّ الذي يُمثّل العناصر «الفعلية» في بنية النصّ، إذ تمثّل قاعدته وتفتح الأفق على مختلف تفرّعاته؛

- تحليل النصّ من حيث تنظيمه التكوينيّ ومن حيث تعدّد الأصوات فيه وتبيّن وظائف عناصره السردية المنفتحة على الجنس الأدبيّ؛

- الأجناس ذاتها وعلاقاتها بالأنواع الأدبية المندرجة ضمنها، كما في صلاتها بأنماط الكتابة جدلاً بين الأسلوب والنوع إطاراً عامّاً للنصّ وهو ما يتعلّق بـ «شعرية السرد»¹⁴؛

14 استناداً إلى كتاب «الشعرية» لتزفيطان طودوروف، يمكن أن نعتبرها مرادفة لنظرية الأدب بمفهوم يقترن بما به يكون الخطاب أدبيّاً. والأدبية هنا ليس فقط بالمعنى المرجعيّ، ولكن بالاستناد إلى الألفاظ في علاقتها باللغة والبلاغة والتداول والنقد أساسه علم الأدب ولكنه ليس المنتهى فيه، واقتراً بالزمان دون البقاء في إطار التاريخ - إلاّ باعتبار «الشعرية» مرحلة في النقد البنيويّ وتطوّر تصوراته ومصطلحاته ومداخل الدرس فيه، وسردية الخطاب الأدبيّ هي جزء من هذه المداخل -

ومن باب الإجمال لا الحصر، نشير إلى ما بيّنه أمين عثمان إذ يقول: «الشعرية لا تتشّدّ تحديد المعنى في النصّ الأدبيّ، بل تتشّدّ نحت جمالية مخصصة تُمتح من العمل الأدبيّ بوصفه كلفة ممتدة أثراً لتشكل بنية معينة. فهي بنيات شاهدة على انتظام أنظمة علائقية بين جزئيات العمل الأدبيّ، تلك التي تُقيض أفقا للتلقّي الإبداعيّ بتسليط النظر في مدارات

- علاقة النصّ بالسياق باعتباره الوضع المحسوس الذي يذاع فيه الخطاب؛ وهو يجمع كلّ المقاييس: المكان، والزّمان، ونوع العلاقات وتعريفها، العلاقات التي تجمع طرفي الخطاب أو أطرافه، وفي كلمة السياق هو كلّ ما نحتاجه من معرفة لفهم الخطاب وتقييمه، فيكون موضوع التّداوليّة هو دراسة العلاقات العامّة بين اللفظ والمفوض، بين الجمل وسياقات إنتاجها. إنّ السياق يجمع الأشخاص الموجودين في العالم الواقع؛ إنّ التعريف بالمتخاطبين، وبمحيطهم الماديّ والاجتماعيّ، وبالمكان والزّمان اللّذين تدور فيهما الوقائع وتُتناول المواضيع، كما بمقام القول انفتاحاً على مختلف الوضعيّات التي تصلّ النصّ بأطر التلقّي، ودور المُخاطب في إمكانيّة صياغة خطاب آخر مُجانس، أو مخالف للنصّ «الأصل»؟

- مدى القول بنزعة انتقائيّة في اتّخاذ النصوص نماذج للتعرّف إلى القواعد العامّة التي تُسيج النصّ وتؤسّس الخطاب بنيةً عليا: فإمّا أن تكون منغلقةً على ذاتها، أو منفتحة على غيرها، بما يوفّر تعدّداً في الإنتاج وفي مساراته؛ - تعدّد طرق الإنتاج والإنشاء (خاصّة بغلبة صبغة دون أخرى على النصّ)، وما يُنتجه من ثراء في الكتابة والتّواصل، كما في النقد والتّظهير.

ولتبيّن مختلف هذه الجوانب، اتّبعنا التّخطيط التّالي:

جعلنا البحث في قسمين كبيرين أولهما **تنظيريّ** يتوزّع إلى ستّة فصول:

اهتمنا في **الفصل الأوّل بالانسجام** في مفهومه ومداه في المظاهر والتّجاليّات، وفي العلامات اللّغويّة الدّالة عليه تبدأ من الجملة وتمرّ عبر المتتاليات لتستقرّ في النصّ بين الجنس والصّورة التّمثليّة تُخترّل في المقولات قد يظهر بعضها لفظاً، وقد يكون بعضها الآخر في متن النصّ معنى ودلالةً، وهو ما يبرّر التّعدّد والتّنوع في القرائن الدّالة على الاتّساق، والروابط الضّامنة لتماسك النصّ وتبيّر سرديّته تتوزّع بين مرجعيّات مختلفة وتؤول إلى الانسجام مع مفهوم النصّ الإجماليّ في علاقته بالنّظريّة الأجناسيّة.

الوصف، وخصائص الحوار وتمظهرات السرد. وهي كلّها مكوّنات تتوزّع على مستويات جزئيّة، إذ يمكن أن ننتبه إلى المستوى الدّلاليّ فلا يسعنا إلا أن نولّي وجوهاً شطر التّيمة المرجعيّة أو الحرفيّة أو الماديّة، والمستوى اللفظيّ حيث تحضر المقولات التّناسيّة والواقعيّة والتّجريديّة والبلاغيّة وأخيراً المستوى التركيبيّ حيث المقولات المنطقيّة والزّمنيّة والمكانيّة». (عثمان، 2012: 138)

واهتمنا في **الفصل الثاني بالاستدلال** تعريفًا به وتعرّفًا إليه في طُرُقهِ ومناهجهِ، وفي علاقته بالاتّساق والانسجام، ثمّ في الفروق التي يمكن أن تنشأ ارتباطًا بالمداخل التي يُتَّخَذُ فيها الاستدلال شكل نصّ، ومحتوى بنية ودلالة، وغاية جنس ونظريّة لسانية.

واهتمنا في **الفصل الثالث بالاستدلال على انسجام الخطاب السردّي من خلال الأبنية الصّغرى** بتعريفها، وتبيّن أنساق التّرابط بينها وكيفياتها، ثمّ علاقة هذه الأبنية بالمفاهيم الكلّيّة المتعلّقة بالنّصّ وبالخطاب نسيجًا وهيكلةً.

واهتمنا في **الفصل الرابع بالاستدلال على انسجام الخطاب السردّي من خلال الأبنية الكبرى**، وما حفّ بها من إشكاليات في الحدّ والتّجليات، والبحث في صيغ انسجامها على المستويين الجزئيّ والكلّي من النّصّ ومختلف القواعد التي تسيج الأنظمة والأنساق في علاقة اللفظ بالمعنى والبنية بالموضوع في إطار كليّ هو مجال النّظر في سرديّة النّصّ وأجناسيّة الخطاب.

واهتمنا في **الفصل الخامس بالاستدلال على انسجام الخطاب السردّي من خلال الأبنية العليا** بتعريفها، وبيان التّشابه أو الاختلاف فيها بين الأصليّ والفرعيّ، والمعايير المُعتمَدة في هذه المقارنات، والنّظر فيها باعتبارها جزءًا من سرديّة الخطاب في المقوّمات والتّجليات، وفي الخصوصيات والتّحوّلات من حيث علاقة اللفظ بالمرجع.

واهتمنا في **الفصل السادس والأخير من هذا القسم التّنظيريّ بتجليات الاشتراك والانسجام بين مختلف الأبنية**: المدى والحدود في الاتّساق والانسجام، وفي المعنى الجزئيّ والكلّيّ، وفي علاقة الإجراء بالتّنظير، خلفياتها وأبعادها.

وجعلنا القسم الثاني والأخير من البحث **تطبيقيًا** يقوم على تناول ستّة نماذج نصّيّة تتوزّع على ثلاثة أجناس أدبيّة هي: الأقصوصة، والرواية، والسّيرة الدّاتيّة، بمعدّل نصّين عن كلّ جنس لأهداف بيّنا بعضها في التّعريف إلى مدوّنّة البحث، ونوضّح بعضها الآخر في هذا السّياق، لتكون الجزئيات والتّفاصيل والبيانات النّهائيّة في متن القسم الثاني كاملاً الذي ورّعناه إلى ثلاثة فصول يحتوي كلّ منها على نصّين يمثلان أحد الأجناس الأدبيّة الثلاثة المذكورة، وبيانها على النّحو التّالي:

اهتمنا في مستوى أوّل بأقصوصة: «مصر المريضة» بالبحث في أبرز مقوّم

بنيويّ يستجّها وهو ثنائيّة النّشر والجمع، باعتبارها تحقّق انسجام الخطاب السّرديّ في هذه الأقصوصة؛ وسعيّنا إلى إبرازها من خلال:

- الأبنية: أنواعها، المفهوم والتّجليّ، وطبيعة العلاقات بينها في إطار في إطار نسيج النّص الإجماليّ؛

- الأبنية وتوزّعها بين المرجع والصّيغة الفنّيّة، وبين الجنس الأدبيّ والقاعدة اللّسانية، وبين المُنْجَج النّصّي والقراءة النّقديّة: المقول والمُنْتَظَر؛

- الجنس الأدبيّ وسرديّة الخطاب: المقولة والمنوال والتّمثّل التّجريديّ: بين حدود النّص وانفتاح الطّراز.

واهتمّنا في مستوى ثانٍ بأقصوصة «الأعداء» بالبحث في انسجام الخطاب الأقصوصيّ من خلال تفاعل المرجعيّتين النّحويّة والبلاغيّة، تشكيلاً للملفوظ، وإيحاءاً بالمعنى، وسكوتاً عن الدّلالة؛ وسعيّنا إلى إبراز هذه الخصوصيات من خلال:

- البناء والتّوزيع والعلامات الدّلاليّة في اللّغة والمعنى؛

- خطاب الحديث ومسار الحادثة في الرّؤية والقراءة والتّأويل: المرجع القديم والمحتوى المعاصر انفتاحاً على اللامحدود من الزّمان.

واهتمّنا في مستوى ثالث برواية «دعاء الكروان» بالبحث في خصائص نسيج النّص وضمّاناته في التّركيب والمعنى والجنس؛ وسعيّنا إلى إبراز ذلك من خلال:

- مختلف التّفريعات التي يتوزّع وفقها النّص ارتباطاً بنسيجه، وبنسجه الأدبيّ؛

- اتّجاهات الخطاب ومدى أثرها في توجيه قراءة النّص وإعادة إنتاجه؛

- الاستدلال: هل هو منهج يعقل الخطاب، أم نسق يحزّر السّرد؟

واهتمّنا في مستوى رابع برواية «الوجوه البيضاء» بالبحث في انسجام الخطاب وتجليّاته في البناء والأصداء: بين الأصول في المرجع والفروع في الصّورة، وفي الجنس الأدبيّ: بين السّنة والعُدول؛ وسعيّنا إلى إبراز ذلك من خلال:

- العتبات والتّناصّ جزء من سرديّة الخطاب وانشجابه؛

- الأبنية: حدودها، وتفريعاتها وأصدائها؛

- لغة الخطاب: الوضوح في اللفظ والغموض في المعنى، والأثر في انسجام الأبنية وتعالقها؛

- المعاجم: المعنى ومعنى المعنى جزء من سردية النص وأجناسية الخطاب الروائي؛

- الأبنية العليا: الأصل والفرع، والانسجام والتشظي: الأسباب والمبررات؛
- المقومات السردية: بين السنة والعدول، وبين صياغة الخطاب ورؤية النقد في الواقع والجنس الأدبي.

واهتمنا في مستوى خامس بالفصل العشرين من «الأيام» في جزئها الثالث - وهو الفصل الأخير منها - والموسوم بـ «إيمان بالثورة»، بالبحث في حدود البنية وتجلياتها في الضمير والزمن: قيود الميثاق الأجناسي أو تحرر الفكر النقدي؛ وسعينا إلى إبراز ذلك من خلال:

- عن أي أبنية يمكن أن نتحدث في سيرة الذات عند طه حسين؟
- قرائن الاتساق من خلال الزمن: هل هي أصل في البناء، أو هي من أدوات تحقيق انسجام الذات مع الموضوع واندراجها فيه؟

- مفهوم سيرة الحياة عند طه حسين: الاختيارات وما يحكمها من المرجعيات والخلفيات والدوافع؛

- السيرة الذاتية: بين الحضور والغياب؛ والمقولات الأجناسية بين المحور والهامش.

واهتمنا في مستوى سادس وأخير بسيرة الذات كما عبّر محمد شكري في جزء أول منها وسمه بـ «الخبز الحافي» بالبحث في ما جاء من اختلاف في المرجع، وتنوع في الجنس الأدبي، وآثارهما في تحقيق انسجام الخطاب وتحوله؛ وسعينا إلى إبراز ذلك من خلال:

- الشخصية/ الذات المفردة/ «الأنا»: بين أن تكون جزءاً من مقومات سردية، ومن مقولات أجناسية، وبين أن تغرق في لغة المجتمع وهوامشه؛

- نسيج النص: اختيارات البناء وإفرازات المرجع وتداخلات الفكر؛

- إشكالات الجنس الأدبي: أسبابها، تجلياتها، ونتائجها.

6. تحديد موضوع البحث والحاجة إلى تناوله

تقوم المقاربة النظرية على عددٍ من المُسلّمات والتّصوُّرات والطُّرق التي يمكن تمثّلها وإجرائها. مقارنة نظرية نسعى من خلالها إلى إبراز التماسك والانسجام في الخطاب السردّي حسب المدوِّنة التي التزمنا بها؛ فإذا أردنا القسم النظريّ على الإجمال والتّعميم، فإنّ القسم الإجرائيّ سيكون على التّفصيل والتّخصيص توضيحاً للمسألة من زوايا نظر مختلفة دون الخروج عن إطار الدّلالة ونظرية الخطاب القائمة على تتبّع الأنواع والأجناس أنياً وزمانياً، تجاوراً في البحث، للكلمة بلوغاً إلى النّصّ وعنايةً به استناداً إلى علم الدّلالة الموحّد والمُنْتَشِر في المدوِّنة.

وخصوصيات هذا البحث ودوافعه هي:

- اتّخاذ اللّغة صيغةً في الخطاب والنّقد، واعتماد الأدب موضوعاً لهما، والاستناد إلى الجدل والمنطق سبيلاً لتبيّن الانسجام في النّصّ والخطاب: الحدّ والمدى، والاستدلال عليه في سياقاته، وفي مقامات قراءته وتأويله. منهج في البحث يقوم على ثنائية الإجمال والتّفصيل، أمّا الإجمال فيوازي البنية العليا من نسيج النّصّ، وأمّا التّفصيل فيوازي نوعيّ البنيتين: الصّغرى والكبرى إمّا في الأحاديّة وإمّا في التّوزّع والانتشار حسب ثنائية المحور (أو النّواة) والأشعة المُنْبَعِثَة منه؛

- النّظر في أشكال هذه الأشعة وفي أبعادها من حيث القصد المُقْتَرَن بصاحب النّصّ، ومن حيث الأثر الذي يتركه في النّصّ كما في مُتلقّيه؛ فتتضاف بناءً على ذلك، إلى العلاقات الشّبكيّة التي تُقيم النّصّ شبكاتٍ أخرى تتأطرها ولا تنصهر فيها، لأنّ الأولى مجالها الأنظمة اللّغويّة، والثّانية عمادها الأنساق المنطقيّة التي لا تكون البلاغة - بالمفهوم المعجميّ - إلّا طريقة للتأليف بين الأصناف التي تحدّدها المسارات البنيويّة، وبين الآثار المعنويّة من ناحية، المعرفيّة من ناحية أخرى؛

- قد تغلب بنية صغرى على نصّ ما فتجتمع مع وظيفتها الشّكليّة وظيفه دلاليّة تكون في خدمة رؤية للكاتب مخصوصة عن العالم المحيط به، والذي يُصوّر منه جوانب منتقاة. هذه الخاصيّة في البنية الدّلاليّة تعكس رغبة في الكشف عن حدود الدّائرة بالنّسبة إلى الباث، وعن مساحتها بالنّسبة إلى المُتلقّي، وأين موقع النّصّ من كليّتهما؛ مسارٌ ينطلق من الملفوظ في مختلف

مكوناته ليبلغ الكل النصّي استنادًا إلى مبادئ في التنظيم عامة هي ضمانات تماسك النصّ وانسجامه؛

- نسعى إلى تبين العلاقة بين الجنس الأدبي ومقولاته، وبين تجلّيه في اللفظ والمعنى أيضًا، ومدى انسجام الخطاب والنصّ: في الملفوظ وفي الأصداء تعبيرًا عن العالم، ونفادًا فيه لا باعتباره موجودًا، ولكن في إمكانيات وجوده خارج النصّ: في التّصور، إمّا نقصًا أو استثناءً، أو تطويرًا خاصّة في علاقة النصّ بالجنس أو العكس من حيث: انسجام النصّ؛ والعقد بين الباث المتلقّي - حتى وإن كان عقدًا افتراضيًا -؛ ومقولات الخطاب؛ وجنس الخطاب أو الطراز: المفهوم، والصيغة، والنتائج؛ والسردية بين الأدب والعلم.

وأن يغلب نوع أو جنس في فترة زمنية ما، أو أن تكون خصائصه مُعيّنة قد يتمّ تجاوزها في فترات لاحقة، فهذا لا يعني القول بشذوذ ذلك النوع أو الجنس، وإنما هي الدراسة المقارنة التي تبحث في تاريخ الأدب وتحديد خصائص الأجناس بالقياس إلى الفترات التي سبقت ظهورها أو لحقتها.

إنّ الحاجة إلى هذا البحث هي في بيان:

* امتزاج اللسانيّ، بالأدبيّ، بالمنطقيّ والكشف عنه من خلال منهج أو مناهج إنتاج النصّ وصياغة الخطاب، وقراءة كليهما في ضوء النقد التحليليّ والبرهان الرياضيّ؛

* الزّمان قرينة لا يُمكن نفيها أو تجاوزها في إنشاء النّصوص، كما في تطوّر المبادئ والنظريات البلاغية قديمًا وحديثًا، لكن، ما نريد الإجابة عنه وتقديم الإضافة فيه هو: هل سيقصر دور الزّمان في تحديد مختلف مراحل النّشوء والتّطور فيما وُضع من مصنّفات في اللّغة والأدب، أم أنّ اعتماد المنهج الاستدلاليّ في كليهما سيكشف عن نتائج قد لا توافق بالضرورة، السيّورة الزّمانية في خطيّتها، بل في مقدّماتها وفيما اتّفق عليه من أسس ووجهات نظر قد تشهد الهالة التي أحيطت بها بعض الأقول إذا ما وُجد من الأسباب والمُبررات ما يُقنع بذلك!؟

* من الإشكاليات التي طرّحت علاقة الأسلوب بصاحبه، وأيّهما يحدّد الآخر ويكون العلامة الدّالة عليه. مسألة شغلّت الفكر، فأردنا أن ننتهي فيها إلى ما يُبدّد أقصى ما يمكن من الشّكوك دون إصدار حُكم، أو اتباع نزعة انتقائيّة أو تبريريّة مُسبّقة؛ وربّما الانطلاق من النصّ - أي نصّ - ومحاولة

دراسته بمعزلٍ عن صاحبه أن يكون ذلك عتبة البحث الأولى؛ فإما أن يسير الأمر عاديًا، أو أن نجد أنفسنا بصفة آليّة، رابطتين بين النصّ - بكلّ خصائصه الأسلوبية والبنوية - وبين من أنشأه؛

* ولدت المسألة الثالثة نقطة استفهام أخرى، وهي في علاقة النصّ بالمقام، أو بالسّياق والمرجع!

إنّ مثل هذه المداخل التّداوليّة تجعل النصّ لا فقط قرين صاحبه، بل هو مرتبط أيضًا بقرائه، بما يجعل النصّ نصوصًا مع إعادة الإنتاج والتّأويل؛ وقد لا يجعل الطّراز أيضًا متمحّضًا لمقولاته، فإذا هو التّهافُ فيما ساد وانتشر، وإذا هو الإيذان لا بالإضافة والتّطوير، بل بإعادة البناء والتّأسيس!

* في نظرية فان ديك حول علم النصّ هناك تركيزٌ على تعدّد الأبنية وتوّعها واختلافها في وجوه - والمقصود بالأبنية: الصّغرى، والكبرى، والعليا - وهي أبنيةٌ مؤتلفة أيضًا متكاملة تمثّل النصّ الجامع على مستوى الشّكل والبناء، والمعنى والدّلالة، والتّماسك والانسجام؛ فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى النصّ، فلعّله هو ذاته بالنسبة إلى الخطاب، فتحدّث بناءً على ذلك، عن خطاب جامع ليس فقط من حيث تعدّد الأنماط والأنواع، بل الأجناس كذلك؛ ولعلّه أيضًا الخطاب الجامع لمرجعيات موضوعيّة ومعرفيّة قد لا تأتلف إلّا في إطار رؤية مخصوصة لنسج النصّ ولتصوّر الطّراز الذي لا يُمثّل المقولات، بل المقولات هي التي تُنشئ ملامحه كما مفهومه، فيكون الانتشار على النّحو التّالي: نصّ ← نصوص ← خطاب ← خطابات ← طراز → مقولات ≠ مقولات → طراز جامع لمناويل متعدّدة متجانسة متماسكة؛

* الاستدلال على انسجام الخطاب السّرديّ، هل يكون باعتماد الجزء الممثّل للكلّ، أم لا يمكن الانتهاء إلى تبيين العلاقات النّاطمة بين الأبنية إلّا عبر الكلّ النّصّي؟

وهل من الضّروريّ إيجاد انسجام في النصّ؟ ثمّ من يحدّد هذا المفهوم، ووفق أيّ معايير؟

* الحاجة إلى الكتابة والنّقد: هل هي فنّية إنشائيّة، أم إيديولوجيّة تداوليّة؟ وإيضاح ذلك هل يتمّ من خلال النصّ وعبره، أم من خلال العالم الخارجيّ، واستنادًا إلى الأطر الحافّة به؟

* في الغالب الأعمّ، هناك ميلٌ في البحوث والدراسات إلى التّركيز على

الجانب النظري، إمّا ببيان خصوصيات النظرية الواحدة في ذاتها، أو بوضعها في سياقها التاريخي جزءاً من مراحل عديدة في التحول الذي تشهده النظريات اللغوية واللسانية، لتكون النصوص على هامشها، تخدمها وتدعمها بالتركيز على جوانب دون أخرى في كل نظرية، وهذا طبعاً ليس غريباً بما أن أي نظرية إنما تُمثل وجهة نظر صاحبها ورؤيته لمسألة معينة من زاوية مُحددة مضبوطة - لكن، لماذا لا نغير المسار فنجعل النصوص هي التي تؤسس للنظرية وتبرز معالم التطور فيها، فإذا النظريات تكاملت وتجانست على أساس التشابك، وليس باعتبارها حلقات في سلسلة تاريخ اللغة وعلومها والبحوث المتعلقة بها؛ وأيضاً تكون هذه النظريات مقدمات لعملٍ إجرائي تُثبت من خلاله ما يمكن أن يطرأ عليها من تغيرات في مكوناتها ومحتوياتها، وهو ما يبرر توجهنا في البحث إلى اتباع المسار التالي: تنظير ← تطبيق ← تنظير ثانياً لا يقطع مع سابقه ولكن يقدم في الآن ذاته، صورة مضافة لما قد ثبت عند أصحابه؛ وإذا المنهج الثلاثي الجدلي الحجاجي: مقدمات - سيروية حجاجية (وتفسيرية!) - نتائج، لا يخص فقط مادة البحث والدراسة، بل هو جزء من أبنيتها ومواضيعها وهياكلها التجريدية.

إن الحاجة إلى هذا البحث تتمثل في تجاوز الاعتبارات النقدية التي تحصر قيمة النص السرد في انسجامه مع الخطاب، إلى إيجاد براهين تُثبت أن قيمته هي في ما قد يوفره من نقاط استفهام وإشكاليات في البناء والمعنى تتجلى خاصة في أن النموذج ذاتي وليس جماعياً؛ وحتى إن وُجدت في نص ما معالم الطراز فليس ذلك على وجه التقليد والتكلس البيوي في الغالب الأعم، وإنما للاستدلال على مرونة ذلك الطراز من حيث انفتاحه وإشعاعه وانتشاره وفق ثنائية التأطير والتضمين.

إذا كان التركيز في القسم النظري من هذا البحث على النظرية اللغوية في تحليل الخطاب، والمحور الذي اتخذناه هو نظرية فان ديك في علم النص، فإننا أردنا في القسم التطبيقي منه بلورة هذه النظرية والاستدلال على أهم مقوماتها بالبحث في مدى انسجام النظرية اللغوية مع أدبية النص خاصة وأن النصوص المختارة للاستدلال على انسجام الخطاب هي أدبية سردية بالأساس، وإن كنا لا نأخذ المسألة بطريقة مسلمة، ولكن بما يمكن أن تطرحه من قضايا في صيغ الانسجام وتجلياته وأبعاده ومداه.

ثم إن قضية اعتبار أدبية النص غرضاً من أغراض النظرية اللغوية أثارها

محمد صلاح الدين الشريف في كتابه: «خواطر شك نظرية»، وإننا لراغبون في الكشف عن خصوصيات هذه الإشكالية: هل من عوائق؛ وما هي المسائل المنهجية والمعرفية التي يمكن أن تساعد في البحث في هذه المسألة أو تحول دونها؟ وهل الملاءمة بين اللغة والأدب أمر ممكن من حيث المفاهيم والعلاقات، أم أن ذلك لا يتجاوز مستوى الحيرة الفكرية والنظر في المسائل والتعبير عنها؟

أسئلة معرفية عديدة نروم الإجابة عنها باتخاذ أبنية النصّ منطلقاً، وأجناسية الخطاب منتهى وفق ثنائية التنظير والتطبيق في إطار التأليف بين نظريات لغوية عديدة كان مشغلها النصّ عامةً والخطاب الأدبي خاصةً، ولكنّ الإضافة التي ننتظرها من هذا البحث هي صياغة رؤية لغوية أدبية نقدية هي جماع ما توزع في نظريات متعدّدة تتفق في الكلّ المعرفي وتختلف في المداخل المنهجية، وإنّ الطريقة التي بها نصوغ هذا البحث هي اعتماد الحجاج والمنطق وربّما الجدل في طريقة العرض والقراءة للنظريات والنصوص معاً، والبحث في مدى الانسجام بينها إطاراً واستقصاءً للمظاهر والتجليات بالاستناد في ذلك إلى مكوناتها الجزئية الدقيقة رغبة في إيجاد الأصداء التي تحقّق الملاءمة في نسيج النصّ بنية ومعنى، ودلالة وهيكل، دون تعسف في الربط بين المداخل وما يمكن أن تُقضي إليه من نتائج، ولكن وفق ما تشي به النصوص ذاتها من مدى الانسجام في الجزء وفي الكلّ.

ولئن كان الطابع العامّ الذي ميّز نظريات تحليل الخطاب هو اتّخاذ النصّ حجةً ودليلاً لإثبات النظرية وتدعيمها، فإذا هو على هامشها؛ فإنّ منهجنا عكسيّ، ونفترض أنّ ما تمّ الانتهاء إليه في هذه النظريات هو تأسيس، لكن، هل أنّ هذه الأسس من الصّحة والثبات بحيث يمكن تطبيقها بصفة لآلية على النصوص، فيكون الإجراء مرآة عاكسة للتنظير؟ أم أنّ المسألة توضع وتصاغ نقاطاً استفهام حتّى نرى إمكانية المواصلّة والتّطوير لهذه النظريات، أو أنّها لا تستجيب قواعد وقوانين لما يميّز النصّ عامةً والأدبيّ السرديّ منه خاصّة؟!

7. صعوبات البحث

الصّعوبة الأولى: المشكلة أو الصّعوبة في تحقيق المعادلة: تنظير/ تطبيق يُمكن إرجاعها إلى مظهرين: أولهما: هل علينا أن ننطلق من مبدأ أولي

على أساسه ننظر إلى النصوص لا باعتبارها مستقلة بذواتها، ولكن باعتبارها مرايا للخطاب جماع متعدّد يؤول إلى طراز أو إلى مثال يتوق صاحب النص - أي نص - إلى الالتزام به واعتباره المبدأ والمنتهى في الإنشاء الفني؟؛ وثانيهما: إذ يتعالى النص عن أي تقنين، فإذا قرأته إعادة إنتاجه تنبثق من داخله، لا ممّا قد يُسلط عليه من خصوصيات الجنس الأدبي الذي قد يندرج فيه، وبالتالي، تصبح هذه الخصوصيات ثانوية أو هامشية أمام ما قدّ منه النص من أبنية هي نظامه ونسيجه وفق ثنائية المبنى/ المعنى، لا النص/ الخطاب، وبالتالي، لا نبحث عن النص في الخطاب/ الجنس/ البنية العليا، وإنما نلمح بعض خصوصيات الخطاب في النص التي تكوّن عقد النسيج وضمن تماسكه ونسيجه؛

الصعوبة الثانية: هل نحن مضطرون إلى إعطاء الأولوية للمقاربة المنهجية على حساب الأخرى المعرفية، بما أن الظاهرة السردية ليست إلا جملة من العمليات المنطقية الموجهة وفق ثنائية المبنى/ المعنى التي تتميز بالتبدل والتغير حسب الأوضاع التداولية والسياقات اللغوية، ممّا يشي بتعقيد وتركيب في النماذج؛ هذا يعني أنه لا يمكننا الحديث عن أشكال رياضية منطقية محضة بالنسبة إلى الخطاب السردية لأنّ نحو النص هو لغويّ بنيويّ دلالي لا يمكن عزله عن الجانب التطبيقي العملي ارتباطاً بالأبنية الاجتماعية التي ينبثق منها وإليها يؤول؛

الصعوبة الثالثة: في ما يتعلّق بالمصادر والمراجع، كنّا على طرفي نقيض من إيجاد المعلومة أو افتقادها، فإذا هي في جانب موجودة بوفرة، وعلينا بالتالي، حُسْن اختيار ما يوافق منها موضوع البحث وينسجم مع طبيعة المنهج وآلياته دون أن نقع في التجاوز المُشطّ، أو في النسخ والمسح بما قد يُسيء إلى الأصل والفرع معاً؛ ثمّ في جانب ثانٍ، قد لا توجد المعلومة بالصيغة التي المرجوة المتفّقة مع متطلبات البحث المنهجية منها والمضمونية، فكان لا بدّ من السعي إلى الملاءمة، لكن دون تعسف أو بتّ كلّيّ بين المعلومة وموقعها من مرجعها، كما من قيمتها بما يُقدّم الإضافة والثراء للبحث وفق خصوصياته، معادلة سعينا إلى تحقيقها استناداً إلى الدقّة والعمق معاً، بما لا يوقع في التناقض، خاصّة وأنّ المعلومة الواحدة يُمكن أن تُستعمل في المعنى وضده حسب منطلقات الدراسة وأهدافها، وطبيعة المنهج المُتبّع فيها، ويبقى التجلّي الرياضيّ هو سبيل تمثيل النظرية بمختلف تحولات العناصر

الممكنة فيها؛

الصَّعوبة الرابعة: العمل لا ينصبّ في هذا البحث، على المعنى، إقصاءً له أو إثباتاً، ولكن باكتشاف الطَّريقة التي بها أُنتجَ المعنى وصيغٌ؛ ويمكن إرجاعها إلى الأبنية الصَّغرى باعتبارها الوحدات الدُّنيا التي تُنشئُ البناء والمعنى معاً، وإلى نموذج الأحداث ومدى صلته بالجنس الأدبي الذي يندرج فيه النَّصّ، ذلك أنَّ الأحداث إنْ هي إلَّا سلاسل مترابطة يُفترضُ أنَّها تُحكِّمُ نسيج النَّصّ بما يضمن الانتقال المنطقيَّ من المقدمات إلى النتائج، أو من البداية إلى النهاية استناداً إلى وضعيات التَّحوُّل بينهما المبنية على ثنائية الحركة (الحدث) - المنطق (النَّظام)، وهي لا تخرج عن الأبنية السَّردية والخطابية عامَّة.

الصَّعوبة الخامسة: في ما يتعلَّق بالجانب التَّطبيقي، في تحليل النَّصوص، في أحيانٍ كثيرة، هناك تجاوز لحدود الجنس الأدبي الذي يُفترضُ أنَّ النَّصّ محور الاهتمام فيه جزءٌ منه، لكي يكون البحث في مجالاتٍ علميةٍ ومعرفيةٍ أخرى - وهي من الاتِّساع والتَّشعُّب كثرةٌ تُحوِّلُ دون الحرص على الإحاطة بها والوقوف عند جزئياتها وتفاصيلها - فنضطرَّ إلى التَّعرُّف إليها بنظرةٍ كليَّةٍ شموليةٍ نحاول من خلالها بيان ما أشكل من أمرٍ، وإيجاد تفسيرٍ منطقيٍّ وتبريرٍ مُقنعٍ - على الأقلِّ بالنسبة إلينا - لانفتاح الجنس الأصل أو الإطار على غيره من الأجناس، أو أن يتعدَّى مجالَ البحث الحدودَ الموضوعيةَ له، فإذا نحن مُضطَّرونَّ - اضطراراً فيه الكثير من المتعة المعرفية - إلى بيان العلاقات الرابطة بين مجالاتٍ بحثٍ ودراسةٍ متعدِّدةٍ تؤكِّدُ العلاقة المتينة والتَّواصل بين مناهج البحث، ومجالات الدِّراسة، وبين مواضيع التَّناول - رغم خصوصية كلِّ منها - ومبررات ذلك ستتجلَّى نتائج في خاتمة البحث العامة.

وفي الأخير، نقدِّم أخلص عبارات الامتنان والاحترام والتَّقدير للأستاذ **شكري المبخوت** الذي خصَّص الكثير من وقته، في تأطير هذا العمل، وكان حريصاً كلَّ الحرص على الدِّقة والإضافة، والجِدَّة والطَّرَاف بما يُثري هذه الدِّراسة، ومجال البحث العلميَّ عامَّةً.

القسم النظري

مقدمة القسم النظري

قد تغري نصوص بقراءتها من خلال عتباتها الأولى رغبة في التعرف إلى صاحب النص أولاً وإلى النص ثانياً؛ ترتيب لا يعني الترتيب ولكنه الحرص في البحث عما به ينشأ النص وتكون اختياراته نقاط استفهام وخطوطاً ودوائر في ذهن القارئ الذي سرعان ما يتحول إلى باحث في المعنى وفي غير المعنى من تشكلات النص: هل هي صورة من أصل، أم أصل ولا منهج إلا في النقد؟! سيرة في تتبع ملفوظ قد يراه البعض متسقاً منسجماً، ويراه غيره فوضى ولا معنى، ويراه فريق ثالث انتظاماً وخرقا للعادات سنناً وقوالب جاهزة قد تحول دون إبراز نسيج النص في صورة مبتكرة لا تقصي الصورة الأنموذج بقدر ما تقدم نموذجاً عن تفاعل مجالات معرفية وخطابية وصيغ في الإنشاء الفني بما لا يفيد في البحث فقط عن المعنى ولكن عنه في الصورة واللغة فيفرز انسجاماً بينها؛ لكن الإشكالية التي تطرح هي: الانسجام بأي مفهوم وبأي معنى؟ وهل يُربط بالنص أم بالتأويل قراءة وبحثاً في علاقة الإنجاز بالطرز؟ ثم هل من حدود فاصلة بينهما؟

وجوه من التناول تستدعي مجالات بحث في المستويات التالية وهي:

- العلامات الدالة على الانسجام بين مختلف الوحدات النصية البنيوية منها والموضوعية؛

- ضمانات تحقيق الانسجام النصي: كیفياتها وانتظامها؛

- العناصر التي لا تتدرج في بناء النص، ولكنها مع ذلك، تساهم في انسجامه وبيان خلفياته في القراءة والتأويل؛

- علاقة الانسجام بالخطاب السردى في مظاهرها وتجلياتها، وأثرها في النظرية الأجنبية بين الإبداع الفني والحد النقدي الوضعي.

وهي وجوه لا يمكن تبينها إلا استناداً إلى منهج عمل موضوعي يقوم على ربط المقدمات بما قد تقضي إليه من نتائج لا تكون مسقطة عليه، وإنما هي مرتبطة وفق طرق لا ينظمها ولا يبينها إلا الاستدلال بحثاً في صيغ النص وفي بنائه وغاياته وعلاقاته بالخطاب والجنس الأدبي. ومن هنا استدعى البحث في الانسجام النظر في الاستدلال لعلاقات قد توهم بالتلازم والترابط بصفة آلية ولكنها لا تؤسس للاقتناع والقبول والتسليم بقدر ما يوحي العطف النحوي بين المصطلحين بإشكال يستدعي بحثاً في مختلف التصورات التي

يمكن أن تتراءى فيها العلاقات بينهما: الحدود والمدى!
على أن النّظر في هذه المجالات لا يتمّ حتّى يكون التّعرف إلى الاستدلال
في:

- مفهومه وطرقه ومناهجه؛

- كيف يمكن أن توجد العلاقات بين الانسجام والاستدلال؛

- في علاقة كليهما بالنّص وبالخطاب السّردّي على مستوى الأبنية والدّلالة
وسياقات التّلّفظ ومقاماته، وما يمكن أن ينتج عن ذلك من فروق في الإنشاء
الفنّي، وفي القراءة النّقديّة وفي البحث اللّسانيّ الخطابيّ.

وليس من اليسير الانتهاء إلى نتائج واضحة حتّى يتمّ تناول مستويات
بعينها رأيها في الأبنية كما بيّنها ودرسها فان ديك في لسانيات النّص وفق
أصنافٍ ثلاثٍ هي: الأبنية الصّغرى، والأبنية الكبرى، والأبنية العليا، وتوسّع
في قراءتها لسانيون آخرون وأبرزهم آدام في ربطه بينها وخصوصيات الجنس
الأدبيّ. بقي لا بدّ من التّعرف إلى هذا التّوزيع والتّوسيع في دائرة البحث، فكان
ذلك من خلال الاستدلال على انسجام الخطاب السّردّي من خلال الأبنية
الصّغرى بـ:

- حدّها وبيان كنيّة التّرابط بينها؛

- الاستدلال على ما يمكن أن تقوم عليه من أنساق تتشأ في اللفظ وتنتشر
في التّركيب والموضوع لتستقرّ في مقولات الجنس وأطر البنية العليا إجراءً،
أمّا تمثيلاً فالمسألة طرح وانتظار.

إنّ البحث في الأبنية الصّغرى قد وسّع الدّائرة إلى الاستدلال على
انسجام الخطاب السّردّي من خلال الأبنية الكبرى من جوانب تخصّ:

- الحدّ والتّعريف: الصّعوبات والإشكاليات ومبرراتها؛

- كنيّة التّرابط بين الأبنية الكبرى والقواعد التي تنتظمها؛

- وظائف الأبنية الكبرى، وعلاقاتها بالنّص السّردّي وبأجناسيّة الخطاب.

وإذا كان هذا المستوى الأخير منفتحاً على نسيج النّص الموضوعيّ في علاقته
بالإطار العامّ أو بهيكل النّص، فلا يعني تبيّنه إلّا التّعرف إلى نموذج إجرائيّ
من متعدّد لا تحتزله إلّا الأبنية العليا مظهرًا لجوانب مشتركة مؤتلفة مختلفة

في آن تكشف عنها في الاستدلال على انسجام الخطاب السردى من خلال الأبنية العليا في مستويات هي:

- التعرف إلى الأبنية العليا مفهوماً وخصوصيات؛
 - أنواع الأبنية العليا وكيفية التفاعل بينها في إطار الخطاب السردى؛
 - القواعد المتحكمة في انتظامها، ومدى ما يفرزه اختلاف الأبنية من شروط في البناء وفي تحديد أجناسية الخطاب.
- وهي خصوصيات ليست بمعزل عن مكونات النصّ وتجليات الجنس فيه - وإنّ بمفاهيم كليّة شموليّة - تتعدّد أنواعه في المرجعيات لتقول إلى استدلال على أنواع من العلاقات ترادف تجليات الاشتراك والانسجام بين مختلف الأبنية:

- مدى الاتساق والانسجام وفق ثنائيات بنويّة، أو بالنظر إليها في إطار نسيج النصّ الإجمالي؛
- الأبعاد الدلاليّة وأثرها في انسجام الأبنية من خلال التّشكلات التّجريدية وأُسُس المنوال أو الطّراز.

هي نقاط بحث عديدة رأيناها استدلالاً صيغة في القول، ومنهجاً في الدّراسة، وغاية في النصّ، وإشكاليّة طرح نقديّ في النّظريّة اللّسانيّة لا نقيمها على الانسجام مسلّمة ومعطى بقدر ما هو إشكال نبحت في صيغه استناداً إلى الخطاب السردى، وفي ما يمكن أن تفرزه من نتائج تنظيراً في هذا القسم الأوّل من العمل، وإجراءً في القسم الثّاني منه الذي قد يُثبتته وقد ينفيه.

الفصل الأول:

الانسجـام

1. حدّ الانسجام ومفهومه

1.1. تعريف الانسجام

0. يذكر منغنو ألاّ حديث عن انسجام إلاّ في إطار النّصّ، ولا يعني هذا مجرد تتابع لعدد من الجُمْل كما اتَّفَق، بل ينبغي أنْ تمثّل هذه الجمل وحدة لغويّة لسانیّة لها خصوصياتها وقواعدها، ذلك أنّ الشّخصيّة أو الشّخصيات يمكن أن تتلفّظ بعدد كبير من الجُمْل تتتابع لكن لا منطق يحكمها ولا اتّساق ينظمها. (Maingueneau، 1993: 143) والانسجام النّصّي لا يعني معرفة ما عن العالم، وإنّما وضع هذه المعرفة في إطار شبكة دقيقة من العلاقات النّحويّة «التمودجيّة» تبدأ من مستوى بنيوي أدنى لبلوغ بنية دلاليّة على مستوى تنظيم نصّي إجماليّ.

1. لماذا يُربط حدّ الانسجام في الخطاب السّرديّ بالأنموذج أو المثال أو الطّراز؟

يفسّر منغنو ذلك بالعلاقة التّلازميّة بين المفهومين/ التّجليين، ذلك أنّ الأنساق التي تنتظم الأقصوصة مثلاً ليست هي ذاتها التي تحكم بنية الرّواية أو السّيرة، رغم ما بين الأجناس الأدبيّة من تقاربٍ وتخوم، وهو ما يبرّر أيضًا التّمييز بين الأجناس والأنواع في الخطاب وبين الأنواع في المتتاليات أبنية عليا فرعيّة (السّرديّة، الوصفيّة، الحواريّة، الحجاجيّة). وحتّى إنّ وُجدت المتتاليات نفسها في أنواع أو أجناس أدبيّة مختلفة، فلن يكون حضورها بنفس الكيفيّة وبنفس الوظائف، حتّى وإنْ كانت الصّيغة هي نفسها. (Maingueneau، 1993: 144 - 145)

2. وأنّ نتحدّث عن انسجام الخطاب السّرديّ، فلا يعني هذا الوحدة النّسقيّة أو الأجناسيّة، فيمكن أن يكون النّصّ منسجمًا وهو مزيج من متتاليات مختلفة الأنواع تكون إحداها أصلية والبقية فرعيّة، وحتّى إنّ عمّد الكاتب إلى الإضمار فذلك يكون بطريقة ضمنيّة بما لا يؤثّر سلبيًا على انسجام النّصّ.

3. انسجام النّصّ يُعرف في بنائه الأفقيّ، وأيضًا في بناء عموديّ هرميّ تدرّجًا من المكوّنات الدّنيا ذات الأثر المباشر في إبراز مفاصل النّصّ ومراحله، إلى القضايا فالجمل، فالمتتاليات والنّصّ في كليّته وإجماليّه، وهو ما يُحيل على تراتب الأبنية وانسجامها فيما بينها - في إطار النوع الواحد - أو بين الأنواع

مختلفة: الصَّغرى فالكبرى فالعليا، والانسجام في هذا البناء الهرمي يتجلى أيضًا من خلال الوظائف المخصوصة المقترنة بالسياق بالنسبة إلى كل مستوى أو مرحلة.

4. انسجام الخطاب السردّي يتجلى بناءً ومعنى وتركيبًا تضمنه الروابط التي توازي أو تناظر مفاصل النصّ الكبرى ومراحله الحديثة، وهي في الغالب الأعمّ ثلاث: الافتتاح (الأول - واحد - في مستوى أول...); المرحلة (ثانيا - الآخر - في مستوى ثان...؛ لكن في عنصر آخر - كثيرًا - بعض - بعد ذلك...); الختم (أخيرًا - لنهي - في مستوى أخير...).

وقد يقترن الوصف مثلاً، بعبارات تحقّق الانسجام من نوع (إلى يمينه/ عن يساره - أولاً/ ثم). وهذه الألفاظ والعبارات رغم خاصياتها المعجميّة الأولى، فهي تجعل الانسجام في خصائص متمايضة لكنّها مؤتلفة، فاللفظ يعني المعنى، والزمان، والجنس، والنوع. (Maingueneau, 1993: 154 - 156)

5. كثيرًا ما يقترن تعريف الانسجام بمفهوم الاتّساق، وهما متكاملان، بقي أنّ الخصوصيّة تتمثّل في أنّ الانسجام إجماليّ ويقترن بالنصّ في كليّته: مبنى ومعنى، أمّا الاتّساق فيُستنبط في المواضع المخصوصة من النصّ، وهو يقترن بالتركيب خاصّة - وإن كان التركيب يتّصل بالمعنى أيضًا -

إنّ استمراريّة نصّ ما لا تتحقّق بتطوّر المواضيع وتكرّر الأنساق بما يجعل التحوّل من مرحلة إلى أخرى لا يعني القطيعة أو الصدفة ولكن بتوازن وتوافق ربط نتائج بأسباب؛ فالتعرّف إلى الاتّساق والانسجام يكون من خلال العلامات الدالّة عليهما، والضّمانات المسيّرة لهما بما يعني أنّهما متوفّران في «بنية نحويّة - دلاليّة، وأيضًا في بنية حاملة للمعلومة ضمن حركيّة نصيّة» (Maingueneau, 1993: 154 - 156) تقوم على ثنائيّة السّابق واللاحق، والحامل أو المجموعة التي تحمل المعلومة الحاصلة بغدّ، والمحمول أو المجموعة التي تحمل المعلومة الجديدة، وكلاهما يمكن أن يتوزّع إلى أكثر من مستوى.

1. 2. حدود الانسجام: أسبابها وانعكاساتها في النصّ وفي التّأويل

هي أسباب تداوليّة عرفانيّة بالأساس، فقياس مدى الانسجام سواء بالنسبة إلى علاقات مكوّنات الخطاب فيما بينها، أو علاقة المتكلّم بالمخاطب،

أو علاقة المخاطب بالنص، لا يكون فقط، بالنظر إلى صلة هذه الأطراف جميعا بالسياق، بالمرجع، بمقام التلقظ أو إنشاء النص، وإنما أيضا بتلك العمليات الذهنية التي ينجزها المخاطب ليؤلف بين عناصر التواصل جميعا. وهي مسارات تتعدّد وتختلف وضوحا وخفاء (ارتباطا بصياغة اللفظ: بساطة أو تعقيدا)؛ وانحصار مخاطب في جعل انسجام الخطاب قرين الذات فحسب، فهما وتأويلا، وتصوّر علاقات تركيبية ودلالية؛ أو جعله الانسجام متجاذبا بين توجهاته الفكرية المعرفية وبين توجهات المتكلم أصولا لإنشاء الخطاب.

وقد يضطرّ المخاطب، في فهم النصّ وتأويله، إلى ربطه بالمقام، فلا يكفي بالنظر إليه على أنه بنية تحمل دلالتها في ذاتها دون الرجوع إلى أي نوع من الأطر الحاقّة بإنشائه، ويستند في ذلك إلى الاستدلال باعتباره عملية نسقيّة تنظيميّة لها تصوّرات عديدة في الذهن ينتقي منها المخاطب ما يراه موافقا لطبيعة النصّ وخصائصه على أساس مقارنة بين ما يراه متصلا به أو منفصلا عنه، خلاصةً واستنتاجا يبقيان رهينيّ ما هو نسبيّ، حتّى وإن حاول المخاطب تحقيق أقصى ما يمكن من الانسجام بينه والنصّ وصاحبه في آن.

ويتضاعف الجهد الذهنيّ الذي يبذله المخاطب في فهم النصّ كلّما تعدّدت قضاياها، أو كانت غير منتمية إلى نفس السجلّ المعرفيّ إذ يكون أثر النصّ انفعاليّا أكثر منه تفاعليّا، يتشابك من خلاله المقامان الماديّ الواقعيّ، والذهنيّ تصوّريّ، وتضعف درجة الانسجام بين الضروريّ، والممكن، والمُحتَمَل علاقة نصّ بدلالة، واعتقاد: صلة مخاطب بذاته، وصلة مخاطب بمتكلم. فخضوع الخطاب لثنائية الصدق والكذب إنّما يقاس بالقرائن اللفظيّة، التي ترشّح اعتقاد المتكلم على حساب اعتقاد المخاطب، ثمّ بالقرائن المقاميّة، والمعرفيّة منها خاصّة، التي ترشّح اعتقاد المخاطب على حساب اعتقاد المتكلم، في إطار معياريّ أكثر منه منطقيّ، إذ يكون الاستناد إلى ثنائية الصدق والكذب باعتبارها ضمانا من الضمانات التي يستند إليها المتكلم، وخاصّة المخاطب لتحقيق الانسجام بين مكونات النصّ اللغويّة منطوقا كلاميّا، وما يحيل عليه هذا النصّ من دلالات هي جزء من آثاره في متلقيه.

على أنّ العوامل المؤثّرة في فهم النصّ، وكذلك ما تستدعيه من جهود لتأويله وجعله منسجما والأطرّ والمقام تبقى أمورا متعلّقة بالذهن وبما يساعد على تمثيل الخطاب تمثيلا بنويّا تجريديّا يجعله منفتحًا على الجنس أو الأجناس التي قد يندرج فيها أو ينفتح عليها، ولا يكون الأثر ولا الجهد

مُجَسِّمَيْنَ تجسيمياً بنيويًا إلا بصفة ضمنية لا تطفو على السطح، حتى وإن كانا يمثلان الخيط الدقيق الناظم بين مختلف أبنية الخطاب: بداية من الصغرى قاعدة انتهاء إلى العليا قمة بما يضمن الانسجام والترابط والتتابع¹.

خلاصة

لم يكن تناول الانسجام حدًا ومفهومًا، أو مظاهر وتجليات بالأمر الواضح، أو مما يمكن البت فيه لسببين على الأقل، أولهما اقتران مفهوم الانسجام بمفهوم الاتساق حتى كاد يرادف أحدهما الآخر، وثانيهما أن التعرف إليهما لا يمكن أن يتم بمعزل عن تبين علاقة الجملة بالنص وكليهما بالخطاب السردى في خصوصية النوع واشتراك الأجناس في النموذج أو الطراز.

وإذا كان الأصل في تبين الانسجام هو البنية إطارًا لفظيًا، فهذا لا يقصي البنية المعنى يتجاوز الجملة إلى النص، والأبنية الصغرى والكبرى إلى العليا - رغم علاقات التلازم بينها - ولا يمكن نفي البعد التداولي في ربط النص بالسياق والمقام بما يبرز الانسجام ليس فقط على مستوى الملفوظ، بل في علاقته بالمرجع جزءًا من معنى ودلالة.

2. أنساق الترابط ومؤشرات الدالة على تماسك النص وانسجامه

2. 1. القرائن المساعدة على تحقق الانسجام

الخطاب بما هو مُنَجَّر لغويّ يحتوي كلمات وعلامات وعبارات تميز بين خطاب وآخر، وتحدد مواطن النبر أو التنبير فيه مثل: الضمائر - الأسماء الموصولة - أسماء الإشارة - الظروف الزمانية والمكانية - أدوات التأكيد - ثنائية التعميم والإطلاق - والتخصيص والتحديد. وغالبًا ما تكون هذه الأدوات جزءًا من النص في تجليّه الماديّ الحسيّ - قبل المعنويّ الدلاليّ - ومن هذه القرائن:

1 لمزيد التوسع - مراوحة بين التنظير والتطبيق - انظر: Moeshler & Reboul، 1989: 188 - 201.

(وإذا آثرنا عدم ذكر شواهد نصية، فلرغبة منّا في عدم الوقوع في التكرار - بما أننا سنجسم هذه الجوانب النظرية تطبيقًا دقيقًا على نماذج نمطية في القسم الثاني من الأطروحة بما يضمن وضوح المنطلقات والغايات من العمل).

عناصر الإحالة: التي تعود على أسماء تُعوضها لفظاً لكنها تكرر معناها ودلالة على أساس الاستلزام والاقتضاء (Brown & yule، 1983: 28 - 29)، حتى وإن تعلّق الأمر بجملتين تختلف إحداها عن الأخرى إثباتاً ونفياً، مادامت هناك قرينة لفظية مشتركة بينهما تؤدي إلى استنتاج وفق العلاقة الرياضية التالية:

$$\left\{ \begin{array}{l} \text{أ تنتمي إلى ب} \\ \text{أ تنتمي إلى ج} \end{array} \right. \quad \text{ب تنتمي إلى ج} \quad \leftarrow \quad \text{أ هي دائماً أ}$$

أو :

أ. رَجَعَ عَمِّي مِنْ كُنْدَا.

ب. لَمْ يَرْجِعْ عَمِّي مِنْ كُنْدَا.

ج. لِي عَمٌّ.

على أَنَّ الضّمائر في تحليل الخطاب - تحوُّلاً من إطار اللفظ إلى سياق المعنى - خصوصية إذ لا يمكن اعتبارها وفهمها إلا في ما هو صريح - لفظاً ومعنى - لأنّ الضّمائر في حدّ ذاتها تقوم على الغموض والتعمية ما لم يكن في سياق النصّ سابق تقتزن به وتُحيل عليه. (Brown & yule، 1983: 28 - 29)

وقد يتمّ التعرّف إلى أيّ عنصر من عناصر الإحالة بقياسه إلى غيره من نفس جنسه، أو إلى غيره ممّا يفيد الإحالة باعتبارها تتدرج جميعاً ضمن نظام دلاليّ طبيعيّ فوضعيّ واحد من حيث علاقة أيّ منها بالمدلول الذي يحيل عليه من ناحية، وبسائر مكوّنات النصّ من ناحية أخرى، علاقة قد تكون في مستواها الثاني على أساس التّوازي؛ أو التّضمين؛ أو الإيقاع في اللّغة من خلال الجانب المنطوق في ألفاظه وفي معانيه أيضاً، (Richard، 1979: 45) شكلاً من أشكال تماسك مكوّنات النصّ وضمان تجانسه؛ أو كثافة في نقطة محدّدة هي عنصر الإحالة، مقابل الانتشار والتّوسّع في تجليات النصّ أو في قراءته التي قد تؤدي إلى الإخلال ببعض الجوانب، أو تغليب جانب على آخر، أو تغليب مكوّن مقابل تقويض غيره، (Richard، 1979: 52 - 53) ذلك أنّ عنصر الإحالة قد يُستعمل في أعمال لغوية متعدّدة مختلفة، وقد تكون الألفاظ التي يحيل عليها متباينة في المعجم، وفي الصّنف، وفي الدّلالة

تُستنبط بالاستدلال بحثاً في انسجام الخطاب. وقد يتأتى الاتساق أيضاً من اشتراك عناصر الإحالة مع التكرار في التأكيد والإثبات بما يُضفي عليهما طاقة حجاجية هي جزء من الوظيفة المنطقية التي قد تؤديها عناصر الإحالة، وظيفة ليست بمعزل عن الوظيفتين النحوية والتداولية وكلها تساهم في تطور المسار الموضوعي وفي إنشائية سرديّة الخطاب عامّة، ويفسّر ليونس ذلك بأن عناصر الإحالة وخاصةً منها الضمائر، تُحيل في الآن ذاته على الشخصيّة وعلى الزمن في بُعدين أولهما جزء من سياق النصّ وحدثيّة الخطاب في الفعل، وثانيهما مقترنٌ بسياق التلقّي. (Lyons، 1980: 269 - 280)

ثنائية الصريح والضمني: ذلك أنّ الخطاب قد يتكوّن من أكثر من جملة أو بنية صغرى، وهنا تُطرَحُ افتراضات ثلاثة: وضوح اللفظ والمعنى؛ أو وضوح اللفظ وخفاء المعنى؛ أو انعدام القرينة اللفظية التي تربط بين الجملة والأخرى، لكنّ ذلك لا ينفي الخيط الناطق بين الجملتين أو الجمل. وما يضمن فهم المُخاطَب/ القارئ هو القواعد أو المبادئ التي يُفترض أنّ تكون مشتركة بين الأفراد الذين يتكلّمون اللسان الواحد، ويُفترض أيضاً أنّ لهم حدّاً أدنى من المعرفة المشتركة على أساس الوحدة في الثقافة والحضارة.

القرائن الزمانية والمكانية: إضافة إلى المعاني الأولى التي للقرائن الزمانية والمكانية، فإنّها تتّصل بمقام التلقّظ وفق ثنائية القرب والبعد مسافة تفصل المتكلّم عن موضوع الخطاب، وإذا الإحالة مقامية أكثر منها مقالية - وإنّ كانت إحداها لا تنفي الأخرى -؛ ومن النماذج التي يقدّمها ليونس لتوضيح ذلك:

(1) **وُلِدْتُ فِي ثُونِسَ، وَفِيهَا قَضَيْتُ كُلَّ حَيَاتِي؛**

(2) **وُلِدْتُ فِي ثُونِسَ، وَهَنَّا قَضَيْتُ كُلَّ حَيَاتِي؛**

(3) **وُلِدْتُ فِي ثُونِسَ، وَهَنَّاكَ قَضَيْتُ كُلَّ حَيَاتِي.** (Lyons، 1980: 274 - 297)

رغم ما توجي به الأمثلة (1) و (2) و (3) من وحدة في الموضوع وتقارب في المعنى، إلّا أنّ هناك فروقا من حيث الإحالة المكانية واقترانها بالزمانية على النحو التالي:

في المثال (1)، القرينة «فيها» يمكن أنّ تُفهم على أنّ المتكلّم موجود في تونس أثناء التلقّظ بالخطاب، وأنّ لحظة الحاضر هي امتداد للماضي وإحياء

باستمرارية الحدث في المستقبل، إذ لا نية لدى المتكلم في تغيير المكان أو الحدث أو دلالة الزمان الذاتي إذ يفارق الموضوعي، فالأول ثابت في معناه وفي دلالاته وفي أثره في المتكلم، أما الثاني فخاضع لقوانين الطبيعة تقدماً في الخطية الزمانية والحدثية والمكانية أيضاً؛ ويمكن أن نفهم أيضاً على أن المتكلم بعيد عن تونس أو خارجها، وأن الملفوظ هو جزء من ماضي وذكرى تفارق الحاضر، ولكن قد لا تتجاوز هذه المفارقة لحظة التلقظ بالخطاب، أو فترة قصيرة من الزمن تبدو غير ذات قيمة إذا ما قيسَت بما قصي من العمر في تونس وبما سيُقصَى أيضاً؛

وفي المثال (2)، القرينة «هنا» تحيل على «المسافة الصفر» بين المتكلم والزمان والمكان في آن؛ لكن قد تحيل أيضاً على أن صلته بالمكان لا تتجاوز حدود الولادة، أما النشأة والحياة ففي مكان آخر مسكوت عنه لم يتم تحديده أو ضبطه ولكنه يوافق مكان التلقظ، والأمر ذاته بالنسبة إلى الزمان، فإذا القرينة «هنا» رغم دلالتها على «المسافة الصفر» - معجمياً - مكاناً وزماناً، إلا أنها حسب سياق المقال تدلّ على بُعد المسافة بما يوافق كلّ الحياة؛

وفي المثال (3) القرينة «هناك» يمكن أن نفهم بسبيل ثلاثة:

«هناك» لا تدلّ على تونس أصلاً، وإنما تقترب بمكان آخر قد يكون ذكرى في سياق سابق، على افتراض أن هذه الجملة هي جزء من نص، وبالتالي فإن فهمها لا يتحقق في ذاتها، بل يرتبط بما سبق، وإذا «هناك» لا تحيل مباشرة على اللفظة التي تسبقها، بل على ما هو أبعد منها، وبذلك لا يتصل معنى القرينة المكانية بالسياق النحوي المحدود بمفهوم الجملة، بل يجد أثره وقصده في النص الإجمالي؛

«هناك» تحيل مباشرة على تونس في السياقات المقالية أثناء التلقظ بالخطاب وقبله وربما بعده، بمعنى أن العلاقة بين المتكلم والمكان والزمان لم تعد إلا جزءاً من ماضي ليس بالبعيد جداً إلا في البداية، أما زمن الذكرى وزمن التلقظ بالقول فهما متساوقان، وليس بين الماضي والحاضر إلا العلامة الفاصلة بينهما خطياً، أو ربما هو حين من الدهر قد يطول وقد يقصر؛

«هناك» تحيل على مسافة قصية بين المتكلم والمكان والزمان، وأنه أن التلقظ بالخطاب وقبله وبعده لم تعد له صلة بالمكان ولا بالزمان، وأن المعنى المقصود هو مجازي يختزل معه المتكلم معنى حياته في الفترة التي قضاها

في تونس، وأنه إذ يفارقها لا يكون لحياته معنى ذاتي أو وجداني، فإذا ما بقي من عمره هو جزء من رحلة ورحيل ولا معنى!²

وإذا دُكر الزّمان أو المكان في الخطاب بصيغة مطلقة فإنّ المنشئ يصوغهما ارتباطاً بحدّث، قد يكون حقيقياً أو خيالياً، حدّث يتورّع بين الخبر محتوًى ومضامين، وبين الأنساق اللّغويّة. وأيّ عنصر من هذه العناصر يتجاوز حدود الإنشاء وتوجّهات صاحب الخطاب لينتشر في دائرة أوسع من ذلك هي مجال المتلقّي في أيّ زمان ومكان.³

ويكون الزّمان أيضاً من القرائن الدّالة على أجناسيّة الخطاب بنية عليا سواء أكان ذلك في علاقة الدّلالات الزّمانيّة بعضها ببعض على مستوى الخبر، أم في صلة الخطاب به بما يضمن التّماسك البنيوي والموضوعي في آن.

ويبرز موشليير دور الأزمنة - في قرائنها المتعدّدة، كما في صلتها بالضمائر - في تحديد أجناسيّة الخطاب بنية عليا كأن يتعلّق الأمر بوصف مع الزّمان الماضي الممتدّ، أو بسرد مع الزّمان الماضي المحدّد ذكّر حدّث مخصوص (Moeschler، 1998: 113)، مستندا إلى آراء لسانيين آخرين وخاصة بنفنيست وهمبرقر وونريش - وإن كان يذكرها على أساس إبراز محدوديّتها نقداً ونقضا، إذ ما يعتبرونه خصوصيّات جنس محدّد لا يعدو أن يكون المشترك بين عدّة أجناس (Moeschler، 1998: 106) -. ولا يوافق موشليير أيضاً، على اعتبار القرائن الزّمانيّة ذات دلالات مرجعيّة تتجاوز حدود الجملة لتشمل النّصّ بأكمله (Moeschler، 1998: 111)، ذلك أنّ لكلّ جملة أو بنية صغرى قرينة زمنيّة مخصوصة، لكن قد يكون ذلك على مستوى البناء والتّركيب، أمّا على مستوى الدّلالة، فهناك علاقات بين القرينة الزّمانيّة وسابقتها، كما ولاحتقتها إمّا على أساس التّتابع، أو التّزامن، أو احتواء أحد

2 لمزيد التّوسّع في القرائن الزّمنيّة من حيث خصائصها وتصنيفاتها وارتباطها بالخطاب السّردّي، انظر: Maingueneau، 1993: 23 - 29.

3 تغلب هذه السّمات على الخطاب الأدبيّ باعتباره أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، إلّا أنّ القرائن الزّمنيّة والمكانيّة تتخذ صيغة مخالفة تتجذّر فيها ومعها ضمن سياق إنشاء الخطاب ومرجعه دون سواهما، خاصّة إذا تعلّق الأمر بالخطاب التّاريخيّ من وجهة نظر توثيقية، على أنّ الخطاب ذاته يمكنه تجاوز حدود السّياق والمرجع إذا ما دخل دائرة القراءة النّقديّة التّحليليّة لقضيّة أو وضعيّة أو مجال تاريخيّ أو سياسيّ...، إذ تنفتح قراءة الخطاب الآنيّة على قراءته الزّمانيّة، ربّما على أساس المقارنة أيضاً تصوّراً للمستقبل. (انظر: Lyons، 1980: 50 - 54).

الأزمنة زمنا أو أزمنة أخرى.

موقف موشلير هو الدّعوة إلى تجاوز لسانيات النّصّ إلى تحليله من وجهة نظر دلاليّة تداوليّة تبحث في الروابط والأسس المنطقيّة التي تولّف بين مكوّنات الخطاب - حتّى وإنّ تعلّق الأمر بتداخل أجناسيّ - توفيقا بين النّصّ وسياقه ومرجعه، والتّصوّر الذي يحيط به سواء أكان ذلك من وجهة نظر صاحب النّصّ، أم من توجّه متلقّيه في الفهم والتّأويل، والمنهج المتّبع في قراءة الخطاب معاني ودلالاتٍ مستتبطة من ألفاظه ومبانيه.

التّكرار: قد يوهّم تكرار اللفظ بالتّشابه، وأنّ ذلك ليس إلّا من باب التّرف التّعبيريّ الذي قد يستصيغه البعض وقد ينكره البعض الآخر. ويبيّن منغنو أنّ التّكرار يكون إمّا بإعادة اللفظ ذاته وهو التّكرار العاديّ البسيط («زَيْدٌ...»... «زَيْدٌ...» أو استنادًا إلى الضّمير («زَيْدٌ...»... «هُوَ...») أو عبّر تكرار الوحدة المعجميّة لكن وفق ثنائيّة التّكثير والتّعريف («فَتَاةٌ...»... «الْفَتَاةُ...») أو بتغيير اللفظ والمحافظة على المعنى، وهو ما يُصطلح عليه بالتّرادف أو الاستبدال المعجميّ («الْفَتَاةُ...»... «الصّغِيرَةُ الْمُسْكِينَةُ...»)، يتردّد صداه في اللّغة لفظًا، وفي النّصّ دلالة، وفي الخطاب بنية قد تكون بسيطة أو مركّبة، لكنّها في الحالين تختزل عددا لا محدودا من الدّلالات يفتح مجالها اللفظ سواء أكان حرفا أم فعلا. ومن هنا، قد تُحيل قرائن مختلفة على الشّخص الواحد أو الشّيء الواحد لكن بتطوّر في النّسق وفي المرجع - وإنّ يكن المحور واحدًا أو هو نفسه - ⁴ وهي خاصيّة من خاصيّات نسيج الخطاب السّرديّ الذي لا يمكن أن يخضع بصفة مطلقة إلى ثوابت وقواعد جزئيّة، وإنّما لطبيعة الجنس ولمفهوم نحو النّصّ عامّة، وهذا يعني أنّ البحث في انسجام الخطاب السّرديّ لا يتعلّق بظواهر لفظيّة محدّدة وإنّما من خلال التّأويل، فإذا الانسجام هو تداوليّ أكثر ممّا يتعلّق بأيّ نوع آخر من أنواع الانسجام.

على أنّه يمكن الحدّ من هذا التّوجّه من خلال ما تذهب إليه النظريّات اللّسانية منذ دي سوسور من اعتباريّة العلاقة بين الدّال والمدلول، وعلى أساس ذلك أيضا تكوّن الدّلالة جزءا من عرّف أو وضع أو اصطلاح، ويؤدّي هذا القول إلى أحديّة المعنى. كذلك كثافة المعنى - وهذه النّقطة وإنّ كانت تخالف الأولى من حيث التّحليل، فإنّها توافّقها في نقض القول بلا محدوديّة المعنى بالنّسبة

4 لمزيد التّوسّع، انظر: Maingueneau، 1993: 163 - 167.

إلى اللفظ الواحد، أو أنّ ألفاظاً عديدة قد تتوّل إلى المعنى الواحد - ويعلّل ليونس ذلك بأنّ التكرار يعني تحويل المفاهيم الأساسية الخاصة إلى البعد الزمّني المقترن بسباق التلقّظ وبإعادة تأويل الألفاظ بالنظر إليها في فضاء الخطاب وكيفية انتشارها مبنى ومعنى. (Lyons، 1980: 291)

وفي الحقيقة وبالنسبة إلى هذه النقطة الثانية، يمكن تحليلها من وجهتين: أولاًهما، أنّ اللفظ والمعنى معاً إنّما يكتسبان وجودهما الفعليّ في بعدهما التداوليّ، وهو ما يعني أنّ للخطاب عناصر عديدة تساعد على الانتهاء إلى دلّالته - والحديث عن دلالات متعدّدة بالنسبة إلى النصّ الواحد مأتاه إمّا ربطه بالمتلقّي في تصوّراته وتخمّيناته، وإمّا في ربط النصّ بغيره من النصوص من نفس الجنس بما يوسّع دائرة الدلالة. يتعلّق التكرار، في بعض أبعاده، بفسح مجال التحوّل من البنية الصّغرى جملة في مختلف مكوّناتها اللفظيّة والتركيبية والقضويّة إلى البنية الكبرى موضوعاً ووحدة خطاب في كليّته أو في أجزائه البنيويّة التي تكوّنه تتابعات، إلى البنية العليا منظومة خطابيّة شاملة تتجاوز الأثر الواحد إلى الجنس الأدبيّ أو النّقديّ أو الفكريّ الذي ينظمه وآثاراً أخرى - سواء أتعلّق الأمر بالكاتب نفسه أم مقارنة بينه وغيّره من الأدباء والمفكرين، ولا شرط في هذه المقارنة - التي نضعها افتراضاً لا مجال بحث - إلّا سدى الخطاب ونسيجه بما هو هيكل عامّ شموليّ نموذج يقوم على التجريد إجراءً تنظيريّاً لكنّه لا يفي التطبيق والإنتاج العمليّ بما هو مادّته التي تُصبّ في قالبه.

وقد يكون التكرار بإضافة بعض القرائن، إذ تتعدّد الأدوات فنّويّة الوظيفة ذاتها (كأدوات التأكيد مثل: إنّ - اللام...)، ولكنّها تؤدّي إلى مفاهيم واصطلاحات مختلفة من ذلك تعدّد أنواع الخبر بين خبر ابتدائيّ (إذ يخلو من أدوات التأكيد)، وخبر طلبيّ (إذ يشتمل على أداة تأكيد واحدة)، وخبر إنكاريّ (إذ يشتمل على أداتيّ تأكيد، أو ما تجاوز ذلك)⁵. فالغاية هي إثبات التأكيد لكن مع فروق في المعاني، وهذا يحيل على أمر ثان من حيث علاقة الأبنية الصّغرى بالكبرى، فكّلما تعقّدت البنية الصّغرى في مكوّناتها ووحداها الدّنيا إلّا وأدى ذلك إلى تغير - وإنّ يكنّ جزئياً في موضوع النصّ أو الخطاب بنية كبرى. ويوجّه اختلاف الموضوع أيضاً دلّائل المتلقّي في التحوّل من النصّ

5 انظر في ذلك الخبر الذي أورده المبخوت: 2006 (أ): 21 - 22 من «الاستدلال البلاغي»؛ أيضاً: 103 - 104.

إلى إعادة إنتاجه بحثاً في المسكوت عنه من الدلالة.

إنّ التكرار لا ينتج نصوصاً من نصّ أصلٍ فحسب على مستوى البناء بل يُفسح المجال أيضاً أمام قراءات متعدّدة مختلفة، تمثّل أشعة لنقطة مركز هي البنية الأصل، فالتكرار مثلاً يمكن من مواصلة الحديث عن نفس الشيء محافظة على خصوصياته الأولى لكن مع إضافةٍ بما تحيل عليه كذلك من تغيير جزئي. وليس النظر إلى التكرار على أنّه علامة مميزة للنصّ أو الخطاب - مهما تكن مرجعيته أو سياقه أو زمانه - بالأمر الحكر على كاتب دون آخر إلا من حيث وظيفته اقترانا بموضوع الدرس أو إنتاج النصّ دون صاحبه صورة تنبع منه لتعود إليه.

إنّ اللبس الذي قد يبدو للبعض من حيث اعتبار التكرار - في أيّ تجلٍّ من تجلياته - إعادة لنفس المعنى أمرٌ متجذّر في الثقافة العربيّة، وكان لابدّ من السعي إلى تجاوزه نفياً وإثباتاً، فيكون المنهج المساعد هو الاستدلال وسبيله اللغة في إنجازها نصّاً أو خطاباً. فلا ينبغي أن نفهم التكرار على أنّه مجرد تكرار أو إعادة لفظة أو عبارة أو جملة أو فقرة بأكملها، ذلك أنّ التكرار يتجلّى - فيما يتجلّى - في النحو تراكيب ووظائف، فيجتمع التركيب والوظيفة، أو يتمّ تكرار الوظيفة دون التركيب، أو تكرار التركيب دون الوظيفة، «فصيغة التماثل ليست إلّا طريقة شكلية نتوخّاها في تقويم شيء ما تقويماً إيجابياً أو سلبياً بواسطة الحشو كقول القائل: «حين أرى ما أرى أفكر في ما أفكر»، ففي هذا القول نجد اللفظ الثاني دائماً هو الذي يحمل القيمة الدلالية شأن ما يحدث في ظاهرة التكرار.» (صولة، 1999: 327) وما يحيل على قيمة التكرار وغايته هو الدلالة جدلاً بين الحذف والاختزال من ناحية، والمبالغة والإطناب من ناحية أخرى، لأنّ التصرف في أبنية النصّ هو رهين المعنى. ولئن كانت هذه العوامل خارجة عن النصّ فإنّها لا تنفيه، وإنّما تتضافر مع خصائصه البنيويّة التركيبيّة الدلالية لتُنشئ الانسجام.

2. 2. خصائص الروابط

ترتبط الخاصيّة الأولى بأنّ الانسجام والتفاعل اللغوي لا يمكن أن يتمّ أو أن يتحقّق إلّا بين عناصر لا يقلّ عددها عن اثنين؛ وما يحقّق الانسجام هو التماسك بين العلامات اللغويّة ومعانيها، وبين الأبنية وفق ثنائيّة المقول والمسكوت عنه، وبين التّعقّد في البيان، والسعي إلى الوضوح في النمطيات

في الأدب والسرديات منه خاصة، فالأمر لا ينحصر في التعريف، بقدر ما ينفتح على السمات والمرجعيات، والسعي إلى تبين التفاعل بينها.

ولتبين هذا التدرج في الانسجام، ينبغي التعرف إلى القرائن المحققة له. يذكر بارت أن القرائن المحققة للانسجام كثيرا ما تكون لفظية إحالية أصلها الجملة ومنتهى الخطاب، باعتبار أن تركيب الجمل يمثل النظام الضمني «نظام الوحدات والقواعد القياسية» (بارت، 1989: 18)، والاستثناء يفسره كل من براون ويول في بيان الاتساق نسقا قد يُختزل في مجموع الكلمات التي يتألف منها وفق علاقة تجانس إلا أنها في بعض السياقات، إذا حُذفت القرائن المحققة للانسجام، تنقص بعض مكونات الخطاب اللفظية، ولا يؤثر ذلك سلبا لا في الاتساق بنية سطحية ولا في الانسجام نظما داخليا وتماسك عناصر دالة على الموضوع؛ فإذا المسألة متعلقة باختزال الجملة دون الإخلال بالمعنى، وتكون مواضع العناصر المحذوفة مقدرة يقتضيها الاستدلال ضمنا لتحقيق التكامل النهائي بين العلامات اللغوية والحدث أو سلسلة الأحداث، انطلاقا من الجملة انتهاء إلى الدلالة (Brown & yule، 1983: 178).

ويعتبر كل من هلاي وحسن أن علاقات التماسك داخل أو بين الجمل هي التي تحقق نسيج النص. ولكن، يؤكد كل من براون ويول أن لأدوات الربط وقرائنه قيمة في تأليف هذا النسيج مثل: الواو، لكن، ذلك أن، هكذا، علاوة على ذلك، وبالتالي، لكي، صحيح أن، نحو، إذا... مما يؤدي إلى علاقات متنوعة بين الجملتين أو الجمل التي يتكون منها النص، ومن هذه العلاقات: الإضافية: الواو، أو، علاوة على ذلك، وبالمثل، إضافة إلى ذلك؛ الإضرابية: ولكن، ومع ذلك، من ناحية أخرى، رغم ذلك؛ السببية: وهكذا، وبناء على ذلك، لهذا السبب، ويُستنتج من هذا؛ الزمنية: بعد ذلك، بعد أن، بعد ساعة، في النهاية، في الأخير (Brown & yule، 1983: 191)؛ الروابط التداولية مثل: لكن، الواو، إذ، إذن، وحتى، والحال أن، إذاك، أيضا، لذا، وفغلا، من ناحية أخرى، إلخ، فالرابط التداولي هو لفظة نحوية (حرف ربط، ظرف، عبارة) تتمثل وظيفتها من ناحية في الربط بين أجزاء من الخطاب (المنطوق اللفظي)، ومن ناحية أخرى، في الإسهام في تأليف وحدات خطابية معقدة انطلاقا من وحدات خطابية بسيطة» (Moeshler، 1989: 464). ثم إن الانسجام لا يقتصر على هذه الأدوات إذ من القرائن اللفظية الأخرى ما يحقق ذلك كالإحالة: ضمائر، وأسماء إشارة وأسماء موصولة، علامات لغوية

تفترض وجود الجزء في إطار الكل وتحقق التفاعل بين نسقي انتظام الأبنية (الصغرى منها خاصة)، والنسقان هما نحو الجملة، ونحو النص؛ وهذه الأدوات والعلامات تحوّل في النسق إمّا وفق ما تتطلبه بنية الخطاب السردّي - مثلاً - من مراحل وأطوار، وما يتطلبه الخطاب الحجاجي خاصة من تفسير وتعليل وتفصيل قول بما يضمن الإقناع⁶؛ وإذا غابت القرائن اللفظية جميعاً، فإنّ مبدأ عدم التناقض يكون كفيلاً بتحقيق الانسجام، وهكذا، يكون الخطاب منسجماً بأدوات ربط أو دونها، وليس من الضروري، حتّى يكون الخطاب منسجماً، أن تحيل - بصفة صريحة - خصائصه الشكلية على العلاقات بين الألفاظ والتراكيب، إذ يكون الاستدلال آلية تعرّف إلى هذه العلاقات، ومن العوامل المساعدة على الاستدلال: مقدّمة ضمنية - افتراض سياقيّ - رسم أو خطاطة قياسية. (Moeshler، 1989: 463) لكن، تُطرح المسألة من وجه آخر: من حيث دلالة أدوات الربط: هل هي ثابتة أم متغيرة بتغيّر المقام؟

يذكر موشلير رأيّ ديكرو في هذا القائل بأنّ دلالة الأدوات ثابتة مهما كان سياق الخطاب الذي ترد فيه بما أنّه ينظر إلى النصّ في صياغته اللفظية. على أنّ موشلير يناقض هذا التوجّه في السياق ذاته مقدّماً أمثلة تدلّ على تبدّل معاني الأدوات بتبدّل السياقات⁷ متّخذاً من «ذلك أنّ...» أو «لأنّ...» نموذجاً، فقد تغيد الأدوات - حسب سياقاتها المقالية - التعليل؛ التوسّع فيما جاء مُجملاً؛ الاستنتاج؛ تحقيق انسجام الخطاب وتتابع أنساقه، كما توسيع دائرته بالإضافة؛ وظيفة تحقّق التفاعل بين أبنية النصّ الصغرى؛ خصائص استدلالية، تساعد على فهم النصّ واستنباط معانيه من خلال أبنيته؛ ما يساعد على رسم هيكل النصّ من خلال مختلف العلاقات التي تولّف بين أبنيته؛ وما يساعد على تأصيل الخطاب ضمن سياقه القولّي ومرجعه المعرفي، وبالتالي تتبّع النصّ في بُعديه البنيوي والدلالي.

6 لمزيد التوسّع، انظر: Adam، 1997: 26 + 29. (لم نردّ كثيراً من الجزئيات والتفاصيل، بما أنّ توضيح آدام لوجهة نظره إنّما يقوم على المراوحة بين التقعيد والإجراء نصوصاً يستعملها لإبراز العلاقات العضوية بين بنية الخطاب العليا وسائر أبنيته الكبرى والصغرى؛ وإنّما عدلنا عن ذلك مبدئياً لغايات في بحثنا نبوّب ذكرها في سياقاتها، ولكنّ أبرزها هو إنشاء الدراسة على قسمين مستقلّين متّصلين: قسم نظريّ وآخر تطبيقيّ نراه كفيلاً بتوضيح المسألة من وجوها المختلفة)

7 لمزيد التوسّع، انظر نفس المرجع: 85 - 86.

إنّ، تَوْفَّر النَّصّ على هذه الأدوات أمّ لم يتوفّر، فإنّ دلالتها تتجلى من خلال الرّبط - معنويًا - بين البنية الصّغرى والأخرى ربطًا منطقيًا استدلاليًا؛ بقي أنّ درجة الجهد الذي يبذله المتلقّي في الفهم والتّأويل هي التي تزيد أو تنقص ارتباطًا بوجود الرّوابط اللفظيّة تصرّيحًا أو الاستدلال على وجودها ضمنيًا؛ وهو ما يحكم أيضًا مدى الانسجام بين مختلف أبنية الخطاب من ناحية، وبين منشئه ومتلقّيه من ناحية أخرى، و«يجب هنا أن نذكّر بأنّ التّلاؤم مع المقام هو مسألة موازنة بين جهود معرفيّة وتأثيرات سياقيّة، وكلّما تطلّب النصّ جهودًا معرفيّة أوفر كان أقلّ تلاؤمًا مع المقام؛ وكلّما أحدث النصّ المُعلَن تأثيرات سياقيّة، إلّا وكان أكثر تلاؤمًا مع المقام». (Moeshler, 1989: 91).

ويشرح علماء النصّ «العوامل التي يعتمد عليها التّرباط على المستوى السّطحيّ للنصّ؛ ممّا يتمثّل في مؤشّرات لغويّة، مثل علامات العطف والوصل والفصل والتّرقيم، وكذلك أسماء الإشارة وأدوات التعريف والأسماء الموصولة وأبنية الحال والزّمان، وأسماء المكان» وتندرج هذه العلامات في مجموعات أكثرها كلاسيكيّة (وضعيّة) هي: أولاً وبالذات ثمّ فيما بعد أخيرًا، لكن نجد منها نماذج أخرى: من ناحية من ناحية أخرى، إمّا وإمّا، أحيانًا أحيانًا، من جهة من جهة أخرى، في المقام الأوّل في المقام الثّاني...، وغير ذلك من العناصر الرّابطة التي يُعنى علم اللّغة بتحديدّها، وتقوم بوظيفة إبراز ترابط العلاقات السّببيّة بين العناصر المكوّنة للنصّ في مستواه الخطّيّ المُباشر للقول عناية بالنصّ في كليّته وشموله: في بنيته السّطحيّة اللفظيّة، كما في بنيته العميقة الدّلاليّة والمنطقيّة، فإضافة إلى هذه القرائن اللفظيّة، هناك الدّاعي الموضوعيّ إمّا بنموّ الموضوع الواحد وتطوّره، أو بالتّحوّل عنه إلى موضوع آخر من خلال تقديم معلومات أو أفكار جديدة. والخطاب باعتباره أنساقا لغويّة وتتابعات حدثيّة، يجب أن يحافظ على بعض العناصر الثّوابت، خاصّة من حيث الدّلالة، بما يضمن التّواصل والتّرباط بين المعلومة السّابقة (أو التي يثبتها النصّ بصفة صريحة أو بصفة ضمنيّة)، والمعلومة اللاحقة التي تنتج عنها، وما قد تستدعيه المعلومتان السّابقة واللاحقة من معلومات كافتراضات هي جزء من الذاكرة والمعرفة الموسوعيّة، لكن، في الخطاب خصائص أخرى

للروابط هي وحدات لسانية لا يمكن تأويلها إلا إذا أخذت في الاعتبار المعلومات التي لا تنتمي إلى الجملة التي تمثل جزءا من مكوناتها؛ ولهذه العلامات وظيفة تتجاوز حدود الجملة إلى الوظيفة الخطابية. (Moeschler, 1998: 75)

تؤكد هذه الخصائص الصلة بين اللفظ والدلالة، أو بين الأبنية الصغرى والأبنية الكبرى تقدما نسقيا في الخطاب. وليس للروابط دلالة مخصوصة في حد ذاتها (بما في ذلك المعجمية، إذ تتعدد وتختلف)، وإنما تكتسب معانيها من السياقات التي ترد فيها ووفق البنية العليا جنسا تمثله فتكون بذلك محيلة على طبيعة الخطاب، دالة على العلاقات بين القضايا والجمل تفاعلا وانسجاما؛ كما سياقات تحوّل وتبدّل وتغيّر على مستويي الحدث والأنساق اللغوية. «إن الربط التداولي ليس إلا علامة لسانية تنتمي إلى أصناف نحوية متنوعة (أدوات ربط، ظروف...) وتمثل مفصلات النص في مكوناته الكبرى كما الصغرى، وتعكس مبررات التحوّل من وحدة إلى أخرى» (Moeschler, 1998: 77)

إن العلاقات التي تنشأها الروابط بين قضيتين أو جملتين تتوزع بين الإثبات والنفي؛ الاستدلال والاستنتاج؛ والتفسير والتوسع؛ والخروج من الغموض والتعقيد إلى الوضوح والتبسيط، معاني هي فراغات مجازية بين الكلمات يملؤها المتلقي دون منشئ النص تفاعلا بين الطرفين، أو هي جدلية المنطوق اللفظي وما يوحي به من دلالات تتجاوز ظاهر العبارة إلى الضمني منها، «وبعبارة أخرى، إذا كان معنى الجملة ثابتا، فإن معنى المنطوق اللفظي متعدّد ومتغيّر تبعاً لوضعيّات الخطاب» (Moeschler, 1998: 88)

وفي واقع الأمر، ليست المعاني هي المتبدّلة المتغيرة وإنما قراءات متلقّي النصّ له هي التي تجعلها كذلك - وهذا لا ينفي وظيفة الروابط الأساسية وهي الإحالة على بنية النصّ وهيكله ارتباطا بالمقام - ومن أمثلة ذلك ما ينشأ عليه الخطاب الحجاجي، فقد تكون البنية متصلة بالنواة قضية كبرى على أساس الدّعم، أو إبراز التناقض والتضارب فالاعتراض، أو على أساس إبراز الموقف والتقويم.

إن المهمة الأساسية للروابط هي التعبير عن العلاقات بين الأحداث/ القضايا، فالجمل/ الأبنية الصغرى، فالمواضيع/ الأبنية الكبرى، فأما من ناحية

دلالية، فإن أدوات الربط تعتمد ربط الأحداث، وأما من ناحية تداولية، فإن أدوات الربط تعتمد «تعليق الجمل (أو القضايا)» (Van Dijk، 2000: 129) من خلال:

ما يدل من الربط على التتالي	ما يدل من الربط على الاقتضاء
• الواو (حرف عطف) =	• الواو (الحال)
- تغيير موضوع المتوالية وجهتها.	• الترتيب الزمني
- التفسير	• العلة
- ربط أفعال الكلام وفق ثنائية القبول والرفض، والتضمنين	• الشرطية
• أو: الفصل؛ التخيير؛ الشك؛ التردد؛ التصحيح	

وتحليل أنساق الترابط على البنية الأفقية وهي تتابع الجمل - في أي نص - تتابعا فيه ملاءمة وانسجام (بصفة صريحة أو ضمنية) يتحققان عبر الوقف، والروابط، والانسجام الموضوعي (في جزئيات النص أو في كلياته)، وأزمنة الأفعال. وللبنية الأفقية تجليان: أول لفظي تحدد دلالاته من خلال السياق والمرجع؛ وثان تمثيلي يكون هو النموذج الأصلي المحتذى، ومعه تكتسب البنية الأفقية أبعادا ثلاثة هي: النص المنطلق: دلالة واحدة وألفاظ معينة؛ البنية المجردة: تمثلات تخرج معها الألفاظ من التعجيم والدلالة النحوية إلى المفاهيم الكلية مرجعيات؛ والأبنية النصية المتعددة، وهي أيضا، التأليف بين كل مكون من مكونات أي مرجعية مع مكونات سائر المرجعيات في كثافة تركيبية وربما دلالية قد لا تُحد.

وقد يفرز هذا البعد الثالث من البنية الأفقية تجليات ثلاثة هي: تركيب ولا دلالة؛ دلالة ولا تركيب؛ تركيب ودلالة، وهي تجليات مقترنة بهدف المتكلم من إنشاء الخطاب، وبهدف المخاطب من تقبل الخطاب، وبمدى انسجام الهدفين وينتهي إليه عبر تحليل الخطاب وربطه بخصوصيات النص، وبسياق الكلام، وبمرجع عملية التخاطب الذي تم فيه إنجاز النص رغبة في تحويله إلى خطاب - ولا يكون ذلك إلا عبر مراحل عديدة مركبة يتم بعضها عبر الإجراء اللغوي، وبعضها الآخر عبر الذاكرة من ناحية، والدّهن من ناحية

أخرى، «وعلى القارئ المنتج أن يُحقّق عمليّات متعدّدة ومُعقّدة في إطار الضّغوطات الذاكرة والانتباهيّة القويّة، وخاصّةً في إطار موارد محدودة بالضرورة في ذلك المستوى: فالذاكرة ليست قابلة للتّمديد إلى ما لا نهاية له. ومن الصّعب الحفاظ على انتباه متواصل بخصوص عمليّات كثيرة في نفس الوقت» (Coirier & Gaonac'h & Passerault، 1996: 8).

وإذا كان البحث في بنية النّص الأفقيّة هو بحث في مظاهره النّحويّة التركيبيّة التّعبيريّة في مستوى أول⁸، فإنّ البنية العموديّة تمثّل تراتباً لمختلف المستويات التي تكوّن النّص من الأصل إلى الفروع، والكلّ يعكس مختلف العمليّات التي ينجزها المخاطب ذهنياً باستغلال مختلف المصادر العرفانيّة التي من خلالها يحدّد الدّلالة المقصودة من قبل منجز النّص. ويمكن أن نُحيل على أربعة مستويات تساعد على فهم النّص وإعادة إنتاجه هي:

1/ تحديدات مرتبطة بخصائص نظام اللّسان، وهي الأدوات اللّسانية التي تساهم في بناء النّص كما في التّعريف إلى هيكله، بمختلف الفقرات وعلامات الوقف، وأدوات الرّبط التي يقوم عليها؛

2/ تحديدات تنهض على معالجة المجال المرجعيّ عبر التّمثيلات الدّهنيّة، والمخطّطات العرفانيّة التي تصف خصائص العالم الفيزيائيّ والاجتماعيّ والموضوعيّ، واعتماد هذه المخطّطات للتّعريف إلى خصوصيّة المجال المرجعيّ الذي يدور النّص في فلكه من خلال القرائن الصّرفيّة: الاشتقاقية والتّصريفية، والمعجميّة (اللّغة المرجع [منطقيّ استدلاليّ تفسيريّ - حجاجيّ] بما هو عمليّة تدور في الدّهن خاصّة ذهن المخاطب، كذلك في ذهن منشئ النّص).

3/ تحديدات مرتبطة بالسّياق اللّفظيّ: ارتباط بنية النّص العموديّة بالوظائف النّحويّة تركيباً ودلالةً، وتفكيك نصّ لغاية الفهم كما الإفهام انتهاءً إلى أهداف النّص وغاياته في عمليّة التّخاطب؛

4/ تحديدات تتّصل بالأبنية العرفانيّة التي تعكس علاقات الانسجام بين

8 الحديث هنا عن نحو النّص لا عن نحو الجملة، والاعتناء بتحليل الخطاب في أبعاده المختلفة وأساساً على المظاهر الدّلاليّة، فدلالة الكلمة ليست في ذاتها وإنّما باعتبارها وحدة في اتّساق أفقيّ (المزيد التّوسّع، انظر: Coirier & Gaonac'h & Passerault، 1996: 14).

النَّصُّ مُنْجَزًا والنَّصُّ مُدْرَكًا، إذ يسعى المخاطَبُ إلى فكِّ رموز الخطاب لتحديد دلالاته⁹.

إنَّ هذه التَّحديدات الأربع تعكس تمفصلات النَّصِّ الكبرى تدرجاً من بنيته الأفقيّة البسيطة إلى بنيته العموديّة المركّبة¹⁰ في صلة كليّتهما بنظام النَّصِّ العامّ، وبذهن الإنسان وذاكرته ومختلف العوامل المساعدة على فهم النَّصِّ أو المعرّقة له.

ويأتي الانسجام والتَّجَلِّي ليُحَدِّدَ ممّا قد يشوب التَّواصل من صعوبات وعراقيل وعوائق، وأفضل ما يكونان إذا لم يطل المسار الاستدلاليّ؛ وأن يكون الاستدلال غايةً، فإنّ الوضوح أو التَّجَلِّي هو مقوم من مقومات الاستدلال وتحقيق التَّلاؤم بين قصد المتكلّم أو منشئ الخطاب، والمخاطَب أو متلقّي الخطاب في تصوّراته وافتراضاته - على تعدّدها وتشابكها - وكلّما تبيّن الوضوح في علامات وقرائن دالّة، كان الاقتراب من اليقين والاعتقاد الراسخ بالنّسبة إلى المخاطَب في الوصول إلى قصد المتكلّم. ينشأ القصد علامات لغويّة هي «الدّوالّ»، ويكوّن القصد موزّعا بين الوضوح تصريحاً، والغموض تضميناً من خلال التّعبير الاستعاريّ أو المجازيّ عموماً، إذ يكون الانزياح بين الدّوالّ ومدلولاتها، فتكون درجة التّواصل ضعيفة قد تُغيب المتكلّم وتُفْسِح المجال للمخاطَب ليُضيف من المدلولات إلى الدّوالّ ما يراه هو منسجماً متّسقاً، يقول إيكو في كتاب «حدود التّأويل»: «عندما يكتب المؤلّف نصّاً لمجموعة من القراء فهو يعرف أنّه سيُوَوَّل لا حسب قصده بل حسب استراتيجيّة معقّدة من التّفاعلات تشمل القارئ وتشمل معرفته باللّغة كتراث اجتماعيّ. ونريد بتراث اجتماعيّ لا اللّغة كمجموعة من القواعد النّحويّة، بل الموسوعة المعرفيّة الّتي تكوّنَتْ من خلال استعمال تلك اللّغة، وتاريخ التّأويلات السّابقة لعدّة نصوص، بما فيها النَّصّ الّذي هو بصدد قراءته.» (Eco, 1990: 110)

ومن هنا، قد ينشأ النَّصُّ منفصلاً عن المتلقّي لكنّ القصد التّواصليّ ينفّي هذا

9 ليس شرطاً أن يكون الخطاب مشفّراً حتّى نعتبر النَّصَّ رمزيّاً، فإنّ أيّ خطاب يتطلّب من المخاطَب عمليّات ذهنيّة - قد تكون بسيطة، وقد تكون مركّبة - للرّبط بين بنيته اللّفظيّة ودلالاته المعنويّة.

10 Coirier & Gaonac'h & Passerault, 1996, 8 - 9.

اتّخذ مؤلّفو الكتاب من علم النَّصِّ النّفسيّ مدخلاً لدراسة الخطاب في مختلف تجلّياته ومنها البنيّتان الأفقيّة والعموديّة.

الانفصال: إنه متعدد مقارنة بالنوع السابق - وهو القصد الإخباري - بما أن التواصل يشترط علاقة المتلقي بالنص في حد ذاته، وعلاقة المتلقي بالنص ومنشئه في الآن ذاته، وهذا يستدعي اعتبار القصد سلسلة من حلقات متعددة كل حلقة تمثل قصدا جزئيا (بالنسبة إلى المتكلم أو منشئ الخطاب)؛ وتمثل افتراضا من عدة افتراضات (بالنسبة إلى المتلقي) ينصهر في القصد استنادا إلى الاستدلال والتوضيح، وإلى علاقة الذات بالموضوع.

2. 3. قواعد الترابط

تقتزن قواعد الترابط بالخصائص اللغوية والمكونات الأجناسية (كالصفات) بين الثبات والتحول معنى ودلالة خاصة، على امتداد النص استنادا إلى ترتيب جملة أو قضاياها، فتقديم إحداها على الأخرى أو تأخيرها يغير طبيعة العلاقات بينها ارتباطا بطرق نظم المسند إليه (الموضوع) والمسند (المحمول)، وإلى الظروف (في النحو) والصيغ الزمنية اقتضاء (في الصّرف) حسب معاني التعبيرات والألفاظ والعبارات، وإلى الاستلزام المنطقي والتعليل والسببية (Van Dijk، 2000: 75، Moeschler، 1998: 84) اللذين قد يرتبطان بالعوالم الواقعي، أو الممكن، أو الافتراضي. (Van Dijk، 2000: 48 + 49 + 57)

ويورد موشلير قواعد الترابط التي توفر انسجام الخطاب وهي قواعد التوافق: ما بعد قواعد التكرار؛ ما بعد قواعد التدرج؛ ما بعد قواعد اللاتضارب؛ ما بعد قواعد العلاقة (Moeshler، 1989: 468)، وتتمثل هذه القواعد في التلاؤم بين ما يسبق وما يلحق من معاني الخطاب، وأيضا بينها وما تستدعيه من دلالات: فهما وتأويلاً، ووحدة هذا الشرط هي:

« الشرط الموضوعي » (ش. م.)

« شرط المحتوى الجملي » (ش. م. ج.)

« الشرط اللفظي » (ش. ل.)

« شرط التوجيه الحجاجي » (ش. ت. ح.)

وكلها تدخل في إطار فهم النص وتأويله اللذين ينشآن من:

1/ بنيته وفيها أنساق الترابط مثل:

المُعَرِّفات (المُحدِّدات) ومنها الاسم العلم، فهو - كأَيِّ مكوِّن لغويٍّ - لا يقتصر بسياق واحد، إنّما تتعدّد دلالاته باختلاف المقامات التي ينشأ فيها الخطاب، فـ الاسم العلم معان ودلالات متعدّدة تتأتّى من خلال ما تكتسبه حروفه من تعجيم؛ وما يكون له من دلالة في سياق نصّ محدّد، دلالة ذات صلة بسائر أسماء الشّخصيّات من ذلك مثلاً إذا تعلّق الأمر بنصّ سرديٍّ، يصبح اسم العلم دالّاً على بعض خصائص الشّخصيّة الفنيّة أكثر من الإحالة على واقع أو بُعد تداوليّ تفاعليٍّ، هي خصائص تتّصل بالنصّ في موضوعه اختياراً واستعمالاً ووظائف خطابيّة بالتّوازي مع المستوى الخبريّ من النصّ في كليّته؛ ثمّ اعتباره في بُعدٍ خياليٍّ، ذا معنى مجازيّ، قد يتعلّق بمنشئ النصّ، أو بسياق النصّ، لكن أيضاً بمتلقّيه، وليس شرطاً، بل هو الممكن أكثر منه الواجب، أن تتفق جميع الدّلالات فتكون أصداً للفظ. (Richard، 1979: 25)

واسم العلم ليس الوحيد في الوصف أو في أيّ شكل آخر من أشكال الخطاب، إنّما هو جزء من منظومة الألفاظ التي تكوّن النصّ، وبالتالي، هناك عوامل عديدة تُحوّل دلالة اسم العلم - وإنّ يكن واحداً - منها: السّياق والمقام أو وضعيّة التّلفّظ والمرجع؛ المتكلّم (مفرداً وجمعاً - والتّعدّد يستدعي الاختلاف بالضرورة، وإنّ يكن جزئيّاً - بما أنّ لكلّ متكلّم منطلقاته في إنشاء الخطاب غاياته)؛ العلاقات التّركيبية النّحويّة؛ طبيعة العلاقات بين المتكلّم والمخاطب، ومنها المعرفة، والقصد والنّيّة، والإدراك، والاستدلال.

2/ منطق الجهات مثل المعيار الأخلاقيّ (الواجب والمباح)؛ التّمنيّ والعاطفة (الإرادة، الرّغبة، التّفضيل)؛ الوجوب والاحتمال (الضرورة والإمكان) والظنّ (الاعتقاد)؛ والتّشارط بروابط/ (لأنّ - من أجل - أنّ - إذن - كذلك - إذ - بما أنّ - بينما - مثلما - أنّ - نتيجة لذلك...) (Van Dijk، 2000: 104)، هي روابط تفيد الشّروط؛ ويذكر المبخوت «تراكيب الشّروط الثلاثة الأساسيّة أيّ [لو ج 2 ج 1] و [إنّ ج 2 ج 1] و [إذا ج 2 ج 1] وبدرجة أقلّ [ج 2 ج 1]» (المبخوت، 2006 (أ): 187)، بما يفيد الشّروط والظّرف من معاني الاستحالة والإمكان ارتباطاً بمقتضيات القول، وإمكانات تحليل الخطاب، وربط التّركيب الشّرطيّ بسياقه النّصّيّ بما يعكس تردّد المحتوى الكلاميّ بين المقول والمسكوت عنه، كما بين الإثبات والنّفي للشّروط

وجوابه في الآن ذاته على أساس التّشارط¹¹، والمنطلق معطيات ومعادلات، ولكن ليس لإثباتها دائماً، وإنّما للبحث في أسبابها وعِلّها، على أساس ألاّ علاقات اعتباطيّة بين المقدّمات والنتائج، فهي تخضع لقواعد واضحة وتشتمل على علامات تشي بإمكانيات التّحوّل من النّص المُنتج إلى التّجريد، والعكس أيضاً - حتّى وإن كان المحتوى خياليّاً في الجانب الإجرائيّ -

والعلاقات هي ذات مستويات متعدّدة / * إذا الآن ب، وإذا إذن أنت تفعل س، فأنت ستحصل على النتيجة ش؛ أو * ب = ش، أو ش C ب؛ والمثال الذي يقدّمه إيكو لتوضيح ذلك هو التّالي: «نفترض أنّي أثبت [في المنزل عندي عشرة قطط]؛ والقطط هي من السّنّوريات الدّاجنة؛ المحتوى الإجماليّ للملفوظ (في مسكني، أوّوي عشرة سنّوريات داجنة)، والواقع أنّ المرجع الذي يمكن أن يوجد في عالم التّجربة الحقيقيّة، في منزل خاصّ يوجد عشرة قطط خاصّة؟ أو كذلك افتراض أنّ يكون لي في المنزل عشرة قطط، إذن ينبغي أن يتوقّر لديّ فضاء كافٍ، فمن العسير أن يكون لي كلبٌ». (Eco، 2011: 23) علاقات قد لا تبدو منطقيّة في المعنى، وفي انسجام الجمل بما قد لا يُقيم نصّاً، ولكنّ تحقيق ذلك يتمّ عبر الاستدلال المنطقيّ بالبحث في الضّمانيّ والمسكوت عنه يستمدّ ملامحه ومحتوياته من المعرفة المُشتركة التي منها تُستقى ضمانات الوصول إلى العلاقات التي أنشئ عليها الخطاب وبها يكون نصّاً.

2. 4. معاني العلامات المميزة في السّياق السّرديّ

يبين منغنو أنّ للعلامات المميّزة معاني عامّة توجد في أيّ نصّ أو في أيّ سياق مثل إحالة الضّمير «الأنا» على المتكلّم، والضّمير «أنت» على المخاطب. والمتغيّر فيها هو معانيها المكتسبة ارتباطاً بالسّياق المقاليّ وبمرجعيّة الخطاب. (Maingueneau، 1993: 5) ويميّز منغنو بين العلامات المميّزة والضّمائر - رغم أنّها تُصنّف ضمنها وتشترك في الخصائص العامّة مع غيرها من نفس الصّنف - وأسماء الأعلام، وهذا الاختلاف هو الذي يعتبره منغنو من معايير التّغيّر والمرونة في المعنى والدّلالة وفي دائرة توسّع إحالة العنصر الواحد على عناصر متعدّدة تجتمع ضمنه من ذلك مثلاً:

11 لمزيد التّوسّع، انظر المبخوت، 2006 (أ): 188 - 196.

- نحن
 أنا + أنا (+ أنا...)
 أنا + أنت (+ أنت...)
 أنا + هو (+ هو...)

- أنتم
 أنت + أنت (+ أنت...)
 أنت + هو (+ هو...) (Mangueneau, 1993: 7)

إحالة يمكن أن تفيد التحديد والتخصيص أو الإطلاق والتعميم إما من خلال الضمير نفسه إذ يستعمل في إطار حكم عام، أو الاسم الموصول: مَنْ - مَا، أو من خلال ما تتضمنه صيغة الفعل المبني للمجهول، بل كل القرائن الزمنية التي تتسع لأكثر من قراءة وتأويل.

إنّ التحوّل من التخصيص إلى التعميم في النصّ السردّي هو نوع من توسيع مجال التعريف ونشر التّأثير سواء أ تعلق بشخص أو بشيء أو بعلاقة أحدهما بالآخر؛ توسيع يضيّق أفق «الواقعي» ليوسّع دائرة الخياليّ الذي تنظمه وظائف النصّ لا المرجع (Mangueneau, 1993: 7)، فالتاريخ والأصل في الألفاظ إنّ هما إلّا مطيّة لنسج السردية جزءاً من أجناسيّة الخطاب وتمييزاً لها عن غيرها، وأبرز مظاهر التحوّل والاختفاء وفق ثنائية الظاهر والباطن الجدل القائم في النصّ السردّي بين الكاتب والسارد والشخصيّة حسب وجهات النظر وأبعادها، والتعدّد والاختلاف لا يعني القطيعة بل التقاطع من خلال التّضمين فإذا الصوت صدى لغيره يعكسه ولا يتنافر معه ويقترن تغيير الصوت بتغيير نمط الكتابة إمّا من الخطاب المباشر إلى غير المباشر، أو من السرد إلى الوصف دون أن يقع اختلال في اتّساق النصّ، وإنّما يدخل ذلك في إطار تفاعل البنية العليا الأصليّة مع ما يتفرّع عنها ولا يناقضها، ولكنّ ذلك يشي بتنوّع الأجناس الأدبيّة وتمييز بعضها عن البعض الآخر.

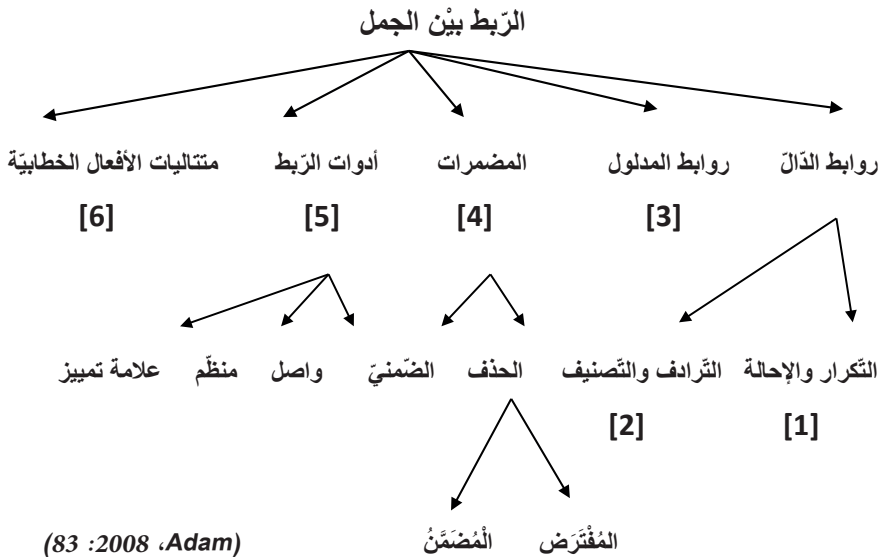
ويضيف منغنو أنّ معاني العلامات المميّزة ترتبط عادةً بسياق التّلفّظ، لكن قد تتوفّر النصوص السردية على هذه العلامات فيزبّط معنى النصّ بمرجعيتّه «الواقعية التاريخية»، لكنّ ذلك لن يتجاوز مستوى القادح لإنشاء النصّ لأنّ المرجع يغيب في سردية النصّ القائمة على الخيال والتّصوّر ورؤية الذات للواقع وليس على تصويره، فيبدو النصّ السردّي وكأنّه منفصل عن وضع

التَّلَفُّظ بالنَّسْبَةِ إلى الحدث دون منشئه صياغة أدبية تقوم زمنياً على الماضي البسيط¹² الذي يراه منغون الأنسب لأنه ليس رهين زمن التَّلَفُّظ الذي لا يتفق معه النَّصُّ السَّرْدِيُّ ذو الصَّبْغَةِ الخياليَّةِ، والأحداث فيه هي قرينة الزَّمن الماضي الذي يتمَّ التَّعبير عنه بالفاظ: أمس، منذ عشرة أعوام، منذ ثلاثة قرون، إلخ، هذا من ناحية، ذات مرَّة، فيما مضى، في قديم الزَّمان، إلخ، من ناحية أخرى، أمَّا المجموعة الأولى فتضع الأحداث في إطارها الزَّماني، وأمَّا الثَّانية فتُحيل على زمنٍ آخر موضوع في مستوى آخر خارج الزَّمان الموضوعي. (Maingueneau, 2005، 94 - 95)

2. 5. أنواع التَّرابُط بين الوحدات النَّصِّيَّة الأساسية كما يبيتها آدم

خمس أنواع من التَّرابُط يراها آدم ضامنة لتحريم الجمل - الملفوظات النَّصِّيَّة الَّتِي تُجمع فيما بينها؛ وهي أنواعٌ متغيِّرة حسب السِّياق المُقالِي بالنَّظر إلى المواضع النَّصِّيَّة وقياس الجُمْل بما يسبقها أو يلحقها:

الرَّسم: عمليات الرِّبْط الَّتِي تضمن الاستمراريَّة النَّصِّيَّة



1/ التَّرابُط الدَّلالي: عبْر الإحالة والتّرادف علاقةٌ لاحقٌ بسابق، ومرجعٌ بمكوّناته، ونقطةٌ محورٌ بتوسعتها وانتشارها، وإجمالٌ بتفصيل؛

2/ الترابط الدلالي: من خلال الاتفاق في المرجعيات وفي الحقول المعجمية، مقابل الاختلاف في الصياغة وفي السياقين المقالّي والمقامي؛

3/ الترابط الدلالي: من خلال التكرار الأسلوبّي: لفظاً أو عبارة؛

4/ الترابط الدلالي: وفق ثنائية المقول والمسكوت عنه، أو الصريح والضمني إمّا بالحذف أو بالإضمار؛

5/ الترابط الدلالي: في علاقة الروابط بنسيج النصّ من ناحية، وبالجنس الأدبيّ الذي تندرج ضمنه من ناحية أخرى¹³.

كلّ عمليّة من هذه العمليات الخمس هي عامل من عوامل تحقيق اتّساق النصّ وإبراز نسيجه، لكن لا يمكن اعتبار الواحدة منها – بمعزلٍ عن الأخرى – ضامنة لوحدة النصّ الاتّساقية، هي عمليات تتفاوت قيمة حسب طبيعة النصوص التي ترد فيها ومواضعها منها التي هي في الأصل خطيّة، لكن يمكن الاعتناء بهذه العمليات من مداخل موضوعيّة أيضاً، وبها يكون الانسجام الذي يقترن بتطوّر النّسق ونموّه مع تغييرات تدريجيّة في العناصر الضامنة لتماسك النصّ في البنية وفي المعنى، أمّا الدلالة فلا تقطع معها ولكنها أيضاً ليست نمطيّة بل تشي بتغيّر وجهة نظر الرّاي حسب موضعه من الحدث ومن الخطاب، وتغيّر أنماط الكتابة، ففي النصّ السّرديّ حيث يكون التّتابع الزمّني بسيطاً نسبياً، يكون تتابع الألفاظ كافياً في الغالب لتصوير الوقائع دون الاضطرار إلى استعمال القرائن الزمّنيّة بكثرة، لكن في نصّ حجاجي أو وصفيّ، يفرض تعقّد المرجع استعمال القرائن الخاصّة بطبيعة النصّ، ففي النصّ الوصفيّ، تساعد هذه القرائن على تمييز الموصوفات وتصنيفها؛ وفي النصّ الحجاجي، تساعد على تبيين العلاقات بين الحجج، أو بين الأطروحة ونقيضها.

ترابطٌ ينشأ لفظاً وعبارة وتركيباً فجملية، ولكنّ اتّساقها ضمن متتاليات يُخرجها من مرجعيّاتها الأولى أحاديّة الدالّ والمدلول لتندرج في مجالات أوسع هي التّعّدّد في لغة الخطاب وفي نظم النصّ وفي اتّساق الترابط بداية تؤدّن بالنهاية من ذلك:

(4) أولاً... ثمّ... وأخيراً... وباختزال شديد...

13 للتوسّع في هذه الأنواع، انظر: Adam, 2008, Chap.3 : 83 – 130.

أو (5) مثلاً... وهكذا... فعلى سبيل المثال...

أو (6) طبعاً... ولكن...

واختيارات البنية في بساطتها على المستوى الخطّي، وفي تعقيدها على المستوى الهرميّ، تحليل على أنّ نسيج النّص يسير في اتّجاهين مختلفين لكن متكاملين في حركة النّص وحبكة الخطاب وبنية النّص العليا.

خلاصة

لا يتحقّق الاتّساق أو الانسجام إلّا من خلال قرائن مساعدة على ذلك، وهي وإن اختلفت في المرجعيّات، فإن الاستدلال على وظائفها في بناء النّص وضمنان تماسكه يجعلها تشترك في الوظيفة من منظور تحليل الخطاب، وهي وظيفة مفردة في صيغة الجمع، بما أنّ القرينة الواحدة قد تتخذ مظاهر عديدة وخصوصيات متنوّعة حسب طبيعة النّص الذي تردّ فيه، والنّظر إلى نوعه أو جنسه، ويمكن إرجاع هذا التّعدّد إلى نموذج في هيكل رياضيّ تجريديّ يختزل مختلف الإمكانات الإجرائيّة نصوصاً، والافتراضيّة قراءة وتأويلًا.

يتّخذ نسيج الخطاب السّرديّ مظاهر عديدة بتعدّد المرجعيّات، ولكنّ الجامع بينها هو الإحالة على المعنى الإجماليّ في النّص يُنشأ تصرّيحاً أو تلميحاً، ولفظاً أو ضمناً. وهذا لا يعني الاعتباريّة، بل توجد شروط وقواعد تنظّم وفقها القرائن المساعدة على تحقيق انسجام الخطاب، قد تكون تركيبية أو نسقيّة أو أجناسيّة، وجميعها ليس بمعزلٍ عن المعنى وما يوحي به من دلالة.

3. أنواع الانسجام

3. 1. الانسجام البنيويّ التركيبيّ النّحويّ

يكون الاتّساق البنيويّ من خلال الرّوابط الدّاخلية (الصّريحة أو الضّمنية) بين الألفاظ والتّراكيب¹⁴، إذ يكون الحديث عن شيء واحد على أساس التّتابع، أو التّقدّم في نسق النّص بالاستناد إلى الرّوابط التي تضمن الانسجام والتّلاؤم، وإلى التّراكيب الدّلاليّة، ويرى محمّد صلاح الدّين الشّريف أنّ ليس شرطاً أن

14 لمزيد التّوسّع، انظر: باتريك شارودو- دومينيك منغنو، 2008: 553 - 555.

نتحدّث عن اتّساق بالنّسبة إلى النّصّ، ولكن عن انسجام، ويبين ذلك من خلال التّعريف إلى النّصّ عبر مفهوم الجملة فيقول لبيان ذلك: «إنّه بانتهاء الجملة تنتهي الضّغوط النّظاميّة. ولا وجود في اللّغة لقواعد تجبرك على ترتيب الجمل داخل النّصّ على غرار ترتيب الكلمات داخل الجمل. ولو كانت الجمل في ترتيبها داخل النّصّ تخضع لقواعد لغويّة لما أمكن المتكلّمين إنشاء نصوص متنوّعة هذا التّنوع الهائل، ولما كان المتكلّمون يُصدرون أمّتن النّصوص المنطقيّة الاستدلاليّة إصدارهم لأكثر النّصوص عبثا بالتسلسل المنطقيّ» (الشّريف، 2007: 33) فالتركيب النّصّي يقوم على طريقة النّظم وليس شرطاً أن يخضع للتركيب النّحويّ الإعرابيّ، وهو ذو بنية تركيبية تراكميّة سواء أ تعلّق ذلك بإنتاجه أو بإعادة إنتاجه تصوّراتٍ وافتراضات تأتي نتيجة القراءة والتّأويل. وهذه البنية تتحكّم فيها المرجعيّة دون النّظام وردّة فعل المتلقّي دون رغبة الكاتب. فبالنّسبة إلى النّصّ نتحدّث عن انسجام في التّركيب وخارجه وحوله أيضاً؛ يقول الشّريف: «إذا كانت صحّة النّصّ النّحويّة مقياسها قبول المتكلّمين للغة أو عدم قبولهم، فإنّ القبول (أو عدمه) ذو أسباب كثيرة غير الصّحة النّحويّة. ثمّ إنّ مفهوم استعماليّ لا جهازيّ. فهو غير كافٍ لاعتبار النّصّ وحدة من الجهاز.

وما دامت الصّحة النّحويّة لا تُحصر إلّا عند بداية الجهاز في التّشكّل بين يدي الدّارس، فلا معنى لصّحة نحويّة تُجاوز الجملة إلى النّصّ ما لم تبدأ النّصوص أو بعضها في التّشكّل على غرار ما تتشكّل الوحدات اللّغويّة. فكما أنّك لا تستطيع الحكم على جملة بالغلط، ما لم تتصوّر أشكالاً مضبوطة من الجمل الصّحيحة في قواعد تركيبها وفي مجموعة علاقاتها، فكذلك لا تستطيع الحكم على النّصّ بالشّدوذ النّحويّ ما لم تتصوّر مجموعة منظّمة من الأشكال النّحويّة النّصيّة الصّحيحة في جهاز نحويّ متكامل متناسق يُبين وحدتها اللّغويّة، أي أنّه بتعبير آخر لا يمكن اعتماد مفهوم الصّحة أو حتّى مفهوم القبول لبيان وحدة النّصّ اللّغويّة، لأنّ الوحدة اللّغويّة متى استقرّت في الجهاز فهي التي تُعيّن الصّحة، وليس العكس». (الشّريف، 2007: 39) ومفهوما الصّحة والغلط يرتبطان بالانسجام في التّركيب، أو في المعنى، أو في كليهما معاً.

رغم تكوّن النّصّ من أبنية صغرى أبرز وحداتها هي الجملة، إلّا أنّه ليس من الضروريّ أن نعتبر انسجام النّصّ أو حتّى اتّساقه مقترناً بالتركيب، إذ يُنظرُ

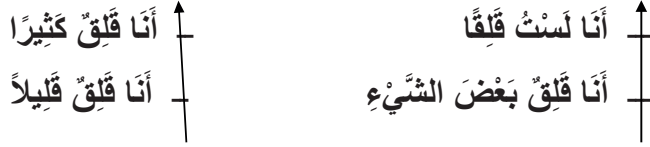
إلى النصّ في كليّته باعتباره وحدة دلاليّة؛ رأيّ يذهب إليه كلّ من هلاي وحسن، ويؤكّده آدم.

3. 2. الانسجام المقترن بالعلاقات المعجميّة

الانسجام المعجميّ هو ناتج عن علاقة الدالّ بالمدلول، لكن ليس بالنعناية بهما في حدّ المعجم وخارج السّياق وإنّما باعتبارهما جزءاً من شبكة وحدات نصيّة تؤلّف بين اللّسانيّات البنيويّة والنّصّ والسّياق (Maingueneau، 2007: 5) وشبكة من القواعد التي تنتظمها أيضًا. وكلّ هذه المكوّنات لا تعني الوقوف عند ظاهر اللفظ والنّظم، ولكن بما يثيرانه من أسئلة في النّصّ وحوله وقراءة وتأويلًا ينتهيان إلى البُعد الدّولّي أمّا أصلها فهو الانسجام المعجميّ الذي لا يعني اللّغة وقد أنجزت وإنّما وهي في طور الإنجاز حالاً، وفي إمكانه تصوّرًا وفرضياتٍ.

وما يدعم اعتبار المعجم جزءاً من نسيج النّصّ ونسقه وانسجامه هو مرونة الكلمات باعتبار التّرادف على مستوى الجذر أو الجنس؛ وإذا كان تحقّق الاختلاف في اللفظ، فسيكون التّوافق في المرجع كما هو الشّأن بالنّسبة إلى الضّمائر مثلاً (أنا - أنت - هو) (Maingueneau، 2007: 16) أو أسماء الإشارة (هنا - هناك) ارتباطاً بالتّحوّل في السّياق السّرديّ وفي الحدث، وهذا يعني أنّ هناك تفاعلاً بين اللفظ في مظهره، والجنس الأدبيّ الذي يندرج فيه، وهذا يعني أنّ الانسجام - بأيّ مظهرٍ من مظاهره - ليس مجرد معطى يكفي تحليله لتنتبين خصائصه وملامحه، بل هو جزء من شبكة كبيرة يمثّل الانسجام المعجميّ جزءاً منها ومنطلقاً فيها.

يذكر ديكر و قرائن من نوع: ذلك أنّ، لكن، حتّى، تقريباً، ويبين أنّها ليست على نفس الدّرجة من الطّاقة الحجاجيّة استناداً إلى المرجعيّة المعجميّة، بل إنّها لا تتسجم والتّوجّه الاستدلاليّ في الخطاب إلّا من خلال اتّساقها اللفظيّ الصّريح أو الضّمنيّ في المواضع السّياقيّة النصّيّة التي ترد فيها. وهي أيضًا لا تتميّز بنفس الدّرجة في الإثبات والنّفي قياساً بثنائيّة القوّة والضعف في الطّاقة الحجاجيّة. ويستند ديكر و إلى سلال حجاجيّة ليبين هذه الفروق من ذلك:



(Ducrot, 1980: 24)

وقد يتأتى الانسجام أيضًا مِنْ خلال العلاقات المُعجميّة، عبر التّرادف في علاقة النّوع بالجنس (الأفْحْوَانُ زَهْرٌ)، والنّسبة (السِّلَاحُ يُنسَبُ إِلَى الإنسانِ)، والتّتابع (يلي الاثنينِ الثّلاثاءُ)، والمقارنة (إِنهَامِي أَكْبَرُ مِنْ تِلْكَ الْمِطْرَقَةِ)، والتّكرار: تكرار التّرتيب (دَخَلُوا وَدَخَلْنَا)، إلخ. (Brown & yule, 1983: 194)، وهو ما يعكس العلاقة في النّص بين اللفظ والمعنى (الحقيقيّ المعجميّ، كما المجازيّ التّعديديّ) والدّلالة وفق ثنائيات عديدة.

3. 3. الانسجام وفق القرائن المرجعيّة المؤسّسة للبنية الصّغرى

وهي الضّمائر، والقرائن الزّمنيّة التي تتردّد بين زمن الكتابة أو إنشاء النّص، وبين زمن قراءته أو تلقّيه، وهو ما يُوجّه فهمه فهيكَلته وتمثّلته وتمثّله (Adam, 1997: 23). ومن القرائن الهيكلية التي تؤسّس البنية الصّغرى مواضع الوحدات النّصيّة الدّنيا من الخطاب إحالة على:

1. البداية/ كَانَ يَا مَا كَانَ، فِي أَرْضٍ قَصِيَّةٍ...

ومثّل هذه العبارات يشي بأنّ الحكاية هي خطابٌ مُردّوج حسب ما تفرضه وضعيّته وشكله، والزّمن والمكان المستعملين فيه؛

2. التّحوّل من فقرة إلى أخرى أو من فكرة إلى فكرة ثانية/ تُلْخِيصًا؛ إِذْنُ؛ وَالْمُهْمُ...

3. النّهاية/ الإشارات الدّالة على نهاية موضوع وبداية آخر/ إِذْنُ - وَبَعْدُ...، وعلامات الوقف التي تساعد على التّعرّف إلى أهمّ الوحدات النّصيّة خاصّة، ومدى إمكانيّة تغيير ترتيبه تقديمًا وتأخيرًا، أو حذفًا واختزالًا (Coirier & Gaonac'h & Passerault, 1996: 181 - 183) من ناحية، ومدى استيعاب النّص والتّعرّف إلى قضاياها في حالّي وجود علامات الوقف، أو عدم وجودها، وهو ما يحيل على أنّ قراءة النّص تسير بتوازي مع إدراك المعاني،

بما يُحدِثُ قطيعة في تواصل الأفكار في الذّهن، أو أن يجعلها متقطّعة فلا بدّ في هذه الحال من التّعويل على الذاكرة قريبة المدى لتحقيق انسجام النّص وإمكانية مواصلة عمليّة الفهم والإدراك. (Coirier & Gaonac'h & Pas-serault، 1996: 191)

هي الروابط التي تُفتح أو تُغلق المقاطع النّصيّة، وقد تطول وقد تقصر، وبالتالي هي المساهمة في تحديد اتّساق النّص وبيان انسجامه، وليس شرطاً أن يقرن كلاهما بالانسجام التركيبيّ النّحويّ الإعرابيّ، إذ أنّ الروابط قد تتخلّل هذه التراكيب وتكون جزءاً من بنائها دون اكتمال معناها. (Adam، 2008: 46 + Combettes، 1992: 113)

3. 4. التّطور الموضوعي ودوره في تحقيق انسجام النّص

التّطور الموضوعي هو أحد العوامل المساهمة في تنظيم النّص إجمالاً سواء أ تعلّق الأمر بالأنساق اللفظيّة أو الاتّساق أو بانفتاحه على المعنى العامّ وعلى نسيج النّص غالباً إذ يتعلّق بالانسجام حتّى وإن كان فيه أكثر من مجال معرفي في إنشاء الحدث السّردّي الذي يرتبط ضرورة بالتّقدّم - على الأقلّ - في الخطاب وعلى مستوى الخطيّة - إذا ما كان المحتوى يقوم على التّكرار -، (Maingueneau، 2007: 190) ممّا يعني ألاّ انتقال عشوائي على مستوى المواضيع في النّص، إذ لا بدّ من منطق يحكم التّحوّل من مستوى إلى آخر، ولا تضبطه لا تعريفاً ولا مرجعيّة لأنّ المهمّ هو الانسجام بما يساعد على فهم حركيّة النّص وكيفيّة تحقّقها استناداً إلى بُعْدٍ وظيفي يرتبط بما هو نحويّ - دلاليّ وينفتح أيضاً على ما هو تداولي ومنطقي في الفهم دون وقوع في التّضارب أو التّناقض في الاصطلاح وفي المعنى.

3. 5. العناصر السياقيّة المقاميّة المساهمة في تحقّق

الانسجام

يحلّل فان ديك هذه الإشكاليّة من وجوه عديدة إذ يعتبر النّص هو ثنائيّة المُنجز اللفظيّ اللّغويّ، وما يحتويه هذا المُنجز اللفظيّ اللّغويّ من أحداث يصطلح على تسميتها بـ «الأعمال اللّغويّة» (فان ديك، 2005: 114)؛ ثمّ إنّ النّص هو حوار الذات مع ذاتها باعتبار أنّ المتكلّم له قصد أو نيّة من إنجاز الفعل قد لا يريد منه أو لا ينتظر ردّة فعل من طرف آخر، كأن يفتح باباً أو

يدخل أو يخرج (فان ديك، 2005: 127)، وإنما يتعرّف القارئ إلى هذه الأحداث من خلال النصّ باعتباره «منطوقاً لغوياً»؛ كذلك سياق إنجاز النصّ قد يكون ضيق المدى - كما هو الشأن في النقطة الثانية من الإشكالية - وقد يكون متّسعاً - وإن بدرجات متفاوتة -

ويرى فان ديك أنّ ارتباط النصّ بعملية تواصل تستدعي صلة متكلم بمخاطب بسياق إنشاء خطاب، وحتى يتحقّق التواصل، لابدّ من تفاعل بين طرفي الخطاب يكون من خلال تفكيك الخطاب، والتعرّف إلى مكوناته وأنساقه اللغوية ونظمه، وكذلك عبر انسجام رؤية كلّ من المتكلم والمخاطب في النظر إلى محتوى الخطاب على غرار انسجام رؤيتهما للكون الماديّ الذي منه يستمدّ الخطاب مكوناته اللغوية عُرْفًا ودلالاته اصطلاحاً، وقد يكون، فقط، بين المتكلم والمخاطب، وقد يتجاوزهما ليكون بين المجموعة البشرية التي يوجدان في إطارها.

ويبين فان ديك أنّ العلاقة بين المتكلم والمخاطب قد تكون قائمة على مجرد إخبار المتكلم المخاطب بحدث أو أحداث وقعت أو تقع أو ستقع، أو إخباره أيضاً بقصده أو نيّته من إخباره بحدث أو أحداث، أو من إنشائه الخطاب (وفي هذا المستوى لا يتجاوز القصد مجرد الإخبار)، فيكون المخاطب متلقياً للخبر وهو ليس مضطراً إلى استدلال حتّى يفهمه. وقد تكون رؤية المخاطب إنجاز المتكلم الخطاب مسألة لها أبعاد يخفيها المتكلم، لكنّ المخاطب يأبى إلا أن ينتهي إليها، حتّى وإن كان ما يفرضي إليه استدلاله مجرد ظنون أو افتراضات. وقد تكون للمتكلم - فعلاً - رغبة في إثارة فضول المخاطب وجعله يردّ الفعل، وفي هذا المستوى، يكون الاستدلال أعقَدَ وذا مراحل متعدّدة، قد تؤدّي إلى «انسجام» المخاطب مع النصّ دون صاحبه، كما قد يؤدّي إلى انسجامه مع كليهما، وبذلك تصبح قيمة تحليل الخطاب قيمتين: أولاهما: التعرّف إلى شبكة الأبنية التي تُسجّ وفقها النصّ، وهو ما قد يستدعي - ضمناً - لدى المخاطب إشكالية أجناسية أساسها المقارنة؛ وثانيتها: إعطاء النصّ بُعداً تداولياً يتجاوز من خلاله البعد اللغويّ ليُدْرَج اللّغة في أصلها العُرفيّ التّواصليّ الاجتماعيّ، ويكون سياق النصّ سياقين: أولهما لغويّ: يتجلّى في التّعبيرات الإشاريّة (هنا - هناك - هذا - هذه - تلك...)؛ وفي «التّعبيرات الجهويّة» (فان ديك، 2005: 139) (من المؤكّد، من المُحتمل، يمكن أن...)؛ وفي الضّمائر (أنا - أنت...)؛ وفي صيغ الجمل بين خبريّة،

وأخرى إنشائية كالاستفهام والأمر والتعجب، وهي صيغ تساعد على التعرف إلى طبيعة علاقة المتكلم بالسامع من ناحية، وإلى كيفية استدلال متلقي الخطاب على ما يُريده المتكلم منه؛ وفي الأفعال (في مختلف صيغها الصرفية)؛ وفي الأدوات «الإحالية» (بالتأكيد، فحسب) التي تنشأ لغةً وتتجلى كذلك، لكن مِيرَتَهَا أَنَّ لها بُعداً اتصاليًا يختزل معلومات سابقة، ومعلومات ممكنة مُفْتَرَضَةٌ؛ وثاني السياقين اتصالي: يُسْتَقَى تفسير السياق الأول منه، وأبرز مكوناته: المتكلم، والسامع، وزمن المنطوق، ومكانه، والظروف، والأحوال... السياق وخاصة الإطاران الزماني والمكاني ذلك «أنَّ محلَّ الخطاب ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي يظهر فيه الخطاب، لأنَّه يؤدي دوراً فعالاً في التأويل، بل كثيراً ما يؤدي ظهور قول واحد في سياقين مختلفين إلى تأويلين مختلفين» (خطابي، 1991: 52).

ويشير كواربي إلى أنَّ مقارنة لابوف السوسiolسانية هي من أولى محاولات الرِّبط الآلية بين خصائص الخطاب اللسانية التي تمثل بنيته الظاهرة، وبين الظروف الاجتماعية التي أنتج فيها الخطاب، (Passerault, 1996: 24) كما تؤثر في محتواه وفي تنظيم أبنيته الكبرى.

للمقام أهمية في المسار الاستدلالي في صلته بالذاكرة المعرفية، وبالتفكير لإنشاء الافتراضات وترجيح بعضها على أساس قوة الأدلة أو ضعفها (وفق منهج استقرائي يقوم على المقارنة أساساً) من ناحية، ومدى مطابقة أو موافقة الأدلة لما هو مُنَجَز نصياً، ومدى صلة الافتراضات بالسياقات الموجودة والسياقات المُفْتَرَض وجودها من ناحية أخرى. وقد تكون الثانية جزءاً من الأولى أو مدعمة لها، وقد تكون منشئة لسياقات معرفية خاصة - جديدة ليست بمنبئة عن الأولى الأصل (Moeshler & Reboul, 1989: 168 - 170)، وهذا يرتبط بانسجام النصِّ نحو إعرابياً دلالياً، وبموافقته لسياق قوله، بما لا يجعل تفكير المخاطب مشتتاً بين مرجعيات معرفية مختلفة قد لا يجد روابط منطقية (فكرية خاصة) تبرر التحوّل من بعضها إلى بعضها الآخر - حتّى وإنْ أhalث المرجعية الواحدة على مكوناتها المتعددة مثل المكتبة - الشارع - المعرفة...

ويتحقّق الانسجام المقاميّ أيضاً، من خلال فائدة الخطاب بأن يتوافق مع الافتراضات الممكنة المختزنة في ذهن المخاطب، وبأن يضيف الخطاب إلى المتلقي معرفة جديدة قد تكون مجرد إخبار بغير معلوم؛ أو تبعث على

التفكير في صلة النصّ بصاحبه، وبسياق إنشائه، وبمبررات هذا الإنشاء، وبمدى تحقق التفاعل وعملية التواصل، وعدم التناقض من ذلك مثلاً أن يكون المخاطب بصدد قراءة كتاب، ويقول له المتكلم:

(7) أَنْتَ تَنَامُ نَوْمًا عَمِيْقًا

فَتَحَقُّقُ المخاطب ممّا يفعله يعكس ضرورة التناقض بين قول المتكلم وفعل المخاطب الذي يعي ما يفعل ويعتقد، ويمكن أن يردّ الفعل إنكاراً، أو توضيحاً، أو إصلاحاً، أو تدقيق معلومة، أو محاولة استيضاح عن قصد المتكلم ممّا أراد التعبير عنه الذي قد يكون على المجاز دون الحقيقة¹⁵، على أن تحقق الانسجام في النقطة الثانية كان التركيز فيه على المخاطب دون المتكلم، والنظر إلى المسألة من الوجه الآخر قد يتنافى والوجه الأول - إلا إذا كان الحرص على وجود تكامل بين مستويات النقطة الثانية الثلاثة -

والنظر إلى وجوه التناقض المُفْتَرَضَة يؤدّي بدوره إلى مستويات ثلاثة هي: أن منشئ الخطاب قد يتعمّد جعله متداخلاً تركيبياً ودلالة - وإن يكن منسجماً نحو إعرابياً - ممّا قد يؤدّي إلى التشابك والتعقيد والغموض - حتّى وإن كانت لغة الخطاب بسيطة سهلة - وقد يبرز هذا في شعر الحداثة خاصة الأكثر معاصرة (والمعاصرة هنا بالمفهوم التاريخي لا الحضاري)؛ ثم إن توافق الخطاب مع سياق قوله أو تنافره معه أمر نسبي سواء أ كان بالنسبة إلى منشئ الخطاب أم إلى متلقيه، من ذلك مثلاً أن صاحب النصّ عندما يعمد إلى التأليف بين مرجعيّات معرفيّة قد تبدو في الظاهر مختلفة متباينة متباعدة - تكون وراءه أبعاد فكرية وقصديّ يتجاوز العاديّ المألوف إلى إنشاء رؤية جديدة للحياة والكون في شكل من أشكال الثقافة؛ وبالتالي، فإنّ إبداع النصّ لن يكون من طرف صاحبه إنشاءً لغويّاً فنيّاً، وإنّما يكون أيضاً من قبل متلقيه في قراءة النصّ على أساس الرؤية أولاً، فالرؤيا ثانياً، قراءة تجعل التأويل يخرج عن إطار المعجم المحدود إلى أفق الرمز المُطْلَق؛ على أن الفائدة والإفادة وعدم التناقض شروطاً انسجامٍ موجودة دائماً - في أيّ خطاب، وإنّ ينسبٍ متقاوطة - بقي أن المسألة مشروطة دائماً بعلاقة النصّ بالذات فحسب، وإنّما بالآخر من ناحية، وبالموضوع أطراً حافّة بإنشاء الخطاب من ناحية أخرى. وفي هذا المستوى الثالث، وكما يكون خروج المتلقي خاصة من

15 Moeschler & Reboul, 1989 :185 - 184 ; Rastier, 1989 : 61 - 62.

دائرة التناقض يمكنه قراءة الخطاب قراءتين: الأولى آنية: يكون البحث من خلالها عن مبررات منطقية لسبب إنشاء المتكلم بصيغة النص المحددة دون أي صيغة أخرى، صلة نص بمقام؛ والثانية زمانية: بالرجوع إلى مقامات سابقة قد تكون وراء إنشاء الخطاب بصيغته المختارة.

وبين المتكلم والمخاطب، يجد الخطاب شرعية وجوده في لغته، ومرجعه، ومقامه؛ ويتحقق الانسجام بينها سواء أ كان عبر المنهج البرهاني، أو المنهج البياني، وكلا المنهجين لا ينفي قيمة الآخر ولا قيمة النص إذ «ينبغي أن نلاحظ أن في كل الأمثلة الفرضية وحدها المعبر عنها بوضوح من طرف النص المُعلن ليست لها تأثيرات سياقية وليست هي إذن موافقة للمقام: ويمكن للمتكلم الذي يعتزم التعبير عن فرضية خالية من التلازم مع المقام أن يكون هو ملائما جدًا للمقام». (Moeshler & Reboul، 1989: 185)

وليس من الضروري أن يطالب المخاطب بفهم النص بما ينسجم وقصد المتكلم، فمنشئ الخطاب يكون أحيانا مدفوعا إلى فهم قصد المخاطب إذا ما كان الانفعال والتفاعل، فتكون عملية التواصل خطابين متناظرين هما: خطاب المتكلم من ناحية، وخطاب المخاطب من ناحية أخرى؛ وبذلك يكون التناقض أو الاختلاف مولدا لنصوص عديدة، ليس من الضروري أن تكون مترابطة في ما بينها على أساس الانسجام، أو الاختلاف أو القراءة والتأويل، وإنما على أساس الداعي والتتابع، فتستدعي المرجعية المرجعية من نفس النوع أو الجنس، كما قد تكونان من نوعين أو جنسين مختلفين، فإذا الموسوعة المعرفية متعددة الوجوه، أما المقام الذي استدعاها فواحد، وهو الأول ذاك الذي أنشأه المتكلم.

خلاصة

القارئ المساعدة على تحقيق الانسجام متعددة متنوعة، وليس هذا إلا جزءا من مظاهر تشابك العلاقات بين الأبنية الصغرى والكبرى والعليا في اتجاهين: أفقي وعمودي. ومن تجليات نسيج النص في تماسكه وانتظامه:

- الانسجام البنيوي التركيبي: الذي قد يقترن بالنحو والإعرابي، كما يمكن أن يُنظر إليه في كلية النص باعتباره وحدة دلالية؛

- الانسجام المقترن بالعلاقات المعجمية: إما في علاقة الدال بالمدلول، وإما في علاقة كليهما بما يرادفهما في المعجم، وهو ما يُفسح المجال لتبيين درجات

التفاوت في الطاقة الإيحائية للفظة تتكرر بصيغ متعددة في النصّ تساهم في توسيع دائرة المعنى دون الخروج عنه في وحدة البنية الكبرى/ الموضوع؛

- الانسجام وفق القرائن المرجعية المؤسّسة للبنية الصّغرى: هو مظهر امتداداً لسابقه إذ يمثّل الإطار الذي يكون فيه الانسجام بين اللفظ والمعنى، أو بين المحور والأشعة التي تنشره في مواضع مرسومة من النصّ هي مفصله الموضوعية الأجناسية في آن؛

- الانسجام المقترن بالموضوع وفق أنساق متعددة مختلفة يحددها الجنس حيناً، وحركية النصّ وكيفية تحقّقها في الغالب الأعمّ؛

- الانسجام الناتج عن العناصر السياقية المقامية: انفتاحاً على المجال الدّاولي في فهم النصّ ومحاولة التعرّف إلى أسباب اختيار صيغة في النصّ دون أخرى، وخلفيات الأعمال اللغوية إنشاءً علاقة صاحب نصّ بمتلقّيه يُفترض أن تحقّق حدّاً أدنى من المناسبة والإفادة في عملية التّواصل، فإذا النصّ هو صياغة لغوية لمرجع معرفي اجتماعي قد يكون أنياً أو زمانياً تعدّداً في مقامات القراءة ووجوهها التي لا تتأى عن الأصل أو الإطار السّردّي الأجناسي.

4. في علاقة الانسجام بالخطاب السّردّي

4. 1. المجالات والتّجليات

الانسجام في الخطاب السّردّي هو الخيط النّاطم بين تصوّر الكاتب وصياغته ملفوظاً سرديّاً تصوّره لواقع يوهّم «بحقيقته» حتّى وإنّ تعلق الأمرُ بسيرة ذاتيّة (Bertrand, 2000: 59 - 60). ويتجلّى الانسجام في التّتابع المنطقيّ الذي يحكم الأحداث وكيفية التّسيق بين الأزمنة الموضوعية والأخرى السّردية، كذلك في طبيعة العلاقات بين الشّخصيات تنتظم في سلاسل من الأسباب والنتائج كثيراً ما تكون بعض العبارات فيها عاملاً مساعداً على التّناغم والتّحوّل في آن مثل: عندما، وهكذا، إذن، حتّى أن...؛ تحوّل يقوم خطّياً على التّتابع ولكنّه يشي في الآن ذاته ببنية تركيبية تراكمية لا تخلو من تعقيد في البناء مع اتّساق مصدره المرونة في الأبنية السّردية - على تنوّعها - بما يساعد على دخولها في أيّ نسيج. (Bertrand, 2000: 203)

وعلى خلاف ذلك، يذكر محمد خطّابي كلّاً من براون ويول في كتابهما: «تحليل الخطاب» إذ يقول: «إنّ هذين الباحثين، على خلاف كثير من باحثي الانسجام، لا يعتبران انسجام الخطاب شيئاً معطى شيئاً موجوداً في الخطاب ينبغي البحث عنه للعثور عليه وعلى ما يجسّده، وإنّما هو، في نظرهما، شيء يُبنى، أي ليس هناك نصّ منسجم في ذاته ونصّ غير منسجم في ذاته باستقلال عن المتلقّي» (خطّابي، 1991: 51)؛ ومن هنا، يكون الانسجام عمليات ذهنيّة أكثر منها لفظيّة تبدأ احتمالاً أو احتمالات، وتنتهي نزوعاً إلى اليقينيّة على أساس تصوّر المخاطب أو المتلقّي الانتهاء إلى ما كان المتكلّم أو الكاتب يريد التعبير عنه، لكن ليتمّ ذلك يُبين آدم أنّ هناك علامات/ شروط تُبرز اتّساق/ انسجام الخطاب السردّي من ذلك الانطلاق من بنية الخطاب - مهما تكن خصوصيّاتها - والسّعي إلى استنباط المعنى فالدّلالة على أساس ما ترسّخ في الذّهن والذاكرة من معرفة تتعلّق بمجال مخصوص، المجال الذي يفتح على سياقات متعدّدة لا تخرج عن إطاره، وهي تجتمع لتحقيق الانسجام - وإنّ بدرجات متفاوتة - بين مقصد المتكلّم أو منشئ الخطاب، ومنتهى المخاطب في التعرّف إلى الخطاب أنّ يكون منسجماً أو غير منسجم¹⁶.

وهناك أهداف وغايات تُفرز الخطاب وتكون سبباً لإنشائه أو تنتج عنه، ويكون أثرها في المتلقّي (فرداً أو جماعة) انفعاليّاً انطباعيّاً وجدانيّاً، أو عقليّاً منطقيّاً يتركّز على ثنائيّة الصدق والكذب في بُعدين: أولهما إنشاء لغويّ مطابقة صيغة قول أو خطاب للواقع أو للكون الماديّ؛ وثانيهما هو توافق ما في ذهن الكاتب أو المتكلّم مع ما في ذهن السّامع أو القارئ - وأنّ على المستوى المعرفيّ الموسوعي -؛

إنّ من شروط انسجام الخطاب السردّي قيامه على التّتالي في البناء تأليفاً بين الجُمْل على أساس التّطوّر في النّسق والنّمو في المعنى، ومن مظاهره وجود

16 أيّ خطاب لا بدّ أن يكون منسجماً في إحدى الصّيغ الثلاث التّالية:

1. من وجهة نظر المتكلّم؛
2. من وجهة نظر المخاطب،
3. من وجهة نظر كليهما توفّقاً إلى القصد والغاية.

وبالنّسبة إلى الصّيغتين الأولى والثّانية هما اللّتان يذهب بعض الدّارسين إلى اعتبارهما من العلامات الدّالة على عدم الانسجام لكنّ ذلك بالقياس إلى الصّيغة الثّالثة، لكن إذا نُظِرَ إلى النّصّ أو الخطاب من وجهة أُحدية، فلا بدّ أن يكون منسجماً وفق ثنائيّة المُصرّح به والمُضمّر من الخطاب: لغة ودلالة.

شخصيّة على الأقلّ، ووحدة الحدث أو انسجام سلسلة من الأحداث؛ فالخطاب السّرديّ - من وجهة نظر فان ديك - يقوم على مراحل تضمّ كلّ منها حدثاً أو أحداثاً في وحدة نسقيّة وموضوعيّة خاصّة، لأنّ التّحوّل من مرحلة إلى أخرى مقترنٌ بتغيّر الموضوع أو الإيذان بتطوّره نحو مرحلة أخرى من الأحداث. (Van Dijk، 1976: 550) ويشير فان ديك إلى أنّ البناء يحيل على تصوّرين ذهنيين على الأقلّ، أولهما هو الحدث عندما كان فكرة وقبل أن يكون جزءاً من نسيج نصّ؛ وثانيهما تصوّر المتلقّي، مرحلة هي جزء من «عالم الإمكان» واستدعاء لعدد كبير من الأحداث الأخرى التي قد تتّصل بالسّرد نمط إنشاء، أو بالوصف صيغة ومحتوى. ومن الأمثلة التي يقدّمها فان ديك:

(8) ضَرَبَ زَيْدٌ عُمَرَ.

(9) كَانَ زَيْدٌ مُتَخَاصِمًا مَعَ عُمَرَ، أَزَادَ أَنْ يُعَاقِبَهُ، إِذْنُ أَخَذَ الْعَصَا، وَضَرَبَ عُمَرَ عَلَى رَأْسِهِ، وَسَقَطَ عُمَرُ.

هذه أحداث سردية تختلف عن التالية إذ تتعلّق بالوصف:

(10) الشَّمْسُ مُشْرِقَةٌ.

(11) المَطَرُ يَنْزِلُ.

(12) سَقَطَ عُمَرُ.

(13) قَبَلَتِ الْفَتَاةُ أُمَّهَا عِنْدَ ذَهَابِهَا إِلَى النَّوْمِ.

أمثلة وإن كانت في ظاهرها حدثيّة فإنّها تتضمّن انطباعات ومواقف يمكن أن تكون توسعة أو إضافات تمدّد الخطاب وتُطيله.

فما يريد فان ديك إثباته هو أنّ الانسجام لا يكون فقط على مستوى المنطوق اللفظي، ولكن بينه والإيحاءات والتّصوّرات التي تمهّد للإنجاز النّصيّ السّببي المنطقيّ بين الوحدات الكبرى والصّغرى، (Van Dijk، 1976: 551 - 554) بما أنّ نظام الخطاب السّرديّ يبدأ بجملة نواة تتوسّع دائرتها وفق أنساق متعدّدة وربّما متنوّعة، لكن يحكمها نظام لا تحلّ معه متتالية محلّ أخرى وإلاّ اختلّ النظام السّرديّ جميعاً، وهو مرتبط بتصوّر السارد واتّفاقه ضرورةً مع نظم الكلمات والجمل؛ والمواضيع - وهي تتّسع وتنتشر - تتحوّل من النّسق الخطّيّ إلى البناء الهرميّ في وجود بنية كبرى أو أبنية تتفرّع إلى مكوّنات أدقّ منها - وإن كانت تشاركها في المعنى وفي الخصائص العامّة - وهو التّوجّه

ذاته الذي بيّنه فان ديك في عنايته بالأبنية الكبرى وحتى بسائر الأبنية، وهي تخضع إلى السياقين المقالي والمقامي، وكلاهما نام متطور، وربما متغير في مفصل معينة من النص أو الخطاب، تلك التي تقترن بالتحولات الكبرى تميز متتالية عن أخرى.

ويؤكد آدم أن الانسجام في الخطاب السردى ليس بين التّصوّر السردى والمرجع الواقعي في جانب ضئيل منه، وإنما بين البنية والعالم وقد أعيدت صياغته بما يوهم بالتّاريخ ولكن ينأى عنه، وهي أيضًا صياغة تستدعي أخرى مقترنة بالبعد التّواصلّي التّداولي. (Adam، 1994: 123 - 133)

4. 2. الانسجام وأثره في التأسيس للنظرية الأجناسية

لئن اتفق الباحثون ومحلّو الخطاب عامّة في وجود فواصل دقيقة جدًّا بين الاتّساق والانسجام حتّى أنّه لا يمكن الحديث عن أحدهما إلّا باتّخاذ الآخر مدخلًا لذلك فإنّ هناك اختلافات في أولوية أحدهما على الآخر من حيث علاقاتهما بالخطاب السردى تدرّجًا من أهميّة الاتّساق بالنسبة إلى كلّ من هلاي وحسن، على جعل التّناسب بين الاتّساق والانسجام في التّجليّ دون الخصائص والوظائف كما بيّن فان ديك في نظريته القائمة على نحو النصّ ونسجه وفق أبنية متعدّدة مختلفة مؤتلفة، وهو ما يوافقه فيه آدم - وإن اختلفت المداخل والأهداف - إلّا أنّ ما تمّ الاستدلال عليه مع شارول وأثبتته وولف أنّ الخطاب وإن يكن سرديًا، فإنّ له أبعادًا تداوليّة لا تُقصي العلاقة المتينة بين المبنى والمعنى، وما يحفّ بهما من مرجعيّات وأطر تساهم في بناء النصّ وإنشاء المعنى؛ بل لعلّ الأهمّ بالنسبة إلى وولف هو بناء المعنى وفق منطق إشكاليّ لا تكون معه اللّغة والألفاظ إلّا أداتين لسانيتيّتين لتحقيق ذلك (Wulf، 2006: 287 - 288) بما أنّ المؤشّرات اللّغويّة لا تكون بنفس خصائصها المعجميّة أو النّحويّة في الخطاب السردى، وإنّما تكتسب معاني أخرى ارتباطًا بالسياق الذي ترد فيه، بما في ذلك الضّمائر، والانسجام عنده دائمًا، لا يخضع لقواعد ثابتة، ولكنّه يقوم على متحوّلات عديدة أبرزها السّياقيّة. (Wulf، 2006: 287 - 288)

يرى وولف أنّ الانسجام هو الذي يضع ملامح الاتّساق في الخطاب السردى وليس العكس، وهذا لا يعني ألاّ منطق في الخطاب السردى، ولكنّه يجده في النصّ المفرد وليس في النّصوص المنسجمة ضمن جنس الخطاب، حتّى وإن

لم يَحْدُ عنه، يقول وولف: «لا يشتغل النَّصُّ على نموذج معالجة المعلومة التي قد تختزل عوامل الانسجام إلى تعليمات. فعوامل الانسجام في النظام الأدبي هي متحوّلات ليس فقط مفتوحة ومتعدّدة الوظائف، ولكن أيضًا عوامل يمكن اعتبارها توليديّة على أساس أنّها جزء من مسار لم تُنشأ له في الأصل، وعلى هذا الأساس، لا وجود لعنصر محايد من وجهة نظر تداوليّة. إنّ وحدة الانسجام ليست المتتالية المُحدّدة، ولكنّها تفسير الانسجام الذي يتغيّر حجمه، ذلك أنّ كلّ وحدة نصيّة يمكن أن تُعبّر كذلك من منظور محليّ أو إجماليّ»، (Wulf, 2006: 295) إنّ ما يتغيّر بالنسبة إليه هو تحليّ الانسجام ومظاهره، وليس مقولات الجنس أو الأجناس التي يكون جزءًا من صيغها إنتاجًا وإنشاءً.

الانسجام هو الإطار الذي يحتوي الخطاب ويكسبه خصوصيّة ودلالته المتأثّية من مؤشّرات وعلامات لغويّة عديدة، ولكن بالنظر إليها عبر علاقة انسجام الخطاب وأنظمتها بعنصر الإفادة من خلال الأجناس الخطابية عامّة؛ مفهوم استدلتّ عليه جوبير (2006) ولم يتفق فيه معها شارول، وحجّته في ذلك أنّ مثل هذا القول يتطلّب ربط الانسجام بالدلالة وهي متبدّلة متغيّرة بحيث لا يمكن الانتهاء إلى وضع تعريف محدّد لها، فكيف نقرن «الثابت» بالمتحوّل، فالأمر بالنسبة إليه لا يتعلّق بمحاصرة مفهوم بقدر البحث عن آثار الانسجام في الخطاب عبر الاستدلال، لأنّ الانسجام قد يكون واضحًا وقد يكون ضمنيًا، وهو ما يدخل السياق في عمليّة الاستدلال استنادًا إلى نظريّة الإفادة التي عبر عنها كلّ من سبربر وولسن (1989) بما يولّد فرضيات عديدة ويستوجب برامج بحث للتعرف إلى انسجام الخطاب عامّة، والأدبيّ منه خاصّة لما يتطلّب من معارف مرجعيّة محدّدة تضاف إلى الاستدلال السياقيّ. (Charolles, 2006: 26)

تأتي هذه العلاقة في إطار مختلف المسارات الاستدلالية وما يمكن أن تقترن به من عوامل مساعدة أو معرّقة في الاستدلال منهاجًا وفي الانسجام غاية في النَّصِّ وفي عمليّة التّظهير؛ وكلاهما يتّخذ ما يحدث في اللّغة وبها سبيلًا لانتهاء إلى علاقة كلّ من النَّصِّ والخطاب بالجنس، خاصّة وأنّ الأجناس تُمثّل باعتبارها نُظُمًا خطابيّة تُمكن من تقليص التّناقض الذي قد يوهّم بالثّبات في الوضعيات السياقيّة—على الأقلّ في الجانب الموضوعيّ منها—، وبالتالي، ضمان التّوصل إلى نتائج تظلّ مُتّازعة بين التّوافق والاختلاف؛ وما يحدّد المدى أو يحده هو الأنواع باعتبارها «ملفوظات مستقرّة نسبيًّا» (Bakhtine, 1984: 265) من حيث تمثيلها الأجناس في خاصيّتي الاستمراريّة عبر الزّمن،

والمعيارية إذ «يتلقى المتكلم أشكال اللغة التطورية المشتركة (وهي المكونات والأبنية النحوية) كما الأشكال التي تبدو بالنسبة إليه، أقل تطوراً في الملفوظ، أي أجناس الخطاب التي تعكس المعرفة المشتركة بين المتكلمين ولها نفس قيمة أشكال اللغة؛ ذلك أن أجناس الخطاب إذ تُقاس بأشكال اللغة، تبدو أكثر تغيراً ومرونة، لكن بالنسبة إلى الشخص الذي يتكلم، هي لا تعكس القيمة المعيارية، وإنما هي معطيات. ولهذا، وبالنظر إلى الملفوظ في خصوصياته ومميزاته، لا يمكن اعتباره جمعاً أو تأليفاً حراً وفي المطلق بين أشكال اللغة» (Bakhtine، 1984: 287)، وبين المتكلم والمخاطب، وبين الإجراء وبين التنظير الأجناسي.

لقد أصبح الجنس أحد أهم محاور التفكير في التفاعل اللفظي وفي انسجام الملفوظات السياقية. ومقارنة خطاب أو نص تقوم مبدئياً، على توافق بين شخصين، حول إحكام نقاط الاستدلال في أنظمة ملفوظين. وفي كل المبادلات اللغوية، المكتوبة منها والشفوية، يستعمل المتكلم نماذج يُخضع لها - عن وعي أو غير وعي - ملفوظاته. وهكذا، يبدو الجنس شكلاً خطابياً اجتماعياً تعاقدياً محكوماً بتقليد يكاد يكون مقنناً، وله خصائص مميزة تعكس شكلاً مقولباً (Kanwat، 1994: 269 - 270) يجعل للانسجام أثراً في اللغة إجراء وتنظيراً.

خلاصة

التدرج في التعرف إلى الانسجام خصائص ومظاهر، لم يكن إلا عتبات لتبينه عبر الخطاب السردى، قد يكون معطى، وقد يُبحث عنه في ثنايا النص إذ ليست مراحل البنيوية والموضوعية خاضعة للنسق الواحد الرتيب لا على مستوى المرجع ولا الانبناء ولا الانطباع، فإذا النص السردى متنازع بين ثنائيات عديدة قد تساعد على تبين انسجامه إذا وضحت، وقد تعسره إذا كانت قرينة عالم الإمكان أو رهينة الرمز والغموض.

كذلك ما يجعل انسجام الخطاب السردى محل بحث أن لا تكون بنيته العليا واحدة بل متفرعة مما يعني التحول المستمر في السياقات المقالية وكذلك في عمليات البحث في اتساقه والاستدلال على انسجامه على أي نحو يتمن: هل بتتبع المسار اللغوي التركيبي، أم الأجناسي المعياري؟ وهل من علاقة أو علاقات أخرى يمكن أن تنشأ بين الاستدلال منهجاً، والانسجام غايةً، والخطاب السردى مادةً وصورة؟

الفصل الثاني

الاستدلال

1. تعريف الاستدلال، وتجلياته في الخطاب

يعرّف عبد الله صولة الاستدلال - على ضوء ما جاء في كتاب: «مصنّف في الحجاج - الخطابة الجديدة» لبرلمان وتيتاكا - بأنّه منهج تحقّق التّواصل بين المتكلّم والمخاطب تحوّلًا من الإقناع إلى الاقتناع؛ وعلى هذا الأساس، فـ «إنّ الاستدلال يقتضي أن تكون كافّة عناصره المكوّنة له غير قائمة على التّعّدّد والاشتراك فهي أحديّة المعنى بحيث تكوّن هذه العناصر ممّا يفهمه النّاس جميعا بدون اختلاف بينهم، ولا يثير تأويلها أيّ مشاكل أو مسائل خلافيّة بينهم. والاستدلال غير مرتبط كذلك بمقام مخصوص» وإنّما تكون منطلقاته «مقدّمات المقدّمات المتعلقة بالقضايا (...)» ومن هذه المقدّمات الوقائع، والحقائق، والافتراضات وهرميّة القيم والمعاني أو المواضيع، فباختلاف المنطلقات تختلف المقامات، وتتعدّد مسارات الاستدلال وآلياته وسبله وغاياته، ففي أيّ تجلٍّ من تجلّيات الاستدلال، تكون الغاية نقطة التقاء بين المتكلّم والمخاطب أو منشئ النّصّ ومتلقّيه - على أساس موافقة المقدّمات للنتائج توافقًا إلزاميًا - وفي أيّ مرحلة من مراحل الاستدلال يمكن أن يكون الاختلاف أو التّناظر بين طرفي عمليّة التّخاطب الأساسيين، لكنّ الاختلاف يؤوّل إلى تلاشٍ - وإنّ بتدرّج - مع النّتائج، لأنّ العُقد عقد التّواصل بينهما قائم منذ البدء على الانسجام وليس على التّباعد، وهو ما يكون ضمانًا للعلاقة التّلازميّة بين المقدّمات والنتائج. فالاستدلال - باعتباره آليّة تحليل الخطاب - يأتي ليساعد على تجاوز ما قد يطرأ من غموض يعرقل التّواصل بين منشئ الخطاب ومتلقّيه، ويكون الاستدلال بوضع اللفظة أو العبارة في سياقها من الخطاب لِمَا قد يكون لها من معانٍ حافّة ارتباطًا بطبيعة السّياق الذي ترد فيه.

ويرى شكري المبخوت أنّ «أساس الاستدلال هو علاقة اعتقادات المتكلّم بحالة الأشياء أي ترابط الأحداث والوقائع في الكون» (المبخوت، 1999: 362) علاقة لا يُفصح عنها الخطاب دائمًا، لكنّ غالبا ما يسعى المخاطب إلى التّعريف إليها والتّعريف بها فهمًا للخطاب وتأويلًا له انطلاقًا من أبنية اللّغة وصولًا إلى دلالة الخطاب، الدّلالة التي يسعى المتلقّي إلى أن يجعلها مُقارِبة - أقصى ما يمكن - إلى اعتقادات المتكلّم، بما أنّ الخطاب يقوم على مقدّمة أو مقدّمات ترتبط ضرورة بنتيجة أو نتائج قد تكون صريحة على مستوى الظّاهرة اللّغويّة، وتكون ضمنيّة على مستوى الدّلالة.

ويحدّد محمّد صلاح الدّين الشّريف الاستدلال بقوله: «والاستدلال وإنّ

كان من معناه طلب الدليل بحيث يكون المطلوب عند الطالب غير حاصل بالضرورة، فإنه لفظ جار في ما وقع به الدليل. ومهما يكن تصنيف الفلاسفة للأدلة، فالاستدلال في الأصل قولٌ كأخبر واستخبر واستفسر واغتاب. فجميعها أعمال قولية تصدر من فاعلها لأجل ما فيها من الطلب أو اقتضاء اللفظ.¹ وهو تعريف يكتنز مختلف المجالات التي يمكن أن يكون فيها الاستدلال منهجا للإقناع والافتناع والمعرفة في بُعديها العلمي والتدولي. ويربط الشَّريف في تعريفه الاستدلال بين المنطق مجال الفلاسفة من ناحية، وبين مجال القول إنشاءً كلاميًا من ناحية أخرى، بما يستدعي حضور المتكلم والمخاطب، ثم المنطق باعتباره مجالَ طريقةٍ ربطٍ بين اللفظ والمعنى من ناحية، والمعنى والدلالة من ناحية أخرى.

ويتأكد هذا التعريف من خلال اعتبار شكري المبخوت «الاستدلال مفهوماً مشتركاً في المنظومة المعرفية القديمة بين علم المنطق والكلام وأصول الفقه والبلاغة [و] هو أيضاً مشترك في علومنا الحديثة بين اللسانيات والدلالات والتداوليات وعلم النفس والذكاء الاصطناعي والإعلامية والمنطقيات والعرفانيات. والزَّهْنُ الرَّئِيسِيَّ مهما تعددت الاختصاصات هو الإجابة عن تساؤلات أساسية تتصل بالعمليات الذهنية وشروط قيامها وتوفيقها وقواعدها وفعاليتها وصلتها بتمثيل الكون وعلاقتها باللسان والخطاب وكيفية تعاملها مع المقاصد والاعتقادات»²، فالاستدلال - باعتباره منهجا في التحوّل من اللفظ³ إلى المعنى، أو طريقة في استنباط الكلّي من الجزئي، أو التجريدي من الإجرائي - هو إحالة على أنّ البنية الواحدة - وفي إطار المرجعية المخصوصة، سواء أكانت معجمية أم نحوية تركيبية - تؤسّس للبنية الهيكل التي تُفسّح المجال للامحدود من المعاني يُستدلُّ عليها بالعقل من خلال «تركيب الكلام» (المبخوت، 2006 (أ): 73) بحثاً في المعنى المعجمي وفي العلاقات الرابطة بين الكلمات ترتيباً وتأليفاً؛ على أنّ هذا لا يعني أنّ الألفاظ هي نقطة الارتكاز في عملية الاستدلال وإنّما هي جزء من منظومة متكاملة

1 - النحو وبلاغة الاستدلال - تقديم الشَّريف للاستدلال البلاغي لشكري المبخوت: 7.

2 المبخوت، 2006 (أ): 17. وانظر أيضاً الصفحات من 18 إلى 20.

3 يقول المبخوت إنّ الجرجاني في «دلائل الإعجاز»: «يقصد باللفظ أحياناً بِنْيَتَهُ الصَّوْتِيَّةَ من نسق للحروف ونُطْقَ بها، وأحياناً أخرى دلالة اللفظ على معناه دلالة معجمية، وأحياناً ثالثة ما يستفاد من الملفوظ من دلالة هي نتاج التعليق النحوي، فاللفظ عنده، وهو النحوي، حرف أو كلمة أو قول» 2006 (أ): 49.

تقوم على الحجاج الضمني أو الصريح بين منشي الخطاب ومتلقيه، الحجاج وظائف وغايات تأثيرية و«نتائج تعامل بين الأبنية النحوية وتفاعل بين الدلالات المستخلصة منها في مقام من المقامات» (المبخوت، 2006 (أ): 208)، فيكون الاستدلال - بناءً على ذلك - طريقة للخروج بالخطاب أو النص من مستواه الحسي اللغوي، إلى المستوى التداولي، فإمكانية تجريد النموذج أو المنوال منه. إنه جهد في التأويل استناداً إلى البلاغة من ناحية، وإلى المنطق من ناحية أخرى بالبحث في الخطاب والملفوظ النصي عن أشكال الترابط وصيغته، وعن القواعد الشكلية التي تحكم المنطق (Bardin، 2007: 16) المسيج للنص، المؤجّة لعلاقة البنية بالمحتوى بتبيين كيفية توزيع الوحدات، ولغة الخطاب المعتمدة: هل تعتمد الوضوح والتبيين، أم الغموض والتشفير، والعلاقات التفاعلية بين أنماط الخطاب وأنواعه، وخلاصة مختلف الأنظمة ووضوعها في أصناف نموذجية. ويكون الاستدلال سبيلاً أيضاً للمقارنة بين أصول المدونة على مستوى محور الاهتمام المشترك، وما يمكن أن يُفسي إليه من نتائج في التصنيف، وفي مدى الفصل بين البنية والمعنى.

خلاصة

يقوم تعريف الاستدلال على مرجعيات هي: المعجم، والبلاغة، والفلسفة وخاصة منها المنطق الذي قد يكون جدلياً، وقد يكون برهانياً؛ وهو ما يربط تعريف الاستدلال استناداً إلى وظائفه: في الخطاب إذ يُتخذُ منهجاً في العرض والتبويب والتصنيف؛ وفي البحث مساراً لربط النتائج بالأسباب، أو المقدمات بخلاصاتها؛ وفي التداول بإنشاء صلة بين صاحب النص ومتلقيه، إما بإثبات أطروحة أو بنفيها، بما يعني أن هذه العلاقة قد تقوم على التواصل ولكن ليس شرطاً أن تفضي إلى الإقناع والافتناع.

وإذ يُربط الاستدلال بالخطاب السردّي، فإن الغاية منه هي التعرّف إلى كيفية انسجام اللفظ مع المعنى، وإلى سبل استنباط الدلالة منهما معاً. وهي ليست بمعزل لا عن السياق المقالي ضمانات في الألفاظ والأنساق، ولا عن السياق المقامي الذي يحول أحديّة المعنى إلى تعددية في الدلالة تؤول هي نفسها إلى وحدة في الهيكل والنموذج استناداً إلى الاستدلال المنطقي التجريدي.

2. طُرُق الاستدلال ومناهجه

عبر منهج الاستدلال تكون مسارات البحث والتفكير والتأليف متعلقة بصياغة الكلمات، أو بترتيب الأقسام، وبمختلف الوحدات المترابطة باعتبارها كلاً مُنظَّمًا. ويذكر كل من سيربر وولسن منهجين في الاستدلال على أساس طبيعة النص المراد تحليله؛ وآليات الاستدلال في حد ذاتها (بما أنها مرتبطة بالسبب الأول)؛ ونوع الاستدلال.

وهذان المنهجان في الاستدلال هما: المنهج البياني، والمنهج البرهاني.

المنهج البرهاني	المنهج البياني ⁴ (الجدلي)
* يقوم على الاستقراء (خروجاً من الخاص إلى العام، أو من التفصيل إلى الإجمال وربطاً بين مقدمات ونتائج غير ضمانات)	* يقوم على التفسير والتعليل (تخصيصاً لما هو عام، وتفصيلاً لما هو مجمل، استناداً إلى المعرفة الشمولية الكلية المشتركة للعالم الحسي الواقعي).
⇐ التصاعد من الأبنية الصغرى إلى الكبرى إلى العليا.	⇐ الانحدار من الأبنية العليا إلى الكبرى إلى الصغرى.
* يرتبط بما هو ذهني فكري تجريدي منهجاً وغاية، فيكون «النموذج المنطقي صيغة مُحكَّمة التشكيل، مجموعة منظمة من مكونات، على ضوئها، يمكن تطبيق عمليات منطقية رسمية» (Wilson & Sperber, 1989: 113)	* ينطلق مما هو ذهني فكري تجريدي مرجعيةً وأليةً تفكير، وينتهي إلى البراهماتي غاية. «فكل فرضية واقعية تُضم إلى مجموعة فرضيات سابقة لاستخدامها نقطة انطلاق مسار استدلال هدفه تعديل التمثيل العام الذي يُكونه الفرد عن العالم، كما تحسینه» (Wilson & Sperber, 1989: 118)
* الاستدلال يكون مستنداً إلى الثقافة العالمية، ويتجلى في أشكال منطقية.	* الاستدلال يكون عفويًا، ذلك أن «تشكيل الفرضيات عبر الاستنتاج هو مسار مركزي يقوم عليه الاستدلال البياني» (Wilson & Sperber, 1989: 131)
* الاستدلال فالانسجام يقوم فقط على اللفظ.	* الاستدلال فالانسجام يقوم على اللفظ والمعنى معاً.
* الاستدلال يصح في الاتجاه وضده.	* الاستدلال يصح في اتجاه واحد.
* الاستنباط يكون دائماً من مقدمتين «حقيقتين» في تجلٍ مادي لفظي.	* يمكن استنباط ما هو افتراضي مما هو واقعي «حقيقي»
* مقدمات يقينية.	* مقدمات ظنية هي أقوال عامة مشهورة غير يقينية.
* الاعتماد على المبادئ الأولية الصادقة بالضرورة، فهي ملزمة	* المقدمات قضايا مشهورة فيها نسبة من الصدق تُعظم أو تضعف

4 بمعنيين: بلاغي وتداولي معرفي.

→ المَثَلُ الكامل للمعرفة البرهانية موجود في الرياضيات، لأنها تقوم على مبادئ بيّنة بنفسها. * القياس برهاني. ← علمه بديهي وضروري وكُلّي. * الاقتصار على دليل واحد، ولا يُشترط تعدّد الأدلة في المسألة الواحدة ← البرهان لا يعتمد إلا على المقدمات الحق لإنتاج الحق → يبعث على التسليم. * يهدف البرهان إلى تعليم الغير وإيصاله إلى الحق. * النتيجة حاسّة. * المنطق قضايا تُنتج الحق من ذاتها. * طبيعة المتحاورين: علاقة مُعلّمٍ بمتعلّم. (البهلول، الباب الأول: الججاج الجدلي في التّراث اليوناني؛ الفصل 2: أنموذج المناقشة الجدلية الأرسطية، 2013 : 62 - 65).	→ الحاجة إلى إثبات صدقها بنقض المخالف لها. * القياس ← سوفسطائي؛ ← خطابي؛ ← شعري. * علمه مجاله الظّن والمُمكن والمُحتمل ← يمكن أن يكون صادقاً أو كاذباً. * لا يُقتصر على دليل واحد ← الجدل يحتاج - لطبيعته الخلافية - إلى أكثر من حجة ودليل. * أهداف الجدل اختبار الآراء والأطروحات ومناقشتها وتقيحها وتمييز الحق من الباطل ← إفحام الخصم «وهو - بهذه الخاصية الوظيفية - رياضة ذهنية قائمة على استعراض الحجج والحجج المضادة استعراضاً يُنمي الروح النقديّة، ويمكن من الحوار والنقاش الفكري مع الآخرين». (البهلول، 2013: 64 - 65) * تظلّ النتيجة مطلوبة تغضّدها حجج وتقوّضها حجج أخرى أقوى. * هو منطق الرّجحان. * طبيعة العلاقة هي بين متحاورين في الغالب نظيرين متقاربين كفاءة و منزلة (وليس شرطاً أن يكون المتحاوران خصمين كما صوّهما ابن رشد)

وسواء أ تعلق الأمر بمنهج بياني أم بآخر برهاني، فإن غاية القراءة والتحليل والاستدلال هي إبراز انسجام الخطاب في بُعدين: أولهما لغويّ تركيبّي دلالي؛ وثانيهما تمثيليّ تجريديّ يكون في شكل نماذج وأصناف «مثل المُخطّط، والإطار، والنموذج الأصل، والسيناريو أو البرنامج النصّي» (Wilson & Sperber, 1989: 138). وهي نماذج تختزل مداخل ثلاثة: المعجمي، والمنطقي، والموسوعي المعرفي؛ مداخل تختلف خصائص شكلية ووظيفية؛ وطُرق استعمال من قبل المتكلّم أو المخاطب؛ ومناهج في التحليل وفق الاستنتاج التحليلي، ذلك أنّ «مجموعة افتراضات ب لا تعني تحليلًا

فرضية ق إلا إذا كانت ق واحدة من افتراضات استنتاج ما النهائية لمجموعة الافتراضات الأولية ب التي لا تُطبَّق عليها إلا قواعد تحليلية»، أو حسب الاستنتاج التأليفي، ف «مجموعة من الافتراضات ب لا تعني تأليفيًا، فرضية ق إلا إذا كانت هذه الفرضية ق واحدة من الأطروحات النهائية لاستنتاج مجموعة أطروحاته الأولية هي ب، وأنَّ ق ليست استنتاجًا تحليليًا لـ ب». (161: 1989, Wilson & Sperber)

على أنَّ هذا الاختلاف لا يعني التضارب والتناقض أو عدم التكامل في سياقات يحتاج معها المخاطب خاصّة إلى التأليف بين مدخلين أو بين المداخل الثلاثة لفهم النصّ وتحديد أبنيته وتمثيلها تمثيلًا تجريديًا يكون الخروج فيه من النوع إلى الجنس، استنادا إلى قاعدة الحذف من ذلك النماذج التي يوردها كلٌّ من سبربر وولسن:

* قاعدة حذف «ملح».

الإدخال: (س - ملح - ص)

الإخراج: (س - مادة من نوع ما - ص)

* قاعدة حذف «زرافة».

الإدخال: (س - زرافة - ص)

الإخراج: (س - في بعض الأنواع الحيوانية - ص)

* قاعدة حذف «أصفر».

الإدخال: (س - أصفر - ص)

الإخراج: (س - لون ما - ص) (144: 1989, Wilson Sperber &)

قواعد تدعم الاختلاف والائتلاف في آنٍ بين: المعجم: مجال دراسة؛ والمنطق: مسار استدلال؛ والمعرفة الموسوعية: مرجع استنباط.

وقد يكون الخروج في التمثيل أيضا من دلالات متعدّدة إلى دلالة واحدة - على أساس الاستنباط - جزءا من الدلالات الأصلية وقد تكون دلالة جديدة نصّا، «قديمة» معنّى، لاندرجها في نفس مرجع سائر الدلالات، ولا يستقيم كلّ هذا إلا بالنظر في علاقة الاستدلال بالخطاب بنية ودلالة، ذلك أنَّ أبنية

الخطاب في مختلف تجلياتها تعكس الترابط المنطقي فيما بينها، كما بينها والدلالة سواء أكان ذلك بصفة صريحة أم ضمنية. وإذا يسعى قارئ النص أو متلقي الخطاب عامة إلى البحث في هذه المكونات التركيبية البنيوية الدلالية، فإنه في الحقيقة يربطها بسجلات القول أو الكلام أو بالذاكرة، يقول حمادي صمود: «الخطيب لا يبتدع تلك الحجج أو ينشئها بالنص على غير رسم، وإنما هي موجودة، يكتشفها أو يكشف عنها، يجدها في المشهورات والمواضع، وما عليه إلا أن يربط بينها حتى تكون بنيته الاستدلالية مُحكَّمة، لذلك تحدَّثوا عن «مخازن الحجج»» (صمود، 1999: 14). فلئن كان مشغل صمود على الحجاج إذ يقوم على الاستدلال آلياً، فهذا لا يُفصي صلة الاستدلال منذ تجلياته الأولى ببنية الخطاب - وإن اختلفت المصطلحات وتوجَّهات استعمالها - ومن هنا، يكون الاستدلال جزءاً من بنية النص ودلالته لا شيئاً خارجاً عنه أو مضافاً إليه.

والحديث عن صلة الاستدلال بالنص أو بالخطاب قد يؤدي إلى الخروج من حدود النص المنجز وعن الظروف الحاققة بنشأته، إلى مُطلق المنوال الذي تُجمَع بنيته في هيكل هو الكليات اقترانا بمنظومة عامة تحيل على الجنس بنية عليا أكثر منها على النوع بنية كبرى - وإن كانت العلاقة بينهما هي علاقة الجزء بالكل⁵، وهذا يضعنا في إطار الاستدلال المنطقي آلياً وتجلياً.

2.1. الاستدلال المنطقي

ما المقصود بالاستدلال المنطقي؟ وما هي العناصر المساعدة على تبيته؟ وهل هو المنطلق في تبين انسجام خطاب ما أم هو المنتهى؟

الاستدلال المنطقي هو الذي يفضي إلى بنية مغلقة محدَّدة وواضحة العناصر تمثل المبادئ المؤصلة لكيفية الصياغة العامة في خطاب ما، صياغة موضوعية لا تتعلّق بما هو ذاتي، ولا بما هو جزئي ممّا قد يغلب على النصوص. بهذه الطريقة تحدّ بوريل الاستدلال المنطقي، وتبين في الآن ذاته، أنّ النتائج هي مراحل نهائية لمقدمات وتفاعلات قد تقوم على التناقض

5 انظر مثلاً ما ذكره صمود عن علاقة بنية النص بالدلالة جدلاً بين العرضي والثابت، أو بين مناسبة الإنشاء الخطابي والمنظومة أو الأنساق البنيوية التي يقوم عليها. نفس المرجع: 22.

والاختلاف جزءاً من سيروية حجاجية، وبالتالي، المنطق هو خاصية وتجريد من عالم مادي ومن تفاعل تداولي ليست القواعد المنطقية إلا حذفاً للكثير من مقوماته وتجاوز لجل عناصر التواصل العرفاني فيه. (Borel، 1990: 89 - 90) وهي وجهة النظر ذاتها التي يذهب إليها مرتان، من حيث نشأة الاستدلال المنطقي من افتراضات ليؤول إلى استنتاجات حسب ضمانات وصول؛ استنتاجات ليست مطلقة إلا في الجانب الافتراضي، وما يحدد نسبتها هو مدى موافقتها للواقع من ناحية، ولارتباطها بالأعمال اللغوية من ناحية أخرى. (Martin، 1976: 38 - 40)

يذكر مرتان ثلاثة شروط للحديث عن منطقية خطاب ما هي استجابته للنحو (بالمعنى التركيبي الإعرابي)؛ وإمكانية تأويله معنوياً ودلائياً؛ ثم الحكم عليه بالصدق أو الكذب. (Martin، 1976: 27) وتبين بوريل أن التعبير عن ذلك يكون بطريقة ضمنية رمزية أسسها: تكوين صيغة واضحة وتختزل مختلف المسارات الحجاجية التي يمكن أن تتجلى وتُحلَّ عبر النصوص؛ أن توافق الصيغة «الحقيقية» النظرية التي هي جُماع ما تُقضي إليه المقارنة من استنباط أحكام؛ وأن تكون هذه الصيغة قابلة للتوسع والانتشار، ولبيان والاستدلال عليها دون تضارب أو تناقض.

ويرى ديكر و أن الخطاب هو المنطلق أو المقدمة في إقامة الاستدلال من خلال تتبع ضمانات الوصول إلى النتائج التي قد تقترب بنهاية الخطاب خاتمة ونتيجة، وقد لا تكون إلا جزءاً من الافتراضات التي يرتبط بها الاستدلال رغبة في الفهم على أساس القياس والتأويل المنطقيين. لكن، وحسب ديكر و، ليس هناك تناظر تام بين المنطق والخطاب، فالمنطق هو افتراض وتصوّر للعالم يصاغان في ألفاظ ليست مقصودة لذاتها وبعضها منفصل عن البعض الآخر؛ أما بالنسبة إلى الخطاب، ففيه تسلسل قضايا تحدّد حالة أو حالات معينة من العالم توافق «الحقيقة» أو الظاهر منه؛ (Ducrot، 1980: 10) فالاستدلال المنطقي هو تجريد للخطاب من خلال إجراءاته في علاقة تشبه تلك التي بين ما هو وضعي وما هو طبيعي من خلال البحث في النظام الذي يحكم الخطاب، ووضع أو استنباط القواعد المتحكم في تسلسله واتساقه، وقد يعني أن أي خطاب هو حجاجي بطبعه لأنه يُصاغ إمّا للإثبات أو للنفي، أو للتحليل والنقد، أو للتأليف أو للنقض. وفي أي شكل من هذه الأشكال، إمّا أن يُبين الخطاب أطروحة، أو أن يرفض أخرى.

ويُبرز ليونس أنّ من مقومات الاستدلال المنطقيّ ثنائية الجوب والإمكان اللّذين يُقاسان بالعالم وبحالته؛ لكنّه يشير أيضًا إلى أنّ الأمر نسبيّ لأنّ ما قد يوافق وضعيّة قد يخالف أخرى، وما قد يكون حقيقة في ظرف ما قد يكون زيفًا أو خطأ في ظرف آخر.

وإذا قسنا هذا الحكم على النّصوص، فإنّ ما يشتمل عليه من مكوّنات دنيا أو كبرى لا يمكن القطع بوجوبه إلّا على مستوى البنية السّطحيّة تتالي فيها الملفوظات وضعيًا بما قد لا يوافق ضرورة المنطق والمعنى. ويقدم ليونس إمكانيات متعدّدة تعود إلى نفس الأصل، فعندما نقول إنّ قولاً ما نصطلح عليه بالرمز **ق** مُثَبَّتٌ، فهذا يعني أنّه ليس منفياً، لكنّ هذا الحكم استثنائيّ ارتباطاً بالظرف والسّياق اللّذين ورد فيهما، إذ قد يتبدّل هذا الحكم إذا ما تبدّلت الظروف والأطر الحافّة بالقول **ق**؛ وبالتالي، فإنّ ثنائيّة الجوب والإمكان لا تعكس حقيقة ثابتة إلّا في المنطق الافتراضيّ الرياضيّ. (Lyons, 1980: 406) لكن، ما الذي يجعلنا نثبت أو ننفي إنّ كان القول **ق** يوافق الصّدق أو الكذب؟

يعتبر ليونس هذه الإشكاليّة مقدّمة في مسار استدلاليّ يرتبط ضرورة بالافتراض والتّحليل، فعندما نقول مثلاً:

(1) حَضَرَ زَيْدٌ

فهذا يعني أنّه لم يتغيّب؛ ونصوغ هذه الثّنائيّة في الشّكل الرّمزيّ التّالي:

(2) و (ح (1) ← ~ غ (1))⁶

ولم نعتبر في هذه الصّيغة الرّمزيّة الغياب قطعياً، وإنّما وضعناه موضع الاحتمال، لأنّ هذا الحكم مقترن بأنّ التّلَفُظ بالقول وبما سبقه، فحضور زيد هو رهين مناسبة القول ومقامه، فإذا تغيّر رُبّما تغيّرت معهما المعطيات أيضًا؛ ومن هنا يمكن أنّ نصوغ الوضعيات المحتملّة جميعاً في شكل رمزيّ عامّ على النّحو التّالي:

(3) خ (ح (ن) ← ~ غ (ن))⁷ (Lyons, 1980: 408)

6 نرمز بالواو إلى مفهوم الجوب، وبالحاء إلى فعل الحضور وفق ما صيغ في المثال (1)، قول نستنتج منه إمكانيّة نفي فعل الغياب الذي اصطّلحنا عليه بالغين.

7 نرمز بالحاء إلى الخطاب في مطلق تجليه؛ وبالنون إلى مختلف الحالات الممكنة في سياقاتها المتعدّدة.

إنَّ التَّشْكِيلَ الرَّمْزِيَّ - وإنَّ كانَ تجرِيدِيًّا - فَإِنَّهُ يَخْتَزِلُ ضَمَنِيَا المرجعيَّاتِ المعجميَّةِ والنَّحْوِيَّةِ الإعرابيَّةِ والتَّداوُلِيَّةِ، ذلك أنَّ من الأمثلة ما يجعل ثنائيَّةَ الوجوب والإمكان ليست فقط قرينة التَّحْلِيلِ والافتراض والتَّأْوِيلِ منهاجًا يتَّصَلُ بالضَّمَنِيَّ خاصَّةً، وإنَّما هناك قرائن لفظيَّة ترشِّح أحد طرفي الثَّنائيَّة دون الآخر، من ذلك:

(4) هَذَا لَيْسَ صَحِيحًا؛ هَلِ الْأَمْرُ فِعْلًا عَلَى مَا ذَكَرْتَ؟؛ لَا أَعْتَقِدُ ذَلِكَ؛

إلخ

أو (5) أَنَا مُوَافِقٌ؛ نَعَمْ؛ أَعْلَمُ ذَلِكَ؛ إلخ

أو (6) لَقَدْ قَالَ بِإِمْكَانِيَّةِ نُزُولِ الْمَطَرِ الْيَوْمَ فِي تُونِسَ.

في المثال (6)، رغم الصَّبْغَةِ الإخباريَّةِ المقترنة بالإثبات والتَّأكِيدِ من خلال «لقد»، فإنَّنا لا نقرّ بالوجوب بقدر ما يشي المعنى بالإمكان لأنَّ وقوع الحدث هو رهين المستقبل، وأنَّ ما صيغ إخبارًا هو استفهام من ناحية العمل اللُّغَوِيَّ (Lyons، 1980: 418)، فالأمر يتعلَّق بانطباع لا بموضوع؛ كذلك لزمَن التَّلَفُّظِ، وللزَّمَنِ الَّذِي يحتويه الملفوظ دورٌ في توجيه القراءة ورَدَّةِ الفِعْلِ، فهناك زمن الحدث، وزمن الكتابة، وزمن التَّلَقِّي، أزمنة تتوزَّع بدورها حسب المرجعيَّات النَّصِّيَّةِ، والمعرفيَّة الفكريَّة، والتَّجرِديَّة الرِّياضيَّة، ومن أمثلة ذلك:

(7) حَدَثَ (في ز⁸) أَنْ كَانَ الْمَطَرُ يَنْزِلُ.

(8) حَدَثَ (في ز₂) أَنْ نَزَلَ الْمَطَرُ.

(9) كَانَ الْمَطَرُ قَدْ نَزَلَ الْبَارِحَةَ (ز₃)

(10) لَعَلَّ الْمَطَرَ نَزَلَ يَوْمَ أَمْسٍ (ز₄)

(11) لَعَلَّ الْمَطَرَ يَنْزِلُ غَدًا (ز₅) (Lyons، 1980: 431)

إنَّها أزمنة تخضع للتَّرتِيبِ الخَطِّيِّ وفق ثنائيَّة السَّابِقِ واللاحق معيارًا لتحديد المُدَّةِ والمقارنة اختزالاً للزَّمَنِ، أو امتدادًا فيه والكلَّ لثنائيَّة الوجوب والإمكان خاضعٌ وفق درجات متباينة متفاوتة استنادًا إلى المعايير الَّتِي ذكرنا.

إذن، لا يمكن الحديث عن انسجام ولا عن استدلال ما لم يتوفَّر خطاب -

8 نقصد بالزَّاي الزَّمَنِ، وبالرَّقم 1 تحديد زمن مخصوص ذاك الَّذِي يوافق وقوع الحدث. ويتغيَّر هذا الرَّقم من مثال إلى آخر حسب السِّياقات.

مهما يكن حجمه أو صيغته أو مدى خضوعه لثنائية الصدق والكذب - والإشكال في ما يتعلق بالاستدلال المنطقي هو في ثنائية التجريد مقابل المعنى الذي لا يمكن الحديث عنه إلا في علاقته بالسياق من ناحية، وبالمرجع من ناحية أخرى. وهنا تنشأ ثنائية الذاتي والموضوعي في الإطار المنطقي، فأن يكون الخطاب انطباعياً ذاتياً في صيغته وفي محتواه، فإنه يكون موضوعياً في منهجه وفي طريقة عرضه، إذ يفترض أن تكون هناك مقدمات تقضي إلى نتائج عبر سيرة حجاجية يكون معها المنطق الصوري تقييماً للنشاط العرفاني وانتقالاً من المفصل المفرد إلى المَجْمَل، ومن الممارسة إلى التجريد. وتبين بوريل أن الصيغ والقواعد المنطقية وإن لم تكن تطرح إشكالاً في حدودها الرمزية ووحدتها، فإنها تحيل على التعدد والتنوع في الإجراء، وبالتالي لا بد من التمييز بين الرمز في الصيغة، وبين ما يمكن أن يتجلى فيه وعليه حسب المقامات المتصلة بالتجربة والممارسة وبمحتوياتها، أي بين العلم ومرجعياته في سياقات الاستعمال. (Borel، 1990: 89 - 92)

إن الاستناد إلى الاستدلال منهجاً في العمل يبدأ عملية ذهنية بالتفكير في النص في بخصائصه الإجمالية والتفصيلية عبر التحليل والاستقراء والاستنباط والتمثيل فاستخلاص النتائج التي تربط النص بالخطاب، وبذلك يكون التحول من الاستدلال الصوري الذي يقوم على النظر في النصوص في جانبها الإجرائي، إلى الاستدلال التجريدي الذي نقيم من خلاله العلاقات السببية بين مادة البحث ونتائجه أدلة وتقديم حجج إما من النص ذاته، أو على أساس الافتراض الذي يربط العرفان بالبرهان، واللغة بالمعرفة، والنقد بالموضوع؛ وبهذا لا يفصل الاستدلال منهجاً عن التبرير آلية في بناء النص، ومنه تستنبط باعتبار الاستدلال شكلاً وصورة، أو في قراءته لتوليد قواعد وأنظمة هي التي تمثل ضمانات التحول من النص إلى الخطاب، ومن المقولات إلى الطراز؛ انتقال يطرح إشكاليات عديدة لا تؤكد علاقات ثابتة في النص متكررة بقدر ما تبين عن حيرة في التصنيف وفي التمثيل التجريدي، لأن الأمر يتعلق بالتحول من علاقة الاستدلال باللغة، وفي ربطها بالاستخدام وبأنساق الكلام وسياقاته ومقاماته - وكلها متبدلة متغيرة - إلى علاقة الاستدلال بالمعرفة من ناحية، وبالبرهان من ناحية أخرى؛ فإذا الاستدلال هو تحول من المقدمات بمختلف فروعها إلى النتائج صيغاً نهائية في النص، وربما في الخطاب، ولكنها عقلية إذا ما رُبطت بضمانات وصول لغوية في الأداة، منطقية في الغاية والمنتهى؛ وهذا الاختلاف والتنوع هو الذي ينشئ النسبية في إنشاء

العلاقة بين الإجرائي والتجريدي، وأيضاً في تحديد المفاهيم إذ تكون هي ذاتها ضمانات الوصول إلى النتائج كالاستنباط، والاستقراء والتّمثيل؛ وتكون النتائج قواعدَ صوريّة للمنطق، ولكن لا يمكن القطع بأنّها الحقيقة في جوهرها، ولكنّها اعتقادٌ ورأي، وهو ما يُفرز علاقة التّوازي بين النتائج والتّقييم معتقدات قد تقتنر بالتّعديل والاقتراب من الحقائق دون الانتهاء إليها بالضرورة، إذ قد تكون محكومة بالبنية والتّركيب.

2.2. الاستدلال التّركيبي

اهتمّ بروننار⁹ بنحو الجملة؛ ولئن كانت خصائص الكتاب في تفاصيله تتأى عن مجال بحثنا في الغالب الأعمّ، فإنّنا واجدون فيه ما يشي بنحو النّصّ في نواته أو في بعض الأبنية المؤسّسة لنسيج النّصّ وهي الجمل أو الأبنية الصّغرى التي تقوم على متتاليات في الاتّجاهين الأفقيّ والعموديّ بما يفرزانه من بنية هرميّة تقوم على سلاسل من النّظم تُذكّر بالمنطق ذاته الذي أقام عليه فان ديك نظريّته القائمة على العلاقات بين الأبنية الصّغرى والكبرى والعليا.

وقد يبدو بعض التّعسف في الإحالة على هذا الجانب، لكنّ البحث في جزئياته وتفاصيله يوحي بالتّباع في الخصوصيات والأهداف إلّا أنّ التّصوّر العامّ فيه تقارب وإيحاء بالتدرّج في البناء وفق منطق توليديّ يرتبط بالنّصّ إجراءً ليفضي إلى الخطاب تنظيراً وتجريداً.

ووجهة النّظر ذاتها نجد ما يقاربها أو يقربنا منها مع محمّد الشّاوش في كتابه: «أصول تحليل الخطاب في النّظرية النّحويّة العربيّة تأسيس «نحو النّصّ»» إذ اعتنى بالاستدلال التّركيبيّ واتّخذ من نحو الجملة جزءاً من الاستدلال على التّأسيس لنحو النّصّ أو لتحليل الخطاب؛ ولئن كان هذا أحد المداخل في البحث عن منزلة النّصّ في النّظريات الحديثة وأصولها في النّظرية النّحويّة القديمة، فلم يكن ذلك من منظور تاريخيّ مخصوص، أو بالاهتمام بنحو الجملة مقابل نحو النّصّ، وإنّما اقترن البحث عنده بمظاهر اتّساق الخطاب وانسجام النّصّ، ولم يكن كلاهما بمعزل عن نحو الجملة لئس من حيث العناية بمكوّناتها المباشرة، ولكن بربط المفاهيم الأصوليّة بظاهرة النّظام وكيف يُمكن

9 Berrendonner A. : 1983, Cours critique de grammaire générative, Série : « Linguistique et sémiologie », Presses Universitaires de Lyon – Editions Universitaires de Fribourg, 1^{ère} éd.

أن تكون البنية العاملية والمسائل الخطابية عامة من القرائن الدالة على الاتساق في الألفاظ، وما يمكن أن ينتج عنه من انسجام في النصّ.

وقد اتخذ الشاوش من الخطاب ذاته مادة للبحث حتّى وإن كان الاستدلال عنده في مستويات عديدة قائمة على الجملة دون النصّ. ولا يمكن تقييم المسألة هنا على أنّها دراسة تجزيئية تُرشّح الجملة على النصّ، ولكن من حيث الغاية في أنّ نحو النصّ إنّ هو إلا نتيجة لنحو الجملة، فإذا النظريات الحديثة التي اهتمت بتحليل الخطاب - وفق نظرة إجمالية بحثاً في المفاهيم الكلية الشمولية - عنده هي امتداد وتطوير لنظريات لم تُعرف بالمفاهيم التي حُدّدت حديثاً، لكنّها تعكس هذا الوعي بالاتساق والانسجام في الخطاب بصفة عامة، وأنّ كليهما ليس بمعزل عن السياقين: النصّي والمرجعيّ.

وفي تبييننا للاستدلال النحويّ التركيبيّ، ننتبّع مظاهر منه حسب ما حلّله الشاوش لكن بما يوافق طبيعة بحثنا ورؤيتنا لنحو النصّ لا في مرحلة التأسيس الأولى، ولكن وقد تبلور وأصبحت النظريات فيه خاضعة للتّحليل والنّقاش والنّقد ربطاً بين تحليل الخطاب والنّقد الأدبيّ من خلال العناية بالخطاب السّرديّ نماذج ومناويل. إنّ النّحو، بمعنى النّظم والنّسق، هو بحثٌ في المنطق الذي يُنشأ من خلاله المعنى - بأيّ شكلٍ ووفق أيّ مرجعية - رغبة في وضع هيكل عامّ، المنطق الذي يكون طبيعياً في الاستعمال ويصبح وضعياً من خلال تتبّع خصائص الاستدلال ووضع قواعد الاتساق والانسجام.

1.2.2. في الاستدلال على علاقة الاتساق والانسجام بالتركيب النحويّ

يُبين محمّد الشاوش أنّ هناك مصطلحات توهم بالتّرادف ولكنّ بينها من الفروق في الدلالة ما يعكس خصوصيّة المبنى عن المعنى وطبيعة علاقة أحدهما بالآخر، فيبين أنّ النّظم مثلاً لا يعني بالضرورة، الإيفاء بالمعنى وأنّ «التّرتيب والنّسق متميّزان عن التّركيب»؛ ويستند الشاوش مثلاً إلى ما أقامه صاحب الكشاف من «التّقابل بين التّركيب والتّأليف من ناحية والتّرتيب والنّسق من ناحية أخرى على رائر دقيق هو إفضاء التّركيب بين الأجزاء وتآليفها إلى الوحدة في حين أنّ ترتيبها وتنسيقها لا يبطلان تعدّد الأجزاء ولا ينقلانك إلى الوحدة، وإذا طلبنا لهذا الرّائز مثلاً أمكن أن نجده في الفرق بين ما يحصل داخل عطف النّسق وما يحصل بسائر أنواع التّركيب في ما وُضع

بين معقّفين في الأمثلة التالية:

(12) [صَرَبَ زَيْدٌ عُمَرَ] تُرَكَّبُ أجزاء بعضها إلى بعض لتكوّن الجملة

(13) صَرَبَ زَيْدٌ [عُمَرَ وَبَكْرًا وَخَالِدًا] ترتيب المعطوفات

(14) أَيْحَسِبُ [أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ] تُرَكَّبُ الموصول إلى الصّلة

(15) [عَبَسَ وَتَوَلَّى] ترتيب الجملتين المعطوفتين

ومن خلال هذه الأمثلة، نتبين قيمة هذا التّمييز ولطفه، بل إنّه رائز يمكن أن يصبح مُعْتَمَدًا حتّى في ما تجاوز أجزاء الجملة الواحدة، وذلك بإجرائه على مكونات الأبنية التّخاطبية التي تقوم على الجمع بين الجملة والجملة كما تكوّن من النّداء وجوابه والقسم وجوابه والاستفهام وجوابه وسائر الحالات التي من قبيل تحقّق البنية [س + جواب س].

وحدّث التّهانوي عن التّرتيب والنّسق باعتبارهما ظاهرتين عامّتين يمكن أن تنطبقا على الظّاهرة اللّغوية والظّاهرة غير اللّغوية، وإنّ كان مساقها من أجل اللّغة، وحدّث الجرجاني عن ظاهرة قريبة جدّا من التّرتيب تكاد تكون مرادفة له هي النّسق. ولهذين المفهومين قيمة خاصّة إذا ذكرت أنّ جلّ من حدّثونا عن النّصّ أرجعوه إلى المتتالية، والمتتالية ظاهرة لا غنى لها عن التّرتيب والنّسق» (الشّاوش، ١، 2001: 217 - 218)

والواقع أنّ الاتّساق ليس بمعزلٍ عن المعنى بصفة عامّة، ولا عن المعاني النّحويّة على وجه الخصوص، ولكنّ المسألة متعلّقة بالقرائن الدّالة على علاقة الاتّساق بالانسجام وفق ثنائيّة الحضور والغياب، وفي كنيّة تحقّق الكلام بالشّكل والتّركيب منعزلين، أمّ في علاقتهما بالمعنى والقيمة والاقتضاء.

2.2.2 العناصر المساعدة في التّرتيب النّحويّ على إبراز الاتّساق أو الانسجام في الخطاب

المحلّ الإعرابي: استند الشّاوش إلى جدول قُسمت فيه الجُمْل إلى التي لها محلّ إعرابي، والتي لا محلّ لها من الإعراب، والأصل في ذلك لابن هشام في «مغني اللّبيب»¹⁰. وليست عنايتنا بالتّقسيم في ذاته وإنّما نوّد التّعريف إلى الاستدلال النّحويّ على أيّ نحو يتحقّق استنادًا إلى المحلّات الإعرابيّة التي

10 لتبّين الجدول، انظر: الشّاوش، ١، 2001: 301.

وإن كانت تخصّ مستوى معيّنًا، فإنّها تُساعد على تحليل الخطاب من حيث العلاقات بين الأبنية الصّغرى والكبرى في البنيتين السّطحيّة والعميقة أيضًا؛ وهي عوامل مساعدة على القياس آليّة من آليات الاستدلال، بقياس المستوى المفرد على غيره - سواء أشاركه في المعنى أم اختلف عنه - لتبيّن ما يُمكن أن يحدث مع الحذف مثلاً، أو مع التعويض أو التّحويل من تغييراتٍ، وآثار ذلك في بناء النّصّ العامّ وفي أبنيته التّجزئيّة.

إنّ القول بوجود جُمْل لها محلّ إعرابيّ وأخرى لا محلّ إعرابيّ لها يعني أنّ الإعراب هو رهين الموضع البنيويّ التركيبيّ، ولكنّ العكس ليس ثابتاً دائماً؛ وبالتالي، فلئن كان الانسجام أوسع من الاتّساق في الخطاب من حيث صلة المبنى بالمعنى، فإنّ الخاصيّة تُصبح عكسيّة مع التّركيب النّحويّ «الإعرابيّ»، وغياب الإعراب لا يعني عدم وجود تمام الكلام والإيفاء بالمعنى.

التّرتيب الخطّي: قد يقترن التّرتيب الخطّيّ بالمحلّ الإعرابيّ كما قد لا تكون له به صلة، ولكنّه لا ينفصل عن المعنى إذ يكون قائماً على التّرادف والتّعاقب، أو على التّضمين والتّداخل، والمعنى يظلّ قائماً إمّا على أساس الاستقلاليّة بين الوحدة والأخرى، أو الانفتاح في سياقات الكلام ومقامات القول، بما يُفسح المجال للاستدلال عن أسباب القطع والفصل.

ومن الأمثلة التي يقدّمها محمّد الشّاوش لبيان علاقة الكلام المُعترَض به بالكلام المُعترَض بين أجزائه:

(16) كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَادِلًا.

(17) كَانَ لِفُلَانٍ إِحْدَى عَشْرَةَ أَظْنُ نَخْلَةً.

(18) نَحْنُ فِي زَمَانٍ أَصْبَحَ فِيهِ الْ - أَغْلِقِ الْبَابَ - الْمُقَاوِمُونَ مُقَاوِلِينَ.

(19) مَاتَ الْخَلِي... - الْمِيكَرُو مِنْ فَضْلِكَ - الْخَلِيفَةُ عُمَرُ مَقْتُولًا.

(الشّاوش، 1، 2001: 282)

هو اعتراضٌ تتعدّد أشكاله ولكنّ الانسجام فيه لا يتّصل بالاتّساق وإنّما بما يُحيل عليه مقام التّلفّظ دون سياق اللفظ، أو السّياق المقاميّ دون السّياق المقاليّ.

الروابط التي تدلّ على الإحالة، أو التعريف والتّكثير، أو الإضمار والإبهام والحذف: تحقّق اتّساق النّصّ أو انسجامه من خلال هذه الروابط أو وظائفها

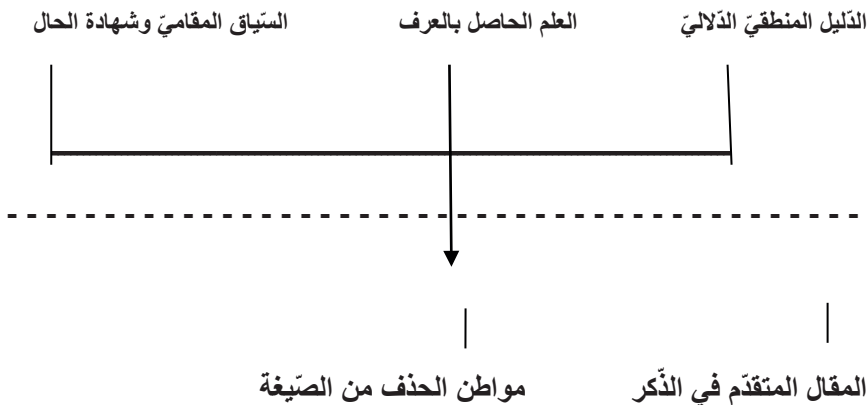
في الأبنية الدلالية إنما يتأتى من الوضع والاستعمال وليس من أنفسها. والتعرّف إلى مواضعها من النصّ أو الخطاب لا يتمّ وفق مرجعية معجمية أو نحوية تركيبية مخصوصة ولكن بالاستدلال على «منطق الأشياء» في علاقة البناء بالترجيح في المعنى. ويُرجع الشاوش الرّبط بين المقول والمسكوت عنه، أو القول بالإضمار إلى «قرينة عقلية منطقية» مستنداً في ذلك إلى الجرجاني في «دلائل الإعجاز»؛ يقول الشاوش: «مما استدلّ به الجرجاني على الحذف نوع من الأدلة أرجعه إلى منطق الأشياء وطبيعة دلالة الألفاظ، فقد انطلق من معنى التردّد أشار إلى أنه «لا يتصور التردّد والترجيح في الشيء الواحد» (الجرجاني، دلائل الإعجاز: 90)، يمكن اعتماد هذا الأصل المنطقي الدلالي لمباشرة أمثلة من قبيل:

(20) فُلَانٌ مُتَرَدِّدٌ.

(21) فُلَانٌ مُتَرَدِّدٌ فِي الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ.

(22) فُلَانٌ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الْبَقَاءِ وَالْخُرُوجِ.

فالمثال (20) يقتضي إضمار الأمرين المتردّد بينهما، وأمّا المثال (21) فيقتضي إضمار الأمر الثاني ليصحّ التردّد والترجيح، أمّا في المثال (22) فقد تمّ التصريح بالأمرين المتردّد بينهما فأغنى ذلك عن القول بالإضمار. فإذا جمعنا بين هذا النوع من القرائن على المحذوف والأنواع الثلاثة السابقة منها حصلنا على الشكل التالي:



(الشاوش، ا، 2001: 1161)

و ضمانات الوصول بين المقدمات والنتائج أربعة هي:

1. **الدليل اللفظي:** ويُشترط في الدليل اللفظي أن يكون طبق المحذوف، فلا يجوز أن يُراد بالمحذوف معنى يخالف المذكور؛
2. **الدليل الحالي:** ومن الأدلة الشروع في الفعل، نحو «باسم الله الرحمن الرحيم» فيقدر ما جعلت التسمية مبتدأ له قراءة كان أو فعلا؛
3. **الدليل الصناعي:** من الأدلة ما هو صناعي أي تختص بمعرفة النحو فإنه إنما عُرف من جهة الصناعة واقتضاء القواعد؛
4. **الدليل المنطقي العقلي:** متى استحالت صحة الكلام عقلا إلا بتقدير محذوف. (الشّاوش، ١١، 2001: 1162)

وهذا يعني أنّ الألفاظ أو مواضعها هي جزء من بناء عامّ يقوم ضرورة على الاتساق بعناصر مقالية أو تعيينية «مجاله الانتظام باعتباره جهازاً مجرداً» يمثل الخطاب في كليته، ويتجسد في النصّ أبنية إجرائية تتراوح بين الحضور والغياب، أو بين التمام والحذف. إن الحذف والإضمار هما جزء من تركيب نحويّ دلالي لا يخرج عن أنساق الخطاب، ولكنه أيضاً جزء من تصريف المعنى وتحديد مفاصل النصّ وتبين هيكله – مهما تكن بنيته العليا الفرعية – (Bigot, 2006: 309).

3.2.2. الاستدلال على أهمية الروابط في تحقيق الاتساق

والانسجام

يتجاوز الخطاب معنى اللفظة أو العبارة إلى البحث في مبررات اختياراتها دون غيرها ممّا يرادفها في المعجم، وهو ما يحيل أيضاً على الذاكرة المعرفية تتبعا لمسارات المعرفة وفق «نظرية السّلام الحجاجية» التي تقوم على جملة من القوانين أسسها لغوية من ذلك: الإضراب: بَلْ؛ الاستدراك: لَكِنْ؛ التّفي: لَمْ – لَا؛ الحصر: إِلَّا؛ الرّبط: الواو؛ الأسوار (بغض – كلّ – جميع...): ما اتصل بوظائف نحوية مخصوصة كحروف التّعليل أو ما تمحّض لوظيفة من الوظائف مثل «قَطُّ» و«أَبَدًا».

و«يميّز ديكرز بين نوعين من المكوّنات اللّغوية التي تحقّق الوظيفة الحجاجية، أمّا النوع الأوّل فهو ما يربط بين الأقوال من عناصر نحوية مثل أدوات الاستئناف (الواو، الفاء، لكن، إذن ...) وما يسمّيه روابط حجاجية، وأمّا النوع الثّاني فهو ما يكون داخل القول الواحد من عناصر تدخل على

الإسناد مثل الحصر والنفي، أو مكوّنات معجميّة تُحيل في الغالب إحالة غير مباشرة مثل «منذ» الطّرفيّة و«تقريباً» و«على الأقلّ» إلخ ويسمّيه عوامل حجاجيّة» (المبخوت، 1999: 376 - 377)، وكلّ هذه الأسس اللّغويّة تؤوّل إلى التّكرار للتّأكيد والإثبات في المسار الاستدلاليّ بُعْيَة الانتهاء إلى علاقة تلازميّة بين المقدّمات والنّتائج. ومن خلال القرائن اللّفظيّة المختلفة، تكون إضافة معانٍ هي عباراتٌ تتنوّع معجماً لكنّها تتفق وظيفّةً وغايةً، لأنّ في تعدّد الحُجج بتكرار المعنى الواحد بصيغ مختلفة ما يُؤكّد أنّ هناك علاقة تواصلية بصفة إراديّة من قِبَل المتكلّم، وبصفة إراديّة أو لإراديّة من قِبَل المخاطب لا تتحقّق إلّا عبر الاستدلال والانتقال من القويّ في الحجج إلى الأقوى لتحقيق الوظيفة التّأثيريّة.

3.2. الاستدلال البلاغيّ

1.3.2. أهميّة الاستدلال البلاغيّ وخصائصه في الخطاب: بنية ودلالة

نبحث في الاستدلال البلاغيّ من حيث مكوّناته وآليّاته وأُسسه اللّغويّة في النّصّ الأدبيّ والسّرديّ منه تحديداً وعلاقة كلّ ذلك بتحديد الدّلالة «بين القول الوضعيّ والقول المستنبط بالاستدلال من جهة وبين القولين والمقام من جهة أخرى» (المبخوت، 2006 (أ): 28)، وهذا يعني أنّ لأيّ خطاب - أراد صاحبه ذلك عن قصدٍ، أم لم يُرِدْه - بنيتين: أولى ظاهرة سطحيّة هي المقصودة دائماً، وأخرى عميقة ضمنيّة، قد يُراد بها التّصريح والحقيقة، كما قد يكون معناها على سبيل الاستعارة والكناية (وما البنية إلّا دلالة تنشأ معنى وتنتهي معنى المعنى حسب عبارة عبد القاهر الجرجاني (ت. 471 هـ/ 1078م) في «دلائل الإعجاز» مصطلحين يكتسبان مفهوميّهما من التّركيب صفاتٍ ونظائر على أساس التّلازم. (المبخوت، 2006 (أ): 42 - 45) ومن مظاهر ذلك الكناية - بأيّ شكل من أشكالها - تبدو مضافة إلى سياق النّصّ المحدّد لكنّها ليست بمعزل عنه، أو قد تُكون غائبة أو غائبة عن أحد طرفيّ الخطاب (وارتباطاً بما ذكرنا هو المتكلّم، وليس شرطاً أن يكون هو دائماً -)، فإذا الإحالة عليها تكون مثيراً للبحث في الذاكرة بما يساعد على فهم قصد الطّرف الآخر بالتلقّظ بخطابه بالصّياغة التي اختارها دون غيرها تلميحاً دون التّصريح: «فالضمّن هو الفرضيّة التي يريدها المتكلّم، ويرغب في أن يكون

ملفوظه منسجماً انسجاماً تاماً، والفرضية واضحة بالنسبة إلى السامع» (Sperber & Wilson, 1989: 290)؛ فيكون القول الأول مقدّمة ويكون القول الثاني نتيجة، وبينهما الاستدلال الضمني الذي قد يغيّر اعتقادات المخاطب إذ تكون النتيجة ذاتها قرينة إثبات وتأكيد، وقد يكون سبباً لاستدعاء معلومات أخرى من نفس مجال المقدّمة، وعلى أساس القياس والمقارنة، يستنبط المخاطب نتائج أخرى، بل يبحث أيضاً في المبررات والأسباب التي جعلت الطرف الآخر يتخذ موقفاً ما، ولا يعبر عنه إلاّ إحياء وتلميحا. وقد تكون هذه النتائج منقّقة مع قصد المتكلّم، وقد تكون بعيدة عنه كلّ البعد، وقد لا تكون لها إلاّ صلة جزئية به (CHaraudeau, 1983: 39)، فإذا الانسجام بين المتكلّم والمخاطب يبدو ضعيفاً ويتضاعف هذا الضعف كلّما عوّل المخاطب في الاستدلال والاستقراء والاستنتاج على المعرفة الذاتية دون المشتركة. على أنّ الصلة أو الصلات بين المقدّمة الأولى والنتائج التي ينتهي إليها المخاطب تتمايز قوّة وضعفاً في الدلالة عليها، لكن لا يمكن القول أو القطع بالانتهاء إلى نقطة صفر من الدلالة بين قصد المتكلّم وما ينتهي إليه المخاطب من الدلالات، لأنّ الطرف الأول له أثر في توجيه تفكير الطرف الثاني ونزوعه نحو اختيارات معرفيّة دون غيرها¹¹، اختيارات الغاية منها إعادة إنشاء النصّ بما هي مخالفة للأصل أكثر منها مجانسة له، وسبب ذلك أنّ الاستدلال - انطلاقاً من مقدّمة وانتهاً إلى نتائج/ نتيجة منتقاة - لا يقوم على أسس برهانية بقدر ما ينهض على خصائص معيارية تدخل فيها أركان عمليّة التّخاطب جميعاً: المتكلّم - المخاطب - المقام - اللّغة: أنساقاً ونظماً، وطبيعة العلاقات التي تربط بينها كلّها.

وللاستدلال البلاغيّ بُعدان أو تجلّيان: أولهما من حيث التّمييز بين الخطاب العاديّ والخطاب المجازي، بما يساعد أيضاً على الخروج من حدود دراسة الخطاب في مكوّناته النّحويّة التّركيبية في مستواه الأول، إلى البحث في مستويات الخطاب المختلفة على أساس التّأويل والتّفسير، وهذا ما يُبلّغ إلى ثاني البُعدين الذي يقوم على تكثيف المسافة الفاصلة بين المدلول الأوليّ للدّالّ، والمدلول المجازي له حتّى يحلّ أحدهما في الآخر فيكون التّطابق بين الحقيقة والخيال، والضّمان في تحقيقه هو الإحياء والتّلميح؛ تطابق متعدّد بتعدّد القراءات بما أنّ التّأويل لا حدود له، إلاّ إذا كان الاستعمال المجازي قد

11 وما يرشّح هذا التّوجّه هو قواعد غرايس، وخاصّة المتعلّقة منها بالكيفيّة.

بات شائعا في مجتمع ما أو ثقافة ما فيُفهم من التعبير المحدد.

على أن الإشكالية تُطرح من وجه آخر خاصة وأننا نهتم بالاستدلال البلاغي في إطار تحليل الخطاب تحليلًا شموليًا، فحتى إذا انتفت أبعاد النحو والتركييب والتداول تنشأ حدود التعبير في الخطاب إذ أن دلالاته بل شكله أساسا لا يُنظر إليهما إلا في سياق عام وفي إطار شبكة من العلاقات البنيوية ذات الخلفية المعنوية الدلالية.

وفي البلاغة وخاصة بفرعها البيان والمعاني، هناك علاقة لا محالة تتجاوز الخطاب في حد ذاته ليكون حلقة وصل - بصفة إرادية أو لإرادية - بين منشئ الخطاب ومتلقيه. من هنا، يكتسب التركيز على الاستدلال البلاغي شرعيته، بما أن هناك علاقة تلازم بين الخطاب والبلاغة في معنيها العلمي التأسيسي منذ عبد القاهر الجرجاني¹² من ناحية، والتداولي من ناحية أخرى.

في هذا الظرف - وهو عام وينطبق على أي خطاب - يتحول النص جملة من الشفرات أو السنن لابدء من فكها - وهي تتفاوت من حيث الكثافة والغموض، حسب السياق والمرجع - وبهذا يكون أي خطاب خطابا بلاغيا من ناحية، تبليغيا من ناحية أخرى، ولا جانب ينفي الآخر، وإنما قد تكون الغلبة لأحدهما على الآخر؛ فكل هذه العناصر تعكس أهمية توسيع دائرة النص الواحد ونشره وإنتاج نصوص أخرى يكون هو قُطبها ومحورها، فلا تتغير البنية العليا وإنما المُتغير هو جزء من الأبنية الكبرى وأغلبية من الأبنية الصغرى بما هي مستويات صوتية ودلالية.

ويكون إرجاع الأبنية العليا أو النصوص إلى أجناسيتها أو إلى هيكل الخطاب من خلال المنهج البرهاني القائم على القياس، فإذا النصوص مقدمات والخطاب نتيجة، أما أنسجتها الفرعية بين أبنية كبرى وأبنية صغرى، فهي الضمانات لإرجاع الفروع إلى أصلها، حديثا عن خطاب تجريدي أكثر منه عن نصوص تجريبية تُربط في أحيان كثيرة بمؤلدات لها مخصصة كالكااتب ذاتا مفردة، أو بالمقام، أو السياق، أو الأبنية في قراءة تجزيئية قد تُقصي جوانب عديدة من الخطاب وتفكك نسيجه ووحدته. إن الاستدلال يشمل النص

12 راجع في ذلك المبخوت، الاستدلال البلاغي في الفصل الأول: الاستدلال بالمعنى على المعنى، 2006 (أ): 37 - 78

والخطاب معا إذ يقومان على البلاغة ليس بالمفهوم اللفظي الجمالي الضيق للكلمة أو المصطلح، وإنما بما تعنيه من التقاء الإنشاء الأدبي بالتداول الاجتماعي والتفاعل الفكري.

2.3.2. البلاغة وأبنية الخطاب¹³

نريد بالبلاغة معنى العبارة أو الجملة، وهو في بُعدين: ضمني يؤسس علاقة منشي النصّ بمتلقيه تواصلًا وفهمًا وخروجًا بالنصّ من لفظه إلى ما جاء في ثناياه سكوتا مقصودا لأسباب مرتبطة بمقام القول دون سياقه؛ ودلالي تجاوزا للنصّ لفظا ومعنى - ظاهرا كان أم خفيا - للبحث في ما وراء الخطاب على أساس استعاريّ تخيليّ يستدعي معه المجال المعرفيّ المجال الآخر في سلسلة من التأويلات القائمة على الاستدلال في عملية ذهنية ونصّية قد تطول وقد تقصر ارتباطا بدرجة الإحياء والرمز انطلاقا من أصله المعجمي «ففي تحليل خطاب كلّ دراسة معجميّة تعني أن نفرّق - بصفة أو بأخرى - بين المعجم ومجموع الكلمات، بين الافتراضات التي توقّرها «اللغة» وبين القيم النوعيّة التي تنطوي عليها الكلمات عبر العلاقات الأصليّة التي تربطها بالوحدات الأخرى» (Maingneneau, 1991: 29)

والأبنية التي يذكرها فان ديك هي مورفو - فونولوجيّة (وفق قاعدتي الإضافة والحذف)؛ ونحويّة (وفق قواعد التكرار، والحذف، والتبديل)؛ ودلاليّة (وفق قاعدتي الإضافة، والحذف، والتبديل، والإحلال): أبنية لا تقتصر في مرجعيّاتها على البلاغة (بالمفهوم الكلاسيكيّ) وإنما يضيف إليها فان ديك المرجعيّات: الصرفيّة - الاشتقاقية، والنحويّة، والمعجميّة¹⁴، وهاجسه ليس الاهتمام بها في حدّ ذاتها، أو ببعضها ينفصل عن بعض، إنّما باعتبارها أبنية تتراوح بين الجزئيّ والكليّ، لكنّها تساعد - بأيّ شكل من الأشكال - في تتبع مفاصل النصّ انتهاءً إلى «الأبنية العامّة لكلّ النصّ». (فان دايك، 2005: 195)

13 يقصد فان ديك بـ «البلاغة» التبيين والإفصاح والإيضاح بطريقة علميّة - وإنّ كان أحيانا يذكر البلاغة بمفهومها الكلاسيكيّ باعتبارها جوانب فنيّة جماليّة بيانيّة تقوم على جمال العبارة كما على المجاز والتّخيل في شكل استعاريّ خاصّة، ويذكر ذلك على أساس أنّ البلاغة بمفهومها الكلاسيكيّ هي ذات «طبيعة عُرْفية» ولا «تتسم... بأنّها نظريّة إلّا بقدر محدود... أنّها وصفية - معيارية على الأرجح... أنّها فنّ أو مهارة» (فان ديك، 2005: 186 + 190)، وبالتالي، لا يتأسّس - حسب معاييرها - علم تجريديّ في أبنية النصّ يؤسّس للنوع أو للجنس.

14 لمزيد التوسّع، انظر فان ديك، 2005: 182 - 207.

وليصل القارئ أو المخاطب إلى تمثّل النصّ في كليته تمثلاً تجريدياً، لابدّ من توفير جملة من الوظائف منها الإبلاغية الإخبارية؛ والمعرفية (التي يستند إليها المتلقّي لإنشاء النصّ إنشاءً ذهنيّاً استناداً إلى القواعد التي حدّدها فان ديك في الإضافة والحذف والاستبدال والإحلال، ليسعى المتلقّي إلى الاستنتاجات/ النتائج/ الفرضيات إذ قد تكون ضمنية غير مباشرة، مقابل المنطوق اللفظي الذي عادة ما يحتوي المقدمات).

ومن الخصائص الأسلوبية ووسائل التعبير التي تساعد المخاطب على التعرّف إلى الضمني من القول قصد متكلّم التكرار بما هو شكل من أشكال التأكيد والإحالة على نقطة الارتكاز في النصّ، وربط صياغة الخطاب بنفسية المتكلّم أيضاً، فقد تكون هذه الصياغة خبريّة لكن - ومن خلال التكرار مثلاً - تحيل على التعجّب، أو الحيرة، أو الإنكار، أو الحسرة... وبذلك لا يكون انشغال المخاطب بفهم النصّ فحسب، بل سيسعى إلى تصوّر أو تحيل الدلالة التي قصدتها المتكلّم وعمدَ فيها إلى التلميح دون التصريح، دلالة قد تحيل على موقف أو وجهة نظر؛ أو مشاعر وأحاسيس؛ أو أحوال نفسية، أو اجتماعية، أو فكرية¹⁵؛ فالدلالة - من هذه الناحية - لا تكون فقط معنوية دلالية من حيث القصد، وإنما هي إلى جانب التبليغي تستدعي البلاغي مجموعة تصوّرات ضمنية تختلف وتتفاوت قوّة وضعفاً من حيث صلتها بالصياغة من ناحية، وبمقام القول من ناحية أخرى، بما أنّ العبارة تقوم على الاستعارة أو المجاز عموماً، وعلى المخاطب أن يملأ الفراغات بين المقدمة (نصّاً مُنجزاً في أسلوب محدّد) والنتيجة (معنى بعيداً مقصوداً) بما توحى له به هذه المقدمة، إichاءات محكومة بالتوازي بين مقامات القول وآثاره في المتكلّم، كما في المخاطب «بما أنّ الآثار البلاغية تخلق انطباعات مشتركة بينهما أكثر من المعرفة المشتركة» (Sperber & Wilson, 1989: 336)

والضمني - بما هو خطاب قائم على المجاز - يُنشئ جدلاً بين أطراف وعناصر متعدّدة مختلفة هي: النصّ/ اللفظ والنصّ/ الدلالة؛ المتكلّم والمخاطب؛ المتكلّم والنصّ؛ المخاطب والنصّ؛ المخاطب والنصّ والتأويل (بما أنّ النصّ يقوم على إنشاء لفظي لأشياء هي جزء من الكون الماديّ سواء أ كان ذلك عبر الإجراء أم التجريد، لكنّ التّجانس بين الدالّ والمدلول ليس شيئاً مشروطاً ما دام قارئ الخطاب يتعامل مع لغة مجاز تقوم على التّخيل والاجتهادات الفردية أكثر منها على التّحقيق وإقامة الحجّة على لزوم الدالّ لمدلوله).

15 انظر في ذلك: Sperber & Wilson, 1989: 333.

إن صياغة الخطاب تعكس إرادة المتكلم وقصده فيما يريد أن يكون تصريحياً معرفةً مشتركة واضحة بينه والمخاطب، وما يريد أن يكون ضمناً تكشف عنه مصادر المخاطب ومراجعته التي يعتمدها لفهم النص، وهذا أيضاً يُعتبر عقداً ضمناً بين المخاطب والمتكلم في عملية التواصل «لكن الأمر الهام هو أن المتكلم يُضطر إلى اختيار صيغة تكشف حتماً الفكرة التي يتصور بها الوسائل السياقية والملكات المعرفية للسامع» (Sperber & Wilson، 1989: 328).

ولا يعني الجدل القطيعة والتنافر بين هذه الأطراف والعناصر، إنما هي توسعة مداخل تأويل الخطاب، وإبراز القرائن التي قد تؤدي إلى ائتلاف بينها أو اختلاف هما مقياساً الانسجام بين اللفظ والدلالة، أو بين النص (جملة مرجعيات) والبنية (تمثلاً لها واختزلاً وتجريداً).

أيًا كان تحلي الأبنية البلاغية من أشكال التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية، فهي الأبنية الأكثر فاعلية في إبراز الاستدلال في تحليل الخطاب مما يؤدي إلى توسيع دائرة المعنى إذ يتردد بين المباشرة والنقصان في اللفظ والعبارة، وهو ما يوهم باللبس والإبهام اللذين سرعان ما يتبددان استناداً إلى الاستدلال آلية تصريح وإفصاح، فتتحول هذه الأبنية من وظيفة جمالية تأثيرية إلى وظيفة تركيبية، فهي أبنية جزء لا يتجزأ من نسج النص ومن التصور البنيوي الذي يقيم الخطاب في كليته وشموليته، وهذا يعني أن الأبنية – وإن تعددت – فهي توّول إلى وحدة تفاعلية ويتعلق هذا بالكناية خاصة لتباعد المسافة بين العبارة لفظاً، والعبارة فكرة يجسمها هذا اللفظ – إلى حد – محدودية تنأت من أن الصلة بين اللفظ والدلالة تقوم على التقارب وليس على التماهي أو التعبير الدقيق بالمعنى العلمي، بما أن المتكلم أولاً والمخاطب ثانياً ليس هاجسهما الاندراج في العالم الواقعي بما هو حقائق حسية، وإنما البحث في العبارة الأحسن التي تتطلب مجهوداً أكبر في الإنشاء، لكن دون أن ينفي ذلك مبدأ الانسجام سواء أ كان بين المتكلم والمخاطب، أو بين اللفظ والدلالة.

ومع تحليل الخطاب، لا يكون البلاغي مقصوداً لذاته باعتباره عنصراً من عناصر إنشائية النص أو جماليته، إنما يُنظر إليه على أنه علامة دلالية تضمن تماسك النص وانسجامه، فيكون الأسلوب المجازي أو البنية الصغرى ضماناً من ضمانات الانتهاء إلى البنية العليا إما تخصيصاً لها واستدلالاً عليها، أو ضماناً لانسجام شبكتها النظمية النظامية. (Mingueneau، 1991: 31) ومن وظائف البلاغة في تحديد أبنية الخطاب أيضاً توزيع النصوص إلى أنماط نصية محددة مثل: الخطابية؛ الحجاج؛ الحكيم؛ الوصف... التي تختلف في أساليبها وفق قواعد ومقولات محددة لكنها تتفق

من حيث تحقيق الوظيفة التأثيرية الإقناعية من خلال «اللفظ والمركب والجملة والتتابع والنص». (Maingueneau، 1991: 187)

وقد تنتهي الأبنية البلاغية عامةً إلى البنية الكلية أو العليا لكن هذا لا يعني اعتبارها هيكلًا مفرغًا من المحتوى أو الدلالة أو أنه هيكل متحجر، لأن الهيكل يحتوي ضرورةً وضمنيًا مختلف الأشكال التعبيرية التي قد يُنجز وفقها وهي أشكال متشابهة متباينة في آن، تباينٌ مقترن بارتباط الخطاب أو البنية العليا بنمطية مفتوحة على مختلف الإمكانيات الإنجازية الآنية منها والزمانية.

4.2. الاستدلال التداولي

يشير الاستدلال التداولي علاقات بين الألفاظ التالية: الإحالة، والافتراض، والضمني، فالمرجع تاريخيًا وتصورات تقترن بتحليل الخطاب بما يثيره من علاقات بين طرفيه من ناحية، ومكوناته من ناحية أخرى، وصلة كل ذلك بالنص كما بإعادة إنتاجه (Brown & Yule، 1983: 35)؛ فالاستدلال باعتباره آلية فهم وتأويل، يربط الخطاب بالمقام لأن ما يغير معنى عبارة أو جملة ليس فقط التركيب وإنما ما يحكم عملية إعادة إنتاج الخطاب هو عدد من العوامل كثيرًا ما تختزل في قواعد غرايس الأربع¹⁶.

ثم إنَّ المقام نفسه يتصل بعناصر تربط البنية بدلالاتها أو دلالاتها، وهذه العناصر هي المخاطب وموضوع الخطاب ووضعية المخاطب وأنساق الخطاب ولغته بين الصريح والضمني، والحقيقة والمجاز، والصدق والكذب - بمفهوم أوستين وفق نظرية الأعمال اللغوية -، والفعل أو الحدث في بعده القصوي، أو الفكري الذهني، وما يقوله أو ينشئه المتكلم/ الكاتب، وما يذهب إليه المخاطب/ القارئ، مما قد يؤدي إلى الانسجام أو التناقض غاية وغرضًا، بنية وقصدًا، والخطاب بين المنجز اللغوي والبعد الواقعي. (Brown & Yule، 1983: 38 - 39) ويمكن ترشيح أحد ركني هذه العناصر المتعددة استنادًا إلى الأركان التالية: العالم الممكن؛ الزمن؛ المكان؛ المتكلم؛ السامع؛ العلامات اللغوية؛ المرجع (ما قبل النص أو ما بعده)؛ التحديد والتخصيص. (Yule، 1983: 41)

تطرح روبول إشكالية مفادها متى يتوقف أو ينتهي المسار الاستدلالي التأويلي؟

16 انظر في ذلك:

Wilson & Sperber، 1989 : 58

+ الشاوش، ا، 2001: 921 - 922.

وتجيب بأنّ ذلك يتمّ متى كانت الجهود موفية بالغاية وبضرورات الفهم بما يفضي إلى أمرين: أولهما: اشتراك طرفي عملية التّخاطب في المعرفة؛ وثانيهما: معرفة كليهما أنّ كلّاً منهما يعرف ما يريد من الآخر أنّ يعرفه (Reboul, 1998: 148)، مستندة في ذلك إلى مفهوم غرايس للدّلالة: القريب منها والبعيد، أو الصّريح منها والضّمني، وإلى تحليل سورل للأعمال اللّغويّة، إذ ليس من الأكيد أنّ ينتهي المخاطب إلى ما يريد المتكلّم تبليغه وتنبيه المخاطب إليه، وهو ما يجعل عملية الاستدلال ضعيفة بما أنّ الحجة التي يقدّمها المتكلّم ضعيفة هي بدورها (Reboul, 1998: 152)، وبالتالي، فليس كلّ منطوق كفيلاً بتحقيق التّواصل بين طرفي التّخاطب، والتّخاطب اللّفظي لا يعني ضرورة التّواصل المعرفي الدّلالي الذي تدخل عوامل أخرى لتحقيقه منها: وحدة الموضوع وامتداده وتواصله في الخطاب، إذ «يُكتشف كلّ نصّ في تماسكه (المقترن ببنية مواضيعيّة، ويتواصل، وبسلسلة من المواضيع المتتالية) وتقدّمه (ارتباطاً بالمواضيع المتعاقبة التي تقدّم معلومة ثابتة أكثر منها «جديدة» مقارنة بالواقع)»؛ (Adam, 1994: 125)، أيضاً، وضوح الأفكار واتّساقها؛ وارتباط اللفظ بالمقام من حيث إحالة كليهما على الآخر، صلة معرفة بإدراك ينشأ من موضع مخصوصة محدودة في الخطاب هي العبارات المرجعية (Reboul, 1998: 156) التي تؤدي إلى فهمه فهما كلياً شمولياً، «فالمقاصد الإعلاميّة تُحدّد، ولو بصفة جزئية، بالمقصد الإعلاميّ الشّموليّ» (Reboul, 1998: 159)، ذلك أنّ متلقّي النصّ يجد نفسه مضطراً إلى ربطه بمرجعياته وأطره التي تضمن على الأقلّ، فهمه في معنى حقيقيّ، أو آخر مجازي ارتباطاً باللغة والسّياق.

1.4.2. مبادئ الاستدلال التّداولي في تحليل الخطاب

وشروطه

ينشأ الخطاب فيُسمع أو يُقرأ، فيحقّق تواصلًا بين المتكلّم/ الكاتب والمخاطب/ القارئ - وإنّ بنسب متفاوتة - ومردّد هذا التّفاوت عوامل عديدة منها: طبيعة الخطاب ذاته (أخبار، أفكار، افتراضات...)؛ مختلف المراحل التي يكون المرور عبرها للتّحوّل من قراءة النصّ إلى تفكيكه وتبيين الرّوابط بين عناصره، استدلالاً لانتهاه إلى الانسجام الذي يضمن وحدته بما أنّ «التّواصل يعني أنّ نشقّ الرّسائل ونفك الشّفرة عنها» (Sperber & Wilson, 1989: 13)؛ الاتّفاق في المرجعيّة المعرفيّة (الأساطير - الأدب - كتب الطّقوس)، لا يعكس ضرورة، كيفيّة استعمالها في صياغة الخطاب وذلك لاختلاف التّقافات بين منشئي النّصوص فيما بينهم من ناحية، وبينهم والقارئ من ناحية ثانية، «لكن من المُستبعد بلوغ ذلك التّشابه بين التّصورات المُرسّلة

والتصورات المقبولة التي من المفترض أن يؤمنها التواصل المرموز « (Sper-ber & Wilson، 1989: 21)؛ على أن هذا لا ينفي حدًا أدنى من التواصل - وإن على أساس الاختلاف -.

يعتمد المتلقي معايير لفهم النص كالقياس - المقارنة - الترجيح - التحديد والضبط... ومنطلقه في ذلك النص مفردًا (باعتباره نصًا - شفويًا أو مكتوبًا - يتكوّن من عدد محدود ومحدّد من الألفاظ أو الكلمات) في متعدّد (على أساس أن الكلمات أو الألفاظ لها من المعاني والدلالات ما لا يُعدّ ولا يُحصر سواء أ رُبِطَتْ بالمرجعية المعجميّة أو بالسياق والمرجع والمحيط الذي تُستعمل فيه الكلمة أو اللفظة فخرج بذلك من حدود الحروف تجسيدًا نصّيًا إلى اللّاحدود معاني ودلالات).؛ ومتعدّد يؤوّل إلى مُفرد (إذ لا بدّ للمتلقّي أن يعتمد في قراءة النصّ إحدى تلك المعاني حتّى يصل إلى ضبط دلالة يراها الأقرب إلى ما قد يكون صاحب الخطاب قد قصده، وإنّ عليه في ذلك، الملاءمة بين التّاريخ والثّقافة والّسياق في إطار قراءة آنيّة للخطاب ولكنّها تمثّل إلى الزّمانية بعلاقات شتّى تفرضها الأطر الحافّة بعملية التّخاطب فالتّواصل فالتّفاهم والانسجام).

ولتوضيح هذه المستويات الثلاثة نعتد الأمثلة التّالية:

(23) تنصّرف

يمكن فهم هذه الجملة بطرُقٍ ثلاث على الأقلّ: أولاً: أن يكون المتكلّم قد قرّر مغادرة المخاطب المكان، وهو يُعلمه بهذا القرار؛ ثانياً: أن المتكلّم يفترض مغادرة المخاطب المكان ويطلب منه إثبات ذلك أو نفيه؛ ثالثاً: أن هناك عوامل تتجاوز كلّ من المتكلّم والمخاطب جعلت الأول يرجّح هذا القول.

(24) محمّد حقّاً شخصٌ لطيفٌ.

يرتبط تأويل هذه الجملة بعلامات قد تكون لغويّة، كما قد تكون فكريّة، أو ربّما وجدانيّة، فقد يكون المتكلّم جادًا فيما يقول أو ساخرًا، فيكون بذلك قاصدا اللفظ أو عكسه، فيصبح الخطاب مرتبطًا بثنائيّة الصّريح والضّمنيّ الذي يضطرّ معه المخاطب إلى تجاوز ظاهر اللفظ والعبارة بحثًا في مختلف الدّلالات، وترجيحًا لبعضها.

(25) هلّ تَعْلَمُ ما السّاعة الآن؟

ظاهر اللفظ رغبة المتكلّم في معرفة الوقت وطلب جواب عن ذلك من المخاطب لكنّ هذا الصّريح قد يحيل على ضمنيّ وهو الإشارة إلى أن موعد المغادرة قد حان.

(26) قَدْ يَمْنَعُنِي كَأْسُ الْقَهْوَةِ مِنَ النَّوْمِ.

ظاهر اللفظ إثبات أثر القهوة أما الضمني فقد يحيل على رفض أي طلب لشرب فنجان قهوة، كما قد يحيل - في سياق آخر - على رغبة في ذلك، فإذا العبارة ذاتها يمكن تأويلها بالمعنى ونقيضه شريطة وضعها في سياقها من الكلام كما الاستناد إلى معرفة بطباع المتكلم وعاداته مما يساعد على ترجيح الدلالة وربما التأكد منها.

على أن كلاً من سبرير وولسن يشيران إلى الفرق بين المذخلين السيميائي والتداولي؛ فإذا كان السيميائيون يتخذون سيرورة فك الشفرات، ونقطة الانطلاق فيها علامة، ونقطة الوصول هي إعادة بناء أو صياغة الخطاب ربطاً بين العلامة والرمز الضمني، فإن التداوليين يعتمدون منهجا استدلالياً تقتزن فيه المقدمات بالنتائج والضمان في ذلك هو المنطق والبرهان، (Sperber & Wilson, 1989: 27) على أساس أن «مجموع المقدمات المستعملة لتأويل نص منطوق (ما عدا المقدمة الأصلية التي أنشئ بمقتضاها النص المنطوق المعنى) يؤلف ما نسميه بالسياق الذي لا يحتوي فقط الإعلام حول المحيط المادي المباشر أو على التصوص المنطوقة السابقة: التكهّنات، الافتراضات العلمية، العقائد الدينية، الذكريات، الأحكام الثقافية المسبقة، بل على الافتراضات حول حالة المتكلم الذهنية التي من شأنها أن تلعب دوراً في التأويل.

ولئن كان من الجلي أن الملكات اللغوية لأعضاء مجموعة واحدة تتلاقى، وإذا كان من الممكن أن يكون نفس الشأن بالنسبة إلى قدراتها الاستدلالية، فإن افتراضاتها حول الكون، على عكس ذلك، لا تظهر نفس ذلك التجانس» (Sperber & Wilson, 1989: 31) مما قد يؤدي إلى نتائج مختلفة في إعادة إنتاج النص.

ومن شروط التواصل أن يكون هناك حد أدنى من الانسجام بين المتكلم والمخاطب يضمنه - في مستوى أولي - المشترك من المعرفة ارتباطاً بالمحيط وبالثقافة الكلية - وفي مستوى تخصيصي - تحديد وثيقة الصلة بالموضوع في فهم الخطاب، ويكون ذلك وفق معيارين أساسيين: أولهما: بالرجوع إلى الخطاب ذاته، إذ ترتبط الكلمات والعبارات، والتراكيب والجمل على أساس المعنى والموضوع. وقد لا يتضح معنى جملة إلا في صلتها بسابقتها؛ وثانيهما: في صلة الخطاب بالسياق كما بالمرجع التداولي/ العرفاني/ الإدراكي، الاجتماعي والدلالي. (Van Dijk, 1980: 249)

بقي أن ما يقيم عليه المخاطب فهمه للنص وتحليله للخطاب هو افتراضات قد تكون صحيحة؛ ومعيار صحتها شرطان: أولهما، موافقتها للموجود الحسي

الواقعي في كل أبعاده وتجلياته؛ وثانيهما أن تكون جزءا من اصطلاح المجموعة البشرية التي يعيش فيها المخاطب أو يتعايش معها - إن اختيارا أو اضطرارا بما يضمن القدرة على التفاعل بين الذات والآخر من ناحية، وبين هذه الذات والموضوع - أطرا حافة - من ناحية أخرى - والاصطلاح لا يفترض ضرورة أن يكون جزءا من ثقافة متأصلة في الذات الفردية أو الجماعية فهو في الأصل لغة أم تضمن للمخاطب التواصل بالتفاعل فالانسجام، ذلك أن «نفس الأحداث والفرضيات يمكن أن تظهر في محيطات معرفية لشخصين مختلفين، وفي هذه الحال، تتقاطع تلك المحيطات المعرفية، وتقاطعها هو محيط معرفي شمولي يتقاسمه شخصان وهو تقاطع محيطيهما المعرفيتين الشموليتين، أي مجموع كل الأحداث التي تظهر لكليهما» (Sperber & Wilson, 1989: 69) والافتراضات ممكنة الوقوع إن كان تأويل المخاطب للنص متجليا للمتكلم كما هو للمخاطب الذي يكون بدوره عارفا أن المتكلم قد استوعب ما أراد أن ينتهي إليه من معنى ودلالة، على نحو ما يحيل عليه الرسم التالي:

المتكلم يُرسل خطابا نصطاح على الترميز له ب: خ

المخاطب يُؤول خ على أساس جملة من الافتراضات نرسم إليها ب: (1 - 2 - ن)

خ لا يتفق مع كل الافتراضات الممكنة لكن مع واحدة منها نفترض أنها - 1 - ولا يكون هذا الاختيار اعتباطيا، وإنما على أساس أن المتكلم قد وقر للمخاطب من المقدمات (في صيغة المفرد أو الجمع) بما يؤدي إلى الاختيار، فلا تكون النتيجة أو النتائج متنافرة تماما مع المقدمة أو المقدمات، وإنما يكون الاستدلال البرهاني ضامنا لإمكانية التوافق والانسجام، فتكون الخلاصة - بناءً على ما سبق - أن خ = 1 ترجيحاً.

وقد تكون الافتراضات خاطئة ليس لأنها غير موجودة أصلا (لأن مجرد إثارة الحديث عنها يؤكد وجودها - وإن تجريدا وتصوراً ذهنياً - ؛ ثم هي موجودة فعلاً في ذهن المخاطب) لكن لأنها غير منسجمة مع المشترك من المعرفة بين المتكلم والمخاطب من ناحية، وبينهما والمجموعة البشرية التي يتفاعلان معها واقعا ولغة من ناحية أخرى؛ ومع طبيعة الخطاب أنساقا لغوية، وسياقا ومرجعاً، ومعنى ودلالة؛ ومع دلالة الخطاب الفعلية التي تتجلى أمامه، لكنه لا يتصور، أو يظن علاقة منطقية بين إنجاز النص لغة ودلالته في المحيط المادي.

2.4.2. مرجعيات الاستدلال التداولي

نُبَيِّن رُوبول أَنَّ النَّصَّ قد يَنْكَوِّن من عدد من الجمل، أَمَّا نَحْوِيَّا تَرْكِيبِيَّا فتَبْدُو منسجمة متألّفة، وأَمَّا على مستوى الدّلالة، فقد يبدو بعضها منبثّا عن السّياق فلا رابطَ منطقيّ بينه وما يسبقه أو يلحقه. على أنّ هذا النّشئت إنّما يقف عند المنطوق اللفظي إذ تدخل عوامل أخرى هي التي تعكس المنظور وتحيل على الضّمانيّ، ومن هذه العوامل الرّأوي - إذا تعلّق الأمر مثلا بنصّ سرديّ - هذا الرّأوي الذي يكون عليما وعندما يؤلّف بين الجمل أو الأنساق الحديثة ينشئها وفي ذهنه وفي تصوّره بناء الرّواية أو القصّة ككلّ، فيكون ما اعتبر منبثّا إنّ هو إلّا مقدّمة لنتائج تفرزها سياقات التّحوّل في النصّ لغة كما في الخبر حدثا (Reboul, 1998: 13). ثمّ إنّ قارئ النصّ ليس مُلزمًا بالحرفيّة، ذلك أنّه إذا نُظِرَ إلى المسألة من هذا الجانب الأحاديّ لأفرغ النصّ من دلالاته أو لكان أسير معناه المعجميّ دلالة أولى قد تُغَيِّب المسار الاستدلاليّ - حتّى وإنّ كان في أبسط تجلّياته - ربطُ بنية أو أبنية بما تفيده من معنى أو معانٍ، وقد تنفي صلة النصّ بأيّ عامل خارجيّ عنه (القارئ - المقام - المرجعيّة المعرفيّة...) ليبقى رهين لفظه أو على أقصى تقدير امتدادا لِمُنشئه صوتا ولا صدى، وهو ما يفضي إلى نفي تصوّر تحليل الخطاب أصلا.

يقوم الاستدلال المرجعيّ على حواريّة المتكلّم أو المخاطب - على حدّ سواء - مع النصّ ضمن الأطر الحافّة بإنشائه، كما بقراءته، وهذه الأطر تستدعي - ضرورة - انفتاح المتكلّم أو المخاطب على جوانب وأطراف أخرى قد تكون حسيّة مادّيّة، وقد تكون فكريّة شاء ذلك أم أبى، ثنائيّة أملت النّظر إلى العلاقة بين الذات والموضوع نظرة جدليّة قد تودّي إلى الانسجام كما قد تودّي إلى نقيضه - حسب ما يفضي إليه المسار الحجاجيّ يَكُون الرّجوع فيه ومن خلاله إلى مقامات متعدّدة تختلف من حيث سهولة التّعرف إليها أو عُسر؛ واعتبارها أصولا ثوابت أو مقامات مضافة؛ أو هي كليّة أم جزئيّة، قصوى أو دنيا؛ هل تقوم على التّفرع أم التّتابع؛ وتميّز ما يتمّ الاستناد إليه دفعة واحدة أو على مراحل؛ (Moeshler & Reboul, 1989: 216).

اختلافات تحدّد درجة الانسجام ومداه وقوّته وأثره على المستويات النّفسية والاجتماعيّة، والمعرفيّة؛ الأثر الذي يصبح بدوره مثيرا للمتلقّي بحثا عن الاستثنائيّ الذي يعوق تحقّق الانسجام بين الذات والموضوع، موضوع الإشكال: الخلفيّات والمبررات والأسس التي ينبغي للمتلقّي أن ينشئ عليها استدلاله واختياراته المعرفيّة، وفرضيّاته التي تجعل المتكلّم أيضا إمّا أن يحضر ضمّنيّا من خلال النصّ الذي ينشئه، وإمّا بصفة حاليّة إذ يريد أن يؤثّر في المتلقّي بأن يُنتِج، «ويمكن للباتّ أن يُحدّث حافزا يجعل للباتّ وللمتقبّل

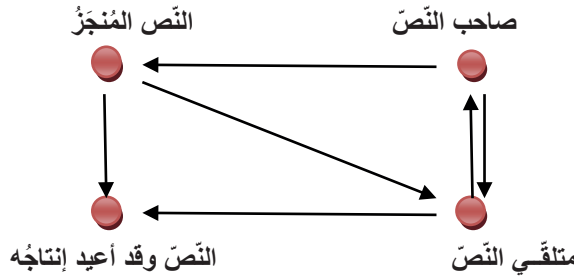
الواحد مع الآخر أمرًا واضحًا يتمثل في أن الباث يريد بواسطة ذلك الحافز أن يجعل واضحةً للمتلقب مجموعة من الفرضيات» (Moeshler & Reboul, 1989: 233)؛ هذا إذا تعلّق الأمر بمثير صريح، لكن قد يكون المثير ضمنيًا وفي هذه الحال أيضًا يصبح متعدّدًا شأنه شأن الافتراضات فأَيُّها يحقّق الانسجام المشترك بين المتكلّم والمخاطب؟ وأَيُّها يضمن الانسجام الأوفى؟

يشير كلّ من موشليير وروبول إلى أن قصد المتكلّم وغاية المخاطب هما المعياران المساعدان على إيجاد الانسجام الأفضل بين الطرفين، (Moeshler & Reboul, 1989: 237)؛ أمّا بين القصد والغاية فالمثير هو الضمان الذي يكون أنجع كلّما كان أوضح وأجلى ارتباطًا بلغة الكلام، وسياق التلقّظ، وإدراك المخاطب لكليهما «» فدرجة التلاؤم مع المقام الكافية» تخضع للكيفيّة التي بها تكون المعلومة في المتناول، أو قد تصبح كذلك مع مرور الزمن، وهي تخضع كذلك لدرجة قابليّة المتلقّي الذهنيّة» (Moeshler & Reboul, 1989: 241)

على أن المثير ذاته قد يفقد أهمّيّته إذا ما أصبح الانسجام أمرًا ثانويًا أو عرضيًا تغيّر مقام من ناحية، وطبيعيّة علاقة بين المتكلّم والمخاطب من ناحية أخرى، ينطبق هذا على الخطاب الذي لا يردّ به الإفادة في حدّ ذاتها، وإنّما يكون الكلام مثلًا ضربًا من الفكاهة والهزل أو الهذيان لا ينتظر منه صاحبه انسجامًا فعليًا إلا بقدر ما يضمن التفاعل الآنيّ دون وقوف عند الجزئيات والتفاصيل - إلا إذا كان المخاطب، وفي سياق ضروب الكلام ذاتها، أن يجعل من الأمور العرضيّة مثيرات تستدعي النقائص، فينقلب الهزل جدًّا، والفكاهة سخرية، والهذيان بيانًا؛ فيفهم المثير - بناءً على ذلك - على أنّه سياقٍ يقترن بالخطاب ذاته، ومقاميّ يحيط بكلّ الأطر الحافّة، بما في ذلك المتكلّم والمخاطب. ومع كلّ هذا يتحوّل نسق الانسجام والاستدلال من انحداريّين إلى تصاعديّين. (Moeshler & Reboul, 1989: 242).

ويجب أن يُنظر، في البحث عن الانسجام بين الذات والموضوع، إلى الظروف: المكانية، والزمنيّة، والنفسية، والاجتماعيّة، والمعرفيّة، في مختلف التّجليات - مهما يكن مدى هذا الانسجام أو اعتباره غايةً وقصدًا - (أوستين، 2008: 11)، والمدخل إلى هذه المسألة يُمكن أن يكون بطريقتين: أمّا أولاهما، ففي علاقة صاحب النّص بنصّه: هل يمكن القطع بآلا صلة للنّصّ بصاحبه، وبأنّه يُنشأ دون أن تنصوّر أصلًا علاقة بين الذات والموضوع؟ وأمّا ثانيتهما، فتخصّص المتلقّي، إذ يضع مسافةً بينه وبين النّصّ المُنجز في قراءته، فلا نتحدّث في هذا السّياق، عن نصّ أصلٍ وآخر فرع مُتأبّ عنه، وإنّما يكون الأمر رهين شيء مُفترَض، ليس عن انسجام بين الآنّا والآخر، وإنّما هي صلة الذات بالذات: تفكيرًا وانطباعًا؛ وقد يكون الموضوع جزءًا من الذات بحيث

يتحقّق الانسجام في شبكة علاقات، أو في مُربّع زواياه تتعدّد لكنّها تكون نمطاً واحداً متكاملأ، فإذا أركانه هي: صاحب النّص؛ النّص المُنجز؛ متلقّي النّص؛ النّص وقد أُعيد إنتاجه وفق اتجاهاتٍ تفاعلٍ أفقيّة، وعموديّة، ومائلة على النّحو التّالي:



يهتمّ كلّ من براون ويول بعلاقة الأبنية بالمعاني، ويبيّنان أنّها متوفرة في كلّ نصّ أو خطاب - وإن اختلفت المستويات والتّجليات - ؛ ويشيران إلى أنّ تبين هذا الاختلاف والتّباين يكون من خلال المقارنة بين وحدات تركيبية ومعنوية تتربط وفق نسق ونظام محدّدين، تكون معهما اللفظة الأولى موحية بما قد يتبعها في ما تستدعيه من مقولاتٍ نحويّة إعرابية، أو معنويّة بما لا يدع مجالاً للإبهام والغموض - إلاّ إذا تعلق الأمر بأسلوب مجازيٍّ أو بلاغيٍّ - في إطار وحدة كاملة، هي تلك التي تشمل معنى ومرجعاً. ويشير كلّ من براون ويول إلى ارتباط كليهما بالمواضيع التي تكون جزءاً من كلّ هو الموضوع الأوسع منه، أو البنية العليا أو ربّما ما دون ذلك، إذ يكون الموضوع/ الجزء بعض أبنية كبرى تمثّل متتالية¹⁷ هي مجموعة ضمن مجموعتين أو أكثر هي البنية العليا (Brown and yule, 1983: 138)، ويتمّ التّحوّل من موضوع إلى آخر وفق قرينة جديدة وجِدَّتْها تستمدّها من قرينة أو معلومة سابقة، فكّلما كانت الإضافة النوعيّة كانت العلامة دالّة على سياق قول أو تعبير آخر (Brown and yule, 1983: 154)، وهي أنساق في النّظم والإنشاء يختارها المتكلّم / الكاتب حسب طبيعة الوظيفة التّأثيريّة التي يريد تحقيقها في المتلقّي.

17 في معنى المتتالية: «إنّ كلّ تتابع هو منظومة (suite) منطقية من النّوى (noyaux)، تشدّها فيما بينها، علاقة ترابط؛ فالنّوالي ينفّث عندما لا يكون لأحد حدوده (termes) سابق (antécédent) تضامنيٍّ؛ وينغلق عندما لا يكون لأحد حدوده الأخرى ناتجٌ منطقيٍّ (conséquent)». (بارت، 1989: 28)

3.4.2. الفروق في نظرية الإفادة عند كل من سبربر وولسن، و مبدأ غرايس وقواعده

غرايس	سبربر وولسن
* القصد، ومداه بما يكفي عملية التواصل بين المتكلم والمخاطب هو عنده أوضح وأجلى. والمخاطب يجب ألا يقف عند ظاهر النص أو الخطاب، إنما ينبغي أن يبحث فيما يريد المتكلم التعبير عنه. ← الخطاب عنده مؤرّع بين منطوق كلامي، ودلالة مسكوت عنها * يرى ضرورة توفر هدف أو أهداف، غاية أو غايات يكون انتهاء كل من المتكلم والمخاطب عندها أو على الأقل توفر توجه مشترك بينهما.	* مبدأ الانسجام للإفادة أوضح عندهما. ← الخطاب ذاته هو الضمان لتحقيق عملية التواصل بين المتكلم والمخاطب؛ يكفي بالنسبة إلى المتكلم أن تتحقق المعرفة عند المخاطب: خبرا وإخبارا. * لا يعترض كلاهما على وجود أهداف أو غايات يقترن بها النص أو الخطاب - سواء أ كان بصفة صريحة أو ضمنية - لكن ليس من الحتمي: 1. يكون اتفاق المتكلم والمخاطب عليهما. 2. يتوفر كل نص أو خطاب على مثير أو مثيرات صريحة واضحة «تصوّر هدف مشترك، إذا ما وُجد، هو عامل سياقي إضافي، وليس إلا بذلك الاعتبار يستطيع أن يلعب دوراً في الفهم». (244 :1989، Sperber & Wilson) * «يحترم المتكلمون عادةً، هذه القواعد، لكن يستطيعون كذلك مخالفتها وذلك لإحداث تأثيرات خاصة». (223 :1989، Sperber & Wilson) ← بالنسبة إلى المخاطب، مع قواعد التواصل يدخل عامل المعرفة في هذه العملية. ← الاختلاف قائم على اعتبار أن التواصل يفسر في كليته سواء أ كان ذلك صريحاً أو ضمناً.
← الاختلاف قائم على تفسير التواصل وفق ثنائية صريح وضمني.	

إجمالاً، المسألة لا تتعلّق باختلاف جذريّ إنّما بتعديل من مظاهره كـ «نظريّة الإفادة» وعمليّة التّواصل على أساس قصد المتكلّم الصّريح أو الضّمنيّ، القصد الإخباريّ والتّواصليّ، والسّعي إلى توضيحه بالنّسبة إلى المُخاطب على مراحل ارتباطاً بالمُثير في صلته بالمحيط المعرفيّ الإدراكيّ سواء أكان بالنّسبة إلى المتكلّم أم المُخاطب، وما يمكن أن يُولده القصد الإخباريّ من فرضيّات استناداً إلى المُثير الذي يكون صريحاً واضحاً عند المتكلّم والمُخاطب؛ أيضاً المرحلة التي يتقارب فيها تصوّر كلّ من المتكلّم والمُخاطب للفرضيّات الممكنة،¹⁸ وما يمكن أن يطرأ من حوادث - أثناء عمليّة التّواصل ذاتها - إمّا أن ترشّح درجة الانسجام أو أن تُضعفها، وتكون هذه الحوادث من قرائن استدلال المُخاطب على خطاب المتكلّم. (Sperber & Wilson, 1989: 223)

وقد تتعدّد الفرضيّات، فتكون المقارنة بينها وترجيح ما يكون أقرب إلى المُثير قرينة الاستدلال الأوضح، وما يكون أيضاً أقرب إلى الواقع والحقيقة، حقيقة النّصّ وحقيقة السّياق والمرجع، فلا تسرّع، إنّما التّثبّت والتركيز، حتّى لا يكون الحُكم الناتج عن المقارنة بقياس إحدى الفرضيّات على النّصّ أو الخطاب محور الاهتمام هو الاستنتاج النّهائيّ منذ عمليّة البرهنة الأولى، فقد توجد فرضيّة غير التي تمّ الاستناد إليها أكثر انسجاماً ودلالة، وبالتالي لا بدّ من الاستقراء والاستقصاء وفق المنهج البرهانيّ الذي أسّس له غرايس وحتّى في هذا المستوى، تبقى المسألة نسبيّة لوجود إشكاليات أخرى منها: تمثّل الظاهرة اللّغويّة - وهي المتبدّلة المتغيّرة - وفق معايير ومقاييس تحدّدها وتحدّد من دلالتها، ثمّ دلالة النّصّ أو الخطاب وهي ذات أبعاد متعدّدة منها ما يتعلّق بالمتكلّم؛ ومنها ما يتعلّق بالمُخاطب؛ ومنها ما يتعلّق بسياق الفهم والتّأويل في علاقتها بالزّمان قراءة تستند إلى السّابق، واللاحق، والآن.

أيضاً الاختلاف قائم بين التّداوليّين والنّحويّين؛ فإذا كان التّداوليّون يُؤلّون عناية وأهميّة للمعرفة المشتركة فإنّ النّحويّين ينظرون إلى الخطاب على أنّه أبنية تركيبية تتعدّد وتتشابه وتختلف، لكنّ القراءة لا تتجاوز مستوى

18 والإمكان يترك مسافة - في الفهم والتّأويل - بين المتكلّم والمُخاطب، وهذا يعني أن الانسجام يظلّ نسبياً - مهما كان مداه -

19 لمزيد تبينّ حدود قواعد غرايس والقواعد الإضافيّة لمبدأ التّعاون، انظر أيضاً: أدراوي، 2011، 216 - 223، وخاصّة «مبدأ التّهذيب: وهو المبدأ التّداوليّ الثّاني الذي ينبني عليه الحوار، وقد أوردته «روبن لاكوف» (Lakoff Robin) في مقالاتها الشّذهيرة: «منطق التّأديب»

[Robin Lakoff. "The logic of politeness", in papers from the ninth regional meeting. Chicago linguistic Society. Chicago: 1973.]

صلة اللفظ بالمعنى، والاختلافات بينهم من وجوه:

النحويون	التداوليون
* «تُقضي مُصنّفات النّحو على الاختلافات بين النّجارب المُتتافرة، والمعرفة والذاكرة تصنيفان اختلافات للتّجارب المُتشابهة» (Sperber & Wilson، 1989: 32)	* يتفق أفراد مجموعة بشرية ما في النّقاة والتّجارب والمواقف، لكنّ هذا لا ينفي خصوصية كلّ فرد، خصوصية تُوجّه - بصفة إرادية أو لا إرادية - تأويله للأشياء في بُعديها الماديّ والمعنويّ، والواقعيّ والتّجريديّ.
* إذا وُضعت القواعد والقوانين، فإنّها تُطبّق على أيّ نصّ، في أيّ سياق تاريخيّ واجتماعيّ.	* ينظرون إلى النّصّ أو الخطاب على أنّه متبدّل متغيّر ارتباطا بالزّمان كما بالدلالة.
⇐ تأويل الخطاب يكون على أساس تتابعه خطّيًا فإذا السّياق هو سياق نصّ.	⇐ تأويل الخطاب يخضع لعدّة عوامل ومؤثرات تتوزّع بين الذاتي والموضوعيّ.

تُحيل الاختلافات على أنّ مدى التّواصل بالنّصّ يكون من خلال النّصّ ذاته، لكن كذلك من خلال المناهج ووجهات النّظر التي يتّخذها الباحثون والدّارسون؛ ومن هنا، عندما نتحدّث عن اختلافات بينهم، فالأمر لا يتعلق بالأسس والنّوابع في لغة النّصّ ومرجعيات الخطاب، وإنّما بالخلفيات والدّوافع التي ينبثق منها البحث، كما بالغايات التي يُراد الانتهاء إليها. ولا يعني هذا تعسّفًا في ربط المنهج بالنّصّ، لكن لا بدّ أنّ هناك مبررات هي مقدّمات النتائج وضمانات الوصول إليها في مسار استدلاليّ يسعى من خلاله الباحث إلى تبين الانسجام بين مادّة الدّرس وطرائقه والنتائج المُنتهى إليها، ليس فقط في البُعدين الإجرائيّ والتّنظيريّ، لكن أيضًا، على المستوى النّقديّ بما هو إعادة إنشاء للمجرّد من الخطاب، وإثراء الهيكلية منه.

خلاصة

طُرُق الاستدلال ومناهجه تتعدّد وتختلف حسب المنطلقات وطبيعة النّصّ والغاية من الاستدلال، لكنّ هذا لا ينفي التقارب في الآليات وربما القواعد التي تتخذ بُعدًا تجريديًا، ولكنها تُعتمد في أنساق الخطاب الإجرائيّة وفق تغيّر المرجعيّات.

على أنّ الحديث عن الاستدلال منهجًا، لا ينفي خصوصيته جزءًا من أبنية النّصّ؛ خصوصية تتفاوت درجاتها حسب طبيعة النّصّ وجنسه أو نوعه، لكنّها لا تغيب. وإذا أردنا تبين أنواع الاستدلال، فيمكن ذكرها على النّحو

التّالي: المنطقيّ؛ التّركيبيّ؛ النّحويّ الإعرابيّ منه والترتيبيّ؛ البلاغيّ؛ والتّداوليّ. وهي أنواعٌ تتباين في الصّيغة والتّجليّ، ولكنّها تتفق من حيث البحث في اتّساق الخطاب وانسجام النّصّ استنادًا إلى منظومة عامّة تحكمها وتسيّجها، شروطها تركيبيّة من ناحية، معنويّة دلاليّة من ناحية أخرى، ويمكن اعتبارها في:

- موافقة السّياق للمرجع خاصّة من حكم ثنائيّة الصّدق والكذب في الأعمال اللّغويّة والسّعي إلى تحليلها وتأويلها؛

- الاستناد إلى عناصر مساعدة على الاستدلال تتراوح بين الإظهار والإضمار، أو الصّريح والضمّنّي، أو الحقيقة والمجاز أو اللّغة والواقع؛

- الاتّساق والانسجام يُستدلّ عليهما في النّصّ نسيجًا وفي الخطاب لغةً وجنسًا، وعرفانيًا وتداوليًا من حيث علاقة صاحب النّصّ بمتلقّيه: مفردًا وجمعيًا، وقراءة أنيّة أو زمنيّة تربط الخطاب بالمعرفة الموسوعيّة وبالمجتمع وبالمنطق في إمكانيّة تحقيق التّوافق بين الملفوظ والمفترض بما يؤدي إلى إمكانيّة ربط الأسباب بالنتائج في قواعد تتجاوز الاستدلال الجدليّ لتشرح البرهانيّ تجريديًا في مقولات رياضيّة.

3. الاستدلال على أنّ تحوّل الخطاب السّرديّ من مستوى التّجريد إلى الإجراء فالإلى التّجريد مجددًا هو جزء من انسجامه

يبين آدام أنّ الخطاب السّرديّ مُتَنَازِعٌ بين عالمين معرفيّين: أدبيّ تخيليّ في أغلبه؛ وحسّي مادّي واقعيّ يعكس رؤية خارجيّة في تحليل الخطاب. وإنّ الانتهاء إلى الضّمنيّ من العالم الأوّل لا يكون إلا بإيجاد علامات نظيرة لشفراته في العالم الثّاني، بل قد لا تكون قراءة المتلقّي للنّصّ موافقة تمامًا لما أراده صاحبه، وإنّما هي صياغة أخرى له دون أن تكون بمعزل عنه، يقول: «ففي تلك الفينة التي يملك فيها القارئ عالم العمل لا يزال موجودا في العالم ذاته. وبعبارة أخرى، فإنّ التأثير الذي يُحدّثه النّصّ أيّ «إعادة تشكيل» تجربة القارئ التي توفّرها القراءة ليس خارجًا عن النّصّ ذاته ومدلوله» (Adam, 1997: 63) الذي ينفّث ويتعدّد بتعدّد القراءات التي يتّخذها آدام مبررًا لتعدّد الأنواع الأدبيّة في الجنس الواحد تجسّد في الخطاب الواحد، إذ تكون عناصر تحليله مستمدّة من نسيجه الدّاخليّ الذي تحقّقه الأبنية بمختلف أنواعها. وغاية آدام هي التّوقّق في إيجاد منهج منطقيّ به ينتهي إلى وضع «الأنموذج الأوّفي» لكلّ نوع أو جنس أدبيّ.

إنّ العلاقة جدليّة بين المنوال والنّصّ المُنَجَزِ اختبارًا واستقراءً وتطبيقًا ومقارنةً

بين النصوص المتماثلة في عصر من العصور، وفي مجتمع معين، للانتقال فيما بعد إلى وضع نموذج عام؛ وعلى ضوءه أيضًا، يمكن قياس هذا النموذج من خلال قراءة زمنية - بين عصور مختلفة - واجتماعية بالنظر إليه في ثقافات شعوب متعددة ومجتمعات مختلفة، باعتماد الاستدلال طريقة تحليل واستكشاف، وربما تأسيس نموذج افتراضي يُولده إيجاد مقومات نصية لبنية عليها ما، لم يسبق لها نظير، فيكون التدرج بدءًا من النموذج المنتهى إليه، تواصلًا في منهج الإضافة والتطوير، مما يعني أن الخطاب ليس بنية جاهزة نهائية، وإنما هو جدل قائم دائم بين اللغة والموضوع.

يحيل الاستدلال في علاقته بالخطاب السردى على جمع بين أدبية الأدب، وبنائية اللغة، ومنطقية الفلسفة، وتصورية الرياضيات؛ علاقة جدلية بين تجريد المعنى وتطبيق الصورة من خلال المزوجة بين عالمين: أحدهما مادي فيزيائي مُتَنَزِعٌ بين الثبات والتحول، وثانيهما معنوي تجريدي متنازع بين عوالم الفكر وتصوراتها، وبين إمكانات التجريد ومحاولة محاصرة اللامعنى في قواعد الإطلاق واللامحدودية الكونية. إنه مُفْرَغٌ من المعنى ومُمْتَلئٌ به في آنٍ امتلاء تمثله «المُسَلَّماتُ المُضْمَرَة»²⁰

خلاصة

تُسَمِّدُ سرديّة الخطاب من خصائصه الفنيّة ومن مقولاته الأجناسيّة؛ أشياء قد لا تتمحّض لنصٍّ ما إلّا بالنظر إلى الكيفيّة التي بها صيغتْ ووُضِعَتْ في نسيج بطريقة قد تجد ما يقاربها في نصٍّ آخر فقط، على أساس المحاكاة، لأنّ هناك عوامل أخرى خارج النصّ تميّزه وتحقّق فرادته أولّها رؤية الكاتب للأدب ولوظائفه ولعلاقته بالواقع أو بالمرجع عامّة، وصولاً إلى ما تقضي إليه القراءات المتعدّدة من اختلاف أو تشابك يكون هو نفسه عامل إثراء في الأجناس الأدبيّة وفي معاييرها بالنظر إلى الزّمان، وربما المكان.

والسؤال الذي يُطرح، ونجيب عنه في المراحل اللاحقة من البحث هو: إلى أيّ مدى يمكن القول بنموذج خطاب نهائي؟

20 انظر في ذلك البُعْزَاتِي، 1999. 188 - 193

الفصل الثالث

الاستدلال على انسجام الخطاب
من خلال الأبنية الصغرى

1. تعريف الأبنية الصغرى، وكيفية الترابط بينها

البنية الصغرى هي جملة القضايا التي تُكوّن نصّاً ما، أو هي بنيته السطحية. وقد يكون بين هذه القضايا انسجام دلاليّ على أساس الترتيب المنطقيّ في البناء والربط بينها، كما يمكن أن تستقلّ أيّ قضية – بنائياً ودلاليّاً – عن سابقتها أو لاحقتها؛ وإمكانية الفصل بين مختلف القضايا التي تُكوّن البنية الصغرى هي من أهمّ العوامل المساعدة على تحديد مفهومها؛ بقي أنّه في حال انفصال قضية عن أخرى، يسعى القارئ إلى إيجاد علاقة انسجام بينها، هذه العلاقة قد يحيل عليها النصّ صراحة – على مستوى الدلالة خاصة، بتوقّر حجة أو دليل على أساس التكرار والتعاود – وقد تكون ضمنية، ومن هنا، لا يمكن تحديد البنية الصغرى بأنّها مجرد علاقات أفقية بين القضايا وإنّما هي شبكة خيوطها تبرز في ما يتكرّر من حجج أو أدلة.

ويندرج ضمن هذا النوع من الأبنية كلّ ما يمكن أن يتتابع ويوصف في أدنى مستوى من مستويات بناء النصّ أو الخطاب من: أدوات ربط، وكلمات، وتراكيب، وجُمْل «فالأبنية الصغرى هي الأبنية المباشرة الواضحة فعلاً في الخطاب» (Van Dijk، 1980: 29)، وأقصى ما يمكن أن تتجلى فيه بنية صغرى هو الجملة حدثاً أو جملة من الأحداث. وإنّ البحث في خصائصها ووظائفها يشمل مختلف مكوناتها ومرجعياتها (الصوتية؛ المعجمية؛ النحوية التركيبية). ومن مظاهر وصف هذه الأبنية الوحدات الدنيا فيها أو النواتات التي تبدأ من الصّرف وتنتهي إلى النّحو سواء في علاقات الكلمات بعضها ببعض أو في تكوّن مستويات نصّية دنيا قد تكون لها دلالة في حدّ ذاتها، ولا تُكوّن لها أيضاً هذه الدلالة إلّا في صلتها بسابقة أو باللاحقة، يقول فان ديك: «فالوحدات الصّرفية هي أصغر وحدات حاملة للمعنى في النظام اللغوي، ومن ثمّ فهي تقدّم الأساس لكلّ مستويات الوصف التالية، أي لكلّ الوظائف النّحوية والمعاني» (Van Dijk، 2005: 41)، وهذا يعني أنّ تحليل الخطاب يقوم على مراحل في تفكيكه ثمّ إعادة صياغته حتّى يتسنى فهمه فهما كليّاً شموليّاً – على الأقلّ باعتباره نصّاً منجزاً لغويّاً أفقيّاً –

خلاصة:

التعرّف إلى الأبنية الصغرى لا يكون بحصرها في شكلٍ واحدٍ أو في مرجعية محدّدة، وإنّما يُنظرُ إليها في التّفاعل بين أيّ بنية في حدّها المعنويّ الأدنى الذي قد يكون له توزيع متعدّد الأبعاد، بسابقتها أو بلاحقتها، أو في علاقة كلّ هذا بنسيج النصّ العامّ، وهذا يعني أنّ التعرّف إلى البنية الصغرى – مهما يكن حجمها لا يتمّ – بالمنظور الذي حدّده فان ديك – إلّا باعتبارها جزءاً من كلّ هو النصّ.

2. أنساق الأبنية الصغرى

يبين فان ديك أن البنية في تتابعها الأفقي قد لا تعني - بصفة آلية - تناظرها مع البنية التركيبية الإعرابية التي قد يكون فيها تقديم وتأخير غايته معنوية دلالية. والبنية أو الأبنية الصغرى لا تتأثر بهذا التقديم والتأخير، ذلك أن النظرة التجزيئية للنص تثبت الروابط النحوية ولا تتنافى معها بما «أن النحو يحلّ بمقولات وقواعد واضحة، أي تُعرف بدقة أي القيود التي تقع من خلالها صور لفظية/ ألفاظ أو مركبات معينة تحت مقولة ما ووفق أي قاعدة يمكن أن تُولف مقولات مع مقولات أخرى» (Van Dijk، 2005: 42) فدلالة النص من وجهة نظره، لا تقوم على مرجعية دون أخرى وإنما هي جُماع صرف ونحو ومُعجم. والبنية الصغرى - باعتبارها الجزء الدلالي الأدنى في النص - تكون في ذاتها انعكاساً للمرجعيات المختلفة، وغياب بعضها قد يغير المعنى بصفة مقصودة في النص - مُنجزاً لغوياً - دون إضافة أي عامل آخر يمكن أن يؤثر في فهمه وتأويله¹.

وقد تتتابع الأبنية الصغرى خطياً ولا يكون بينها رابط دلالي (وهو مشروط بالمنطق) فلا يمكن القول بأن بين بنيتين صغريين - أو أكثر - علاقة إلا بوجود قرينة رابطة بينهما أو بينها، قرينة لفظية أو معنوية تفيد الإثبات، أو التقي، أو التضاد، أو الاختلاف. وعلى هذا الأساس، فالترابط بين البنيتين الصغريين أو الأبنية الصغرى يمكن أن يكون نحوياً دلالياً، أو نحوياً ولا دلالياً، أو دلالياً ولا نحوياً، رغم أن لكل بنية صغرى دلالة منطقية توحى بالانسجام والتلاؤم بين مختلف مكوناتها وإحالاتها.

والقصد من الدلالة قصدان: أولهما ما يوافق به النص/ البنية الصغرى الواقع وفق ثنائية الصدق أو الكذب، والإمكان أو الاستحالة؛ وثانيهما ما يوافق قصد المتكلم دون المخاطب أو الواقع، فيكون النص جدلاً بين المنجز لغة والمنصور دلالة، ومحاولة إيجاد رابط منطقي بين بنيتين أو أكثر قد يكون استناداً إلى اللغة ذاتها من خلال قرائن لفظية، أو ارتباطاً بإمكانية تحقيق التناظر بين العالمين الواقعي والافتراضي².

1 من العوامل المؤثرة في تأويل النص خاصة العاملين النفسي (بالنسبة إلى المتكلم والمخاطب على حد سواء)، والاجتماعي.

2 لمزيد التوسع، انظر فان دايك، علم النص، 2005: 50 - 54: فمن الروابط التي يذكرها:

- الروابط السببية.
- المقارنة.
- الإحالة.

وقد يُنظر إلى هذه البنية على أنها جملة مستقلة بذاتها بنية ودلالة، وأيضاً «على أنها تتخذ شكلَ انتظامٍ سلسليٍّ (متتالية) من الجمل كما لو كانت مكافئة لجملة مؤلفة على وجه مخصوص من التّأليف» (فان ديك، 2000: 164) يقوم على الانسجام وهو نوعان في البنية الصّغرى حسب روبول: بنيويّ ولا معنى؛ وبنيويّ دلاليّ يحقّق التّواصل بين المتكلّم والمخاطب صلةً بنية صغرى بالنّصّ في كليّته «ففي تحليل الخطاب، التّوافق هو ما يُحدّد الخطاب (والخطاب هو جزء متلائم من الجمل)» (Reboul، 1998: 15)

وتذكر روبول أربع قواعد هي بمثابة شروط تحقّق الانسجام بين البنية الصّغرى والأخرى حدّدها كلّ من شارول وبيتارد في حديثهما عن الانسجام في النّصّ السّرديّ، وهذه القواعد الشّروط هي :

- يجب أن تكون البنية محقّقة الإضافة والدّعم والتّفصيل دون الوقوع في التّكرار توازي معنى مع البنية الخطيّة الأفقيّة؛
- أن يتوفّر الاتّفاق بين التّركيب والدّلالة في نسق تطوّرٍ تصاعديّ؛
- عدم الوقوع في التّناقض أو التّضارب سواء أ تعلق الأمر بالمقول من الخطاب أم بالمسكوت عنه.

- اتّساق الأفعال وتتابع الأحداث بما لا ينافي الواقع، (Reboul، 1998: 15 - 16) ولئن كانت هذه الشّروط أقرب إلى المثاليّة منها إلى الإجراء والتّجليّ في نصوص، فإنّها على الأقلّ - ومن وجهة نظر الكاتبة - سعيّ إلى توفير قيّد الانسجام بين الأبنية ما أمكن ذلك، على أنّ مفهوم الانسجام بالنّسبة إلى البنية الصّغرى يمكن أن يقتصر على البنية النّحويّة التّركيبية دون الدّلالية من ذلك مثلاً تعريف الجملة بما يلي: «وجزء من الصّرف هو عبارة عن جملة إلّا إذا كانت نحويّة» (Reboul، 1998: 58)، ويعني هذا انتظامها وفق نسق داخليّ يحكمها بالنّظر إلى نوع الكلمات أو الألفاظ أولاً (فعل - اسم - حرف)، وكيفية صياغتها وتركيبها ثانياً، ويمكن الاقتصار على ذلك إذا ما نُظر إلى الجملة بنية مستقلة بذاتها، لكنّ إذا كانت بنية صغرى ضمن خطاب فلا بدّ من توفّر شرطيّ التّركيب والدّلالة بما أنّ الأبنية الكبرى خاصّة هي أبنية موضوعيّة معنويّة بالأساس، وبالتالي ليس من اليسير التّأليف - في إطار وحدة - بين أشياء متنافرة متباعدة كليّاً: ف : «سعيّ تحليل الخطاب هو إلى اتّخاذ طريق بديل للذي قد يكون بحثاً عن قواعد تنظيميّة لجمال في

-
- التّداعي، من ذلك أن تستدعي جملتان مُصرّح بهما ثلاثة مُفترضة.
 - التّزامن بين قضيتين أو أكثر.
 - علاقة الجزء بالكلّ.

الخطاب» (Reboul، 1998: 60). ويكون هذا التأليف بعلامات لغوية مخصوصة عادة ما تملئها البنية العليا جزءاً مما يدلّ عليها من قرائن، «وتلك العلامات المُجمّعة عامّة تحت عنوان جنسيّ لعلامات التوافق تنقسم إلى أربعة أنواع:

- الأسماء، الأوصاف، المركّبات الإسميّة التّبيانِيّة التي تتوافق مع أدوات التّكرار الخطابيّة، أيّ لعبارات راجعة إلى عنصر وقع ذِكرُه، بَعْدُ، في جملة سابقة (أيّ أنّها ذات مرجعيّة متاسقة)؛

- وقد يبدو شاذّاً الحديث عن الإضمار كعلامات توافق. فعلاً، ليس الإضمار إلّا أثراً في ذاك الاعتبار في عملية هدفها حذف عناصر لغويّة دون أن يتعرّض تأويل الخطاب إلى خطر؛

- الرّوابط التّداوليّة؛

- الأزمنة الكلاميّة. (Reboul، 1998: 61)

يمكن أن تتتابع خطّيّاً - تتابعاً لغويّاً تركيبياً دلاليّاً، ويختزل فإن ديك العلاقات الممكنة بينها فيما يلي:

(i) علاقات الرّبط الأساسيّ بين القضايا (ككلّ): قيود/ نتائج ممكنة، ومحتملة، وضروريّة.

(ii) علاقات التّماسك بين عناصر قضويّة

(أ) مطابقة إحصائيّة (مثلاً : زَيْدٌ ... هُوَ ... الشّابُّ...).

(ب) علاقات إحصائيّة (زَيْدٌ ... يَدَاهُ...).

(ج) علاقات محموليّة أيضاً على أساس الإطار الإدراكيّ (زَيْدٌ اشْتَرَى تَذْكَرَةً سَفَرٍ... تَوَجَّهَ إِلَى الْقِطَارِ...).

(د) علاقات زمنيّة (... اشْتَرَى... تَوَجَّهَ...).

(هـ) علاقات صيغيّة (يُبْمَا يَأْتِي فِعْلاً وَيَأْتِي بِزُهْورٍ): العالم نفسه أو عوالم ممكنة مترابطة بعضها ببعض.

(iii) موضوع (بنية كبرى). (فان دايك، 2005: 278 + Adam، 1997: 26)

ويذكر فان ديك القواعد التي تتربط وفقها الأبنية الصّغرى³ بالنّظر إلى

3 يُراد بها قضيتان أو أكثر قد تردان أو ترد في جملة بسيطة أو معقّدة: اشتمالاً على عدّة قضايا.

النّصّ باعتباره جملة مكوّنات لغويّة نحويّة تركيبية، قواعد تنشأ عُرفيّة وتؤول إلى مقولات يحاول من خلالها الدّارس أو الباحث أن يؤسّس لماهية النّصّ باعتباره شبكة من العلاقات من أنواعها ما تحيل عليه أشكال التّرابط التّالية:

(I) أ علّة ب (ب نتيجة أ).

(II) أ سبب ب (حيث ب حدث أو نتيجة حدث)

(III) أ و ب تحدثان في الموقف ذاته (أي ازدواج في زمن العالم ل1 و ج1)⁴ وتتبعان المجال التّصوري ذاته فيسوغ الآتي:

- أ متزامنة مع ب؛

- أ تقع في فترة جزئية من ب (أو العكس بالعكس)؛

- أ و ب تتابعات (كما هي الحال في العلاقة السببية)؛

- أ و ب تتداخلان.

(IV) أ على نحو حتمي (منطقيًا وتصوريًا) جزء من ب أو على العكس.

(V) أ جزء عادي (تصوري) من ب أو على العكس.

وتمثّل هذه القواعد «المعرفة التّصورية عن المواقف ومجريات الحدث النّمطية» (فان دايك، 2005: 57 - 58). وقد يكون التّرابط بين القضايا أو الجمل - على أساسها - إمّا ترابطًا مباشرًا من خلال أدوات وأنساق لغويّة، وكذلك عبّر المعنى والدّلالة، أو غير مباشر، وفي هذه الحال يستند المخاطب إلى الافتراض لفهم النّصّ وإيجاد نسق منطقيّ يربط بين قضاياها خروجًا من الاعتبار إلى إيجاد إطار معرفيّ معيّن يؤلّف بينها، ويصل إلى الضمنيّ من الخطاب. «وهكذا، فإنّ التّتابع متماسك دلاليًا، حين يمكن أن تفسّر كلّ قضية في التّتابع مفهوميًا أو ما صدقيًا، مرتبطة بتفسير قضايا أخرى في التّتابع أو قضايا خاصّة أو عامّة متضمّنة من خلاله، ومن ثمّ يوصف مفهوم التّفسير النّسبيّ بأنّه مفهوم النّصّ، أمّا كيف يترابط تتابع ما دلاليًا فيعبّر عنه بصورة أكثر شكلية كما يلي:

1 الزّبط الدّاخلّي بين القضايا

إنّ قضيتيّ أ و ب مترابطتان (أي بينهما ترابط داخليّ)، حين يرتبط تفسير

4 ل - عالم، ج - جزء من عالم.

كلّ منهما بالأخرى - بالنظر إلى متكلم (م) وموضوع (ض) ومعرفة عامّة (ف) وقضايا أخرى (متقدّمة) (ق)، متضمّنة من خلال نصّ أو سياق والعالم أي: أ، م، ض، ف، ق، ع؛ و ب، م، ض، ف، ق، ع؛ أي الواقعتان: و أ + و ب.

ويمكن أن ترتبط و أ مع و ب على النحو التالي:

(i) يوجد جزء من واقعة و ي من و ب، بحيث إنّ و أ - و ي (فرضيّة مسبقة).

(ii) و أ قيّد قويّ (سببيّ، تعليليّ) أو ضعيف ل و ب؛

(iii) و أ و و ب بديلان يمكن المقارنة بينهما في عالم متبادلة؛

(iv) و أ و و ب جهتان من مجال تصوّريّ متماثل في عوالم ممكنة ذات صلة (في العوالم/ الأزمنة/ الأماكن ذاتها أو متتالية)،

II علاقات التماسك الأخرى

(i) تترايط المحيلات النّصيّة لقضيّتين أو أكثر بعضها ببعض من خلال التّطابق (في العالم نفسه أو عوالم بديلة) أو من خلال علاقة أخرى محدّدة (مثل جزء - كلّ، ومالك - ملكيّة... الخ)

(ii) علامات المحيلات النّصيّة المتماثلة مترابطة، كما في القيد (i) (iv)، ولكنّها ليست متطابقة.

(iii) تترايط العوالم الممكنة (زمن، مكان... الخ) بعضها ببعض حسب التّطابق، التّتابع، الانفتاح، التّشابه.

وتصحّ هنا بالنّسبة إلى كلّ قضيّة في التّتابع ضرورة توفّر، على الأقلّ، علاقة من تلك العلاقات بقضيّة أخرى أو بقضايا تتضمّن فيها. وعلى هذا الأساس، صار الآن من الممكن أن يُتبيّن بسهولة، أنّ التّتابع في «(...) سافّر بقطار المساء (ج1)، كانت مريحة (ج2)» على سبيل المثال، متماسك بناءً على هذه القيود، وبعبارة أخرى: كلّ قضايا هذا التّتابع مهمّة من جهة المضمون بالنّظر إلى قضيّة أخرى أو سلسلة من القضايا.

وبشكل عامّ، يرتبط قيد (ii) بقيد الإبلاغ التّمطيّ الدّلاليّ - التّداوليّ للتّتابعات، الذي يحدّد الوظائف - المحور والتّفسير لكلّ قضيّة وكلّ جملة حيث تكون فئات القضايا التي تُفسّر بالنّظر إليها في كلّ تفسير لقضايا متتالية أ ن و أ ن+1 غير متماثلة: ق مختلفة عن ق. فالمعلومة (ن) المعبر عنها من خلال أ ن+1 هي جزء من ق، أي أنّ لها وظيفة المحور، على حين خصّصت وظيفة - التّفسير للمعلومة الباقية المعبر عنها من خلال أ ن+1، حيث تتغيّر

ق، في ق» أيضا في الوقت نفسه (وهو ما يمكن أن يكون أساساً لتفسير القضايا التالية). ويمكن أن يتضح لنا أن هذه الطريقة معقدة، غير أنها ما تزال غير مكتملة، بما أنه يجب علينا أن نقول في كل جملة في نص ما شيئاً «جديداً» (فان ديك، 2005: 71 - 73).

تبدو العلاقات بين الأبنية الصغرى فيما بينها، أو بينها والقضايا، أو بين القضايا فيما بينها قائمة على الجانب التركيبي بدرجة أولى، لكن ثبت أيضاً، أن للتركيب صلة كبيرة بالمعنى أو الموضوع أو الدلالة، ويندرج هذا ضمن شبكة العلاقات التي تكون أي نص في مختلف أبعاده، وهو ما يبين التحول من التركيب واللفظ صلة بالمعنى، إلى علاقة الدلالة بالتمثيل والتجريد.

خلاصة:

تتعدد الأنساق التي تتربط وفقها الأبنية الصغرى فتكون معجمية، أو تركيبية، أو نحوية إعرابية، أو معنوية، أو دلالية. وتعداد هذه الأصناف لا يعني انفصالها عن بعضها البعض إلا من حيث المرجعية والمفهوم، أما من حيث التجلي - في إطار النص - فلا شك أن بينها تفاعلاً وانسجماً؛ ثم ليس شرطاً أن تجتمع كلها في سياق واحد، أو مقام واحد؛ كذلك تجليها قد يختلف بين الصريح والضمني، وبين قراءة النص وتأويله. وإذا كان المظهر واحداً فإن إشعاعاته متعددة في الزمان والمكان، وفي الوجوب والإمكان. ويذكر كل من فان ديك وروبول عددا من الشروط أو القواعد التي تضمن انساق النص وانسجامه وهي تتراوح بين الإجراء والتجريد، أو التخصيص والتعميم.

3. من مظاهر الانسجام في البنية الصغرى إمكانية تحولها من الدلالة إلى صيغتها التمثيلية

تتنازع العنصر أو المكون الذي يمثل البنية الصغرى دالتان: جزئية: ارتباطاً بالمرجعية المعجمية - وإن كانت الكلمة، في تحليل الخطاب، تستمد دالتها من التركيب الذي ترد فيه - (Rastier، 1989: 251) ذلك أن تواجد حلقات الحروف (نواميس محلية للربط) يجب النظر إليه في إطار الضغط النصي بضمان الرجوع إلى الإعادة (التواصل النصي) مع التدرج. والأعمال اللغوية تصف وصفاً جيداً تركيبة الضمائر، وعملية التحديد (تحديد الهوية)، والمرجعية الإشارية السياقية، والتسمية والتعويض المعجمي، وإعادة الصياغة، واسترجاع ما قبل الفرضيات؛ وكلية: ارتباطاً بالمرجعية التحوية التركيبية. ولا تكون الدلالة في هذا المستوى الثاني معنوية بالضرورة، وإنما قد تعكس فقط، مقولات وقواعد تساعد على تمثيلها هيكلياً، ذلك أن البنية الصغرى - إذا كانت جملة - تبدو منطقية نحويّاً تركيبياً دلالياً، لكن المتلقي قد يقرؤها

بأكثر من وجه من ذلك المثال الذي يورده كل من سبربر وولسن وهو التالي:

(1) تُكْسِرُ الصَّغِيرَةُ الْبُلُورَ الذي قد يعني:

(1) تُكْسِرُ الطِّفْلَةُ الصَّغِيرَةُ الْبُلُورَ.

(1) النَّسِيمُ الصَّغِيرُ يَجْعَلُهَا تَبْرُدُ

(1) تُكْسِرُ الطِّفْلَةُ الصَّغِيرَةُ الْبُلُورَ؛ فَمَا عَسَى أَنْ يُصْبِحَ شَأْنُ ذَلِكَ لَوْ
تَعْلَقَ الْأَمْرُ بِرِيحٍ عَاتِيَةٍ (Wilson & sperber، 1989: 274)

ولا تتنافى هذه القراءات لا مع السياق، ولا مع المعرفة الموسوعية، ولا مع المنطق استدلالاً وترجيحاً، ولا مع مبدأ الإفادة، لكن، قد يُنظر إلى الدلالة من خلال ثنائية الصدق والكذب؛ وترجيح أحدهما على الآخر يكون بالنظر إلى القرائن الدلالية المتوفرة في النص ذاته - وفي المثال محور الاهتمام هي ليست متوفرة، وإنما تُفسح المجال للافتراض والتخمين - ومع ذلك، يمكن الاعتماد على الصيغة التركيبية اللفظية لوضع منوالٍ تقاس عليه مختلف القراءات - وإنْ تختلف في الجزئيات والتفاصيل - ، وفي التجريد، لا تُمثل البنية الصغرى بصيغتها التعجيمية وإنما باعتبارها علامات أو رموزاً تختزل نظاماً لغوياً نحوياً. وعندما يصوغ المتلقي هذه البنية تمثيلاً هيكلياً، لا يبحث كثيراً في خصائصها وماهيتها، ولا يركّز على معانيها الجزئية أو الكلية⁵، وإنما يهتم بالمسار الذي اتبعه صاحب الخطاب في التأليف بين هذه المكونات، وهذا التأليف قد تكون له دلالة مشتركة بين الطرفين؛ وقد تكون الدلالة من طرف واحد من طرفي عملية التخاطب أو التواصل، إما المتكلم أو السامع، ويبرر كل من سبربر وولسن ذلك بأن «إعادة تركيب شكل جملي يسبب استعمال اليتين ذهنيّتين: صنف لغويّ سطحيّ، ومَلَكَة مرجعية مركزية» (Wilson & sperber، 1989: 276) بما أنّ الهيكل التمثيليّ يختزل ضمنياً مختلف الإمكانات الدلالية التي تنطبق عليه - مهما كانت المرجعية أو تحدّد المقام: مكاناً وزماناً (صياغة نصّ في حدّ ذاته وتناول طرفي خطاب له من ناحية أخرى). (Wilson & sperber، 1989: 280)

ثم إنّ الصدق والكذب هما حكمان معياريان لا بدّ من وجود سُلّم لكليهما فيه درجات سفلى وأخرى عليا وبينهما الدرجة الصّفر، فعلى أيّ مقياس سيوضع هذان السُّلمان؟

يحاول سبربر وولسن تجاوز هذا الإشكال بالقول إنّ الجملة - بما هي

5 هذا المشغل يكون عند البحث في صلات الأبنية الأخرى كبرى وعلياً، لأنّ في هذه التفاعلات تبرز علاقة المبني بالمعنى.

بنية ودلالة - لا تخضع ضرورة إلى إعادة صياغة ما جاء فيها فكرة مخصوصة، إنما قراءتها - قراءة ذهنية - في مطلق الزمان والمكان تحيل على أن القيمة الحقيقية الفعلية للجملة هي فيما تنتج هذه القراءات المتعددة من توسيع دائرة المحيط العرفاني الإدراكي (في بُعد الجملة الاجتماعي التداولي)؛ والمعرفي الموسوعي، يقول الكاتبان: «ولا ننكر إمكانية وجود ما يسميه كواين «جُملاً خالدة». فالجملة الخالدة، كما يحددها كواين هي جملة لا تتغير قيمة حقيقتها أثناء الزمن ومن متكلم إلى آخر. ويعطي المثال التالي (وهو غير كامل): «أوكسيد النحاس أخضر» (نفس المرجع)، والجملة الخالدة المستعملة حرفياً، تعبّر عن نفس الجملة في كلّ السياقات، وتقود بالتالي شخصين يفهمان تلك الجملة إلى أن يتصورا بالضبط نفس الفكرة. والذي نناقشه بقوة هو أن توجد جملة خالدة مطابقة لكل فكرة ممكنة، وأن تتطابق بعض جُمَلٍ ربّما مع فكرة واحدة مهما يكن السياق، يكاد يكون أكثر دلالة من أن بعض سلاسل غير ثابتة من خمسين علامة وفضاء تتطابق مع جملة فرنسية. وبوجه عام فالجملة أو حتّى معاني جملة تتطابق مع فكرة واحدة، وفكرة واحدة لا تتطابق مع جملة واحدة.» (Wilson & sperber, 1989: 287) فتصبح الجملة - بما هي بنية - اختزالاً لعددٍ من التمثيلات الدلالية من ناحية، أحدية الدلالة من ناحية أخرى خاصة إذا تعلق الأمر بقاعدة علمية.

وإذا كان النوع الثاني من الجمل (البنية) يحيل على نمط أو شكل منطقيّ محدّد مضبوط، فإنّ الشكل الأول (البنية/ الدلالة) يحيل على أنماط أو أشكال منطقيّة (ليست في ذاتها، وإنما بما يضيفه عليها المخاطب من منهج استدلالّي استقرائيّ أساساً) ولكنها غير محدّدة أو مضبوطة، خاصّة إذا قيست الأبنية بما بينها من خصوصيّات وعلاقات. ويبين آدام - في إطار تقديمه لآراء باختين حول تحليل الخطاب على ضوء أبنيته - أن العُسر الذي يحفّ ببنية النّص العليا وتحديدّها تحديداً نهائياً تخفّ وطأته مقارنة بالبنية الصّغرى لأنّ أيّ بنية صغرى تبدو واضحة على الأقلّ على المستويين الحرفي والإعرابي⁶ بما أنّ هذين المستويين يمكن اعتبارهما نمطيّين من النّاحيتين اللغويّة والتداوليّة (Adam, 1997: 12) - ومن التداولي ما هو أدبيّ أجناسي⁷

6 وإن كان الوضع يُقلّ بالنسبة إلى المستوى الدلاليّ - بما أنّ هناك عوامل تتجاوز حدود النّص البنيويّة لتقترنّ بسائر عمليات النّخاطب - وهي عوامل حيويّة متبدّلة متغيّرة نذكر منها المخاطب والمقام والإطار الاجتماعيّ.

7 إنّ التّمييز بين مختلف الأبنية التي تؤسّس النّص يبقى تمييزاً بنيويّاً منهجياً، أمّا على مستوى بناء النّص أو الخطاب العامّ، فهناك تفاعل وانسجام، بما أنّ المتكلم أو مُنجز النّص إذ يختار أيّ بنية صغرى، فإنّه يختارها وفي ذهنه تصوّر كامل للنّص مختزلاً في بنيته

والأبنية الصغرى بالنسبة إلى باختين - وإلى غيره من اللغويين واللسانيين مثل جاكبسون - هي القواعد: الصوتية، المعجمية، الصرفية، والتركيبية النحوية، والمعنوية - المنطقية الأساسية؛ وكلا اللسانيين لم يفتأ يركز على صلة الجزء بالكل، أو الأبنية الصغرى بالبنية العليا التي تحتويها (Adam، 1997: 13) من حيث عودة التجريد إلى الإجراء؛ والمتعدد إلى المفرد، من التصوص إلى الخطابات؛ والنص الكلي إلى جزئياته وتفاصيله: البنيوية، والمعنوية الدلالية؛ يقول آدم: «ليس الانسجام صفة لغوية خاصة بالملفوظات، بل هو نتاج نشاط تأويلي» (Adam، 1997: 22)، وعلاقات ثنائية بين الصريح والصريح؛ والصريح والصمني؛ والصواب والخطأ؛ وفق معيار منطقي يستمد خصوصياته من الكون المرجعي الذي يُحيل بدوره على ثنائية الكون الذاتي والكون المرجعي بين الاتفاق والاختلاف في تحقيق التواصل والانسجام، بين المفترض من الدلالة (بالنسبة إلى القارئ أو المخاطب) والواقعي المقصود منها، يقول آدم: «في الشفاهي كما في الكتابي، يسعى المؤول قبل كل شيء، إلى أن يفهم ما يُقال له؛ ومختلف المخططات التنظيمية للمنطوقات المقصودة سابقا تدله في تلك العملية. ولا يوجد قطعاً، أي سبب يسمح بتفضيل المستوى النحوي الوحيد، فنظام المفردات والأصناف النحوية والعلامات الصرفية - النحوية توجه التأويل النحوي إلى مستوى محلي جداً والتمثيل النحوي لمنطوق يمكن أن يتصور كمجموع لمعلومات مسجلة في شكل نظري. وطريقة التعبير عن ذلك التمثيل تختلف بحسب النظريات لكن الوفاق عام نوعاً ما، حول نوعية الجمل لذلك التصور، والوحدة الأساسية هي التلفظ المسبق أي إقامة علاقة حول تصور واحد أو أكثر. ولا يجب أن ننسى بالنسبة إلى الجمل المعبر عنها بوضوح إضافة تلك التي يجب أن يقع الاستدلال بها (المفترضة والصمنية)» (Adam، 1997: 35).

والإشكالية التي يطرحها آدم هي هل ضبط الوحدة الدنيا أو البنية الصغرى في أي نص، يكون بعزل كل مرجعية عن الأخرى أم أن أية بنية صغرى هي كل المرجعيات في آن؟⁸ هذا من ناحية؛ ومن ناحية ثانية، هل أن بعض الأبنية الصغرى - إذ تكون جملة، وهي أدنى مستوى يمكن أن يتشكل أو يُنجز فيه نص أو خطاب - كافية لتحديد الأجناسية؟ أم أن الوحدة الأجناسية الدنيا هي أوسع منهما معاً؟

العليا.

8 وسبب هذا الإشكال في جانبه الأول أن آدم يرى أن كلاً من فان ديك وكنتش قد نظرا إلى البنية الصغرى، وإلى تفاعل هذه الأبنية فيما بينها على أساس بنيوي تركيبي إعرابي - وبقيّة مرجعيات الأبنية الصغرى إنما تكون لاحقة بالمرجعية الأساسية اللفظية. لمزيد التوسع، انظر: Adam، 1997: 35 - 36.

وتُطرح الإشكاليَّةُ عنده مِنْ وجهةٍ ثالثة - لا تتفصل عن السَّابقتين - وتتمثَّل في صيغة الجُملة مثل: الاستفهام، والتَّعجُّب، والأمر؛ وهذه هي الأمثلة التي يقدِّمها آدم:

(1) هَلْ خَرَجَتِ الْمَلِكَةُ عَلَى السَّاعَةِ السَّادِسَةِ؟

(2) خَرَجَتِ الْمَلِكَةُ عَلَى السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ.

(3) يَا جَلَّالَةَ الْمَلِكَةِ، سَتَخْرُجِينَ عَلَى السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ.

وقد توجَّه صيغة الجملة إلى طبيعة النَّصِّ الْمُنْجَز كما النَّصِّ الْمُتَصَوِّر إنجازَه بَيْنَ أَنْ يَكُونَ سَرْدِيًّا، أَوْ وَصْفِيًّا، أَوْ حَاجِيًّا - تَفْسِيرِيًّا؛ وقد تجتمع الأنماط الثلاثة على أساس الاحتمال أو الافتراض بالنسبة إلى النَّصِّ الْوَاحِدِ أَوْ الْجُمْلَةِ الْوَاحِدَةِ أَوْ الصِّيْغَةِ الْمُفْرَدَةِ مِمَّا يُنْتِجُ فُرْقَةً وَاحْتِلَافًا بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِ (الَّذِي يَرَى نَمَطًا وَاحِدًا رَدَّةَ فَعْلٍ مِنَ الْمَخَاطَبِ)، وَالْمَخَاطَبِ الَّذِي قَدْ يُجِيبُ بِنَصِّ سَرْدِيٍّ يَكُونُ الْوَصْفُ فِيهِ طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ الْحَاجِجِ وَالتَّفْسِيرِ لِلإِقْنَاعِ بِوَجْهَةِ النَّظَرِ، بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ إِثْبَاتٍ وَنَفْيٍ أَيْضًا⁹.

على أَنَّ الْوَصْفَ لَيْسَ فَقَطْ آلِيَّةً مِنْ آلياتِ الْاِسْتِدْلَالِ فِي فَهْمِ النَّصِّ بَعْدَ تَبْلِيغِهِ فِي صِيغَتِهِ اللَّفْظِيَّةِ الْمُعْجَمِيَّةِ، وَإِنَّمَا هُوَ أَيْضًا طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ تَمَثُّلِ النَّصِّ الْوَاحِدِ، ثُمَّ تَمَثُّلِهِ فِي أَنْوَاجٍ أَصْلِيٍّ يُحْتَدَى: إِنَّهُ الشَّكْلُ التَّجْرِيدِيُّ لِلْبُنْيَةِ الْعَلِيَا¹⁰، وَبِهَذَا نَخْلُصُ مِنْ صِلَةِ الْأُبْنِيَةِ الصَّغْرَى فِيمَا بَيْنَهَا إِلَى صِلَتِهَا بِسَائِرِ الْأُبْنِيَةِ عَلَى أَسَاسِ تَشْجِيرِيٍّ يَكُونُ الْاِنْتِقَالُ فِيهِ مِنْ أَصْلٍ إِلَى فَرْعٍ فِي كُلِّ مَتَاسَاكٍ مُتَجَانِسٍ رَغْمَ الْاِسْتِقْلَالِ وَالْخُصُوصِيَّةِ. وَالرَّأْيُ - فِي هَذَا الْمَسْتَوَى - بِالنَّسْبَةِ إِلَى آدَمَ أَنَّهُ مِنَ الْعَسِيرِ - إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ - الْاِسْتِنَادُ إِلَى جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ إِلَى نَصِّ وَاحِدٍ لِتَحْدِيدِ الْأَجْنَاسِيَّةِ، إِذْ لَا يُمْكِنُ التَّعَرُّفُ إِلَيْهَا وَتَعْرِيفُهَا بِصِفَةِ آلِيَّةِ التَّعَدُّدِ وَالْكَثْرَةِ، سِوَاةً بِالنَّسْبَةِ إِلَى النَّصِّ الْوَاحِدِ (مُقَارَنَةً بَيْنَ جُمْلَةٍ)، أَمْ إِلَى النَّصِّ فِي صِلَتِهِ بَغْيَرِهِ مِنَ النَّصُوصِ (الْمُقَارَنَةِ عَلَى أَسَاسِ الصِّيْغِ وَالْمُرْجِعِيَّاتِ)¹¹.

خلاصة

التَّحَوُّلُ فِي الْبُنْيَةِ الصَّغْرَى مِنَ الْمُنْجَزِ النَّصِّيِّ إِلَى الْهَيْكَلِ التَّجْرِيدِيِّ هُوَ اخْتِرَالٌ لِمَخْتَلَفِ النَّصُورَاتِ الْمُمْكِنَةِ فِي الْإِنْتِاجِ وَفِي إِعَادَتِهِ أَيْضًا، بِمَا يَعْنِي

9 لمزيد التَّوَسُّعِ، انظر: Adam، 1997: 37-39.

10 إِنَّ الْبُنْيَةَ الْعَلِيَا مَفْهُومِيْن: أَوْلَهُمَا: يَتَعَلَّقُ بِالنَّصِّ إِجْرَاءً وَعَمَلًا، وَثَانِيَهُمَا: يَتَعَلَّقُ بِالنَّصُوصِ تَجْرِيدًا وَتَنْظِيرًا.

11 انظر الرِّسْمَ الَّذِي وَضَعَهُ آدَمَ: 1997: 40.

أنّ الاهتمامَ بأبنية النصّ يُحيل - وإنّ ضمنياً - على بُعدهِ التّداوليّ ليس فقط على مستوى الخطاب، ولكن حتّى بالنّسبة إلى الجنس الأدبيّ، بما يجعل البنية الصّغرى الواحدة تخرج عن أصل معناها لتكتسب معاني أخرى يوجّهها نمط الكتابة قبل الإطار والنّمودج الذي يُفسح المجال للمقارنة بين مقامات الأبنية الصّغرى ومدى التشابه أو الاختلاف بين الأجناس الأدبيّة على هذا الأساس.

الفصل الرابع

الاستدلال على انسجام الخطاب
من خلال الأبنية الكبرى

«البنية الكبرى هي الحجم الترسيمي الدلالي لنص ما.»

(Adam, Le récit : 17)

1. حدّ البنية الكبرى وتعريفها

يمثل حدّ البنية الكبرى وتعريفها وجهًا من وجوه الإشكال بالنسبة إلى فان دايك من جوانب ثلاثة هي: أولاً: اعتبار البنية الكبرى تتعلّق بالشكل أي بالبنية الصّغيّة الإعرابيّة ربطًا بالنحو التركيبّي الوصفّي؛ وثانيًا: اعتبارها تتعلّق بالمعنى إحالةً على الموضوع أو المحور الرئيسيّ الذي يدور حوله النصّ وإليه تُختزل جميع مكوناته - وهو ما يبقى في ذهن المتلقّي من النصّ دون الالتزام بحرفيّته -؛ وثالثًا: اعتبار البنية الكبرى ذات بُعدين متلازمين، لا يفصل أحدهما عن الآخر: بنية تركيبية؛ وبنية دلالية. وهذا الجانب الثالث هو الذي يُرجّحه فان دايك - وإن كان ببعض الحذر، إذ ليس من اليسير، بالنسبة إليه البتّ فيما هو متغيّر، وأوّل هذه المتغيّرات اللّغة ذاتها - (Van Dijk, 1980: 10)

إذن، فالبنية الكبرى هي ذات طبيعة تأليفية متشعّبة؛ وهي أيضًا ذات خاصيّة تجريديّة إجرائيّة في أن، خاصيّة تتسجم مع النصّ في مرجعيّته النّحويّة التركيبية، وفي مرجعيّته التّأويليّة (فقط من وجهة المُخاطَب أو متلقّي النصّ: مشافهة أو كتابة أو مُشاهدة)، فتكون هذه المقاربة ذاتيّة قراءّة، موضوعيّة تمثيليّة؛ وهذا رسمٌ بيّن من خلاله فان دايك التّكامل والتّجانس بيّن كلّ الجوانب سابقة الذّكر:



إنّ البنية الكبرى - في هذا المستوى، وبهذا التمثيل - تُرادف الحدث، والفعل، والوضعيّة، والمسار، في عالم إجرائيّ واقعيّ أو ممكن مقترن بمختلف الإمكانات والافتراضات التي يذهب إليها المخاطب أو متلقّي النصّ - وهي توجّهات ذهنيّة لا تنشأ من عدم، لكنّ على أساس ما هو واقعيّ مألوف - ويتمّ الانتقال من نقطة إلى أخرى في هذه المسارات التّأويليّة وفق منهج استدلاليّ - من ذلك مثلاً: أنّ يمرضَ إنسان فيستدعي طبيباً لمعالجته، هذا أمر طبيعّي ومنطقيّ لكنّه ليس شرطاً أساسيّاً، فقد يعتلّ الفرد ولا يستدعي طبيباً لأنّه لا يرى لذلك ضرورة قصوى؛ أو ربّما يستدعي طبيباً لضيافته وليس بالضرورة لمداواته، لكنّ إذا جاء نصّ قائم على علاقة تلازم بين القضية الأولى والقضيّة الثّانية على الصّيغتين التّاليتين:

(1) مَرِضٌ زَيْدٌ فَاسْتَدْعَى الطَّبِيبَ.

(2) مَرِضٌ زَيْدٌ اسْتَدْعَى زَيْدٌ الطَّبِيبَ

فإنّ الرّبط بين القضيتين يصبح ارتباط سبب بنتيجة، فيصبح الافتراضيّ قضيويّاً واقعياً. (Van Dijk, 1980, 34 - 35)

ويمكن أن ترتبط قضيتان أيضاً ارتباط التّعميم بالتّخصيص، أو الإجمال بالتّفصيل والعكس صحيح أيضاً ووارد من ذلك مثلاً: «كان زيدٌ مريضاً، فاستدعى الطّبيب، لكنّ الطّبيب (...) لم يتمكّن من المجيء لأنّ زوجته أرادت الذهاب إلى المسرح برفقته، كانت «عُطِيل» هي المسرحيّة المعروضة، ولم يكن من الممكن للزوجة أن تُقوّت فيها، لأنّ شكسبير هو من كتّاب الدّراما القلائل الذين...» (Van Dijk, 1980: 40)

وهكذا يكون الانفتاح على عدد غير محدود من القضايا خاصيّة من خصائص البنية الكبرى التي تتجلّى في المستويات التّالية:

1/ بالنّسبة إلى النصّ الواحد: لا يمكن أن نتحدّث عن بنية كبرى واحدة وإنّما هي أبنية متعدّدة، ويرتبط هذا التّعدّد بأمرين: أولهما: بنية النصّ التّراتبيّة من قاعدته حتّى قمّته (التي تكون في الأصل أعلى مستوى من مستويات تمثيل الأبنية الكبرى وهي في الآن ذاته موافقة لبنيته العلّيا على مستوى التّمثيل والرّسم، لا الدّلالة)، وثانيهما: العلاقة التّلازميّة بين الأبنية الكبرى ووظائفها التي تضمن التّحوّل من مستوى من مستويات النصّ أو الخطاب إلى آخر، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى التّحوّل من تعدّد في الأبنية إلى اختزالها في بنية واحدة¹.

1 نشير هنا إلى أمرين:

(1) على المستوى التّمثيليّ الرّسميّ لا يعني الاختزال الحذف وإنّما الانتقال تصاعديّاً

2/ إذا كان النَّصُّ قصيراً (يتكوّن، فقط، من الجملة أو الجملتين) فإنّ البنية تكوّن واحدة: بنية صغرى توافق البنية الكبرى - ويتمّ هذا عبر تطبيق ما اصطلح عليه فان دايك - في إطار اهتمامه بقواعد الأبنية الكبرى - بـ «القاعدة الصّفر»².

3/ إذا طال النَّصُّ وتعدّدت أبنيته الكبرى، فالتّعدّد لا يعني الاختلاف بالضرورة، فقد توجد نفس البنية الكبرى في أكثر من مستوى من مستويات النَّصِّ أو الخطاب³

4/ جُمْلٌ ← متتالية ← مستوى البنية الكبرى

↓
"يجب أن تكون متماسكة خطياً وكُلّياً"

← "يُمْكِنُ أَنْ تُنشَأَ برسم البنية الكبرى في أعلى مستوياتها"

← "يجب أن يُوافق التماسك الخطّي مختلفَ العلاقات بين الجُمْل"

← "يُشار إلى الوقائع المُتعلّقة (كُلّياً) مِنْ خلال العلاقات الشّرطيّة"

← "البنية الكبرى في أيّ مستوى ينبغي أن تكون صريحة: وهذا يعني أن أيّ جملة تفسيرية يجب أن تكون جزءاً مِنْ مُتتالية بنية ذلك المستوى الكبرى" (Van Dijk، 1980: 84).

5/ إضافة إلى ما تميّز به الأبنية الكبرى من معان صريحة تُخترَلُ في معنى النَّصِّ الشّموليّ، لابدّ من توفّر شروط ثلاثة أيضاً هي: الأهميّة، والتّناسب وموافقة الموضوع، والوضوح والتّجلي سواء أ تعلّق الأمرُ بالعلاقات بين الأبنية، أو المستويات: أفقيّاً كما عموديّاً، أو بالوظائف التي تحدّدها. ونُقضي هذه الشروط إلى خاصيّة أخرى من خصائص الأبنية الكبرى - كما سائر مكوّنات النَّصِّ - وهي أنّها متبدّلة متغيّرة ممّا يَفْرَضُ في رسم تخطيط

من مستوى في التّجريد إلى آخر؛

2) تكثيف دلالة النَّصِّ إمّا بالتّجميع أو بالتوسّع،

انظر: (Van Dijk، 1980: 84).

2 « A ZERO RULE » : (Van Dijk، 1980: 84)

3 بقي أننا نشير إلى استثناء في مستويين: أولاً: أن تتكرّر البنية شكلاً وأسلوباً، فلا يعني ذلك تكرّرها بالضرورة معنى ودلالة؛ وثانياً: قد تتعلّق البنية الكبرى - في مستوى أو أكثر من النَّصِّ بمحور اهتمام معيّن (موصوف - حدّث - فكرة...) لتكون ذات البنية في مستوى آخر من النَّصِّ متعلّقة بمحور اهتمام آخر.

وقد يبرّر هذا الاستثناء بمحدوديّة اللغة إطار تعبير وسعتها مجالاً ورؤى وتصوّرات.

أي نص أو خطاب المرور من بنية إلى أخرى، أو من مستوى إلى آخر وفق الترتيب التفاضلي ثنائية إجمال وتفصيل - والتغير الأول يكون على مستوى الخصائص كما الوظائف - في البنية الصغرى ومنها ينتشر إلى سائر الشبكة الخطابية أو النصية. (Van Dijk، 1980: 86 - 87).

وتكون البنية الكبرى تأطيراً للخطاب وصيغته ومحتواه، أو تفسيراً، أو تخصيصاً أو تفصيلاً، أو تعبيراً عن التباين أو الاختلاف، أو مثلاً. وفي أي شكل من هذه الأشكال للبنية الكبرى وظيفة مشتركة وهي التأليف بين القضايا والجمل، أو بينها والأبنية الصغرى، والأبنية الكبرى الفرعية.

6/ تتخذ الأبنية الكبرى - في بعدها التداولي - خصائص متعددة ارتباطاً بعوامل مختلفة من ذلك صلتها بسائر مداخل الدراسات اللغوية مثل النحو: تركيباً وإعراباً ودلالة، وعلم الدلالة: في صلتها بالمعنى، والمرجع، والظرف، واللسانيات من حيث صلة الكلام بالنحو أو أفعال الكلام؛ ثم تجاوز دراسة الجمل باعتبارها وحدات لغوية أو كلامية معزولة إلى دراستها في سياق مجموعات، أو خطاب متكامل متجانس⁴؛ وكذلك المتكلم والمخاطب وطبيعة العلاقة بينهما (على مستوى التفاعل الاجتماعي خاصة) لما يمكن أن تستدعيه هذه العلاقة من خصائص معرفية تداولية (معرفة/ اعتقادات، أمان/ رغبات، اختيارات/ توجهات...) (Van Dijk، 1980: 176).

7/ الأبنية الكبرى جامعة لمختلف أبعاد دراسة الخطاب وتحليله، التي يكون بعضها أبعاداً قريبة مقصودة، ويكون بعضها الآخر ضمنياً بعيد المدى. وهي أنها قبل أن تُصاغ بنية تجريدية تمثيلية، تكون وضعية اجتماعية، وتجلياً معرفياً سواء أ كان بالنسبة إلى المتكلم (إذا اتخذ خطابه صبغة الاستفهام مثلاً) أم إلى المخاطب (والمعرفة عنده ذات مستويين: معرفة ما يريد أن يعرف المتكلم، ومدى توافق هذا المستوى الأول مع ما يريد المخاطب أن

4 تُطرح إشكالية الحد والمفهوم بالنسبة إلى الأبنية الكبرى كما بالنسبة إلى غيرها من الأبنية، إذ كثيراً ما تبدو متشابهة متشابكة متداخلة، لكن، يمكن تجاوز البعض من هذا الإشكال من حيث التمييز بين الأبنية الكبرى والأبنية الصغرى، ويمكن ذلك على أساس شرطين:

1. إن أي بنية صغرى لا يمكن اختزالها بنيوياً أو دلالياً أو تمثيلاً إلى وحدة أصغر منها.

2. إن أي وحدة صغرى لا يمكن أن تستدعي إلى الدّهن - تصوّراً وتأييلاً - ولا إلى الذاكرة - منظومة معرفية عرفية يتوسّع على أساسها الحدّ الواحد (وهي خاصية من خاصيات الأبنية الكبرى) - ثم لماذا المقارنة، في هذا السياق، بين هذين النوعين بالذات؟ - في السياق التداولي، قد يظن المتلقي أن صياغة خطاب مُحيلة على بنية صغرى والحال أن الأمر متعلق ببنية كبرى - وفي المراحل التالية من البحث يُبرّر هذا التّوجّه والتمييز.

يعرفه، أو أن ينتهي إليه) (Van Dijk، 1980: 175).

8/ إن من خصائص الأبنية الكبرى الشكلية إبراز النص أو الخطاب في صبغته التركيبية التتابعية صلة نواتات بأصولها ومحتوياتها، من ذلك: ب تلي أ؛ أو على أساس التضمن، من ذلك: ب هي جزء من بنية أ⁵، وهذه الصلات قد تكون بنوية - دلالية تصريحاً أو ضمناً، وفي الافتراض الثاني، يكون الاستناد إلى بعض هذه الوظائف ذاتها، وتحديدًا إلى الوظيفة التركيبية، لإضافة القضية المسكوت عنها، وبها يكون تحقيق الانسجام بين القضيتين اللتين تدوان متباعدتين دلالة متتابعتين بناءً. وما يحكم الترابط بين البنيوي والدلالي في الأبنية الكبرى هو القواعد التي تنتظمها، ويميزها فان ديك عن قواعد أخرى من الانتظام إذ يقول: «القواعد الكبرى ليست مثل أي نوع من القواعد النحوية القائمة، وهذا يعني أنها ليست مثل القواعد التركيبية الشكلية، خلافاً للقواعد الهيكلية العليا، كما أنها ليست مثل القواعد التركيبية التحويلية كما اقترح في النحو التحويلي التوليدي، بما أنها لا ترسم هياكل نحوية أو بنوية. وأخيراً، فهي ليست قواعد تفسير، بالمعنى الدقيق للكلمة، لأنها لا تربط المعاني أو المرجعيات بالعبارات.

وينطبق نفس الشيء على القواعد المنطقية المعتادة (...) إذ هناك بعض التشابه بينها وقواعد الاشتقاق الصرفية وما تتميز به من بدهية قد تقل أو تكثر» (Van Dijk، 1980: 75). فمن وجهة نظر فان ديك، بقدر ما تبدو الأبنية الكبرى ذات خصوصية ترتبط بالمعنى أكثر من ارتباطها بالبناء واللفظ، فإن معانيها أو مواضيعها لا يمكن أن تتجلى بمعزل عن سائر مكونات اللغة ومرجعياتها ومقوماتها، فهي تعود إليها دون أن تقوض إحداها على حساب الموضوع.

9/ المقارنة بين صبغتي نص: صبغته الأصلية - بما فيها من جزئيات وتفصيل -، وصبغته المكتسبة - اختزالاً أو حذفاً - وما تؤدي إليه هذه المقارنة من نتائج يتعلق بعضها ببناء النص، ويتعلق بعضها الآخر بمعانيه. ومع تحويل المعاني، يصبح النص جدلاً بين مُنجز أو ما كان مُنجزاً منه، وبين ما هو افتراضي قد يوافق ما كان موجوداً، وقد يختلف معه - لكن ما

5 إن التلازم على مستوى التركيب يعكس ضرورة تلازما على مستوى المعنى، من ذلك مثلاً ثنائية الصدق والكذب حدثاً ومعنى؛ فإذا كانت أ ينطبق عليها حكم الصدق فهو ينطبق على ب، والعكس أيضاً، كما أن حكم الكذب له نفس الخصائص والشروط (وإن القول بالصدق أو الكذب يكون في مدى موافقة النص أو الخطاب للواقع من ناحية، وللمنطق من ناحية أخرى - وفي هذا المستوى، لا يمكن الحديث عن بنية تركيبية نحوية بمعزل عن بنيتها الدلالية).

يؤلف بين الواقعي والافتراضي هو ما يقوم به متلقي الخطاب أو النص من عمليات ذهنية بها يستدل على الروابط المنطقية التي تضمن انسجام بناء النص وتلاؤم صيغته ومعانيه. (Van Dijk, 1980: 79 - 80).

10/ الإحالة في تخطيط نص أو رسمه على الناحية المنطقية القائمة على الاستدلال والتلاؤم والانسجام أكثر منه على الناحية المعرفية الإدراكية التداولية المخصوصة، ربط نص بسياقه مرجعا وواقعا - إلا من حيث الإحالة على: «معنى الخطاب العام أو الشمولي» أو «موضوعه»، (Van Dijk, 1980: 82) ويتخذ خطاب المتكلم وظائف عديدة تدور في فلك التبليغ والإفصاح؛ ومن هذه الوظائف:

الوظيفة التفسيرية من ذلك:

(3) هَلْ لَكَ أَنْ تُخْبِرَنِي كَمْ السَّاعَةُ؟ لَا سَاعَةٌ لِي.

ويكون التفسير من خلال التأكيد، والإنشاء الطلبي كما غير الطلبي، والنصح والوعظ والإرشاد، والاعتذار.

إبراز العلاقة بين الخطاب والمقام.

إبراز طبيعة العلاقة أو العلاقات بين الجملة والجملة، أو بين مجموعة أفعال وأخرى مثل السببية، والظرفية والشرطية.

ويستخلص فان ديك من البعد التداولي خصائص البنية الكبرى وتجلياتها ووظائفها يراها فيما يلي:

- التئام عناصرها ضمن مجموعات في ترتيب تتابعي منطقي (جزئيا يقتصر على جملة، أو كليا تفصي فيه الجملة إلى الأخرى في سلسلة متكاملة) أولا، ثم في مستوى عمودي ترابطي وفق شبكة من العناصر ثانيا؛ ويكون مجال الأحداث والأفعال اجتماعيا بالأساس، ومن خلاله يكون الانفتاح على سائر مجالات الحياة، وأشكال الخطاب (في صيغته الاعتبارية العفوية، أو المؤسساتية المقننة).

- لكل بنية كبرى ثلاثة أوضاع: بداية؛ محتوى؛ خاتمة. (وإذا كانت البداية والنهاية لهما صيغة شبه مألوفة متعاودة متكررة، فإن المحتوى ثابت شكلا، متغير دلالة ارتباطا بتبدل الموضوع من ذلك: اجتماعي - علمي؛ اجتماعي - أدبي؛ اجتماعي - ثقافي؛ اجتماعي - تربوي؛ اجتماعي - إداري؛ اجتماعي - ديني...)

- لا بد من وجود طرفي خطاب: متكلم أو منشي خطاب، ومخاطب أو متلقي خطاب. والغالب على هذه العلاقة هو ثنائية الفعل/ الانفعال، الفعل/ التفاعل؛

والمخاطَب يمكن أن يكون في صيغة مفرد، أو في صيغة جمع.
- التّأليف بيّن مختلف أنماط الخطاب؛ وما يذكره فان ديك في هذا السّياق،
العبارات التّأليّة:

(أ) التّعابير الدّلالية الكلّية:

(4) سَيَكُونُ الْخِطَابُ حَوْلَ...

(5) سَأَتَكَلِّمُ عَنْ...

(6) سَيَكُونُ مَوْضُوعُ نِقَاشِي... (موضوع، جوهر، نتيجة...)

(ب) مؤشّرات التّليخيص:

(7) أَهَمُّ شَيْءٍ (وثيق الصّلة بالموضوع) هُوَ...

(8) أَوَّلًا، بِشَكْلِ حَاسِمٍ، لَا سِيَمًا...

(9) وَيَنْبَغِي التّشْدِيدُ عَلَى...

(10) وَأَكْثَرُ (أَكْثَرُ) أَنْ... (Van Dijk, 1980: 102 - 103).

ومن خلال هذه القرائن، يعبّر المتكلّم عن رغبته في عَقْد تواصل بينه والمخاطَب إمّا على أساس: استهلال القول، أو إبداء رأي أو موقف بالموافقة والقبول، أو بالرفض والنفي، أو التّدكير بما سبق، أو إثارة فضول المخاطَب ودفعه إلى المشاركة في إنجاز الخطاب، أو التّليخيص؛ والصّيغ النّحويّة التّركيبية الدّلالية المقصودة في هذا النّوع من الأبنية الكبرى - أيّ باعتبارها «بنية» يمكن إرجاعها إلى: الكلمات المفاتيح؛ الجُمْل المواضيع؛ التّلاخيص؛ العناوين؛ القرائن المرجعية (المذكورة سابقًا)؛ الضّمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة التي تساعد على تبيين مستوى البنية الكبرى (في أيّ مرحلة من مراحل النّصّ أو الخطاب) «جملةً من الظّواهر اللّغويّة التي يُمكن اعتبارها علاماتٍ دالةً على الأبنية الدّلالية في دراسة الخطاب حقائق تُمثّلُ جُزءًا من الأبنية الدّلالية الكلّية» (Van Dijk, 1980: 105).

ويبرز فان ديك أيضًا، أنّ تحليل الخطاب يتمّ عبر جملة من الخصائص تتوزّع بين الإجراءي والنّظري، وبين النّظر إلى النّصّ بناءً تركيبياً، والنّظر إليه دلالة وتداولاً. وأنّ يكون الخطاب جملة مكوّنات تتوزّع بين الصّغرى والكبرى، فهذا لا ينفي اتّصالها وانصهارها في كلّ هو الخطاب، ذلك أنّ «وصف الخطاب باعتباره متتالية جُمْل يتطلّب في ذات الوقت تفسيراً لشروط متتالية أفعال الكلام» (فان ديك، 2000: 14) وكلّتاها تلتقيان في الموضوع والأطروحة والدّلالة على الغرض إذ تؤوّل إلى المعرفة من ناحية، وإلى

المرجعية الواقعية من ناحية أخرى (مرجعية قد تكون اجتماعية، سياسية، اقتصادية، ثقافية...). (فان ديك، 2000: 18)

ولئن تعلّق الأمر بالنسبة إلى البنية الكبرى بُعْدَيْن كبيرين هما: المحتوى والاتساق في أزواج أو متتاليات قضايا، فإنّ هذا لا ينفي عناصر ترابط أخرى تتعلّق بالمنطق الداخليّ الذي يحكم ترابط المكونات مثل الاقتضاء والاستقراء والاستنتاج، وهي عناصر تجعل البنية الكبرى رهينة الخطاب ككلّ يختزل «المفهوم العامّ الكلّي» (فان ديك، 2000: 204) باعتبار النصّ «خطاباً مفروضاً» أي نصّاً قائماً لفظاً وتركيباً نحوياً، وله مرجعيّاته وسياقاته التي أفرزته، ثمّ باعتبار النصّ «خطاباً مُفترَضاً» «أي نصّ يعيد إنتاجه متلقٍ بطريقة قد توافق السياقات التداولية، وقد تُغيّرها إمّا في إطار إجرائيّ مختلف، وإمّا في إطار «تنبؤات نظرية»» (فان ديك، 2000: 205) هي جزء من التوجّه التجريديّ في تشكيل الخطاب.

ومن العلامات الدالة على التحوّل من بنية كبرى إلى أخرى:

1/ التغيّر في الموضوعات؛

2/ تبدّل المحمولات من حيث صلتها بالمسند أو المسند إليه في علاقات تلازم، أو انفصال؛

3/ الإطار الذي «ينظم المعرفة المتعلقة بخواصّ الأشياء وجريان الأحداث والأفعال ممّا شأنه أن يرتبط بعضه مع بعض على نحو نموذجي»⁶ (فان ديك، 2000: 219)، والإطار واحد أمّا متعلّقاته فمتبدّلة متغيّرة، وخاصّة منجز الفعل، والوظيفة التي يؤدّيها الفعل ذاته حتّى وإن كان مشتركا بين أطراف عدّة، فمثلاً إذا وُجد أشخاص عديدون في نفس المكان (مكتبة - شارع - مقهى...) فقد تكون بينهم أشياء مشتركة لكن تبقى لكلّ خصوصيّة ودوافعه وتقديراته للأشياء ومقاصده من النّظر إليها.

وقد يبيّن الخطاب أو النصّ، هذه الأشياء جميعاً لغة وتركيباً ولفظاً، وقد يسكت صاحبه عن الكثير منها، وهذا ما يبرّر أيضاً التوجّه إلى أنّ الأبنية الكبرى لا تتعلّق بالمواضيع، أو المحاور الكبرى التي قد يدور حولها خطاب ما، وإنّما تكون البنية الواحدة رافداً لأبنية متعدّدة بعضها مصرّح به وبعضها

6 المقصود بالنّحو التّمودجيّ ليس فقط تمثيل الخطاب تمثيلاً تجرديّاً يختزل مختلف التّجليات الممكنة المتناظرة على أساس هذا التّشكيل (بما يحتويه من أبنية - بما في ذلك الأبنية الكبرى -)، ولكنّ المراد - إضافة إلى ذلك - الإطار بما يستدعيه من لوازم ومكوّنات ومقولات هي شروط وجوده مفهوماً ودلالة «بطريق التّواضع والتّجربة» - نفسه: 219.

الآخر مسكوت عنه لكن يستدعيه الإطار⁷، ويميّز فان دايك، في إطار حديثه عن «الجمل والمتتاليات» بين ثلاثة أنواع من الترابط أو الاتساق إذ يقول: «فأحد الفروق بين المتتاليات والجمل المركبة هو فارق مرتبط بتمييز الإثبات - الاقتضاء وهو تمييز مشهور» (فان ديك، 2000: 278)،

فالنوع الأول أن تكون كل قضية مدلولاً عليها بعبارة الجملة أو المتتالية تكون إثباتاً/

(11) يُوجَدُ زَيْدٌ فِي الْمُسْتَشْفَى لِأَنَّهُ أُصِيبَ فِي حَادِثٍ؛

والنوع الثاني أن تكون قضايا الوضع الثاني إثباتاً وتقريراً/

(12) وَمِنْ أَجْلِ أَنْ أُصِيبَ زَيْدٌ فِي حَادِثٍ فَهُوَ مُوجُودٌ فِي الْمُسْتَشْفَى؛

والنوع الثالث أن تكون جمل الوضع الثاني اقتضاءً (بالمعنى التداولي لهذا اللفظ أي يفرضها المتكلم ويعملها المخاطب)/

(13) يُوجَدُ زَيْدٌ فِي الْمُسْتَشْفَى مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أُصِيبَ فِي حَادِثٍ؛

هي أنواع تعكس إشكالية إلى أي مدى يمكن البت في اعتبار البنية الكبرى بنية أو موضوعاً أو معنى، أم أنها كل هذا؟

1.1. البنية الكبرى: بنية أم موضوع أم معنى؟ (مبررات إثارة المسألة)

1/ هي بنية من حيث المرجع والإحالة؛ والنحو وظيفية إعرابية وأدوات ربط وقرائن أسلوبية؛ ويستند إلى كل ذلك لتمييز الأبنية الكبرى عن غيرها من التراكيب والأبنية والمستويات. وهي بنية أيضاً، من حيث وجود علامات لغوية وعبارات تشي بالتحوّل من مستوى إلى آخر.

2/ هي موضوع عندما يكون الفاعل الواحد هو المحور الأساسي، وكلّ القضايا كما الشخصيات إنّما تأتي مكملّة الحديث عنه أو حوله.

ثمّ إنّ الحديث عن موضوع خطاب ما، إنّما يكون مقابل أو إزاء «المواضيع» التي تحيل عليها الجمل باعتبارها الوحدات الصغرى التي تكوّن البنية الكبرى؛ ويميّز فان ديك، في هذه الوحدات الصغرى، بين جمل رئيسية، وجمل ثانوية تمييزاً يراعي فيه أمرين: أولهما: صلة الموضوع بالبنية؛ وثانيهما: بقاء جوهر النصّ أو الخطاب، من حيث موضوعه العام في حالتي الاختزال والحذف

7 لمزيد التوسّع في هذه الصّلات بين الأبنية الكبرى والخطاب أو النصّ في بعده الصّبغي أو التركيبي، والدّلاليّ التداولي، انظر فان ديك: 2000: 248 - 253.

(Van Dijk، 1980: 94 - 95)؛ ولا يعني هذا أيضا أن موضوع أي خطاب يكون مركزياً في جملة بعينها، إنما هو مبنوث في ثنايا الخطاب أو النصّ.

ويقترن موضوع أي نصّ أو خطاب ببعدين: أولهما مفهوم واضح جليّ: ذاك الذي تحيل عليه بنية النصّ السطحيّة الأفقيّة؛ وثانيهما مفهوم ضمنيّ: حين تتعدّد القضايا. ومع هذا البعد الثّاني، يصبح الأمر أكثر تعقيداً إذا كانت القضايا لا تدور حول محور واحد - وإن كان المكان هو ذاته بالنسبة إليها جميعاً، أو كانت الفواعل تُنجز أفعالاً، في الظاهر، لا رابط منطقيّ بينها - (Van Dijk، 1980: 97)؛ إنّ الجملة الرئيّسيّة تتطلّب ضرورة تحوّل من مستوى إلى آخر.

3/ هي المعنى، أو القضية الأصل، الأوسع لمعانٍ فرعيّة تكوّنه، وهي القضايا التّوسّعة، التي تشترك معه فيما هو مسكوت عنه وتُحيل عليه الدّلالة المعجميّة: إنّهُ الحدث المشترك - وإن غابت القرائن اللفظيّة التي تربط بين مختلف القضايا - (Van Dijk، 1980: 46).

4/ هي البنية الموضوع الهيكل: «تتكوّن كلمة الإطار الموضوع من العناصر المُتأثّية من السّياق المادّي كما من مجال الخطاب في أيّ جزء منه» (Brown & yule، 1983: 79) استناداً إلى الجهد المشترك المُقتَضَى ضمناً: «الجهد المشترك هو الذي يحتوي معلومة «تُشكّل من المعرفة العامّة، ومن سيات الخطاب كما من الخطاب ذاته»، ولكلّ مُشارك في الخطاب مجموعة افتراضات تُضاف إلى ما يحتويه الخطاب. ويتصرّف المُشارك كما لو أنّ هناك مجموعة افتراضات واحدة مشتركة بين كلّ أطراف الخطاب» (Brown & yule، 1983: 79 - 80)

5/ البنية الكبرى: بين الموضوع والتّأويل وتركيب الجملة، أو التّركيب عامّة: هذا يمثل إشكالا، حتّى بالنسبة إلى العبارة الواحدة إذ ليس من الصّروحيّ أن يتفق اثنان في اعتبار اسم علم، أو عبارة مُحدّدة من النصّ، أو أسلوب الكتابة أو الإنشاء عامّة هو موضوع الخطاب، بما أنّ المرجع الذي يستند إليه أيّ قارئ للنصّ قد لا يجانس مرجع قارئ آخر (Brown & yule، 1983: 81 - 90)، ومن هنا يكون من يحدّد موضوع نصّ ما ليس فقط ألفاظه وتراكيبه وإنّما رؤية المتكلّم أو المخاطب هي التي توجّه الموضوع إمّا تكتيفاً أو توسيع دائرة وتفرّيع (Brown & yule، 1983: 90 - 91).

وبالنسبة إلى كلّ من براون ويول تُطرَح الإشكاليّة من وجه آخر وهو: هل يمكن تقسيم النصّ المكتوب إلى مواضيع متعدّدة حسب الفقرات التي يتكوّن منها.

ويُجيبان عن ذلك بأنّ المسألة يُنظرُ إليها من وجوه ثلاثة: أولاً: قد يوافق عدد الفقرات عدد المواضيع في النّص؛ وثانياً: قد يشمل الموضوع الواحد أكثر من فقرة؛ وثالثاً: قد تتوزع الفقرة الواحدة إلى أكثر من موضوع.

وإنّ التّمييز بين هذه الوجوه الثلاثة يكون على أساس الروابط اللفظيّة من ناحية، والمعنويّة من ناحية أخرى. على أنّ النّاحية الطّباعيّة ليست شرطاً كافياً للتّمييز بين مختلف مفاسل النّص بما أنّ الشّأن مرتبط بالقرائن المرجعيّة والسّياقيّة أكثر منه بتوزيع الكلمات والعبارات على فضاء الصّفحة. (Brown & yule, 1983: 97-98). بقي أنّ ما يوضّع في الحسابان من حيث توزيع الكلمات هو التّركيب تقديمياً وتأخيراً، أيضاً المعجم وسجّلات القول اختيار كلمات دون أخرى، وإنّ يكن الموضوع هو نقطة ارتكاز الخطاب إلا أنّ طبيعة الصّياغة قد تؤثر في الفهم والتأثير وتصور مقامات قول وغاية تأثير بطريقة دون أخرى، فيكون المثير للاهتمام من وجهة نظر محلّ الخطاب هو الأثر الذي يتركه استعمال جملة في شكل محدّد لا ينسجم غيره مع سياق الخطاب (Brown & yule, 1983: 127-128)، ومن القرائن المعتمدة في الحدّ والتعرّف إلى مفاسل النّص دون القطع مع انسجامه وتواصله الأسماء، فقد تختلط المواضيع وتتعدّد ويصبح من العسير التّمييز أيّها الأصليّ وأيّها الفرعيّ خاصّة إذا كان الحدث مُشترَكاً بين طرفين كلاهما مُتحدّث عنه، إلا أنّ أحدهما مُنجز الفعل، والآخر هو من يقع عليه الفعل، لكن هذا يتعلّق باللّغة وبالأنساق النّحويّة وظائف لغويّة، وأنّ يُراعى ترتيب عناصر الجملة في هذه المرجعيّة، فليس شرطاً أن يوافق ذلك توجّه المتكلّم/ الكاتبة نيّة وقصداً، ولا مذهّب المتلقّي فهماً وتأويلاً، (Brown & yule, 1983: 178) وقد يخضع بناء الجملة وترتيب عناصرها إلى تغيير وفق ثنائيّة التّقديم والتأخير، وهنا يصبح الإشكال أقلّ جدّة بما أنّ مقومات الخطاب الأصليّة (التي هي المتكلّم والمخاطب واللّغة) تكون متألّفة منسجمة.

ثمّ إنّ العبارات المرجع - ومنها الأسماء: أسماء أعلام أو نعوت وصفات - قد تتغيّر وظيفتها وقيمتها المرجعيّة حسب موقعها من الجملة بنية صغرى، أو من البنية الكبرى، وهذا بالنّظر إلى وظيفتها النّحويّة فالمقاميّة، (Brown & yule, 1983: 208 - 209) وهو ما يرفع لبس اختلاط معاني هذه العبارات المرجع في سياق محدّد بمعانيها في سياقات أخرى. فـ «من مظاهر اختيار المعطيات وجعلها ملائمة للحجاج اختيار النّعوت والصفّات التي تنهض بدور حاجيّ يتمثّل في كون الصّفة إذ نختارها تجلو وجهة نظرنا وموقفنا من الموضوع، ويبدو هذا خاصّة حين نجد صفتين متناظرتين، ولكنهما متعارضتان، قابلتين لأنّ تظهراً في الخطاب ويكون اختيار إحداها

كاشفا عن رؤيتنا الخاصة»⁸.

إنّ اعتماد الأسماء - أو أيّ قرينة لفظيّة أخرى - يكون وفق ما تملّيه خصائص النّصّ موضوعا لكن أيضًا، في علاقته بالبنية العليا جنسًا أدبيًا مخصوصًا.

2.1. كيف يساعد السياق على تبين أبنية النّصّ الكبرى وأشكال الاتساق بينها؟

يكون ذلك من خلال إحالة السياق اللّغويّ على طبيعة الجمل (بسيطة أو مركّبة) وعلى تتابعها أفقيًا (على أساس الاسترسال، أو التّراوح بين القضية محور الخطاب والقضايا الفرعيّة)، وعموديًا صلةً قضيّة بأخرى وفق ثنائيات: سبب - نتيجة؛ إجمال - تفصيل، أو تفصيل - إجمال؛ الإيضاح والتّفسير؛ النّفي والإضراب؛ الإثبات والتّأكيد.

وتكون هذه الصّلات ذات صبغة حجاجيّة جدليّة في النّصّ باعتباره منطوقًا لغويًا، وباعتبار مكوّناته أيضًا عوامل مساعدة للمتلقّي لفهم النّصّ وتحليله وتأويله، وهي عوامل تنشأ أسلوبية أو بلاغيّة، وتؤول إلى اجتماعيّة ونفسية (فان دايك، 2005: 149)، ذلك أنّ العاملين الاجتماعيّ والنّفسيّ يوجّهان طبيعة النّصّ أسلوبيا ونمطًا بصفة إراديّة أو لإراديّة، فتختلف أبنية النّصّ من سياق إلى آخر سواء أ كان بالنّسبة إلى المتكلّم الواحد، أو إلى مستخدمي اللّغة المتبائنين، كما يمكن أن تختلف هذه الأبنية في إطار السياق الواحد عندهم، (فان ديك، 2005: 162) ويتجلّى اختلاف الأبنية بساطة وتعقيدا تركيبيا؛ وظيفة أسلوبية ودلاليّة؛ واتّصالا تداوليا؛ «فإذا رغب متكلّم ما في أن يطلب من سامع ما أن يُعيد إليه مبلّغا محدّدا من المال بسرعة، ما أمكن، فإنّه يوجّد عدد من الإمكانيات الدّلاليّة التي لها مكوّن قضويّ مشترك واختلافاته في الإشارة والتّعبير عن فروق الموقف، مثل التّهذيب والخضوع والصّبر ونفاد الصّبر والوقاحة والقوّة والاستقلال وفهم السّامع...» (فان ديك، 2005: 169) وتبرز الفروق في طرُق التّعبير وصيغته التي تعكس بدورها اختلاف الأبنية باختلاف السياق معجميًا أو دلاليًا حتّى في إطار الصّيغة الواحدة المعبّرة عن الواقعة الموصوفة أو الحدث في إطار أدنى من العبارة، وفي تفصيل وإطناب.

وثنائية الإطناب والاقتضاب مرتبطة بطبيعة العلاقة بين المتكلّم والمخاطب من ناحية، وبالغاية من إنشاء الخطاب من ناحية أخرى باعتبارها

8 أهمّ نظريات الحجاج...، صولة: الحجاج: أطره... : 316.

محور النَّصِّ أو موضوعه أي بنيته الدَّلاليَّة الكبرى، وهذا يعني أنَّ هناك ارتباطاً بين البُعدين الأسلوبيّ والتَّداوليّ في تحليل الخطاب يتردَّد بين جملة من المقولات يستند إليها السَّامع في استدلاله وإعادة صياغته للخطاب؛ ويختزل فان دايك هذه المقولات فيما يلي:

(أ) أحوال خاصَّة (أحوال موقفيَّة) للمتكلِّم (على سبيل المثال القلق، الغضب...)

(ب) مواقف خاصَّة للمتكلِّم بالنَّظر إلى السَّامع (التَّهذيب، الاحترام...)

(ج) خصائص (شبه) ثابتة للمتكلِّم (خصائص الشَّخصيَّة، مثل عدم الصَّبر، سلوك التَّحكُّم وما أشبه...)

(د) خصائص اجتماعيَّة موقفيَّة للمتكلِّم في علاقته بالسَّامع (دور، موقف... الخ)؛

(هـ) سمات اجتماعيَّة (شبه) ثابتة للمتكلِّم (حالة، قوَّة... الخ)؛

(و) نمط التَّفاعل/ الموقف/ التَّجمُّع الاجتماعيّ (المترو، الفصل الدَّراسيّ، الكنيسة، المكتب... الخ)؛

(ز) نمط المنطوق ووظيفته التَّداوليَّة (حديث يوميّ، إعلان، حكاية... الخ)؛

(ح) موقف اجتماعيّ، اقتصاديّ (فئة، طبقة، ثقافة... الخ)؛

(ط) نمط الصَّيغة/ الوسيلة الاتِّصاليَّة (شفاهيّ، كتابيّ، خطاب، جريدة، تلفزيون... الخ)؛

(ي) موقف ثقافيّ - اجتماعيّ (عادات، تقاليد، أعراف... الخ). (فان ديك، 2005: 180 - 181)

ومن خلالها، تكون للنَّصِّ سمات بنيويَّة منها ما هو أصليّ (نحويّ أسلوبيّ)، ومنها ما هو ناشئ عن التَّفاعل الاتِّصاليّ، صلة أبنية كبرى/ خطاب بالعلاقة الجدليَّة بين المتكلِّم والمخاطب.

إنَّ البنية الكبرى - باعتبارها معنى - تحيل على اتِّفاق بينها وردود أفعال المخاطب في اتِّصالهما بالتَّصوُّر والذهن، ذلك أنَّ الوقوف عند معنى النَّصِّ المنجَز في مستوى السَّطح يحيل على الأبنية الصَّغرى في مرجعيَّتها المعجميَّة أكثر من الإحالة على معنى عامٍّ للنَّصِّ أو الخطاب. ثمَّ إنَّ فهم المخاطب للنَّصِّ هو جزء من مطلق الدَّلالة سواء بالنَّسبة إلى المُخاطب ذاته - بما أنه ينجز عمليَّات ذهنيَّة واسترجاعيَّة عديدة عبُر الذَّاكرة قبل أن يرجَّح

الدلالة التي يراها موافقة للخطاب - أو بالنسبة إلى غيره: صاحب النص كان أو أي طرف آخر يمكن أن يشارك في عملية التخاطب - في قراءة أنية للخطاب ارتباطا بوظيفته التداولية الاجتماعية، أو في قراءة زمانية تفصل الخطاب بإرادة أو بلا إرادة عن سياقه ومرجعه التاريخي لتؤوله وفق مداخل متعددة متنوعة⁹، وبذلك، فإن وضع أبنية أي خطاب لا يكون فقط من قبل منشئه بل هو قرين متلقيه في مطلق المكان والزمان، يقول فان ديك: «في الخطاب كما في التفاعل، لا تظهر الأبنية الكبرى مباشرة؛ فلا يمكننا «رؤيتها» لكن يجب أن نعتبر «وجودها» أجزاء من معنى الخطاب أو هياكله المفاهيمية وكذلك السلوك، مما يجعل من مقارنة الخطاب كما التفاعل مقارنة معرفية عنصرا ضروريا» (135: 1980, Van dijk)

ونُطرح الإشكالية في كيفية التعرف إلى الأبنية الكبرى - من خلال هذه الجدلية - والمسألة متشعبة من حيث: تعدد الأطراف المتدخلة فيها؛ واتصالها بما هو ذهني تصويري.

3.1. القواعد المحددة للأبنية الكبرى وتترابط وفقها

تُعتمدُ القواعد لتنظيم بنية النص المعقدة، ولاختصار المعلومات الدلالية فيه (فان ديك، 2005: 78) وهي:

القاعدة الأولى: الاختزال وأقصى درجاته الحذف

إنه الاختزال الشمولي لدلالة أي نص، ويتم - باعتمادها - الاستغناء عن قضايا ثانوية مقارنة بقضية أصل هي المحور الدلالي الذي لا يمكن الاستغناء عنه مقابل القضايا الثانوية التي تقدم إضافات قد تُبرز المعنى أو تحدده أو تفسره أو توضّحه، لكن حذفها لا يضرّ بمضمون النص الجوهرية الذي به يكون¹⁰.

القاعدة الثانية: الاختيار

هي قريبة من القاعدة الأولى من حيث الاستغناء عن قضايا من النص دون المساس بجوهره، بقي أنها تختلف عنها في أمرين أولهما أن ما يُعتبر ثانويا من القضايا بالنسبة إلى القاعدة الأولى يمكن إعادة صياغته بجعله عنصرا مكونا من مكونات الجملة الأصلية أو البنية الكبرى الأساسية، لا

9 المدخل قد يكون بنويًا - لسانيًا - تداوليًا، أو وفق منهج أي علم من العلوم: السياسية، النفس، الاجتماع، الاقتصاد...

10 Coirier & Gaonac'h & Passerault, 1996: 19 + 61 - 62; Van Dijk, 1980: 82.

قضية منفصلة عنها بنيويًا (لأنّ هذه القضية الثانويّة سواء أ كانت جملة مستقلة بذاتها، أو مركّبة من مركّبات الجملة الأصليّة هي متّصلة بها دلاليًا، وإلاّ لمّا أمكن دمّجُ إحداها في الأخرى)؛ ثانيهما وبالتّسبب إلى القضية الأصل، يمكن افتراض القضايا التي تمّ الاستغناء عنها بما أنّ هذه القضايا جزء من المعرفة العرفيّة التّداوليّة، فبذكر القضية الأصل تُستنبط عدّة قضايا أخرى هي جزء من دلالتها، وهو ما اصطلح على تسميته بـ «الأطر»

القاعدة الثالثة: التّعميم

من خلالها يتمّ الاستغناء عن القضايا المحوريّة لكن بالحفاظ على شرط أساسيّ وهو أنّ تشتمل هذه القضايا على أنواع من جنس واحد إليه تُرجع، فتحلّ قضية جديدة محلّ القضايا القديمة من ذلك المثال:

(14) عَلَى الْأَرْضِ دُمِيَّةٌ.

(15) عَلَى الْأَرْضِ قِطَارٌ خَشَبِيٌّ.

(16) عَلَى الْأَرْضِ مُكَعَّبَاتٌ.

يمكن أن تحلّ قضية جديدة محلّ هذه القضايا:

(17) عَلَى الْأَرْضِ لُعبٌ. (فان ديك، 2005: 58 - 59 + 84).

والقضية الجديدة، في هذا المثال - أو غيره - تقترن بالمفهوم الكلّيّ سواء أ كان فعلاً، أم اسماً، أم صفة، المهمّ أنّ تتزع القضية الجديدة منزعا تجريديًا، أو أنّ تكون تقويمًا أو إبداء رأيٍ.

القاعدة الرابعة: التّركيب أو الإدماج

هي مزيج من القاعدتين: الأولى والثالثة. وما يميّزها عن القاعدة الثّانية أنّ القضايا الثانويّة لا تُستنبط من الأصل، وإنّما القضية الأصل هي التي تنشأ من القضايا الثانويّة التي لا بدّ من ذكرها في مستوى أوّل للتعرّف إلى محور النّص الرّئيسيّ.

والتّركيب هو شكلّ من التّوسعة بإضافة قضية أو قضايا ممكنة الوجود والوقوع، لكنّها مستبعدة لأنّها ليست من لوازم القضية الأصل - وفق ما هو متعارف عليه في المنظومة الاجتماعيّة في السّياق التّداوليّ.

القاعدة الخامسة: أو المستوى الصّفر من البناء

توافق من خلاله البنية الكبرى البنية الصّغرى «ويكون ذلك تقريباً حين يتكوّن نصّ ما من جمل قليلة، أو من جملة واحدة». (فان دايك، 2005:

استنادًا إلى هذه القواعد، لا يُنظر إلى النصّ أو الخطاب إلاّ باعتباره نسبيًا تتكامل خيوطه ولبناته أفقيًا كما عموديًا، أيضًا بدايته بنهايته بمنته، بما أنّ تصنيف الأبنية وتجميعها وفق وحدات لا يَتِمَّان بالنظر إلى الجملة أو الفقرة أو الجزء وإنّما بالنظر إلى النصّ في كليته، فإذا تجلّيات أيّ نوع من الأبنية تكون مبنوثة في ثنايا الخطاب أو النصّ، وعلى امتداده، وليس شرطًا أن يكون هناك توازن أو تكافؤ في هذه التجلّيات، إنّما الأمر رهين طبيعة الخطاب أو النصّ (سرد - وصف - حوار - حجاج - تفسير)، أو نوعه (رواية - قصة مسرحية...)، أو موضوعه (سياسي - اجتماعي - اقتصادي - ثقافي...) ¹²

ويتمّ تطبيق هذه القواعد المتعدّدة المختلفة وفق منهج استقرائي في مراحل ثلاث: بالنظر في نصّ سند عمل، نصّ منجز لغة وبنية حديثة قضويّة؛ وشُتُنُط منه بنية تمثيلية تجريدية على أساس الرّمز تحيل فيه البنية على البنية سواء أ كانت أبنية صغرى أم كبرى؛ وفي مرحلة أخيرة، تنشأ من النصّ الأصل نصوص عديدة ذات بنية نمطية واحدة، لكنّ تعدّدها ينشأ من الرجوع إلى «الأطر» اختلاف أنواع وتوافق أجناس؛ كذلك تُكون البنية النحويّة التركيبية الدلالية واحدة، أيضًا المحيلات والمقولات، وقد يكون المحيل فاعلا، أو زمانا، أو مكانا، أو مفعولا به، أو ضميرا...

والملاحظ أنّ المحيل والمقولة قد يتفقان في الدالّ، لكنهما يختلفان في المرجعية: أمّا مرجعية المحيل فثقافية معرفية موسوعية تقترب بـ «الأطر»، وأمّا مرجعية المقولة فعلمية نحوية تقترب أساسا بالبنية التركيبية الإعرابية الدلالية.

وليس شرطًا أن تكون للأبنية الكبرى قاعدة واحدة بل يتمّ تحليلها عبر مراحل عديدة من اختزال إلى تعميم إلى تركيب، على أن تؤدي كلّ مرحلة إلى مستوى أعلى في إطار التّصور والتّمثيل الشّكليّين - ونقطة البدء طبعًا، هي

11 في هذه الحال، لا يمكن التصرّف في النصّ بأي شكلٍ من الأشكال ولا وفق أيّ قاعدة من القواعد سابقة الذّكر، فقط على سبيل التّرادف بين هذا المستوى وقاعدة الاختزال (المزيد التّوسّع، انظر: Van Dijk، 1980: 49)

12 وهنا لا نسمّي الأشياء بأسمائها وفق ما رسمناه من منهج وغاياتٍ بحثٍ لأنّ الظاهر اعتناءً بالأبنية الكبرى، أمّا الحقيقة فتدخل إلى حدّ التشابك بين مختلف المفاهيم والمصطلحات نسعى إلى تبويبه وتنظيمه وإيضاحه بقدر ما نُفصح عنه النصوص ذاتها - إن نظريًا أو تطبيقيًا -

والذين تناولوا تحليل الخطاب من وجهة نظر بنيوية لم يفتؤوا يشيرون إلى هذا العسر خاصّة مع بداية محاصرة الظاهرة ودراساتها دراسة علمية أدبية.

قاعدة النص:

جُمْلٌ ← إطار ← مُتتالية من الجُمْل ← إطار كبير ← أبنية كبرى
(Van Dijk، 1980: 54 - 55).

وقد تتعدّد أبنية النصّ الكبرى إذا تعدّدت مواضيعه واستقلّ كلّ موضوع بجزء من النصّ أجزاء يمكن تغيير تنظيمها بما يفرز تعدّدا في تمثيل النصّ وفق خطاطات بنويّة تتكثّف تجريدا لكتّنها تؤوّل إلى وحدة موضوعيّة دلاليّة هي البنية الكبرى من مستوى أوّل (Coirier & Gaonac'h & Passe- rault، 1996: 20)¹³.

وبالنسبة إلى الأنموذج التمثيليّ، أو إلى النصوص المتولّدة من النصّ الأصليّ تُعتبَر جديدة مقارنة به لكنّها ليست منبّئة عنه خاصّة على مستوى الموضوع باعتباره رابطا معنويّا بنويّا في آن، ذلك أنّ بين بداية النصّ أو الخطاب ونهايته توجد عدّة أبنية لها وظائف متعدّدة¹⁴ من ذلك قيمة الحجج في السّيرة الحجاجيّة؛ وقيمة وضع البداية، فالتّأزّم، فالانفراج في الخطاب السّرديّ.

وإنّ تطبيق إحدى القواعد الخمس على نصّ واحد، لكنّ من طرف قراء عديدين، قد لا يؤدّي إلى نتيجة واحدة - حتّى على مستوى الأنموذج التمثيليّ - وقد يكون الأمر مختلفا حتّى بالنسبة إلى القارئ الواحد إذا ما تغيّرت الأطر الحاقة به من مكان وزمان خاصّة - وإنّ تكن الأطر المعرفيّة هي ذاتها عنده - يقول فان دايك: «يمكن أن يبني قراء مختلفون تفسيرات كبرى مختلفة لنصّ ما. ونظرا لأنّ لكلّ قارئ، في كلّ فترة، معارف وآراء ومواقف واهتمامات ومهامّ وأهدافا أخرى، فيمكن لذلك أن تختلف السّمات، أيّ ما يستشعر أنّه مهمّ تبعا لاختلاف القراء» (فان دايك، 2005: 94)، وهذا يعني أنّ القواعد ليست قواعد بنويّة فحسب وإنّما قواعد معرفة دلاليّة أيضا. وهي لا تطبّق على «المنطوق الكلامي» فقط، بلّ على قضايا مضافة «توقّعات إطار ممكنة أو اختيارية أيضا تتعلّق بظروف وأحداث وأفعال تتبّع في الغالب موضوعا عامّا للإطار (أو حادثة عرَضيّة)» (فان دايك، 2005: 293)، وهو ما يعني اتّساع دائرة نصّ ما وتجليّات أبنيته المختلفة المتعدّدة في شكل لولبيّ قاعدته النصّ

13 ما يحيل عليه هذا التّغيير في نظام النصّ هو صلة النصّ المكتوب بالنصّ المقروء من حيث المدة الزّمانية التي يستغرقها النصّ ذاته في الحالين الأوّل والثّاني في أنظمتها المختلفة: النظام الأصليّ من ناحية والأنظمة المنشأة لاحقا من ناحية أخرى.

14 يجب ألاّ ينفي التّصور التجريديّ التمثيليّ بُعديّ الأبنية الكبرى وهما: الدلاليّ التّداوليّ، والوظيفيّ الذي يتنوّع ويختلف حسب أنماط الخطاب وأنواعها.

الأصل وسائر دوائره هي سلاسل قضوية تحيل على أبنية كبرى، أيضا على صغرى فعليا تُغيّب بعض العناصر والمكونات النصّية تمثيلا دون الذاكرة التي تستوعبها وتستدعيها «في سياق طبيعي أو تجريبي لدافع خاص أو بسبب تكليف» كالتلخيص أو الشرح¹⁵، ذلك أنّ مستخدم اللغة، يقرأ النصّ أو في يعيد إنتاجه وفق «التحويلات الدلالية أو المفهومية الدلالية» (فان ديك، 2005: 309) استنادا إلى الحذف أو الإضافة أو إعادة الترتيب أو الإحلال أو إعادة التأليف أو التخصيص أو التمييز (الفصل)؛ وهو تحويل يصوغه وفي ذهنه وذكرته النصّ الأصل، يخرج عنه ويعود إليه - عن وعي أو عن غير وعي - سواء في توسيع دائرته أو تضيقها، أو في تمييز بعض سماته ومكوناته عن البعض الآخر، وهذا مرتبط بالوظيفة الإدراكية الانفعالية، فليس منشئ النصّ وحده من يرى خطابه علاقة تواصل بينه والآخر، بل المتلقي أيضا يستدعي متلقي آخر قد يكون صاحب النصّ نفسه، وقد يكون غيره - وتعدّد قواعد إعادة إنتاج النصّ دليل على تعدّد قراءاته واختلاف مداخلها، ومما يدعم ذلك تعدّد وظائف الأبنية الكبرى.

خلاصة

إشكاليات البنية الكبرى عديدة في المفهوم وفي التجلي: بين التعدّد والوحدة، وبين الاختزال والانتشار، وبين الاتجاهين الأفقي والعمودي بالنظر إلى الأبنية الكبرى في تراتبها وفق نسيج النصّ وبنائه، وهو ما جعل فان ديك يسعى إلى محاصرة المسألة بوضع خمس قواعد تختزل صيغ تعالق الأبنية الكبرى فيما بينها وإفضاء بعضها إلى البعض الآخر - وإن كانت في التجلي اختلافات دقيقة في الترتيب وفي الوظائف.

2. وظائف الأبنية الكبرى وعلاقتها بانسجام الخطاب

1/ تحقيق التّواصل بين منشئ النصّ وقارئه، أو بين المتكلّم والمخاطب، بما أنّ المسألة تتعلّق بالنصّ المقروء كما بالخطاب الشفوي، على أنّ عملية التّواصل هذه لا تتمّ إلاّ عبر تحويل النصّ من تجليّه البنيوي إلى مفهومه التداولي أو بنيته الدلالية، ويشمل ذلك مجالات ثلاثة هي: اللغة، والمقام الاجتماعي، والتّصور العرفاني الإدراكي. والتّناغم والانسجام بين هذه المجالات المتعدّدة يتمّ عبر الدّهن والتّفكير والذاكرة: وضوحا وبيانا بالنسبة إلى منشئ النصّ؛ وتصورا وإعادة إنتاج للنصّ بالنسبة إلى متلقيه الذي يروم تحقيق التّوافق والانسجام بينه والطرف الآخر على أساس ما اختزن في الذاكرة وبالاستناد إلى الاستدلال الية. ونقطة الالتقاء بين الطرفين في عملية التّخاطب

15 نفسه: 306؛ ولمزيد التّوسّع، انظر بين الصّفحتين: 312 - 315.

هي التي يعتبرها مبدئيًا فان ديك البنية العليا. (Van Dijk، 1980: 9)

2/ التآليف بين مختلف الأنشطة التي يمكن للإنسان أن يقوم بها مجتمعةً أو بالتركيز على أحدها دون الآخر حسب المقام الذي يكون فيه. وتتوزع هذه الأنشطة بين: الإجراء (قولاً وفعلًا)، والتتظير والتجريد (تفكيراً وتمثيلاً)، وصوغ البنية الكبرى في هيكل تمثيلي إن هو إلا تمثيل لما يعتمل في نفس المتكلم بل المخاطب خاصة من انفعالات وهواجس هي ردود أفعال إرادية (أساسها التفكير) أو لإرادية (أساسها الوجدان) تجاه الواقع مرجعا أو تجاه الخطاب تعبيرا عنه، وهو مبرر الصيغة العامة التي تتحكم في لغة الخطاب وتوجه بنيته الكبرى في بُعديها: الشكلي والدلالي، فيكون النص صيغة من الصيغ التالية على وجه التمثيل لا التحديد: اعتقاد - إبداء رأي - تمن - ترج - استقهام...؛ ولهذه الصيغ دور في تحديد بنية النص العليا، لا بالنظر إلى البنية الكبرى الواحدة، لكن في صلتها بسائر الأبنية الكبرى التي تكون النص في جملته أو كليته¹⁶.

3/ تنظيم الأبنية الصغرى والربط بينها بطريقة منطقية تضمن فهم النص في معانيه الموضوعية المقصودة وإلا تحول الأمر إلى حديث عن جملة من القضايا منفصل بعضها عن بعض قد يكون لكل منها معنى لكنه معنى جزئي ينفصل عن دلالة الخطاب أو النص، وبالتالي، يخرج عن سياق التحليل والاستدلال، (Van Dijk، 1980: 14) وربما عن إطار الاحتفاظ بها في الذاكرة. إن الأمر بالنسبة إلى فان ديك يتعلق بالفهم والإدراك والانتفاء إلى كل منسجم.

4/ اختزال النص لا من حيث خاصيته الإجرائية الخطابية إلى صبغة تجريدية تمثيلية فحسب، بل اختزال بنيته التجريدية أيضا - استغناء عن التشعب والتداخل تحقيقا لبنية أكثر تمحورا حول المركز: أبنية ووظائف.

5/ تساعد الأبنية الكبرى على فهم ما دق وتداخل من المعاني والدلالات - إذ يتفرع النص إلى عدة جزئيات وتفاصيل قد تغيب الخيط الناظم بين مكونات النص - وتقفي آثاره البنيوية كما المعنوية، وهذا يساعد على فهم عدة ظواهر في الخطاب ووصفها وتفسيرها (Van Dijk، 1980: 14).

6/ التعرف إلى معنى النص أو الخطاب العام، وهذا المعنى لا يمكن

16 بما أن البنية الكبرى الواحدة - بأي صيغة أو معنى - يمكن أن تتكرر وتتعاود وتتواجد في أكثر من نص لكن وظيفتها ومعناها ودلالاتها متحوّلة متبدّلة ارتباطا بعوامل أخرى هي سائر أركان عملية التخاطب - والاستدلال هو الآلية المساعدة على التمييز، والتبويب، والتتظيم.

الانتهاء إليه إلا من خلال تفكيك البنية أو الأبنية الكبرى إلى الأبنية الصغرى باعتبارها النواتات الأولى التي تكوّن النصّ وتضمن دلالاته البنيوية التركيبية في بُعدين: نحويّ إعرابيّ، ولغويّ تعجيميّ؛ «وبعبارة أخرى، قد يستوعب الخطاب الأبنية الشمولية التي لا ينبغي أن تتجلى فقط، في الدلاليّ أو التخطيطيّ الهيكليّ، وإنما كذلك، في الإجراء، والتفاعل، وخاصة في الأعمال اللغوية وفي السياق الدلاليّ الذي قد تتناسب معه [هذه الأبنية] أو لا تتناسب. ثم إنّ متتاليات الجُمْل، ومتتاليات الكلام وكذلك الأبنية الكبرى الدلالية، أو الدلالية ترتبط جميعاً ارتباطاً وثيقاً، فيكون بالتالي، لفعل الكلام الكلّيّ «محتوى» شموليّ، تيمّةً أو موضوعاً» (Van Dijk، 1980: 27). ومبدئيّاً، هذه البنية هي سطحيّة أفقيّة لكنّ، تصبح بنية عميقة في مستويين: أولهما: من حيث تفاعل جميع الأبنية فيما بينها؛ وثانيهما: بالنظر إلى النصّ أو الخطاب في بعده الدلاليّ الاجتماعيّ.

1.2. البنية الكبرى: بين حدود النصّ/ الموضوع¹⁷، وبين أجناسيّة الخطاب

تُطرَح الإشكاليّة من وجوه ثلاثة :

1/ قد يتوقّر النصّ على عبارات هي كالقوالب الجاهزة التي تُؤدّنُ ببداية النصّ أو نهايته، وتكون في الآن ذاته علامات دالة على أجناسيّة الخطاب كأنّ يكون سرديّاً أو حواريّاً مثلاً.

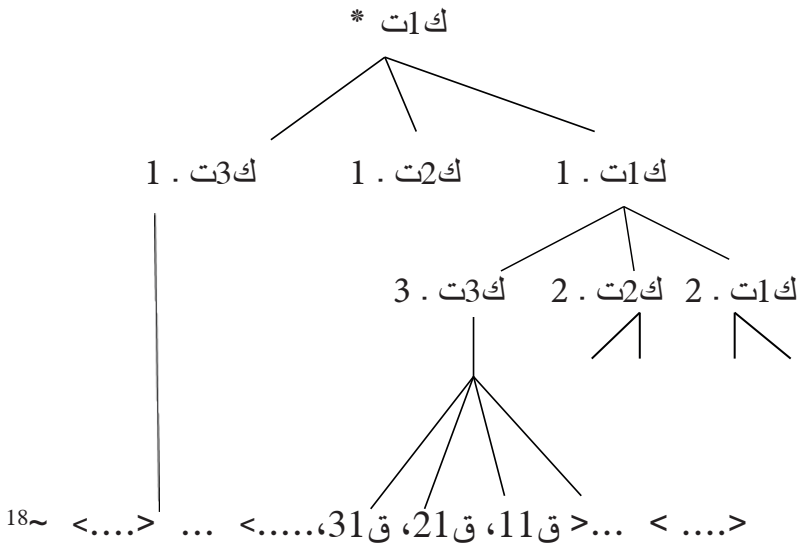
2/ تحوّل القول من طرف إلى آخر في النصّ الحواريّ طبعاً يتوزّع بين انسجام وتناسق في الموضوع كما بين طرفيّ الخطاب - أو أطرافه - فإذا الانتقال من مستوى في الحوار إلى آخر إنّ هو إلّا إثراء للموضوع الأصليّ وتناول لجوانب أخرى منه لا تتفصل عنه إلّا في لغة التعبير، أو في الانتقال من العامّ إلى الخاصّ، أو من المُجْمَل إلى المفصّل. وقد تكون الوحدة اللغويّة أو الموضوع هو نفسه إلّا أنّ تحقّق الانسجام أو التّناسق لا يتمّ إلّا من منظور أحديّ الجانب، ارتباطاً بطرفيّ الخطاب أو أطرافه من ناحية، كما بسامعه أو متلقّيه من ناحية أخرى، الذي بدوره قد يكون فرداً أو جماعة مُنقّفة في الفهم والتأويل أو مختلفة أيضاً إذ تكون لكلّ طرف منها وجهة نظره وتصوره

17 بالنسبة إلى براون ويول، قد يُرادف الموضوع - من حيث البناء - الجُمْلَة في بعدها النحويّ الإعرابيّ، وقد يكون محور الاهتمام في مقطع، كما قد يوافق الخطاب بأكمله، (انظر: 70 - 71) وحتى إن انطلق أو اعتمد المتكلم أو المخاطب اللفظ في تحديد الموضوع، فليس ذلك إلّا نقطة البدء بما أنّ اللفظ هو القالب الذي فيه يُصَبّ المعنى وتُسْتَنْبَط منه الدلالة.

للمسألة.

3/ قد لا تُتَبَيَّن حدود موضوع ما في خطاب، إمّا لتداخله مع مواضيع أخرى (إمّا على أساس التناوب أو التضمين)، أو لأنّ العناصر الرابطة بين أجزائه مسكوت عنها، وعلى المتلقّي البحث عنها مُتَّخِذاً من الاستدلال سبيلاً (Brown & yule، 1983: 68 – 69)، ومن العوامل المساعدة على ذلك الترابط بين الأبنية الكبرى ينشأ من النّظر إلى الأبنية الصّغرى في نسقَيْن: أفقيّ (على أساس التتابع والتتالي)، وعموديّ (في إطار اتّصال الفرع بالأصل). ولا يخرج النّسقان عن قواعد اللّغة ونُظْمها وأنساقها ومقولاتها، كما يرتبطان بموضوع النّصّ أو الخطاب وحدة انسجام محوريّ دلاليّ وتداوليّ.

ومن النّصوص ما يكون ذا بنية مركّبة تتكوّن من أبنية متعدّدة تنشأ في بعض مستوياتها بنية كبرى تتحوّل في مستوى لاحق إلى صغرى «ونتيجة لذلك تتشكّل بنية متدرّجة ممكنة للأبنية الكبرى على مستويات متباينة، كما في الرّسم التّخطيطيّ التّالي :



وبما أنّ الأبنية تكرّريّة، فإنّ ما يُطبّق من منهج تحليل واستقراء، ومن قاعدة أو قواعد (حسب طبيعة النّصّ وخصائص الجمل أو القضايا التي تكوّنه) في مستوى من مستويات الأبنية الكبرى يمكن أن يتكرّر بدوره، والتكرّر ليس شرطاً ولكّنه إمكان.

18 فان دايك، 2005: 77. (* ك - بنية كبرى، وت - مستوى، وق - قضية، والرّمز على يسار الرّمز للمستوى، والرّمز الصّغير لعدد الأبنية)؛ + Denhière & Baudet، 1992: 82.

2. 2. الأبنية الكبرى وطبيعة العلاقات بين الأفعال والأحداث في النصّ السردّي

تتأتّى الأفعال من متتاليات أنشطة (سلوك) وتتجلى الأفعال من خلال الأعمال ذاتها (بصفة واضحة)، وعادةً ما تُجَرُّ الأفعال بغية تغيير العالم الممكن لسياق الفعل (على سبيل المثال، ما يقع من أحداثٍ أو غيرها من الأعمال، هي نتائج فعل أو أهداف). (Van Dijk، 1980: 137)

وقد تقتزن الأفعال أو الأحداث بعضها ببعض من خلال العلاقات السببية؛ أو الشرطية؛ أو الظرفية؛ أو من خلال الاختلاف في الزمان والمكان والحدثية – والرباط الوحيد بين الحدثين أو الفعلين هو البنية السطحية الخطية؛ أو التوافق في الزمان والمكان دون الحدثية؛ أو التوافق في المكان، مع الاختلاف في الحدثية والزمان (أحد الحدثين سابق للآخر، أو لاحق له – بفواصل زمنيّ أو على أساس التتابع السريع في وقوع الفعل،

فقد يكون حدثان – أو أكثر – منفصلين أو مستقلّين بنيةً ودلالةً/

(18) فَتَحَ النَّافِذَةَ وَجَلَسَ عَلَى الْأَرِيكَةِ.

وقد يكون الحدثان، أو أكثر، منفصلين بنيةً، متّصلين دلالةً/

(19) أَخَذَ الْكِتَابَ وَجَلَسَ إِلَى مَكْتَبِهِ.

والعلاقة الدلالية في هذا المثال منطقية تستدعي حدثين آخرين وهما وضع الكتاب على المكتب، وقراءته أو قراءة جزء منه.

وقد يكون الحدثان متّصلين بنيةً ودلالةً/

(20) شَرَحَ النَّصَّ مُعَمِّدًا الْبُنْيَةَ، مُسْتَنِدًا إِلَى الْمَرْجِعِيَّةِ الْبَلَاغِيَّةِ.

واتّصال حدثين أول أكثر يؤدي إلى تكوّن جملة من الأحداث ولا يمكن اعتبارها مجموعة متجانسة حتّى يوجد – على الأقلّ – حدثان مترابطان ترابطاً منطقياً على أساس السببية، ممّا يضمن التلاؤم والانسجام (Van dijk، 1980: 139) وفق معادلة رياضية بين أحداثٍ ثلاثة: أ – ب – ج:

أ هو نتيجة لـ ب أ هو نتيجة لـ ج.

ب هو نتيجة لـ ج

وبذلك تكون الأحداث: أ + ب + ج مكوّنة لمجموعة حدثية واحدة، رغم أنّ العلاقة بين أ + ج قد تكون اعتباطية قسريّة من ذلك:

(21) اشْتَرَيْتُ كِتَابًا وَدَفَعْتُ ثَمَنَهُ إِلَى صَاحِبِ الْمَكْتَبَةِ.

(22) اقْتَنَى صَاحِبُ الْمَكْتَبَةِ بِثَمَنِ الْكِتَابِ تَذَكُّرَةً لِمُشَاهَدَةِ مَسْرَحِيَّةٍ.

إِذَنْ، فَ

(23) سِرَّائِي الْكِتَابَ كَانَ سَبَبًا فِي مُشَاهَدَةِ الْمَسْرَحِيَّةِ.

فما يؤلّف بين مجموعة من الجُمْل ما هو إلّا الرّوابط في بُعديها اللّغويّ التركيبيّ، والمنطقيّ الاستدلاليّ.

وقد تكون العلاقة بين حدثين أو أكثر تصوّريّة افتراضيّة/

(24) لَمْ يَقْرَأْ مُحَمَّدٌ الْكِتَابَ الَّذِي سَلَّمَتْهُ إِيَّاهُ.

(25) فَضَّلَ الذَّهَابَ لِصَيْدِ السَّمَكِ.

(26) لَعَلَّهُ يَشْتَهِي أَنْ يَكُونَ مَا قَدْ يَصِيْدُهُ مِنْ سَمَكٍ عَشَاءً لَهُ.

اعتُبرت الجملة ج افتراضًا لأنّ صيد السمك - بالنسبة إلى محمد - هواية دون ممارستها لا يمكنه أن ينجز أيّ عمل أو نشاط على الوجه الأكمل، فهي شرط توازنه النفسيّ والفكريّ الذهنيّ.

وقد تكون العلاقات بين المجموعة أفقيّة وعموديّة أيضًا؛ وخصوصيّة هذا النوع من العلاقات أنّه يمكن الاستغناء فيه عن بعض المجموعات بما لا يُخلّ ببنيتها الكبرى موضوعًا وهدفًا وغايةً، على عكس العلاقات الأفقيّة، فما كان جزءًا من البنية الأصليّة لأبّد من الحفاظ عليه حفاظًا على التّلاؤم والانسجام، كما على تآلف عناصر المجموعة الواحدة، أو المجموعات الحدثيّة فيما بينها تآلفًا يفي بالغاية والقصد.

ما نخلص إليه هو أنّ اتّصال الأحداث يضمن انسجام المجموعة التي تنتهي إليها، فاتّفاق مجموعتين أو أكثر على مستوى البنية والمواضيع الكبرى يضمن انتلافها ضمن بنية كبرى؛ وأنّ اتّصال الأحداث أو المجموعات الحدثيّة وفق أهداف وغايات قد يكون نتيجة المستويات الدّنيا (الجُمْل)، وقد يكون نتيجة الحدث الجامع لها وهو ما يوازي البنية الكبرى.

ويعتبر فان ديك م إحدى المجموعات الحدثيّة التي تحتوي جملة من الأحداث أو الأفعال يرمز إليها بـ: (أ₁، أ₂،...، أ_n) ويبيّن من خلال القواعد التّالية إمكانيات الانسجام بين الجزء والجزء، والجزء والكلّ: بنيةً ومعنىً وغايةً؛ وهذه القواعد هي:

أ. التّرباط المحليّ

لكلّ فعلٍ أو حدث أ س يوجد فعل أو حدث أ ش بحيث

يكون $أس$ شرطاً (مُحْتَمَلاً، مُمَكِّناً، لَازِماً) لِـ $أس$ (و $أش$ هو نتيجة لِـ $أس$)

ب. الترابط المحلي الصّارم

لكلّ $أس$ يوجد فعل $أس + 1$ هو نتيجة لِـ $أس - 1$

ج. التماسك المحلي الصّارم

لكلّ $أس - 1$ ، يوجد فعل $أس + 1$ مترابطان، يوجد على الأقلّ نفس المكان و/ أو نفس الفترة الزمنية، كما العامل في $أس - 1$ ؛ $أس$ ؛ $أس + 1$

د. التّوجّه المحليّ

لكلّ $أس - 1$ ، $أس$ ، $أس + 1$ ، التماسكة محلياً، هناك $أس = ق$ ($أس - 1$) و $أس + 1 = ق$ ($أس$) [و $ق$ ($أس$) هو اختزال لغاية $أس$]

هـ. التّوجّه المُتتالي

لكلّ $أس - 1$ ، $أس$ ، $أس + 1$ ، المُوجّهة محلياً، هناك ($أ ن$) تنتهي عندها كلّ الأفعال أو الأحداث في

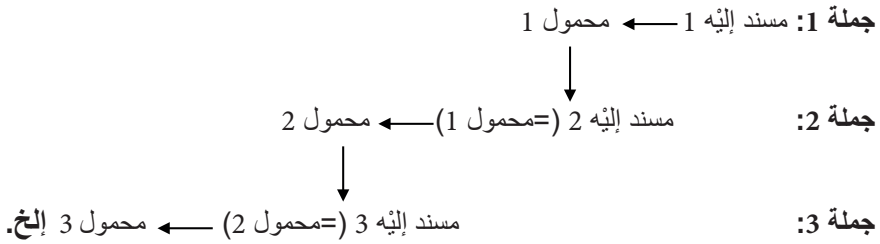
المجموعة م.¹⁹ (Van dijk، 1980: 141)

إنّ القواعد التي تُطبّق على المجموعات في أبنيتها الأفقية يمكن أن تُطبّق عليها في أبنيتها العمودية وفق شبكة من العلاقات تؤدي بدورها إلى معنى أو موضوع شمولي، وإلى غاية أو هدف شموليين أيضاً.

البنية الكبرى هي نمو الموضوع في النّص: إمّا بتوسّع دائرته في ذاته، أو بانفتاحه على مواضيع أخرى فرعية لكن لا تتبّع عنه باعتباره الأصل. ويميّز تورتيني بين ثلاثة أنواع لنمو الموضوع :

النوع الأول: مع تقدّم نسق الخطاب خطياً تطوّراً تتابعياً، ذلك أنّ البناء التركيبي والدلالي أيضاً يقوم على مُسندٍ إليه ومحمول يتحوّل بدوره في مستوى ثانٍ، إلى مُسندٍ إليه مقترن بمحمول يصبح أيضاً في مستوى ثالث مُسندٍ إليه متّصلاً بمحمول إلى مستوى ن من التركيب والبناء كما بيّنه تورتيني في الرّسم التّالي:

19 ما الغاية أو الهدف إلّا حدثٌ أو افتراض حدثٌ يكون الأبعد في الإنجاز.



(163 :2000 ,Touratier)

فالذي يتكرّر هو جزء من البناء الإحاليّ كما من الدلالة على أساس تعالق الجملة السابقة باللاحقة إذ توجد منطقة مشتركة بينهما - قد تكبر وقد تصغر-؛

النوع الثاني: أن يكون النّمّو في إطار الموضوع الواحد الذي يمثّل نواة انسجام الخطاب الأولى والثابتة، فإذا هو التبدّل والتغيّر على مستوى اللفظ والتركيب دون المعنى العام، أما الدلالات الفرعية فلا شك أنها مضيئة أشياء إلى النصّ، لكنّ دائماً في إطار الكلّ الذي يتجزأ إلى مكوناته تبرز حدودها لكن دون أن ينفصل بعضها عن البعض الآخر. وعادة ما يكون العنصر الفاصل الواصل بين الجزء والذي يليه، هو العنصر الإحاليّ كالضمائر مثلاً، بل ربّما كان من الأصحّ القول بأنّ العنصر الفاصل الواحد هو النقطة المركز من الدائرة وتكون أشعتها هي ما يميّز بين الجزء والآخر من الخطاب ككلّ. ولعلّي اعتبرها الوحيدة التي تُمثّل الفصل والوصل في آن بالنسبة إلى هذا المستوى الثاني، لأننا إذا ربطنا الإحالة بأسماء الإشارة، أو بالأسماء الموصولة، فإنّ الأمر يؤوّل بنا إلى التعلّق من المستوى الأول.

ويختزل تورتيي هذا المستوى الثاني - أخذاً عن كومبات - فيما يلي:

- جملة 1: مُسندٌ إليه 1 (هو) ← مُسندٌ 1 (مَشَى)
- جملة 2: مُسندٌ إليه 1 (هو) ← مُسندٌ 2 (نَادَى)
- جملة 3: مُسندٌ إليه 1 (هو) ← مُسندٌ 3 (بَحَثَ)
- جملة 4: مُسندٌ إليه 1 (هو) ← مُسندٌ 4 (سَقَطَ)
- (164 :2000 ,Touratier)

النوع الثالث: أن يقتزن نموّ النصّ بالمواضيع المتفرّعة أو المشتّقة، أو ما يصطلح كومبات على تسميته بـ: «الموضوع الأصلي» إطاراً يحتوي «مواضيع فرعية».

وأنّ تتميز هذه المواضيع، فلا شك أنّ هناك خيطاً ناظماً بينها يبرّر اندراجها ضمن النصّ بنية متكاملة متجانسة. وهذا النوع الثالث هو أكثر الأنواع

المذكورة مرونة إذ يمكن أن يستوعبها جميعا في إطار النصّ الواحد فتكون بنية النصّ وكذلك دلالاته بنية مركّبة ثريّة تعكس التناغم بين اللفظ والمعنى، كما بين الأبنية المختلفة والموضوع الجامع أو قمة الهرم في الرّسم الهيكليّ التجريديّ - حتّى وإن تعلّق الأمر بتمثيل مستويات نموّ النصّ الثلاثة -

خلاصة

وظائف الأبنية الكبرى هي: 1. الاستدلال على انتظام النصّ وتماسك أبنيته المختلفة؛ 2. إبراز أشكال التعلّق وأنواعه؛ 3. الإحالة على بنية النصّ العليا؛ 4. إدراج النصّ ضمن المجال العرفانيّ الإدراكيّ؛ 5. إثبات أن الاستدلال المنطقيّ لا يتعارض وصبغة النصوص السردية، والافتراض في الإنشاء وفي التفكير هو الجامع بينهما.

الفصل الخامس

الاستدلال على انسجام الخطاب
السّرديّ من خلال الأبنية العليا

«مِمَّ تَتَأْتَى الْأَجْنَاسُ؟ بِكُلِّ بَسَاطَةٍ، مِنْ أَجْنَاسٍ أُخْرَى.
فَأَيُّ جِنْسٍ جَدِيدٍ هُوَ دَائِمًا، تَغْيِيرَ لَجْنَسٍ أَوْ لَعَدَّةِ أَجْنَاسٍ
سَابِقَةٍ لَهُ: إِمَّا بِالْقَلْبِ، أَوْ بِالتَّحْوِيلِ، أَوْ بِالنَّضْمِينِ»

(Todorov, Genres in discourse: 15)

1. ما الأبنية العليا؟¹

يكون تحديد الأبنية العليا انطلاقًا من النّصّ المُنْجَز لغة. وإنّ مراحل عديدة لا بدّ من المرور بها قبل الانتهاء إلى البنية العليا: هذه العوامل هي إفرازات مناهج ومدارس لسانیّة ولغويّة عديدة، ولكنّ منهج تحليل الخطاب لا يقصدها في ذاتها - وإنّ كانت عوامل مساعدة على التّعرف إلى المنطق الذي بُني به الخطاب ومختلف الجزئیّات والتّفاصيل التي تقيم هيكله وشبكته الدّلاليّة، فرغم خصوصيّة الجنس الواحد لا يمكن القول بفرادته، أو أن نجزم أنّه يتمثّل بذاته في واحد؛ فالبنية العليا الواحدة تتفتح على أكثر من نصّ من النّاحية الإجرائيّة، وعلى جنس أو أكثر شكليًا وتجريديًا ومفهوميًا دون أن يعني ذلك إثارة فوضى، وإنّما هو الاندراج ضمن الجمع بين ثلاث ميزات تركيبیّة أساسیّة: تنمية متسلسلة للتحوّل انطلاقًا من لفظة أصلیّة فأكثر؛ انطلاق ممكن لسلاسل أسريّة جديدة ابتداءً من نقطة ربط؛ وأخيرًا إقامة ارتباط بعيد، ضمنی أو واضح، بواسطة دوائر مختزلة جانبیّة أو ماثلة، لمواضع مختلفة من التّفریع الواحد مع الآخر (Richard ، 1979: 24)

ويختزل منهج تحليل الخطاب المستويات التّاليّة: الفونولوجي، والمعجمي، والنّحوي، والدّلالي بما يضمن الوحدة والتّماسك انتهاءً إلى البنية العليا؛ بقي أنّه لا يتمّ التّأليف بين هذه المستويات المختلفة إلاّ باتّخاذ الاستدلال آليّة عمل: تفكيكا وتحليلا وتأليفا؛ وبلاستناد إلى السّياق والمرجع إطارين يساعدان على إرجاع المتعدّد من الدّلالة إلى وحدة متنازعة بين مقصد المتكلّم أو منشئ الخطاب، والبنية النّمودجيّة التي قد تكون هيكلیّة، وقد تكون مفهوميّة اصطلاحیّة - حسب خطّة تحليل الخطاب - ؛ وإنّ المستوى الثّاني أيضًا يحيل بدوره على جانبين

1 يميّز فان ديك بين البنيتين العليا والكبرى بقوله إنّ الأبنية العليا تضمّ «أنواعا مختلفة من البناء، ونطلق على تلك الأبنية العامّة التي تُميّز نمط نصّ ما، «أبنية عليا». ولذا فإنّ بنية الحكّي تُعَدّ بنية عليا، وهي مستقلة عن مضمون الحكّي (أي البنية الكبرى)، وإنّ كنّا سوف نرى أنّ الأبنية العليا تفرض على مضمون نصّ ما قيودا محدّدة.

وللتعبير عن ذلك بصورة مجازيّة نقول إنّ البنية العليا هي نمط من شكل النّصّ، موضوعه، ويعني ذلك أنّ البنية الكبرى هي مضمون النّصّ. وهكذا فإنّ الحادثة ذاتها تُحكّي، بأشكال نصيّة مختلفة، تبعا للسّياق الاتّصالي. (فان دايك، 2005: 209)

اثنتين أو زاويتي نظر إلى أجناسية النصّ أو بنيته العليا: إمّا أحديّة بالنظر إلى النصّ الواحد في حدوده - وفق ما وقع التعارف عليه في الثقافة المشتركة من مقومات جنس أدبيّ ما -، وإمّا وفق منهج مقارنة بين نصوص يُفترض أنّها من جنس واحد - والدراسة البنيويّة الدلاليّة هي التي تُثبت ذلك أو نُقصيه -، أو بين نصوص يُتصوّر أنّها متباينة مختلفة أجناسياً - والمسألة فيها نظر² - وقد يُربط ذلك بصلة النوع بجنسه الأوسع، أو هي صلة الفرع بالأصل، بما أنّ للمقارنة أسباباً ومبرراتٍ تكون نصيّة قبل أن تكون منهجيّة غائيّة، ومن أهمّ ذلك الانسجام بما يفرضي إليه من نتائج مُفنعة تساعد على تجاوز الإشكال - وإنّ نسبياً - تأليفاً بين النصّ/ الأصل، وهيكله ورسومه المنشأة على علاقات منطقيّة (أساسها الوظائف المتعدّدة التي تؤدّيها كلّ بنية أو كلّ وحدة منها)؛ كما بين السّياق والمرجع، وما يمكن أن يُفرضي إليه كلّ ما سبق من تمثّلات وتصورات ذهنيّة في فهم النصّ أو الخطاب. (Denhière & Baudet، 1992: 78)

وبيّن فان ديك أنّ دراسة الأبنية العليا تكون من زوايا متعدّدة بتعدّد العلوم والمعارف التي تتعلّق بها وهي تتراوح بين الثّبات (في العلوم الصّحيحة، وفي القوانين وكلّ ما له صبغة الاصطلاح العامّ) والتّحوّل (بالنسبة إلى ما له صلة بالإنسان في تبدّله وتغيّره) ومن تجلّيات ذلك الأدب - إنتاجاً ونقداً وتفسيراً - وهذا التعدّد في المداخل يُفرز اختلافاً في الأبنية لكنّ قد تؤول إلى وحدة هي التمثيل التجريديّ الذي يؤسّس لبنية نمطيّة يحافظ فيها على الإطار العامّ، أمّا المحتوى فيتغيّر بتغيّر طبيعة الخطاب، على أنّ الدلالة لا تنفي الصّيغة من ذلك مثلاً «إنّ الأبنية العليا، الخاصّة في أشكال السرد والجدل وغيرها هي أمثلة نمطيّة، وكذا حين يعبر عنها من خلال اللّغة فإنّها نفسها ليست ذات طابع لسانيّ، أو لغويّ، بالمفهوم الضيق لهما، ذلك أنّ بنية الحكي يمكن أن يُعبّر عنها من خلال الرّسوم أيضاً» (Van Dijk، 2005: 21 - 22) فيكون الخطاب جدلاً بين التّطبيق والتّظهير، والتّعدّد والوحدة، والنوع والجنس. ولكي تُنبّئ بنية نصّ ما النّمطيّة ويتمّ تمييزها عن غيرها من الأبنية، يقترح فان ديك قراءة أيّ نصّ على جدّة (Van Dijk، 2005: 208) حتّى تتّضح ملامحه وخصائصه البنيويّة دون تأثير خارجيّ، وفي مستوى لاحق يمكن أن يقارن بين نصّين أو أكثر من نفس النوع أو الجنس، على أساس ما اصطلاح عليه مقومات

2 وإنّ بين النّقاد والدّارسين اختلافات حول مفهوم البنية العليا ذاتها ويُرجع ذلك إلى سببين:

1/ تداخل هذا المفهوم - في تجلّيه أيضاً مع البنية الكبرى -

2/ إنّ النصّ الواحد قد لا يكون من طبيعة الجنس الواحد بل هو أجناس متعدّدة [تُطرَح الإشكاليّة هنا من زاوية نظر أخرى تخصّ المفاهيم والمصطلحات من ذلك مثلاً: هل يُعتبَر الوصف ثمّ السرد من أنماط الكتابة أم من الأجناس الأدبيّة؟]

لذلك النوع أو الجنس. فالبنية العليا هي نوع من التخطيط الذي يتواءم النص معه من حيث الأسس والعلامات الدالة على أجناسيته باعتبارها مقولات ومجموعة من القواعد أكثر منها أنظمة علاماتيّة مستمّدة من النحو أو من المعجم، فوضع المخطّطات هو عملية تنظيميّة تعكس المنطق الذي انبنى عليه النصّ وفق أجزاء مميّزة مرتّبة تدرّجاً من الأبنية الصّغرى إلى الكبرى انتهاءً إلى البنية العليا في اتجاهٍ عكسيّ تمثل فيه البنية العليا أول المستويات وأرفعها. وبالتالي، فتخطيط أيّ نصّ إنّ هو إلا مجموعات قضويّة يحتلّ فيه كلّ عمل قضويّ موضعاً محدّداً ويضطلع بوظيفة مضبوطة منهما يكتسب ماهيته ودلالته.

ومما يُطرح من إشكاليات تتعلّق بالبنية العليا أنّه لا يمكن القطع بوجود صلات أو روابط أو عدم وجودها بين البنية العليا والأبنية النّحويّة التّركيبية، والأبنية الكبرى الدلاليّة³، خاصّة إذا كان اعتبار البنية العليا أقرب إلى البنية التمثليّة الشكليّة المجرّدة منها إلى المستوى الدلاليّ - وإنّ كانت لا تتميّز إلا به من ذلك السرد = بنية القصّ العليا⁴، كذلك الحجاج، أو السيّورة الحجاجيّة في ربطها بين المقدّمات والنتائج. ولا يمكن التّعويل فقط، على البنية العليا للتعرّف إلى أجناسيّة نصّ ما، ذلك أنّ عوامل أخرى تدخل في ذلك منها: السياق، والإدراك والمعرفة، والوظيفة التّواصلية في بعدها الاجتماعيّ (Van Dijk، 1980: 110).

وبيّن فان دايك أنّ البنية العليا في بعدها الأسلوبيّ الأجناسيّ يمكن أن تتعلّق ببنية عليا أكثر منها تجريدا وهي التي تختزل النصّ بأكمله، ويذكر القواعد الخمس التّالية محاولة منه في وضع حدّ لها:

3 وإنّ كان فان دايك يشير في موضع آخر من الكتاب نفسه (122 - 127) إلى أنّ العلاقة تلازميّة بين الأبنية الكبرى والأبنية العليا، بقي أنّ الإشكال هو في عدم ضبط قواعد محدّدة تساعد على رسم العلاقات بينها وبينها، حتّى وإنّ كانت القواعد اللسانية عاملاً مساعداً على ذلك.

4 ويكون ذلك بأيّ شكل من الأشكال في الملحمة، والحكاية المثليّة، والإعلانات، والأساطير، والنّادرة...

وعلاقة السرد بهذه الأجناس هي علاقة الجزء بالكلّ وقد تكون هذه العلاقة شبيهة بالوظائف النّحويّة التي تشغلها الكلمات في جملة ما (كالفاعل والمفعول به وغيرهما...). (Van Dijk، 1980: 109)

وهذا يعني أنّه من الحيف اعتبار أيّ بنية عليا حكراً على نوع أو أنواع من الخطابات دون أخرى؛ ولابدّ - منهجياً - من الدقّة في حدّ البنية العليا حتّى تتسنى دراستها الدّراسة المستفيضة المقنعة.

(أ) ضرورة ترتيب وحدات المعلومات (المقترحات) وتنظيمها حسب الفئات الوظيفية؛

(ب) القيود الدلالات التداولية في توزيع المعلومة؛

(ج) جوانب الخطاب العملية: فيم يتمثل محور الخطاب أو وظيفته باعتباره فعل السامع/ القارئ؟

(د) تجليات التفاعل في التحدث، والكتابة، والقراءة/ السمع: كيف تبدأ، وكيف تنتهي، والعلاقات بين المشاركين في الكلام، وما إلى ذلك؛
(هـ) الجوانب المعرفية: باعتبارها معلومات مكتسبة مسبقاً، بالإضافة إلى احتياجات للتعبير، والتقييم، والأخبار، وحلّ المشكلات، والترقب، الخ. (Van Dijk, 1980: 112).

إنّ الأبنية العليا توجد مستقلة عن المضمون، والمرء لا يصف تلك الأبنية عادة بمساعدة قواعد لغوية وإنما بمساعدة قواعد خاصة بها تؤلف بين مكونات النصّ في صيغته التجريدية النمطية. وقد نُظر إلى هذا النوع من الأبنية نظرة أجناسية على أساس المقارنة بين مقومات كلّ جنس. وقد تكون المقارنة مقصودة، كما قد تكون عفوية وفق ما ترسّخ في ذهن منشئ النصّ، كما متلقية، من خصائص الخطاب جزءاً من معرفة عامّة مشتركة. وهذا يعني أنّ التّظير يمثل مرحلة متأخرة بالنسبة إلى تجليات النصوص التي تكتسب خصوصياتها ومميزاتها من سياقات القول وأسبابه حديثاً عن «الحجاج والوصف والقصّ والتفسير والمحادثة... هذه الأشكال الكبيرة الخمسة الشاذة للتقاليد البلاغية ومجلدات التأليف الكلاسيكية» (Adam, 1997: 5).

ويمكن أن تتجلى الدّراسة المقارنة في مستويات ثلاثة: أولاً، في إطار الجنس الواحد أو النوع الواحد بين تجليات نصوص عديدة؛ وثانياً، في إطار اللسان الواحد بين الجنس وغيره، أو بين النوع والآخر بما يشي - مبدئياً - بالاختلاف؛ وثالثاً، بالنظر في الجنس الواحد مقارنة بين تجلياته في ألسنة متعدّدة: هل من تشابه أو من اختلاف؟ وما هي العوامل التي تؤدي إلى هذا الوجه أو ذاك؟ هل سيكون الأمر رهين خصائص البنية العليا في حدّ ذاتها أم يتجاوزها ليشمل البنيتين: الكبرى والصغرى؟

هي إشكاليات تطرحها الجدلية القائمة بين الإجراء والتّظير من ناحية، والمفترض المُقنّن من ناحية أخرى؛ وهو ما أفرز جدلاً كبيراً حول تجانس الجنس أو النوع، أو هجأته. (Adam, 1997: 5) ويرى كومبات أنّ ما تمّ الانتهاء إليه من حدود أجناسية لا يمثل النهائي بالنسبة إلى الجنس الواحد بقدر ما يعكس إمكانيات تعرّف إليها مقارنةً بغيره من أجناس الخطاب وأنماطه، صلةً ببنية كلّية بمكوناتها أنساقاً لغوية. ويربط آدم تجزئة البحث في الجنس أو النوع

الواحد بالسَّعي إلى إرجاع المتعدّد إلى أصل يجمع وحداته.

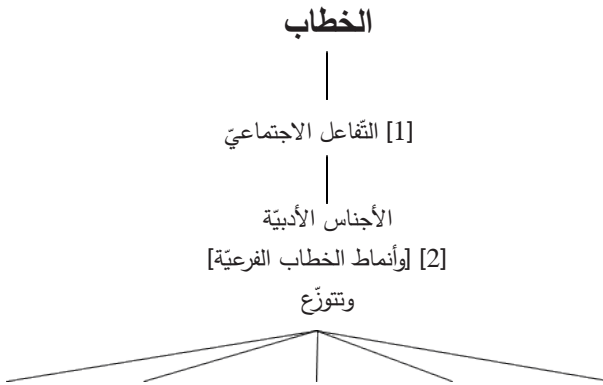
فإذا كان الأمر بهذا التَّشعُّب وعدم الانتهاء إلى قواعد واضحة تضبط البنية العليا الواحدة، فكيف يتمّ التَّوفُّق إلى وضع مخطّطات تجريدية تعكس في الآن ذاته الوحدة والتَّجانس، والهجانة والاختلاف؟

إشكاليّة طرحها آدام، وحاول أن يجد لها تحليلاً منطقيّاً، فإذا الخطاب ليس - بالنسبة إليه - أنساقاً لغويّة فحسب، وإنّما لها صلة بالقارئ من ناحية، وبالدّلالة من ناحية أخرى (Adam، 1997: 8). ويستدلّ على مذهبه استناداً إلى ما يراه باختين من أنّ أجناسيّة الخطاب تتحدّد - ضمن ما تتحدّد به - بالقوالب اللفظيّة التي تتكرّر من نصّ إلى آخر، التكرار الذي يكون من العوامل المساعدة على إدراج هذه النصوص ضمن جنس واحد (Adam، 1997: 11)، يقول باختين: «كلّ البيانات لدينا هي نموذج مُوحّد ومُسقَرّ

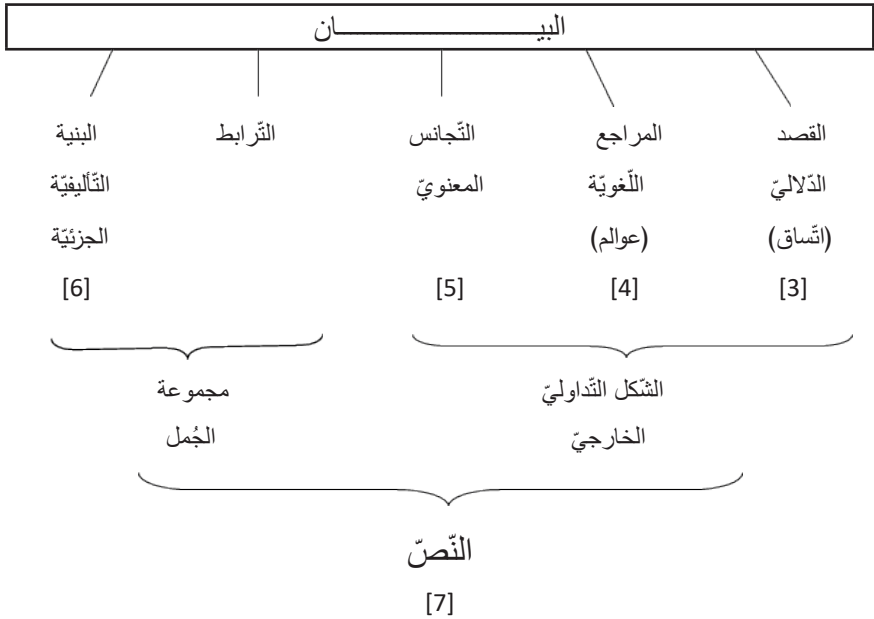
نسبياً من بنية الخطاب أو النصّ». وقال «عندما نختار نوعاً معيّناً من الجُمْل، نحن لا نختار سوى جملة محدّدة، بناء على ما نريد أن نُعبّر عنه من خلالها، إنّنا نختار نوعاً من الجمل على ضوء البيان بأكمله الذي يبدو مكتملاً في تصوّرنا وذهننا، فيحدّد فكرتنا التي بها سنشكّل بياننا جنساً معيّناً

من الخطاب يكون دليلنا في منهجنا الخطابيّ»⁵، وهو ما يحيل على تفاعل البنية العليا مع البنية أو الأبنية الصّغرى، إذ تستمدّ منها بعض مقوماتها وخصوصياتها، ذلك أنّ «جميع الوحدات اللفظيّة والتركيبيّة متكاملة، ولا يمكن لأيّ منها أن تكون، بمفردها، قاعدة أجناسيّة كفيلة بأنّ تضع في الاعتبار جميع جوانب التّناص، وجميع أنواع النّصوص» (Adam، 1997: 11).

ويختزل آدام الأبنية العليا (بكلّ تفرّعاتها: اللّغويّة: اللفظيّة التركيبيّة؛ والمرجعيّة المقاميّة؛ والمعرفيّة الموسوعيّة؛ والمنهجية التاريخيّة) في الرّسم التّالي:



5 Adam، 1997 :13. (Bakhtine M: “ Esthétique de la création verbale”، 1984، Paris، Gallimard، 284 + 288)



الرّسم: أسس المنوال (Adam، 1997: 17).

وغايته من ذلك اعتماد شكل أو نسق تنظيم واحد يقوم على التّركيب والانسجام في آن. ويعطي نماذج تصوّريّة عن الإمكانات التي يرد عليها النّصّ امتزاج بنية عليا بأخرى من ذلك:

[متتالية جدليّة] [متتالية سرديّة] [متتالية جدليّة]

[متتالية سرديّة] [متتالية وصفيّة] [متتالية سرديّة]

[متتالية سرديّة] [متتالية حواريّة] [متتالية سرديّة]

[متتالية حواريّة] [متتالية سرديّة] [متتالية حواريّة] (Adam، 1997: 31 - 32).

ومثل هذه التّجليات تعكس لا محالة بنية التّضمين، فتكون بنية عليا هي الإطار - باعتبارها المبتدأ والمنتهى - وتكون الأخرى مُضمّنة بما أنّها ليست مقصودة لذاتها وإنّما الغاية منها إبراز إحدى أبنية البنية العليا الإطار، إحدى أبنيتها الكبرى موضوعا بارزا في بناء النّصّ وتركيبته الدّلاليّة. والإمكانات تتجاوز ما ذكّر، كما يمكن أن يشمل النّصّ الواحد على أكثر من نوعين من الأبنية العليا؛ ويتّخذ آدام من هذا دليلاً على أنّ تداخل الأجناس الأدبيّة أمر عاديّ، بل ربّما الاستثناء هو في وجود نصّ يقوم على بنية نصيّة عليا واحدة. على أنّ امتزاج الأبنية العليا لا يعني انتفاء تجليات إحداها أو حدودها، إذ توجد علامات لغويّة هي علامات تحوّل وتمييز، كما قد تكون أجناسيّة/ حديثة من ذلك:

- مدخل - تمهيد ومُلخَص افتتاحي؛
- سقوط أو عبْرَة - تقييم عند الختم.

ولئن كان الاهتمام بها والبحث عنها ينطلق من النصّ، إلّا أنّ اعتبارها مرادفة لأجناسيّة الخطاب يخرج بها من حدود تجلّي كلّ شكل على حدة إلى البحث عن أشكال الأشكال؛ أو عن الفاعليّة الشعريّة العامّة لجميع الأشكال، كما تتحقّق بالفعل أو القوّة، بشكل خاصّ ومحدّد، طبقاً للمستوى وللوظيفة اللغويّة التي تتمّ فيها هذه الفاعليّة.

وتقوم البنية العليا على ما يمثّل جملة النصوص المنجزة والتي قد تُنجزُ، وهذا التمثيل هو - في الغالب الأعمّ - يقوم على جماع ما يمكن أن يمثّل الجنس الواحد أو النوع الواحد،⁶ فصياغة البنية العليا إنّ هي إلّا تحويل لما هو طبيعيّ أو منجز لغويّ إلى ما هو منطقيّ رياضيّ أو إلى ما هو تجريديّ. ولا يبحث محللو الخطاب عن قواعد تقنيّة مطلقة، وإنّما يسعون إلى تحديد الأنساق والأنظمة التي تحكّم بناء النصّ باعتباره كلّاً ذلك أنّ «محلل الخطاب، مع ما له من بيانات لغة عاديّة، مُلزم بعرض وجهة نظر مُغايرة حول القواعد التي تنتظم تجليات لغة ما. وفي الواقع، قد يرغب في المناقشة التي لا تتعلّق بالقواعد في حدّ ذاتها، لكن بالأنظمة والأنساق، ذلك أنّ بياناته، وببساطة، ليست نماذج لظواهر تصنيفيّة» (Brown & yule, 1983: 22)؛ فتكون الأنساق والأنظمة علامات دالة على الجنس أو نوع الخطاب مزوجة بين بنية النصّ وبعده التواصليّ التداوليّ أكثر منه النّظر إلى النصّ على أنّه لغة مجرّدة عن أيّ مرجع أو سياق، فمحلّل الخطاب يبحث عن المتواتر من الظواهر اللغويّة وليس عن الثابت منها فيصفها من خلال نصوص متعدّدة.

والمصطلحات والتسميّات تختلف، إلّا أنّ جوهر المسألة واحد من حيث الجدل القائم بين النصّ والخطاب أو بين التجلّي اللغويّ وهيكله العامّ الضامن لانتلافه مع نصوص أخرى، ائتلاف يتجلّى في البنية العليا بما هي إنشاء بالفعل. على أنّ بين النصوص ذاتها اختلافا ناشئاً عن الأبنية الكبرى أو المواضيع أو الدلالة التي تتحقّق بالقوّة - وإنّ كان فيها جانب من التّحقّق بالفعل نتيجة الاختيار الذاتيّ المقترن بصاحب النصّ/الأصل - وما التّحقّق بالقوّة إلّا إحالة على ما يحفّ بإنتاج النصّ من عوامل خارجيّة تُسيّجُه وتُعقّله.

6 الإحالة على الجنس أو النوع ليست حكراً على مجال محدّد أو مرجعيّة معيّنة - وإنّ كانت أطروحتي تتوجّه إلى الأدب والفكر والنّقد دون مجالات أخرى من الحياة أو التفكير التي قد يمثّلها الخطاب بصيغتيّه الشفويّة والمكتوبة.

خلاصة

يكون التعرّف إلى الأبنية العليا عبر القياس والمقارنة في ثلاثة مستويات: 1. بالنظر إلى ما يندرج ضمنها من أبنية صغرى وكبرى؛ 2. بالتثبت في نسج النص الواحد، ثم قياسه بغيره من النصوص لتبيين مدى الاتفاق أو الاختلاف في الجنس أو في الأجناس التي قد يقوم عليها النص الواحد؛ 3. حدود الجنس: بين المنوال والإجراء وتمثيل كليهما للبعد التداولي الذي لا يراه فان دايك بمعزل عن الأبنية.

ويؤكد آدم - إجراءً وتنظيرًا - على أنّ البنية العليا الأصلية يمكن أن تحتوي بنية أو أبنية فرعية في إطارها، ويقصد بذلك السرد والوصف والحوار والحجاج فالتفسير؛ أبنية قد يُنسجُ بينها وفق الأشكال والصيغ التالية وهي: التناوب، والنضمين، والتتابع؛ ولا يمثل هذا التجلي هجانة في الجنس ولا شتاتاً في النص، بل هو انتظام مخصوص ورؤية في الإنتاج الأدبي أو أي شكل آخر في الخطاب عامة.

على أنّ الانسجام في الأنساق لا ينفي الخصوصية بالنسبة إلى الأبنية العليا الأصلية منها والفرعية على مستوى المفاهيم والصيغ والارتباط بالاختيارات أو بالعوامل الحافة بالنص والخطاب.

2. أنواع الأبنية العليا الفرعية: الخصوصية والتفاعل في إطار الخطاب السردى⁷

يمكن أن تُقسّم الأبنية العليا على أسس شكلية خالصة بالنظر إلى عنوان النص، أو إلى شبكة الأبنية المتكررة في نسجه التمثيلي، وهي المقترنة بطبيعة النص الأجناسية، أو من خلال القواعد والمقولات التي إليها تؤول هذه الأبنية المتكررة، أو وفق تحققها، إذ تكون للأبنية العليا صلات - وإن بصفة غير مباشرة، خاصة على المستوى التمثيلي، - بـ «الأبنية الدلالية أو البلاغية أو الأسلوبية» (Van Dijk، 2005: 219-220) على أساس وظائفها، من

7 يذكر فان ديك نماذج عديدة من أنواع الأبنية العليا، اخترنا منها ما له صلة بالأدب لخاصية البحث، بما أننا حرصنا على :

* تحقيق المعادلة بين التنظير والتطبيق.

* سيكون اختيار النماذج - في قسم التطبيق من البحث - مقتصرًا على الأدب - إنتاجاً ونقداً - حتى لا يتشعب مجال الدراسة، أو نخرج عن إطار التخصص، (ولمزيد التوسع في هذه النماذج، يمكن الرجوع إلى ما بين الصفحتين: 241 - 256 من «علم النص» لفان ديك، 2005).

ذلك: بنية المحور - التفسير، أو الفرض المسبق - التقرير، أو المدخل - المحتوى، أو المقدمة - النتيجة.

وهي أبنية تتدرج ضمن وظيفتين كبيرين: الأولى: استدلالية استقرائية تُحقّق التّناسب والتّكامل بين المقولات في إطار النّوع الواحد، كما تحيل على التّكامل والتّناسق بين أبنية النّص السّطحيّة من حيث المنطوق اللفظي في مرجعيّاته: الحرفيّة، والصّرفيّة، والنّحويّة التّركيبيّة، والمعجميّة؛ والعميقة بحثاً في المعنى والدّلالة انتهاءً إلى التّجريد والتّمثيل؛ والثّانية: تداوليّة اجتماعيّة⁴ من حيث التأثير في المتلقّي بجعله يبحث في خصوصيّات الأبنية، ويناقش «النتائج والاستنتاج/ أو الاستنتاجات التي يتأكّد، بناءً عليها، الفرض أو لا يتأكّد» (Van Dijk، 2005: 242)، فيتّصل الجانب التّدوليّ بالبعد المعرفيّ إخباراً (من خلال النّص منطوقاً كلامياً)؛ وتأييلاً ونقداً (من خلال التّميز بين مكوّنات النّص فصياغته صياغة تخطيطيّة).

1.2. البنية العليا القائمة على السرد

قد يوافق سرد الأحداث خطّيّتها الزّمانية كما يمكن للسارد ألا يلتزم بها، وله أن يمتط بعض الأحداث ويختزل أخرى، كما يختار السارد الشخصيات - ملامح ووظائف - بما يوافق نسق الخبر وطبيعة سرده، وعن ذلك تنشأ أصناف من أبنية النّص السّرديّ العليا (Coirier & Gaonac'h & Pas-serault، 1996: 74 - 76) اعتماداً على أنّ السّردية هي عبارات تمهّد لمشهد أو لسلسلة أحداث تمثّل وضع البداية، ومن أمثلة ذلك:

- (1) جِئْتُ هَذَا الصَّبَاحَ إِلَى الْمَكْتَبِ...
 - (2) يَوْمَ أَمْسٍ، كُنْتُ أَقُودُ سَيَّارَتِي عَلَى الطَّرِيقِ السَّرِيعَةِ رَقْمَ 10...
 - (3) جَاءَ زَيْدٌ، الْأُسْبُوعَ الْفَارِطَ، لِزِيَارَتِي... (Van Dijk، 1980: 113)
- بما يحيل على أهمّ الخصائص السّردية من شخصيات وإطارين زمنيّ ومكانيّ؛ وهناك عبارات يريد من خلالها منسئ النّص أو الخطاب لفت انتباه المتلقّي أو المخاطب مثل:
- (4) مَهْلًا، اسْمَعِ...
 - (5) هَلْ عَرَفْتَ مَا حَدَّثَ لِي بِالْأَمْسِ؟...

(6) خَمِنَ مَا...⁹ (Van Dijk، 1980: 114)؛

ومن العبارات ما يحيل على التآزم في الحدث أو الأحداث - بما يخالف العادي المألوف، أو ما يُحدث أو يولد اضطرابا في الأحداث في نسقها الخطي -، ومن أمثلة ذلك:

(7) فَجَاءَ عَبْرَتْ بَقْرَةَ الطَّرِيقِ السَّرِيعِ...

(8) قَالَتْ لِي أَنَّهَا حَامِلٌ...

(9) تُؤْفِي السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ يَوْمَ أَمْسٍ...

(10) كُنْتُ قَدْ فَقَدْتُ مَفَاتِيحِي...

وهي أحداث متبدلة متغيرة من نسق إلى آخر، ومن خطاب إلى آخر.

ومن مقومات السردية الانفراج ارتباطا بما يحدث لاحقا قياسا على النمط السابق. والحدث أو الأحداث التي تؤدي إلى الانفراج إما أن تُعيد الوضع إلى استقراره، وإما أن تؤذن ببداية وضع جديد؛ ثم التقويم أو إبداء الرأي: تضطلع به بعض الشخصيات، أو السارد، ومن الأمثلة:

(11) يَا إِلَهِي، لَقَدْ كُنْتُ خَائِفَةً جَدًّا...

(12) كُنْتُ سَعِيدًا أَنْ لَمْ أَكُنْ هُنَاكَ...

(13) لَمْ أَلْقَ فِي حَيَاتِي مِثْلَ هَذَا الشَّخْصِ الْمُضْجِرِ... (Van Dijk، 1980: 115)؛

لئن كانت الأنماط الأربعة الأولى متصلة بالخبر، فإن هذا النمط الخامس يتصل بالخطاب، أو أن الأنماط السابقة تتصل بالنص في بعده الحدثي، فإن هذا النمط يتصل بالنص في بعده النقدي.

ومن مقومات السردية أيضًا، وضع الختام خلاصة أو عبرة، من ذلك:

(14) لَنْ آخُذَهُ مَعِيَ فِي إِجَازَةٍ مَرَّةٍ أُخْرَى.

(15) لَنْ أَقُودَ [سَيَّارَتِي] لَيْلًا فِي مَكْسِيكُو.

(16) فِي الْمَرَّةِ الْقَادِمَةِ، سَأَبْقَى فِي الْمَنْزِلِ.

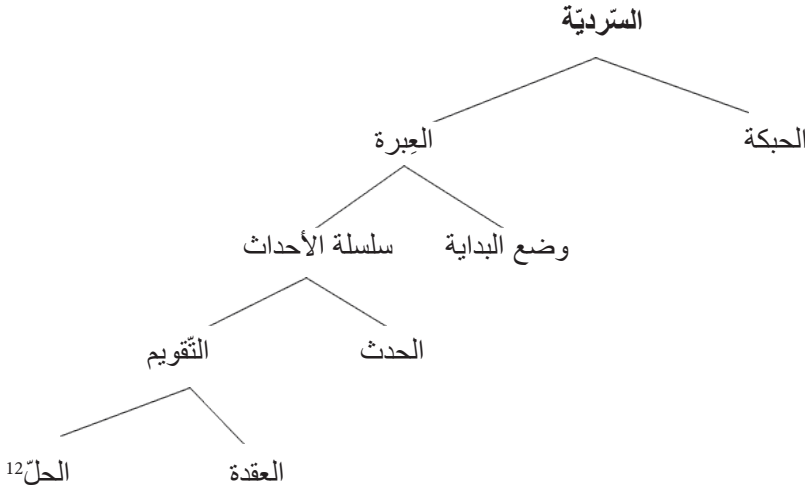
وكثيرا ما يكون هذا النمط ذا بُعد قيمي أخلاقي.

تتصل هذه الأنماط بعضها ببعض الآخر اتصالا خطيًا أفقيًا ارتباطا

9 بالنسبة إلى هذا النمط من العبارات، لا يعتبره فان ديك سرديًا محضًا، إذ تتردد هذه العبارات في مجالات خطابية أخرى.

ببنية النصّ في صبغتها التداولية، ولكنّه أيضاً الاتّصال عمودياً وفق التمثيل البنويّ التجريديّ، يُفضي فيه الحدث - أو الأحداث - إلى ما يليه توسّعاً وانفتاحاً على مجالات قد تكون محسوسة، وقد تكون مجردة¹⁰. وتُراعى في هذا التمثيل مختلف القواعد الموضوعية له دراسةً واصطلاحاً¹¹، وهي قواعد متعاودة متكرّرة، أو متبدّلة متغيّرة، حسب طبيعة النصّ والمرجعية الكبرى التي يندرج ضمنها، خاصّة إذا كان في سرد الأحداث تقديم وتأخير.

ويلخصّ فان دايك هذه الأنماط في صلتها بنوعها في الرّسم التّالي:



10 بما أنّ النصّ - وإنّ كان سردياً في صبغته العامة - قد يفتح على مرجعيّات وصيغ متنوّعة/ الواقع، التأمّل، الفلسفة، المذاهب الفكرية...

11 من ذلك ما أشار إليه فان ديك في العنصر الرابع من الفصل الثّاني من هذا الكتاب، ولئن تعلّق الأمر أساساً بالأبنية الكبرى منهجاً ودراسةً، فإنّ هذا لا يتنافى والأبنية العليا لما بيّن مختلف الأبنية من تفاعل واتّصال في الوظائف والخصائص.

12 رغم سعي فان ديك إلى دراسة الخطاب ومحاصرة تجلياته تقنياً وتمثيلاً، فإنّه يذكر في الآن ذاته أنّ «الأدب في أبنيته السردية، يوجد على نطاق واسع، ممّا يحول دون تمثّلها تماماً هنا، ولا يمكن أيضاً تناول جميع النّاتج والمشاكل في هذا البحث، وقد تمّ القيام بأغلب العمل في المصادر الأدبية والدراسية أولاً، مع مختلف الأعمال الكلاسيكية حول أنواع الخطاب التمثيلية (التي بدأت مع أرسطو) وبعد ذلك، ومع بداية القرن الماضي، حول مختلف النظريات المتعلّقة بالرّواية. وتمّ التركيز، في الكثير من الأعمال الأدبية من هذا المجال، والعلاقات بين الواقع والخيال، والأسلوب، والمواضيع، إلخ، والخلط بين الأبنية الصّغرى والأبنية الكبرى لمختلف الأنواع الأدبية والأبنية العليا. (Van dijk، 1980: 112 - 113).

يرى فان دايك أن هذه الأنماط - كما الأنواع - هي مداخل وظيفية للتعرف إلى محتويات التصوص ومعانيها، وهي تعكس في الآن ذاته العلاقات القائمة بين الأبنية العليا والأبنية الكبرى بما أنها تفرعات عنها¹³، وهو ما يبرر القول بأن مفهوم السردية لا يتعلق بالجمال أبنية صغرى - بصفة مباشرة - وإنما يتحدد بما هو أوسع أبنية كبرى أو مجموعات حديثة: (Adam, 1997: 45)، مع معايير أخرى ومكونات للحد والتعريف منها:

1/ تسلسل الأحداث: حدث بداية، وحدث نهاية، وبينهما جملة أحداث فرعية، وينسج بينها جميعا وينتظمها عنصر الزمن (الذي قد يكون في نسق خطي، وقد يُقطع استباقا أو استرجاعا)؛

2/ يضمناها وجود شخصية ثابتة في مختلف أطوار القصة وأحداثها، وليس شرطاً أن تكون فردية، بل يمكن أن تكون جماعية، ويمكن أيضاً أن تكون فردية/ جماعية على أساس إشعاعي انتشاري، تكون معه الشخصيات مرايا تعكس جوانب من الشخصية/ المحور، فإذا هي منفصلة عنها، متصلة بها. وثنائية الانفصال والاتصال هذه تعكس أيضاً المنطق الذي يحكم العلاقات بين الأبنية المختلفة في ضمانها نسيج النص/ القصة؛

3/ الحكمة القصصية بما فيها من أحداث وشخصيات تستدعي ضرورة، زمانا هو الإطار الذي يحتويها، يتجلى قرائن وعلامات تساهم في ضمان تقدم

13 رغم ما لهذه الأنماط - والأنواع عامة - من قواعد مقررة وشروط متفق عليها - صارت بمثابة الأعراف الخطابية الأدبية، فإن فان ديك يذكر بعض الاستثناءات - في إطار دراسته للسردية - وهي:

(1) ليس من القطعي أن يكون ترتيب الأنماط في إطار النوع الواحد هو نفسه في كل خطاب أو نص، فقد تختلف تجلياته.

(2) يمكن أن تتوفر الأنماط جميعا في نص واحد، كما يمكن الاستغناء عن بعضها من ذلك مثلاً التقويم أو إبداء الرأي سواء أكان من قبيل الشخصية، أو السارد/ الشخصية، أو السارد.

(3) رسم خطاب أو نص ما، لا يستوفي ضرورة كل الجزئيات والتفاصيل الحديثة أو القسوية وهذا طبيعي لسببين:

- اتخاذ هذه الرسوم صبغة تجريدية إيحائية أساسها الرمز؛
- المفترض أن يصاغ من هذه الرسوم رسم أوسع لا يشمل الأنماط أو الأنواع فحسب، وإنما يكون أرقى درجات التمثيل من الناحية الأجناسية (قد يكون عن وعي في الدراسات اللسانية، والتداولية، والأدبية عامة؛ وقد يكون عن غير وعي كما في الدراسات النفسية، والاجتماعية، والعلمية).

ولمزيد التوسع انظر الهامش 5: Van Dijk, 1980: 117.

النسق السردّي في تحوّل واستمراريّة؛ والتحوّل في الزّمن يقترن أيضا بتغيّر ملامح الشخصية/ الشخصيات، ويكون ذلك نصّيا ودلاليّا من خلال ألفاظ وعلامات تربط الجنس بالجنس (كالسرد بالوصف في هذا السياق)، كما التّجانس بين مختلف مقوّمات السّردية بنية عليا وأبنية عليا من مستوى ثانٍ هي في الحقيقة مجموعة الأبنية الكبرى في بعدها المرجعيّ المعرفيّ الموسوعيّ؛

4/ المسار الذي يتحكّم في تسلسل الأحداث فإذا أسقط بعضها، أو غيّر موضعه اضطربت الأحداث وتداخلت وغاب المنطق الذي ينظمها وفق البنية الثلاثية التي تحدّث منذ أرسطو: مقدّمة تتطلّب لاحقا ولا سابق لها، وجوهر محكوم - ضرورة - بسابق ولاحق، وخاتمة¹⁴ تتطلّب سابقا ولا لاحق لها إلا في تصوّر المتلقّي، أمّا إنجازا نصّيا، فالخاتمة هي آخر ما ينشأ بنية ودلالة، ولا اعتباط في الوضع ولا في البناء؛

5/ السّببية السّردية باعتبارها جزءا من الحبكة القصصية، فالقصّ ليس تتابعا آليا خطّيّا للأحداث لكن، إلى ذلك، لابدّ من توفّر شرطين آخرين يضمنان وحدتها: أولهما، وجود وحدة زمنية تدور فيها الأحداث، وثانيهما، ألا يكون الحدث منبثّا عن الآخر لا يربطه به إلا رابط لغويّ هشّ تتهاوى معه الحبكة القصصية، وإنّما لابدّ من توفّر روابط سببية تبرز تسلسل الأحداث وانسجامها ضمن وحدة. ووجود علامات لغوية (كالقوسين، أو نقاط التّتابع، أو الجمل الاعترافية، أو الفقرات التفسيرية...) لا يعني القطع كليّا مع النسق السردّي، وإنّما تكون هذه العلامات في خدمة الغرض الرئيسيّ على مستوى الموضوعيّ خاصّة تمييزا بين البنية الكبرى والأخرى، كما تساعد على تبين الوظائف التي تؤديها هذه الأبنية.

هو الشّأن ذاته بالنسبة إلى قطع أيّ نوع سرديّ بمقاطع وصفية، أو حوارية، أو حجاجية، فالأمر لا يعكس انفصالا كليّا بين الأنواع أو الأجناس وإنّما هناك قصد يضعه صاحب الخطاب أو النصّ ويجعل كلّ صياغة لفظية أو لغوية في خدمة ذلك القصد: ارتباط بداية قصّ بنهايته بما لا يُفسح مجالا للشّعرات أو النّقصان، إذ يُحدّث ذلك اضطرابا في ذهن المتلقّي، ويجد عسرا ومشقّة - وربما استحالة - في إيجاد الرّابط المنطقيّ الذي به يسدّ تلك النّقاط من الضّعف على مستوى تسلسل الأحداث. وهنا تتولّد إشكالية أذكرها دون التوسّع فيها - بما أنّ مجال البحث لا يتفق معها - وهي هل الحديث عن البنية العليا - جنسا أدبيّا له خصوصياته ومقوماته - ينفي الحديث عن الأدبية الإنشائية بما أنّ وجه الإشكالية هو ثنائية الوضوح حبكة قصصية،

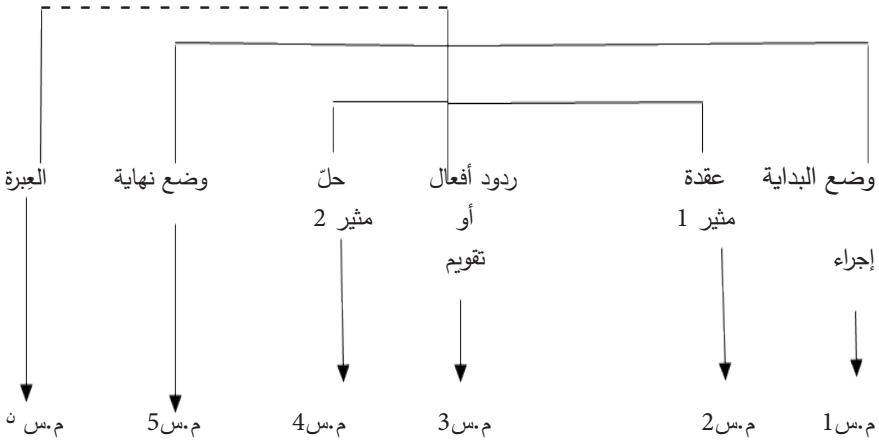
14 تختلف الاصطلاحات، أمّا المفاهيم فواحدة، وكذلك البنية الثلاثية: في دراسة تاريخية منذ أرسطو حتّى بول ريكور (Paul Ricœur). (Adam، 1997: 45).

والغموض شكلا من أشكال الإنشائية لدى بعض الروائيين والقصاصين¹⁵ ارتباطا بمسار بحثنا، فإنّ للبنية العليا قوانين وضوابط تحدّها أجناسيا ونصيا، هذه التي نحن بصدد الحديث عنها.

6/ تقويم نهائي (صريح أو ضمني): لأنّ كان التقويم أو العبرة آخر ما تنتهي إليه القصة فإنّ لوضع النهاية أهميّة تتفوق سائر مراحل أو أطوار القصّ بما أنّه هو الذي يحدّد مسبقا وفي ذهن منشئ القصة، كلّ مكوناتها تصوّرا وافترضا قبل أن تُنجز لغة وكلمة؛ فإذا بناء النصّ/ القصة لا ينشأ من أبنيتها الصغرى وإنّما في اتجاه عكسي من بنيتها العليا تفرعا وتوسعا.

بعد أن فصلّ آدام القول في مقومات السردية/ قصة - وقد جعلها ستّة - يجرّد هذه البنية، منطلقا من البنية العليا موزعا إيّاها إلى أبنيتها الكبرى حسب الخطاطة التالية :

المتتالية السردية¹⁶

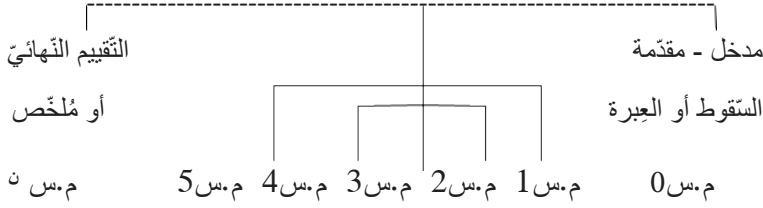


أو يمثّل القصة في رسم أشمل هو الذي يلي:

15 لمزيد التّوسّع، انظر: Adam، 1997: 51 - 53.

16 لمزيد التّوسّع في المقومات الستّة انظر: Adam، 1997: 46 - 56، خاصّة على مستوى التّطبيق.

القصة (Adam، 1997: 66 + 1994، 104 - 105)

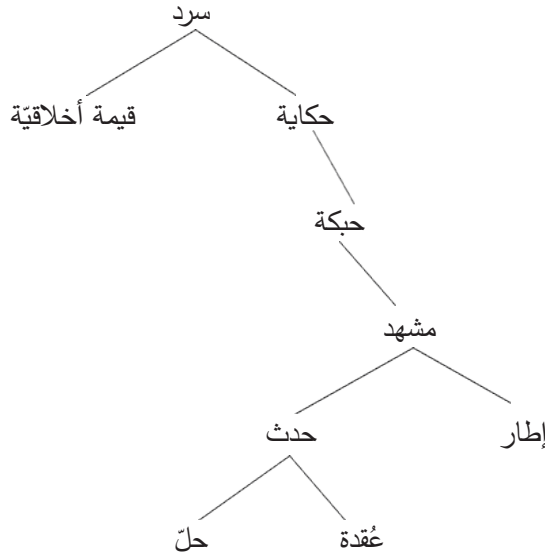


أو حسب البنية التالية:

[نص]متتالية/متتاليات سردية [أبنية كبرى سردية [قضية أو قضايا]]¹⁷

يمكن أن تتدرج ضمنها أنماطاً عديدة «مثل النكت والأساطير والحكايات الشعبية والخرافات والحكايات الخيالية وما أشبه، ثم في المقام الثالث الحكايات الأكثر تعقداً غالباً، التي نحددها عادة تحت مصطلح «الأدب»: القصص القصيرة، والروايات والقصص وما أشبه». (Van Dijk، 2005: 227)

ويختزل فان دايك الأبنية السردية في النموذجين التاليين:
في رسم شجري:



17 وتوافق القضايا السردية الكبرى الجمل القصصية.

أو قياسا على قواعد بنويّة توليديّة:

سرد	← حكاية	قيمة أخلاقيّة
حكاية	← حبكة	تقويم
حبكة	← مشهد	أحداث بيئيّة / مشاهد
مشهد	← إطار	حدث (أحداث)
حدث	← عقدة	حلّ (Van Dijk، 2005: 230 - 231)

ويلاحظ فان دايك أنّ تركيبة مقولات النّص السّرديّ ليست ثابتة من حيث التّرتيب، ثابتة من حيث عددها إذ يمكن أن تحلّ مقولة محلّ أخرى في نسق الحكّي دون أن تُعوّضها مفهوما، ووظيفة، ودلالة.

إنّ الرّسم التّمثيليّ هو اختزال لكلّ التّحوّلات المُمكنة إجرائيّاً التي لا تمسّ من جوهر الهيكل ونظام الأنموذج، وإنّما تتعلّق بالنّواحي الأسلوبيّة أو بالأبنية الصّغرى كما ببعض الأبنية الكبرى الفرعيّة، في علاقة المبنى بالمعنى. وهكذا، يكون الرّسم التّمثيليّ هو المرجع لقياس الثّابت من المتحوّل في مقوّمات الجنس الأدبيّ، كما في تقييم اختيارات الكاتب الاستراتيجيّة، وهي اختيارات قد يكون فيها «تفويّ» في بعض المقوّمات يُملّيها المُتخيّل السّرديّ دون المُنجَز «الواقعيّ». (Hénault، 1983: 76 - 77)

ويُتخذ المُبْحَث منْحَى آخر بأن تُطبّق المقولة الواحدة على نصوص من جنس واحد للنّظر في ما تقضي إليه نتائج الدّراسة من تعاود وتباعد، بما يشي بأنّ الجانب التّجريديّ التّنظيريّ - وإنّ كان يُؤسّس للكلّيّات، فإنّ هناك جزئيّات تستعصي عن الحصر والثّبات - وهو ما يبرز ما يحدث من انحرافات أو انزياحات على المستوى الإجرائيّ من حيث القياس على المنوال أو الأنموذج بنية عليا جامعة.

2.2. البنية العليا القائمة على الوصف

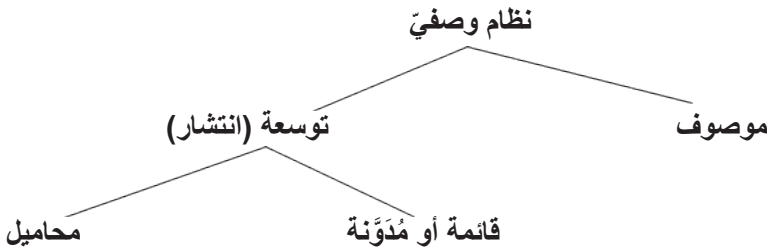
1.2.2. خصائص الوصف

اعتنى الدّارسون بالوصف من مداخل عديدة وهي علاقة الوصف بالتّعريف؛ ثنائيّة العرّض والجوهر؛ ما الذي ينبغي أن يكون محور الوصف ومحتواه؛ ثنائيّة الحسّ والتّجريد؛ هل الوصف نسخة من العالم، أم هو تعبير عنه؟

وهو ما أدّى إلى تباين في المواقف والآراء دون الانتهاء الفعليّ إلى حدّ الوصف تحديداً موحّداً. ولا يعود ذلك إلى لغة الوصف أو طريقته فحسب بل

إلى طبيعة الموصوف ذاته، ونظرة الواصف إليه¹⁸. إنَّ الوصف غالباً ما يتميز أسلوبياً، بكثرة الأسماء والجُمْل الإسمية وأدوات تنظيم الفضاء اللغوية، وهو ما يبدو، إذا ما تشكّل مقطعاً، «وحدة قابلة للعزل» و«تنوعاً طُفيلياً» قد يهدّد إذا ما تضخّم حجمه النصّي بانقطاع التّواصل بين طرفي الخطاب. ولا شكّ في أنّ هذا التّغاير بين الخطابين السّرديّ والوصفيّ لا يؤثّر سلّياً في التّواصل المنشود بين أطراف الخطاب المُتخيّلين والواقعيّين فحسب، بل يُسيء إلى انسجام الخطاب ووحدته، وقد دفعت هذه المخاطر الكثير من الكتاب إلى الإيجاز في الوصف والاكتفاء بصفاتٍ قليلة مُوحية. (العمامي، 2010: 59)

والخطاب الوصفيّ باعتباره مرجعاً من مراجع المعرفة وشكلاً من أشكالها، لا يُمكن تحليله إلّا بالنّظر إليه نظاماً وصفيّاً يتفرّع إلى مُوصوفٍ هو الأصل في الوصف بصفة عامّة وشُموليّة، مع توسّعة جامعة على شكل قائمة أو مُدوّنّة تتسجم مع مجموعة من المحاميل ؛ وهو ما يبيّنه الرّسم التّالي للوصف حسب هامون:



وعلى ضوء هذا الرّسم، يمكن أن ننشئ نموذج الأوصاف الحادثة حسب ملئها المواضيع البنيويّة في الرّسم، أو عدمه، وبالقّياس أيضاً، إلى تعقّد بعضها، كما إلى مدى استجابة التّصوص للخصائص المذكورة. (Hamon، 1997: 63 – 64) وحتىّ إنّ تعدّدت عناصر الوصف، فإنّ بينها تجانساً تضمّنه علاقة المحور الأصل/ العنوان بفروعه؛ وبينها أيضاً انسجام يتحقّق في المعاني والدّلالات، وتنظيم هذه العناصر ليس فقط منطقياً ودلاليّاً، فهو مرجعيّ أيضاً قياساً بالموصوف في حدّ ذاته، أو بالواصف وبزوايا النّظر. (Hamon، 1972: 11) وليس الوصف حكراً على مجالٍ دون آخر، وإنّما يشمل العاديّ من الأشياء كما الإبداعيّ والفنّيّ، فإذا هو جزء من كلّ ما هو موجود في الكون الماديّ أو التّجريديّ.

18 لمزيد التّوسّع، انظر: Adam، 1993: 5 – 13.

وقد يُعتبر الوصف جزءًا ثانويًا من الخطاب على اعتبار أنه حليّة، ولا يمكن أن يكون جوهر عملٍ ما، (Adam، 1993: 25) على أن هذا لا ينفي اعتباره من أهمّ الوحدات الوظيفيّة في الخطاب السردّي؛ ذلك أن حذف متتالية وصفية قد يؤثر سلبًا على بناء النصّ، كما على الحكاية، ممّا يستدعي إعادة الصياغة بما يخدم الأهداف المرسومة في العلاقات بين الأبنية وخاصة منها المعنوية التي تُقضي إلى التقويم.

وإذا كان الوصف يُمطّط النصّ، فإنّه يُبطئ مسار الأحداث فيه، لأنّ المتتالية أو المتتاليات الوصفية تمثّل علاماتٍ وقُفٍ في السرد، لكنها في الآن ذاته تساهم في بناء النصّ وتطوّره ونموّه. ومن الناحية الإجرائيّة، قد يوجد وصف دون أن يتّصل بسرد، لكنّ العكس عسير جدًا ربّما لأنّ الأشياء يمكن أن توجد دون حركة، لكن لا حركة دون أشياء (Todorov، 1966: 157)؛ ومع هذا، يظلّ الوصف أسير السرد تابعًا له - حتّى وإن احتلّ المساحة الأوسع منه؛ ولعلّ هذا ما يبرّر عدم وجود أجناس أدبيّة وصفية مستقلة بذاتها.

2.2.2. من تجليات الانسجام في الخطاب السردّي التحوّل من الجملة الوصفية إلى المتتالية الوصفية

العلاقة بين الجملة الوصفية والمتتالية الوصفية هي علاقة الوحدة الدّنيا بالمكوّن النصّي؛ وتقوم الوحدة الدّنيا أو الجملة الوصفية على التّعداد انتهاءً إلى الوصف الذي يقوم على مستوياتٍ¹⁹ تمثّل أجزاء الموصوف، أو تعكس تعدّد الموصوفات؛ ومن العوامل المساعدة على تبيّن المفصل بين المستويات والخصائص قرائن من نوع: «هكذا - أو - أولًا - في البداية - ثم - في مستوى ثان - وأخيرًا...». (Adam، 1993: 98 - 99) وهي قرائن تعكس بنية المتتالية أفقيًا وعموديًا أيضًا بما يعكس تفاوتًا وتعقيدًا في البنية كما في تنظيم المعلومات، وفي نسق تقدّم الوصف.

وتتكوّن المتتالية الوصفية من عدد من الجُمْل ليس من الصّوريّ أن يخضع لترتيب معيّن؛ كما يمكن أن يضاف إليها عددٌ لا محدود آخر من الجُمْل، وفي أيّ موضع من مواضع المتتالية؛ لكنّ عدم التّرتيب لا ينفي إمكانيّة وضع خطاطات وصفية تتنوّع وتختلف حسب المواضيع والمجالات والمرجعيات التي تشملها والغايات التي استُعْمِلَ الوصف من أجلها، (Adam،

19 قد يقتصر الأمر على مستوى واحد كما قد يفوقه حسب تركيب المتتالية الوصفية وطريقة التّأليف بين مكوناتها: فقد يكون الموصوف محورًا يتوزّع إلى فروع، وقد يوجد أكثر من موصوف، فإذا التّحوّل في الوصف ليس من نقطة إلى أشعتها، على أساس الأجزاء التي تكوّنها، ولكن من موصوف إلى آخر اختلافًا في المستويات (الأجزاء) كما في الخصائص.

1993: 18) فيكون الوصف حسب التصاعد والانحدار، الرئيسي والثانوي، والتوسع والتكثيف (لكن شرط أن يكون الإطناب فيما هو وظيفي)، والواقع والخيال والرمز.

3.2,2. الوصف والتركيب

ينبغي أن يكون الوصف واضحاً صريحاً يقوم فيه التحليل على التواصل والتتابع بين الشكل والمعنى، لكن أساساً بمراعاة الخصائص والمميزات الشكلية²⁰، وبالنظر إلى توزيع العناصر (Benveniste, I, 1995: 15)، بما أن هناك أنواعاً عديدة من الوصف²¹، كما من الصياغة اللفظية التركيبية في البساطة والتعقيد، ومن علاقة بالمعنى من ناحية، وبالمرجعية - على تنوعها واختلافها - من ناحية أخرى؛ وهذا يعني أن وظيفة الموصوف هنا، هي إبراز المعنى أو المفهوم، وليس الوصف المخصوص. فالعلامة اللغوية - التي هي دعامة الوصف - الدلالة، وعندما تظهر بشكل آخر، إنما نُقْلَص الجانب الوصفي في حد ذاته، باعتباره أسلوباً، لترشح المعنى الذي يُبنى شيئاً فشيئاً من خلال قراءة متأنية للحكاية، والبحث لها عن نظائر تمثيلية من خلال العلامات المُمَيِّزة الثابتة فيها (Adam, 1976: 127)، وهي النتيجة الطبيعية لعلاقة الوصف بالتأويل ضرورة، بما أن المتلقي عندما ينظر إلى الصيغ اللغوية - ومن الأنماط التي تحتويها الوصف - لا يحيل على اللغة في ذاتها بقدر ما يعكس في التأويل نظرته وتصوره للمُنَجَّر اللغوي، بما أن الشكل ليس إلا إمكانية من إمكانيات تجلي البنية في عناصرها وعلاقاتها.

4.2.2. أجناس الوصف وأصوله البلاغية

العناية بالوصف استناداً إلى هذين المعيارين كان من خلال المقارنة بين قديم يغلب عليه المدح والفخر أو هو مقترن بالأغراض الشعرية، وبالأساليب البلاغية، بما أن البلاغة القديمة قد وضعت حدوداً بيّنة للوصف وآلياته لا تتجاوز حدود التوضيح والسرد، (Adam, 1999: 45) وبين حديث يتوزع على أنواع وصفية عديدة.

وأن تتعدّد المصطلحات وتختلف بين الدارسين في النظر إلى ما ينضوي تحت الوصف: جنساً وصنفًا ونوعاً، فهذا يعني وجود صعوبات في محاصرة التشكل اللغوي المعنوي التصوري للوصف، إذ رغم التمييز، تبقى الاختلافات

20 من أجل مقارنة شكلية للبنية الوصفية، انظر: Roulet, 1991: 56 - 59.

21 في اكتساب الوصف بعض خصائصه ارتباطاً بنوع الجملة (الاسمية منها خاصة) انظر: نفس المرجع: 157.

قائمة في اعتبار بعض الأنواع مستقلاً بذاته، أو ألا يكون إلا مكوناً من مكونات نوع آخر.

وأن يكون الوصف - عامةً - جزءاً من جنسٍ أوسع منه، فهذا لا يعني انبثات المقاطع الوصفية، أو توزيعها كما اتفق عبر النص، فمن شروط المتتاليات الوصفية ألا تطول، وأن تتسجم مع سائر المكونات، وأن تدخل في نسيج النص؛ فإذا هي تلمح في سياقاتها، ولا تلمح، إذ تصبح من مادة العمل «كالشرايين في الجلد» (Adam، 1999: 57) «الوصف هو رسم الأجسام متحركة...» وباختصار الغرض من الوصف هو إعطاء وهم بالحياة، هو سبب الوجود، وجهده، وطموحه، هو أن تحيي التفاصيل المادية والملموسة، والحالات، والكائنات، وكل ما هو مادي، والطبيعة في المقام الأول» (Alba-lat، 1900: 225). ويستكمل ألبات وجهة النظر هذه من خلال تحديد المثالي من الفن من حيث البساطة والقوة فيقول: «إن أفضل وصف ليس ذلك الذي يضع الكثير من الأمور، ولكنه الذي يُعطي الشعور الأقوى. فلا يتعلق الأمر بتراكم مزيد من التفاصيل، لكن بجعلها معبرة عن الإشعاع، والطاقة، والتعريف النهائي» (Albalat، 1900: 240)

وإن من الدارسين أيضاً، من يرى في تقنين الوصف حداً من حرية التعبير وتضييقاً لأفق الرؤية والتصور بحيث لا تبلغ الرؤيا مداها²² بل قد يقتضي الموصوف ذاته صيغ وصفه إبرازاً وتدقيقاً، ومنهجاً وتتبعاً (Adam، 1999: 69). ويقول مولينو: «ليس هناك وصف في حد ذاته، ولا هيكل واحد، ولا نظام وصفي واضح المعالم» (Molino، 1992: 381).

ويرى آدم أنه رغم الاختلافات المرجعية والموضوعية الناتجة عن تعقد آليات إنتاج المعنى، المعنى الذي ينسحب بصفة مباشرة على صيغة النص - باعتبار أن البنية ليست منفصلة عن وظيفتها - ، فإن هناك مسارات أو أسساً وصفية مهيكلية حتى يمكن اعتبارها عامةً، مندرجة ضمن نفس «العائلة» من الأنواع الوصفية، وذلك بالنظر في خصائص كل نوع على حدة، وتبين مختلف مكوناته؛ ثم المقارنة بين الأنواع، والمشارك بينها هو الذي يمثل الهيكل الوصفي المشترك. (Adam، 1999: 94)

22 انظر مثلاً حديث آدم (Adam) عن إميل زولا (Zola E.) ضمن نفس المرجع: ص 57 - 59.

5.2.2. وظائف الوصف في الخطاب السردّي

تتعدّد وظائف الوصف، وتتجلّى من خلال مجموع الاختيارات النصّية الوصفية، وقد اختلف الاصطلاح عليها حسب النقاد والدارسين، لكن يمكن إرجاعها إلى:

وظيفة جمالية فنيّة: وهي أعرق الوظائف، وتتجلّى من خلال العرّض والتّقديم جزءاً من «تزيين» أو «زخرفة» ومن شعريّة الخطاب، مع ما يتّصل به من تنظيم يؤمّن تسلسل الأحداث المنطقيّ وضوحاً وإبرازاً مفاصلٍ سردٍ، وإمكانية توقّع أحداث تأجيلاً أو إرجاءً؛ وهي وظيفة يؤدّيها الوصف عندما يُؤخّر انفرجاً مُنْتَظَراً. ومن خلال هذه الوظيفة، تبرز قدرة الشّاعر أو الكاتب الإبداعية (Adam، 1993: 63 - 66) في التّظام والحركة؛ الانسجام والفعاليّة؛ منطق الأفكار وتسلسلها عناية بتحديد مفاصل السردّ؛

الوظيفة التعبيرية: فلا يكفي أن يكون الوصف تحلياً للموصوف بل ينبغي امتزاجه أيضاً، بذات الواصف في أفكاره وأحاسيسه وانطباعاته ممّا يبعث في النّص روحاً وحركة؛ و«الاختيار الأفضل» للنّعت يقتضيه احترام قواعد الصّنف المُهمّين ومسار الموضوع العامّ الذي يُعْتَبَرُ مفتاح الكتابة. وربّما يُفسّر هذا الجانب الحاسم تفضيل بعض البلاغيّين الصّور (المقارنات والاستعارات، التّشابه والنقائض) الكفيلة بإعادة الرّوح والخصوصيّة في الأوصاف التي قد تكون أمثلة، ومن خلالها يكون الحدّ من غرابتها مع تسهيل الاستفادة القارئ منها. (Adam، 1993: 90)

الوظيفة الإخبارية: وهي أساسية ولا يمكن تجنّبها مهما تكن طبيعة النّص. فهي تجسّم، من خلال قدرة الوصف على المحاكاة، السرد والتفسير والحجاج، وتيسّر الفهم وتُكسب الخطاب مصداقية. وتتيح في الآن نفسه، تمييز عناصر الخطاب وتيسّر التّعريف إليها في جانب أدبي لا ينفي المرجع الواقعي؛ فغالباً ما ينهض الوصف بوظيفتي تأطير الأحداث من جهة، وتحديد المكان والزّمان والتّعريف بأهمّ القائمين بها خاصّة في البداية من جهة أخرى (والمقصود بها الفقرة أو الفِقر التي يُفْتَتَحُ بها نصّ سرديّ ويتمّ فيها استخدام الوصف لتقديم العناصر الحكائيّة الثلاثة: المكان والزّمان والشّخصيّة) (العمامي، 2010: 61)؛

وظيفة البناء النصّي أو التّحويل إلى نصّ: وهي تحيل إلى مختلف الأشكال التي يكون الوصف معها طرفاً في تنظيم النّصّ وأتساقه وتناميه الدّلاليّ غير توزيع المعلومات وتعاودها وتحوّلها في متتاليات وصفية تحيل المتلقّي على أن هناك تغييراً على مستوى الموضوع الغالب محور النّصّ؛

وبالتالي، فإنّ هناك عَقْدَ قراءة جديد يُغيّرُ المعطيات وأفق الانتظار؛ على أنّ هذا لا ينفي وجود علامات تواصل تضمن انسجام النّصّ وتماسكه منها: منظور الراوي، الشخصيات، الأطر الحافّة (Adam, 1999: 48 - 49)؛ وتؤكد هذه الوظيفة بدورها، أهميّة الوصف في الاشتغال على النّصّ وفهمه والمساهمة في تحديد هويّته المرجعيّة والأجnasية، وخاصة في علاقة السرد بالوصف، ذلك «أنّه لا يمكن لأيّ نصّ قصصيّ أن يستغني عن حدّ أدنى من الوصف يتعلّق بالشّخصيات، والأشياء، والعالم، وإطار الحدث. إنّ المعطيات الوصفية، سواء أ كانت بسيطة أم مركّبة، لها وظيفة أساسية وهي إضفاء الواقعية على القصة» (Adam, 1999: 46)؛

وظيفة تدبّر الكتابة والقراءة: هي تشارك كلّ وظيفة من الوظائف السابقة وبأشكال مختلفة، في تدبّر القراءة والكتابة. وهذا ما يفسر أنّ المكوّن الوصفيّ طرف في التحكّم في الفهم وفي إثارة الاهتمام بشكليّن: فهو يرسل إلى القارئ إشارات متناقضة نسبياً من جهة، ويؤسّر قراءات كثيرة ممكنة لبعض الكتابات من جهة أخرى من خلال الإحالة على المعرفة علامات في النّصّ، كما في صلتها بمعرفة المتلقّي الموسوعية، بما قد يحقّق التّواصل بين صاحب النّصّ ومتلقّيه؛ وتبرز هذه الوظيفة خاصّة في الرّمزية، ومعها لا تعني الموصوفات ذواتها، وإنّما تتخذ رُموزاً لأشياء أخرى، ويكون الوصف وسيلةً ومنهجاً لبلوغها والإحالة عليها. (Hamon, 1972: 14)

الوظيفة التّنظيميّة التّحويلية: التي تساعد على تمييز مختلف مكوّنات النّصّ البنيويّة، التركيبيّة، النّحويّة الإعرابيّة، سواء أ كان ذلك في مستوى تفكيكيّ، أم في آخر جدوليّ بما يحدّد مفاصل النّصّ المعنويّة أيضاً. هي وظيفة تتجلى في الطرائق المتعدّدة التي يؤدّي الوصف بواسطتها، دوراً أساسياً في التّنامي الدّلاليّ وفي حركة القراءة من أجل طرح المضامين وإعادة تشكيلها والإنباء بها وتحويلها وإظهارها وإخفائها. ويمكن رصد طرائق تجليها وفق محوري الزمن والهوية. ففي المحور الأوّل يجب تمييز الوصف الذي يحيل إلى الماضي من الوصف الذي يستشرف المستقبل أو يبرمجه سلفاً. أمّا المحور الثّاني فتتجمّع فيه مختلف الآليات التي من خلالها يكشف الوصف التّحوّلات الطارئة على الشّيء الموصوف ويبرز هويّته الحقيقيّة أو يخفيها وينظم بواسطة التّنعّع والهويات المزيّقة وسوء الفهم وغيرها ثنائيتي الباطن والظاهر، والمخفيّ والمكشوف؛

وظيفة التّبئير: من خلال تضخيم عنصر ما وإبرازه. وتكون بين العناصر المختلفة - من حيث الخصائص والوظائف - علاقات تتابع أو تضمين بما يدكّر بالنّسيج التّشجيريّ، والذي يحقّق الانسجام والتّماسك بين الأجزاء والكلّ. هو النّحو في تسلسلٍ منطقيّ ربّما كان تفسيريّاً أو رمزيّاً: يؤدّي

الوصف هذه الوظيفة عندما يقع إبراز بُعد بناء المعرفة (سواء أكانت استكشافاً تُفيد منه الذات أم كانت نشرًا للمعرفة يفيد منه الآخرون). وغالبًا ما يتمّ التّصيص على وظيفة التّفسير بعبارة فاتحة أو غائقة، فالوصف يقول شيئًا ما ويحجب عن سؤال. ولهذه الوظيفة غاية هي الفهم أو الإفهام أو تبليغ معرفة أو بناؤها. فالوصف يؤكّد معرفة سابقة ويوضّحها ويدقّقها ويحوّرها ويبني معرفة جديدة.

الوظيفة التّقييميّة: للوصف دومًا وبشكل صريح وقصديّ نسبيًا وظيفة تقييميّة (أو حاجيّة أو قيميّة) وهو يُرى على نحو ما أو بشكل ما فيخلق مواضع للموصوف وللواصف وللصورة التي يكونها الواصف عن متلقّي الوصف. فالوصف يرتّب ويصنّف ولا يكون أبدًا محايدًا. وهو يشفّ دومًا عن وجهة نظر ما²³.

هي وظائف تتفاوت تجليًا وقيمةً من كاتبٍ إلى آخر حسب مراحل تاريخ النصّ السّرديّ وثقافة الكاتب وحضارته وتوجّهاته الفكرية والإبداعية الأدبية. ولا يرى إيف روتر ثباتًا بالنسبة إلى الوصف لا في الخصائص ولا في الوظائف؛ ويفسّر ذلك بما تشهده الكتابة السّردية – من خلال الرواية خاصّة – من تغيير ارتباطًا بالمسار التاريخيّ الزّمنيّ المُقترن بتطور المدارس الأدبية²⁴.

6.2.2. الوصف بين خصوصيّة البناء وبين سيرورة الزّمان؛ أو بين قواعد الإنشاء وتقنيته وبين تجاوزه في جدليّة الأدب والواقع

ليس شرطًا أن يُحيل الوصف «إلى المرجع الواقعيّ» فـ «أنّ تصف، لا يعني بالمرّة أن تصف واقعًا» (Hamon, 1981: 12). والخطاب الوصفيّ يخلّق، بصفته إنتاجًا إبداعيًا تخيليًا، عوالم خاصّة به لا يستمدّها استمدادًا آليًا من الواقع ولا يضطرّه شيء إلى أن يقارنها بذلك الواقع ويقيسها عليه، إنّما هي من جنس المُمكنات المُحتملات التي يشترط في تشكيلها فقط التّعلق والتّجانس والاتّساق على مستوى الخطاب الوصفيّ» (الرياحي، 2007: 213)؛ فالمسألة لم تكن لتتّحصر في علاقة اللفظ بالمعنى في مفاهيم وتجليات مألوفة، بل في ما يمكن أن يتولّد من إشكاليات ناتجة عن صلة كليهما بما ينتج عن السياقات التّحديثيّة وعن المساعي التّجريبية بما فيها «من التّعّد والتشابك والتّعدّد»

23 لمزيد التّوسّع، انظر: Reuter، 2000: 125 – 151؛ العمامي، 2010: 171 – 213.

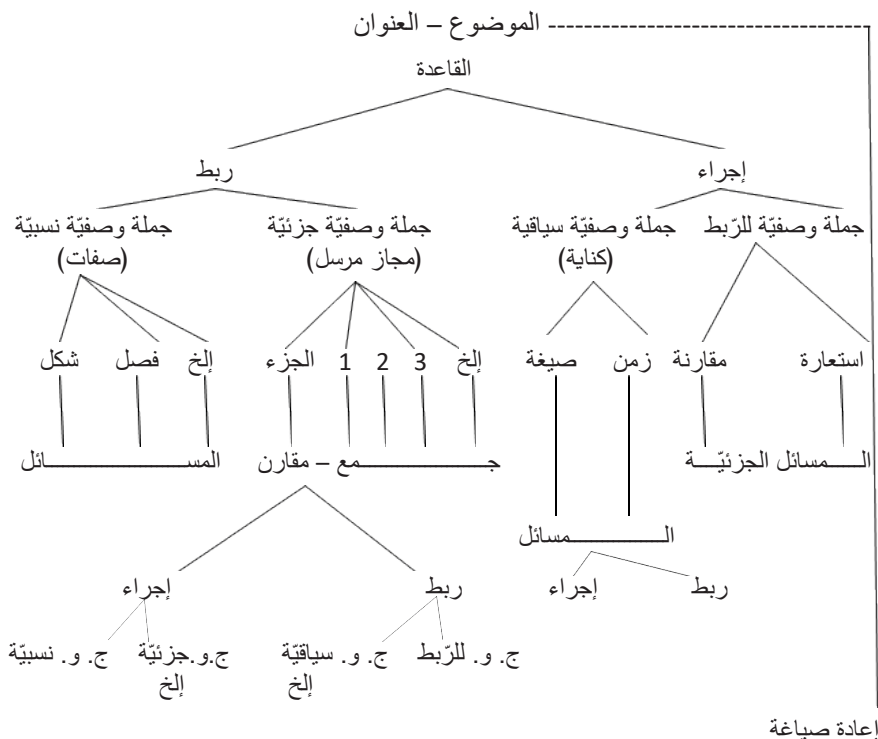
24 لمزيد التّوسّع، انظر: Reuter، 1996: 25 – 29.

المقترن بفكرة التمثيل أساساً»، إذ «لا بُدَّ أن نُشير إلى أن الهاجس اللغوي والأسلوبي الذي نهض عليه الإبداع ارتبط بفكرة التمثيل أساساً. فقد مثل السؤال عن مدى ارتباط الأدب بالواقع ودلالته عليه أو ارتباطه بالبناء اللغوي الداخلي واقتصاره عليه، مشغلاً نظرياً وإبداعياً، فخصوصية النص على مستوى اللغة والأسلوب ترتبط بإطار إبداعي حضاري عام، لذلك واكبته تحولات اجتماعية وثقافية أقرت كلها بحقيقة النقلة وحمية التغيير في النظرة إلى الأشياء وطريقة في التعبير وبنية في التشكيل أن يحول في طبيعته اللغوية ومصادره الثقافية وآلياته التصويرية. (الرياحي، 2007: 187 - 188)

والمسألة لا تتعلق بصراع أو تنافر أو قطيعة بين البلاغي في نشأته الأولى، أو بما طرأ عليه من حوادث وتغييرات هي في الحقيقة لم تلمس المفهوم ولا الجوهر وإنما اقترنت بمضامين تعبيرية هي وليدة سياقات إنشاء النص وأشكال تركيب الكلام بما قد يبدو استثنائياً أو مفاجئاً «ينافي العقل أو يعارض الوعي اللساني لدى القراء الذين يعتقدون أن اللغة تصلح للتواصل» (Riffaterre، 1999: 175) القائم على الوضوح والتجلي، وعلى بُعدٍ نفعي مباشر.

إنَّ التحول - إذا وُجدَ - فإنه لم يشمل مقومات الوصف على مستوى الأبنية الصغرى، وإنما اقترنت بالأبنية الكبرى لغايات نقدية تبدأ من الكاتب لتبلغ المتلقي، ثم بالأبنية العليا الفرعية أولاً، والكلية ثانياً لسببين: أولهما: أنَّ الفرعية قد تتسع وقد تمثل النص بأكمله، فيتصل الكل بالفرعي في البناء والهيكَل أو الطراز؛ وثانيهما: أنَّ حدَّ الكل لا يمكن أن يتم بمعزل عن الفرعي لأنَّ الأجزاء هي التي تُقيمه وتحدّد ماهيته. والمهم في كلِّ هذا أن يكون النص وحدة شكلية ودلالية يتركّس فيه معنى الترابط بين بدايته ونهايته ومعنى الاتساق بين مقولات الخطاب حتى وإنْ تغيّر ترتيبها أو غاب بعضها من نص إلى آخر.

يرى آدام أن ليس للوصف منطق مخصوص ينتظمه في حدّ ذاته، وإنما هو خاضع للجنس الأوسع الذي يرد فيه، فالاستناد إلى الوصف يكون صدفة واعتباطاً (Adam، 1997: 77) ولا تحدّه إلا صفته الهجينة. ويتجلى الوصف في أشكال عديدة يمكن تلخيص مختلف إجراءاتها الممكنة في رسم تخطيطي تنميطي على النحو التالي:



رسم تخطيطي للمتتالية الوصفية (Adam ، 1997 : 84)

2. 3. البنية العليا القائمة على الحوار

1.3.2. الإشكاليات الحاقّة بالحوار

تبدو من حيث التسمية الحوار؛ المحاور؛ النقاش؛ المناقشة... تسميات قد يكون المعيار فيها عدد الأطراف المتدخلة، «ولا يمثل الحوار، طبعاً، وبالمفهوم الضيق للمصطلح، إلا شكلاً من أهم أشكال التفاعل الشفوي، لكن، يمكن فهم كلمة «حوار» في معنى أوسع، أي أنه ليس فقط مبادلة شفوية بصوت مرتفع تنطوي على شخصين - أو أكثر - موجودين وجها لوجه، لكن هو كل مبادلة كلامية، مهما يكن نوعها. وكل تلفظ - حتى وإن كان دالاً تاماً في ذاته - فإنه لا يمثل إلا جزءاً من تيار تواصل شفوي مبتور»، (Bakhtine، 1977: 136) وقد يكون المعيار هو الموضوع محور الاهتمام، أو الجنس الأدبي: بين الخصوصية والاشترك، أو الوحدة والتعدد تداخل أجناس متعددة أو أنواع أو أنماط، كأن يتحول الحوار إلى وصف أو سرد، أو يتضمن جدلاً في صبغة حجاجية تفسيرية؛

وتُطرح الإشكالية أيضًا من حيث المحافظة على ما تتطلبه وحدة الموضوع، كما وحدة الإطارين الزماني والمكاني، بما يضمن تجانس الحوار وتماسكه وانسجامه؛ ونشير هنا إلى «المحادثات المتقطعة أو «العَرَضية» التي تمتد على عدة ساعات، وعدة أيام، وحتى عدة سنوات: [ولا يتعلق الأمر هنا بالخطاب اليومي من جانب نفعي مباشر، وإنما بالخطاب الأدبي وبصيغ إنشائه وطرق تعبيره، وأبرز مظاهره الرواية شكلاً وجنسًا]، إذ «توفر الرواية هنا أطرافاً من المحادثة ليست لها من وظيفة فيما يبدو، إلا تمثيل الحياة اليومية (...) في مدينة جهوية. هم أناس يتقابلون كل يوم ويعلم الله منذ كم من سنة؛ وكل محادثة هي تواصل لمحادثة أقدم منها». وهو ما يسمّى بـ«التجمّعات»، أي الحالات التي يجد فيها عدد كبير من الأشخاص أنفسهم مجتمعين في مكان واحد، وينقسمون إلى مجموعات مصغرة للمحادثة فيما بينهم، ويقومون بنفس العدد من المحادثات «المصغرة» المختلفة؛ (Goffman, 1981: 134) لكن، وكما يلاحظ قوفمان هذه المحادثات المتراكمة هي في الأغلب «متداخلة». والصورة التشاركية تتطور بكثير من المرونة بحيث من المستحسن في هذه الحالة التحلي، حسب قوفمان دائماً، عن عملية التقسيم» (Kerbrat - Orecchioni, 1998: 217).

والإشكال هنا يتعلق بالناحيتين البنيوية - الهيكلية، والوظيفية في صلتها بالوحدات الحوارية (من حيث: الطول والقصر، والمدة، والتوزيع، ونوع الحوار، ووضعية التّحاور: الغاية والظرف والهدف) (Kerbrat - Orecchioni, 1998: 221) على المستويين: السطحي، والعميق؛ وهذا يعني أيضاً أن أمر الوحدة نسبي قياساً بتغير مفهومي «السيناريو» أو «الخُطاطة» اللذين يتبدلان - إجرائياً - حسب نوع الحوار؛ فتقسيم الحوار إلى وحداته أو فروعه، إمّا أن يكون الاستناد فيه إلى المظهر الدلالي، أو إلى المظهر التداولي، ولكن كلا المعيارين يؤدي إلى ضبابية في حدود المتتاليات؛ ذلك أن المظهر الدلالي ليس محدداً بصفة نهائية لا بالقياس إلى عامل الزمن - إذا ما نُظر إلى الحوار آن التلقظ - لأن لا أحد يعرف ما سيفرزه تطوّر النسق وتنامي الموضوع - فالحوار هو رهين الزمن المستقبل دون الماضي، أو الحاضر؛ ولا بالقياس إلى المتحاورين أنفسهم، أو إلى من سيتلقى الحوار في زمن غير زمن التلقظ، لأن لكلٍ منهم تأويله وطريقة فهمه - حتى وإن اتفقوا في المعرفة الموسوعية أو في المرجعية الثقافية؛ ثم إن المظهر التداولي يرتبط بالجانب النفعي العملي، أكثر ممّا يولي اهتماماً إلى التجريد أو البحث في الأسس العامة المؤطرة للحوار صنفاً ومكونات.

وقد تعدد أطراف الحوار الذي يولد تعقداً وتعقيداً على مستوى بنائه: بين الهيكل العام والمقومات المشتركة، وبين ما يولده الحوار المخصوص من

مظاهر لا التزام فيها ضرورةً بنسقٍ موحدٍ، لا على مستوى المواضيع المتناولة، ولا على مستوى تدخلات المتحاورين بترتيب مُنظم أو بانسجام تام؛ كذلك الاختلاط والتعدد يولد إشكالاً على مستوى تقييم الحوار على المستويين الأفقي (أبنية صغرى)، والعمودي (في صلة الأبنية جميعاً ببعضها، أو في علاقة البناء العام باللفظ من ناحية، وبالموضوع من ناحية أخرى)²⁵. وفيما يتعلق بوصف المبادلات الحوارية، يكون الأمر معقداً على أساس وجود مبادلات إطارية، وأخرى مضمنة (والتضمنين يمكن أن يكون على أساس التتابع، أو التقاطع، أو التناوب) مما يعني أن الموضوع الواحد يمكن أن يتناول بأكثر من صيغة، وبأكثر من وجهة نظر، مما يجعل بنية الحوار موزعة بين متتاليات عديدة تتمركز حول الموضوع الأصل. (Kerbrat – Orecchioni، 1998، 265-275)

إن الحديث عن بنية عليا مهيكلية ومنظمة بصفة نهائية بالنسبة إلى الحوار أمر لا يمكن القطع به، بما أن هناك انزياحات عديدة عن القواعد، وهي مقترنة بالعوامل الخارجية عن المنطوق اللفظي دونه ذاته؛ فليس التركيب النحوي الإعرابي وحده كفيلاً بتحقيق التعرف إلى بنية الحوار العليا، وإنما يدخل في ذلك أيضاً المعنى والدلالة والنقد والتقييم؛ فالأمر لا يتعلق بالشئ في حد ذاته، لكن في عمله ووظيفته، ومدى انسجامه والظرف الذي يرد فيه؛ وهذا النشاط هو مُقاسم بين المتحاورين (في صيغتي المثني والجمع)؛ أو ما يمكن أن يُنتجه المتلقي خارج إطار نشأة الحوار، فبنية الحوار هي بنية نامية في المكان والزمان، وفي الاجتماع والمعرفة، و«يتحول النص إلى عالم من العلامات والإشارات يستدعي دوماً التغيير ويقبل أبداً القراءة. هو كَوْن لا يحمل في ذاته دلالة نهائية وجاهزة، بل فضاءً دلاليًا وإمكانًا تأويليًا، أي هو حيز كلامي أو مقاليّ تتعدد معانيه وتتفاضل دلالاته نصًا توالديًا كما تراه كريستيفا.

والنص التوالدي لا يمكنه أن يُسندَ إلى فاعلٍ يلعب فيه دور فاعل المعنى. والمعنى من هذا المنطلق، يتجدد من خلال صيغة الجمع لأنه مُوزع في شبكة غير متناهية للتطبيق الدلالي والتركيب. والفاعل في هذا النوع من النصوص لا يكون بل يتكوّن ضمن صيرورة من خلال الدال والتعدد والاختلاف في السياق والمرجع.

25 في خصائص البنية الحوارية وفق ثنائية الموضوع والمحمول، أو المتحدّث عنه والمتحدّث به وعلاقتهما بالتطور الموضوعي - في أشكاله المختلفة - انظر: Roulet، 1991: 69 - 71.

2.3.2. تجليات الحوار ومظاهر الانسجام فيه

يتجلى الحوار في مستوياتٍ ثلاثة: أولاً، الملفوظ النصّي من خلال التبادلات الحوارية من حيث الجمل التي تُكوّنه وتتنظّمه، لا باعتبارها حدثاً لغوياً، أو منظوقاً لفظياً فحسب، وإنّما في علاقتها بالظروف وسياقات الإنتاج كما التلقّي، وفق جملة من الآليات والمقومات هي: القول، النقل إلى الآخر، الوصف، المرجع وإنتاج المعنى في تردده بين الباث والمتقبّل – مهما تكن صيغة الحوار أو نوعه؛ ثانياً، الأصوات، وهي ليست حكراً على الشخصيات المتحاورّة في النصّ ثنائية خبر وخطاب، وإنّما ينضاف إلى ذلك صوت صاحب النصّ بصيغ مختلفة (الرّأوي، الكاتب، النّاقّد)، وصوت المتلقّي يستدعيه الطّرف السّابق، الذي يكون مساهماً في صياغة الخطاب عبر الدّهن والذاكرة من ناحية، وعبر التّصوّر والافتراض من ناحية أخرى؛ ثالثاً، أنّ «المحادثة هي «نصّ» مُنتج بصفة جماعية، يجب أن ترتبط خيوطها، نوعاً ما، وإلاّ نكلّم بواسطة استعارة ترتبط هي أيضاً بذلك النّمائل المرتبط بالنّسيج، والمحادثة «المنقطّعة»» (Kerbrat – Orecchioni، 1998: 197)، وهذا يعني أنّ الحوار هو جدلٌ بين المُنتج النصّي ونحوه، وبين أصول نظرية الخطاب وتحليله، أو مبادئ الجنس الأدبيّ، وبين نظرية أفعال الكلام أو النظريات التّداولية في الحقل اللّسانيّ.

3.3.2. نظام التّداول على الكلام

وهو يقوم على مبدأ التّناوب والتّسلسل اللفظيّ/ النّحويّ، والدّلاليّ، والتّداوليّ، رغم ما قد يُوجد من خصوصيّة ظروف الإفادة حسب أفق انتظار كلّ طرف في الحوار، وهو ما يجعله بنية كبرى أو شموليّة تجمع بين المشاركتين الصّريحة والصّمنيّة في بناء النصّ؛ وبين بنية الحوار القائمة على متتاليات تتوزّع بين أفعال الكلام من ناحية، وأحداث وقائع في سياقٍ مخصوص من ناحية أخرى.

وإذا كانت قواعد نحو الحوار توطّر بناءه العامّ، وتحدّد خطاطته «النّمودجية»، فإنّ آثاره قد تقطّع هذا النظام، بما أنّ المخاطب لا يلزم نفسه بحرفيّة اللفظ أو بقصد المتكلّم بقدر ما يردّ الفعل استناداً إلى عوامل خارج النصّ، وخارج الدّات أيضاً، مرتبطة أساساً بسياق تلقّيه، ومعه يُصبح الانسجام تنافراً وتأسيساً للخلف في فعل الكلام، تغييراً لأفق انتظار المتكلّم. (Kerbrat – Orecchio، 1998: 195)

4.3.2. مكونات التفاعلات الكلامية²⁶

1. السياق: إذ يحدّد عمليّات إنتاج الملفوظ كما تأويله، في ثنائية اللفظ والمعنى وتلازمهما؛ ويتوزّع السياق بين:

الإطارين الزماني والمكاني، وهما بخصوصيّاتهما، يحدّدان بعض ملامح طبيعة العلاقة بين المتحاورين (في صيغتي المثني أو الجمع)، كذلك في توجيه ما قد يطبع الحوار من انفعالات وانطباعات هي نتيجة مباشرة أو غير مباشرة للأطر الحافّة بأفعال الكلام المقول منها كما المسكوت عنه²⁷

المرجعية (بُعدُها الواقعي كما التخيلي الأدبي خاصة)؛ وباعتبارها تنظّم الفعل وتحدّد التأويل، فهي تمثّل «الوضعية» في نفس الوقت بالنسبة إلى التفاعلات تأطيرا. لكنّ التمييز ليس واضحا كثيرا بين ذينك المفهومين. وهنا مشكل مصطلحي آخر: فامتداد «الوضعية» - التي تتغيّر بصفة محسوسة من مؤلّف إلى آخر - يعني أنّ المدلول هنا هو في تجاذب بين استعمال أضيق (الوضعية كإطار ماديّ تامّا)، وبين استعمال واسع للغاية: وهكذا، تتضمن الوضعية فضلا عن ذلك، المشاركين وحسب الموضوع، والوظيفة، وأسلوب الخطاب، (Kerbrat - Orecchioni، 1998: 78)

المعنى ودوره في تحديد جنس الحوار أو المحاورّة

أطراف الحوار من حيث عددهم، انتماءاتهم، وكلّ ما يتعلّق بكيانهم ومظهرهم وخصوصيّاتهم (الجنس، العمر...)، لأنّ هذه العوامل مجتمعة قد تؤثر في طبيعة الحوار ونوعيته خاصة على مستوى المعرفة الموسوعية المشتركة، وكذلك على مستوى ما قد يقترن به من معانٍ ودلالات، حتّى وإن كانت صيغة الخطاب واحدة ففهمها وتأويلها يتغيّران بتغيّر المخاطب - حتّى وإن كان هو ذاته المتكلّم خطاب ذاتٍ للذات -، (Kerbrat - Orecchioni، 1998: 97)

تغيّر أنماط الحوار حسب المقامات (بين صديقين في مكان عامّ؛ بين أفراد العائلة؛ في ملقّي أو ندوة؛ في حوار إذاعي...) ممّا يفرز خصوصيّات في وظائف المتحاورين، وأدوارهم وهو ما يؤثر أيضًا في نسق الحوار وبوجهه - وإن كانت دائما هناك انزياحات هي وليدة لحظة التبادل ممّا قد يغيّر أفق توجيه

26 كريبا أوركيوني وهي تبحث في مكونات التفاعل الأساسية في الحوار، لم تقف عند التعبير بالقول أو بالأفعال الكلامية، إنّما استندت إلى مختلف ألوان التعبير كالإشارة، والحركة، والنبر، وعلامات الوقف، على أساس أنّها تلمّ بالحوار من جميع جوانبه ومظاهره. لمزيد التوسّع انظر: Kerbrat - Orecchioni، 1، 1998: 134 - 137.

27 أنّ يتعلّق الأمر بحوار، فهذا لا يعني أنّ كلّ ما يقال مقصود، أو أنّ ما يقال هو كلّ المقصود.

المُحاور، أو انتظار المتلقّي، وهو ما يربط الحوار أيضًا، بعامل الزمن في بُعدين: آنّي قد لا يشي ضرورةً بالمستقبل، كما قد لا يكون شرطاً نتيجةً طبيعيّةً للماضي، وماضٍ يؤسّس للحوار لا باعتباره أداة تواصل في بُعدٍ اجتماعيّ تداوليّ، بقدر النّظر إليه منهجاً ونسقاً يوجّه إلى التجريد الأجناسيّ أكثر منه البُعد النّفعيّ الأنّي.

فإذا كان البُعدُ الأوّل يقترن بالإخبار والمعرفة، فإنّ البُعد الثّاني يعكس النّوّجّه النّفديّ التّأسيسيّ للعالم من الخطاب، والخاصّ من النّوع استناداً إلى العلامات اللّغويّة والأجناسيّة، كما إلى الوحدات البنيويّة بين الجزء والكلّ.

2. المحتوى: ويتحدّد من خلال مستوياتٍ ثلاثيّة هي: اللّفظيّ، المعنويّ الدّلاليّ، والتّدالويّ؛ وتأتلف حول مبدأ التّكامل، يتجلّى في الحوار كما في العلاقات بين أطرافه، علاقات قد تعكس الاجتماع حول نشاط مشترك دون الاتفاق في القول أو الرّأي أو الهدف.

ويقوم المحتوى على قواعد عديدة متنوّعة جدّاً تنتظمه، ويمكن اختزالها في ثلاثٍ كبرى هي: قواعد تسمح بالتّصرّف في تداول أوقات أخذ الكلمة أيّ بناء تلك الوحدات الشّكليّة التي هي «الأدوار»، وقواعد تُسيّر التّنظيم الهيكليّ للتّفاعلات اللّفظيّة والتي تسمح بتقسيم تلك الوحدات الوظيفيّة التي تمثّل التّبادلات والتّدخّلات، وقواعد تحدّد وتكيّف بناء العلاقة المُتبادلة بين الأشخاص، أو العلاقة الشّخصيّة في مستوى نمطٍ داخليّ أو بعيد متماثل أو تفاضليّ توافقيّ أو خلافيّ، والتي لها علاقة « بنظام التّخلّق الشّائع في المجتمع المعنويّ ».

(Kerbrat – Orecchioni، 1998، 156 - 157)

3. نظام التّدالو في الكلام: لا يمكن الحديث عن تداولٍ في الكلام، أو عن نظام له، ما لم يتوقّف - على الأقلّ - طرفان في الحوار على أساس التّناوب والتّبادل، كما الحدود والتّواصل في القول؛ إذ يُفترض ألاّ يتدخّل طرفٌ حتّى يُتمّ الآخر كلامه، وعلى أساس ما سبق، يتحدّد اللاحق في ردود أفعال متباينة مختلفة، متجانسة متّقة. وهذا يعني أنّ المتحاورين يخضعون لنظام له قوانينه وشروطه وهي: على المتكلّم أن يلتزم بالوقت المُخصّص له في المداخلة (إذا تعلق الأمر بمُلتقى أو ندوة أو مجلس مثلاً)، لكن له أيضًا أن يتوسّع قليلاً إذا لم يُزعج ذلك الأطراف الأخرى، أو لم يؤثّر على نسق المحاورّة أو النقاش؛ لا يتدخّل الطرف الموالي حتّى يُتمّ الطّرف السّابق كلامه، ويفسح له مجال الإضافة والرّد؛ ينبغي توفّر حدّ أدنى من التّوازن بين المبادلات الحواريّة، أو تدخّلات الأطراف؛ وهذا يعني أنّ الحوار محكوم بعامل الزمن؛ وأخيرًا، يجب ألاّ يستأثّر

طرف دون آخر بالخطاب، لا من حيث الكم ولا من حيث الكيف، بما يعطي انطباعاً بأن نقطة التّمحور أو الارتكاز ليست موضوع الحوار أو النقاش، وإنما أحد الأطراف المتدخلة، إذ يكون هو نقطة التّأثير والتّمحور، بما يغيّر أفق انتظار السّامع، أو يحدث تداخلاً في ذهنه على المستويين: المعرفي والقيمي. (Kerbrat - Orecchioni, 1998: 159-161)

5.3.2. القواعد المتحكّمة في تنظيم المتتالية الحوارية

1/ توفر وحدات حوارية هي التي تمثّل التبادلات (قد تطول، وقد تقصر)؛ ومبدئياً تعكس ثلاثة أنواع من الانسجام: الدّاخلي في إطار المبادلة الواحدة بالنسبة إلى الطّرف الأوّل، أو الثّاني في الحوار؛ أو أيّ طرفٍ من المحاور؛ وبين مختلف التبادلات الحوارية المتتابعة؛ وبين طرفين في المحاور يردّان على طرفٍ واحدٍ، وفي نسقٍ متتاليٍّ/

(17) م.1 - صَبَاحَ الْخَيْرِ!

م.2 - صَبَاحَ الْخَيْرِ!

م.3- أَسْعَدَ اللَّهُ صَبَاحَكَ!

م.1 - مَاذَا عَلَيْنَا أَنْ نَفْعَلَ الْيَوْمَ؟ ...

2/ مهما تعدّد التبادلات وتختلف، فإنّ هناك موضوعاً نواةً يمثّل محورها؛ وكلّ مبادلة تأتي لتقدّم الإضافة في الموضوع كما في نسق الحوار سواء أكان ذلك بالتكامل أم بالتناقض.

3/ الانسجام التركيبيّ في بنية الجمل وبين مكوناتها الجزئية على مستوى البنية الأفقية).

4/ الانسجام بين الجمل بما يُحقّق تناسق مكونات النصّ ككلٍ (على مستوى البنية العمودية).

5/ مبدأ الإضافة في المتتالية الحوارية لا ينفي أنّ هناك عناصر ثابتة متكرّرة في الموضع والموضوع معاً، كمبادلتَي البداية والختام؛ أو أنّ يكون الحوار محكوماً بثنائية السّؤال والجواب، ممّا يعني أنّ الانسجام في المتتالية الحوارية لا يكون دفعةً واحدة، وإنما ينشأ بالتدرّج وبالاسترسال.

6/ الحوار يقوم على متتاليات متعدّدة تتشابه أفقياً وعمودياً، وتمثّل وحدات النصّ وما تنهض عليه المتتالية الحوارية ليس وحداتٍ إخبارية، وإنما أفعال

كلام ذات تصوّر وُبُعد تداولي بالأساس.

(Kerbrat – Orecchioni، 1998: 205 - 198)

6.3.2. في أجناسيّة الحوار

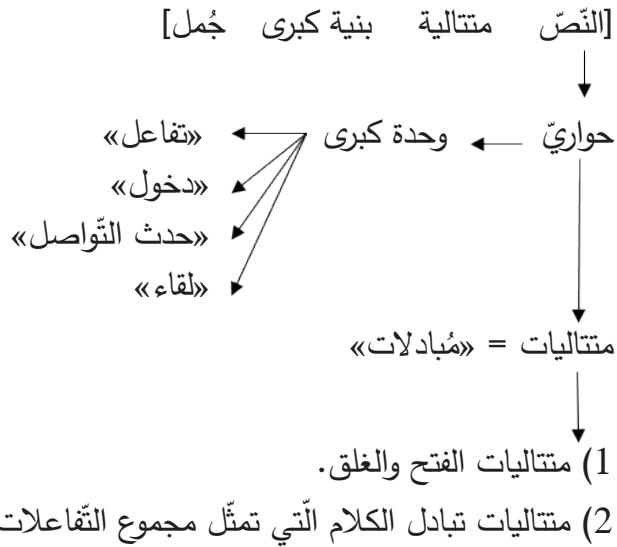
الحوار، شأنه شأن الوصف، هو شكل تخاطب يندرج ضمن أنواع أوسع منه هي السرد والحجاج على وجه الخصوص، ويكون الحوار خطاباً باطنياً، أو بين طرفين أو أكثر؛ وصيغته توجّه وظائفه. إنّه شكل متداخل سواءً أ نُظِرَ إليه في تعدّد أصوات التّحاور (حتّى إذا تعلّق الأمر بخطاب داخليّ تخاطب فيه ومن خلاله الذاتُ الذاتُ)، أم في علاقة الشكل بالشكل وبالنّمط (/ التّفسير - الإخبار - العرّض) أو بالجنس. (Adam، 1997: 146-147) ولا بدّ من توقّف شرط الانسجام بين مختلف التّدخلات والأصوات في نسيج تدرّجيّ تقضي فيه الوحدة الكلاميّة إلى الأخرى، فبالنسبة إلى تحليل الحوار، المتتاليات وأدوار الكلام هي التي تُكوّن وحدة التّحليل، دون الجملة أو الألفاظ المعزولة.

وترى كبراً أوركيني أنّه ورغم وجود خطوط كبرى تميّز الحوار بنيةً علياً عن سائر الأبنية التي تتدرج مثلها ضمن النّمط الخطابيّ، فإنّه ليس من الثّابت القول بطراز حواريّ نهائيّ بما أنّ هناك عوامل وعناصر تجعله متبدّلاً متغيّراً، هي تلك المقترنة بالسّياق ولوازمه، تُضاف إليها الحقول المعجميّة التي تُكوّن مجموع عشرات الوحدات الكلاميّة الموزّعة على أطراف الحوار؛ فيكون كلّ حقل منها عاكساً لصنفٍ معيّن يتّسع لعدد المبادلات الحواريّة التي قد تختلف بدورها حسب خصائصها، وطرائق تحليلها. كذلك المرجعيّات «الداخلية» التي تُكوّن نسيج النّصّ وشبكات علاقاته، والأخرى «الخارجيّة» التي تُكسّبه معانيه ودلالاته - وتطفو منها وفيها المرجعيّة الإطار التي تمثّل نوع الخطاب ولكّنها لا تكون بمعزلٍ عن سائر الأبعاد الحضاريّة التي تمثّل اللّغة محورها، أمّا قطباها فهما المعرفة «العالمية» من ناحية، و«الشّعبيّة» من ناحية أخرى. (Kerbrat – Orecchioni، 1998: 112)

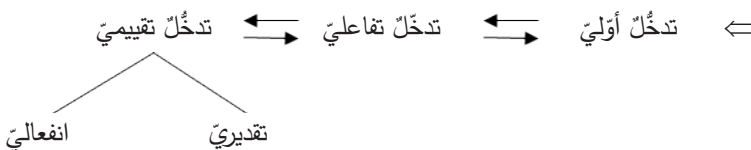
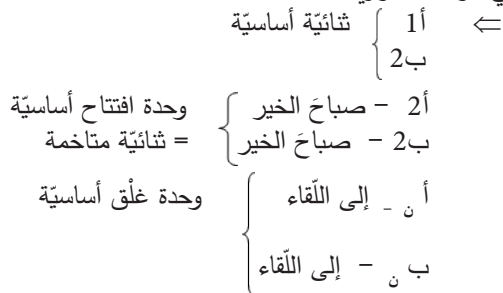
هما قسمان كبيران من المرجعيّات يتباينان، لكنّهما يلتقيان على مستوى المضامين بين المواضيع المُتتأوِّلة من ناحية، وطبيعة البنية العليا من ناحية أخرى صِلَة حوار بالسرد، أو الوصف، أو الحجاج فالتّفسير؛ وبين أنّ يكون الحوار هو البنية العليا الإطار ذاتها، أو أنّ يكون لبنةً من لبنات البناء فيها على مستوى فرعيّ؛ (Kerbrat – Orecchioni، 1998: 128 - 129) فيكون بناءً على ذلك، تعريف كلّ صنف حواريّ من خلال مجموع الخصائص المختلفة المتباينة المنفصلة المتّصلة في أن، وهي خصائص المواضيع،

والأساليب وغيرها، وهي التي تخضع أيضًا لترتيب هَرَمِيّ - إضافةً إلى الأفقيّ - وفق ثنائية الرئيسيّ/ المحوريّ، أو الفرعيّ/ الإشعاعيّ. على أنّ مِنْ أبنية الحوار ما لا يقوم دائمًا على التّوزّع - سواء أكان بالتّباعّد بين العناصر ذاتها، أو بينها والمحور، أو بالتّوازي لكن بين بُعد مدّي أو قصره (حسب نوع المبادلة وطُرُق تعبير طرفها) - وإنّما يكون على أساس التّقاطع خاصّةً إذا تعدّدت أطراف الحوار وتمايزت مواقفها وفق ثنائية الإثبات والنّفي.

ومن نماذج الحوار الرّسم التّالي:



28 (Adam، 1997: 154؛ Kerbrat - Orecchion، 1998: 210 - 214)؛
«المتتالية: هي الوحدة التي تُكوّن النّصّ الحواريّ وتُعرّف بأنّها أكبر وحدة حوارية «و» المبادلة هي الوحدة الحوارية الدّنيا»



رسم يعكس الخطوط الكبرى التي تتوقّر في جانب نظريّ أجناسيّ، لكنّه لا يعني ثباته، وإنّما هو قابلٌ للزيادة والنقصان إذا ما تعلق الأمر بالجانب الإجرائيّ ارتباطاً بالعوامل التي ذكرنا، فمن خلال النظام الخطابيّ الصّرف القائم على ثنائيّة السّؤال والجواب، يكتسب الحوار صبغة التّواصل فيه ومن خلاله، إذ يتجلّى في المُنْتَج النَّصّيّ بما هو أبنية دلاليّة، ومن تصوّر الأنسجة المتفاعلة المنسجمة في إطار هو «مفهوم النَّصّ» (Adam، 1976: 81)؛ معنى ذلك أنّ البنية توفّر المعنى: «ففي نفس الوقت، ينغمس المحور المرجعيّ في كثافة النَّصّ، وتودّي إلى تراكم المتتاليات وإلى أنّ نقرأها مجتمعةً، الواحدة عَبرَ الأخرى» (Duchet، 1969: 196) وهذه السّلاسل تخترق المحور التركيبيّ للمطالعة العاديّة وتفرض قراءة غير متواصلة تتعلّق بنظام آخر من العناصر» (Adam، 1976: 128) إنّ الحوار هو خطابٌ متنازعٌ بين اللّغة، وثنائيّة البتّ والتلقّي، كما النّقد والتّجريد.

4.2. البنية العليا الجدليّة القائمة على الحجاج و/ أو التفسير

يقوم النَّصّ التّفسيريّ على الإجمال كما على التّفصيل، إمّا بالتأليف بينهما أو بالتمييز، وبينهما يتردّد الحجاج قصد التّوضيح والتّحليل والتّعليل فالإقناع - وإنّ بصفة ضمنيّة - والنّصّ التّفسيريّ ثريّ بالقرائن البيانيّة التي تعكس ترتيب الأفكار والمنطق الذي يحكمه، هذه القرائن هي أبنية صغرى (Coirier & Gaonac'h & Passerault، 1996: 89) نذكر منها: رغم أنّ...، إمّا... وإمّا...، ممّا يساعد على التّعرف إلى هيكل النَّصّ العامّ فأجناسيّته، إضافة إلى خصائص أخرى مثل إضافة عناصر لمزيد التفسير أو لجعل أفعال أو أحداث أكثر انسجاماً؛ وتحقيق التّوازن بين عنصرين (وإنّ كان أحدهما يغلب على الآخر من حيث قيمته البنيويّة والاستدلاليّة)؛ والتّخصيص الذي يجعل معلومة جزءاً من معلومة أوسع منها.

وتقارب بنية الخطاب التّفسيريّ والحجاجيّ بنية النَّصّ السّرديّ - وإنّ كان هناك تباينٌ على مستوى المفاهيم والمصطلحات، كما على مستوى التماسك المنطقيّ بين الأبنية في مختلف خصوصيّاتها -؛ وبالنّسبة إلى هذا النوع هناك تباينٌ أيضاً في الخطاب من حيث تجلّيه التّداوليّ، وصيغُهُ التّقنيّة

«وكما تشير كريبّا أوركيني، «فإنّ مصطلح التّقييم ينبغي ألاّ يُؤخّذَ بمعناه المعتاد: إذ يعني ببساطة، مرحلة التّبادل الحواريّ الثالث التي بها يُنهي الطرف أ المبادلة التي كان هو نفسه قد افتتحها، مُغلّناً إلى الطرف ب أنّه قد سجّل تدخّله الذي يعتبره مرصّياً»

(Les Interactions verbales, tome I, 1998 : 236, Paris, A. Colin).

وفي أغلب الأحيان، إذا كان التدخّل الثالث (2) سلبيّاً، فإنّ اكتمال التّفاعل يتّخذ صبغة الاستجواب (على الأقلّ)، وأيّ تبادل إضافيّ يصبح ضروريّاً» (Adam، 1997 : 156).

التنظيرية في مستويين وهما: ثنائية المقول والمسكوت عنه؛ واعتبار بعض مستعملي اللغة جوانب من النزعة التفسيرية الحجاجية أشياء مضافة قد لا تكون لها وظيفة مباشرة وفعلية في فهم النص أو تبليغه في بعده الاجتماعي أو النفسي، صلة متكلم بمخاطب.

ويتجلى الحجاج في ثنائية المقدمة والنتيجة (أو الخلاصة أو الخاتمة) التي تكون إفرازا طبيعيا للمقدمة فكرة أو معلومة تتضمن غالبا محتوى الحجاج أو موضوعه؛ وطبيعة الإشكالية أو الأطروحة الموضوعية: بمن أو بماذا تتعلق، وموقف المتكلم أو انطباعاته. وتكون البنية الحديثة محتوية على وصف أو افتراضات حول الوضعيات أو الأحداث التي يراها المتكلم أو يعتبرها صحيحة ثابتة مقبولة من وجهة نظر المخاطب؛ وإذا تصوّر المتكلم أنّ البنية الحديثة فيها لبس ومجال شك، فإنه يسعى إلى إضافة حجة أو قرينة تدعم أطروحته.

وحتى تكون السيرة الحجاجية مؤدية - على أساس الاستدلال المنطقي - إلى علاقة تلازمية بين المقدمة والنتيجة، لابد من توفر الضمان - وهو ما يحيل على أنّ تحليل الخطاب الحجاجي لا يتم من خلال المصريح به بنية لغوية: نحوية تركيبية، أو دلالية في بعدها النفعي التداولي، لكن أيضا، من خلال الضمني مضمرا عند صاحب الأطروحة، تأويلا وافترضا عند المحجوج وهو ما يعبر عنه فان ديك بـ: «بيان حول أهمية الآثار العامة»؛ والمثال الذي يقدمه فان ديك هو التالي:

(18) هُنَاكَ اجْتِمَاعُ اللَّيْلَةِ (الوضعية).

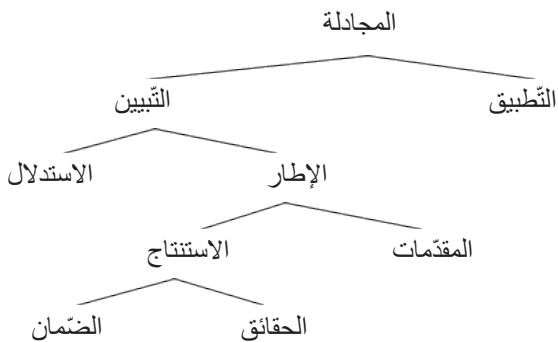
(19) زَيْدٌ مَرِيضٌ (حقيقة).

(20) النَّاسُ الْمَرَضَى لَا يَذْهَبُونَ عَادَةً إِلَى الْجَمْعِ (الضمان).

(21) لَمْ يَكُنِ الْجَمْعُ عَلَى غَايَةٍ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى زَيْدٍ؛ ثُمَّ إِنَّهُ مَرِيضٌ جَدًّا لَا يَقْدِرُ عَلَى الذَّهَابِ (الدعم).

(22) لَنْ يَذْهَبَ زَيْدٌ إِلَى الْجَمْعِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ (استنتاج). (Van Dijk, 1980: 118)

ويختزل فان ديك بنية النص أو الخطاب الحجاجي في الرسم التمثيلي التجريدي الذي يلي:



(118 :1980، Van Dijk) دعم

ويلاحظ فان ديك أنّ ترتيب الخطاب الحجاجي يمكن أن يكون في اتجاه عكسي: نتيجة - مقدمة، عوض مقدمة - نتيجة، وكلتا البنيتين نموذجيتان، فقط التحويل في ذلك على المتلقي الذي يضمن نجاح السيرة الحجاجية. لكن، لابدّ من التمييز بين الحجاج بنية أجناسية توافق البنية العليا، وبين السيرة الحجاجية جملة من الحجج والبراهين تفيد الإقناع بأساليب وتراكيب متنوعة، وبطرق في الاستدلال مختلفة، تتوزع جميعا بين البنيتين: الكبرى والصغرى من ذلك ثنائية الإثبات والنفي؛ والاستقهام والتعجب؛ والأدوات الدالة على الشك واليقين، والممكن والمحتمل؛ والروابط المنطقية والتفسيرية؛ فيكون التمييز بين طبيعة الأبنية على هذه الأسس، فمثلاً: في النص التفسيري: يكثر التكرار، وتتكشف الضمائر من خلال نسبة أفعال إليها، كذلك أسماء الإشارة والأسماء الموصولة؛ وفي النص الحجاجي: يكون التركيز على إبداء الرأي وإثباته ودعمه بحجج تقدم بنسق ونظام معينين بما يخدم الأطروحة مقدمة/ منطلقاً، ونتيجة/ خلاصة؛ و تكون الحجج - باعتبارها مواضيع متنوعة متعددة - هي الأبنية الكبرى التي تضمن انسجام النص أو الخطاب وتلاؤمه. وتكثر أيضاً، القرائن الدالة على الانطباع أو على التقويم بما يعكس الرأي ونقيضه/ «أظنّ أنّ...» - «قد قلتُ...» - «أعتقدُ...». وأنّ تنتمي نصوص عديدة إلى نفس الأجناسية فلا يعني ذلك تناظرها إنّما التشابه الذي لا يفرضي إلى التماهي، إذ تبقى لكل نص خصوصيته لاختلاف المواضيع وتنوعها.

والإقناع يفرض وجود طرفين في عملية التّخاطب: المتكلّم والمخاطب، وبينهما - بصفة صريحة أو ضمنية - جملة آراء ومواقف ووجهات نظر وردود أفعال تعكس العلاقة بين النص والمرجع، ففي النص الحجاجي يكون الإيهام بـ «الحقيقة» قصد الإقناع عبر بنية معروفة تقوم على تتابع (فرض (مقدمة) - نتيجة)، وبين الفرض والنتيجة يكون الحجاج جدلياً يقوم على الافتراض، وقد يكون علمياً أساسه المنطق والاستدلال العقلي، فيكون الخطاب

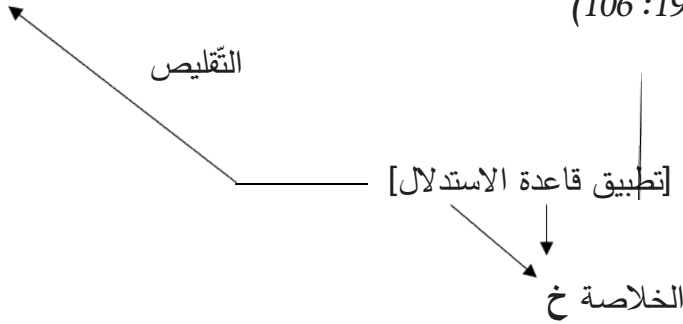
الحجاجي:

- مناقشة ← نتيجة.
- معطى ← نتيجة.
- سبب ← نتيجة.

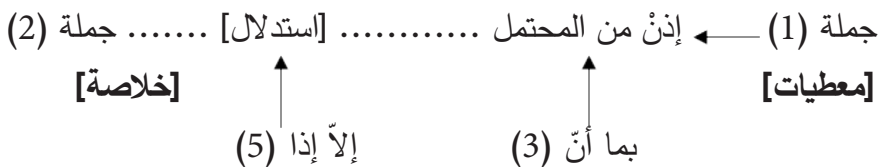
ويمكن اعتبار العلاقة [المعطى ← النتيجة] جزءاً أساسياً، وذلك في حالة تتقطع سلسلة أو يقع الشعور بأثر الخاتمة (Adam، 1997: 104)، وتكون العلاقة بين المقدمة/ المعطى والنتيجة/ الخلاصة لغوية، قرينة لفظية غالباً، من قبيل: **إِذَنْ - لَكِنْ - وَالْحَالُ أَنَّ - إِلَّا إِذَا مَا - إِذْ - وَلَوْ أَنَّ - وَنَتِيجَةُ ذَلِكَ - مَعَ ذَلِكَ.**

وقد يصرّح بالنتيجة، كما قد يُسكّث عنها، لكن تستحضر من خلال طرح سؤال: **«لِمَاذَا؟» - «كَيْفَ؟» - «مَاذَا؟»**، ممّا يدفع إلى تصوّر التبرير أو التعليل منها استدلاليًا يقوم على جملة من السندات والدعائم، قد تؤدي إلى الإثبات كما قد تؤدي إلى الاستثناء أو الرّفص، فتكون خطاطة الخطاب كالتالي:

جملة ج [معطى] ----- لكن ----- الجملة المضادة لـ خ [تطبيق] (Adam، 1997: 106)



أمّا خطاطة الخطاب الحجاجي، بصفة عامّة فهي كما يلي :



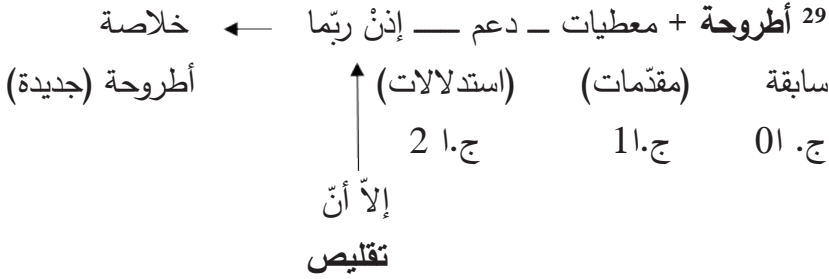
[تقليص]

[ضمان]

على اعتبار أنّ (4)

[دعم] (Adam ، 1997: 108)

وأما خطاطة المتتالية الجدلية فيمثلها آدم في الرسم التالي:



(Adam ، 1997: 118) ج. 41

على أنّ هذه البنية من المرونة بما يجعلها تتّسع إلى عدد لامحدود من ثنائيات المقدّمة ← النتيجة، بما أنّ كلّ نتيجة يمكن أن تتحوّل - بدورها - إلى مقدّمة على النحو التالي:

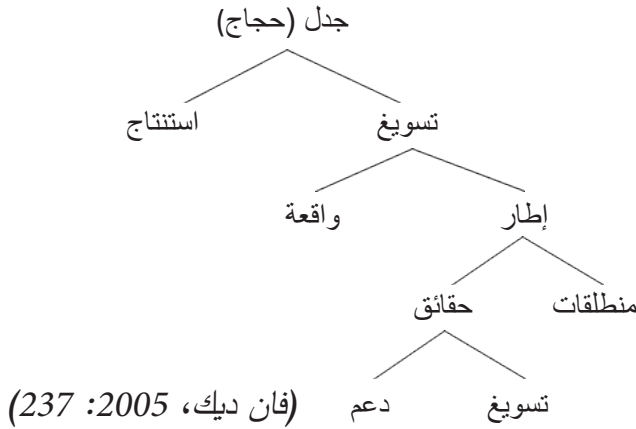
(([أ] و [ب] لكن [ج] ... غير ج) ← ... إذن [د])
(معطيات ... ← خلاصة)

(Adam ، 1997: 109) ((معطيات ... ← خلاصة))

وتمثّل المقدّمة بنية كبرى أولى، وتكون النتيجة بنية كبرى ثانية، والعلاقة بينهما تركيبية دلالية موضوعية في آن. أمّا ما بينهما فضمانات انسجام مكونات خطاب فيما بينها من ناحية، وضمانات إقناع متلقّ من ناحية أخرى، وهذه الضمانات هي أبنية صغرى تأتي منتظمة في سلاسل هي المسارات الاستدلالية. وهي أقسام تقوم على التتابع والترابط، والتماسك والاحتمال، بما يُساعد على النّظر إلى النصّ السردّي نظرة كلّية لا تقبل التجزئة ولا الاقتطاع، وحتى إن اضطرّ الدّارس إلى ذلك لغاية منهجية فإنّه يدرس الجزء وهو

29 نرّمز بـ (ج) إلى الجملة؛ وبـ (ا) إلى المناقشة؛ وبالأرقام إلى مستوى المرحلة من البنية الجدلية.

يستحضر دائما في الذهن والذاكرة الكل ولا يمكنه التوسع في دراسة الجزء حتى يستوعب الكل بناءً وتراكيب، ومعاني ودلالات. ويقدم فان ديك مقولات البنية الحجاجية في المخطط المتدرج التالي:



وقد تتفرع المقولة الواحدة إلى أنواع وأنماط مختلفة كأن تكون المقدمة مقدمتين: كبرى وصغرى؛ أو أن يكون الحجاج بطرق كاللّٰتضمين (بأن تكون حجة قيد حجة أخرى)، أو إمكانية تحليل الواقعة أو الحجة الواحدة بطريقتين: بالتوسع فيها، إذ يمكن أن تُفسّر بأكثر من احتمال؛ أو أن تكون قيد واقعة أو حجة أخرى على أساس «العلاقة الدلالية الشرطية». (فان دايك، 2005: 234) وقد يكون «التسويغ» شكلا من أشكال «الدعم» بما أنه هو ذاته إقامة دليل للتوضيح أو للابتعاد أكثر عن الاحتمال في اتجاه الإثبات وترسيخ صلة المقدمة بالنتيجة. ويكون الإطار عاملا مساعدا على تفويض أحد طرفي ثنائية القوة والضعف في الدليل أو الحجة ضمانا للعلاقة المنطقية بين المقدمة والنتيجة التي قد تكون بسيطة أو معقدة، «صحيحة» أو قائمة على مغالطة و«تضليل»، أو نصية مباشرة أو مضمّنة يمكن استنتاجها من المنطوق الكلامي (وفي هذه الحال، يستند متلقي الخطاب إلى جملة من المعارف المتعلقة - بصفة خاصة أو عامة - بمجال النصّ كي يميّز بين الآراء والاتجاهات، ويحدّد النتيجة التي يراها مناسبة للغة الخطاب وموضوعه ومنهجه الاستدلالي).

ولا ينفصل التفسير عن هذه الأنواع والأنماط مجالات ووظائف عديدة تختلف باختلاف نوع الخطاب وصيغته؛ ويندرج في نفس الإطار الحديث عن الإخبار والعرض - وإنّ بتفاوت في المفاهيم - باعتبار العرض هو الخطة التي تنظم الخطاب النظري بواسطة قاعدة محكمة وهي:

التخطيط [مقدمة + طريقة + نتائج + مناقشة]

ويقترن التفسير بالتبرير، وبالتعليل تيسير قراءة وتنظيم معرفة، وبالجنس أو النوع الذي يرد فيه، وبالسّياق في صلة التفسير بسائر الخطابات - مقارنة بالخطاب الذي يرد فيه - من ناحية، وبالوضعيات التي تُقرّزه ويكون له أثر فيها من ناحية أخرى؛ فمن وجهة نظر تداوليّة ووصفيّة سيميولوجيّة، التفسير هو فعل كلام يفترض ويحقّق في الآن ذاته تواصلًا لخصّ غرايس ظروفه وحالاته التداوليّة في النقاط التالية:

(1) الظاهرة التي نفسرها هي حقيقة: ظاهرة لا يمكن إنكارها. ولا أحد يبحث، في واقع الأمر، عن تفسير أمر غير ثابت [...];

(2) القضية محور الاهتمام غير مكتملة، وهنا أيضا تطرح طبيعة الحالة، وكلّ الذين لديهم ولو القليل من ممارسة التعليم، يعلمون جيّدًا الجهود المبذولة، في كثير من الأحيان، ليُقنعوا الجمهور السّامع بأنّ الإشكاليّة أو المسألة المطروحة واقعيّة فعلا؛

(3) الذي يشرح هو في حالة القيام بذلك وهذا يعني أنّ المخاطب يجب أن يعترف له بالكفاءات المعرفيّة الضّروريّة، ويجب عليه زيادة علي ذلك أن يكون غير منحاز ومتجرّدًا. وفعلا، يمكن أن يُفيد شرح ما المتكلم ويستطيع استعمال ذلك ليضاعف وينمي خاصّة ما يسمّيه بورديو بـ: «زاده في النّفوذ»، لكن يجب عليه أن يكون موضوعيًا فيما يفسّره.³⁰

الهيكل العامّ للمتتالية التفسيريّة:

0 البنية الكبرى التفسيريّة 0: الرّسم الأوّل

1 لماذا س؟ البنية الكبرى التفسيريّة 1: المشكل

(أو كيف؟)

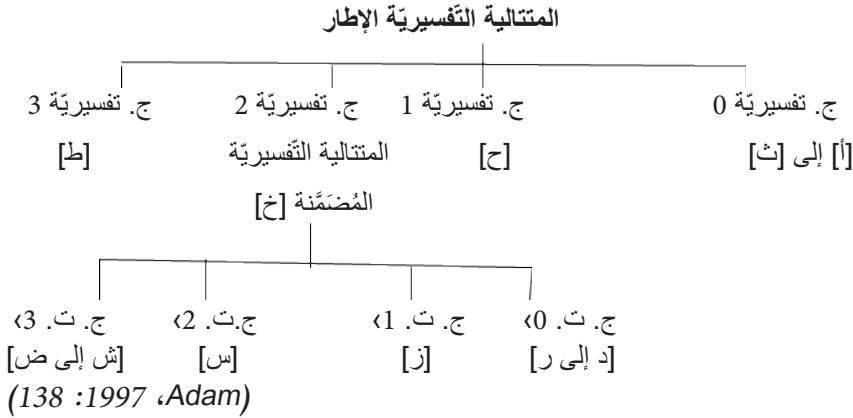
سؤال

2 لأنّ البنية الكبرى التفسيريّة 2: تفسير

(جواب)

3 البنية الكبرى التفسيريّة 3: خلاصة - تقويم.

30 Adam, 1997 : 131. (GRIZE J. – B. : « Logique naturelle et explication », Revue européenne des sciences sociales, 1981 : 9 – 10, n° 56, Tome XIX, Genève, Droz.)



خلاصة

نريد أن نبين أن ما تناولنا بالبيان والتحليل هو الأبنية العليا الفرعية قياساً بالأصلية التي جعلناها مرادفة للنوع الأدبي أو الجنس السردي عامة، لأن هذه الأبنية العليا الفرعية يمكن أن يُستند إلى بعضها أو إلى كلها في نص واحد فتمثل متتالية أو متتاليات في إطاره، وهذا لا ينفي خصوصياتها، وإنما يعكس مدى مرونتها في انفتاح بعضها على البعض الآخر. والواقع أن النقاش والجدل لا يقفان عند حدود العلاقات بين هذه الأبنية، بما أن المسألة تُطرح من وجه آخر وهو: هل يمكن القول بحدود أجناسية نهائية؟ وهل يمكن القطع بالتجانس التام بين الجانب النظري في البنية العليا وبين الجانب التطبيقي لها؟ أم هي مجرد رهانات حول علاقة البناء بالمعنى؟

الإجابة عن هذه الإشكالية تكون من وجوه ارتباطا بطبيعة المنطق في التفسير والتعليل:

1/ أيهما أسبق الطراز أم النص؟ ثم إن النص نصوص تأتلف وتختلف أيضاً؛ إضافة إلى أن لكل نص مساره الذي يصوغ الأشياء ومعها تنشأ قيمة الأبنية في الأنسجة كما في الجنس بمعيار الكاتب، وليست باعتبارها تمثيلاً قطعياً أو قسرياً لقواعد بنية المعنى.

2/ اللسانيات لا يمكن أن تكون بمعزل عن الدلالة، لكن إذا كانت أولاهما عاملاً مساعداً على تأسيس الجنس وتبيين خصوصيات البنية العليا في هيكلها الجامع، استناداً إلى سمتي الموضوعية والعلمية في اللسانيات، فقد لا تُسَعِف الدلالة بذلك لأنها أقرب إلى الذاتية سواء أ تعلق الأمر بالكاتب أم بالقارئ،

فكلاهما يصوغ النصّ أو يُعيد إنتاجه استنادًا إلى فرضياتٍ/ مقدمات، أو إلى تأويلاتٍ/ مظاهر، فلا تكون معها خصائصُ الجنس إلا جزءًا من نسيج النصّ، أما استقلاليتها وهيكلتها فتكونان من خلال قراءة نقدية وصفية للأنظمة في علاقتها بالمعنى. (Hénault، 1979: 9 - 10)

3/ تلقي النصوص بالخطاب/ البنية العليا في المنهج وفي النماذج التي تتركب وتتراتب وفقها المكونات، لكن قد تتجاوزها في الجانبين الدلالي والمعرفي انتشارًا وتوسعًا بين الكاتب مفردًا وبين القارئ مفردًا أو متعدّدًا؛ ومن الأشياء المطروحة في هذا المستوى:

هل للنص رسالة؟ وإن كان الأمر كذلك، ما هي؟

هل يُشترط أن يبحث القارئ أو المتلقي، من خلال النصّ، عن رؤية الكاتب للعالم؟

كيف يمكن للأنظمة الصغرى أن تساعد على التعرّف إلى كيفية نسج النصّ وصياغته، أو كيف «يعمل» هذا النصّ أو ذاك؟

4/ إن الخروج من حدود النصّ إلى أطر الخطاب يستوجب وجود مبدأ التجريد من نماذج إجرائية عديدة فيها خصائص مشتركة متجانسة لنقرأ قراءة شمولية شتخلص - عبرها - تمثلات للمكونات في وظائفها ومسارها ومنهجها، ومنها رسوم المنهج «الثابت الكوني» يُنطلق فيها من البنية السطحية الشكلية منذ الأبنية الصغرى، للانتهاء إلى البنية العميقة معاني ومدلولات ومواضيع. (Hénault، 1979: 39)

5/ إن أيّ جنس أدبي - أو غير أدبي - يكتسب خصائصه من السياق الاجتماعي الذي ينشأ فيه عملية تخاطب تتغير بتغير الطرف المكاني والزمني، كذلك طبيعة ثقافة كل من المتكلم والمخاطب فقد «يتم تقسيم الكلام إلى أنواع مختلفة توافق العديد من الممارسات الاجتماعية المختلفة داخل الحقل نفسه. ثم إن النوع هو ما يربط النصّ إلى الخطاب. وفي تصنيف الأنواع، تنبغي مراعاة أثر الممارسات الاجتماعية في لغة الترميز». (Ras-tier، 1989: 40) والعلاقة التلازمية بين هذه العناصر مجتمعة تؤدي إلى اعتبار أيّ جنس خاضعًا إلى التحول في أنساقه اللغوية، كما في معانيه ودلالاته، أي في مختلف أبنيته: الصغرى، والكبرى، فالعليا.

6/ إذا كان الجنس هو الإطار الأوسع الذي يسع النصّ الواحد، بل يجعله منفتحًا على النصوص الأخرى التي تقاربه في الجنس أو النوع، فهذا يعني أن هناك قواعد وأسسًا ترجع التشبّه إلى وحدة هيكلية تفوق التشابه التركيبي أو المعنوي الدلالي، وهو ما يُبرر إمكانية الخروج من الإجرائي إلى التجريدي،

ومن اللَّفْظِيّ إلى التَّمثِيلِيّ قالباً أو منوالاً عاماً، يقوم على الخصائص الشَّكْلِيَّةِ الخاصَّةِ جدًّا بالنَّسبةِ إلى كلِّ جنس أو نوع. وقد أكَّد كواربي هذا التَّوجُّهَ عندما ذكر أنَّه من العسير الفوز بنصٍّ ذي بنية عليا واحدة، ويعلِّل ذلك بأنَّ أغلب النُّصوص - إن لم تكن كلها - تقوم على مزيج أجناسيٍّ. فالأجناسيَّة، من هذا المنظور، لا يمكن حصرها في النَّصِّ بل قد تتوفَّر في فقرة أو حتَّى في جملة (Coirier & Gaonac'h & Passerault، 1996: 43)؛ والقارئ نفسه قد يغلب تجلِّياً أجناسيًّا على حساب تجلٍّ آخر - وإن وُجد كلاهما في النَّصِّ ذاته - والأمر يشمل البنية كما الدَّلالة³¹. ويقدم كواربي أنموذج آدام الذي يقوم على أنَّ كلَّ وحدة هي في الآن ذاته تتدرج ضمن وحدات أوسع منها، وهي متضمَّنة لوحدات أصغر منها³²، ويمكن اختزال هذا الأنموذج في البنية التَّالِيَةِ المشتركة بين مختلف النُّصوص:

[نصّ] فصل أو فصول [قضايا كبرى] [قضايا صغرى] []

وهذا التَّمثِيلُ الأَفْقِيّ لا ينفِي التَّرتيبَ العموديَّ التَّدرّجيَّ للأبنية والقضايا.

ويتعرَّضُ آدام إلى تحليل باختين للأصناف الأساسيّة والتَّدَاخُلِ النَّصِّيِّ، فإذا عوامل متعدِّدة تساهم وتتحكَّم بدورها في ضبط النَّصِّ الأنموذج وفي أشكال الخطاب عموماً، ومن هذه العوامل عمليَّة التَّواصل الاجتماعيّ الإيديولوجيِّ، يقول: «الصَّيغُ اللَّغويَّةُ والصَّيغُ النَّمُوذجيَّةُ للملفوظات، أي أنواع الخطاب تدخُلُ ضمن تجربتنا وفي ضميرنا معاً، دون أن تنفصمَ علاقتها المتينة. والتَّدْرِبُ على الكلام هو التَّدْرِبُ على هيكلَةِ الملفوظات (لأننا نتكلَّم بواسطة الملفوظات لا بجُمْلٍ منفردة، وأقلَّ من ذلك بواسطة مفردات معزولة)، وأجناس الخطاب تُنظَّمُ كلامنا بنفس الطريقة التي تُنظَّمُ بها الصَّيغُ النَّحويَّةُ». (Adam، 1997: 11)

إنَّ ما تشهده هذه الأبنية من تشعُّبٍ وتعدُّدٍ وتداخلٍ قد ولَّدَ إشكالاً بالنَّسبةِ إلى الباحثين والدَّارسين لا من حيث التَّعرُّفِ إلى أجناسيَّة النَّصِّ فحسب، وإنَّما من حيث أصنافيَّته أيضاً صِلَةً مفردٍ بجمع في إطار لسانيات النَّصِّ أو تحليل الخطاب على أساس أسلوبيّ بنيويٍّ. ونتيجةً لذلك، فإنَّ وُضْعَ أنموذج نهائيٍّ - بالنَّسبةِ إلى أيِّ جنسٍ أدبيٍّ - يصبح أمراً عسيراً، إلَّا في

31 يربط كواربي ذلك مثلاً بالتفاوت العمريِّ بين القراء، فما ينتبه إليه قارئ شاب مثلاً لا ينتبه إليه صبيٌّ أو طفل لتفاوت درجات الإدراك والفهم، واختلاف الذاكرة المعرفية بينهم، ومن نماذج النُّصوص التي قد تُحدِّثُ هذا اللبس الخطاب النَّقديُّ القائم على السَّخرية مثل الحكاية المثلية والنَّادرة. (لمزيد التَّوسُّع انظر: Coirier & Gaonac'h & Passerault، 1996: 47 - 48).

32 ما هذه الوحدات إلَّا الأبنية الصَّغرى في صلتها بالوحدات الكبرى، تغيَّر وظائف على مستوى التَّمثِيلِ التَّدرّجيِّ.

إطار صلة الجنس بالجنس، أو النوع بالنوع (Adam، 1997: 6) أو في إطار جدلية بين النصّ المُنجز والنصّ الأنموذج - نظريًا وافتراسيًا-

إنّ الجانب التجريدي يساهم في بلورة النظرية أو في تأسيسها، أو في دعمها وإثرائها بمقارباتٍ تقوم على المقارنة أو على الخصائص التقنية، والكلّ يمثل جزءًا من التحليل والتعليل، فالاستدلال والاستنباط، بتبيين مواضع العنصر الواحد وتبيينها، إذ يتكرّر فيتحقق التناظر بين أجزاء النصّ أو بين أشكال الخطاب وتجلياته، هذا من ناحية؛ ثمّ بتمييز العناصر المخالفة للعنصر الأول، أو المتخالفة عمومًا والبحث في خصائصها ووظائفها في البناء كما في الدلالة من ناحية أخرى، بما قد يحدّ من ذاتية صاحب النصّ ويُدْرَج النصّ ضمن معايير الجنس الموضوعية.

على أنّ تحليل النصّ باعتباره «تجربة إجرائية» لا يعني ضرورة الاتفاق التام والنظرية، لأنّها تبقى تصوّراتٍ سابقة ليست مقبولة شرطًا، وإنّما هي ممكنة القبول ارتباطًا بالتغيّرات الجذرية التي قد تحدّث في مقارنة النصوص ما يعني أنّ نظرية تحليل الخطاب في علاقتها بالنصوص قراءة وإجراء لا يمكن أن تكون بصفة قطعية أو نهائية، بقدر ما يُنتظر ما ستقرّزه هذه العلاقة من تساؤلات وإشكاليات.

الفصل السادس

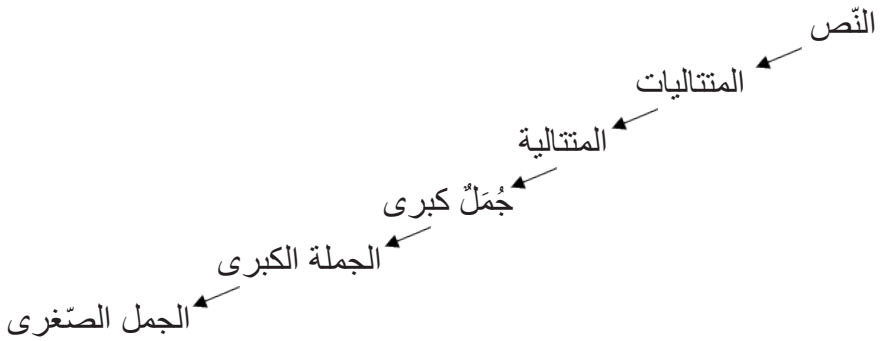
تجلیات الاشتراك والانسجام بين
مختلف الأبنية

«إِذَا عَرَفْنَا الْبُنْيَةَ كَشَبَكَةَ عِلَاقَاتِ هَرَمِيَّةٍ فِي الْمَظْهَرِ فَإِنَّهَا تُصْبِحُ الْمَكَانَ الْوَحِيدَ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَنْصَبَ فِيهِ التَّفْكِيرُ حَوْلَ بَرُوزِ الْمَعْنَى، لَكِنْ أَيْضًا وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ، الْجِهَازَ الَّذِي يُمَكِّنُ مِنَ التَّعَرُّفِ إِلَى الْأَشْيَاءِ الدَّلَالِيَّةِ، فَالْبُنْيَةُ لَيْسَتْ فَقْطَ تَصَوِّرًا مَعْرِفِيًّا يَضَعُ فِي الْحِسَابِ إِمْكَانِيَّةَ مَعْرِفَةِ الْعَالَمِ الدَّالِّ وَلَكِنَّهُ تَصَوِّرُ إِجْرَائِيًّا يَفْتَرِضُ أَنْ تَصْدُرَ شَبَكَةُ تَرَابُطِيَّةٍ عَنْ كُلِّ مَقْيَاسٍ دَلَالِيٍّ يَضُمُّهَا»

(Greimas A. J., Structures élémentaires de la
Signification : 19)¹

إضافة إلى بنية النَّصِّ النُّحْوِيَّةِ المتوقِّرة في كلِّ نصٍّ، توجد بنية خطابيَّة هي الَّتِي تَمَيِّزُ نَصًّا عَنْ آخَرٍ، هَذِهِ الْبُنْيَةُ يَنْبَغِي أَنْ تَوَافِقَ جَمِيعَ النَّصُّوَصِ الْمَنْدَرَجَةِ ضَمْنَ نَفْسِ الْبُنْيَةِ الْعَلْيَا، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ بِجَمِيعِ مَقَوِّمَاتِهَا قَبْلاً غَلَبَهَا هَذَا مَا يَبْرُرُ التَّفْرِيقَ بَيْنَ الْمُتَتَالِيَّاتِ أَوْ النَّصُّوَصِ بَيْنَ السَّرْدِيَّةِ وَالزَّجْرِيَّةِ - التَّمَرْدِيَّةِ؛ وَالْوَصْفِيَّةِ؛ وَالْحَاجَاةِ؛ وَالتَّفْسِيرِيَّةِ - الْعَرْضِيَّةِ؛ وَالْحَوَارِيَّةِ - الْإِصْطِلَاحِيَّةِ؛ وَالشَّعْرِيَّةِ - ذَاتِيَّةِ الْخُطَابِ².

كَذَلِكَ التَّمْيِيزُ فِي إِطَارِ النَّصِّ الْوَاحِدِ بَيْنَ مُخْتَلَفِ مَكُونَاتِهِ عَلَى النُّحُو
التَّالِي :



1 انظر أيضًا: Hénault: 1979: 30

2 ويضيف منغنو أنَّ تَمْيِيزَ نَصٍّ عَنْ نَصٍّ أَوْ إِدْرَاجَهُمَا ضَمْنَ نَفْسِ الْإِطَارِ يَتَجَاوَزُ حُدُودَ النَّظَرِ إِلَى نَوْعِ الْخُطَابِ (سِيَاسِيٍّ - إِشْهَارِيٍّ...)، أَوْ إِلَى نَمَطِ الْمَقْطَعِ (رَوَائِيٍّ - جَدَلِيٍّ...) (أَوْ إِلَى جَنْسِهِ) (لَافَتَةٌ - كِتَابٌ...) انظر في ذلك: Maingneneau، 1991: 208 + 210 + 214.

ولئن كانت الأبنية الصغرى تتألف في إطار نسيج النص، فإنّ فان ديك يدعو إلى ضرورة التمييز بين أنساق الانتظام «بين الجملة المركبة وانتظام توالي الجمل وتسلسلها» (فان ديك، 2000: 19). ومن العوامل المساعدة على هذا التمييز أن يُنظر إلى الأبنية الصغرى في معاني القضايا التي تكونها كما في تركيبها، وأن ترتكز الأبنية الكبرى على البُعدين الدلالي والتداولي. وفي إطار التفاعل بين البنيتين الصغرى والعليا، يساعد الحذف على الاختزال وتكثيف الدلالة دون القطع بين الأبنية الصغرى أو تغييب صلتها بالبنية العليا. يشير موشلير، مستندا في ذلك إلى كل من ونريش وبنفينيست، إلى أن للقارئ الزمانيّة وللضمائر وظيفتين: أولاها، تحقق انسجام الخطاب وتلاوم مكوناته ووحدة موضوعه وانتظام بنيته، يقول موشلير: «وفِعْلاً، فإنّ الضمائر الدالة (أنا - أنت) تنتمي إلى ميدان الخطاب والضمائر المعوّضة (ضمائر الغائب) تنتمي إلى ميدان التاريخ» (Moeschler، 1994: 448).

والضمائر لا تحقق الانسجام التام في الخطاب بصفة دائمة مستمرة لأمرين، فقد تكون الأسماء التي تسبقها - في سياق الكلام - متعدّدة فيقع اللبس من حيث الإحالة على أيّ منها؛ كذلك مدى قدرة المتكلم على تبليغ الخطاب بدقّة ووضوح إلى المخاطب، بما لا يجعل أو لا يفسح مجالا للشك أو الزبّة أو الاختلاف في الفهم. وبهذا، فإنّ عملية التّخاطب تصبح رهينة عوامل متعدّدة لا تقتصر على الأبنية الصغرى قرائن إحالية تضمن تماسك التراكيب والجمل وإنّما تدخل عوامل أخرى عديدة في الاعتبار هي: موضوع الخطاب أو بنيته الكبرى؛ والسّياق (الظروف التي أنشئ فيها الخطاب) والمقام (الدافع لإنشاء الخطاب) والمرجع (سجلات القول ومرجعياته بين اللغة والمعرفة).

على أن موشلير يحدّ من هذا الإشكال وينظر إلى بنية الخطاب على أنّها بنية تتابع وتداع، وبالنسبة إليه أيضاً، لا يقتصر الأمر على التحوّل في الوظائف، وإنّما يضمن تماسك بناء الخطاب في مستواه الدلالي إذ يقول: «إنّ ظهور عدّة عبارات متتابعة تبدأ بلفظة واحدة في سياق ما يوحي بأنّ إحداها تُحيل على شيء، فإذا سائر الألفاظ تُحيل على نفس الشيء» (Moeschler، 1994: 461)؛ ويتحقق هذا التماسك - وإنّ نظرياً أو تطبيقياً - بتغيير الإحالات وتعويضها بأصولها فيتضح أنّ هذه الإحالات، وإنّ تعدّدت وتغيّرت وتتوّعت دوالاً فإنّها تؤول إلى مدلول واحد هو محور الخطاب.

وثانية وظيفتي القرائن الزمانيّة وللضمائر أنّ تضمن التمييز بين أبنية الخطاب العليا، رغم أنّ التفاعل بينها هو جزء من أجناسيّة النصّ فالخطاب - مع بعض الفروق الوظيفيّة بين الأبنية -، فالترابط بين الأبنية لا يكون فقط ترابطاً خطياً بينها بل وعمودياً في إطار شبكة من العلاقات يضمن تجانسها البناء كما الدلالة، وإذا انتفى أحد المكوّنين بطل الحديث أيضاً عن نصّ واحد.

ويكون الدّخول في دائرة مفهوميّة متعدّدة تخرج عن إطار التّفاعل بين الأبنية إلى مجال حصر المفاهيم وبيانها بين جملة، وقول، وكلام وامتتاليات وكلّ ما يمكن أن يُمثّل خطاباً شفويّاً أو مكتوباً.

إنّ العلاقات في مستوييها السّطحيّ والعميق هي التي تضمن تماسك النصّ وحدةً وتجانسه جملةً وحدات تؤدّي المقارنة بينها إلى ائتلاف أو إلى اختلاف ليس على المستوى التّداولي - الذي يهّم النصّ الواحد تحديداً - وإنّما على المستوى الهيكليّ الذي تُرجع فيه الأبنية الكبرى إلى البنية العليا الموحّدة، وهذا يعني أنّ الأبنية الصّغرى، وإن كانت تنشأ مستقلة معجماً، فإنّ تركيبها نحويّاً يجعلها ضمن بنية وظيفيّة تربط الخطاب بدلالته ومعناه، بل إنّ الجملة تكون متبدّلة متغيّرة نيةً وقصداً إذا اختلف بناؤها وتركيبها بين بسيطة ومركّبة، أو ابتدائيةً وطلبيةً على أساس التّأكيد.

وقد تستقيم البنية الصّغرى تركيباً نحويّاً إعرابياً إلّا أنّها تكون خالية من الدّلالة - حتّى وإن ارتبطت بمعنى مجازيّ تخيليّ - وهو ما يحيل على أنّ بنية الخطاب هي بنية كليّة جزئية في آن، فالبنية الصّغرى لا تجد موضعها ما لم تكن مقاييسها اللّغويّة موافقة لمواضع الخطاب المتفرّعة عنه (Brown & Yule ، 1983: 223)، أيضاً إذا لم تكن معانيها من جنس البنية العليا التي تحتويها والمنطق الدّاخلية الذي يحكمها.

ويتجلّى التّفاعل بين الأبنية الصّغرى والبنية العليا لفظاً وصياغةً؛ وممّا يؤصّل هذا التّفاعل ما يتردّد من عبارات تتكرّر من نصّ سرديّ إلى آخر - وإن تنوّعت المواضيع وخصائص السّرد مثلاً - ومن هذه العبارات: «كان يا ما كان» التي لها وظائف هي: المجانسة بين اللفظ والدّلالة التي تنشأ تخيلاً في بعدين: تعليميّ، وفنّيّ إمتاعيّ؛ الإيذان ببداية السّرد أحداثاً وأفعالاً؛ إنشاء علاقة تفاعل بين المتكلم والسّامع؛ وتجاوز مرحلة التّلقّي إلى الحكم على النصّ وفق ثنائية الصّدق والكذب، ليس بالمعنى المعياريّ للفظتين، وإنّما بما يحقّق الانسجام بين محتوى الخطاب وبين العالم الحسيّ الواقعيّ. ويُطرَح هذا الجانب الرّابع في نوع سرديّ مخصوص هو السّيرة الدّاتية بما أنّ الحديث عن الأنماط، وبذات الضّمير أو بما يخالفه، يفترض انصهار الزاوي/ السّارد في الشّخصيّة ممّا يجعلها متنازعة بين البعدين: الواقعيّ التّاريخيّ، والأدبيّ الفنّيّ المتخيّل، أيهما يتمّ ترجيحه فوزاً بخصائص الخطاب ومميزاته الأجناسيّة. (Adam، 1997: 33)

وفي التّعريف إلى علاقات الأبنية الصّغرى ببنيتها أو أبنيتها العليا، يمكن إرجاع ذلك إلى مظاهر ثلاثة:

أولاً: أن تكون البنية دائريّة منغلقة تبدأ بمعنى محدّد هو الذي تعبّر عنه البنية

الصَّغرى وكلّ ما تستدعيه من تصوّرات لا يخرج عن إطارها. وفي هذا التَّمثّل، لا يتمّ استدعاء إلا جانب المعنى ترشيحا له على حساب سائر مكوّنات الخطاب، وبهذا يكون النّصّ جدلا بين تمثيل المعنى في مخطّطات وبين تفرّعها إلى تصوّرات المتلقّي لتوفير شبكة من المتتاليات التّصوّريّة ترتبط فيما بينها (Brown & Yule, 1983: 241)

بهذا التّعبير، عندما يقرأ المتلقّي النّصّ يرى من خلال ألفاظه مراحل أخرى في الإنجاز أو في الأحداث تبدو بديهية وهو ما يبرّر سكوت الكاتب عنها، ولكنّها - مع ذلك - تمثّل جملة من التّصوّرات في ذهن المتلقّي، وفي مثل هذه السّياقات، ليس شرطا أن يكون الخطاب قائما على المجاز، وإنّما هي علاقة النّصّ بالمرجع أو بهيكلة العامّ في المعرفة الموسوعيّة. وما يقيمه القارئ/ المخاطب من تصوّرات في مثل هذه السّياقات، ليس تخميناً أو فهماً مخصوصاً ذاتياً للنّصّ وإنّما هو من المتعارف عليه شروطاً ولوازم توصّل الجزء ضمن كلة من المعرفة ومن الألفاظ الدّالة عليها؛ (Brown & Yule, 1983: 242)

ثانياً: أن تتعالق البنية الصّغرى بأبنية أخرى على أساس القياس والمعادلات الرّياضيّة، فيؤول التّعدّد إلى وحدة قد تكون شموليّة كأن نقول:

$$\begin{aligned} (1) \quad & \text{أ} = \text{ب} \\ & \text{أ} = \text{ج} \quad \text{ب} = \text{ج} \\ & \text{وقد تكون نسبيّة كأن نقول:} \end{aligned}$$

$$\begin{aligned} (2) \quad & \text{زَيْدٌ} = \text{مُعَن} \\ & \text{زَيْدٌ} = \text{شَاعِرٌ} \\ & \text{زَيْدٌ} = \text{أُسْتَاذٌ} \\ & \text{إِذَنْ، فَكُلُّ أُسْتَاذٍ مُعَنٌ شَاعِرٌ.} \\ & \text{أَوْ كُلُّ شَاعِرٍ أُسْتَاذٌ.} \\ & \text{أَوْ كُلُّ مُعَنٍ أُسْتَاذٌ.} \end{aligned}$$

(Brown & Yule, 1983: 253).

ثالثاً: أن تتفتح الوحدة على تعدّد كأن يكون النّصّ ذاته مسموعاً ومقروءاً، وإنّ في تغيّر مقامات التّلقّي اختلافاً في سياقات الاستيعاب والفهم والتّأويل، أيضاً في طبيعة العلاقة بين منشئ الخطاب ومتلقّيه، ففي مقام المشافهة، يتوجّه المتكلّم إلى السّامع وجدانا وعقلا، أمّا في مقام التّدوين فيترشّح مجال العقل في الصّلة بالنّصّ إذ يتدخّل عامل الزّمن في تمثّل النّصّ وتبيّن مكوّناته الشّكليّة والمعنويّة والتّأويليّة، ممّا قد يُفضي إلى تبيّن التّعدّد بالوحدة ليس على أساس الاعتباطيّة توسيع دائرة معرفيّة وإنّما هي صلة المحور بما يدور حوله

وينشأ عنه³.

كما يتأثر المعنى بالبناء استقلال لفظة أو عبارة في الجملة، بين أن تكون هي نقطة الموضوع: محوره ونقطة التأثير فيه، أو أن تكون هذه اللفظة أو العبارة جزءا من جملة أجزاء متعددة تُكوّن الجملة وتؤدي إلى التعبير عن الحدث أو عن إنجاز الفعل من ذلك ما يذكره موشلير في المثالين التاليين:

(3) التَّقْيُثُ صَالِحًا بِالْأَمْسِ.

(4) بِالْأَمْسِ، التَّقْيُثُ صَالِحًا. (Moeschler، 1994: 456).

فالتركيز في (4) هو على زمن وقوع الحدث أكثر من أي عنصر آخر لكن - وحسب نيّة المتكلم وقصده - يمكن التصرّف في التّأثير، وأي جزء من أجزاء الجملة يمكن أن يحلّ في هذا المحلّ. والواقع أن هذا التحوّل في مواضع التّأثير يقترن إمّا بافتراض سابق لفعل الكلام يتسم بالإطلاق والعموم حتّى يأتي فعل الكلام لحدّه وتخصيصه؛ وإمّا بإبراز العنصر/ البؤرة؛ أو وفق ثنائية السؤال والجواب (التي تولّف بين العنصرين السابقين)؛ باعتبار السؤال مكوّنًا نموذجيًا أصليًا، والجواب هو مكوّن نموذجي استجابة له» (Moeschler، 1994: 458 - 459).

ما يستنتج من هذا التصنيف أن إنتاج النصّ يقوم على نسيج محدّد باختيارات مخصوصة لها صلات بالبنية العليا جنسًا أدبيًا يتميّز عن غيره، وهو ما يبرّر في بعض القراءات ربط النصّ ليس فقط بالمقام الذي نشأ فيه لكن أيضًا بمقام التلقّي سياقات تحوّل مستمرّ. وإذا كانت هناك علامات نصّية بعينها قد توجّه القراءة، فليس ذلك إلّا من قبيل وجود شبكة افتراضية تربط المنتج النصّي بإمكانيات قراءاته، كما بالأبعاد النقديّة التي تنبثق عنه أو قد تكون سابقة له ارتباطًا بجديّة التّظهير والتّطبيق: أيهما الأسبق؟ وهل من المشروع أصلاً أن نتحدّث عن مثل هذه الإشكاليّة⁴؟

3 حول علاقة فهم النصّ وتأويله وفي استناد المخاطب إلى المعرفة الموسوعية انظر: Brown and Yule، 1983: 225 - 228 + 235 + 256 - 257.

4 يتناول شارودو الخطاب في علاقته بالجنس الأدبي، وبالبنية النصّية، والتّمثيلية، وكذلك المعرفيّة في بعدها التّواصلي، وهو يرى أن أي نوع من أنواع الأبنية العليا لا يخرج عن إطار هذه العلاقات؛ أمّا المفاهيم فتتخذ حسب الوضعيّة والظرف، ومفهوم البنية العليا - في وجوهه المتعدّدة - وإن كان تجريديًا في أعلى مستوياته وآخرها، فإنّه ينشأ قبل كلّ شيء، مُنجزًا نصّيًا توافقيًا؛ وهذا ما يبرّر التّمييز بين الجنس وبين الصّنف، وبين النوع على مستوى الاصطلاح، ويُعلن أيضًا وفي المقابل، التّواصل وانفتاح البعض على البعض الآخر من حيث تفاعل جميع أنواع الأبنية الصّغرى والكبرى والعليا لضمان انسجامها وتجليها: تنظيرًا، فتطبيقيًا، فتتظيرًا؛ بما أن الميثاق الأجناسي يؤدي إلى القيود الخطابية،

مما قد يساعد على تجاوز هذه المسألة هو النظر في طبيعة العلاقات بين مختلف الأبنية، بما أنها وإن تباينت في الخصوصيات والوظائف والأبعاد، فلاشك أن هناك ما يؤلف بينها، على الأقل من ناحية مبدئية إذ تتألف في إطار النص الواحد، بقي أن نُجَلِّي في مستوى آخر ما يمكن أن يفرزه البحث في مظاهر التفاعل بينها من نتائج: الحدود والأفاق.

1. مدى الاتساق أو الانسجام بين البنيتين الصغرى والكبرى

النظر - أفقيًا - إلى البنية الصغرى يساعد على تبين مكوناتها والعلاقات بينها خطيًا؛ أما النظر إليها - عموديًا - أو باعتبارها شبكة من المكونات التي تتربط فيما بينها - نصًا أو تمثيلًا - فإن ذلك يحيل على تراتب تدريجي من القضية الأهم إلى القضية الأصل أهمية أي ما يمثل جوهر النص ودلالته الأساسية؛ وما يمكن حذفه والاستغناء عنه⁵. وتحيل هذه الشبكة التدرجية على علاقة الأبنية الصغرى بالبنية الكبرى (Rastier, 1989: 61 - 62) - وإن كان في المفهومين بعض النسبية إلا ما يتعلق بالبنية الكبرى التي توجد في قمة هرم الشبكة، فإنها تظل كذلك دائمًا، أما بالنسبة إلى الأبنية التي تكون في المستويات الموالية بدايةً من الثاني، فإن أي بنية صغرى يمكن أن تكون كذلك بالنسبة إلى سابقتها، أما في صلتها بلاحقاتها فإنها تكون بنية كبرى حتى الانتهاء إلى آخر قضية من النص وهي البنية الصغرى الفعلية فيه. (Coirier & Gaonac'h & Passerault, 1996: 16) والمثال الذي يورده كواربي هو الذي ذكره كنتش: «كَانَ الإغْرِيقُ يُحِبُّونَ الْفُنُونَ الْجَمِيلَةَ، وَعِنْدَمَا غَزَا الرُّومَانُ، الإغْرِيقُ، سَارُوا عَلَى مَنَوَالِهِمْ، وَبِذَلِكَ، تَعَلَّمُوا الْخُلُقَ مِنْ خِلَالِ الْفُنُونَ الْجَمِيلَةِ»

والنوعان مقترنان بالفيود الشكلية.

لقد استخدم شارودو وصفًا نقديًا لمختلف المعايير المُستخدَمة في تعريف الأنواع، متخذًا منها في تحديدها وبيان النوع باعتباره نموذجًا أوليًا أو مخططًا تجريديًا، وهو ما يؤدي إلى تعريف «الأنواع الطرفية» (أو «الأنواع النصية») في إشارة إلى شروط عقد التواصل، وذلك من خلال المشترك بين مستوى الطرفية، وبين مستوى القيود النصية، ووضح منهجه من خلال أمثلة عديدة.

CHARAUDEAU, Patrick : Visées discursives, genres situationnels et construction textuelle, IN Analyse des discours. Types et genres, Ed. Universitaires du Sud, Toulouse, 2001.

5 وهو ما يتجلى في تلخيص نص ما وخاصة النص السردى أو الروائي. ثم إن البنية الكبرى أو القضايا الأكثر أهمية في النص هي التي تتعلق بالذاكرة وهي المتبقية منه: يمكن استرجاعها والتعرف إليها بسرعة تفوق القضايا التي توجد في مستويات أدنى، خاصة مع مرور الزمن. لمزيد التوسع انظر:

Coirier & Gaonac'h & Passerault, 1996: 17.

ويمكن إعادة نشر هذه المتتالية في شكل قائمة من ثماني جُمْلٍ على النحو التالي:

- (5) أَحَبَّ (الإغريق، الفُئُون)
- (6) الْجَمِيلَة
- (7) عَزَا (الرَّومَانُ، الإغريق)
- (8) سَارَ عَلَى مَنَوَالٍ (الرَّومَانُ، الإغريق)
- (9) عِنْدَمَا (3 - 4)
- (10) تَعَلَّمَ (الرَّومَانُ، 8)
- (11) نَتِيجَة

(12) خَلَقَ (الرَّومَانُ، 2) (1996, Coirier & Gaonac'h & Passerault : 16)

إنَّ تحديد البنية الكبرى - مفهوماً ودلالةً - ليس رهين الأبنية الصغرى ضرورةً، بما أنَّ البنية الكبرى يمكن أن تتحدّد من خلال المعارف المتعلقة بموضوع النّصّ: وهذه المعارف قد تكون مقترنة بأبنية النّصّ (الجزئية: من كلمات أو ألفاظ وتراكيب، كما الكلّية: القضايا التي تمثل الأبنية الصغرى)، كما يمكن أن تستقلّ عنها لتكوّن معارف تصوّريّة موضوعيّة حيناً، ذهنيّة حيناً آخر.

خلاصة

الاتّساق والانسجام بين الأبنية الصغرى والكبرى هو في اتّجاهين: أفقي وعمودي، إذ ليس بين الشكل والمعنى، إذا وردا في سياق واحد، من فصلٍ باعتبار أنَّ كلّاً منهما يستمدّ دلّالته من الآخر إحالةً واحتواءً؛ وحتى إنْ خُذِفَ جزءٌ من بنية، فإنّ المعنى يُحيل عليه فيفضي الصريح إلى الضمنيّ بما يساعد على إعادة بناء النّصّ أو هيكلته دون المساس بجوهر النّصّ أو ببعده النظريّ.

2. بين البنيتين الكبرى والعليا

لهذا التّفاعل وجوه تلازم واتّفاق من ذلك أنَّ «ثمة خاصيّة مشتركة بين الأبنية العليا والأبنية الكبرى: فهما لنْ تُحدّدَا بالنّظر إلى جُمْلٍ مستقلة أو تتابعات نصّ ما، بل بالنّسبة إلى النّصّ بوصفه كلّاً أو بالنّسبة إلى قِطْعٍ محدّد من النّصّ». (فان دايك، 2005: 210) ويكون التّفاعل بين البنيتين معنى ودلالة يتغيّران بتغيّر الجنس؛ وإذا كان من اتّفاق - على أساس التّناظر بين البنيتين الكبرى والعليا - فلا يكون على مستوى الموضوع، وإنّما على مستوى البنية الشّموليّة الكلّية للخطاب، وهو ما يذهب إليه فان ديك، بنية اختزال وانتشار في آن، اختزال لنصّ مخصوص تكتيفاً لأبنيته ولدلالاته تمثيلاً وتجريداً، وانتشاراً على أساس أنَّ البنية الأولى يمكن أن تتوسّع دائرتها استيعاباً

لنصوص مُنَجَّرَة عديدة. بقي أنّ المسألة تُطرح من وجه آخر وهو في كيفية وضع حدٍّ مميّز بين البنيتين الكبرى والعليا خاصة وأنّ هناك نصوصاً تنماهى فيها البنيتان؟ إشكالاً طرّحه فان ديك وسعى إلى إيجاد حلٍّ له بجعل الأبنية العليا يَرشَحُ فيها الجانب الهيكليّ، ليكون الجانب الموضوعيّ المعنويّ هو الغالب في تحديد البنية الكبرى. (Adam، 1997: 33) لكن هل أنّ النصوص جميعاً تخضع لدراسة كَلِيّة تفترض وجود عناصر متعدّدة ومكوّنات جزئيّة، بل إنّ النّصّ قد لا يتكوّن إلّا من جملة واحدة أو كلمة مفردة، ففي أيّ نوع يوضع هذا الصّنف من النّصوص أو في أيّ جنس⁶؟

إنّ مثل هذه الإشكاليّة يُشرّع للحديث عن فروق بين الأبنية كما للالتلاف:



الأبنية الكبرى	الأبنية العليا
* إنّ لكلّ نصٍّ - سواء أ كان بسيطاً أم مُعقّداً - بنية أو أبنية كبرى تمثّل موضوعه ومحوره.	* ليس لكلّ النّصوص بنية عليا تُميّزها (لكن، يمكن لمحلّل أيّ نصٍّ أن يوجّد له بنية عليا افتراضيّة، خاصّة من خلال مقارنته بنصوص أخرى من نفس نوعه وجنسه).
* هي أبنية اصطلاحية قد توجد لها نظائر نمطيّة أكثر منها عُرفيّة تقرن بمجتمع ما وبنقافة محدّدة.	* هي أبنية عُرفيّة يمكن استنباطها من خلال المنهج الاستقرائيّ إذ تتعاود وتكرّر في نصوص عديدة.
⇐ هي تقرن بالنّصّ الواحد أكثر منه بنصوص عدّة على أساس الوحدة الأجناسيّة أو التّماتل البنيويّ.	⇐ إنّ أيّ بنية عليا يمكن أن تتبدّل وتتغيّر، فإن لم يكن ذلك في هيكلها العامّ، ففي ترتيبها وعددها.

6 فسّر فان ديك ذلك: * بأنّ البنية العليا - وبالرجوع إلى القاعدة الخامسة من قواعد تحديد الأبنية: المستوى الصّفر - تتوافق في مثل هذه النّصوص مع كلتا البنيتين: الكبرى والصّغرى.

* بأنّ النّصّ إذا كان كلمة مفردة أو جملة فليس شرطاً أن يكون نصّاً منبثقاً فقد يكون جزءاً من خطاب أوسع سواء أ كان ذلك في إطار المسكوت عنه أو المُفترَض.

* بأنّ الحرص على دراسة الأبنية دراسة علميّة منهجيّة يُراد منها الانتهاء إلى أنساق ونُظُم قواعد يودّي إلى البحث في الظّاهرة على ضوء ما هو مطّرد شائع، لا على ما هو استثنائيّ، خاصّة وأنّ من النّصوص ما له نمط عُرفيّ، ومنها ما له أشكال تُقرّر «بصورة مؤسّساتيّة»، مثل الطّقوس الدّينيّة أو القوانين أو العُقود أو الوثائق المحدّدة». فان ديك، 2005: 218.

- * يمكن لمخطّط النّصّ الذي يمثّل بنيته العليا أن يوافق شكله النّحويّ مَقُولَاتٍ.
- * تحديد البنية أو الأبنية العليا يكون بالنّظر إلى اعتباره كُلاًّ.
- * لئن لم تخلُ البنية أو الأبنية الكبرى من بُعد شكليّ، فإنّ صلتها بالموضوع هي الأوسع والأصل في تعريف البنية الكبرى كما في استنباطها وتمثيلها.
- * تحديد البنية أو الأبنية الكبرى يكون بالنّظر إلى النّصّ باعتباره كُلاًّ، أو باعتباره أجزاءً ينفصل بعضها عن بعض:
- مسافات كتابيّة.
 - تتابعا رقميّاً.
 - «تقسيماتٍ إلى أجزاء وأبواب وكتب ومجلات... إلخ. إنّ تلك التّقسيمات الكتابيّة شائعة جدّاً؛ إنّها انعكاسات لتقسيم البنية الكبرى، عند الانتقال إلى موضوع جديد.
- (فان دايك، 2005: 253)⁷

خلاصة

قد نتحدّث عن علاقات وتفاعل بين الأبنية الكبرى والعليا، ولكنّ الإشكاليات هي التي تطفو وتغلب خاصّة في بيان حدود النّوعين؛ فإذا كان الأمر واضحاً على مستوى التجريد ووضع النّماذج والهياكل، فإنّه عسيرٌ إذا ما أريدَ تبيينُ حدود النّوعين في نصّ ما. والإشكالية طُرِحت منذ وضع حدّ للأبنية الكبرى وتعريفها، فإذا هي مزيج وترادف بين بنية ومعنى وموضوع، وإذا كانت هناك خصوصيّة فالإشكال هو في البتّ بين أن تكون بنية ما كبرى أو عليا!

ويوضّح فان دايك أنّ الحلول هي في الأبنية ذاتها، فلئن كانت القراءة التّجزئيّة ممكنة بالنّسبة إلى الأبنية الكبرى إذ ترادف المراحل الموضوعيّة المفصليّة في نصّ ما، فإنّ البنية العليا تتحدّد عبر معيارين: أولهما هو تحديد جنس ما لا يتمّ إلاّ عبر ارتداد الأشعة أو الأبنية الصّغرى والكبرى إلى المحور

7 يورد كلّ من براون ويول أنموذجاً تجردياً لنمط أدبيّ من أنماط الأبنية العليا يتعلّق بالبنية السّردية في علاقتها بسائر الأبنية الكبرى التي تكوّنّها وتتوزّع إليها، ويريان أنّ ليس من الحتميّ أن تتوفّر كلّ هذه المقومات في كلّ نصّ سرديّ إذ قد يغيب بعضها إلاّ المقومات الأساسيّة التي لا يكون النّصّ سرديّاً إلاّ بها من ذلك: الإطاران الزّمانيّ والمكانيّ والحدث أو سلسلة الأحداث.

انظر: Brown and Yule، 1983: 120 - 122.

الَّذِي تدور حوله وهو البنية الكبرى؛ وثانيهما أَنَّ التَّعَرَّفَ إلى البنية العليا لنصّ ما لا يكون إلا بالنظر إليه في كليته وشموله.

ولكن، مهما تكن الاختلافات بين نوعي الأبنية، فإنّها تؤوّل إلى وحدة النصّ وانسجام الخطاب استدلالاً عليهما وإثباتاً لهما.

3. التفاعل بين الأبنية العليا

قد يُنظرُ إلى النصّ الواحد على أنّه وحدة كلاميّة تقوم على اللفظ كما على المعنى في علاقة توافق وانسجام، إلاّ أنّ قيمته الخطابية لا تتأسّس إلاّ في تفاعله مع نصوص أخرى إمّا على مبدأ الاندراج ضمن منظومة خطّابية واحدة هي التي تمثّل أجناسيّة الخطاب، أو في إطار التناصّ علاقات خُلف بين النصوص تكرّس مبدأ الإنشاء التفاعليّ بين الأجناس أو بين الأبنية العليا التي لا تخضع - في الأصل - إلى هيكل تمثيليّ واحد لكن تصهر الهياكل المتعدّدة في هيكل مؤلّد يتجاوز حدود المقام والتفاعل بين منشئ النصّ ومتلقّيه في بُعد تداوليّ مخصوص ليكون الانفتاح على التفاعل بين الأبنية العليا تأسيساً لأدبيّة «النصّ الجامع»، ذلك أنّ أيّ نصّ يُنظر إليه على أنّه وحدة كلاميّة لها كيانه المستقلّ لفظيّاً، لكن أيضاً باعتباره يمثل أنموذجاً أو تجلياً من تجليات بنية عليا أوسع منه وهي جنس الخطاب. (Maingueneau, 1991: 177 - 178).

إنّ البنية العليا هي هيكل يخضع لبنية أو نظام مركّب باعتبارها تعكس تفاعلاً بين الصّورة اللفظيّة التّطبيقيّة من ناحية، وبين الصّورة المنطقيّة التّجريدية من ناحية أخرى. وإذا كانت الصّورة الثّانية تتعالى عن حدود الزّمان، فإنّ الصّورة الأولى مندرجة فيه لغويّاً واجتماعيّاً من وجهة نظر تداوليّة (Maingueneau, 1991: 179) تؤصّل النصّ ضمن سياقه ومقامه ومرجعه مقومات تصبّح جزءاً من خصوصيّاته الأجناسيّة التي تضمن نسيجه وانسجامه، لا باعتبارها عناصر حاقة به.

خلاصة

يكون التفاعل بين الأبنية العليا في مستويين: ١. تجليات الجنس الواحد في نصوص عديدة وما يولّده من إمكانيات التّمائل أو الاختلاف خاصّة وأنّ للإجراء أطراً حاقة تسيّجه وتوجّهه بصفة مقصودة أو غير مقصودة؛ ٢. في علاقة الأبنية العليا ببعضها، أو في انفتاح الأصل على الفرع أو الفروع أنماط كتابة تحكم نسيج النصّ فتغلب عليه وتصبح هي إطاره الذي يميّزه ويضبط بنيته العليا ويرادفه.

ثمّ إنّ تبين خصوصيات الأبنية العليا لا يكون فقط بالنظر إلى هياكله مُنتجاً

نصّيًا، ولكن استنادًا إلى القراءات العديدة التي تُنجزُ حوله آنيًا وزمانيًا أيضًا بما يُبرز البحث في مدى القول بصيغة نهائية للمنوال أنموذجًا ومقولاتٍ.

4. وظائف التفاعل بين الأبنية

وضع بنية ما إنما هو تمثيل إدراكي يؤلف بين معلومات تحليل على وصف شيء، أو وضعيّة، أو حدث، بنية منظمة تعكس انفصال مكوّناتها واتّصالها في الآن ذاته، ومن هنا، فإنّ دراسة مستوى من مستويات هذا التمثيل يكون ضرورةً، على أساس انتظامي بما أنّ أيّ بنية (صغرى/ كبرى) لا يُنظر إليها معزولة في إطار تحليل النصّ أو الخطاب⁸ وإنّما في علاقاتها بسائر الأبنية حتّى يتمّ فهم النصّ، وهذا يعني أنّ للأبنية وظائف هي:

1/ الوظيفة الإدراكية العرفانية، وذلك وفق أربع مراحل هي: التركيز على الملاءمة بين مختلف مكّونات النصّ - الصريح منها والضمني - على أساس استدلالٍ؛ وإبراز تباين المعلومات أو الأبنية من حيث قيمتها المعرفيّة، وبالتالي التمثيليّة وفق ثنائيّة الإطناب والاختزال؛ وتركيز قارئ النصّ على مكّوناته وتمفصلاته لتمييز الأهمّ من المهمّ فيها انتهاءً إلى بنية النصّ المكتملة دلاليًا؛ ورابعًا، ربط القارئ بين ما يبدو ظاهرا وما يمكن أن يستدعيه ذلك من دلالات متعدّدة تُكوّن الأبنية مختلفة عاملا مساعدا على تأكيد الثابت منها في النصّ أو الخطاب.

ولا تتحقّق هذه الوظيفة الإدراكية العرفانية إلّا بوضع النصّ في إطار مرجعيّ ورصيد معرفيّ. (Coirier & Gaonac'h & Passerault, 1996: 65)

2/ وظيفة إعادة البناء، وصياغته بما يساعد على الاحتفاظ ببنيته السطحيّة في الذاكرة على مدى طويل. ولكنّ إعادة البناء هذه تعكس تعدّد وجهات نظر القراء وبالتالي، اختلاف التأويل والدلالة من قارئ إلى آخر، (Coirier & Gaonac'h & Passerault, 1996: 71) وأيضًا ارتباطًا بأجناسيّة النصّ أو بنيته العليا، فالنصّ السردّي يختلف عن النصّ الوصفيّ، وكلاهما يختلفان عن النصّ الحجاجيّ، كذلك التفسيريّ تردّدًا بين الصريح والضمني في الدلالة، كما في الغايات والأهداف، ممّا يجعل النصّ ذا مراجع معرفيّة متعدّدة تُحصّر في ثلاثة: ما قبل النصّ (ما ترسّخ في ذاكرة القارئ)؛ وما يحتويه النصّ بصفة صريحة (بصفة سطحيّة أو كاملة)؛ وما بعد النصّ (ما يستدعيه من تأويلاتٍ إنشاءً معارف جديدة حول النصّ. وهذه المعارف جميعا إنّ هي إلا شبكة دلالات تتناظر مع ما فيها من أبنية صغرى وكبرى) وتسير معها بتوازٍ، أو

8 إذا كان مدخل الدّراسة غير تحليل الخطاب، فإنّ هذا الصّنف من الدّراسة ممكن، كأن يكون المدخل صوتيًّا أو معجميًّا.

على أساس الإشعاع.

ومن هنا نستخلص أن دراسة الأبنية - خاصة في إعادة بناء النص - لا تتيسر إلا في علاقة الخطاب بأطراف عملية التخاطب (المتكلم، الرسالة، المخاطب) فالسياق والمرجع ثم الآليات المساعدة على الفهم والإدراك وصياغة النص من منظور المتلقي لا المنشئ، (Coirier & Gaonac'h & Passerault، 1996: 72) فيخضع النص في ذلك إلى خصائصه، كما إلى خصائص الأطر المعرفية والفكرية التي تسبجه.

3/ وظيفة منهجية، من حيث الإحالة على مختلف السبل التي بها يمكن التعرف إلى مختلف أبنية النص: تفصيلاً وإجمالاً؛ وطبيعة العلاقات بين مكونات الصنف الواحد من الأبنية (أبنية صغرى - أبنية كبرى - بنية أو أبنية عليا)⁹؛ وكذلك بين مختلف أصناف الأبنية¹⁰.

4/ الوظيفة المرجعية: النص في صريح عبارته يحيل على معنى أو معان، بقي أن المعنى الواحد يستدعي معاني أخرى مسكوتاً عنها ولكنها ضمنية في الخطاب، وجميع هذه المعاني يندرج ضمن نفس المرجعية المعجمية أولاً، والسياقية ثانياً.

وتقام هذه الصلات وفق منهج استدلالى قد يكون منطقياً كما هو الشأن في المثال التالي:

(13) الأُسْتَاذُ شَارِدُ الذِّهْنِ، وَمَفَاتِيحُهُ لَيْسَتْ عِنْدَهُ.

فعندما نربط بين المعاني التي أفادها هذا المثال وما هو مألوف في المعارف العامة، فإن الإنسان شارد الذهن غالباً ما ينسى أشياء كالمفاتيح، وإذا كان شارد الذهن فهذا يعني أنه يفكر في أشياء أخرى، والنتيجة:

(14) أَنَّ الأُسْتَاذَ كَانَ شَارِدَ الذِّهْنِ.

(15) أَنَّ الأُسْتَاذَ لَا مَفَاتِيحَ لَدَيْهِ.

(16) وَشَارِدُ الذِّهْنِ كَثِيرًا مَا يَنْسَى أَشْيَاءً.

إذن

9 دراسة خطية من ناحية، عمودية من ناحية أخرى: تميز إحداهما عن الأخرى.
10 دراسة مقارنة بين نصين أو أكثر جدلاً بين ظاهر وباطن: قد يوحيان بالتشابه والاندرج ضمن نفس الأجناسية، وبالتالي ضمن بنية عليا نموذجية واحدة، كما قد يكون التشابه وجهاً من وجوه الاختلاف والخصوصية بما أن مجرد القول بنصين أو أكثر يشرع للاختلاف (المزيد التوسع، انظر: Coirier & Gaonac'h & Passerault، 1996: 98 - 99).

(17) الأُسْتَاذُ قَدْ نَسِيَ مَقَاتِيحَهُ.

وقد يكون المنهج الاستدلالي تداوليًا، أي أن النتيجة أو النتائج التي ينتهي إليها القارئ ليست قطعية أو حتمية بالضرورة وإنما هي رهينة الإمكان والاحتمال من ذلك المثال التالي:

(18) دَقَّ زَيْدٌ مِسْمَارًا فِي الْحَائِطِ.

نفهم من هذا أن زَيْدًا قد استعمل أداة لدق المسمار في الحائط، والعادي والمألوف أن تكون هذه الأداة مطرقة لكن ليس أكيدا أن يكون الأمر كذلك، فقد يكون زَيْدٌ استعمل حجارة في ذلك.

وقد يكون المنهج جدلاً بين البرهاني والتداولي كما هو الشأن في المثال التالي:

(19) انْزَلَقَ فِي مَكَانٍ مُبَلَّلٍ، فَسَقَطَتِ الْغُرَافَةُ الْبُلُورِيَّةُ الْهَشَّةُ أَرْضًا.

إن في هذا المثال من القرائن اللفظية ما يرشح الجانب المنطقي البرهاني هو أن الغُرَافَة قد تكسرت لسببين: أنها قد سقطت أرضاً - أنها هشة؛ لكن هناك احتمال آخر قد يُضَعِّفُ النتيجة الأولى وهو إمكانية وجود فراش على الأرض، وهو ليّن، وأن الغُرَافَة قد وقعت عليه فلم تتكسر (Coirier & Gaonac'h & Passerault، 1996: 103).

تحليل هذه الأمثلة الثلاثة على أن منهج الاستدلال ليس مقترنا فحسب، بالذهن والتفكير، بل بالذاكرة المعرفية أيضاً، إذ قد يكون الاستدلال سببياً، أو أداتياً، أو أصنافياً. وتتوَعُّ المرجعية يحيل على تنوع الأبنية الكبرى وثرأ أبنيتها الصغرى على مستويات ثلاثة: إذا كانت صريحة فالقارئ التي تمثلها تساعد على تحديد منهج الاستدلال وتوجيهه مما يؤدي إلى ضبط موضوع النص، وبالتالي بنيته الكبرى؛ وإذا انعدمت الروابط اللغوية (على أساس التتابع المنطقي أو غير المنطقي) فإن مهمة المتلقي في الربط بين القضايا تصبح أعسر، ومنجده في ذلك هو السياق والمرجع؛ وإذا كانت العلاقات بين الأبنية الصغرى ضمنية وليس هناك ما يحيل على أي علاقة بين القضايا، فإن المتلقي سيغرق في التجريد ويعول على التصور والتخمين، فيكون في ذلك مقيماً لأنسجة نصية أخرى قد تعكس فقط جزءاً من ثقافته دون ثقافة منشئ النص ومرجعيته؛ لكن عملية الاستدلال تظل دائماً في إطار الانسجام - مهما كانت درجته - بين لغة الخطاب (أنسجته أو أبنيته) وبين ما يؤدي إليه من معنى ظاهر ومعانٍ ضمنية. ويظل المشتراك بين المتكلم والمخاطب - في إطار علاقة الخطاب بالمرجع - هو المعرفة المألوفة العادية - حتى وإن اختلفت الجزئيات والتفاصيل بينهما -: تحليل نص، وفهمه وإدراك معانيه،

وإعادة بنائه وهيكلته بما يخرج من حدود المرجع، إلى مطلق التجريد، «فيجب علينا بالتالي تحديد أنواع الاستدلالات اللازمة لإقامة تماسك نص في أي ظروف كانت تلقائية أم مُحتملة من خلال قرائن نصية منبثقة عنها، والمواطن التي تتحقق فيها أثناء القراءة» (Coirier & Gaonac'h & Passerault, 1996: 105).

وهو ما يعني أن تحليل النص يكون سطحيًا بالوقوف عند ظاهره وعدد ألفاظه، كما يكون معمقًا بالبحث في بنيته العميقة: خصائص ووظائف ودلالات هي من تجليات العلاقات بين مختلف الأبنية.

خلاصة

للتفاعل بين الأبنية جميعًا وظائف يمكن اختزالها في: الإحالة على مرجع النص المعرفي وسياقه التداولي خبرًا في الملفوظ، ومقامًا في القراءة؛ والتعرف إلى أنسجة النصوص: الخصوصية والتناظر؛ واستنباط مختلف القواعد التي يتحقق وفقها وبها نسيج النص، وهل هي قواعد ثابتة أم متحوّلة؟؛ وتبيين الاستدلال جزءًا من بناء النص، ومنهجًا في القراءة والتأويل، وغاية في ربط النص بالخطاب، وإبراز الانسجام في لغة الخطاب، وفي معانيه، وفي الافتراضات التي تتولد عنه؛ وبيان أن انسجام الخطاب السردّي ينشأ عرفانًا لغة وإجراءً، وينتهي برهانًا تمثيلاً وهيكلًا.

5. انسجام الأبنية من خلال التشكلات التجريدية وخلفياتها الدلالية

تتمثل الأبنية في العلاقات المنشأة بين أدنى وحدة في اللغة (الصوت) وأكبر وحدة وأقصاها (النص)¹¹. وتعدّد الأبنية يقترن بتعدّد الدلالة وتفرّعها من الكلمة إلى القضية إلى الجملة إلى النص، وهو ما يبرّر القول بأن شبكة الأبنية توازيها وتتأطرها شبكة دلالات تستدعي شبكات أرقاها الشبكات الذهنية التصويرية.

بقي أن قراءة النصوص قراءة غايتها الفهم والإدراك وإعادة البناء، لا تسير دائمًا في اتجاه تأليفي تجرّدي، بل يمكن أن تتم عملية القراءة في اتجاه عكسي لإبراز التكامل والاندماج الدلالي بين مكونات النص القائمة على الإضافة والإحالة حين يصاغ من الجمل التي تكونه كلها، أو مكوناته المنفصلة بعضها عن بعض، وفي هذه الحال، لا بدّ - مع كلّ جملة - من تعويض الحذف والإحالة بما يوافق ذلك لغةً ولفظًا للمحافظة دائمًا على انسجام النص

11 وإن كان مفهوم النص معقدًا، فقد يكون قضية، أو جملة، أو عددا من الجمل: اثنتين فأكثر؛ والمهم في ذلك أن يكون الموضوع واحدًا غير متعدّد، لأنّ التعدّد قد يرتبط بالاختلاف، وبالتالي التحوّل من نصّ واحد إلى عدّة نصوص.

دلاليًا.

خلاصة

ما نخلص إليه، هو أنّ نصّا ما يمكن أن يحتوي عدّة أبنية كبرى - لا من حيث المقارنة بينها والأبنية الصّغرى، لكنّ مقارنة ببنية النصّ العليا - وذلك إذا اشتمل على أكثر من موضوع. والمفترض أن تستقلّ فقرات النصّ عن بعضها البعض بنيويًا ودلاليًا¹²، ومع هذا الانفصال يمكن تغيير ترتيبها ولا يضرّ ذلك بالتّلاؤم الجزئيّ - سواء على مستوى البنية أو الدّلالة الموضوعيّة - وتخصّ هذه الملاءمة الأبنية الصّغرى من ناحية، والبنية الكبرى من مستوى أوّل من ناحية ثانية؛ لكن إذا كان النّظر إلى النصّ باعتباره كلاً منسجماً - كما أراده منشؤه - فلا بدّ من إعادة ترتيبه لإعادة الملاءمة الشموليّة. (20 :1996, Coirier & Gaonac'h & Passerault)

ومن النّتائج المستخلصة من المقارنة بين بناء النصّ الأصليّ وطُرُق بنائه بأشكال متعدّدة أنّ النّظر إلى أيّ نصّ يمكن أن يكون من حيث صلة الأبنية الصّغرى بالبنية أو الأبنية الكبرى، كما صلتها بالبنية العليا. ويمكن أن يكون أيضًا في اتجاهين متقاطعين لكن ليسا متتافرين حديثا عن البنية الأفقيّة من ناحية، والبنية العموديّة من ناحية أخرى. أمّا البنية الأفقيّة فتُلزِمُ باللفظ دون الدّلالة؛ وأمّا البنية العموديّة فتُلزِمُ بالدّلالة دون اللفظ تأليفا بين القضايا التي تكوّن النصّ ويحتويها بصفة جزئيّة أو شموليّة.

على أنّه لا يمكن الالتزام في فهم النصّ بما هو مصرّح به بنيةً ودلالة، فقد تتوفّر فيه قرائن استدلاليّة تجعل المتلقّي يتجاوز الدّلالة الظّاهرة بحثًا عن دلالة أخرى قد تكون هي المقصودة من منشئ النصّ، وقد تكون مجالاً موسّعاً لجعل النصّ نصوصاً تتوحّد في البنية التمثيليّة الأصليّة ولكنها تنفتح على ما لا يُحدّد من الدّلالات.

وفي التّمييز بين مستوى من النصّ وآخر، أو بين بنية وأخرى، ينظر الدّارس إلى قيمة أيّ منها في أفعال الكلام من ناحية، وفي معالجة النصّ من ناحية أخرى، فالتّفاعل بين الأبنية على مستوى نسيج النصّ يحيل على التّفاعل بين المتكلّم والمخاطب في معالجة النصّ من حيث قيمة كلّ بنية في موضعها من النصّ لبننة من لبنات نظام كامل لا يتغيّر إلّا إذا تغيّر هدف

12 واستقلالها لا ينفي وجود خيط ناظم بينها قد يكون صريحاً لكن دقيقاً لا يكاد يُدرك، وقد يكون ضمناً، وفي الحالين متلقّي النصّ هو المضطلع بالكشف عن هذا الخيط، وهنا لا تكفي البنية الصّغرى أو الكبرى لتفكيك النصّ وإعادة بنائه وصياغته لتحديد بنيته العليا إذ لا بدّ من توفّر عناصر أخرى مساعدة أهمّها: السياق - المرجع - الذاكرة الثقافيّة.

إنشاء الخطاب ذاته¹³، والأهداف والغايات المتعلقة بنوع النصّ وكيفية صياغته (أصواتاً، ومعجماً، ونحواً، ودلالةً) توجّه وضع المخطّطات من حيث التّأليف بين نماذج متعدّدة تصريفاً لترتيب هذه المستويات المتعدّدة المختلفة (Coirier & Gaonac'h & Passerault، 1996: 148 - 149)، فبعض هذه المخطّطات قد أنشئ من خلال المعطيات النصّية (إذن فهي محكومة بنظام اللّغة وخصوصيّاته)، وبعضها الآخر أقيم على ما ترسّخ في الذاكرة من معارف (إذن فهي رهينة القدرة على التّدكّر والاسترجاع ومدهما)، وبعضها يمثّل مرحلة انتقاليّة من مستوى في الرّسم إلى مستوى آخر - أرفع منه أو أدنى¹⁴ - . وفي الواقع هذا الفصل إنّ هو إلّا فصل منهجيّ أو مرجعيّ، على أساس التّفاعل والتّكامل بين مختلف الأبنية من حيث تمثيلها لأفعال الكلام وكيفية تحليلها والتّعزّف إلى خصائصها التركيبيّة النّحويّة الدّلاليّة؛ ومن هنا، يمكن النّظر إلى مستويات التّمثيل هذه على أنّها وحدات يمكن أن تشغل كلّ واحدة منها على حدة (نحويّاً)، أمّا تداوليّاً وهدف تحليل، فلا بدّ من النّظر إليها على أنّها شبكة من العلاقات في مختلف الأبعاد، بما أنّ كلّ مرجعيّة¹⁵ تساهم في تحديد وظائف الأبنية وتعود جميعاً إلى فهم النصّ - وإنّ كانت نجاعة الأبنية ليست بنفس القيمة في هذا الفهم، سواء أ كان ذلك من خلال قراءة النصّ - فيتزامن الحدثان - أو بعد القراءة إعادة إنتاج له على أساس التّأويل.

ولئن كان بُعد الفهم واحداً أثناء العمليّة الأولى، فإنّ الأبعاد متعدّدة في العمليّة الخطابية الثّانية، بما أنّ تفكير المخاطب يعمل في اتجاهات مختلفة لانتهاء إلى انسجام النصّ وتماسكه (Coirier & Gaonac'h & Passerault، 1996: 166 - 167). يستند كواربي في هذا التحليل، إلى البحث الذي أنجزه فلاشر في بعض مقالاته وخلصته يصوغها إذ يقول: «هذا البحث يُبين جيّداً تعدّد المُعاملات والتّصوّرات التي تجابهها ذاكرة العمل في كلّ مرحلة من المراحل. ومجرّد ممارسة المحتويات الجمليّة ذاكرة العمل،

13 وهذا ما يبرّر القول بأنّ بنية النصّ العرفانيّة الإدراكية هي جزء من بنيته الهيكلية: انظر:

Coirier & Gaonac'h & Passerault، 1996: 140 - 141.

14 ومن هذه المستويات ما يكون ذا أهميّة مزدوجة: بنيويّة هيكلية من ناحية، مضمونيّة دلاليّة من ناحية أخرى إذ تمثّل نقطة التّثبّير (والمقصود هنا خاصّة الأبنية الكبرى) - Coirier & Gaonac'h & Passerault، 1996: 151.

15 المقصود بها المعالجة الدّنيا (de bas niveau): الفونولوجيّة، المعجميّة، النّحويّة؛ والمعالجة العليا (de haut niveau) الدّلاليّة: الإحالة على البنية الصّغرى - البنية الكبرى - تمثيل الوضعيّة (modèle de situation) - Coirier & Gaonac'h & Passerault، 1996: 151.

عند المطالعة، تقوم على اعتبار مؤشرات «محلّية» (تكرار الحجج، تكرار المفردات...)، لكن كذلك تقوم على تصوّرات رقيقة المستوى (موضوع، هياكل سياقية...) والتي يتعيّن على الدّارس أن يجعلها فاعلة في مستوى ذاكرة العمل عندما يفرضها تحقيق هذه الممارسة أو تلك» (Coirier & Gaonac'h & Passerault, 1996: 167)

يمكن التّمييز بين ثلاثة مستويات أساسية: البنية السّطحيّة اللّسانية؛ وقاعدة النّصّ الدّلاليّة (أو القصويّة)؛ وأنموذج الوضعيّة. وتفتتح هذه المستويات الثلاثة على مستويات دونها (في البناء التّرتيبيّ التّدرّجيّ، كما في القيمة الدّلاليّة) آليات تساعد على معالجة النّصوص: فهمًا وانتاجًا وانتهاءً إلى العوامل الفاعلة في تكثيف مصادر النّصّ العرفانيّة – وإن كان الأمر لا يخلو من عُسر لتشعب المداخل واختلاف المناهج في تحليل النّصوص استنادًا إلى «تحليل الآليات التي بواسطتها التّرتيب والتّفاعل المتعلّق بالممارسات يسمحان بجريان التّسلسلات الملائمة لهياكل النّظام المعرفيّ البشريّ» (Coirier & Gaonac'h & Passerault, 1996: 259) وفق ما للأبنية، في مختلف تجلياتها، من وظائف يمكن اختزالها في الإخبار؛ الفصل والتّبيين؛ الإقناع؛ الوظيفة الجماليّة الإنشائيّة الشعريّة البيانيّة.

والأبنية، منفصلة كانت أم متّصلة، تعكس النّصّ باعتباره لغة في أنساقها المتعدّدة: المعجميّة؛ والنّحويّة التّركيبية الإعرابية (الإعراب بما هو شكل من أشكال الدّلالة)؛ والمعنويّة الدّلاليّة صريحة وضمنيّة، ومجازيّة استعاريّة؛ ويشير فان ديك إلى أنّ أيّ نصّ أو خطاب هو تفاعل بين المقول والمسكوت عنه، وبين مختلف الأبنية التي تكوّنه من الصّغرى فالكبرى فالعليا، سواء أ كان ذلك على أساس اختزال النّصّ أو التّوسّع فيه تحوّلًا إلى أو من الجمل المحوريّة في النّصّ؛ العنوان الأصليّ والعناوين الفرعيّة (إذا تعلّق الأمر برواية مثلاً، يحمل كلّ فصل منها عنواناً يحدّد بنيته الكبرى، لكنّه يكون أيضًا حلقة الوصل بينه وسائر الفصول، فإذا التّفاعل هو بين الأبنية الكبرى فيما بينها على وجه مخصوص، وفي جانب آخر بما يحقّق صلتها ببنية النّصّ/ الرواية بوجه عامّ شموليّ. ويمكن توضيح ذلك بالنّظر إلى المجموعة القصصيّة جدلاً بين التّوافق والانتظام من ناحية، والاختلاف والافتراق من ناحية ثانية سواء أ تعلّق الأمر بالمجموعة القصصيّة الواحدة، أو في صلتها بمجموعات قصصيّة أخرى¹⁶، فتصبح الأبنية العليا ذاتها في غاية التشعب

16 إنّ المبحّث في مستواه الجزئيّ الثّاني هذا لَمَن الدّقة والتّشعب بما يتطلّب هو ذاته اهتماماً مستقلاً بذاته نسعى إلى توضيح بعض جوانبه في القسم الثّاني من هذا العمل تطبيقاً وإجراءً عسى أن نُجلب بعض الغموض من المسألة.

والتعدّد)؛ ويكون التحوّل أيضًا عبر التلخيص بصيغة المفرد أو بصيغة الجمع (وفي هذا المستوى تتطلب الدراسة المقارنة والمقايسة والاستدلال، ذلك أنّ التعدّد يفترض الاختلاف، وهنا يكمن الإشكال، فكيف يكون التّباعد فيما يُفترض أنّه محوريّ مركزيّ؟) ومن خلال الكلمات المفاتيح؛ (Van Dijk، 1980: 10) وفي حال الاختزال أو التّوسّع يكون المنهج سبيلًا للتحوّل من قراءة النصّ إلى فهمه، إلى إعادة إنتاجه وفق مجموعة من الصّيغ الدّقيقة في بنيتها ودلالاتها بما يساعد على التّواصل، إذ تحليل الأبنية أيضًا، على أنّ منشأها الأصليّ ليس المتكلم وإنّما هو المخاطب بما أنّه يُقيمها إعادة إنتاج للخطاب وفق منهجين: بالنّظر إليه على أنّه شفرات ورموز لابدّ من فكّها والتّعرّف إلى دلالاتها؛ أو بفهمه وتأويله على أساس استدلاليّ لا يكون الوقوف معه على ظاهر النصّ منطوقًا كلاميًا وإنّما بالنّظر إليه في وظيفته الاجتماعيّة التّداوليّة إحالة على الانسجام والإفادة، فإذا كان النصّ - أي نصّ - إعادة تصوّر أو صياغة ما للكون المادّي، فإنّ أبنية النصّ هي إعادة صياغة لهما معا (الكون المادّي والنّص)، فإذا كانت الأبنية تُحيل على ما هو موجود لغةً وواقعا، فإنّ الخطاب يُحيل على ما هو ممكن/ موجود في الواقع المادّي كما في التّصوّر الذّهنيّ، بما أنّ المخاطب عندما يضع هيكل النصّ أو الخطاب شبكةً بنيويّةً إنّما يفسح المجال ليختزل التجريديّ العالم المادّي كما العالم المعرفيّ في أشعتهما المتعدّدة المنسجمة أحيانا، المتباينة أحيانا أخرى¹⁷ في بناء توسّع تطوّريّ.

17 لمزيد التّوسّع، انظر: Sperber & Wilson، 1989: 263 - 273 في حديثهما عن التّواصل في صلته بالخطاب، فالصّريح والضّمنيّ من «إنشاء الكون».

خاتمة القسم النظري

يُمثِّل الانسجام، وهو محور الاهتمام في الفصل الأول من القسم النظري، في مستويات تتعلق بالانسجام في مفهومه وحدوده، وعلاقته بأنساق الترابط ومؤشرات الدالة على تماسك النص وتجانسه وتجليه، وهي النظرة - في مستوى أول - إلى النص باعتباره كلمات وعبارات وتراكيب وجُملا، لا يتم الاعتناء بها في حد ذاتها بل في علاقاتها بما قد يسبق، وبما يلحق في إطار كل لا يكون متجانسا إلا إذا دلت المنطوقات اللفظية على ما يحقق الفائدة، فالتجلي هنا هو اللفظ دون المعنى، أو اللفظ والمعنى، أو المعنى دون اللفظ، بما يحيل على تعدد أنواع الانسجام في المظاهر والمرجعيات ولكنها تقول جميعا إلى علاقتها بالخطاب السردى وبنظريته؛

وأفضت الدراسة إلى نتائج هي:

- أن الانسجام يتوزع بين نحو الجملة ونحو النص (أي منهج التركيب والترتيب، والقواعد والقوانين التي تحكمه)؛ وأنه يمكن أن يتحقق من خلال قرائن لفظية، أو - في غيابها - من خلال مبدأ عدم التناقض.

وصحيح أن للقرائن اللفظية معاني ثابتة استنادا إلى المعجم، لكنها تكتسب خصوصيات أخرى حسب السياق النصي، والجنس الأدبي؛

- وجود القرائن اللفظية أو غيابها قد لا يؤثر على انسجام النص، لكن قد يؤثر في مدى الأثر الذي يتركه صاحب النص في المتلقي، إضافة إلى مدى الجهد الذي يبذله في التعرف إلى قصد الباث والانتفاء إلى الغايات التي يروم الوصول إليها طرقا عملية التواصل؛

- الانسجام في تجليته: النصي والتداولي لا يبقى رهين اللفظ، بل إن للمعنى أيضا دورا في ضبط مراحل النص من خلال البنية الكبرى وما ترتبط به من تداع موضوعي، ونمو، وتطور، وإضافة تتجاوز النص لتشمل الإفادة في علاقة صاحب النص بمتلقيه على المستويين المعرفي والافتراضي؛ وإذا كان المستوى الأول مشتركا - وإن نسبيا - بين الباث والمتقبل، فإن المستوى الثاني هو فقط من إنشاء المتقبل، وقد يفصح عنها إذا كان الخطاب مباشرا بين الطرفين، أما في غير ذلك، فهو ليس مضطرا إلى الإفصاح والتبيين.

واهتمنا في الفصل الثاني من هذا القسم النظري بالاستدلال من حيث: تعريفه وتجلياته في الخطاب؛ وخصوصية الاستدلال في الخطاب: بنية ودلالة، وهو ما نبينه من خلال النتائج التي أفضى إليها هذا المستوى من البحث وهي التالية:

- قد عرّف الاستدلال العديّد من الباحثين، بين عربٍ وغربيين، واقترن الاستدلال عندهم بأنّه مُتّصلٌ، في أحيان كثيرة، بالحجاج والجدل ثنائية إقناع واقتناع (قد يكون بين الإثبات والنفي)، وثنائية وضوح تجلٍّ، أو مغالطة والتواء بما يجعل اللفظ متنازعاً بين أحديّة المعنى وتعدّده، ولا يمكن الحديث عن الاستدلال فقط في حدود نصٍّ ما، بل إنّ مفهومه لا يمكن أن يتبلور ويتّضح إلّا برَبطِ النصِّ بكلِّ العناصر الحاقّة به إنتاجاً وتلقّياً. وقد تختلف الآيات الاستدلال - سواء أعلّق الأمر بالنبأ أم بالمتلقّي - باختلاف انتماءات كليهما والخلفيات التي يصدران عنها، وهو ما يؤدّي إلى أن ما يثبت المنطق من علاقة التلازم بين المقدّمات والنتائج، قد يدحضه أو ينسبه البُعد التداوُلِيّ، لأنّه محكومٌ بطبيعته، بالتغيّر والتبدّل. وقد تتغيّر وظيفة الاستدلال بتغيّر أبنية النصِّ ومقامات التلقّظ والتلقّي كذلك، وهو ما يؤثّر في مناهج الاستدلال وأنواعه، والقواعد التي تسيّجها من وجهة نظر كلّ من سبربر وولسن.

- يقوم الاستدلال على خصائص تُخزّن في الوضوح والتّصريح من ناحية، وفي التّكثيف والعموض من ناحية أخرى يتأتّيان من التّعامل مع العلامات اللغويّة على أنّها شفرات لا بدّ من أن تُفكّ حتّى يتمّ الوصول إلى المعنى المراد التّعبير عنه خاصّة من خلال التّورية، إحدى الأبنية البلاغيّة التي لها دور هامّ في تحقيق التّجانس والانسجام بين أبنية النصِّ ثنائيّة لفظ ومعنى، وموازاة بين عوالم ثلاثة هي: الواقعيّ؛ والأدبيّ التّخييليّ؛ والافتراضيّ الرّياضيّ.

وكانت العناية في الفصل الثّالث من هذا القسم النّظريّ بالأبنية الصّغرى من حيث تعريفها وكيفيّة التّرابط بينها؛ وما تعكسه من علاقة البناء بالدّلالة فالتّجريد نظراً إلى النصِّ في هيكله العامّ.

وما توصّلنا إليه من نتائج هو:

- أنّ البنية الصّغرى - وإنّ كانت تمثّل الوحدة الدّنيا في النصِّ - فإنّها لا تكتسب خصائصها وصفتها إلّا في علاقتها ببنية النصِّ السّطحيّة التي تتوزّع بين شكل يقوم على اللفظ والتّركيب والعبارة، ومضمون يتجلّى في القضايا التي يُمكن أن تتفرّع إليها البنية الصّغرى الواحدة، وأساساً إذا كانت الجملة التي تُكوّنها مركّبة؛ أيضاً في علاقتها ببنية النصِّ العميقة التي لا يُنظر فيها ومن خلالها إلى البنية في اتجاه أفقيّ، وإنّما في آخر عموديّ يقوم خاصّة على تفاعل مختلف المرجعيّات التي تُكوّن البنية الصّغرى (بين معجميّة، واشتقاقيّة صرفيّة عامّة، ونحويّة، فبلاغيّة) فيما بينها، وما يمكن أن تحقّقه من تماسك البنية بين الشّكل والمعنى.

- طبيعة العلاقات سواء أعلّق الأمر بالقضايا نظرة تجزيّة، أم بالأبنية الصّغرى فيما بينها، وما يمكن أن يوجّد من تجانس وتماسك، أو تباعدٍ

وانفراط؛ والتجليات مختلفة محكومة بالمرجعيات مجتمعة، أو بمعيار الواحدة منها؛ وهذا يعني أنّ البحث والاستدلال على انسجام الخطاب إنّما ينشأ بالنظر في مكوناته الدنيا التي تتجسد نصًا، قبل التّخلص إلى المستوى الهيكليّ التمثيليّ العامّ.

– أنّ هناك علاقة جدليّة بين البنية أو الأبنية الصّغرى، والخطاب أو الجنس الأدبيّ الذي تُكون في إطاره، فلا شكّ أنّ المنشئ وهو يُقيم نصّه وينتقي الأبنية الصّغرى والمرجعيات، إنّما يفعل ذلك وفي ذهنه وذاكرته خلفيّة أجناسيّة هي التي تُؤطر عمليّة الإنتاج وتوجّهها بصفة مباشرة أو غير مباشرة.

– يرى فان ديك أنّ قيمة الأبنية الصّغرى الأصليّة تكمن في أنّ تأليف النصّ أو الخطاب لا يمكن أن يتحقّق إلّا بعد تفكيكه إلى وحداته الدّنيا، لأنّ ما يحكمه ليس نظامًا واحدًا وإنّما هو أنظمة متشابكة قد تختلف وقد تأتلف لكن ما يجمعها دائماً هو النصّ أو الخطاب، وهو ما يبرّر إمكانية تحليل الخطاب من مداخل متعدّدة بتعدّد المرجعيّات (لكنّ دائماً في إطار محور واحد هو الأبنية وأولها الصّغرى).

– أنّ العلاقات بين الأبنية الصّغرى ليست اعتباطيّة، إنّما هناك منطق يحكمها وقواعد تسيّجها جعلتها روبول في أربعة شروط تمثّل هذه العلاقات في الاتجاهين: الخطّي الأفقيّ، والنّسقيّ التّطوريّ التّصاعديّ، وترتبط هذه الشروط بالاستدلال على انسجام الخطاب؛

وقد انطلق كلّ من فان ديك وروبول من المُنجز النّصيّ في وضع القواعد والشّروط، لكنّها اقترنت عندهما أيضاً بالممكن والمُفترض من العلاقات والأنسجة، والكلّ أيضاً مقترن بالبُعد التّواصليّ التّداوليّ القائم على المعرفيّ، إمّا الدّاتيّ أو المُشترك بين منشئ النصّ ومتلقّيه خاصّة.

– إنّ الأبنية الصّغرى لا تُمثّل في التّجريد بأيّ تجلٍّ من تجليات المرجعيّات التي تُكوّنها أو تنهض عليها، وإنّما باعتبارها علامات ورموزاً تختزل المفاهيم الكلّية والمُشترك بينها في أيّ نصّ أو خطاب وفق «سُلم» يراه كلّ من سبربر وولسن تمثيلاً لقراءة ذهنيّة في مُطلق الزّمان والمكان تشيّ بالمتعدّد لا بالمفرد، ويربطها آدم باللفظيّ من ناحية، المعياريّ من ناحية أخرى، التّداوليّ من ناحية ثالثة؛ وهو ما يُبرّر الاهتمام بالأبنية الصّغرى وفق ثنائيات متعدّدة مختلفة.

واعتدنا في الفصل الرابع من هذا القسم النّظريّ بالأبنية الكبرى من حيث: تعريفها، وما طرحه ذلك من أوجه إشكالٍ يتعلّق بعضها بالبنية الكبرى في حدّ ذاتها، ويتعلّق بعضها الآخر بمختلف مكونات النصّ: شأن الأبنية

الكبرى في هذا هو شأن الأبنية الصغرى من حيث الحدود وضوحا وتجليا؛ القواعد والأنساق التي تتربط وفقها الأبنية الكبرى؛ ثم الوظائف التي تقرر بالأبنية الكبرى وتتوزع بين ثنائية البناء والمعنى والدلالة من ناحية، وثنائية الإنشاء والتلقي من ناحية أخرى، وعلاقة كليهما بالتفاعل المعرفي والتداولي، وما يستدعيه من ضرورة ربط الأبنية الكبرى ببقية الأطر الحاقة بإنشاء النص أو الخطاب كما بتلقيه.

وما تبين من نتائج:

- أن البنية الكبرى تُحدّ استنادًا إلى خاصية المرونة فيها تجانسا في تعريفها بين الشكل والمعنى والموضوع، فهي جُماع كلّ هذا؛ ويُنظر إليها أيضا وفق الصريح من القول، كما الضمني، ومن زاوية ثالثة أن أي نص يمكن أن يفتح على اللامحدود من الأبنية الكبرى على أساس الإضافة والتوسعة دخولا في جزئيات موضوع ما وتفاصيله، سواء أ كان ذلك من طرف الباث أو المتلقي، كما يمكن أن تتسع بنية نص ما الكبرى أو أبنيته كذلك، على أساس الإشعاع، فيكون المستوى الواحد قابلا لأن توجد له أشباه ونظائر.

- البنية الكبرى قد ترادف القضية، والجملة، والنص، والبنية العليا، بل العبارة والكلمة، وهذا مرتبط بحدود المنطوق اللفظي الذي يضعه صاحب النص ويراها موفيا بالتعبير عن الموضوع الذي يريد تبليغه؛ وهنا تكمن أهمية عملية التواصل في التعرف إلى موضوع النص ليس في حدود المقول منه، بل في جوهر ما يحتويه إحياء وتلميحا إلى الضمني منه.

- لا يُنظر إلى البنية أو الأبنية الكبرى من حيث علاقات الترابط، أو خصوصيات المعنى، وإنما أيضا عبر شبكات التعلق التركيبي أفقيا وعموديا، وفي المنجز النصي، كما في التمثل التجريدي؛ وينظم فان ديك هذه الشبكات وفق قواعد فيها تدرج بالأبنية الكبرى من الجزئي إلى الكلي، ومن القاعدة إلى الهرم، والمستويات جميعا تتكامل ولا تتنافر، ولا ينفي بعضها البعض الآخر.

- تتعدّد صيغ ارتباط الأبنية الكبرى بعضها ببعض على أساس التتابع - التتاب - التضمن - التركيب - البلاغة - الاقتضاء؛ وما يوجّه ذلك هو وظيفتها أو وظائفها من ناحية، كما مقامات القول من ناحية أخرى، وتحيل هذه المقامات أيضا على طبيعة العلاقة بين الباث والمتقبل بما يؤصل خصائص البنية الكبرى ضمن البعد التداولي.

- للبنية الكبرى وظائف عديدة أبرزها أنها آلية من آليات انسجام النص والخطاب، والمساعدة على إدراجه ضمن بعده الأجناسي، كذلك التمييز بين ما له صلة بالمرجع تأصيل نص في إطاره اللغوي أفعال كلام، وبين ما له

صلةً بالسِّيَاق إرجاعَ نصِّ إلى الأطر الحاقّة به، والعوامل المُساعدة على قراءته، وربّما إعادة إنتاجه، وأهمّ هذه العوامل حسب فان ديك، القواعد الخمس: من اختزالٍ وحذف، وتعميم وتركيب، وربّما المستوى الصّفر من إعادة إنتاج النصّ وهيكله الخطاب، وهو ما يُبيّن كيفيّة ترتيب الأبنية الكبرى وخصائصه وشروطه.

هناك نقاط اتّفاق عديدة بين محلّي الخطاب فيما يتعلّق بالأبنية الكبرى خاصّةً على مستوى عُسر دقّة التّحديد وحُصر أصولها وتجليّاتها، لأنّ التّعريف إليها لا يُمكن أن يتمّ بمعزلٍ عن سائر مكونات النصّ أو الخطاب، ولأنّ تبين بنية كبرى واحدة لا يحصل إلّا في إطار «المفهوم الكلّي»: تركيباً - معنى - بناء - قراءة - إبداء رأي وتجريداً.

وكان الاهتمام في الفصل الخامس من هذا القسم النّظريّ، بالأبنية العليا (والحديث عنها قد يكون بصيغة المفرد، كما بصيغة الجمع وفق ما تجلّى في مثنّ الفصل، وقد برّره وفسّره)، وكان ذلك من خلال: التّعريف إليها والتّعريف بها؛ وتبيين الإمكانات المختلفة التي تتجلّى فيها الأبنية الفرعية سواء أ تعلق بها الأمر مستقلة إحداها عن الأخرى، أو في إطار الانسجام بين نوعين أو أكثر ضمن البنية الأصليّة العليا الواحدة¹⁸ من الخطاب السّرديّ دائماً.

وما أفضت إليه الدّراسة أنّ:

- مفهوم البنية العليا يتوزّع بين النّمط الكتابيّ، والنّوع أو الجنس الأدبيّ، كما الجدليّة القائمة بين النصّ والخطاب، ومدى الفصل بينهما تجليّاً إجرائيّاً من ناحية، تجريدياً من ناحية أخرى.

- الحديث عن البنية العليا لا يمكن أن يتمّ بمعزلٍ عن البنيتين الصّغرى والكبرى، لأنّ الانتهاء إلى العليا لا يتمّ إلّا عبرهما (بصيغة المفرد، والجمع خاصّةً)، والعكس ثابتٌ أيضاً، لأنّ البنيتين الصّغرى والكبرى لا يمكن أن تتجلّيا إلّا ارتباطاً بما يمليه الجنس الأدبيّ الذي تتدرجان فيه مجانسةً مقال

18 فقط للتذكير إنّنا اعتمدنا من الخطاب السّرديّ أجناساً أدبيّة محدّدة هي: الأقصوصة، والرواية، والسّيرة الذاتيّة؛ ويتجلّى هذا التّخصيص من خلال القسم النّظريّ؛ وفي إطار أيّ جنس من هذه الأجناس - إذ نعتبره أو نعتبرها بنية أو أبنية عليا أصليّة - هناك اعتماد على أنماط كتابة بين سرد، ووصف، وحوار، وجدلٍ يتوزّع بدوره إلى تجليات مختلفة بين حجاج، أو تفسير، أو حجاج وتفسير في آن؛ وهذه الأنماط هي التي اعتبرها أبنيةً عليا فرعيةً قياسيًّا بالأصل/ الجنس الأدبيّ؛ وغالباً ما تأتي هذه الأبنية - بنائياً - مكونة متتالياتٍ تتراوح بين الأبنية الصّغرى (بما تتضمنه من قضايا وأحداث)، والأخرى الكبرى: إمّا على أساس التتابع، أو التناوب، أو التضمين.

لمقام؛ ثم إنَّ النظرة إلى البنية العليا هي نظرة كلية شمولية للنص أو الخطاب، فكيف يمكن التعرف إلى الكل مع إقصاء جزء من أجزائه؟

- الاستدلال والانسجام، كما كانا لازمتين من لوازم البحث منهجاً ومحتوى في مختلف المراحل، فهما مع البنية العليا أشدُّ لزوماً سواء في علاقات الأبنية بعضها ببعض ضمن نسيج النص الواحد، أو بمقارنة النص بغيره من نفس الجنس، أو من غير جنسه؛ أو بمقارنة النص بالخطاب: بين السُّنة والعدول، أو بمقارنة الجنس بالجنس: الحدود والفواصل، والتجاذبات والانصهارات.

- للأبنية العليا أيضاً علاقات بالجانب المعرفي الموسوعي الذي يساعد على تجاوز الخطاب في بعض تجلياته الإجرائية إلى النظر إليه من زاويتين: الأولى: رمزية إبحائية ثنائية إنتاج نص وإعادة إنتاج، والثانية: تجريدية رياضية لا تكون معها مقومات البنية العليا إلا علامات وإشارات هي الأسس الهامة التي يؤول إليها المتعدد من النصوص، وهو ما يؤدي إلى الحديث عن الطراز أو المنوال.

- صبغة البنية العليا التجريدية لا تنفي عنها اقترانها بالجانب المعرفي الموسوعي الذي منه تستمد مقومات وجودها أصلاً؛ أيضاً بالبُعد التداولي الذي يُعتبر العامل الأساسي في تطوير النص أو الخطاب، وفي إثرائه كذلك أنياً أو زمانياً، وهذا يعني أن تمثيل البنية العليا لا يعكس فقط ما أُنجِرَ، وإنما ما يمكن أن يُنجَرَ، أو يُفترض؛

والغالب الأعم أن يلتجأ - في تمثيل البنية العليا - إلى «الأنموذج الأوفى» الذي يتضمن كل المقومات النظرية للنمط أو النوع أو الجنس، لكن إجرائياً - فيما يسبق الطراز أو يلحقه - قلماً وُجِدَ الفور بما يوافق تماماً الإجراء بالتظير، إلا بكثير من التعسف الذي قد يُخل بجوانب أخرى من عملية الخلق والإبداع الأدبيين، وحتى في بُعد تداولي، بما أن النص ليس بمعزل عن مقام الإنشاء ولا عن سياق التلقي.

- أن تكون لكل بنية عليا فرعية خصوصياتها وشروطها وتمشيها المحدد، فهذا لا يحول دون انفتاحها على غيرها من الأبنية الفرعية التي قد تكون إحداها جزءاً من مقومات بنية أخرى فرعية، فهي منفصلة عنها بخصوصياتها، متصلة بها شبكة علاقات ومُنطَلَقاً يحكم منوال البنية الفرعية الواحدة، فإذا البناء قائم على التلاحم من ناحية مكونات البنية الفرعية الواحدة؛ وعلى التضمين إذ تأتي الأخرى جزءاً منها ولبننة من لبناتها.

- بالنسبة إلى أيّ مكون من مكونات البناء، جزئي أو كلي، فرعي أو أصلي، قد تتكرر ضمنه قرائن أو عبارات أو تراكيب، لكن ينبغي أن ننتبه إلى أن

تجلياته ووظائفه ليست نفسها - حتى وإن تعلق الأمر بالنص الواحد أو الخطاب الواحد - ومُبَرَّر ذلك أن منطق البناء يتطلب التقدّم في العرض والتقدّم في شبكة أو شبكات العلاقات بين الأبنية كما في معانيها ودلالاتها؛ وهو ما يؤدي إلى الاعتراف ضرورة، بأنّ للتكرار خاصيتين: أولاهما: تضمن تماسك النصّ وانسجام الخطاب من خلال الصدى أو الأصداء التي يحدثها أفقياً كما عمودياً في البناء، وثانيتهما: تُبرِّر أهميّة الاختيارات اللغوية في ضمان الحد الأدنى - على الأقل - من البنية العليا أو الجنس الأدبي الذي يندرج ضمنه النصّ بما يجعل الصدى ليس فقط على مستوى المُنجَز النصّي، بل فيما يمكن أن يستدعيه من جوانب نظريّة تجريدية.

- رغم تفرّد كلّ بنية فرعية عليا بخصوصياتها ومصطلحاتها ومفاهيمها، فقد يتجلى في بعض النصوص توازٍ في التركيبة وفي البناء العام إمّا جزئياً أو كلياً - رغم التميّز في خطة التنظيم النظري -

إنّ نظرية الأجناس الأدبية في علاقاتها بتحليل الخطاب لا تُقرز الحدود التامة الواضحة بقدر ما تُكرّس التفاعل وانفتاح الأبنية بعضها على البعض الآخر في مختلف المستويات: التركيبية، والمعنوية، والدلالية، والتداولية، والتنظيمية الهيكلية؛ وهذا فسح المجال للعناية في الفصل السادس والأخير من هذا القسم النظريّ بتجليات الاشتراك والانسجام بين مختلف الأبنية من حيث: العلاقات بين الأبنية: الصغرى والكبرى والعليا، سواءً أ تعلق الأمر بالنوع الواحد، أم في علاقته بغيره من الأنواع؛ وشبكات التماسك وتجلياتها في الشكل والمحتوى، بما يفضي إلى تجريد هيكل عام يُمثّل النصّ - أي نصّ - في علاقته بالجنس وما يمكن أن تشي به من ثنائية السّنة والعدول.

والنتائج التي توصلنا إليها في هذا المستوى من البحث هي:

- علاقات الترابط والانسجام لا تقتصر فقط بالأبنية باعتبارها قوالب شمولية وأطراً عامّة، بل تنشأ هذه العلاقات منذ اللفظة واللفظتين، فإذا مختلف المرجعيّات والنظم النحوية والأعمال اللغوية تجتمع وتأنف لتؤسّس بناء النصّ الذي لا قوام له إلاّ بدعائم الخطاب أو الجنس أو البنية العليا التي تؤطره وتضمن استقلاله وحدةً كلامية، لكن أيضاً ما يمكن أن يُحيل عليه من وجوه الائتلاف أو الاختلاف على أساس القياس والمقارنة.

- الطريقة التي بها يتمّ نظم الكلام لا تعني فقط عنايةً بالأنسجة اللغوية، إنّما تحيل أيضاً على علاقة أو عقْد، قد يكون صريحاً أو ضمناً، بين منشئ الخطاب ومتلقّيه، في إطار حرص الأول على إبراز عنصر في البناء يراه محور النصّ، أو هو يريده كذلك، وبالتالي، فإنّه يلفت إليه نظر المتلقّي من

خلال خصائص في التركيب كالتقديم والتأخير، أو التكرار....، بما يُوجّه القراءة؛ وضمان ذلك هو موافقة الأبنية الصغرى للبنية العليا، إذ تكون جزءاً من ميثاقها الأجناسي. وبطبيعة الحال، إذا كان التركيز على عنصر ما، فهذا يعني أنه الأصل في المعنى وفي توجيه الدلالة أيضاً، مما يحيل على أنّ التجانس والانتلاف ليسا فقط بين البنيتين الصغرى والعليا، بل ومعهما الكبرى موضوعاً أو مواضيع يقوم عليها النص والخطاب.

– التفاعل بين الأبنية يعكس ما لها من وظائف مشتركة وهي: الوظيفة الإدراكية العرفانية؛ والإحالة على مختلف المرجعيات التي على ضوئها تتم قراءة النص، والتعرف إلى أسس الخطاب؛ والمنهج الذي تُعقد وفقه العلاقات بين الأبنية يساعد على التعرف إلى النص: بناءً، وقراءةً، وتأويلًا؛ والتعرف إلى نقاط الاتفاق والاختلاف بين الأبنية.

– إذا كان التكرار خاصية محكومة بثنائية الحضور والغياب بالنسبة إلى البنيتين الصغرى والكبرى على أساس أنهما تترددان بين الثبات والتحول، فإن التكرار يُعتبر لازمة من لوازم البنية العليا، مهما كان إطارها، أو سياقها، أو بعدها؛ من ذلك مثلاً ما ذكره منغون في علاقة شبكة النص التركيبية بالخطاب، فإن كان هناك تكرار، فهو مقصود، بل من المحبذ عدم حذفه رغبة في تجاوز الإعادة، لأنه – من وجهة نظره – له خلفية فكرية تداولية؛ ولا تُخرج التكرار عن إطار الإضافة والتجديد.

ويشير منغون إلى أنّ التكرار هو علامة من علامات الانسجام في أبسط مكونات البناء وأدناها انتهاءً إلى أكثرها شمولاً وتشعباً. ويبين منغون أنّ للتكرار مظاهر في الجنس الواحد، ارتباطاً بميثاقه، في علاقة النص بالخطاب، لكن أيضاً تجليات في صلة الخطاب بالخطاب أو فيما يُعرف بـ «النص الجامع» الذي توجد فيه المواثيق متفاعلة دون أن يفقد أحدها خصائصه، وهذا يعني أنّه من الضروري قياس الإجراء بالتجريد في آية قراءة نصية تروم التعرف إلى بنية النص أو أبنيته العليا؛ وهو التوجه ذاته الذي يذهب إليه دانيير في تعرضه لتشكلات الأبنية الهيكلية، إنّ الفصل بين الأبنية إنّ هو إلا على المستوى المنهجي، إذ – وكما بين التعرف إلى التفاعل بينها – التمايز هو في غاية الدقة ارتباطاً أولاً بحدود أي نص، وثانياً لتواصل الواحدة منها بالأخرى على أكثر من مستوى.

القسم التّطبيقيّ

مقدمة القسم التطبيقي

نشتغل على النصّ في أبنيته ومكوناته انفتاحاً على اللغة من خلال نظرية الأعمال اللغوية، ليس بالعناية بها معزولة أو منفصلة لكن باعتبارها تُكوّن مجموعات تستدعي تصوّرات كافية للتّمكن من وصف الآليات التي تساعد المتلقّي على تبيّن خصوصيات نصّ ما من حيث الأبنية وتوزيعها والعلاقات بينها، وضمانات تماسك النصّ بلوغاً إلى انسجامه، واستدلالاً عليهما معاً، وعلى فهم الخطاب في أبعاده الاجتماعية مختلفة المجالات، ولكن خاصة بتحليل الخطاب السردّي أساساً تحليلاً نقدياً بحثاً في الدلالة وفي جوانب الخطاب التداوليّة أو النّفعيّة الواقعيّة.

وبطبيعة الحال التّوصّل إلى التّنتائج المرجّوة من البحث لا يتمّ إلاّ من خلال منهج في الدّراسة أردناه استدلالاً على تماسك النصّ وانسجامه ومسارته في علاقة النصّ بالسياق من ناحية، وبالمعرفة من ناحية أخرى؛ فإذا المباحث قد اتّصلت بـ:

- نحو النصّ: مظاهره اللسانية وأبعاده النظريّة؛
 - النصّ والسياق في علاقاتهما بالخطاب: الكشف عن ذلك على مستويي المرجع والدلالة؛
 - الأبنية الصغرى والكبرى، وتخصيص جوانب من الدّراسة لعلاقاتها بالأبنية الشّموليّة الكلّيّة العليا في الخطاب: التّفاعل والمعرفة والنّظريّة.
- هي العناية بالنصّ والخطاب تجلّيين من تجلّيات اللغة والأعمال اللغويّة عامّة، ولكنّ العناية منصبّة على الخطاب السردّي في أجناس أدبيّة اتّخذنا لها نماذج وفق أهدافٍ نوضّحها على النّحو التّالي:

1) في الأقصوصة:

* أقصوصة: «مصر المريضة»، عن مجموعة: «المعذبون في الأرض»، لطفه حسين:

ليس تحليل هذه الأقصوصة إلّا جزءاً من إطار الأطروحة العامّ القائم على الاستدلال على انسجام الخطاب السردّي في شكلٍ من أشكاله، يكتسب الخصوصيّة بناءً ودلالة، ولكنّه لا ينأى عن البناء العامّ الذي ينهض على أبنية صغرى وكبرى وعليها تتمايز وتختلف، لكنّها تتفق وتأتلف في آنٍ.

وإنّ أهدافنا الإجرائيّة من تحليل هذه الأقصوصة هي:

1. مظاهر الاتّفاق والاختلاف بين الأبنية: خصائص ووظائف وعلاقات،

ودور كل ذلك في ضمان نسيج النصّ: لفظاً ومعنى؛

2. المكونات والعناصر السردية: بين الإنشاء الفني إطاراً، وبين المرجع الموضوعي تاريخاً وواقعاً؛ وموقع الذات من كل هذه الأطر، الذات الفاعلة أو المفعول بها سلب قدرة وإرادة في الخبر!، والذات المفكرة الباحثة في أنساق النصّ وفي أجناسيّة الخطاب: القرائن والمفهوم: بين النمطيّة والإشكاليّة؛

3. الأبنية الكبرى: المواضيع: ممّ تستمدّ خصوصياتها، والزّهانات الموضوعية فيها وضمنها عقلاً ونقداً، وواقعاً وخيالاً؟ وإلامّ يمكن إرجاع هذه الأبنية في اختيارها وتوزيعها وتفريعها؟ ولماذا التركيز عليها في هذا النصّ، دون سواها؟ وما هو المنهج أو المناهج التي يمكن وفقها، تمثّلها وتمثيلها؟ وهل أنّ نسيج النصّ في أحد مخطّطاته الذي تمثّله الأبنية الكبرى هو شيء ثابت لا يقبل التغيّر، أم أنّ هناك من القواعد ما يشي بإمكانية تدخّل المتلقي في إعادة بناء النصّ، إضافةً إلى إنتاج متلقيه؟ = الصّيغ والمبررات!

4. هل يُمكن أن نتحدّث عن منهج استدلاليّ في هذا النصّ - محور الاهتمام - فإذا السردُ منفتحٌ على الحجاج، وربّما على التفسير، ليس فقط من وجهة نظر المتلقي، بل بالنسبة إلى الكاتب أيضاً، إذ قد تأتي بعض الأبنية الصّغرى من قبيل التبرير والحجّة؟

5. إذا اعتُبرت «مصر المريضة» - مبدئياً - أقصوصة، فما مبررات ذلك؟ وهل في النصّ ذاته ما يدلّ على أنّ الأقصوصة جنس أدبيّ مخصوص في التركيبة الأجناسيّة، ولكن بتصورات نقدية أيضاً؟

6. هل يعني أنّ ما ستُفضي إليه دراسة هذه الأقصوصة سيكون مرآة عاكسة للجنس بمفهوم كلّيّ شموليّ، أم أنّ الأمر لا يتجاوز حدود النصّ الواحد الفريد قد يُقارن، ولكنّه لا يُماتل؟

7. مدى ما يسمح به هذا النصّ/ الأقصوصة من عودٍ على بدء: تنظير - تطبيق - تنظير، يكون معه النصّ إثباتاً، أو نفياً، لما جاء في بعض الدّراسات المُهمّة بتحليل الخطاب من وجهة نظر بنيويّة لسانية أجناسيّة!

* أقصوصة: «الأعداء»، عن مجموعة: «التمور في اليوم العاشر»، لزكريا تامر:

أبرز ما يلفت الانتباه في هذه الأقصوصة هو ثنائية الجمع والنشر، أو الوحدة والتعدّد في البناء والمعنى؛ نظرة تستمدّ مقوماتها من مرجعيات متعدّدة هي:

- المعجم: المعنى والمعنى الآخر!

- التركيب النحوي الدلالي: الأصل في البناء، والتفرّع في المعنى والمبتغى؛
- التحقيق في المرجع/ الواقع، مقابل التجريد في الصيغة/ البلاغة.

وهي مرجعيات متنوعة مختلفة، ولكنها تتوازى وتجذّ الواحدة منها في أصداء الأخرى، تثبت المعنى فتنفيه، أو هي تنفيه لتثبتته. مرجعيات لا تتأى عن الأبنية إذ تكتسب نفس الخصائص والتجليات: ظهور لفظ وخفاء معنى، فيهيمن الشكُّ بنيةً كبرى على المجموعة جزءاً من مجموعة، وليس الفرع من الأولى بأيسر فهمًا من غيره؛ بل كأن الكاتب لا يهتم للتبيين، وإنما هاجسه البيان معاني خفية في خطاب غير مألوف؛ أو هو اختزال الأبنية في نقطة ارتكازها وتكثيف للمعنى حتى لا معنى إلا معرفيًا وموسوعيًا.

إنّ العلة بالنسبة إلى زكريا تامر ليست في الإنشاء وإنما في الواقع وفي العجز عن إيجاد الحقيقة في الواقع، لكن، بأي شكل؟

إنّ إشكاليات هذه الأقصوصة هي مُسَلَّمات في النصّ لا تقي بأغراضها إلا في غموضها، وفي إقصاء الموجود في الواقع والجنس، ولا يتم ذلك إلا بتكثيف الاندراج فيهما: مفارقة لا تتأى عن كلّ مفارقات الأقصوصة/ المرجع، وعن كلّ نقاط الالتقاء فيها بين المتناقضات، وبين الأشكال التعبيرية، وبين الأجناس السردية وغير السردية؛

إنّ الاختيارات الأسلوبية في الأبنية الصغرى إنّ هي إلا جزء من المواضيع المجزأة إيهامًا ومغالطة معنوية: يؤهم الكاتب بالإيقاع بالموضوع، ولكنه الاكتفاء منه بالقصد؛ ويخيّل للقارئ أنّ قد بلغ العبرة من السرد، وما العبرة منه إلا إيدانٌ ببدايته ولا نهاية!

النهاية لا توجد في المعنى ولكنها في انسجام النصّ - رغم بنيته الانتشارية - بما أنّ هناك أصداءً هي التي تحقّق التماسك بين الأبنية والتجاوب على مستوى المعاني/ الأبنية الكبرى بأشكال عديدة قد تُعير في تنظيم بنية «الأقصوصة» السردية «الأنموذج»!

يفتح التّغيير في البناء، وفي طبيعة العلاقات بين الأبنية، كما في وظائفها ربط انسجام الخطاب السرديّ من «عدمه» بمفهومي التراث والحداثة:

- هل هما متنافران إلى درجة التّباعد الكليّ؟
- هل أنّ النصوص الحديثة ليست على صلة بالموروث الثقافي والحضاري والإنسانيّ عامّة؟
- هل البحث في الأبنية يُمكن أن يتمّ بمعزلٍ عن المرجعيات والأصول؟
- ماذا يعني التّغريب في «أقصوصة» «الأعداء»، وفي إنشاء زكريا تامر،

وفي تصوّراته السردية الخطابية؟

- هل اختيار النّص - على مستوى الإجراء - يتطلب ضرورة قياسه بغيره؟
وإذا كان الأمر كذلك، فما هي المُبررات والغايات والأبعاد؟

وأين موضع الانسجام والاستدلال من هذه المقارنات؟

وهل من الضروريّ إيجاد نقاط التقاء كما أخرى قائمة على التّباعد؟

وأخيرًا، هل يتتافى المنطقيّ في المنهج مع الخياليّ في الصياغة والمعنى؟

(2) في الرواية:

* رواية: «دعاء الكروان»، لطفه حسين:

أردتُ أن يكون مدخلي إلى هذا النّص ما جعلته ركيزة أساسية في البحث عن انسجام الخطاب السردّي والاستدلال عليه، وأقصد بها الأبنية: الصّغرى والكبرى في صلتها كلّها بالعليا: علاقات لا تُتبيّن إلاّ بالبحث عن الخصائص المتولّدة عن كَيْفِيّة التّوزيع والانضمام والتّربط.

ولئن اقتطعتُ جزءًا من الأثر؛ وبقدر حرصي على أن يكون النّموذج المُعتمَد في القسم التّطبيقيّ «اعتباطيًا» حتّى لا يكون بحثي إقصائيًا فيه خدمة لنوّجه محدود أو لنزعة فكرية منتقاة بما يُصبغ البحث بالذاتية دون الموضوعية، فإنني اعتمدتُ أيضًا اختيارًا لا يبتعد عن أهداف الدّراسة الكلّية، وعلى أن يكون النّموذج موفيًا بالتّوجّهات العامّة للجانب التّطبيقيّ من ناحية، وبما يعكس النّص المُعتمَد من مقومات يُفترض أنّها تخدم ما يميّز الجنس عن الجنس، والنّص عن النّص دون أن يُقصي ذلك جوانب التماسك في النّص، والانسجام في النّص والجنس معًا.

وأن يكون الجزء المُقتطع من رواية «دعاء الكروان» هو آخر ما ورد فيها - وفق ما يبيّنه النّص - فلاّني وجدتُ فيه من شروط النّموذج في جنس/ خطاب سرديّ مخصوص ما يمكن أن أختزله مقدّماتٍ فيما يلي:

○ تَوَزُّع القضايا والأبنية: الاختيارات والمنطق الذي تأتلف وفقه انفتاحًا على المعاني والمواضيع؛

○ مدى ما يشي به هذا النّص من علاقة نظرية الخطاب الرّوائي بتجلّ من تجلّياته؛ الأصداء التي يعكسها النّص ويجعله - في الآن ذاته - امتدادًا طبيعيًا لكلّ ما سبقه، وتكثيفًا لمعانيه ودلالاته ورموزه؛

○ سكوت صاحب النّص عن علاقة ضمنية يُنشئها بينه وبين المتلقّي، إذ يريده طرفًا مساهمًا في إنتاج النّص بفكّ شفراته، وربما مُعيدًا لبنائه

في عالم افتراضيّ يجد «واقعيّته» في المُشترَك من المعرفة بين
الباث/ صاحب النصّ وبين المتلقّي.

* رواية: «الوجوه البيضاء»، لإلياس خوري:

هذا الأثر يضع قارئه أمام حيرةٍ ونقاطٍ استفهام عديدة منذ عنوانه أو عتبته
الأولى؛ فالمسألة لا تقترب بوضوح وتشويقٍ، وإنما هي غموضٌ وتفكير في
المعنى وغير المعنى: ممّ يتولدان؟ وكيف صاغهما إلياس خوري، وما مبررات
اختياراته؟

إشكالياتٌ نروم إيجادَ إجاباتٍ عنها من خلال النقاط التالية:

- بنية الرواية: العلامات الدالة على الانسجام فيها مثل العتبات:
خصائصها، مراجعها، وتوزيعها ومبرراتها؛ والتأطير والتضمين =
كيفية الصياغة، وعلاقتها بالأبنية وتماسك النصّ.
- الشخصيات: الأصداء ودورها في تحقيق انسجام النصّ من حيث
علاقة الشخصية بالموضوع وبالأنساق وخاصةً من خلال ثنائية
التطور والتقدم، والارتداد والتّمركز فالتنبؤ؛ وتجليات التناغم والانسجام
عبر ملامح الشخصيات ووظائفها وأفعالها.
- أصداء المعاجم والألوان: الاختيارات اللغوية/ اللفظية وأبعادها الرمزية
في النصّ من ناحية، وفي الموروث الإنساني الكوني من ناحية أخرى
= الرمز ودوره في بناء المعنى وإنشاء الجنس الأدبي تغريباً وإيهاماً
بالتّوحي عن الواقع وقضاياها.
- الرّاي والرواية: الاستدلال، من خلال خصائصهما، على انسجام
النصّ/ الرواية من خلال أو عبر الجنس الرّوائي وما ينهض عليه من
مقوماتٍ تتمايز وتختلف، لكنّها تأتلف لتنشئ الكلّ النصّي/ الرّاي،
الشخصيات، أنماط الكتابة (الوصف - السرد الحوار - الحجاج) بين
المتتاليات، وبين الأبنية العليا الفرعية)، الزمن السردّي، والزمان
الموضوعيّ حدثاً، والزمان الذاتيّ رؤيةً للأشياء وتعليقاً عليها؛
والرواية: التّقريرية الإخبارية، والأدبية الفنّية، والتّمطية المتحوّلة في
الصيغة والغاية.
- حدود القراءة التّجزئية وأهدافها استناداً إلى المقومات السردية التي
تُرادف الأبنية العليا الفرعية: خصائص البناء والتوزيع وفق ثنائية
الإجراء والتّقييد ووضع الأنموذج: كيف ساهمت الأبنية - بمختلف
تجلياتها وفروعها - في تحقيق انسجام النصّ وتماسك لبناته؟ وما هي
آليات الاستدلال عليهما؟

3) في السيرة الذاتية:

- «الأيام» ١١١، لطفه حسين:

أبرز إشكالية بالنسبة إلى هذا النص هي ما اعتُبر لدى البعض على أنه مُسلّمة! بإدراج «الأيام» ١١١، بصفة لا نجد لها دوافع ولا مبررات، ضمن المذكرات جنساً أدبياً. والواقع أنّ بنية أي نصّ العليا قد تتحدّد مسبقاً - نقداً وتنظيراً - وهذا يفترض قياس الأنموذج على المُجَزّ النَّصّي. على أنّ هذا القياس لن يتجاوز حدود هيكل النصّ التجريدي، لأنّ الإجماليّ منه ينشأ ويتبلور عبر الأبنية الصّغرى والكبرى في ترانبتها وتداعياها وتراكمها، وما تُفرزه من نسيج قد لا يُوافق الأنموذج ضرورة، أو على الأقلّ في بعض مقوماته وعناصر ميثاقه؛ ولهذا، فإنّ دراستنا «الأيام» ١١١، ستكون على مراحل تُوافِق المنهج الذي سننتبعه على النحو التّالي:

* المستوى الأول من التحليل: يقوم على ركنين أساسيين من أركان السيرة الذاتية، ومنها تتولّد إشكاليات عديدة:

1/ الضمير: بأيّ ضمير، وعمّن يتحدّث طه حسين؟ وإذا نُظِرَ إلى الضمير على أنّه من الأبنية الصّغرى الهامّة التي تُؤسّس للجنس الأدبيّ، فهل يعني ضرورة، أنّ ما وُجد في «الأيام» ١١١، أو فُقد منها يُعتبَر معياراً كافياً على إدراجها ضمن السيرة الذاتية، بل ضمن المذكرات؟

وأنّ يتداخل الدّاتيّ بالموضوعيّ في السرد والنقد معاً عند الكاتب ذاته، فبماذا سنُبرّر ذلك؟ وضمن أيّ إطارٍ سنضعه؟

ثمّ، كيف نفسّر علاقة الرّوائيّ بالتّاريخيّ، خاصّةً من خلال العلاقات غير الباتّة بين الشّخصيّة/ «البطل»، وبين الكاتب (في صفاته المتعدّدة: المؤرّخ - المُفكّر - الأديب)؟ أيّ مرجعيّات نجدها في «الأيام» ١١١؟ وكيف يمكن أن تُساعد في الاستدلال على انسجام الخطاب، الخطاب الذي لسنا متأكّدين من اندراجه ضمن السرديّ حتّى ننظر في بنائه ولبنائه ونسيجه علاقة لغّة بمعنى فدلالة!

ثمّ، بمنّ يتعلّق الاستدلال: هل بصاحب النصّ إذ يجعله مساراً للكشف عن أطروحة يتبنّاها ويدافع عنها ويجعل أبنية النصّ جميعاً سبيلاً إلى ذلك؟ أم هي مهمّة متلقّي النصّ إذ يتخذ من عناصر الإنشاء الفنّي والعقليّ مطيّة للاستدلال على انسجام بنية النصّ السطحيّة ببنائه العميقة؟

2/ الزّمن: صيغة خطاب ومرجعيّة خير: الاختيارات وتوزيعها. ثمّ، عن أيّ زمنٍ يتحدّث صاحب النصّ، وكيف، ولماذا؟

* المستوى الثاني من التحليل: في تتبّع الزمن عبر فصول كتاب «الأيام»
١١١، جميعاً:

- ✓ بنيته: كيف توزعت؟
- ✓ الأنواع الزمنية التي أقامت الكتاب ونظمت بين المعنى والدلالة، وبين الشخصية/ المحور وغيرها من الشخصيات في تراوحها بين الواقعي والمُتخيل؟
- ✓ ما هي العناصر السردية الأخرى التي انفتحت عليها الزمن: كيف، ولماذا؟
- ✓ ضمن أي صنف من الأبنية نُدرج الزمن: هل ضمن الصغرى؟ أو الكبرى؟ أو العليا؟
- ما خلفيات الإشكالية أصلاً؟ وما هي ضمانات الوصول إلى نتائجها اللغوية والخطابية؟

* المستوى الثاني من التحليل: يتعلّق بالبحث في أجناسية «الأيام» ١١١، على ضوء ما تبين في المستويين الأولين من البحث، (حتى وإن كانت القراءة جزئية ولم تستوفِ كل المقومات السردية، ولكن ما اخترناه رأيناه أبرز العلامات التي يمكن أن تساعد على المقارنة بين مختلف الأجناس الأدبية المتقاربة التي يقع البعض منها على تخوم البعض الآخر حتى يُصبح من العسير الفصل بينها إذا ما تواترت نفس المقومات - وإن بنسب متفاوتة! -)

على أن هناك عناصر أخرى توجّه البحث في علاقة النص بالخطاب آنياً وزمانياً؛ فإضافة إلى المنتج، هناك القراءة والتأويل استناداً إلى نقاط استفهام قد لا يطرحها المتن - إذ يؤهم بالوضوح والتجلي - بقدر ما تُثيرها الحواشي، لا تأتي منفصلة، وإنما يجعلها طه حسين جزءاً من أصل، فتجعل الخطاب الحديث مفتوحاً على التراث السردى - حتى وإن صيغ شعراً - ممّا يجعل مجال الدراسة يتجاوز البحث في علاقة النثر بالنثر، إلى علاقة النثر بالشعر، ثم علاقة المعاصرة بالأصالة: كيف يُمكن أن يساهم ذلك في إنشاء بناء النص، وكيف يحقق انسجامه بعد أن يفترض أنه حقق تماسكه، فلا تتأفر؟! -

- «الخبز الحافي»، لمحمد شكري:

إشكالية «الخبز الحافي» تبدو منذ العنوان تعدّداً في الأقسام، وفي المرجعيات. والسؤال الذي يطرح: هل أريد بها الترادف، أم التحوّل من المرجعية إلى الأخرى، أم التدرّج من دلالة المعنى إلى محاصرة الجنس أو إلى إنشاء معالم السيرة والرواية والسرد على ضوء التاريخ في أصول تثبت في

حادثة سُلّقي بتبعاتها وتترك آثارها في الشّخصيّة/ المحور، وفي مختلف ما سنتّجه في الحياة والمجتمع، وفي الوجدان والفكر - وإنّ بصفة باهتة في هذا الجزء الأوّل من سيرة ليست أنموذجاً، وإنّما هي نموذج لعذابات الجسد والروح، واحتراق العاطفة مقابل إشعال جذوة العقل.

هي ثنائيات ستحكم بناء «الخبز الحافي» ليس على أساس التّناقض والتّنافر، ولكن وفق التّوافق والانسجام بتحويل الأحداث إلى حدثٍ عن ذاتٍ منفردة تبحث عن شتاتها في تعدّد المعاني والتّقائها في القصد الذي أصله استعارة ومشابهة، وغايته وضوحٌ في العبارة وتعرية للمعنى كشفاً عن فُبح الواقع وبؤس الحياة. صورة قائمة يأتي الاستعمار وقرائنه ليخفّف من وطأتها وليحقّق التّوازن فيما اختلّ بطريقة فريدة!

تلك هي بنية «الخبز الحافي» لا تكتمل ولا تتّضح إلّا بتقبيح الحسن وتحسين القبيح واستصاغته ضماناً للحياة وللبقاء معاً. وإنّ البنية أيضًا هي بنية المعنى علاقة تلازميّة بين الأبنية الصّغرى من ناحية، وبين الأبنية الكبرى من ناحية أخرى، واتّصالٌ وثيقٌ حتّى لا يكاد النوعان ينفصلان.

إنّ اللّغة عند محمّد شكري هي سبيلٌ لإنشاء سيرة ذاتٍ لا تكاد تفارق الميثاق الذي لم يُنحَ حرصاً على الأنموذج، وإنّما جاء في إطار سردٍ أطوار مأساة الدّات الفردية كما الجماعيّة المُهمّشة التي تُدفعُ إلى الابتذال والرّذيلة دفعاً. واللّغة عنده أيضًا، تُوافق العبّرة في الأنموذج السّرديّ، وأراده محمّد شكري تخليص الدّات من أدرانها، وتخليصها من عذابات السّنين وخواء العائلة من القيم الماديّة والمعنويّة جميعاً.

إنّ بنية «الخبز الحافي» تتطوّر بالتّوازي مع الحدث، وما الحدث إلّا وجهًا من وجوه الشّخصيّة؛ فإذا البناء هو: لغة ← حدث (سرد) ← تصوير (وصف) ← تواصل افتراضيّ يقيمه الكاتب مع المتلقّي ≠ قطيعة افتراضيّة أيضًا تريدها الشّخصيّة مع كلّ الأطر الحافّة بها.

وإنّ الأبنية الكبرى في «الخبز الحافي» لا تتأتّى من المعاني الموجودة، ولكن ممّا تحيل عليه في التّحليل الاجتماعيّ، والنّفسيّ، ثمّ النّصّي/ الخطابيّ ثنائيّة واقع وتوقع، حقيقة وخيال.

البناء في «الخبز الحافي» يتّصل فيه الطّراز السّيريّ بالطّراز الرّوائي: ويمكن تخطيط كليهما نظريًا وافتراضيًا، أمّا على مستوى التّسيج النّصّي الإجماليّ، فهما متلاحمان، فإذا «الخبز الحافي» هو في الآن ذاته سيرة ذاتيّة روائية، وهو أيضًا رواية سيرة الدّات: تغيّر في مواقع الألفاظ دون أن تنفصل المصطلحات عن مفاهيمها أو عن أصولها التّنظيريّة - حتّى وإنّ لم يكن

محمد شكري واعياً بها وعياً أجناسياً تاماً، بما أن خلفيّة كلّ من السيرة الداتية والرواية هي بؤخ بكوامن النفس وبعذابات الجسد وبحيرة الفكر ليس إزاء الموجود (فهو واضح بالنسبة إلى الشخصية إلى درجة الابتذال، وما لم يكن يعرفه منه فلائنه لم يَعِشْهُ، أو لم يُحَدِّثْ عنه، ولم يتحدث فيه) وإنّما إزاء مبررات الموجود والوجود معاً، وهذا ما يُبرّر أيضاً اعتبار صيغ الاستفهام من الأبنية الصغرى الأساسية التي تُنشئ النصّ استناداً إلى: القضاء والقدر - الاختيار والجبر - الإرادة والمسؤولية - العدالة الإلهية - الثواب والعقاب - الملائكة والشيطان: مفاهيم لا يتناولها محمد شكري من مدخل ديني أو عقائدي، ولكنّه يريد أن يفهم بنية الذات وتركيباتها، ووجودها ومنزلتها، ويحاول في الآن ذاته، أن يجد تفسيراتٍ مقنعةً لما كان يراه ويلاحظه من تفاوتٍ غريب مريب بين الأنا والآخر!

إنّ «الخبز الحافي» لا إجابات فيها عن أسئلة الشخصية، ولا عن إشكاليات القراءة، وإنّما هي تجاذبات النفس والروح، والمادة والمعنى، والوعي واللاوعي؛ وهي تداخلاتٌ أجناس أدبية متعدّدة هي: السيرة الداتية، والرواية، والمذكرات، والاعترافات؛ تجتمع كلّها لتتحت نصّاً زئبقياً لا يحاصر، ولتُصوّر ذاتاً قلقة لا تصل إلى قرارٍ إلا صدفةً تحتاج إلى جهد كبير حتّى تتبلور وتتوضّع.

والسؤال الذي يظلّ مطروحاً حتّى ينكشف: هل ستظلّ الذات رهينة الآخر في سبُل وجودها وقدرتها على الخروج من الهامش إلى المحور الذي لا يتمّ إلا من خلال الحركة في الفكر وفي المجتمع؟

والإشكالية الأوسع هي في صيغ انسجام الخطاب عبر «الخبز الحافي»: إلّا يمكن أن يُفْضِي؟ وما هي نتائج الاستدلال عليه ليس فقط بالنسبة إلى «الخبز الحافي» فحسب، بل في صلته أيضاً بأيّام طه حسين: سيرة الذات وسيرة الجنس الأدبي؟!

بحثٌ يأتي في إطار دعم النظري بالتطبيقي من خلال شبكات العلاقات اللسانية والتقنية، والجزئية والكلية، فالنصّية والخطابية، من خلال التوجّه الاستدلالي على التماسك خاصية لسانية للملفوظات، وعلى الانسجام نتاج جهد تأويلي للألفاظ الحاضر منها والغائب ثنائية تصريح وتلميح، أو مقول ومسكوت عنه، وما بينهما هو الجانب الدلالي - المرجعي: الواقعي أو الإنشائي.

وقد تتعدّد مستويات الاستكشاف والتّمثيل عبر مخطّطاتٍ متنوّعة، وربّما تختلف حسب معايير التّرابط والتّجانس ومستوياتهما، واقتراًناً بخلفية صاحب النصّ، ينأى عمّا أنتج، لكن قد تكون للمتلقّي دوافع للبحث عن مرايا تعكس وجوده خاصّة إذا برزت بنية أو مقوم أجناسي لا يجعل النصّ مُنبأً عن

صاحبه، لكن في الآن ذاته، لا يُمكن اعتبار هذه العلاقة شرطاً لتقبّل النصّ أو تحديد أجناسيّته.

يُكون الاهتمام بالخطاب وبالنصّ وعناصره من خلال أنظمتها والقواعد التي تحكم كلاً منها؛ وينفتح جميع هذا على التأويل، في المبتدأ نحو نصّ وتركيب دلالة على مستوى الملفوظ، وفي المنتهى على تأويل استعمال اللغة في تجليات أدبيّة، ولكنها ليست بمعزلٍ عن البُعدين المعرفيّ والواقعيّ.

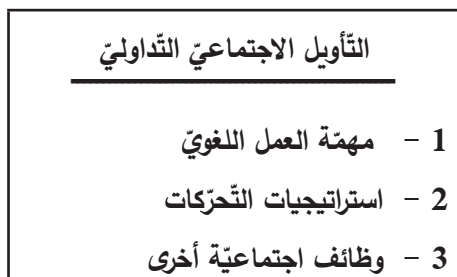
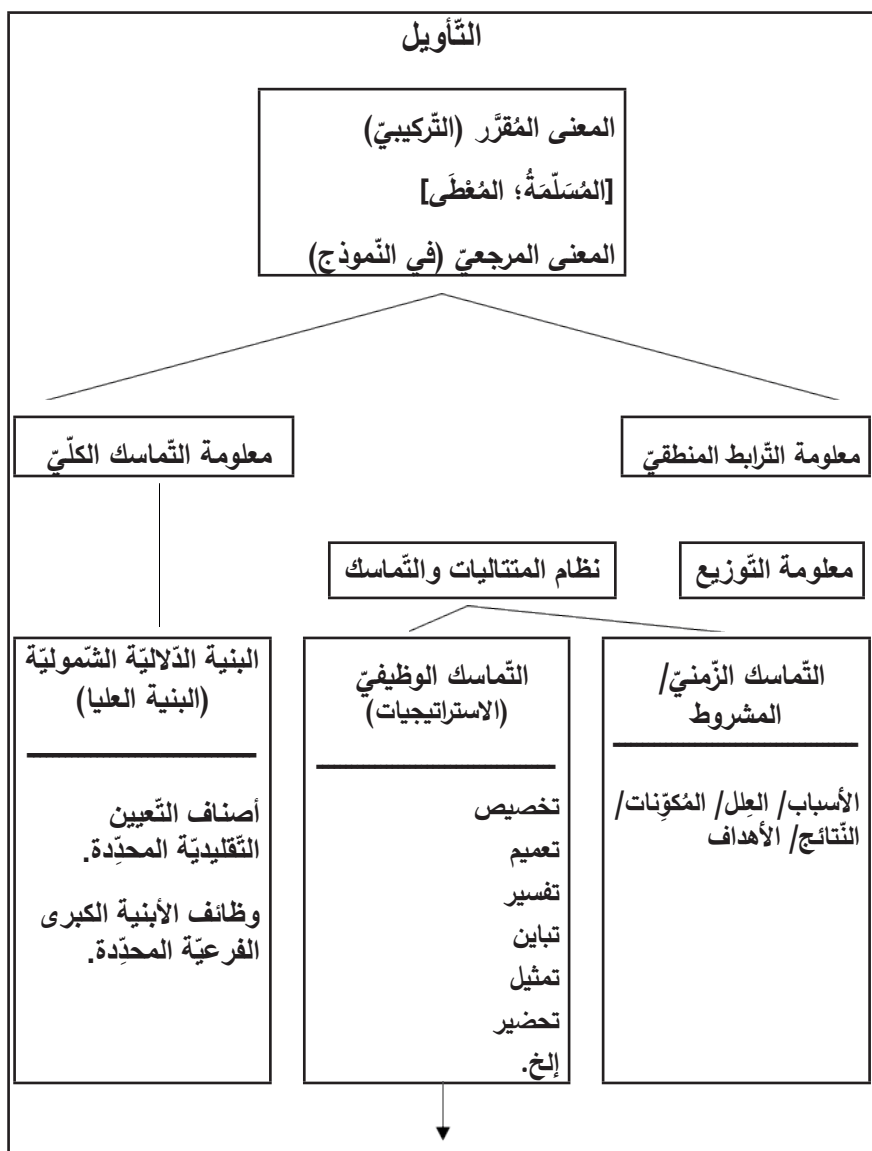
إنّ التأويل هو مسارٌ استدلاليّ وعمليات بحثٍ في المنطق الذي يحكم العلاقات بين الأبنية في مختلف أنواعها وفروعها من ناحية، وبين المبنى والمعنى من ناحية أخرى، المعنى الذي يُنبئُ في التركيب وفي النصّ عامّةً، كما يستند إلى نظريات تحليل الخطاب: لسانياً ودلالياً، تتعدّد ولكنها تؤوّل إلى التعرّف إلى مختلف درجات التركيب والتعقيد في النصّ والخطاب أنياً، ومنهما التأويل بتوسيع دوائرهما زمانياً من خلال البحث في:

- الخصائص التي تُميّز النصوص إمّا بالنظر إليها منفصلاً بعضها عن البعض الآخر، وإمّا من خلال مقارنة النوع بالنوع، أو الجنس بالجنس؛
- التماسك والانسجام: صيغهما وتجلياتهما وخلفياتهما (فكريّة، إيديولوجيّة، واقعيّة - اجتماعيّة، أدبيّة...) ومناهجهما وشروطهما ونشرهما صلةً بين صاحب النصّ ومتلقّيه؛
- سياق البناء ومقام التقبّل: العلاقات بين النصّ والخطاب، والأطر الحاقة ببيانها وإبراز خصوصيات المدونة، والتحوّل منها إلى تحليل الخطاب الدلاليّ كما يلخصه فان دايك في البيان التّالي:

المدخلات والبيانات

1. بنية الخطاب السطحيّة
2. بنية النصّ الطباعيّة (غير اللفظيّة، المرئيّة): المؤشّرات والعلامات
3. المعلومات المعرفيّة (المعرفة، المعتقدات)
4. المعلومات السياقيّة





(Van Dijk، II، 1985: 133)

الفصل الأول

الاستدلال على انسجام الخطاب
السردّي الأقصوّة نموذجاً

1. النص الأول

تحليل أقصوصة «مصر المريضة» من مجموعة «المعذبون في الأرض» لطفه حسين

النشر والجمع من مقتومات انسجام الخطاب ومظاهره في هذه
الأقصوصة

1. 1. النص

مصر المريضة

[ك 1] لَمْ أَكْذْ أَصْعَدُ إِلَى السَّفِينَةِ وَأَسْتَقِرَّ فِيهَا وَأَفْرَغُ مِنْ هَذِهِ الْمَرَامِسِ
الْبَغِيضَةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا لِكُلِّ مُبْجِرٍ، مَهْمَا يَكُنِ الشَّغْرُ الَّذِي يُنْجِرُ مِنْهُ، حَتَّى
عَلِمْتُ بِأَنَّ مِصْرَ مَرِيضَةً. [ك 2] فَاسْتَمَعْتُ لِلنَّبَا غَيْرَ حَافِلٍ بِهِ وَلَا آبِهَ لَهُ وَلَا
مُلْقٍ إِلَيْهِ بَالًا، [ك 3] فَالْتَبَأُ مَنْشُورٌ فِي إِحْدَى الصُّحُفِ الْفَرَنْسِيَّةِ الَّتِي تَصْدُرُ
فِي مَرْسِيلِيَا. وَمَا أَكْثَرَ مَا يُنْشَرُ عَنْ مِصْرَ مِنْ هَذِهِ الْأَنْبَاءِ الَّتِي لَا تَصَوِّرُ
حَقًّا وَلَا تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا مَا يَكُونُ فِي نَفْسِ الَّذِينَ أَبْرَقُوا بِهَا مِنْ بَعْضِ
لِمِصْرَ أَوْ مِثْلِ لِكَيْدِ لَهَا وَالنَّعْيِ عَلَيْهَا وَالْإِسْرَافِ فِي مَا يُذَاعُ عَنْهَا مِنْ أَنْبَاءِ
السُّوءِ.

[ك 4] وَالصُّحُفُ الْفَرَنْسِيَّةُ، فِي هَذِهِ الْأَشْهُرِ الْأَخِيرَةِ، قَلِيلَةُ الْعُطْفِ عَلَى
مِصْرَ، شَدِيدَةُ الضِّيقِ بِهَا، سَرِيعَةٌ إِلَى التَّحَدُّثِ عَنْهَا بِمَا لَا يُحِبُّ الْمِصْرِيُّونَ،
تَنْتَهَرُ الْفَرَصَ لِذَلِكَ إِنْ سَنَحَتْ، وَتَخْلُقُهَا إِذَا لَمْ تَسْنَحْ، [ك 5] وَقَدْ كَانَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ فَرَنْسَا تِلْكَ الْخُطُوبُ الَّتِي أَحْفَظُنَا عَلَى الْفَرَنْسِيِّينَ وَأَعْرَتْنَا بِهِمْ، وَأَحْفَظَتْ
عَلَيْنَا الْفَرَنْسِيِّينَ وَأَعْرَتَهُمْ بِنَا. [ك 6] فَالْقَارِئُ الْمُسْتَبْصِرُ خَلِيقٌ أَنْ يَصْطَنَعَ

كَثِيرًا مِنَ الْحَرْصِ وَالْأَنَاءِ حِينَ يَقْرَأُ أَنْبَاءَ مِصْرَ فِي فَرَنْسَا، وَحِينَ يَقْرَأُ أَنْبَاءَ فَرَنْسَا فِي مِصْرَ. وَلَسْتُ أَخْفِي عَلَى الْقَارِئِ أَنِّي [ك 7] لَمْ أَكْذِ أَسْمَعُ مَا نُشِرَ فِي تِلْكَ الصَّحِيفَةِ مِنْ أَنَّ مِصْرَ مَرِيضَةٌ، وَمِنْ أَنَّ مَرَضَهَا يُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ وَبَاءَ الْكُولِيرَا، وَمِنْ أَنَّ الْحُكُومَةَ الْمِصْرِيَّةَ قَدْ أَخَذَتْ تَتَأَهَّبُ لِمُقَاوَمَةِ الْوَبَاءِ حَتَّى رَفَعَتْ كِتْفِي وَهَزَزْتُ رَأْسِي وَابْتَسَمْتُ ابْتِسَامَةً سَاخِرَةً مِنْ هَؤُلَاءِ الصَّحَفِيِّينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَكِيدُوا فَلَا يُحْسِنُونَ الْكَيْدَ، وَأَنْ يَكْذِبُوا فَلَا يُحْسِنُونَ تَخْيِيرَ الْأَكَاذِبِ.

[ك 8] وَمَضَى يَوْمٌ وَيَوْمٌ، وَالسَّفِينَةُ تَجْرِي إِلَى غَايَتِهَا، يَغْتَفُ بِهَا الْبَحْرُ حِينًا، وَيَرْفُقُ بِهَا حِينًا آخَرَ، دُونَ أَنْ يَتَحَدَّثَ أَحَدٌ إِلَى أَحَدٍ بِهَذَا النَّبَأِ السَّخِيفِ الَّذِي نُشِرَتْهُ صَحِيفَةٌ سَخِيفَةٌ، وَمَرَّ بِهَا الْقَارِئُونَ مَرًّا سَرِيعًا. وَلَكِنَّا نُمْسِي ذَاتَ يَوْمٍ، وَإِذَا إِعْلَانٌ قَدْ أُلْصِقَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ السَّفِينَةِ، يُنَبِّئُهُ فِيهِ الْمُسَافِرُونَ إِلَى أَنَّ الْمَاءَ الْعَذْبَ سَيُحْجَرُ عَنْهُمْ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ، لِتَسْتَطِيعَ السَّفِينَةُ أَنْ تَبْلُغَ بَيْرُوتَ دُونَ أَنْ تَأْخُذَ شَيْئًا مِنْ مَاءِ مِصْرَ، لِأَنَّ وَبَاءَ الْكُولِيرَا يَمْنَعُهَا مِنْ ذَلِكَ.

[ك 9] هُنَالِكَ، لَمْ نَرْفَعْ الْأَكْتَفَ، وَلَمْ نَهْزِ الرُّؤُوسَ، وَلَمْ نَبْتَسِمِ ابْتِسَامَاتٍ سَاخِرَةً وَلَا جَادَةً، وَإِنَّمَا نَظَرُ بَعْضُ الْمُسَافِرِينَ إِلَى بَعْضٍ فِي صَمْتٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ بَعْضُ الْمُسَافِرِينَ إِلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ. أَمَّا أَنَا فَأَعْتَرَفْتُ بِأَنِّي لَمْ أَرْفَعْ كِتْفِي وَلَمْ أَهْزِ رَأْسِي، وَإِنَّمَا أَطْرَفْتُ إِلَى الْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ أَتَصَاعَلُ وَأَتَصَاعَلُ، وَوَدَدْتُ لَوْ نَظَرْتُ إِلَيَّ مِنْ حَوْلِي مِنَ النَّاسِ فَلَمْ يَرُونِي، وَوَدَدْتُ لَوْ تَحَدَّثْتُ إِلَيَّ مِنْ حَوْلِي مِنَ النَّاسِ فَلَمْ يَسْمَعُوا مِنِّي لِحَدِيثِهِمْ رَجَعَ جَوَابٍ. فَلَمْ يَكُنِ الشُّعُورُ الَّذِي وَجَدْتُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ شُعُورَ الْخَوْفِ، وَلَا الشُّعُورَ بِالْحَاجَةِ إِلَى الْاِخْتِيَاظِ، وَإِنَّمَا كَانَ شُعُورًا غَرِيبًا أَسْتَطِيعُ الْآنَ أَنْ أَقُولَ أَنَّهُ كَانَ مِزَاجًا مِنَ الْحُزَنِ وَالْخُزْيِ جَمِيعًا.

[ك 10] كَانَ فِيهِ مِنَ الْحُزَنِ عَلَى هَذَا الْبَلَدِ الَّذِي كُنَّا نَرَاهُ خَلِيقًا بِالسَّعَادَةِ، وَالَّذِي أَفْنَيْنَا شَبَابَنَا وَكُھُولَتْنَا وَجُھُودَنَا وَقُؤَانَا لِنَرْقَى بِهِ إِلَى بَعْضِ هَذِهِ السَّعَادَةِ الَّتِي كُنَّا نَرَاهُ لَهَا أَهْلًا. ثُمَّ هَا نَحْنُ أَوْلَاءُ نَرَى الشَّقَاءَ يَصُبُّ عَلَيْهِ صَبًّا، وَالْبَلَاءَ يَصُبُّ عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِهِ، وَالْآلَامَ وَالنَّوَائِبَ تَسْعَى إِلَيْهِ مِنْ

كُلِّ وَجْهٍ. نَرَى الْبُؤْسَ الْبَائِسَ يَغْمُرُ الْكَثْرَةَ الْكَثِيرَةَ مِنْ أَهْلِهِ، فَيَلَابِسُهُمْ مُلَابَسَةً مُتَّصِلَةً لَا تَقْلَعُ عَنْهُمْ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، فَهُمْ جَائِعُونَ غَرَاءَ جُهَالٍ، أَشْقِيَاءُ بِهَذَا كُلِّهِ، وَيَزِيدُهُمْ شَقَاءً أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَعْرِفُونَ هَذَا الْبُؤْسَ الَّذِي هُمْ فِيهِ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَنْعَمُوا، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَخْلُصُوا مِنْ بُؤْسِهِمْ، وَأَنْ يُحَقِّقُوا لَأَنْفُسِهِمْ شَيْئًا مِنْ نَعِيمٍ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَبْلُغُونَ مَا يُرِيدُونَ، وَلَا يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَبْلُغُونَ مَا يُرِيدُونَ، وَلَا يَجِدُونَ مَنْ يُعِينُهُمْ عَلَى أَنْ يَبْلُغُوا مَا يُرِيدُونَ.

[ك 11] وَفِيهِ الْحُزْنُ عَلَى هَذَا الْبَلَدِ الَّذِي كُنَّا نَرَاهُ أَهْلًا لِلْحُرِّيَةِ وَالْأَمَنِ، وَالَّذِي أَفْنَيْنَا شَبَابَنَا وَكُھُولَتْنَا وَجُھُودَنَا وَقُوَانَا لِنَنْظُرَ لَهُ بِبَعْضِ حَقِّهِ مِنَ الْحُرِّيَةِ وَالْأَمَنِ، ثُمَّ هَا نَحْنُ أَوَّلًا، نَنْظُرُ فَتَرَاهُ مَغْلُولًا لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَتَحَرَّكَ، مَعْقُودَ اللِّسَانِ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَنْطِقَ، مُقْفَلَ الْقَلْبِ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَجِدَ مَا تَجِدُ الشُّعُوبُ بِأَيْسَرِ كَرَامَةِ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ نَنْظُرُ إِلَيْهِ فَتَجِدُهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ، يَخْشَى أَنْ يَفْعَلَ فَيَغْضَبَ سَادَتَهُ، وَيَخْشَى أَنْ يَقُولَ فَيُحْفِظَ قَادَتَهُ، وَيَخْشَى أَنْ يَسْكُتَ فَيُسَوِّءَ بِهِ ظَنُّ الْقَائِمِينَ عَلَى أَمْرِهِ فَهُوَ حَائِرٌ بَيْنَ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ، وَبَيْنَ الْكَلَامِ وَالصَّمْتِ، وَبَيْنَ الشُّعُورِ وَالْجُمُودِ.

[ك 12] وَفِيهِ الْحُزْنُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى هَذَا الْبَلَدِ الَّذِي كُنَّا نَرَاهُ أَهْلًا لِلْإِسْتِقْلَالِ، وَالَّذِي أَفْنَيْنَا شَبَابَنَا وَكُھُولَتْنَا وَجُھُودَنَا وَقُوَانَا لِنَنْظُرَ لَهُ بِحَقِّهِ فِي هَذَا الْإِسْتِقْلَالِ، ثُمَّ نَحْنُ نَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ يُرَدُّ عَنْ حَقِّهِ أَعْنَفَ الرَّدِّ وَأَقْسَاهُ، وَإِذَا الْمُتَنَصِّرُونَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَرَضَّوْهُ وَيَتَمَلَّقُوْهُ فِي أَمْسِ الْقَرِيبِ، قَدْ ائْتَمَرُوا بِهِ وَتَنَكَّرُوا لَهُ وَكَادُوْهُ كَيْدًا، إِنَّ صَوْرَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يُصَوِّرُ الْجَوْرَ وَالْغَدْرَ وَالظُّلْمَ وَالْجُحُودَ.

[ك 13] وَفِيهِ الْحُزْنُ بَعْدَ هَذَا وَذَلِكَ لِهَذَا الْبَلَدِ الَّذِي صُرِفَتْ عَنْهُ ضُرُوبُ الْخَيْرِ فِي السِّيَاسَةِ وَالثَّقَافَةِ وَالْاِقْتِصَادِ، وَمَنْحَهُ اللَّهُ مَعَ ذَلِكَ إِقْلِيمًا مُعْتَدِلًا وَأَرْضًا خِصْبَةً وَسَمَاءً صَافِيَةً وَنَهْرًا يَفِيضُ بِالنِّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ، وَكَانَ هَذَا كُلُّهُ خَلِيقًا أَنْ يَكْفَلَ لِأَهْلِهِ حَيَاةً مَادِيَّةً مُحْتَمَلَةً، وَيَصْرِفَ عَنْ أَهْلِهِ الْآفَاتِ وَالْعِلَلِ وَالْأَدْوَاءِ، وَلَكِنَّا نَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ قَدْ حُرِمَ حَتَّى هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَإِذَا الْآفَاتُ وَالْعِلَلُ وَالْأَوْبَةُ تَسْعَى إِلَيْهِ مِنْ أَقْصَى الشَّرْقِ وَمِنْ أَقْصَى الْجَنُوبِ، فَلَا تَجِدُ مَنْ يَزِدُّهَا عَنْهُ أَوْ يَحْمِيهِ مِنْ شَرِّهَا، وَإِذَا الْآفَاتُ وَالْعِلَلُ وَالْأَوْبَةُ تَهْبِطُ عَلَيْهِ مِنْ

سَمَائِهِ الصَّافِيَةِ، وَتَخْرُجُ لَهُ مِنْ أَرْضِهِ الْخَضِبَةِ، وَتَسْعَى إِلَيْهِ مِنْ نَهْرِهِ
الْفَيَاضِ، وَإِذَا أَهْلُهُ مَرْتَعُ الْآفَاتِ وَالْعِلَلِ وَالْأُوبَةِ، تُصِيبُ مِنْهُ مَا تَشَاءُ كَمَا
تَشَاءُ! وَإِذَا الْعَالَمُ كُلُّهُ يَتَلَقَّى الْأَنْبَاءَ فِي أَقَلِّ مِنْ شَهْرٍ بِأَنَّ هَذَا الْبَلَدَ الَّذِي
خُلِقَ لِلْعِرَةِ مَازَالَ مُسْتَدَلًّا، وَبِأَنَّ هَذَا الْبَلَدَ الَّذِي خُلِقَ لِلْأَمْنِ مَازَالَ خَائِفًا، وَبِأَنَّ
هَذَا الْبَلَدَ الَّذِي خُلِقَ لِلْحُرِّيَةِ مَازَالَ مُسْتَعْبَدًا، ثُمَّ بِأَنَّ هَذَا الْبَلَدَ الَّذِي خُلِقَ
لِلصَّحَّةِ مَرِيضٌ يَفْتِكُ وَبَاءَ الْكُولِيرَا بِمُذْنِهِ وَقَرَاهُ كَمَا يَشَاءُ، وَمَتَى يَشَاءُ،
وَحَيْثُ يَشَاءُ!

[ك 14] ثُمَّ فِي هَذَا الشُّعُورِ الَّذِي أَطْرَقَتْ لَهُ إِلَى الْأَرْضِ وَتَضَاعَلَتْ لَهُ
وَتَضَاعَلَتْ، شَيْءٌ عَظِيمٌ مِنَ الْخَزْيِ لِهَذَا الْبَلَدِ الَّذِي كُنَّا نَظُنُّهُ قَدْ تَجَاوَرَ هَذَا
الطَّوْرَ، طَوْرَ الْبِلَادِ الْمُتَاخِرَةِ الْعَقِيقَةِ الْجَاهِلَةِ الَّتِي تَفْتِكُ بِأَهْلِهَا الْأُوبَةَ، فَإِذَا
نَحْنُ نَرَاهُ عُرْضَةً لِلْوَبَاءِ، بَلْ مَرْتَعًا لِلْوَبَاءِ، وَأَيُّ وَبَاءٍ؟ وَبَاءَ الْكُولِيرَا الَّذِي كُنَّا
نَظُنُّ أَنَّهُ لَنْ يَعُودَ إِلَى مِصْرَ بَعْدَ أَنْ فَعَلَ بِهَا وَبِأَهْلِهَا الْأَفَاعِيلَ فِي أَوَّلِ هَذَا
الْقَرْنِ.

[ك 15] لَيْتَ شِعْرِي مَاذَا فَعَلْتَ مِصْرُ؟ وَمَاذَا صَنَعَ الْمِصْرِيُّونَ؟ يُقَالُ أَنَّهُمْ
قَدْ أَنْشَأُوا فِي هَذَا الْقَرْنِ كَثِيرًا مِنَ الْمَدَارِسِ وَمَعَاهِدِ الْعِلْمِ، وَمَضَوْا فِي
الْحَضَارَةِ الْحَدِيثَةِ إِلَى أَبْعَدِ حَدِّ مُمَكِنٍ، فَلَهُمْ بَرْلَمَانٌ كَمَا أَنَّ لِبَعْضِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ
بَرْلَمَانَاتٍ، وَلَهُمْ وَزَارَاتُ مُنَظَّمَةٍ كَمَا أَنَّ لِبَعْضِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُتَحَضِّرَةِ وَزَارَاتُ
مُنَظَّمَةٍ، وَلَهُمْ وَزَارَةٌ قَدْ خُصِّصَتْ لِمَشْأُومِ الصَّحَّةِ، كَمَا أَنَّ لِبَعْضِهِمْ وَزَارَةً
مُخَصَّصَةً لِمَشْأُومِ الصَّحَّةِ، وَلَهُمْ عَاصِمَةٌ تَتَفَوَّقُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ عَوَاصِمِ
الْبِلَادِ الْمُتَحَضِّرَةِ وَتُقَاسُ إِلَى عَوَاصِمِ الدُّوَلِ الْكُبْرَى، يُعْجَبُ بِهَا أَهْلُ بَارِيسَ
وَأَهْلُ لُوندِرَةَ وَأَهْلُ نِيُويُورِكِ إِذَا أَلَمُوا بِهَا وَأَقَامُوا فِيهَا، وَهُمْ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ قَدْ
نَالُوا مِنَ التَّرَفِ مَا عُرِفَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمَمِ الْمُتَحَضِّرَةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ حَتَّى
أَصْبَحَ ثَرَاؤُهُمْ وَتَرَفُهُمْ وَإِقْبَالُهُمْ عَلَى اللَّذَاتِ مَضْرَبِ الْأَمْثَالِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ
كُلِّهَا... كُلُّ هَذَا حَقٌّ، وَكُلُّ هَذَا شَيْءٌ نَسْمَعُهُ حِينَ نَزُورُ بَارِيسَ وَغَيْرَ بَارِيسَ
مِنَ الْمُدُنِ الْكُبْرَى فِي أُرُوبَا وَفِي أَمْرِيكََا. كُلُّ هَذَا حَقٌّ، وَلَكِنَّ مِنَ الْحَقِّ أَيْضًا
أَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ قَدْ تَلَقَّى مُنْذُ شَهْرٍ نَبَأًا مُقْتَضِبًا وَلِكِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ خَطِيرٌ أَشَدُّ

الْخُطُورَةَ، تَلَقَّى النَّبَأَ بِأَنَّ مِصْرَ الَّتِي أَرَادَ إِسْمَاعِيلُ¹ أَنْ يَرَاهَا جُزْءًا مِنْ أُرُوبَا قَدْ أَلَمَ بِهَا وَبَاءَ الْكُؤْلِيرَ وَأَقَامَ فِيهَا، وَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَرُدَّهُ فَلَا تَسْتَطِيعُ لَهُ رَدًّا، وَأَنَّهَا تَسْتَعِينُ بِالْعَالَمِ الْمُتَحَضِّرِ عَلَى رِقَابَةِ أَبْنَائِهَا مِنْ شَرِّهِ وَحِمَايَتِهِمْ مِنْ فَتْكِهِ الْبَغِيضِ.

[ك 16] وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذَا الشُّعُورَ بِالْخَرْبِ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْغُرُورِ وَالْخَبْرِيَاءِ وَالْإِعْتِدَادِ بِالنَّفْسِ وَالْوَطَنِ، وَلَكِنِّي لَمْ أَكُذْ أَبْلُغْ مِصْرَ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَسْتُ مُسْتَأْثَرًا مِنْ دُونِ الْمِصْرِيِّينَ الْمُتَقَفِّينَ بِهَذَا النُّوعِ مِنَ الْغُرُورِ وَالْخَبْرِيَاءِ وَالْإِعْتِدَادِ بِالنَّفْسِ وَالْوَطَنِ، فَكُلُّ مِصْرِيٍّ مُتَقَفٍّ يُقَدِّرُ نَفْسَهُ وَيُقَدِّرُ وَطَنَهُ، وَيَسْتَحْضِرُ مَا بَدَلَ الْمِصْرِيِّونَ مِنَ الْجُهُودِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ لِيَرْقُوا بِوَطَنِهِمْ إِلَى حَيْثُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنَ الْعِزَّةِ وَالْأَمْنِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالصِّحَّةِ فِي

1 المقصود هو إسماعيل صدقي «الطاغية الرهيب»: رئيس الوزراء في مصر في العشرينات من القرن العشرين. حكم مصر في 21 جوان 1930 إلى 04 جانفي 1933. كان من الأحرار، وكان يُمَثِّلُ أصحاب الاتحاد المصري للصناعات الذي يحالف بين الرأسمالية الأجنبية الضخمة في مصر والرأسمالية المصرية الوليدة؛ فقد بادر إلى إلغاء دستور 1923، وألغى مبدأ الانتخابات المباشر وأحلَّ محله مبدأ الانتخاب على درجتين وأغلق البرلمان بسلاسل الحديد وعطل الحياة السياسية وأصدر دستورًا جديدًا في 02 ديسمبر 1930 وَسَّعَ فيه سلطات الملك وَضَبَّقَ على سلطة الشعب، وَحَرَّمَ أصحاب المهن الحرة مِنْ صُحَفِيِّينَ وَمُحَامِلِينَ وَمُهَنْدِسِينَ وَأَطْبَاءَ مِمَّنْ لَا يُقِيمُونَ فِي الْقَاهِرَةِ مِنْ حَقِّ الانتخاب. وَكَوَّنَ حزبًا جديدًا سَمَّاهُ حزب الشعب في 17 نوفمبر 1931، وأنشأ جريدة «الشعب» لسان حال الحزب، وأجرى انتخابات مُزَيَّقةَ قاطعها الشعب، فكانت فترة حُكْمِهِ «صفحة سوداء» في تاريخ السياسة المصرية ونكسة للعمل الديمقراطي. (الجمني، 11، 1993: 627)

يهاجم طه حسين - في هذه الأقصوصة، وفي «المعذبون في الأرض» جميعًا - سياسة إسماعيل صدقي الَّذِي وَضَعَ على الجامعة «قيدًا عنيفًا ثقيلًا»، ثُمَّ يوجِّه كلامه إلى بعض من يشاركه في الحديث فيما يجري في البلاد: «ولكنَّ صفة الأشياء قد التوتَّ في مصر والمنهج الَّذِي يجري عليه قد فسد واعوجَّ.. إِنَّ الأمور ستصبح كما هي، حَتَّى يُؤَلِّيَ اللهَ أمور هذه الأمة قَوْمًا لَا يَتَخَذُونَ الْحُكْمَ وَسِيلَةً إِلَى التَّسَلُّطِ وَالْقَهْرِ» (صحيفة «كوكب الشرق»، 18/03/1933).

لقد كان مِنْ أَثَرِ سَيْطَرَةِ الْمَلِكِ عَلَى الْحُكْمِ بِوَسْطَةِ حِزْبِ الْأَقْلِيَّةِ فِي الْفَتْرَةِ بَيْنَ عَامَيْ: 1929/1934 أَنْ وَجَدَ طه حسين نفسه أمامَ حَتْمِيَّةِ مَهَاجِمَةِ صَدَقِي، وَمُنْذَرًا بِطُغْيَانِ الْمَلِكِ مَعًا؛ وَفِي الْحَالِئِينَ، فَإِنَّ هُجُومَهُ عَلَى النِّظَامِ كَانَ هُجُومًا عَلَى الْمَلِكِ الَّذِي سَيْطَرَ عَلَى أَدَاةِ الْحُكْمِ حِينَئِذٍ.

ومراجعة صحيفتي (كوكب الشرق) و(الوادي) تُرِينَا هَذَا الْهَجُومَ الَّذِي اسْتَهْدَفَ صَدَقِي فِي الظَّاهِرِ، وَاسْتَهْدَفَ الْمَلِكَ وَأُوتُوقَرَاتِيَّتَهُ فِي الْبَاطِنِ. (عبد الغني، 1997: 162)

الْأَبْدَانِ وَالْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ. كُلُّ مِصْرِيٍّ مُتَّقِفٍ يَجِدُ هَذَا الشُّعُورَ الْمُرَّ الَّذِي وَجَدْتُهُ، وَالَّذِي هُوَ مِزَاجٌ مِنَ الْحُزَنِ الْمُمِصِّ وَالْخُزْيِ الَّذِي تُطَاطَأُ لَهُ الرُّؤُوسُ.

[ك 17] وَيَنْظُرُ إِلَيَّ مَنْ كَانَ حَوْلِي مِنَ الْمُسَافِرِينَ، وَفِيهِمُ الْمِصْرِيُّ وَالْأَجَنْبِيُّ، فَيَرَوْعُهُمْ مَا يَرُونَهُ مِنْ هَذَا الْوُجُومِ الَّذِي أُغْرِقُ فِيهِ إِغْرَاقًا غَرِيبًا، فَيَظُنُّونَ بِي فِي أَعْمَاقِ أَنْفُسِهِمُ الظُّنُونِ، وَيَسْأَلُونِي بَعْضُهُمْ مُحَاوَلًا أَنْ يَهْوَنَ عَلَيَّ الْخُطْبَ وَأَنْ يَرُدَّنِي إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَمْنِ: مَاذَا أَجِدُ؟ فَلَا أَزِيدُ عَلَى أَنْ أَذْكُرَهُ بِأَنِّي أَعْرِفُ وَبَاءَ الْكُوْلِيرَا، وَبِأَنِّي قَدْ تَحَدَّثْتُ عَنْهُ فِي بَعْضِ مَا قُرِئَ لِي مِنْ كُتُبٍ، وَبِأَنِّي قَدْ رَأَيْتُ هَذَا الْوَبَاءَ وَلَمَّا أَتَجَاوَزَ الْعَاشِرَةَ، فَكَانَ لَهُ فِي قَلْبِي وَفِي حَيَاتِي كُلِّهَا أَتْلَعُ الْأَثَرَ وَأَعْمَقُهُ وَأَبْعَضُهُ، وَتَأْتُرُ الْأَطْفَالُ حِينَ يَكُونُ عَمِيقًا بَعْضًا إِلَى هَذَا الْحَدِّ لَا يَفَارِقُهُمْ مَهْمَا تَمَتَّدَ لَهُمْ أَسْبَابُ الْحَيَاةِ.

[ك 18] أَ صَدَّقُونِي أَمْ لَمْ يُصَدِّقُونِي؟ لَا أَذْرِي! وَلَكِنِّي أَنَا لَمْ أَصَدِّقْ نَفْسِي، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ هَذَا الْوُجُومِ الَّذِي أُغْرِقْتُ فِيهِ وَبَيْنَ ذِكْرَاتِ الصَّبَا عَلَى مَرَاتِهَا وَعَلَى مَا تُثِيرُ فِي النَّفْسِ مِنَ الْحَسَرَاتِ صِلَةً قَرِيبَةً أَوْ بَعِيدَةً فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَإِنَّمَا نَشَأَ هَذَا الْوُجُومُ عَنْ هَذَا الشُّعُورِ الْحَزِينِ الْمُسْتَخْذِي الَّذِي يَجِدُهُ الْمِصْرِيُّ الْمُتَّقِفُ حِينَ يَرَى آمَالَهُ وَأَعْمَالَهُ وَجُهْدَهُ، وَآمَالَ كَثِيرٍ مِنْ نُظَرَائِهِ وَأَعْمَالِهِمْ وَجُهْدِهِمْ، تَنْهَارُ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَنْعَمُوا بِهِذِهِ الْأَمَالِ، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْعُدُوا بِمَا حَاوَلُوا مِنَ الْأَعْمَالِ، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمْتِعُوا بِمَا بَذَلُوا مِنَ الْجُهْدِ، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَدَّثُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ يَتَحَدَّثْ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، بِأَنَّ آمَالَهُمُ الَّتِي كَانَتْ بَعِيدَةً قَدْ أَخَذَتْ تَقَرُّبُ وَتَقَرُّبُ حَتَّى تُوشِكَ أَنْ تَتَحَقَّقَ، وَبِأَنَّ أَعْمَالَهُمُ الشَّاقَّةَ قَدْ أَخَذَتْ تُؤْتِي ثَمَرَاتِهَا، وَبِأَنَّ جُهْدَهُمُ الْعَنِيفَةَ قَدْ أَخَذَتْ تُذْنِبُهُمْ مِنْ غَايَاتِهِمْ، وَبِأَنََّّهُمْ سَيَسْتَطِيعُونَ بَعْدَ حِينٍ أَنْ يَقِفُوا بَعْدَ طُولِ السَّعْيِ، وَأَنْ يَنْظُرُوا فَإِذَا هُمْ لَمْ يُنْفِقُوا حَيَاتَهُمْ عَبَثًا، وَ لَمْ يَبْذُلُوا جُهْدَهُمْ فِي غَيْرِ طَائِلٍ، وَإِنَّمَا تَلَقَّوْا مِنْ آبَائِهِمْ وَطَنًا ضَعِيفًا مَهِيضًا عَلِيلًا، فَمَارَلُوا بِهِ حَتَّى رَدُّوا إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْ قُوَّةٍ وَصِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ وَنَشَاطٍ، وَمَضَوْا بِهِ فِي طَرِيقِ الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ أَشْوَاطًا وَأَشْوَاطًا، وَهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُسَلِّمُوهُ إِلَى أَبْنَائِهِمْ مُطْمَئِنِّينَ إِلَى أَنَّهُمْ قَدْ نَهَضُوا بِالْحَقِّ فَأَحْسَنُوا الشُّهُوضَ، وَأَدَّوْا الْوَاجِبَ فَأَحْسَنُوا الْأَدَاءَ.

[ك 19] كَانَ هَذَا الشُّعُورُ بِخَيِّبَةِ الْأَمَلِ وَضِعَةِ الْعَمَلِ مُصَدَّرَ هَذَا الْوُجُومِ

الَّذِي أَعْرِفْتُ فِيهِ، وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَحَدَّثَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَى مَنْ كَانَ حَوْلِي مِنَ النَّاسِ، فَهُمْ كَانُوا مَشْغُولِينَ بِأَنْفُسِهِمْ عَنِ الْمُتَّقِينَ الْمَصْرِيِّينَ وَعَنْ أَمَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَجُهُودِهِمْ، وَعَنِ الْفَلَسَفَةِ الْبَائِسَةِ الَّتِي تَغْمُرُ قُلُوبَهُمْ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ السُّودِ، وَهُمْ كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِمَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ ضُرُوبِ التَّحْفِظِ وَالْوَانِ الْاِخْتِيَاظِ، وَهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ قَدْ عَرَفُوا أَنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ لِحَدِيثِ الْكُؤْلِيرَا وَلَا أَنْ أَشَارَكَ فِيهِ، فَأَعْفُونِي مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ، وَلَكِنَّ الْأَنْبَاءَ لَمْ تُعْفِنِي مِنْهُ، فَقَدْ كَانَتْ نَشْرَةُ السَّفِينَةِ تُغْلِي إِينَا كُلَّ يَوْمٍ عَدَدَ الْإِصَابَاتِ وَعَدَدَ الْوَفِيَّاتِ وَأَمَاكِنَ هَذِهِ وَتِلْكَ. وَلَمْ تُشْرِفْ عَلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ حَتَّى لَمْ يَكُنْ لِأَهْلِ السَّفِينَةِ كُلِّهِمْ حَدِيثٌ إِلَّا هَذَا الْوَبَاءُ.

[ك 20] وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي سَأَجِدُ إِذَا بَلَغْتُ مِصْرَ وَجُومًا شَائِعًا وَحُزْنًا مُنْتَشِرًا وَاسْتِخْدَاءً شَامِلًا، كَمَا كُنْتُ أَجِدُ فِي نَفْسِي مِنَ الْوُجُومِ وَالْحُزْنِ وَالْاِسْتِخْدَاءِ، وَلَكِنِّي أَبْلُغُ الْإِسْكَندَرِيَّةَ وَأَلْقَى مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَلْقَى مِنَ الْمَصْرِيِّينَ، فَإِذَا حَيَاتُهُمْ تَجَرِي عَلَى الْوَتِيرَةِ الَّتِي أَلْفَنَاهَا، وَإِذَا الْوَبَاءُ يَرُوعُهُمْ وَلَكِنَّهُ لَا يَصْرِفُهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا عَنْ لَدَاتِهِمْ، وَإِذَا أَنْبَاءُ السِّيَاسَةِ تُخْزِنُهُمْ، وَلَكِنَّهَا لَا تُلْهِيُهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا عَنْ لَدَاتِهِمْ، وَإِذَا أَنْبَاءُ الْاِقْتِصَادِ تُخِيفُهُمْ، وَلَكِنَّهَا لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا عَنْ لَدَاتِهِمْ. وَأَبْلُغُ مِصْرَ فَأَرَى فِيهَا مِثْلَ مَا رَأَيْتُ فِي الْإِسْكَندَرِيَّةِ. وَإِنَّمَا الَّذِينَ تَشْغَلُهُمْ أَنْبَاءُ الْوَبَاءِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْاِقْتِصَادِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَعَنْ لَدَاتِهِمْ قَلَّةٌ ضَنْيَلَةٌ لَيْسَ أَيْسَرَ مِنْ إِحْصَائِهَا، فَأَمَّا مَا عَدَا هَذِهِ الْقَلَّةَ فَمَا ضُؤُونَ فِي حَيَاتِهِمْ كَمَا تَعَوَّدُوا أَنْ يَمُضُوا: أَلْسِنَةُ طَوَالٍ وَعُقُولٌ قِصَارٌ وَقُلُوبٌ قَاسِيَةٌ كَالْحِجَارَةِ بَلْ أَشَدَّ قَسْوَةً، فَلَا أَمْلِكُ نَفْسِي أَنْ أَتْلُوَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيهَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا» (الْإِسْرَاءُ، 16) وَلَا أَمْلِكُ نَفْسِي أَنْ أَتْلُوَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» (النَّحْلُ، 112).

[ك 21] وَيَقْبَلُ الْعِيدُ، فَإِذَا الْمُتْرَفُونَ مُقْبِلُونَ عَلَى عِيدِهِمْ كَمَا أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ عِيدُهُمْ، لَا يَشْعُرُونَ بِأَنْ مَيَّاتٍ مِنَ الْأُسْرِ فِي مَيَّاتٍ مِنَ الْمَدُنِ وَالْقُرَى قَدْ

كَانَتْ تَنْتَظِرُ الْعِيدَ كَمَا كَانُوا يَنْتَظِرُونَهُ، وَتَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانُوا يَتَشَوَّقُونَ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّ الْعِيدَ أَخْلَفَهُمْ مَوْعِدَهُ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الْمَوْتَ نَائِبًا عَنْهُ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مَعَ الْمَوْتِ حَسَرَاتٍ وَعَبْرَاتٍ وَزَفَرَاتٍ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مَعَ هَذَا كُلِّهِ شَقَاءَ مُلْحًا وَبُؤْسًا مُقِيمًا. نَعَمْ! وَلَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّ أُمَّهُمْ مِصْرَ مَرِيضَةٍ، وَبِأَنَّ مَرَضَهَا هُوَ النَّزِيفُ الْمُهِلِكُ، وَلَكِنَّهَا لَا تَنْزِفُ دَمًا وَإِنَّمَا تَنْزِفُ أُنْبَاءَهَا وَبَنَاتِهَا نَزْفًا. لَا يَشْعُرُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، أَوْ يَشْعُرُونَ بِهِ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَيْهِ، أَوْ يَشْعُرُونَ بِهِ وَيَلْتَفِتُونَ إِلَيْهِ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَحْفَلُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَا يُشْفِقُونَ إِلَّا عَلَيْهَا، كَأَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَعِيشُوا وَيَنْعَمُوا وَيَسْتَمْتِعُوا بِالْحَيَاةِ إِذَا ضَرَبَ الْحُزْنَ وَالْبُؤْسُ وَالْمَوْتُ أَطْنَابَهَا عَلَى هَذَا الْبَلَدِ الْبَائِسِ الشَّقِيّ.

[ك 22] هَيْهَاتَ! هَيْهَاتَ! إِنَّمَا ذَلِكَ تَغْلِيلُ النَّفْسِ بِالْأَمَانِي الْبَاطِلَةِ، وَخِدَاعُهَا بِالْأَمَالِ الْكَاذِبَةِ، وَإِنَّ الْمِصْرِيِّينَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ لَا ثَالِثَةَ لَهُمَا: فَمَا أَنْ يَمُتُوا فِي حَيَاتِهِمْ كَمَا أَلْفُوها، لَا يَحْفَلُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَلَذَاتِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ، وَإِذَنْ فَلْيَتَّقُوا بِأَنَّهَا الْكَارِثَةُ السَّاحِقَةُ الْمَاحِقَةُ الَّتِي لَا تُبْقِي وَلَا تَذُرُ، وَإِنَّمَا أَنْ يَسْتَأْنِفُوا حَيَاةً جَدِيدَةً كَتَلِكِ الَّتِي عَرَفُوهَا فِي أَغْقَابِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى، قِوَامُهَا النَّصَامُنُ وَالتَّعَاوُنُ وَالْغَاءُ الْمَسَافَاتِ وَالْأَمَادِ بَيْنَ الْأَقْوِيَاءِ وَالضُّعَفَاءِ، وَبَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ، وَبَيْنَ الْأَصْحَاءِ وَالْمَرْضَى، وَإِذَنْ فَهُوَ التَّأَزُّرُ عَلَى الْخُطْبِ حَتَّى يَزُولَ، وَعَلَى الْكَارِثَةِ حَتَّى تَنْمَحِيَ، وَعَلَى الْعَمَرَاتِ حَتَّى يَنْجَلِينَ.

[ك 23] إِلَى أَيِّ الطَّرِيقَيْنِ يُرِيدُ الْمُتْرَفُونَ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ أَنْ يَذْهَبُوا: إِلَى طَرِيقِ الْمَوْتِ أَمْ إِلَى طَرِيقِ الْحَيَاةِ؟ سَوَالٌ أُلْقِيَهِ عَلَى نَفْسِي حِينَ أَصْبَحْتُ، وَأُلْقِيَهِ عَلَى نَفْسِي حِينَ أَمْسَيْ، وَأَضْرَعُ إِلَى اللَّهِ بَيْنَ ذَلِكَ أَنْ يُجَبِّبَنِي الْيَأْسَ، وَيَعْصِمَنِي مِنَ الْقُتُوطِ، فَ «إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»² (يوسف، 87)

طه حسين، المعذبون في الأرض - مصر المريضة، [المكتبة المفتوحة] سراسر للنشر، تونس، ط. 1، 2005: 159 - 168.

2 هو جزء من الآية المذكورة، وهي كاملة: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ».

1. 2. التحليل

الغاية من تحليل هذه الأقصوصة هي البحث في خصائصها البنيوية الدلالية علاقات بين البنية العليا أو الإطار الأجناسي الذي يحدّها سرداً/ قصاً، وبين سائر الأبنية التي تنتظمها وتتفرّع عنها وتتوزّع في شكلين هما الأبنية الكبرى، وما تحتويه من أبنية صغرى.

ولئن كان تحليل الأقصوصة بالنظر إليها خطاباً كلياً شمولياً فإنّ هذا لم ينفِ البحث في خصوصيات الأبنية كما في وظائفها بما يضمن انساق تصميم الخطاب وتجانس مكوّناته وفق ما ذهبت إليه نظريات تحليل الخطاب وتتجلى بعض خصوصياتها استناداً إلى هذه الأقصوصة محور الاهتمام.

تعدّدت الأبنية الصغرى فيها، واختلفت من حيث طبيعة الألفاظ والعبارات والتراكيب التي تُجانس هيكل الجملة/ البنية الصغرى الواحدة، كما تُجانسها وتربطها بلاحتها أو بسابقتها، فإما أن تكون تقسيرا لها: «تَرَى الْبُؤْسَ الْبَائِسَ يَغْمُرُ الْكَثْرَةَ الْكَثِيرَةَ مِنْ أَهْلِهِ، فَيُلَابِسُهُمْ مَلَابِسَةً مُتَّصِلَةً لَا تُقْلَعُ عَنْهُمْ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، فَهُمْ جَائِعُونَ عُرَاةَ جُهَالٍ، أَشْقِيَاءَ بِهَذَا كُلِّهِ» ص: 161؛ أو إعادة صياغة لجزء منها: «نَنْظُرُ فَنَرَاهُ مَغْلُولاً لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَتَحَرَّكَ، مَغْقُودَ اللِّسَانِ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَنْطِقَ، مُقْفَرَ الْقَلْبِ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَجِدَ مَا تَجِدُ الشُّعُوبُ الْحُرَّةُ مِنَ الشُّعُورِ بِأَيْسَرِ كَرَامَةِ الْإِنْسَانِ» ص: 161؛ أو حجة تدعمها: «لَهُمْ عَاصِمَةٌ تَتَفَوَّقُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عَوَاصِمِ الْبِلَادِ الْمُتَحَضَّرَةِ، وَتُقَاسُ إِلَى عَوَاصِمِ الدُّوَلِ الْكُبْرَى، يَعْجَبُ بِهَا أَهْلُ بَارِيسَ وَأَهْلُ لُونْدَرَةَ وَأَهْلُ نِيُورِك» ص: 163؛ أو توسيعاً لدائرة ما جاء مُجَمَّلاً ثنائياً إجمال وتفصيل: «وَلَكِنَّا نُمْسِي ذَاتَ يَوْمٍ وَإِذَا إِعْلَانٌ قَدْ أُلْصِقَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ السَّقِيفَةِ، يُنَبِّئُهُ فِيهِ الْمُسَافِرُونَ إِلَى أَنَّ الْمَاءَ الْعَذْبَ سَيُحْجَرُ عَنْهُمْ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ» ص: 160؛ أو ارتباط سبب بنتيجة: «...عَلِمْتُ بِأَنَّ مِصْرَ مَرِيضَةٌ، فَاسْتَمَعْتُ لِلنَّبَا غَيْرَ حَافِلٍ بِهِ» ص: 159؛ أو صلة مُثير برّد فعل: «... أَنِّي لَمْ أَكُذِّ أَسْمَعُ مَا نُشِرَ... حَتَّى رَفَعْتُ كَتْفِي...» ص: 161؛ أو إحالة على المرجع الواقع/ التاريخ: «وَقَدْ كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ فَرَسَا تِلْكَ الْخُطُوبِ الَّتِي أَحْفَظُنَا عَلَى الْفَرَسِيِّينَ» ص: 159، وعلى المرجع الذات من ناحية الوجدان: «... وَإِنَّمَا كَانَ شُعُورًا غَرِيبًا أَسْتَطِيعُ الْآنَ أَنْ أَقُولَ إِنَّهُ كَانَ مِرَاجَا مِنَ الْحُزْنِ وَالْخَرْبِ جَمِيعًا»، ومن ناحية الفكر: «وَإِنَّمَا الَّذِينَ تَشْغَلُهُمْ أَنْبَاءُ

النُوبَاءِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْاِقْتِصَادِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَعَنْ لَدَاتِهِمْ قَلَّةٌ ضَنْيَلَةٌ لَيْسَ أَيْسَرَ
مِنْ إِحْصَائِهَا» ص: 166-167

وتساهم الأبنية الصغرى في تحقيق الوظيفة التأثيرية استنادا إلى الوظيفة
الشعرية (عناية باللفظ والعبارة وتحقيق إيقاع مخصوص بين البنية والأخرى
خاصة من حيث التكرار، وأبرز وظائفه التأكيد: «غَيْرَ حَافِلٍ بِهِ وَلَا آبِهِ لَهُ
وَلَا مُلْقٍ إِلَيْهِ بِالْأَلْف» ص: 159؛ وتبيين المفارقات بين الذات والذات (من خلال
مختلف الصراعات النفسية / الوجدانية، كما الفكرية التي تعيشها الشخصية):
«ثُمَّ فِي هَذَا الشُّغُورِ الَّذِي أَطْرَقَتْ لَهُ إِلَى الْأَرْضِ وَتَضَاعَلَتْ لَهُ وَتَضَاعَلَتْ،
شَيْءٌ عَظِيمٌ مِنَ الْخُزْيِ لِهَذَا الْبَلَدِ الَّذِي كُنَّا نَنْظُرُهُ قَدْ تَجَاوَزَ هَذَا الطُّورَ، طَوْرَ
الْبِلَادِ الْمُتَاخِرَةِ الْعَتِيقَةِ الْجَاهِلَةِ الَّتِي تَفْتَكُ بِأَهْلِهَا الْأَوْبَةُ» ص: 163، وبين
الذات والموضوع (أطرا حافة بإنشاء السارد الأقصوصة خطابا فنيا ونصا نقديا
للتاريخ، والواقع تأسيسا للمستقبل) من خلال: «لَيْتَ شِعْرِي، مَاذَا فَعَلْتُ
مِصْرُ؟ وَمَاذَا صَنَعَ الْمِصْرِيُّونَ؟ يُقَالُ أَنَّهُمْ قَدْ أَنْشَأُوا فِي هَذَا الْقَرْنِ كَثِيرًا مِنَ
الْمَدَارِسِ وَمَعَاهِدِ الْعِلْمِ، وَمَضَوْا فِي الْحَضَارَةِ الْحَدِيثَةِ إِلَى أْبَعَدِ حَدٍّ مُمَكِّنٍ +
... وَلَكِنَّ مِنَ الْحَقِّ أَيْضًا أَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ قَدْ تَلَقَّى مِنْهُ شَهْرَ نَبَأٍ مُقْتَضِبًا وَلَكِنَّهُ
عَلَى ذَلِكَ خَطِيرٌ أَشَدُّ الْخُطُورَةِ، تَلَقَّى النَّبَأُ بِأَنَّ مِصْرَ الَّتِي أَرَادَ إِسْمَاعِيلُ أَنْ
يَرَاهَا جُزْءًا مِنْ أُرُوبَا قَدْ أَلَمَ بِهَا وَبَاءَ الْكُولِيرَا وَأَقَامَ فِيهَا، وَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَرُدَّهُ
فَلَا تَسْتَطِيعُ لَهُ رَدًّا، وَأَنَّهَا تَسْتَعِينُ بِالْعَالَمِ الْمُتَحَضِّرِ عَلَى رِقَابَةِ أَبْنَائِهَا مِنْ
شَرِّهِ وَحِمَايَتِهِمْ مِنْ فَتْكِهِ الْبَغِيضِ.» ص: 163 + 164؛ قضايا تنتشر خارج
الذات لتتمركز فيها هموما وهواجس وأفكارا. وما التمرکز حول الشخصية في
باطنها إلا خاصية توصل البنية الصغرى في البنية العليا: أجناسية أقصوصة؛
وتصوير إشكالية من زوايا نظر متعددة تضخيما وتهويلا:

«كَانَ فِيهِ الْحُزْنُ عَلَى هَذَا الْبَلَدِ الَّذِي...» [فقرة 5]

«وَفِيهِ الْحُزْنُ عَلَى هَذَا الْبَلَدِ الَّذِي...» [فقرة 6]

«وَفِيهِ الْحُزْنُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى هَذَا الْبَلَدِ الَّذِي...» [فقرة 7]

«وَفِيهِ الْحُزْنُ بَعْدَ هَذَا وَذَلِكَ لِهَذَا الْبَلَدِ الَّذِي...» [فقرة 8]؛ تكرار يتكثف أثرًا
وقصدًا في النفس ذاتا مفردة، ولكن تجلياته تتوسع في بناء النص أفقيًا

وعموديًا)

ويتوضّح عدد الأبنية الصّغرى في كلّ بنية كبرى من خلال الرّسم التشجيريّ: ص: 261، نبيّن فيه العلاقات الأفقيّة فالعموديّة التي تربط بين البنية العليا الأصل، وسائر الأبنية بين كبرى وصغرى. وإذا اقتصرْتُ على جعل الأبنية الصّغرى تقف عند حدودها المرسومة في الجدول، فبسبب تشعّب البناء ممّا قد يُكثّف رسمه دون الإيفاء بالغاية، ذلك أنّ الأصل هو وجود حلقة فاصلة واصله بين الأبنية الصّغرى والأبنية الكبرى، إذ من الأولى ما يتحوّل في البناء إلى بنية كبرى في نسقٍ تصاعديّ، ذلك أنّنا سنندرك الأمر في نصوص تطبيقية أخرى تكون أكثر مرونة في هذا الجانب خاصّة من حيث القِصر عاملاً مساعداً على التّمثيل والتّجريد.

وممّا يؤصّل الأبنية الصّغرى في البنية العليا بنية سرديّة وأجناسيّة أقصوصة قرائن لفظيّة وأساليب اخترنا منها ما يُبرز هذا الجانب حسب ما يلي:

الارتباط السببيّ: «لَمْ أَكْذُ... حَتَّى عَلِمْتُ...»، إيدان ببداية السرد لكن مع انقطاعه حدثاً يُستأنف حديث شخصيّة في صراعاتها بين ما تَعَلَّمه، وبين ما تريد أن تتجاوزه أثرًا في النّفس، والوجدان، والفكر مؤلماً مؤذياً؛

الفاء: «فَاسْتَمَعْتُ لِلنَّبَا...». يوهّم الرّاي بتتابعيّة الأحداث تتابعا سريعا، لكن ما النّسق الذي يذكره إلّا قرين ما يجول في الفكر في ثنائيّة إنكارٍ أو حديثٍ عن مصر بطريقة سيّئة إيداءً للنّفس، ورغبة أو حرصاً على التّجاوز والثّبات: «فَاسْتَمَعْتُ لِلنَّبَا غَيْرَ حَافِلٍ بِهِ وَلَا آبِهِ لَهُ وَلَا مُلْقٍ إِلَيْهِ بِالْأُ»؛

التّكرار: وهو من القرائن السّردية بنية صغرى، تكرار نفى يتّصل فيه ومن خلاله المبنى بالمعنى، أو البنية الصّغرى بالبنية الكبرى الأولى ثنائية رحيل وثبات: أمّا أصلهما فحدثٌ هو خاصيّة من خصائص البنية العليا أجناسيّة سرديّة، وأمّا فرعها فحديث عن الذات شخصيّة فرديّة – وإن كانت في خضمّ الكثرة وجوداً مادّيّاً مكانيّاً – مُتفردة في أحاسيسها ومشاعرها وخاصّة في أفكارها تتجلّى في السّردية بنية عليا تُقارنُ بغيرها من الأبنية العليا مفارقة واختلافاً (من ذلك الحجاج). ومن هنا تُطرح إشكالية: هل بالفعل هناك انقطاع وتمايز بين النّمطين المذكورين أم أنّ للمسألة وجهًا آخر؟

تكون الإجابة في مستوى أخير من النظر إلى النص شبكة علاقات بنيوية تركيبية دلالية أيضا، لكن وقبل ذلك، الأقصوصة هي بنية سردية غليا تُعرف أجناسيتها مقارنة بما يجانسها ويألف معها ويتفق أبنية صغرى (بما أن الأبنية الكبرى متبدلة متغيرة مواضيع - وإن كانت متعاودة متكررة هيكلا وقواعد ترابط، وإن إلى حد -)

ويحيل التسق الذي يعتمده الراوي أيضا على ما تقوم عليه العلاقات بين فرنسا ومصر، أو بين مصر وفرنسا، أو بين الشرق والغرب صراعات خفية ظاهرة إذ يقول السارد: «وَالصُّحُفُ الْفَرَنْسِيَّةُ فِي هَذِهِ الْأَشْهُرِ الْأَخِيرَةِ قَلِيلُهُ الْعَطْفُ عَلَى مِصْرَ، شَدِيدَةُ الضِّيقِ بِهَا، سَرِيعَةٌ إِلَى التَّحَدُّثِ عَنْهَا بِمَا لَا يُحِبُّ الْمِصْرِيُّونَ، تَنْتَهَزُ لِذَلِكَ الْفُرْصَ إِنْ سَنَحَتْ، وَتَخْلُقُهَا إِذَا لَمْ تَسْنَحْ، وَقَدْ كَانَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ فَرَنْسَا تِلْكَ الْخُطُوبُ الَّتِي أَحْفَظْتُنَا عَلَى الْفَرَنْسِيِّينَ وَأَعَرْتُنَا بِهِمْ، وَأَحْفَظْتَ عَلَيْنَا الْفَرَنْسِيِّينَ وَأَعَرْتَهُمْ بِنَا » ص: 159؛ فإذا هو التفصيل تعدادا وتحولا من الإجمال: «... مَا نُشَرِّ فِي تِلْكَ الصَّحِيفَةِ مِنْ أَنَّ مِصْرَ مَرِيضَةٌ، وَمِنْ أَنَّ مَرَضَهَا شَيْءٌ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ وَبَاءُ الْكُوْلِيرَا، وَمِنْ أَنَّ الْحُكُومَةَ الْمِصْرِيَّةَ قَدْ أَخَذَتْ تَتَأَهَّبُ لِمُقَاوَمَةِ الْوَبَاءِ » ص: 160، وهذا أسلوب بنية صغرى يُعْتَمَدُ عادةً في سياق سردي روائي إذ يقوم على الإطناب والتعطيل والتوسع، وفي سياق تفسيري بإعطاء الأمثلة بُغْيَةً إبراز وجهة النظر الذاتية - وهو ما يستدعي، وجهة نظر مُخالفة - إما أن يزد صاحبها صيغة القول، أو محتواه. وإن الخلاف موقفا وموقفا نقيضا إنما يضعنا في إطار السردية حجاجا، وهو نمط سردي يتأصل أيضا من خلال الاستفهام الإنكاري: «مَاذَا صَنَعَتْ مِصْرُ وَمَاذَا صَنَعَ الْمِصْرِيُّونَ؟» ص: 163، وعبر تقديم الحُجج والبراهين القائمة على القياس والمقارنة، خطاب منطقي على مستوى اللغة والأسلوب يحاول من خلاله السارد/ الناقد أن يُعيد ترتيب الأشياء، وإعادة توازن ما اختلَّ سواء في مصر في حد ذاتها، أم في صلتها بسائر الشعوب والحضارات: «يُقَالُ أَنَّهُمْ قَدْ أَنْشَأُوا فِي هَذَا الْقَرْنِ كَثِيرًا مِنَ الْمَدَارِسِ وَمَعَاهِدِ الْعِلْمِ، وَمَضَوْا فِي الْحَضَارَةِ الْحَدِيثَةِ إِلَى أَبْعَدِ حَدِّ مُمَكِّنٍ، فَلَهُمْ بَرْلَمَانٌ كَمَا أَنَّ لِبَعْضِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ بَرْلَمَانَاتٌ، وَلَهُمْ وَزَارَاتُ مَنْظَمَةٍ كَمَا لِبَعْضِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُتَحَضَّرَةِ وَزَارَاتُ مَنْظَمَةٍ، وَلَهُمْ وَزَارَةٌ قَدْ خُصِّصَتْ لِشُؤْنِ الصِّحَّةِ، كَمَا أَنَّ

لِغَيْرِهِمْ وَزَارَةً مُخَصَّصَةً لِشُؤْنِ الصِّحَّةِ، وَلَهُمْ عَاصِمَةٌ تَتَفَوَّقُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عَوَاصِمِ الْبِلَادِ الْمُتَحَضِّرَةِ وَتُقَاسُ إِلَى عَوَاصِمِ الدُّوَلِ الْكُبْرَى، يَعْجَبُ بِهَا أَهْلُ بَارِيسَ وَأَهْلُ لُونْدَرَةَ وَأَهْلُ نِيُويُورِكِ إِذَا أَلَمُوا بِهَا وَأَقَامُوا فِيهَا، وَهُمْ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ قَدْ نَالُوا مِنَ الثَّرَفِ مَا عُرِفَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمَمِ الْمُتَحَضِّرَةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ حَتَّى أَصْبَحَ تَرَاوُهُمْ وَتَرَفُهُمْ وَإِقْبَالُهُمْ عَلَى اللَّذَاتِ مُضْرِبَ الْأَمْثَالِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ كُلِّهَا...» ص: 163. وترتد البنية الصغرى تفصيلا لتكون وجوها متعددة لمأساة واحدة هي «وباء الكوليرا» بل الشخصية التي تؤول إليها كل الأحداث وكل الموصوفات صبغة تؤصل الخطاب ضمن أجناسية الأقصوصة بنية عليا تستدعي أبنية سردية أخرى هي بين التآلف نسيجا خطابيا والخلف مميزات فرادة وأنماط مخصوصة.

وتنشأ البنية الصغرى علامة لغوية معجمية تكتسب معاني مضافة تستمدّها من البنية الكبرى موضوعا، والبنية العليا جنسا أدبيا أقصوصة سردا: ليس بالمعنى الحدتي الإنجازي الفعلي، وإنما بالمعنى الإحالي الوصفي استبطان شخصية.

وتتحكم بنية النصّ أيضًا بالطّباق والمقابلة من خلال الاستقرار في المكان، مقابل الاضطراب في النفسية، وعبر ظاهر الشخصية (هدوء ولا مبالاة)، مقابل باطنها (اضطراب وحيرة وإغراق في التفكير)، أو في ثنائية الاتصال والانفصال من حيث علاقة الشخصية بالمكان، وبالزّمان، وبالحدث/ الأحداث، وبالواقع عبر الفكر: ثنائية حدث وحدث نقيض، ويدخل هذا خاصة في إطار الأبنية الكبرى؛ أو هو فيض العطاء: «وَمَنَحَهُ اللَّهُ... إِقْلِيمًا مُعْتَدِلًا وَأَرْضًا خَصْبَةً وَسَّمَاءَ صَافِيَةً وَنَهْرًا يَفِيضُ بِالنِّعْمَةِ»، مقابل جفاف الحرمان: «فَإِذَا هُوَ قَدْ حُرِمَ حَتَّى هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَإِذَا الْأَفَاتُ وَالْعِلَلُ وَالْأَوْبَةُ تَسْعَى إِلَيْهِ مِنْ أَقْصَى الشَّرْقِ وَمِنْ أَقْصَى الْجَنُوبِ» ص: 162.

فالطّباق والمقابلة هما من الأبنية الصغرى التي تتحكم في نسيج النصّ تأليفا بين مكوناته في اتجاهين: أفقي: على أساس تتابعي بين الجمل والقضايا يقوم على عنصر التشويق مقوما من مقومات السردية القصصية؛ وعمودي: يتجاوز من خلاله ترتيب النصّ في صلة البنية الصغرى بالصغرى،

أو في صلة البنية الكبرى بالكبرى الأخرى على الأساس الأفقي، لكي يُنظر إلى النَّصِّ شبكة علاقات في شكل تشجيريّ نصوغه تمثيلاً في مرحلة نهائية من التحليل والبحث في خصائص الأبنية بمختلف أنواعها، ووظائفها وعلاقاتها.

ويتواتر فعل: «ظنّ»: «كُنَّا نَظْنُهُ قَدْ تَجَاوَزَ هَذَا الطَّوْرَ... وَبَاءَ الْكَوْلِيرَا الَّذِي كُنَّا نَظْنُ أَنَّهُ لَنْ يَعُودَ إِلَى مِصْرَ» ص: 163 + «وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذَا الشُّعُورَ بِالْخَرْبِ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْعُرُورِ وَالْخَبْرِيَاءِ وَالْاعْتِدَادِ بِالنَّفْسِ وَالْوَطَنِ» ص: 164؛ أمّا من حيث البناء، فقد ربطه السارد بأحداث، ولكنها صورة من الشّخصيّة بما أنّها لا تحيل على مُنَجَز فعليّ، وإنّما على مُنَجَز ذهنيّ هواجس وأفكارا تستبدّ بالشّخصيّة وتنزع بالسياق السرديّ نحو التّحوّل/الحلّ. وأمّا من حيث الإنشاء، فقد أسسه الرّأوي على قرائن عديدة هي أبنية صغرى تتعدّد وتتكتّف وتتّوَع في آنٍ في ضمير المتكلّم المفرد (ومن خلاله يلتقي السارد / الرّأوي مع الشّخصيّة/ المحور خطاباً، مع الشّخصيّة/ المهمّشة حدثاً، النقاء سيجعل زوايا النّظر وأنماط الرّؤية متعدّدة بما يسمح بالتعرّف إلى الخطاب والخبر من زوايا مختلفة مجالها الأبنية العليا)

إنّ هذه القرينة الأولى تضعنا في إشكال ليس من حيث السرديّة لكن من حيث تقاطع صوت السارد مع الأنا شخصيّة محدّثة عن نفسها، فهل نحن إزاء نمط مخالف للأقصوصة (والنّص هو نموذج من مجموعة قصصيّة) وهو السيرة الذاتيّة خاصّة مع قوله: «فَلَا أَرِيدُ عَلَى أَنْ أَذْكَرَ بِأَنِّي أَعْرِفُ وَبَاءَ الْكَوْلِيرَا، وَبَأَنِّي تَحَدَّثْتُ عَنْهُ فِي بَعْضِ مَا قُرِئَ لِي مِنْ كُتُبٍ. وَبَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُ هَذَا الْوَبَاءَ وَلَمَّا أَتَجَاوَزَ الْعَاشِرَةَ، فَكَانَ لَهُ فِي قَلْبِي وَحَيَاتِي كُلِّهَا أَبْلَغُ الْأَثَرِ وَأَعَمَقُهُ وَأَبْغَضُهُ. وَتَأَثَّرَ الْأَطْفَالُ حِينَ يَكُونُ عَمِيقًا بَغِيضًا إِلَى هَذَا الْحَدِّ لَا يُفَارِقُهُمْ مَهْمَا تَمَتَّدَ لَهُمْ أَسْبَابُ الْحَيَاةِ» ص: 164 - 165

هي صياغة قول تقوم على إقامة الخطاب على التذكّر بحثاً في الدّآكرة واسترجاعاً للماضي عوداً إلى زمن الطّفولة واقعا لا يحضر بكلّ جزئياته وتفاصيله، إنّما حوادث كبرى تحدّد ملامح الشّخصيّة القصصيّة، وتوجّه تفكير الشّخصيّة الكاتبة. ويلتقي الماضي/ السيرة الذاتيّة مع «الحاضر» الحدث/ الأقصوصة «مصر المريضة» أو «وباء الكوليرا» صبغة واقعيّة يلتقي فيها

صوت طه حسين الكهل (يُقَوِّمُ الحوادث بمنظار العقل والنقد) مع صورته طفلا (ينظر إلى الأشياء بمرآة الوجدان حاجة إلى الآخر، وعجزا عن تجاوزه).

إذن، هل الأمر استثناء، أم أنّه عاديّ مألوف لا يمثل العدول بقدر ما يمثل السُّنَّة اندراجا في الأقصوصة بما أنّ النَّمط السَّرديّ لا تحدّده علامة واحدة وإنّما هو جُماع علامات تتراوح بين الحضور وبين الغياب؟

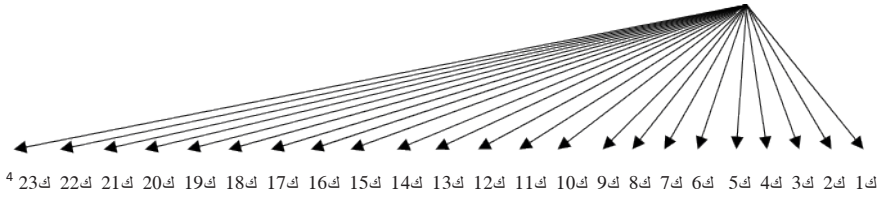
يحضر ضمير المتكلم الجمع: «كَانَ بَيْنَنَا ... أَحْفَظْتَنَا...أَعْرَثْنَا... أَعْرَثَهُمْ بِنَا...»؛ «وَلَكِنَّا نُمْسِي...»؛ «لَمْ نَرْفَعْ الْأَكْتَافَ، وَلَمْ نَهْزِ الرُّؤُوسَ، وَلَمْ نَبْتَسِم...»؛ «كَانَ فِيهِ الْحُزْنُ... الَّذِي كُنَّا نَرَاهُ خَلِيقًا بِالسَّعَادَةِ، وَالَّذِي أَفْنَيْنَا شَبَابَنَا وَكُھُولَتَنَا وَجُھُودَنَا وَقَوَانَا...» ص: 159 - 161. صوت تلتقي فيه ومن خلاله أصوات عديدة تتوزّع على ضربين: بنية سردية متخيّلة تُصبح معها الأنا صورة من الآخر المسافرين ردود أفعال إزاء الحدث/ السفينة: بانزياحاته نحو المعرفة الموسوعية توسيع دائرة الأبنية الكبرى، وبنية دلالية تحيل على الواقع المسكوت عنه منطلقا يطفو على سطح النصّ منتهى، ومعه تكون الأنا متوزّعة بين الأنا/ الجماعة/ المصريّين انتماءً وهويةً، والأنا/ الجماعة/ المصريّين/ الفئة المثقفة التي تتحمّل أعباء الدولة وعيا وتوعية، ثقافة وعِلما، حضارة وترقيّا.

وإنّ هذه البنية الصّغرى الثّانية (ضمير المتكلم الجمع) قد تُبعدنا عن الإشكال الأوّل لتضعنا أمام إشكال ثانٍ وهو النقاء الأقصوصة بنية غليا مع بنية غليا أخرى وهي الرواية من حيث تعدّد الأحداث، وتشعب القضايا - خاصّة من حيث الاهتمام بشواغل الجماعة دون الفرد -، والخروج من حدود الإطارين الزماني والمكانيّ إلى تعدّدهما.

على أنّ طه حسين يخفّف من وطأة الإشكاليّين - عن قصد أو عن غير قصد - من خلال البنية الصّغرى في بُعد ثالث «إسماعيل»: اسم علم لم يُذكر في الأقصوصة إلّا في موضع واحد عندما يقول طه حسين: «وَلَكِن مِّنَ الْحَقِّ أَيْضًا أَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ قَدْ تَلَقَّى مُنْذُ شَهْرِ نَبَأٍ مُّقْتَضِبًا وَلَكِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ خَطِيرٌ أَشَدَّ الْخَطُورَةِ، تَلَقَّى النَّبَأَ بِأَنَّ مِصْرَ الَّتِي أَرَادَ إِسْمَاعِيلُ أَنْ يَرَاهَا جُزْءًا مِّنْ أُرُوبَا قَدْ أَلَمَ بِهَا وَبَاءَ الْكُولِيرَا وَأَقَامَ فِيهَا» ص: 164

ولعلّ الأمر مقصود من الكاتب اندراجا في مقومات الأقصوصة، إذ تقوم على التّكثيف إيحاءً ورمزا، فلا قيمة للدّوالّ في حدّ ذاتها وإنّما هي علامات لغويّة تكتسب معانيها ودلالاتها من تركيبها في نسيج الخطاب أو النّصّ، فتكون دلالتها جزءا من سابقتها فلاحقاتها تفاعلا بين الأبنية - بجميع أنواعها - وفي الاتّجاهين الأفقيّ والعموديّ هيكلا يمكن رسمه اختزالا شديدا في الرّسم التّالي:

البنية الكبرى = «مصر المريضة» = البنية الغليا: أقصوصة تُمثّل شكلا من أشكال السّرد عنها تتفرّع سائر الأبنية: الكبرى والصّغرى³



$$\begin{aligned}
 & 1 \text{ (ص)} + (2 \text{ ص}) + (3 \text{ ص} + 2) + (4 \text{ ص} + 1) + (5 \text{ ص} + 4) + (6 \text{ ص}) + (7 \text{ ص} + 1) + (8 \text{ ص} + 8) + (9 \text{ ص} + 1) \\
 & = (11 - (9 \text{ ص} + 1) + (14 - 1) + (20 - 1) + (15 - 1) + (12 - 1) + (13 - 1) + (22 - 1) + (19 \text{ ص} + 36 - 1) \\
 & + (14 \text{ ص} + 9 - 1) + (15 \text{ ص} + 24 - 1) + (16 \text{ ص} + 8 - 1) + (17 \text{ ص} + 11 - 1) + (18 \text{ ص} + 36 - 1) + (23 \text{ ص} + 7 - 1) \\
 & + (20 \text{ ص} + 20 - 1) + (21 \text{ ص} + 22 - 1) + (22 \text{ ص} + 9 - 1) + (23 \text{ ص} + 7 - 1)
 \end{aligned}$$

ويمكن النّظر إلى الأبنية الكبرى من جوانب أخرى من حيث المواضيع والمعاني التي تُمثّلها (ومن خلالها يمكن الانتهاء إلى البنية الكبرى/ العنوان/ البنية الغليا)، والقواعد التي تنتظمها (ومن خلالها يُمكن الانتهاء إلى تلخيص النّصّ/ الأقصوصة تكثيفا لمواضيعها وإبرازا لأصولها الأجناسيّة؛ وهذه النّظرة يُمثّلها الجدولان 1 + 11 في الصّفحات التّالية:

3 هي بدورها تتفرّع - على اعتبار أنّ المقصود بالجملة قضيّة تختزل قضايا صغرى - إلى أبنية صغرى فرعيّة على أساس المرجعيّات: المعجميّة، النّحويّة، والتركيبية الإعرابية، لكنّ نتاج هذا التّفرّع - تمثيلا مع هذا النّصّ - بسبب الطّول - ونُبّر ذلك في بعض النّصوص اللاحقة.

4 المقصود بالرمز [ك] بنية كبرى، وبالرمز [ص] عدد الجُمْل بنية أو أبنية صغرى التي تتفرّع إليها البنية الكبرى، وما تحتوي عليه من عدد الأبنية الصّغرى الفرعيّة: قضايا.

الجدول ١: تحليل أكبر «مصر المريضة»

الموضوع	جمل النص	قواعد كبرى	قضايا كبرى	قيود/ ملاحظات
البُعد (الأمل) والبُعد الآخر (الألم)	1 . [ك 1]	حذف	ك.1: لم أكد أصدق إلى السفينة، حتّى علمتُ بأنّ مصر مريضة.	
الفعل/النتيجة	2 . [ك 2]	حذف	ك.2: فاستمعت للنّبا غير حافل به.	
التبرير والتعليل	3 . [ك 3]	اختيار/ تعميم	ك.3: فالتّبا منشورٌ في إحدى الصّحف الفرنسيّة.	
تجاوزُ الإيذاء مصرَ إلى المصريين	4 . [ك 4]	تركيب	ك.4: وما ذلك إلّا موقفٌ عدائيّ تجاه مصر .	
الحضارة بين فرنسا ومصر: تواصلٌ أم صراع	5 . [ك 5]	اختيار	ك.5:	هي توسعة لـ: ك.3+4
الخطاب بين المَقول والمسكوت عنه.	6 . [ك 6]	تعميم	ك.6: وقد كان بيننا وبين فرنسا تلك الخطوب التي أحفظتنا على الفرنسيين، وأغرّتنا بهم، وأحفظت علينا الفرنسيين وأغرّتهم بنا.	هي تأليف بين ك.2+4
الحُرص على الحياة بالتقويت فيها.	7 . [ك 7]	تركيب/ اختيار	ك.7: أثر المقام في صياغة المقال وقراءته.	

	ك. 8.	حذف/ اختيار	[ك 8]	8 .	تحول موقف الذات من مأساة السخرية إلى سخرية المأساة
	ك. 9: شيء يشبه أن يكون وباء الكوليرا.	حذف/ اختيار	[ك 9]	9 .	
	ك. 10: ولكننا نُفسّي ذات يوم وإذا إعلان قد ألصق في غير موضع من السفينة، يُنبّه المسافرين إلى أن الماء العذب سيُحجز عنهم ساعاتٍ من النهار.	تعميم	[ك 10]	10 .	انصهار شقاء الفرد في عذابات الجماعة وبؤسها
	ك. 11: إنما أطرقتُ إلى الأرض.	تركيب/ اختيار	[ك 11]	11 .	الذات: بين تضخم الإرادة ومحدودية الفعل.
	ك. 12: كان شعورا غريبا أستطيع الآن أن أقول أنه كان مزاجا من الحزن والخزي جميعا.	تركيب	[ك 12]	12 .	
ك. 11 + 12 توسعة لـ: ك.	ك. 13: العذاب: - وجداني - اجتماعي - فكري	تركيب/ اختيار	[ك 13]	13 .	مصر/ الذات: القيّض والانحسار
	ك. 14: الشخصيّة بين: - الهامش - المركز.	تركيب	[ك 14]	14 .	
ك. 15 = ك. 14 + 13	ك. 15:	تركيب/ اختيار	[ك 15]	15 .	مصر من منظور الذات: جدلية الشرق والغرب.

الذّات والمُواطنة: المفهوم والممارسة.	16.	[ك 16]	تعميم	ك. 16: فهو حائزٌ بين الحركة والسّكون، وبين الكلّام والصّمت، وبين الشّعور والجمود.	
بداية الصّدق مع الذّات	17.	[ك 17]	حذف/ اختيار	ك. 17:	ك. 17. = ك. 15+12
	18.	[ك 18]	تركيب/ حذف	ك. 18:	ك. 18. = ك. 17.
	19.	[ك 19]	تركيب	ك. 19: البلد الَّذي صُرِفَتْ عنه ضروب الخير في السّياسة والثّقافة والاقتصاد.	
المُفارقة بين الذّات والجماعة همومًا وهواجسٍ وشواغلٍ	20.	[ك 20]	تعميم	ك. 20:	ك. 20. = ك. 12+11
	21.	[ك 21]	حذف	ك. 21: ما مقياس تقدّم الأمم والشّعوب ورقّيتها وتحضّرها؟	
استشراف الذّات للمستقبل: مصر بين خيارين.	22.	[ك 22]		ك. 22: الغيرة على الوطن هاجس كلّ مُتّقِف.	
سبيل الخلاص	23.	[ك 23]	تعميم	ك. 32: قد رأيت هذا الوباء ولمّا أتجاوز العاشرة فكان له في قلبي وحياتي كلّها أبلغ الأثر وأعَمِّقه وأبغضه.	
				ك. 24	ك. 24. = ك. 22.
				ك. 25	ك. 25. هي

أجزاء من ك،.: 10+1					
	ك،.: 26: يُفَزَعُ الوباءُ المصريين لكن لا يُغَيَّرُ طبائعهم ولا يثُلُّ حركة الحياة فيهم وبينهم.				
	ك،.: 27: إِنَّ المصريين بين اثنتين: فإِذَا أَنْ يَمُضُوا فِي حياتهم كَمَا أَلْفَوْهَا، (...) وإِذَا أَنْ يَسْتَأْنَفُوا حَيَاةَ جديدة.				
	ك،.: 28: الانتصار لقيم الرُّوح مُقَابِلَ الإِعْرَاضِ عَنْ قيم المادَّة.				

الجدول II: تلخيص لأقصوصة «مِصْرُ المَرِيضَةِ»

بدأت الشَّخصيَّة رحلتها عبْر المكان سفينة من فرنسا إلى مصر، وزماناً استشرافاً وشوقاً إلى اللَّحظة الذي تَطَأُ فيها قدماها أرض الوطن، لكنَّ الرِّحلة كانت في اتِّجاهات متباينة متوازية متعاكسة متقاطعة، إذ اقترنت الرِّحلة في بُعْدِهَا الواقعيِّ برحلتين: وجدانيَّة أليمة، وفكريَّة عسيرة، والسَّبب في ذلك نَبَأُ بل أنباء تفشِّي وباء الكوليرا في مصر، وهو النِّبَأُ الَّذِي جَعَلَ الشَّخصيَّة تتخذ أبعاداً عديدة تتولد من امتزاج الأدبيِّ بالواقعيِّ في ذات طه حسين الكاتب القصصيِّ المفكِّر الناقد، ومن السِّياسيِّ يلتفُّ بالفنِّي شخصيَّة/ شخصاً (إسماعيل) إيهاماً باستقطاب هموم الدَّات وشواغل العصر سياسة واجتماعاً، ثقافة وأخلاقاً، وكلَّ ذلك في فلك المشروع الحضاريِّ يَدور مُفارقة بين الدَّات والآخر، كما بين الشرق والغرب.

إنَّ الكاتب وهو يُنشئ نصّه - وبالنظر دائماً إلى الأبنية الكبرى - يَصوغه وفي ذهنه حركة وبحث في الذاكرة عن مُبررات الحملة الصحفية الإعلامية الكبيرة التي تتخذ صبغة الفضح والتشهير - من وجهة نظره - هل المُراد بها تهيئة المسافرين نفسياً ووجدانياً لما قد تتخذه السفرة من استثناءات يكون معها الإعلام، منذ البداية، بأن «مصر مريضة» من قبيل التبرير والحجة؟ أم هي نزعة إنسانية بدعوة شعوب العالم المُتقدّم خاصة، إلى السعي والمبادرة بمساعدة مصر - بلداً عربياً شرقياً - على تجاوز المحنة انفتاحاً على القيم والأخلاق، والقوانين الدولية التي من المفترض أن تحكم العلاقات بين المجتمعات والشعوب، أو بين غرب متقدّم وشرق متخلف خاصة إذا نُظر إلى المسألة في سياقها التاريخي ومرجعها الحضاري؟ أم هي حدود الخطاب الصحفي أو لا حدوده بين الوظيفة والغاية، وبين الموضوعية والذاتية.

إنَّ من خصوصيات البنية الكبرى ألاّ تنشأ، فقط، في شبكة علاقات مع أبنية كبرى هي نسيج نصّ مكتوب لغة ولفظاً، وإنّما تستدعي البنية الواحدة منها عديد الأبنية في خطاب ضمني ينشأ في ذهن صاحب النصّ ذاته، فإذا موضوع نُشر نبأ «مرض مصر» وبذلك الطريقة واسعة النطاق في «السفينة» أو في «الصحف الفرنسية» يستدعي إلى ذهن الكاتب/ الراوي/ الشخصية مرجعيات أخرى هي أبنية كبرى مُتولدة عن البنية الكبرى/ الموضوع، وهذه الأبنية الكبرى الضمنية هي الإعلام (الخصائص - الوظائف - الغايات)؛ فرنسا (الحضارة/ الثقافة: الأشكال والممارسة والتطبيق)؛ مصر (المكان - الدلالة: بالنسبة إلى الذات المنتمية إليها، المنفصلة عنها، كما بالنسبة إلى الآخر الفرنسي وغير الفرنسي).

وينضاف إلى البحث في الذاكرة، المتلقي وهو نوعان: القارئ/ الحدث في البنية السردية، إذ يقول الراوي: «فَالْقَارِئُ الْمُسْتَبْصِرُ خَلِيقٌ أَنْ يَصْطَنِعَ كَثِيراً مِنَ الْحَرْصِ وَالْأَنَاءَةِ حِينَ يَقْرَأُ أَنْبَاءَ مِصْرَ فِي فَرَنْسَا، وَحِينَ يَقْرَأُ أَنْبَاءَ فَرَنْسَا فِي مِصْرَ» ص: 159 - 160، القارئ بما هو وعي، قياس خطاب منقول صحافة، بواقع معيش يراه «القارئ» الأول بعين الحقيقة كما هي، ومنها يتم استدعاء الإطار باعتباره من العوامل المساعدة على تحديد البنية الكبرى والتعرّف إلى خصوصياتها؛ ثم القارئ/ المُحدّث إليه إحالة على البنية السردية لا باعتبارها بنية تركيبية أجناسية لكن بنية دلالية تنشأ علاقة راو/ كاتب/ مُنشئ نصّ بمُتلّق يجعله متردداً بين جانب موضوعي هو البنية الكبرى/ العليا/ العنوان في الأقصوصة، وآخر ذاتي هو نقطة ارتكاز السرد وصفا لمختلف التوازن والأفكار التي تُحدّث في باطن الشخصية، وتسعى إلى إخفائها خروجاً من دائرة التهميش المُسلّطة إلى دائرة المركز المُتَحَكِّمة في الحدث (رأته الشخصية إهانة وإذلالاً)، وفي الحديث (اتخاذ موقف وردّة فعل

إنكاراً إلى حدِّ التَّكْرَرِ، إذ يقول الرَّاي: «وَلَسْتُ أُخْفِي عَلَيَّ الْقَارِيَّ أَيُّ لَمْ أَكْذُ أَسْمَعُ مَا نُشِرَ فِي تِلْكَ الصَّحِيفَةِ مِنْ أَنَّ مَصْرَ مَرِيضَةٍ، وَمِنْ أَنَّ مَرَضَهَا شَيْءٌ يُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ وَبَاءَ الْكُولِيرَا، وَمِنْ أَنَّ الْحُكُومَةَ الْمَصْرِيَّةَ قَدْ أَخَذَتْ تَتَأَهَّبُ لِمَقَاوِمَةِ الْوَبَاءِ، حَتَّى رَفَعَتْ كَنْفِي وَهَزَزْتُ رَأْسِي وَابْتَسَمْتُ ابْتِسَامَةً سَاخِرَةً مِنْ هَؤُلَاءِ الصَّخْفِيِّينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَكِيدُوا فَلَا يُحْسِنُونَ الْكَيْدَ، وَأَنْ يَكْذِبُوا فَلَا يُحْسِنُونَ تَخْيِيرَ الْأَكَاذِبِ» (ص: 160).

ظاهر الخطاب علاقة شخصية بأخرى تبدو هامشية ولكنها جوهرية تضع ثقلها على الشخصية/ الرَّاي/ الناقد صورة تتجلى في صلة البنية الكبرى/ الموضوع بغيرها من حيث المقام ويتوزع بين زمن الحدث، وزمن إنشائه خطاباً قصصياً/ نقدياً، وزمن تلقيه وإعادة صياغته فهما وتأويلا، يقول الكاتب: «فَلَمْ يَكُنِ الشُّعُورُ الَّذِي وَجَدْتُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ شُعُورَ الْخَوْفِ، وَلَا الشُّعُورَ بِالْحَاجَةِ إِلَى الْإِحْتِيَاظِ، وَإِنَّمَا كَانَ شُعُورًا غَرِيبًا أَسْتَطِيعُ الْآنَ أَنْ أَقُولَ أَنَّهُ كَانَ مِرْجَاً مِنَ الْخُزْنِ وَالْخَزْيِ جَمِيعًا» ص: 160 - 161.

فَالزَّمان، بما هو تداعيات مرجعيات إنشاء نص من ناحية، وإنشاء علاقات بمُتلق من ناحية أخرى، تُتَبَيَّنُ مفاصله وتشعباته بِطَرُقٍ مِنْهَا الْأَسْتَدَاءُ إِلَى الْأُبْنِيَةِ الْكُبْرَى ذات الأهمية في تحليل الخطاب من حيث التَّعَرُّفِ إِلَى الْمَنْطِقِ الَّذِي يَحْكُمُ نَسِيجَهُ، وتُدَاعِي الْأَفْكَارَ وَالْمَعَانِي صلةً ومواضيع فرعية بأخرى أصلية هي جُمَاعُ الْمَوْضُوعِ الْأَصْلِ الَّذِي يَكُونُ الْقَادِحُ الْأَسَاسِي فِي اخْتِيَارِ الْبِنْيَةِ الْعُلْيَا والسَّيْرُ عَلَى مَنَوَالِهَا وَمَتَطَلِّبَاتِهَا شَرْطًا أَجْنَاسِيَّةً هِيَ السَّرْدِيَّةُ الَّتِي مِنْ أَهَمِّ مَقَوِّمَاتِهَا الْإِطَارَانِ الزَّمَانِيَّ وَالْمَكَانِيَّ، أَمَّا ظَاهِرُهُمَا فَيُوحِي بِالْوَحْدَةِ وَالْإِنْسِجَامِ، فَالْمَكَانُ هُوَ السَّفِينَةُ، مَكَانٌ يُوحِي بِالْإِنْحِصَارِ وَالْمَحْدُودِيَّةِ. وَالزَّمانُ هُوَ زَمَانُ نَفْسِي يَنْعَكِسُ مِنْ خِلَالِ مَا تَعِيشُهُ الشَّخْصِيَّةُ مِنْ أَحَاسِيْسٍ وَمَشَاعِرٍ تَنْعَكِسُ عَلَى لُغَةِ الْخَطَابِ بِمَا فِي ذَلِكَ الْقَرَائِنِ الزَّمَانِيَّةِ. لَكِنْ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ثَنَائِيَّةُ الْوَحْدَةِ وَالتَّعَدُّدِ كَمَا تَجَلَّتْ مَكَانًا تَحَوُّلاً فِي السَّفِينَةِ وَمِنْهَا إِلَى مَصْرِ الْإِنْتِظَارِ، وَالْحُلُولِ أَنْعَاسِ انتظارات وخلف هواجس؛ وفرنسا ككل، فمرسيليا، فباريس؛ و«مَوْضِعُ مِنَ السَّفِينَةِ»؛ وبيروت؛ و«لوندرة»؛ ونيويورك؛ وأقطار الأرض كلها.

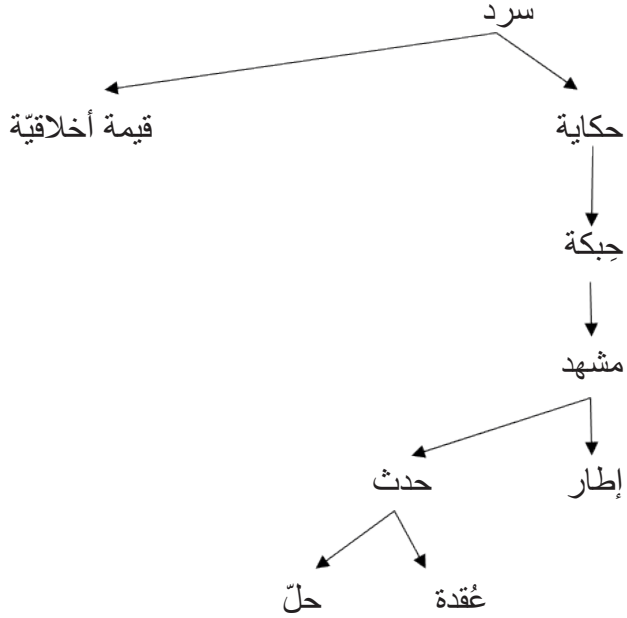
إنَّه الْمَكَانُ الْمَوْزَّعُ بَيْنَ مَبْتَدَأِ: السَّفِينَةِ بِمَا تَسْتَدْعِيهِ مِنْ لَوَازِمِ اخْتِزَالِهَا الرَّاي/ الشَّخْصِيَّةُ فِي عِبَارَةِ «الْمَرَامِسُ الْبَغِيضَةُ»، وَمِنْ تَحَوُّلٍ غَايَةِ: مَصْرٍ، بِمَا تَعْنِيهِ مِنْ غُرْبَةٍ مَكَانِيَّةٍ بِنِيَّةٍ كُبْرَى اغْتِرَابِ نَفْسِي بَيْنَ التَّعَلُّقِ بِالْأَصْلِ بِقَابِلِهِ الْإِنْبِتَاتِ عَنْهُ، وَالنَّظَرَةِ إِلَى مَصْرِ/ الْحَيَاةِ الْخَصْبِ «نَهْرًا يَفِيضُ بِالنَّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ» ص: 162، نَظَرَةً مَجَازِيَّةً سَرْعَانِ مَا تَرْتَدِّ إِلَى حَيَرَةٍ «بَيْنَ الْحَرَكَةِ وَالسَّكُونِ، وَالْكَلامِ وَالصَّمْتِ، وَبَيْنَ الشُّعُورِ وَالْجُمُودِ» ص: 162.

إنَّ المكان/ مصر/ الغاية/ المنتهى حلاًَّ يصبح عَقْدًا هي توسّعات للعُقْدة الأصل: «مصر المريضة»، وأمّا الحُلُول فتطوَّف في ذهن الشَّخصيَّة/ الزاوي/ الكاتب القصصيّ النّاقِد، وتَوَوَّل هذه الحُلُول إلى الحَلِّ الكُلِّي وهو النّظر إلى مصر/ الشّفاء/ الحضارة التي قد تبدو ضبابيَّة أمام الوباء الذي أخفى ملامحها لكن إلى حين، حين الوعي بالمحنة والسَّعي إلى تجاوزها. وبين العُقْدة والحَلّ تطوُّف الأقصوصة في بعض مقوماتها الأجناسيَّة بنية عُليا ثنائيَّة تميّزها عن سائر الأبنية السّردية وتوصّلها فيها في آنٍ.

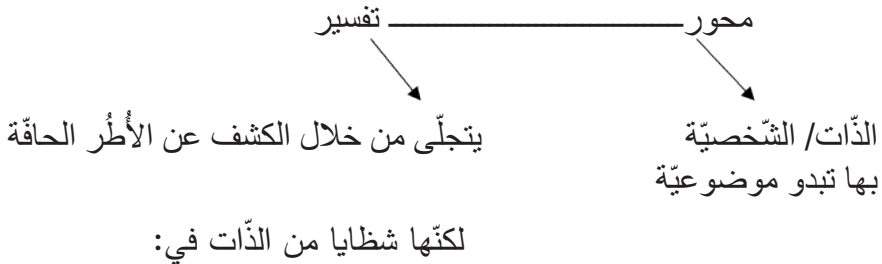
لقد كانت الأمكنة في ذهن السّارد/ الشَّخصيَّة/ الكاتب/ النّاقِد خضماً من المقارنات والمفارقات تتجسّد «مجازاً» و«حقيقة» مشاهد في مصر، وأحداثاً تتفي الوهم والرّيف وتتأصّل في النّصّ المُنجز وفي الواقع كما تراه الشَّخصيَّة تحكمه أفعالا تنتظمها حبكة قصصية. وأمّا الزّمان فهو زمن بداية وقوع الحدث: «لَمْ أَكُ أَصْعِدُ إِلَى السَّفِينَةِ...» عنه تداعت سائر الأزمنة: زمن الحدث إذ يوازيه في خطيّته زمن الخطاب، وزمن استرجاعيّ استشرافيّ في آنٍ: «وَقَدْ كَانَ يَبْنِيْنَا وَبَيْنَ فَرْنَسَا تِلْكَ الْخُطُوبِ الَّتِي أَحْفَظْتُنَا عَلَى الْفَرَنْسِيِّينَ وَأَعْرَتُنَا بِهِمْ، وَأَحْفَظْتَ عَلَيْنَا الْفَرَنْسِيِّينَ وَأَعْرَتَهُمْ بِنَا» ص: 159، وزمن نفسيّ يلتقي فيه الماضي مع الحاضر مع المستقبل، وهو المُهيمن على كامل الأقصوصة، وليس في هذا إلّا ما يؤصّل بنيتها العُليا بما أنّ من مقومات السّردية، الشَّخصيَّة، ومن مقومات الشَّخصيَّة في الأقصوصة التّمحور حول الذات في باطنها تجاذباً بين الحضور والغياب ثنائيّة حدث وحديث، إذ توهم الشَّخصيَّة/ السّارد بالحديث عن الآخر وباستقطاب حوادث خطيرة هي المرض وصيغ مواجهته في مصر، لكنّ ذلك كله ما هو إلّا تصوير من خلال مرآة الذات حوادث لا يَنوِّعها ويُعَدِّدها إلّا التّكرار إيهاماً بالكثرة ولكنّ الحبكة الفعلية أنشئت وفق «نظريّة الحدث» تنتشر إشعاعاته وتتوسّع دائرته، وما هو إلّا خبر من أخبار عديدة متكاثره متهافئة أمام الحدث/ العنوان «مصر المريضة» الذي يختزل الحبكة في بُعديها: الحكائيّ أو الحكّي سرد أطوار نفْس ونفسيّة دون الحديث وتداعياته، وردّة فعل القاصّ تجاه الحبكة والحكاية معاً، تجلّت في ردّ فعله العقليّ، إذ أنّ كلّ أطوار الحكاية لم تقع إلّا مجازاً في ذهن القصّ/ النّاقِد: الموقف يستدعي الموقف، والإشكال يستدعي نقيضه الحَلّ، والضّيق يتطلّب توسيع دائرة المكان، والمحنة لا تنفرج إلّا حلاًّ هو نهاية أقصوصة قَوِّمها السّارد/ الشَّخصيَّة تقديرًا دون إقرار الحَلّ النّهائيّ نقاط استقْهام تظنّ معانيها تقديرًا دون التّقويم بما أنّ الشَّخصيَّة لا تُبْدي رأيها فيما يكون، لكن فيما هو كائن تجذراً في الواقع إذ كان وضع البداية إعلاماً خبراً صحفياً، أمّا وضع النّهاية فردّة فعل قيمية أخلاقية في بُعدين: أولهما: دلاليّ أساسه إنكار الشَّخصيَّة التّناقض المنبثق من التّفاوت الاجتماعيّ، وثانيهما: نفعيّ يقوم على ضرورة التّخلّص من الأنا الفرديّة انصهاراً في الذات الجماعيّة، وهو ما يبرّر انفتاح وضع النّهاية على درس/ عِظّة/ قيمة أخلاقية: «قَوِّمُهَا التّضامُنْ

وَالْتَعَاوُنُ وَالْغَاءُ الْمَسَافَاتِ وَالْأَمَادِ بَيْنَ الْأَقْوِيَاءِ وَالضُّعَفَاءِ، وَبَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ، وَبَيْنَ الْأَصْحَاءِ وَالْمَرْضَى، وَإِذَنْ فَهُوَ التَّأَزُّرُ عَلَى الْخَطْبِ حَتَّى يَزُولَ، وَعَلَى الْكَارِثَةِ حَتَّى تَنْمَحِيَ، وَعَلَى الْعَمَرَاتِ حَتَّى يَنْجَلِينَ» ص: 168

إنّ البنية العليا، بخصائصها المذكورة، إنّما تتسجم والخطاطة التي وضعها فان ديك حديثاً عن بنية النصّ السردّي العليا⁵ وهي التالية:



هي مقولات تردّدت بين الصريح خطاباً قصصياً، وبين الضمني خطاباً نقدياً. وقد ألف طه حسين بين الجانبين في وصف الأحداث وفق ثنائية: محور - تفسير، يمكن قراءتها قراءتين:



5 تون أ. فان ديك: «علم النصّ: مدخل متداخل الاختصاصات»، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري - دار القاهرة - ط. 2 - مصر 2005 - ص: 230.

- آلامها وآمالها،
 - إعجابها وتعجبها،
 - توترها ورغبتها في الاستقرار
- انتهاءً إلى قرار جَلَّ وحَلَّ.

محور _____ تفسير

الحدث القادح ما نُشِرَ عن اتّخاذ فضاء الأُقصوَصَة لتفسير المواقف وردود
«مصر المريضة» الأفعال محاولة خروج من العُقْدَة إلى الحَلّ.

ومن خلال القراءتين، يظهر المعيار التداولي في عنصر التشويق تردداً بين الذات والآخر أصداءً متباينة متألّفة، وفي عنصر الدّهول ردّة فعل مُوزّعة بين الشّخصيّة إزاء الإعلام/ الخبر/ الحدث، بما أنّ الشّخصيّة هي ذاتها الرّأوي: يوهّم بالحديث عن الآخر مكاناً، وثقافة إعلام وصراع حضاريّ، وشخصيّاتٍ، ولكنّ ذلك يعكس صراعات الذات الفرديّة جزءاً من الذات الجماعيّة انتهاءً هويّة لكنّ مُفارقة ثقافيّة مواقف وآراء، وبين متلقّي الخطاب أمام المُفارقات إذ تتعايش وتتسجم: حدثاً ولغة.

وبين التشويق وبين الدّهول، يبدو الغريب انخراط أفق انتظار الشّخصيّة الذي ألمه وآذاه وجعله يتضاءل، فإذا الأمر في مصر عاديّ مألوف جزء من حياة يوميّة رتيبة لا غرابة فيها إلا النّظر إليها على أنّ المُفارقة ضرب من الجنون.

إنّ الحدث كان فرضاً عُقدّة: «مصر المريضة»، وما اقترن بذلك من إعلان وإيذاء، لكنّ النّتيجة الحَلّ لم تكن من جنس العقدة (وإنّما كان ذلك جزءاً من تبريرات عديدة أراد من خلالها القاصّ/ الشّخصيّة التخفيف من ثقل العبء إذ يقول: «أنّ الحُكُومَة المُصرّيّة أَخَذَتْ تَتَأَهَّبُ لِمُقاوِمَة الوَباء» ص: 160. والحَلّ، بالنسبة إليه، لم يكن جزئياً وإنّما هو مشروع حضاريّ أُسّسه قيميّة أخلاقيّة.)

إنّ بناء هذه الأُقصوَصَة قد أّحال على ثنائيّة الثّبات الأجناسيّ البنيويّ بنية عُليا: مُقومات وأُسسا، لكنّ هذا لم ينفِ انزياحات تمثّلت في مفارقة الطّبيعة غير التكرّريّة، ذلك أنّ التكرار كان لازمة في بناء الأُقصوَصَة وفي

دلالاتها خروجاً عن خاصية الاختزال والتكثيف؛ ثم في الأحداث التي كانت أوصافاً للأحوال، والموصوفات، كما لأحداث أخرى، فإذا الحديث هو حكي الحادث والأحداث التي تتحرف إلى درجة مُعَيَّنة عن معيار ما عن التوقعات والعادات ارتباطاً بالأهمية تنشأ من مقولة البنية العليا الأولى وهي العقدة، وهي في الأساس حدثٌ دون أشخاص: وباء الكوليرا المنتشر في مصر، لكن، في الحقيقة الأشخاص في أثناء مجرى النص هم المعنيون بردود أفعالهم تجاه الحدث: وهو ما يمثل حلّ العقدة، بل إن الشخصية المحورية هي التي تتردد بين السلبية وبين الإيجابية في إنشاء الحدث وتحويله اعتماداً على الذات، واستناداً إلى الآخر: المجتمع المصري ككل، والفئة المترفة منه تحديداً خروجاً من حدودها الضيقة انفتاحاً على الطبقات الكادحة.

وتجلّت الانزياحات أيضاً في انفتاح هذه الأقصوصة: «مصر المريضة» على:

1. الرواية من حيث اتساع حيز النص؛ وجعل الموضوع جملة من الشواغل إذ تعددت مكوناته؛ ثم السعي في الوصف إلى التفصيل إماماً بجوانب عديدة من الإشكالية في انعكاسها على الفرد والجماعة (المجتمع المصري)⁶

2. الحجاج في التكرار المقترن بالتأكيد وإثبات الرأي؛ وشائبة الإجمال والتفصيل بما فيها من ميل إلى تقديم الحجاج بتناول مسألة واحدة من وجوه عديدة للإقناع؛ وتكثيف الروابط المنطقية، فانباء الأقصوصة حسب بنية النص الحجاجي تقرأ إلى طرح الإشكالية، والسيروية الحجاجية، والخلاصة أو النتيجة.

على أن هذا التوسع الأجناسي لا ينفي خصوصية الأقصوصة بقدر ما يشي باستيعابها لغيرها من الأنماط السردية. ثم إن من القرائن اللغوية والمقومات الأسلوبية ما لا يمكن جعله حكراً على جنس دون آخر. وأيضاً، يمكن أن ندرج هذا الانفتاح ضمن ما ذهب إليه آدام⁷ أن من العسير الفوز بالجنس الأدبي المحض بما أن المسألة - من خلال المنجز من النصوص - إنما تتعلق بالجنس المتداخل.

6 عن الصادق قسومة: «الرواية العربية: مقوماتها ونشأتها في الأدب العربي الحديث» - مركز النشر الجامعي: 2000: 51 - 53.
7 في كتابه:

«Les textes types et prototypes : description, argumentation, explication et dialogue», Paris, 1997, 3^{ème} éd.

خاصة المقدمة، والجزء الأول من الفصل الأول.

2. النَّصّ الثَّانِي

أقصوصة «الأعداء» عن المجموعة القصصية «النَّمور في اليوم العاشر» لـ زكريا تامر

الاستدلال على انسجام الخطاب القصصي من خلال تفاعل المرجعيّتين النحويّة والبلاغيّة، تشكيلاً للملفوظ، وإيحاءً بالمعنى، وسكوتاً عن الدلالة.

2. 1. النَّصّ

الأعداء

1 - البداية

نفخ الشَّرطيّ في صفّارته، فبزغت تَوّا شمس الصّباح، وأضاءت شوارع المدينة بنورٍ أصفر كخشب مشنقة عجوز.
وعندئذٍ أفاق النَّاسُ من نومهم آسفين عابسي الوجوه.

2 - السّماء المفقودة

حطّ عصفوران على غصن شجرة من الأشجار المنتصبة على جانبي أحد الشّوارع، ولم يغردا مرحبين بشمس الصّباح، إنّما تبادلّا النظرات الوجلة الحائرة، وقال أحدهما للآخر: «أين نظير؟»
« - سماؤنا احتلتها الطّائرات.»

« - لم يبق لنا سوى سماء الأقفاص.»

« - سنفقد أجنحتنا.»

« - سننسى الغناء.»

وحقّ العصفوران إلى طائرة سوداء تَغْبُرُ السّماء بسرعة خاطفة، ثمّ تبادلّا النظرات الوجلة، وبدت لهما المدينة فما شرها ذا أنيابٍ، فابتلعا حبوبا

ميتة، ثم سقطا ميتين على رصيف صلب من إسمنت.

3 - الأسرى

يمشي رجلان عجوزان على رصيف شارع بخطى ونيدة، ويتحدثان بكآبة:

« - هذا الزمان آخر زمان. »

« - الحال من سيء إلى أسوأ. »

« - حان وقت كتابة العريضة. »

« - أيّ عريضة؟ »

« - العريضة التي ينبغي رفعها إلى الله عز وجل. »

« - وماذا سنكتب في تلك العريضة؟ »

« - سنكتب ما يلي: نحن الموقعين أدناه نلتمس من سيّد الكون أن يرسل إلينا جيشاً من ملائكته مسلّحاً بأحدث الأسلحة على أن يُقيم على حدود البلاد ويقاوم الأعداء ولا يُعاملنا كأسرى. »

« - وماذا نفعل في حال عدم تنفيذ طلبنا؟ »

« - نرفع عريضة ثانية نطلب فيها الموافقة على إعفائنا من الصّلات الخمس. »

« - وإذا لم يُوافق؟ »

« - بل سيوافق أيضاً على إعفائنا من الصّوم، إنه رؤوف رحيم. »

4 - الثّار

ثمة عدد من الأولاد مجتمعين في باحة المدرسة، يلعبون بحماسة لعبة جديدة.

« - أنا طرزان. »

« - أنا عنتر. »

« - أنا مليونير. »

« - أنا مخترع القنبلة الذريّة. »

« - أنا شرطيّ. »

« - أنا مخترع الطائرات. »

فانقضّ الأولاد على مخترع الطائرات، وراحوا يصفعونه ويلكمونه ويركلونه بينما كان يصرخ معولاً مستغيثاً.

5 - رجال

«... الحمد لله الذي خلقنا رجالاً نركض ساعة الخطر إلى أمام كالريّح، فننجو ولا نهلك.

والحمد لله الذي لم يخلقنا نساء نقعد في البيوت فتحرقنا قنابل الأعداء وكأننا الجوارب العتيقة.

الحمد لله الذي لا يُحمّد سواه...».

6 - الخطر

سُئِلَ فلكيَّ عما سيأتي به المستقبل، فقال دونما تردّد: «سيهلك الكبار، سيهلك الصغار، ستهلك القطط والطيور والأزهار. ستهرق البيوت والكتب والزرايات. ستهرق مقاعد المدارس والصور التذكارية. سيمحو النابالم الضحكات واللغة العربية والسنابل. ستهدم المستشفيات. ستهدم المصانع. ستهدم الحدائق. ستسير النساء في الشوارع دون ملاءات».

ولما نُشِرَتْ تلك النبوءة مفصّلة في كتاب، اتّفق المخلصون للوطن على استنكار ما سيحلّ بالمرأة، وتنادوا إلى التضحية بالنفس والنفيس لدرء ذلك الخطر البشع.

7 - الجنّة

كان الرّجال الموشوكون على أداء الصّلاة متحلّقين بلهفة حول شيخ المسجد، وقد سأل أحد الرّجال الشّيخ بصوتٍ متهدّج: «أ توجد، يا شيخنا، طائرات في الجنّة؟»

فقال الشّيخ: «لا وجود للطائرات في الجنّة!»

فتنهّد الرّجال بارتياحٍ، وقالوا بفرحٍ: «الحمد لله».

8 - خطبة

«... والله ما كان سكوتنا على الأعداء عن ضعفٍ إنّما كان إباءً وشمما وترفعاً وثقة بالنفس.

قالوا: نريد بترولكم. قلنا خذوا بترولنا، فنحن أحفاد حاتم الطائي. قالوا: أعلنوا حرباً شعواء على الأفكار المستوردة. قلنا: نحن أهل الكرّ والفرّ،

ونصبنا المشانق وشيّدنا السّجون.

أرادوا الاستيلاء على المدينة، فأعطيناهم مدنا ومدنا كي نبرهن على أنّنا لا نبالي بهم، فإذا كانوا يملكون الطائرات والقنابل، فنحن نملك الخلق القويم والمبادئ السماوية، وشتان بين ما يملكون وما نملك، فنحن الأقوياء لأننا مسلّحون بالروح والحق لا المادة الزائلة والباطل الزهوق...»

9 - وسام المنقذ

ظفرت اللغة العربيّة بأرفع وسام في الوطن لمساهمتها في تحويل هزيمة حربيّة إلى نصر، فهي أسمت الحرب انسحابا، وأسمت الانسحاب صمودا، وأسمت الصمود بطوّلة، وأسمت البطولة نصرا.

ولقد انتصرنا على الأعداء، وسننتصر أيضًا على طابورهم الخامس الذي يتجاهل وحدة الطاقات القتالية للغة العربيّة.

10 - لماذا؟

سأل التلميذ معلّمه: «ما الفرق بين الإنسان والحيوان؟»

فقال المعلّم للتلميذ: «الحيوان لا يتكلّم والإنسان يتكلّم».

لم يكذب المعلّم، ونحن العاملين في الإذاعة والتلفزيون والصّحف خير من تكلم.

فإلى خالق السماوات والأرض الذي منحنا الألسنة، نقدّم الشكر والامتنان، ففوائد الكلام لا تُحصى، ويوم حاربنا الأعداء قام كلامنا بدور مشرف، فجاباه الأعداء بشجاعة، وأسقط طائراتهم ودمّر دباباتهم وأباد جنودهم.

فلماذا حدث ما حدث وحلّت بنا الهزيمة مع أنّ كلامنا جاهد جهاد الأبطال؟

11 - محو الفقراء

جاع المواطن سليمان القاسم، فأكل جرائد زاخرة بمقالاتٍ تمتدح نظام الحكم، وتعدّد محاسنه المتجلىّة في محو الفقراء.

ولمّا شبع، شكر الله رازق العباد، وآمن إيمانًا عميقا بما قالتها الجرائد.

12 - برنامج إذاعي

مذيع: «ما اسمك يا أخ؟»

شاب: «عبد المنعم الحلبي».

مذيع: «متزوج؟»

شاب: «عازب».

مذيع: «ماذا تشتغل؟»

شاب: «أنا بلا عمل».

مذيع: «ولماذا لا تعمل؟ أ أنت غني أم تكره العمل؟»

شاب: «لست غنياً ولا أكره العمل. إنني أبحث عن العمل منذ سنوات».

مذيع: «ما هي الأمنية التي تتوق إلى تحقيقها؟»

شاب: «أن أموت الآن».

مذيع: «أيها الأعزاء المستمعون. لا ريب في أن الأخ عبد المنعم الحلبي وطني غيور، فهو كما تلاحظون حين يتمنى الموت يرغب في معاقبة نفسه لأنه لا يساهم في بناء مجتمعنا المتطور السائر إلى الأمام».

13 - الأبناء

سأل طفل صغير أمه: «ما الفائدة من العنين؟»

فتجهت وجه الأم، وقالت وهي تنظر إلى طفلها بريبة وحذر: «العينان خلقتا لتنظرا باحترام وحب إلى صور زعماء البلاد».

قال الطفل: «والأذنان؟»

قالت الأم وقد تزايد خوفها: «الأذنان تسمعان الأوامر الرسمية والخطب السياسية».

قال الطفل: «واللسان؟»

قالت الأم: «اللسان لا فائدة له سوى المساعدة على ابتلاع الطعام بعد أن تمضغه الأضراس والأسنان».

فابتسم الطفل ابتسامة غامضة بينما كانت الأم ترتعد خاضعة لرعب قاسٍ.

14 - البطل

مذيع تلفزيونية: «هل تسمح يا أستاذ خالد بن الوليد بأن تشرح للإخوة المشاهدين كيف صرت بطلاً شهيراً؟»

خالد بن الوليد: «لقد صرت بطلاً بفضل ملح أندروس الفوار، ففي كل صباح كنت أشرب كوب ماء بعد أن أذيب فيه ملعقتين من ملح أندروس..»

فلمح أندروس كما يعلم القاصي والداني ينشط الكبد وينظف الأمعاء ويقوي الجسم وينعش العقل».

15 - الحب

«فتش كما تشاء يا سيدي الشرطي، فامرأتي ليست مطبوعة بالمنشورات السياسية الهدامة، وضحكها ليست مؤامرة استعمارية، ولا يمكن أن تُفسر على أنها نقد مباشر لنظام الحكم خاصة وأني قبل أن أحبها، سألتها عن رأيها بنظام الحكم السائد حاليًا بالبلاد، فأجابت فوراً بأنها تحبه حباً جماً، وعندئذٍ فقط سمحت لقلبي بأن يعشق تلك المواطنة الواعية.

ولما قُبلتها لأول مرة ارتعشنا معاً مبتهجين وكأنا كنا نصفق ونهتف في مسيرة مؤيدة لكفاح الشعوب.

فهل تريد، يا سيدي الشرطي، إخلاصاً للوطن أكثر من إخلاصنا؟!»

16 - الجريمة

أنا مواطن لا أختلف عن غيري من المواطنين المعوزين، ثيابي كثيابهم، ومعدتي كمعدتهم، وأخاف كما يخافون.

وعندما منحتني الدولة شرف العمل في مصنع تملكه، لم أدرك قيمة ما مُنحت، وطالبت بعد أشهر قليلة بزيادة أجري متجاهلاً ما تتطلبه المعركة ضد الأعداء من أموال، ومخالفاً الأوامر الرسمية بوجوب التقشف، ولم أنتبه إلى مدى الضرر الذي سينزل بالوطن إذا ما لبّي طلبتي، فلو كنت قد حصلت على زيادة أجري، فلسوف ينقص مال الدولة، وإذا نقص مال الدولة، فسينقص ما يدفع ثمناً للويسكي وثياب النساء والسيارات والأبنية، وإذا قلّ الويسكي وزعلت النساء وغدت السيارات غير فخمة، فمن المؤكد تاريخياً وموضوعياً أنّ فرح المسؤولين عن البلاد سيتضاءل، وإذا تضاءل فرح المسؤولين فستصبح معنوياتهم خائرة، وتصير بياناتهم وتصريحاتهم وخطبهم فاترة مُملة لا تُرعب الأعداء.. ولذا فحين طالبت بزيادة أجري، خدمت الأعداء وشاركت في إنجاح حربهم النفسية.

إذن فلاعاقب شرّ عقاب.

ملاحظة: «هذا الوعي المبالغ الذي امتلكته لا علاقة له البتة باقتيادي إلى مخفر الشرطة، إذ لم أسأل هناك إلا عن اقتراحاتي الرامية إلى تطوير الإنتاج».

17 - أولو الأمر

اتكأ الشرطي بمرفقيه على سور النهر، وصاح بصوت خشن صارم:

«أيها النهر».

« - مَنْ يناديني؟ ».

« - أنا الذي أناديك ».

« - مَنْ انت؟ »

« - أنا شرطي ».

فارتجفت مياه النهر، وأضاف الشرطي قائلاً: «إذا أردت ألا تُطرَد وتحيا بقيّة عمرك في منفى، فعليك أن تتعهد خطياً بعدم التّدخل في الشؤون السياسيّة».

« - ولكنّ الوطنَ وطني ».

قال الشرطيّ بلهجة جافّة: «هل تريد أن تُسجَن؟»

فبادر النهر إلى تنفيذ رغبة الشرطيّ، معلناً الولاء والطّاعة لأولي الأمر.

18 - في سبيل وطنٍ يسرّ السّياح

إلى مَنْ يهّمه الأمر:

نحن المخلوقات البشريّة الرّثة الّتي تقطن في الأزقة الضيّقة المظلمة،
نطالب بما يلي:

1. أن يُسمَحَ لنا بالسّيرِ عراة توفيراً لثمن الثّياب، ولكي يُتاح
لأجسادنا الحصول على النّور والهواء.

2. أن تقوم المستشفيات الحكوميّة مجاناً باستئصال معدنا الّتي
تُسبّب لحياتنا اضطراباً لا مبرّرَ وطنياً له.

3. أن تُقطع رؤوسنا بعد أن تُثبتَ لنا أنّ ما يجعل المواطن خائناً
هو العين الّتي تُبصر، والأذن الّتي تسمع، والعقل الّذي يفكر،
والعقل الّذي لا يفكر.

19 - أصفاد الموتى

يُروى أن رجلاً عشق امرأة، ولكنّها أبت الزّواج منه، فقال لها متسائلاً
بدهشة: «كيف ترفضين الزّواج مِنّي مع أنّك تقولين لي دائماً بأنّك تحبينني؟»

قالت المرأة: «أنا أحبك ولكنك من أسرة لا تدفن الموتى من أجدادها،
فكيف تريد مِنّي أن أحيا معك في بيت غُرفه مليئة بالجثث؟»

ففكر الرجل هنيهات ثم قال: «أنت مُحِقَّة فالموتى لهم المقابر لا منازل الأحياء».

وبادر إلى حفر حفرة عميقة كي يدفن فيها جثث أجداده، غير أنَّ أشباح الأجداد والأعداء أوثقته بالأصقار ودفنته في الحفرة التي سبق أنَّ حفرها.

لم تبك المرأة، إنما شحذت سيف رجلها، وانتظرت عودته دونما يأس كي يحارب الأجداد والأعداء.

20 - الشَّموس والأقمار

الجبان الحيَّ خيَّر من الشَّجاع الميت، فقَبِلَ اليدَ القويَّة، وادَّع في السِّر أنَّ تُكسَرَ، وإذا أردتَ مطلبًا من كلب فقل له: مولاي الكلب.

كن أوَّل من يُطيع وآخر من يعصي، فلا رأي لمن لا يُطاع، وإذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، والقناعة كنز لا يفنى، والحسود لا يسود، فاستقم كما أمرت وأطع أولي الأمر، وكلَّ مَنْ سار على الدرب وصل.

21 - الصَّغار يضحكون

شاهدَ الملك يوما عددًا من الأولاد يلعبون في أحد الحقول ويضحكون بمرح، فسألهم: «لماذا تضحكون؟»

قال أحد الأولاد: «أنا أضحك لأنَّ السَّمَاء زرقاء».

وقال ولد ثان: «وأنا أضحك لأنَّ الأشجار خضراء».

وقال ولد ثالث: «وأنا أضحك لأنَّ العصافير تطير».

فنظر الملك إلى السَّمَاء والعصافير والأشجار فألفاها لا تضحك، فاقتنع بأنَّ ضحكات الأولاد لا هدف لها سوى الهزء بهيئته الملكية، فعاد إلى قصره، وأصدر أمرًا بمنع أهل مملكته من الضَّحك، فأطاع النَّاس الكبار السَّخَن، وكفُّوا عن الضَّحك، غير أنَّ الأولاد الصَّغار لم يُبالوا بأمر الملك وظلُّوا يضحكون لأنَّ السَّمَاء زرقاء والأشجار خضراء والعصافير تطير.

22 - الرِّشوة

عقد رجال الحارة اجتماعًا تحدَّثوا فيه عن أمور الدِّين والدُّنيا، فسارع رجل ذو لحية بيضاء يقول لهم بلهجة مؤنَّبة: «لَمْ يهزمنَّا الأعداء في الحرب إلَّا أنَّنا ابتعدنا عن ديننا الحنيف، واعلموا أنَّ تلك الهزيمة عقاب وإنذار، عقاب لما ارتكبتم من ذنوب، وإنذار بمستقبل حافل بالويلات والكوارث».

فصاح واحد من أهل الحارة: «ماذا نفعل؟ أرشدنا».

قال الرجل الملتحي: «عودوا إلى دينكم نادمين تائبين طالبين الغفران وحسن الختام».

قال رجل: «ولكننا نصلي ونصوم ولا نؤذي أحداً ونذكر الله صباحاً مساءً».

قال الملتحي: «ما تفعلونه لا يكفي، يجب أن تبنوا مسجداً تعلو فيه كلمة الله».

« - ولكنّ بناء المسجد يكلف أموالاً كثيرة، ونحن فقراء».

قال الملتحي بنزق: «الويل لكم! أتعذرون عن بناء المسجد متذرعين بجحجج واهية، بينما تُنفقون ما تكسبون من أموال في سبيل حياة فانية؟ بئس المصير لمن فضّل الحياة الدّنيا على رضى الله».

فنكس الرجال رؤوسهم خجلين.

وجاع أهل الحارة زمناً طويلاً، ولكنهم بنوا مسجداً له مئذنة تشبه رحما غاضبا يوشك أن يندفع عبر الفضاء ليثقب طائرات الأعداء.

23 - التحقيق

قال المحقّق لطفل في المهد: «إياك والكذب. قل كلّ ما تعرف عن رفاقك».

لم يُجب الطفل، فاستاء المحقّق، وقال للطفل بلهجة حانقة: «أ تجرؤ على رفض الكلام؟»

بكى الطفل، فاستاء المحقّق، وأمر باستدعاء رجاله، فأقبلوا حالاً حاملين السّياط واللّيل الميّت النّجوم.

24 - الوصيّة

كان الرّجل الهرم الذي يحتضر يتخلّق حوله العديد من أبنائه وأحفاده الحزاني، وقد تأمل بعينين مجهدتين وجوههم الصّفراء وثيابهم المّهترئة، وقال لهم بصوتٍ خفيضٍ مرتعشٍ آسف: «سأموت دون أن أترك لكم ما ينفعكم».

وهمّ بمتابعة كلامه، ولكنّ إعياءً حاداً مباحثاً داهمه وأرغمه على السّكوت، فأغض عينيه وهو يرتجف متلهّفاً إلى أن يقول لأبنائه وأحفاده: «الحياة يا أولادي وأحفادي غريبة، فافعلوا كلّ ما هو سيّئٌ مشين، عيشوا

فسادًا في الأرض. لا تقولوا الصدق ولو كانت أنشودة المشنقة تهمّ بحصد رؤوسكم. اكذبوا، تملّقوا الأثرياء وذوي المناصب، تملّقوا التّافه والضّحل والأجوف والمهزّج، فالمستقبل الوضاء لهم لا لغيرهم. صقّقوا للوافد الجديد الصّاعد، واشتموا الرّاحل الآفل. اسكروا. لا تصلّوا. لا تصوموا. لا تحسنوا إلى أحد. كونوا اليمين واليسار، وكونوا الشّرق والغرب. احتقروا الكُثْب، فابتسامة مسؤول أفضل من ألف كتاب. حاربوا الضّعيف المعوز، وناموا أذلاءً على أعتاب القويّ القادر. امدحوا من لا يستحقّ المديح. صقّقوا إعجابًا بنباح الكلاب، واقرعوا الطّبول كي لا يسمع تغريد البلابل».

وخضع الهرم المحتضر لحقدٍ عاصفٍ فحاول أن يصرخ معلنًا ما يرغب في قوله، ولكنّ الموت أقبل في تلك اللّحظة، فصمت المحتضر مفعماً بالمرارة والأسف.

25 - النّهاية

قال المعلّم لتلاميذه الصّغار: «السّنة كما أخبرتكم سابقًا تتألّف من أربعة فصول، فما هي؟»

صاح التّلاميذ: «الخريف».

قال المعلّم: «في الخريف تصفرّ أوراق الأشجار، وتُحرث الأرض، وتنفد الغيوم».

جاء الخريف، واصفرت أوراق الأشجار، ثمّ تساقطت لتغطّي جثث من قُتلوا في الحرب ولم يُدفنوا في قبور.

صاح التّلاميذ: «الشّتاء».

قال المعلّم: «في الشّتاء، تهطل الأمطار وتروي التّراب».

جاء الشّتاء، فإذا حطام طائراتنا ورجالها الموتى الأبرياء بذور في التّراب هطلت فوقها الأمطار الغزيرة.

صاح التّلاميذ: «الرّبيع».

قال المعلّم: «في الرّبيع يعمّ اللّون الأخضر».

جاء الرّبيع، واكتست الأرض باللّون الأخضر والأزهار، ولكنّ الأمّهات والمدن ظلّت مرتدية ثياب الحداد.

صاح التّلاميذ: «الصّيف».

قال المعلّم: «الصّيف موسم الحصاد».

جاء الصَّيف، ولكنَّ الأرضَ لن تُنْبِتَ سنابلَ قمحٍ، إنما ستُنْبِتُ طائراتَ
جديدةَ ورجالاً تَوَاقِينَ إلى موتٍ ثانٍ.

26 - النِّهاية

أغمد رجلٌ نصلَ مديته حتَّى المقبضِ في التُّرابِ بحركةٍ متشقِّيةٍ، ثمَّ
ألصقَ أذنيه بالأرضَ، وهتفَ بدهشةٍ: «الأرضُ تبكي».

ثمَّ ألصقَ أذنه بالأرضَ ثانيةً، وصاحَ بصوتٍ مُثقلٍ بالفرحِ: «لقد
ماتت».

وحينَ ألصقَ أذنه بالأرضَ ثالثةً، لم يسمعَ سوى أحذية الجنود تصكُّ
الأرضَ برتابةٍ.

ص: 5 - 19

1.2. التّحليل

هذه الأقصوصة متجاذبة بين خصائص ومميّزات عدّة أبرزها القيمة التي سعتد في إثبات تجلياتها البنيويّة، وخاصّة التّناظر بين الأبنية العليا من ناحية، والأبنية الكبرى من ناحية أخرى؛ وبين الانسجام في مستوى اللّغة والمعجم، والانفراط⁸ في مستوى التّوزيع والوسم: خصائص يوجد بعض ما يؤكّدها في خطاب الوحدة والانسجام من خلال البنية الانتشاريّة التي أقيم عليها النّص: عنوان ونقطة ارتكاز: «الأعداء»، وعناوين فرعيّة أشعة تضيف بناءً داخل البناء في ستّة وعشرين جزءا تبني:

1. مقدّمة: 1 - 9 البداية؛

2. جوهر: 2 - ← 25 -: السّماء المفقودة - الأسرى - النّار - رجال - الخطر - الجنّة - خطبة - وسام المُنقذ - لماذا؟ - مخو الفقراء - برنامج إذاعيّ - الأبناء - البطل - الحبّ - الجريمة - أولو الأمر - في سبيل وطن يسرّ السّياح - أصفاد الموتى - الشّمس والأقمار - الصّغار يضحكون - الرّشوة - التّحقيق - الوصيّة - النّهاية؛

3. خاتمة: هي: 26 - النّهاية: تُؤذّن بالعود على بدء: تختلف الدّوال، أمّا الصّورة فواحدة بقاء طرف لا يستقيم إلّا بإفناء آخر، وما بينهما إنّ هو إلّا تجليات متعدّدة لنفس الذات والصفات.

ولغة الخطاب في هذه الأقصوصة، مبنية على موازاة بين صنف من الأبنية - بمفهوم تحليل الخطاب من وجهة نظر لسانية تداوليّة - وخاصيّة

8 انفراط يؤسّس لشعريّة هذه الأقصوصة وفق الأصول والمنايع، في الشّعور يقوم على مواضع وأقسام عدّة، ولكنّ النّص لا يحقّق وحدة إلّا في هذا التّعّد وجوه متباينة متألّفة، وقول بلاغيّ لا يُفهم على علاته، إنّما معناه في ازدواجيّة خطابه: القول والقول النّقيض، كما المقول وهما وزيفا، يقابله ويُسقطه المسكوت عنه حقيقة وواقعًا.

9 الحرص على بَكر كلّ قصّة ومضة موسومة برقمها وعنوانها ليس اعتباطيًا، إنّما هو ترتيب له ما يبرّره من حيث الحوادث وتطوّر نسقها موازاة بين بداية الحياة ونشوة الإنسان، وبين نهايتها وألمه سكرات موت وعذاب فناء؛ فترتيب هذه الأفاصيص منطقيّ في التّركيب - إذ يُفضي الجزء/ الكلمة إلى الكلّ/ القصّة الومضة التي تلي - ومنطقيّ أيضًا في الدّلالة - من حيث تبرير نقطة الاستقطاب في القصّة الومضة السّابقة التي تنفجر في القصّة التي تليها؛ فإذا الأرقام إحالة على مختلف المراحل التي يعيشها الإنسان وفق ثنائيّة الإرادة والعجز في خطاب إقناعيّ مقوماته تداوليّة اجتماعيّة لا تخلو من خلفيات سياسيّة ومن غايات نقدية صيغت لغة جدلية تُنشئ علاقة بين منشئ النّص ومتلقّيه ذلك «أنّ ربط الصّورة بالمضمون في الججاج يسمح بأنّ نفهم من قول ما أمورًا مغايرة لتلك التي تلتقطت

في البناء - قد تستقلّ عن التجليّ الأول ومفهومه، لكنّها لا تتفصل عنه في بناء شموليّ كلّ يبنني على اللغة، في مختلف تجلياتها ومرجعياتها - وذلك وفق المنهج التّالي:

2. 1. البنية الصّغرى وثنائية التّكثير والتّعريف:

هذه الثّنائية هي الأصل في البناء - وإن لم تكن غايته - لأنّ الغاية محكومة لا فقط بإنشاء النّص بل بعملية التّواصل الكلامي بين منشئه ومتلقّيه، فلا تكون ثنائية التّكثير والتّعريف - بناءً على ذلك - مقترنة فقط بالشكل وبالبناء، لكن لها علاقة أيضا بمعرفة المتلقّي وسعيه إلى البحث في هذه الثّنائية: عللاً ومعرفة وإدراكاً.

ثمّ إنّ التّكثير والتّعريف - في هذه الأقصوصة - ليس حكراً على عناوينها تخصيصاً، إذ لم يكن إلّا ضرباً من التّعميم والتّعمية، بل شمل مُتونها بما قامت عليه مضامينها أو أبنيتها الكبرى من إحياء وتلميح يحيلان على تضافر المرجعتين النّحوية والبلاغية في الإيفاء بالدّالة يكشفها قارئ النّص دون منشئه في صورة من متعدّد قصّة:

«11 - محو الفقراء

جاع المواطن سليمان القاسم، فأكل جرائد زاخرة بمقالاتٍ تمتدح نظام الحكم، وتُعدّد محاسنهُ المتجلية في محو الفقر.

ولمّا شبع، شكر الله رازق العباد، وآمنَ إيماناً عميقاً بما قالته الجرائد»10

بها الذات المتكلمة أو قصدتها. ويعود هذا بالأساس إلى تعدّد مستويات الخطاب الطّبيعيّ التي تحدّدها في:

1. المنطوق: ويتعلّق بما يصرّح به المتكلّم بواسطة الدّالة الحقيقيّة للكلمات.
2. المقتضى: وبهمّ مجموع المعلومات المتعارف عليها بين المتخاطبين والتي لا تحتاج إلى تذكير أو توضيح أكثر.
3. المفهوم: ويُربط بما يستنتجه المخاطب خارج الدّالة الحقيقيّة للكلمات. «(حسان الباهي، اللغة والمنطق، منشورات المركز الثقافيّ العربيّ، الرّباط، ط. 1، 2000) عناصر تميّز بين «الدّالة الحرفيّة والمفهوم الذي يترتّب عن أغراض معيّنة كالمنهج المُعتمد في الإنشاء أو التّأويل، أو القصد منهما ومن تسلسل القضايا وتفرّعها بشكل دون آخر وفق ما وُضعت من أجله مراعاة مقام وشروط خطاب في بُعد تداوليّ أساساً. وتقترن المراحل أيضاً بآنية الواقع واستشرافه، وبالفعل وانتكاسة ردّته في علاقات بين السّبب والنتيجة، والأصل والمرجع، والغايات وحدودها. فكلّ رقم هو إحالة على دورة في خطّ زمنيّ لا يمكن التّصرّف فيه أو كسره أو تغييره؛ فكلّ قصّة ومضة هي قاذح للتي تليها تُعطّيها شحنة معنويّة ورمزيّة.

هذه القصة الومضة¹⁰ هي نموذج يحيل على أنّ المعاني في صلتها بثنائية التّكثير والتّعريف، إنّما ترتبط - في بعض جوانبها - «بما اختزنه الذّهن من الدّلالة المجرّدة الألفاظ على الأشياء، بل بتحقيق هذه الأشياء في العالم الخارجيّ» (نحلة، 1997: 7)؛ ويقترن التّحوّل من التّجريد إلى التّطبيق بخصوصيات التّكثير والتّعريف في اللّغة عامّة، وبالتّراكيب النّحويّة التي ترد فيها من ناحية أخرى، فإنّما أنّ تكون الإحالة من خلال الخصوصيّة والصفة/ «12- برنامج إذاعي

مذيع:

شاب: ... 10

أو من خلال التّعريف ب: «أل»/ «16 - الجريمة - 22 - الرّشوة»؛ يقول سيبويه: « وأما الألف واللام فنحو الرّجل والفرس والبعر وما أشبه ذلك. وإنّما صار معرفة، لأنّك أردت بالألف واللام الشّيء بعينه دون سائر أمته؛ لأنّك إذا قلت: مررت برجل فإنّك إنّما زعمت أنّك مررت بواحد ممّن يقع عليه هذا الاسم، لا تريد رجلاً بعينه يعرفه المخاطب، وإنّما أدخلت الألف واللام فإنّما تذكره رجلاً قد عرفه فنقول: الرّجل الذي من أمره كذا وكذا ليتوهّم الذي كان عهده بما تذكره من أمره» (سيبويه، الكتاب، 11: 5)؛ وتكون الإحالة

10 يعرف محمّد القاضي القصة الومضة اصطلاحاً ومن حيث مقوماتها الجماليّة بأنّها «تسمية لا تكون محلّ إجماع إذ يُطلق عليها أيضاً اسم القصة القصيرة جدّاً والأقصوصة اللّوحة واللّوحة القصصيّة... وهي تسميات تعكس القلق المصطلحيّ الذي يسيّم القصة القصيرة وهي جنس طريّ العود في الأدب الغربيّ والأدب العربيّ» (ولمزيد التّوسّع، انظر: محمّد القاضي، إنشائيّة القصة القصيرة: دراسة في السّردية النّونسيّة، الوكالة المتوسّطيّة للصحافة، ط. 1، تونس، 2005).

ويقول أيضاً: «إنّ القصة القصيرة الومضة تبدو على هذا النحو ضرباً من التّحويل اللّعبيّ للمقولات والأفكار والقيم باستخدام النّكتة الهادفة واتّخاذها مطيّة لإدانة الحرب والاعتداء، وإنشاء المفارقة، ممّا يجعل قراءة القصة دكاً للمؤسّس وإنشاء لعالم بديل تتحوّل فيه المأساة ملهارة، وتغدو الكوميديا مَدْخلاً يأخذ بيد القارئ إلى عالم التّراجيديا.

ومن أهمّ مقومات القصة الومضة الجماليّة «التّكثيف والشّعريّة والتّخييل والزّمن وأحدثيّة الرّؤية والمحاكاة السّاخرة. وهذه السمات مجتمعة تجعل القصة الومضة موسومة بالاقتصاد من جهة وبفقر الإيحاء من جهة أخرى. وهذا يعني أنّها تؤسّس لمقرونيّة مخصوصة وتنتجه إلى متقبّل مخصوص. فهي لا تقدّم منتوجاً جاهزاً يُستهلك في لحظة استرخاء، ولكنّها تستنفر في القارئ طاقات جديدة وتجعل منه طرفاً متّجهاً للدّلالة.

إنّ هذه الجماليّة التي تنطوي عليها القصة الومضة تجعل منها تجربة تسعى إلى الأقاصي وتطلب كسر الأطواق وخرق النّخوم. ولعلّ هذا ما يجيز لنا أنّ نعدّها بديلاً حدثاً للأقصوصة... (نفسه: 238 - 239).

11 وانظر كذلك: المبرّد: المقتضب IV: 277؛ وابن السّراج: الأصول 1: 150؛ والزّجاجي:

أيضاً بتكثيف الدلالة لفظاً وإنكارها معنى تتناقضاً بين عنوان القصة الومضة وممتها/ «20 - الشَّموس والأقمار»، إذ يوحي العطف بمضاعفة المعنى، ولكنَّ المتنَّ يعكس «الحقيقة» ارتباطاً بالدَّورة الفلكية يظلُّ من خلالها العنصرُ في تبعيةٍ إلى العنصر: لا يستمدَّ وجوده ومعناه إلاَّ منه، فإمَّا أن يُثبتهُ أو أن ينفيه، فذ: «الجبان الحيَّ خيرٌ من الشَّجاع الميت، فقبلَ اليدِ القويَّةِ وادَّع في السرِّ أن تُكسَّر، وإذا أردتَ مطلباً من كلب، فقلْ له: مؤلاي الكلب» 14 - 15. وهذا الجدُّ يقف عند الأعراض دون الجواهر، أو عند البناء دون الدلالة بما أنَّها متبدِّلة متغيِّرة.

ويكون التعريف أيضاً من خلال الإضافة والتَّخصيص/ «19 - أصفاد الموتى - 9 - وسام المنقذ - 21 - الصَّغار يضحكون»، بما يوحي بالمفارقات تبدو غريبة عن اللفظ والصَّيغة، ولكنَّها شديدة الالتصاق بخصوصية المعاني إنكار ينشأ من المُتعارَف عليه في اللِّغة كما في أدب الحياة يُصاغُ تكراراً وضحكاً ينفي إرادة الفرد ويثبت إرادة الجماعة:

«فنظر الملك إلى السَّماء والعصافير والأشجار. فألفاها لا تضحك، فاقتنع بأنَّ ضحكات الأولاد لا هدفَ لها سوى الهزء بهيئته الملكية، فعاد إلى قصره، وأصدر أمراً يمنع أهل مملكته من الضَّحك، فأطاع النَّاس الكبار السَّن، وكفَّوا عن الضَّحك، غير أنَّ الصَّغار لم يُبالوا بأمر الملك وظلُّوا يضحكون لأنَّ الأشجار خضراء والسَّماء زرقاء والعصافير تطير.» 15.

وتتولَّد الاستثناءات ممَّا هو عاديٌّ مألوف اختلافاً في الاجتهادات، أو الاقتصاد فيها. وليس منطق القصة إلاَّ استثناءً في معاجم اللِّغة ينشأ من التَّركيب في النَّحو، ومن الحُكم في القاعدة على أساس اجتهاد النُّحاة في تحديد درجات التَّنكير والتَّعريف بين «العموم والخصوص»¹² في الأسماء كما في التَّراكيب وأبرزها الإضافة في النَّص، وفي التَّصوُّر الذَّهنيَّ المُجرَّد يخرج من حيِّز الكُمون إلى الوضع في الخارج احتمالاً وتواضعاً، فنقدا وتأسيساً للخلف الذي يأتي من الفرد دون المجموعة؛ والفرد هو:

- «الشرطي» في: «1 - البداية»؛
- «فلكي» في: «6 - الخطر»؛
- «شيخ المسجد» في: «7 - الخطبة»؛
- «اللِّغة العربيَّة/ نحن» في «9 - وسام المنقذ»؛

اللامات: 21.

12 انظر محمود نحلة، 1997: 66 - 76.

- «المعلّم/ التلميذ» في: «10 - لماذا؟» إيهام بفاعلية الأول ومفعولية الثاني على مستوى اللفظ، وانقلاب في الوظائف، والموازين، والغايات على مستوى الدلالة؛
- «سليمان القاسم» في: «11 - محو الفقراء»؛
- «المذيع + الشاب» في: «12 - برنامج إذاعي»؛
- «طفل صغير» في: «13 - الأبناء»؛
- «مذيع تلفزيونية + خالد بن الوليد» في: «14 - ألبطل
- «الشرطي/ الرجل [المتكلم بضمير «أنا» حيناً، وبضمير الجمع «نحن» حيناً آخر كناية عنه وعن زوجته]/ الزوجة» في: «15 - الحب»؛
- «مواطن» في: «16 - الجريمة»؛
- «الشرطي/ أولو الأمر» في: «17 - أولو الأمر»؛
- «رجل + امرأة + الأجداد الأعداء» في: «19 - أصفاد الموتى»؛
- «المتكلم المفرد» في: «20 - الشَّموس و القمر»؛
- «المُلتحي» في: «22 - الرّشوة»؛
- «المُحقّق» في: «23 - التحقيق»؛
- «الرجل الهرم المحتضر» في: «24 - الوصية»؛
- «المعلّم» في: «25 - النهاية»؛
- ويتدرّج الفرد إلى حلقة وسطى في صيغة المتنّى من خلال:
- «عصفوران» في: «2 - السماء المفقودة»؛
- «رجلان عجوزان» في: «3 - الأسرى»؛
- وينتهي فعلاً، بعد الفكرة والإرادة في صيغة الجمع وهي:
- «عدد من الأولاد» في: «4 - الثَّار»؛
- «رجال» في: «5 - رجال»؛
- «المخلصون للوطن» في: «6 - الخطر»؛
- «نحن» في: «8 - الخطبة»؛

- «المخلوقات البشريّة التي تقطن في الأزقة الضيقة المظلمة» في: «18 - في سبيل وطن يسرّ السّياح»؛
- «عدد من الأولاد يلعبون في أحد الحقول ويضحكون بمرح» في: «21 - الصّغار يضحكون»؛
- «الجنود» في: «26 - النّهاية».

والصّينغ جميعا، على اختلافها، تعكس التّردّد بين الاشتراك في الوضع/ قضية، وبين الأحادية في الفروق وامتناع الفعل في النّهاية تكريسا للبدائية:

«26 - النّهاية»

أغمد رجل نصل مديته حتّى المقبض في التّراب بحركة متشفيّة، ثمّ ألصق أذنيه بالأرض، وهتف بدهشة: «الأرض تبكي».

ثمّ ألصق أذنه بالأرض ثانية، وصاح بصوتٍ مقلّ بالفرح: «لقد ماتت».

وحين ألصق أذنه بالأرض مرّةً ثالثة، لم يسمع سوى أحذية الجنود تصكّ الأرض برتابةٍ.»

فتكفّ الإحالات أبنية صغرى، سواء أ كانت عناوين فرعيّة أم ضمائر، والكلّ في فلك الكناية يدور، عن أن تكون إحالاتٍ على التّوع لتصبح ذات صبغة تمثيلية في الدّلالة كما في الشّكل: أمّا الأولى فيفترض أن ينتهي إليها المتلقّي تأليفا بين مقامات القول وسياقات التّأويل؛ وأمّا الثّاني فينشئه صاحب النّصّ، فيؤدّي الجمع بينهما إمّا إلى الالتقاء في أصل الوضع والتّعيين: لغة: لفظا، ومعنى ودلالة، أو على التّباعد والفرقة وفق منهج استبداليّ ينأى فيه الفرع عن الأصل دون أن ينفصل عن الجذور التي تربطه به، شأنُ ثنائيّة التّكثير والتّعريف «تتصل بالمعيار الدّلاليّ الشّيعي/ التّعيين اتّصالا وثيقا» (نحلة، 1997: 61)، ويذكرها النّحاة القدامى في ثلاث مسائل هي: النّكرة أصل المعرفة؛ والتّدرج الهرميّ؛ وأصل الوضع/ الاستعمال¹³.

وتدعم هذه المسائل علاقة اللفظ باللفظ بل صلة المكوّن الأدنى سابقة أو لاحقة، بتحديد المعنى وتوجيهه، توسيعا لدائرة بناء النّصّ أفقيّا شكلا وعموديا معنى بين الأبنية الصّغرى، وبينها والكبرى بما يسوّغ مرونة الخروج من حدود

13 لمزيد التّوسّع في هذه المسائل الثّلاث، انظر: محمود أحمد نحلة: التّعريف التّكثير بين الدّلالة والشّكل، دار التّوني للطباعة والنّشر، الإسكندرية، 1997: 62 - 80. وإنا لم نردّ الدّخول في كثير من الجزئيات والتّفاصيل التي تتأبى بنا عن البحث في أصوله وغاياته.

القاعدة والضبط، إلى سعة الاستعمال والإنشاء الأدبي الذي لا ينأى عن العقل¹⁴ وإنما يفتح مجال ثنائية التأكيد والتعريف على قضايا لا تخرج بدورها عن المفهومين اللغوي والتداولي اللذين لا يُستبدل أحدهما بالآخر وإنما يتكاملان في صياغة الخطاب وتحليله وفق منهج استقرائي استدلائي.

2. 2. 2. البنية الكبرى بين إيقاع الواقع وتوقع المجاز

قول حقيقة ولا مجاز، ومجاز في بحثٍ عن «الحقيقة» وجدل بين المعنى والمعنى، يقول عبد القاهر الجرجاني «في اللفظ يُطلق والمراد به غير ظاهره»: «تري المزية أبداً في ذلك تقع في طريق إثبات المعنى دون المعنى نفسه» (الدلائل، 2001: 64)، وهذا مُقترن بمقامات القول ارتباطاً بعامل الزمن - وهو متبدل متغير - وكذا الشأن بالنسبة إلى المتلقي من حيث معرفته الموسوعية التي توجه قراءة المعنى والبحث في علاقاته بنظم التركيب وأغراض الدلالة؛ فالبنية الكبرى أو الموضوع يُقرأ على وجوه «كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها¹⁵ ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تُعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض» (الدلائل، 2001: 74)؛ وهو ما يحيل على أن العلاقات بين الأبنية ليست محكومة فقط بثنائية اللفظ والمعنى، إنما تدرج أيضاً في إطار ما تتميز به الأبنية الصغرى من خصوصيات لفظ وتركيب تخضع - فيما تخضع إليه - إلى النحو والبلاغة، يتأصلان في الثوابت والقواعد، لكن يوجه تأويلها ارتباطاً بعامل الزمن أيضاً، وهو ما يبرر وحدة الدال وتعدد المدلول بحسب اختيار المواضيع والمرجعيات التي تتبع منها وقد لا تعود إليها، لأن القراءة تسيّر في اتجاه تقدمي لا ارتدادي في أحيان كثيرة.

والأبنية الكبرى أو المواضيع هي نسيج من المعاني تتباعد في المعجم وتتقارب في الدلالة «فالمعاني الأول هي مدلولات التراكيب مطلقاً أي خارجة عن أي سياق كلامي أو مقامي، وهي بذلك تُقابل المعاني الثواني وهي «الأغراض التي يُساق لها الكلام، ولذا قيل مقتضى الحال هو المعنى الثاني كردّ الإنكار ودفع الشك مثلاً» (ميلاد، 1992: 162) تلازماً بين طبيعة الخطاب وما ينتهي إليه المتلقي من معاني ودلالات لا تخرج عن أصول «المعاني المجازية» (نفسه: 165)؛ ولكن الخطابات والتصوص لا تخضع دائماً للضوابط والقواعد تكراراً وإنما بتوليد المعنى الثاني من الخطاب النقدي لا البلاغي في سيروته الاستدلالية؛ ومن تجليات هذا أن الأفاصيص

14 بمعانيه ومفاهيمه المعجمية والاصطلاحية.

15 الضمير يعود على الوجوه.

الومضات محور الاهتمام لا يكون المسار فيها - في الوصول إلى «المعاني الثواني» - من المجاز إلى «الحقيقة»، بل بتصريف «الحقيقة» على وجه المجاز، وبالخروج من الخطاب العادي المألوف إلى الاستثنائي الغريب رمزاً وإيحاءً ليس إلا مُلْكَاً لكل قارئ للنص قراءة متقرّدة من العسير أن نجد لها أشباهاً ونظائر لدى سائر القراء - إلا إذا وُجِّهَت القراءات مسبقاً بمرجعيات الفهم والتأويل - . ومن التماذج، القصّة الومضة:

«5 - رجال

«... الحمد لله الذي خلقنا رجالاً نركض ساعة الخطر إلى أمام كالريح، فننجو ولا نهلك.

والحمد لله الذي لم يخلقنا نساء نقعد في البيوت فتحرقنا قنابل الأعداء وكأنا الجوارب العتيقة.

الحمد لله الذي لا يُحْمَد سواه...» 7.

فمبدئياً، وإذا وُضِعَت كلّ بنية صغرى ضمن مرجعيّتها الأصل - التي قد تعود بالقارئ إلى عصر محدّد مضبوط كقوله: «لم يخلقنا نساء نقعد في البيوت»، أو إلى منطق مخصوص كقوله: «نركض ساعة الخطر على أمام كالريح، فننجو ولا نهلك»، أو إلى تأويل يبرّر اختيار تشبيه بعينه كقوله: «كأنا الجوارب العتيقة» - الوضع الذي لا يدعو إلى الرّيبة أو الشكّ في ردّة فعل القارئ، لكن إذا اجتمعت هذه الأبنية في مقام واحد وسياق تأليفيّ محكوم ببداية ونهاية، فإنّ ما سينتج من قراءة النصّ ليس الانسجام والتناغم بين منشئه ومتلقّيه لكن ستكون صدمة التلقّي كما البحث في مرجعيّات تأويل تتأى تماماً عن الأصول والتّوابت فيصبح المتحكّم في النصّ ليس منشئه، لكن المسار الحداثي في الرّؤية والقراءة والتأويل.

تتشأ قراءة هذه القصّة الومضة - على سبيل المثال لا الحصر - من نفي القول وإثبات تجلّيات أخرى للمعنى لأنّه تأسّس على نظرة أحدىّة تُقصي حتّى سائر الحقائق وفق خطاب مغلوّط هو جزء من النّواميس التي تحكم المنظومة الحضاريّة عامّة، إذ تُلقّي بانعكاساتها أيضاً على الخطاب السّردّي، فيصبح بدوره خطاب الوهم والزّيف الذي يكرّس الفروق والحيرة والدّحض والنّقض، وبذلك يتحوّل النصّ من مولّد للمعرفة إلى قاذح للبحث في سبُل الانتهاء إليها طرْحاً للأسئلة المتعلّقة بـ «أسرار البلاغة في علم البيان»¹⁶،

16 ونريد بذلك الجهد أو الجهود التي قد يبذلها قارئ هذه الأفاصيص الومضات لفتح ما انغلق منها، والتخلّل من فصاحة النصّ وانتقاء اللفظ والمعنى في بُعد جماليّ إنشائيّ، إلى العلم بصيغ تبين المعنى [وهو الواضح الجليّ معجماً، الغامض الخفيّ تركيباً وسياًفاً].

يقول عبد القاهر الجرجاني: «وهو أن يكون للمعنى من المعاني والفعل من الأفعال علّة مشهورة من طريق العادات والطّباع ثمّ يجيء الشّاعر فيمنع أن يكون لتلك المعروفة ويضع له علّة أخرى» (أسرار البلاغة، 2002: 245).

فالأقصوصة محور الاهتمام - بمختلف فروعها - توهم بالغُرف والمعتاد لكنّها تُقصيهما لكَي لا يتمّ التّعرّف إلى الموضوع إلا بالخلف بما أن النّصوص تقوم على ذِكر التّجليات والنتائج وتسكت عن ذِكر الأسباب، فكأنّ المواضع الأصليّة هي هذه الغائبة الغائمة تأتي الأبنية الصّغرى وكذلك الكبرى التي تُكوّن النّص - بمثابة السّدى لها، أمّا اكتمال النّسيج، فهو الذي سيُتمّه القارئ، إذ يردّ في أقصوصة:

«4 - الثّأر

... فانقضّ الأولاد على مخترع الطّائرات، وراحوا يصفعونه ويلكمونه ويركلونه بينما كان يصرخ مُغولاً مُستغيثاً» 7

فليس فقط الموضوع الذي يبحث له عن التّجلي بل الصّورة في بُعديها الرّمزي والواقعي، أو بما سمّاه ريكور «القدرة على إعادة صياغة الواقع» (Ricoeur، 1975: 10) عبر «بلاغة الملفوظ» التي «لا ترتبط [عنده] بالشّكل باعتباره صورة بلاغية مركّزة على الكلمة ولا ترتبط بالمعنى باعتباره تأسيساً لوحدة دلاليّة جديدة. وترتبط بدل ذلك بأساليب التّركيب ونُظم التّعالق في النّص كلّ» (الرياحي، 2007: 167)، واستدلال القارئ سيكون عليهما معاً رغبة في إيجاد ضمانات وصول بين كلّ مظاهر الاختلاف والفُرقة والتّباعد، أو التّشابه يرقى إلى المجاز من خلال التّرميز وتكثيف الدّلالة توزّعاً وتقرّعا، بما يتطلّبه ذلك من بحثٍ في أبنية الخطاب وتركيبه ونظمه، ذلك أن الأنساق هي التي تشكّل المعنى الذي لا بدّ «أن يتّضح مادام قد استسلم للتّلاشي وأن يبتعد مادام قد بدا شديد الوضوح. ولا بدّ له أن يُثير ويعرض نفسه بصفته معنى افتراضياً» (Ricardou، 1967: 95) يُكسبه الكاتب طاقة إيحائيّة يعنتي المتلقّي بالبحث في دلالاتها وخلفياتها عبر التّأويل.

2. 2. 3. البنية الغلييا أو أجناسيّة الخطاب

«الأعداء» أقصوصة تُحيل على الطّول وحدة، وعلى القصّة القصيرة الومضة تشظّيًا وانقسامًا يجد شرعيّته في العدد، كما في العنوان أو العناوين

(انظر في ذلك: «أنواع الدّلالات على المعاني» في إطار «مفهوم البيان عند الجاحظ»: حمّادي صمّود: التّفكير البلاغيّ عند العرب: أسسه وتطوّره إلى القرن السادس، ط. 2، - 1994: 158-162)

التي تتوزع في معاجمها وسجلات قولها بين قديم، وآخر حديث، ومنهما قُدّ الكلام على غير دلائله، وأقيمت القصة؛ ولم تُطرح إشكالية الأقصوصة في حدّ ذاتها، وإنما طرحت انفتاحها على غيرها من الأجناس الأدبية:

فمن الأجناس التي تستدعيها هذه الأقصوصة وتكتنفها:

■ الشعر: وتندرج هذه العلاقة ضمن السعي إلى التعبير بأدوات قديمة تتم إعادة صياغتها في إطار عالم متغير وواقع قلق قد لا تنسجم معه لغة الرتبة والتقنين والثبات؛ «ولعلّ أفضل تعبير عن صلة الكاتب بالواقع هو ما عبّر عنه الروائي الكولومبي العالمي جابرييل جارشيا في حوار له ردّا على سؤال يقول: لقد قلت إنّ أيّ قصة جيّدة لابدّ أن تكون تعبيراً شعرياً عن الواقع. هل يمكنك أن تشرح هذا المفهوم؟ فأجاب ماركيز: نعم، أنا أعتقد أنّ القصة تمثيلٌ محسوب للواقع. إنّها نوع من لغز العالم. إنّ الواقع الذي يُطرح في قصة مختلف عن واقع الحياة، بالرغم من أنّه يعتمد عليها، وذلك على نحو ما يحدث في الأحلام» (أبو أحمد، 2007: 11)؛ وهي طريقة جديدة في نسج أبنية القصة القصيرة «بهدف جماليّ جديد يستهدف غرس رؤية جديدة للواقع وللإنسان وللعالم» (نفسه: 23). فالقصة القصيرة تتّجه بشكل عامّ «إلى الإيجاز والتركيز والتكثيف والدقّة في استخدام الكلمات والجمل، والتعبير بلغة أقرب إلى لغة الشعر، حتّى لنجد اللغة تتجاوز في كثير من الأحيان دلالتها العادية إلى دلالتها المجازية التي تتميز بالغمق والإيحاء والتّصوير... لقد أصبحنا أمام أعمال قصصية تميل أكثر لمنطق القصيدة الشعرية في بناء الصورة مع الاستعانة بالمعنى الدلاليّ بعيداً عن المعنى الصريح فتوّارت المباشرة وتعدّدت المستويات والأبعاد الرّمزية في العمل الأدبيّ، وصار للقصة منطق صارم فيما يتعلّق بالبناء العامّ، ووحدة الرؤية وطبيعة تشكيل الحدث وتطوّره، وأصبح الاقتصاد الشديد في استخدام الكلمات والتّشّيف في حركة دوران المفردات من أبرز السمات» (نفسه: 29).

■ الخطابة: ومن نماذجها: «8 - خطبة» جدلاً بين التراث والأصالة، والحداثة والمعاصرة مرجعيات قول وإنشاء تختلف لتألف في مفهوم البلاغة؛ ومن الفرقة تتأتّى إعادة البناء والتركيب الشكليّ لكن دون القطع النهائي مع «الشعرية البلاغية» (بليث، 1999: 24) من حيث تحقيق التّواصل والتّأثير في علاقة الباث بالمقبّل، يتجذّر في البناء قبل المعنى والدلالة. وهذه التّوأمة بين جنس القصة القصيرة والخطبة يبدو من خلال:

أ - المقدمة أو المدخل وعليها أن تجعل القارئ المستمع مُنْتَبِهًا مُتَقَبِّلًا، ويتم ذلك وغيره بفضل مواضع التّقديم: «... والله ما كان سكوتنا على الأعداء عن ضعفٍ إنما كان إباءً وشمما وترفعًا وثقة بالنفس.»

ب - السرد: الحكيم (من توالي الوقائع): ويطلب فيه أن تُقدّم الوقائع للقارئ المستمع بطريقة مختصرة واضحة ومقبولة.

ج - الاحتجاج: البرهان يُفرّع أحيانًا إلى تبرير إيجابي وتبرير سلبي. ويمكن أن ينطبع هذا الجزء من الخطاب بالموضوعية والانفعال تبعًا للتأثير الذي يرغب الخطيب في إحداثه.

= «قالوا: نريد بترولكم. قلنا: خذوا بترولنا، فنحن أحفاد حاتم الطائي. قالوا: أعلنوا حربا شعواء على الأفكار المستوردة. فقلنا: نحن أهل الكرّ والفِرّ، ونصنبا المشانق وشيّدنا السجون.»

أرادوا الاستيلاء على مدينة، فأعطيناهاهم مُدُنًا ومُدُنًا كي نبهرن على أننا لا نُبالى بهم، فإذا كانوا يملكون الطائرات والقنابل، فنحن نملك الخلق القويم والمبادئ السماوية، وشتان بين ما يملكون وما نملك،

د - الخاتمة: النهاية وتضم عادةً ملخصًا موجزًا للبرهنة المقدّمة، ودعوة إلى الانفعال: «فنحن الأقوياء لأننا مسلّحون بالروح والحق لا بالمادة الزائلة والباطل الزهوق» (بليث، 1999: 45 - تامر، 1981: 8 - 9).

هي مقومات أنموذج، ووُجدت في القصة الومضة: «8 - خطبة» بالجمع والتأليف بين التّنظير والتّطبيق، والقصد التّواصلي من خلال ردّة فعل التّعبير، دون التّعبير ذاته، يقول محمّد القاضي: «نقرّ بأنّ ظهور هذا الجنس أو ذاك وانتقاله من حيّز مكانيّ وحضاريّ إلى غيره، إنّما هو تعبير عن التّقاء حاجتين فكريّة وجماليّة في مفرق محدّد» (القاضي، 2005: 120).

■ الرّواية: من حيث تعدّد الفصول والأحداث والإيهام باستقلال بعضها عن بعض حتّى لا صلة منطقية بينها؛ لكنّ ذلك ينتهي عند حدود كلّ قصة ومضة إذا ما قرئت ونُشرّت¹⁷ منبّئة عن سائر القصص الفرعية؛ أمّا قراءتها متتابعة متتالية، فإنّها تحيل على وحدة الموضوع ونموّه وتطوّره في نسق خطّي تصاعديّ يدلّ على تفاعل أبنية النصّ فيما بينها، وبينها مجتمعة ومقومات الجنس بين الوحدة والتعدّد، ذلك أنّ «من السمات اللائطة بالقصة القصيرة من حيث هي جنس حواريّ

17 بمعنى الكشف والاكتشاف وتوسعة المدلول - سواء أ كان عنوان الأقصوصة: «الأعداء»، أم المجموعة القصصية جميعًا «الثّمر في اليوم العاشر» - إلى دوالّه المتعدّدة المتنوّعة بين أبنية صغرى شكلًا، وكبرى محتوى ومضمونا.

قادر على احتواء نصوص متنوعة، ومن حيث هي تعبير نثري له بالشعر مشابه كثيرة. إنَّ التجاء القصّة القصيرة إلى أسلوب التشبيه من خلال التركيب، وأسلوب الاستعارة من خلال التماثل، وأسلوب الكناية من خلال الجوار يغدو ركنًا أساسيًا من أركان أدبيّتها ومحدّدًا جوهريًا من محدّدات مقرونيّتها» (القاضي، 2005: 8).

2. 2. 4. الأبنية بين التّكثيف والاختزال، وبين الانتشار والتّوسّع

القصص الومضات في أقصوصة: «الأعداء» تقوم جميعا على تكريس علاقة عدائيّة بين طرفين: أحدهما طالب، وثانيهما مطلوب؛ وصيغة الطلب إمّا قول أو فعل يُحيلان على سياسة التّدجين والتّرويض عودة أبنية فرعيّة إلى أصلها: «النّمور في اليوم العاشر» العنوان الذي تنتشر دلالاته على كامل أقاصيص المجموعة، وتتجلّى معانيه في الأقصوصة المعنيّة بالاسم والصّفة الجزء الذي يختزل الكلّ ويكتفه وينشره في آن، ولكن الانتشار لا يتأتّى تصريحًا وإنّما تلميحًا عبر:

- المحاكاة السّاخرة: تنشأ من المفارقة في صياغة الخطاب، وفي المبدأ والمنتهى من كلّ قصّة ومضة؛ وهذه السّخرية، رغم أنّها «عنصر هامّ في الكشف عن مواطن الخلل» (القاضي، 2005: 152)، فإنّها تجعل انسجام الخطاب لا ينحصر في لفظه وبنيته، لكن فيما يوحي به من معانٍ ودلالاتٍ بما أنّه يقوم أصلاً على التّورية¹⁸، أو «في

18 تُعرّف كذلك بلفظة إيهام ممّا يُقارب المعنى المزدوج. لفظٌ يرد بكثرة في النّظرية الأدبيّة العربيّة، تعتمد الاشتراك أي التّرادف، فهي تعتمد على المعنى القريب لاسم أو نعت أو صيغة فعلية تغطّي أو تُخفي المعنى البعيد المقصود من قبل الشّاعر. ويمكن لأسماء الأعلام أو أسماء الأماكن أن تُخفي وتتضمّن معنى ثانويًا. وتُطلق لفظة التّورية كذلك على جَمْع من الأسماء الأخرى ذات المرمى البعيد بما يُماثل «التّوهيم – التّخيل – التّوجيه – المُغالطة المعنويّة...»

وقد يكون الصّفديّ (696 أو 697 – 774 هـ/ 1296 – 7 – 1363 م) أوّل العلماء الذين خصّوا التّورية بمقال كامل. ويميّز الصّفديّ أربعة أنواع من المجاز: التّورية المجرّدة أو «التّورية البسيطة»، حيث لا يتضمّن نصّ التّرادف «إضافات» أخرى أو لوازم أو قرائن أي عناصر تتّجه في السياق إلى أحد معنيي اللفظة التي لها علاقة بالتّورية المرشّحة التي تتضمّن صفة أو صفتين تدعم المعنى القريب (أو المؤرّى به) غير المقصود من طرف الشّاعر؛ والمُبيّنة التي تدعم المعنى المقصود في الواقع (المعنى البعيد أو المؤرّى عنه)؛ وأخيرًا المُهيّئة التي تشتمل على ما يسمح بكشف التّورية التي لا تكون بغير ذلك واضحة. فنظريات الصّفديّ وتقرّيعاته الأربعة لم تكن مقبولة تمامًا فيما يبدو من طرف العلماء الآخرين كما نرى ذلك مثلاً في «المصباح» لبدر الدّين بن مالك (ت. 686 هـ/ 1287 م) والذي هو في الواقع سابق لكتاب الصّفديّ. وفي دراسات لاحقة لمؤلّفين آخرين/ القروينيّ

المدح يُراد به الذم فيجري مجرى التهكم والهزل» (التعالبي، 2004: 379) و«المحاكاة الساخرة»¹⁹، والنموذج على ذلك:

«15 - الحب»

«فتش كما تشاء يا سيدي الشرطي، فامرأتي ليست مطبوعة تطبع المنشورات السياسية الهدامة، وضحكها ليست مؤامرة استعمارية، ولا يمكن أن تُفسر على أنها نقد مباشر لنظام الحكم خاصة وأني قبل أن أحبها، سألتها عن رأيها بنظام الحكم السائد حاليًا بالبلاد، فأجابت فوراً بأنها تحبه حباً جماً، وعندئذ فقط سمحت لقلبي بأن يعشق تلك المواطنة الواعية.

ولما قبلتها لأول مرة ارتعشنا معاً مبتهجين وكأنا كنا نصفق ونهتف في مسيرة مؤيدة لكفاح الشعوب.

فهل تريد، يا سيدي الشرطي، إخلاصاً للوطن أكثر من إخلاصنا؟!»

11 - 12.

(ت. 739 هـ / 1338 - 9 م)، ويمكن أن نرى ذلك بالخصوص في المساجلات المتعلقة بتناغم التورية المجردة للصنفي.

وأول من ألف في التورية هو بلا شك، أسامة بن المُنْكَذ (ت. 584 هـ / 1188 م) لكنه لا يتحدث في كتابه بصفة مفصلة عن ذلك؛ وكان نفس الشيء بالنسبة إلى المؤلف الفارسي العربي رشيد الدين الوطواط (578 هـ / 1182 م) في «حدائق الشعر»، وهو يستعمل «إيهام»، ويقدم المؤلفان أمثلة هامة.

وقد حاول بعض العلماء إعطاء أمثلة للتورية في الشعر القديم، أو فسروا التورية في أمثلة مُستَمَدَّة من القرآن مثل «الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» (20، 5) حيث استوى القصد منها معنى «تَقَوَّى - امْتَلَكَ»، وليس بمعنى جَلَسَ في مكان ما؛ وهو معنى بعيد لأنه يصبح نوعاً من التشبيه (انظر كما يقول ابن الحجة (ت. 837 هـ / 1434 م) صاحب «خزانة الأدب»:

والاستخدام هو وجه مماثل يعتمد على الجملة المركبة، مثل:

وَإِذَا مَشَتْ تَرَكْتَ بِضَرْكَ ضِعْفَ مَا بَخْلِيهَا مِنْ كَثْرَةِ الْوَسْوَاسِ (الكامل)

حيث لفظة الوسواس تنطبق على القلب، والشقشة تنطبق على الخلي.

والتوهم والإيهام بالمعنى الحقيقي لا علاقة لهما بوجه خاص، بالمعنى الدقيق، بالتورية أو الاستخدام، لكن غالباً ما يُذكران بالمقاربة بينهما، لكن يوجد أيضاً «توهم التورية» أو «إيهام التورية» حيث يبدو الشاعر وكأنه ضَمَّنَ أحد أبياته توريةً وهو خطأ. وهذا الإمكان يوحى بصفة ضمنية، بأن النقاد لم يقبلوا بوجود تورية أو استخدام لا يؤيدهما السياق بصفة واضحة. (مقال: تورية في دائرة المعارف الإسلامية)

Encyclopédie de l'Islam, Leyde, Brill Academic Publishers, 1954 - 2005. , Tome X, Article : TAWRIYA, pp. 423 - 424 (S. A. Bonebakker).

19 انظر كذلك: الأمير بن مبروك، 2008: 232 - 238.

فاللغة هنا، تحقق الحاجة في التعبير دون الإيفاء بمقاصده ومضامينه التي تبقى خفية حتى يضطلع المتلقي «باستكشاف عالم المعاني وإبرازه» (صمود، 1994: 170) في خطاب يوهم بالانسجام، ويقف التناقض بين اللفظ والمعنى دونّه - وإن كانت صيغة النص قائمة على الاستدلال المنطقي تُقضي فيه الأسباب إلى النتائج استناداً إلى التفسير والتعليل والمقارنة الضمنية أحياناً، الصريحة حيناً لتتشدّ القصة الومضة «8 - خطبة» إلى قطبي المادة والروح، مرجعتين في حاجة «إلى التفسير والتأويل لأنّ طاقة اللغة على الإفصاح والإبانة محدودة بحيث لا يمكن أن يكون المعنى دائماً في ظاهر اللفظ» (صمود، 1994: 173)، سواء في خصوصياته وتجلياته في النصّ/ القصة الومضة، أو فيما يمكن أن ينتهي إليه المتلقي قراءة وتأويلاً، وفق «نظرية الانزياح في التركيب والدلالة والتداول» (بليث، 1999: 11)، فيبتعد النصّ عن الناحية البلاغية الجمالية المتعارف عليها منذ القديم، وتتشأ جمالية أخرى تتعلق بالمقاصد والأفكار والأغراض، وأبرزها «التعليمي، والحجائي، والأخلاقي»²⁰، إذ يصوغ الفكر خطاب الوجدان في هذه القصة الومضة: «8 - الخطبة»، ويطفو الأخلاقي على سطح النصّ ليصبح جزءاً من وهم القواعد التي تكلست وفقدت المعنى والدلالة إلا في خطاب يكرّس الثقاوت والتباين «وشتان بين ما يملكون وما نملك» 8؛ وهي مفارقة اللفظ لمعناه واستبطان الجدّ لخطاب الهزل يأتي نقاط تتابع ولا نهاية، بل غاية ومنتهى يختزلان التاريخ وينفيانه، فإذا الصورة لا تثبت إلا ما يناقضها «فنحن الأقوياء لأننا مسلحون بالروح والحق لا بالمادة الزائلة والباطل الزهوق...» 9، احتفالا بالمرجع الذي لم يأت، وهو الزمن المستقبل الذي تبدو ملامحه غائمة، ولكنها - على أية حال - لن تكون جزءاً من ماضٍ ولا حاضر، بل مقتضى حال يتميز بخاصيات تتبع من اللغة حجاجاً لطرح جملة من القضايا الدلالية والتداولية²¹ تُصاغ لغة قد لا تحتوي ضرورة ضمانات وصول إليها حتمية لإمكانية وجود استثناء أو استثناءات تُفرز الفرقة بين النصّ والواقع، كما بينه وتأويله²².

20 لمزيد التوسّع انظر: بليث، 1999: 25 - 26.

21 المقصود بـ «الحجاج التداولي» - استناداً إلى النصّ الخلدوني - مختلف العلاقات الحجاجية التي يتميز بها اللسان العربي الطبيعي، بالخروج من «مستوى البرهان الصوري إلى مستوى الحجاج الطبيعي، بل إلى مستوى الحجاج التداولي ... عند استعماله لمصطلحات قريبة واستثماره لبعض صيغ الأفعال والأسماء» (طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، ط. 1 - الرباط، ص: 392 - 398).

22 انظر في ذلك:

TOULMIN Stephen E. : «Les usages de l'argumentation (1958), traduit de l'anglais par PH. De BRABANTER, P.U.F. -

• التمثيل: اختصارًا للكلام واختزالًا له بحثًا عن العبارة التي تكون أبلغ في الإيفاء بـ «الحقيقة» لا بتقديمها في معنى واحد، قد يراه المتلقي عاديًا مألوفًا لا خصوصية له ولا فيه؛ لكن التمثيل يوسع دائرة البحث وتقليب اللفظ على وجوهه المختلفة، بما يخرج الخطاب أيضًا من حدود الزمان والمكان إلى مُطلَقهما، لبُعده عن الظاهر الصريح، لأن «الغرض الأول يبطل والمعنى يتبدل»، (أسرار البلاغة، 2002: 94) تبدل يأتي في إطار الطابع المُعَدِّ الذي يكتنف التمثيل من خلال الشفرة، يقول إيكو في كتاب: «البنية الغائبة»: «لا بد أن نعتقد من الآن فصاعدًا، بأن النموذج التواصلِي الذي يرى الشفرة كمعطى مُشترك فقط بين الباث والمتقبل، عبارة عن شيء ناقص، لأن تعددية الشفرات التي تخترق الثقافة، تبين لنا بأن الرسالة نفسها، من الممكن فكها وفق وجهات نظر متعددة، وباستعمال أنظمة تواضعية متباينة» (إيكو، 1972: 114).

ومن نماذج ذلك القصة الومضة: «20 - الشَّموس والأقمار

الجبان الحي خير من الشجاع الميت، فقبل اليد القوية و ادع في السر أن تنكسر، وإذا أردت مطلبًا من كلب فقل له: مولاي الكلب.

كُن أول من يطيع وآخر من يعصي، فلا رأي لمن لا يطاع، وإذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، والقناعة كنز لا يفنى، والحسود لا يسود، فاستقم كما أمرت وأطع أولي الأمر، وكل من سار على الدرب وصل. «14 - 15.

فالتمثيل في هذه القصة الومضة، لا يدل على أن «المعنى المُمَثَّل غريبًا نادرًا يحتاج في دعوى كونه على الجملة إلى بيّنة وحجة وإثبات» (أسرار البلاغة، 2002: 107)، إنما يأتي أنز التمثيل في علاقة التواصل بين الباث والمتقبل بما يُقيم الحجة في القول والصحة في الدلالة بين الممكن والموجود من حيث علاقة اللغة بالواقع الذي يأتي الأدب وجوهًا له تختلف وتتفاوت في الصورة وفي التمثيل؛ وفي هذه القصة الومضة، هناك تعبير عن شيء واحد بأشياء عدة؛ أما الواحد فالقول: «الجبان الحي خير من الشجاع الميت»؛ وأما الأشباه فسائر الأقوال وعددها عشرة اشْتُقَّت «من الأصل الواحد أغصانًا في كل غصن ثمر على حدة» (أسرار البلاغة، 2002: 117)؛ فأما الأغصان فهي الأبنية الصغرى ألفاظًا وتراكيب؛ وأما الثمار فهي الأبنية الكبرى أو المواضيع في تردها بين الوضوح والتجلي من ناحية، والغموض والضبابية

من ناحية أخرى بما أنّ «المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك في طلبه واجتهاد في نيّله» (نفسه: 126) بحثاً في المعرفة وتعاطياً مع الفكر والرؤية والقياس والاستنباط. لكن الإشكال الذي يُطرح

هو هل أنّ هناك تجانساً بين الأبنية، شكلاً وهيئةً، وتمثيلاً وتجنيساً؟

2. 2. 5. انسجام النصّ من خلال انتشار الأبنية

تنبثق القصة الومضة من سابقتها انتشاراً لعلامة أو علامات لغوية مخصوصة ترادف بعض الأبنية الصغرى التي تتوسّع في الاتجاهين: الأفقيّ: أبنية صغرى، والعموديّ: أبنية كبرى على النحو التالي:

2. 2. 5. 1. انتشار الأبنية الصغرى

1 - البداية: «شموس الصباح - شوارع المدينة - وعندئذ أفاق الناس من نومهم آسفين عابسي الوجوه».

= 2 - السماء المفقودة: «أحد الشوارع - ولم يغردا مرخبين بشمس الصباح، إنّما تبادلا النظرات الوجلة الحائرة - على رصيف صلب من إسمنت».

= 3 - الأسرى: «على رصيف شارع»؛

7 - الجنة: «للطائرات».

= 8 - خطبة: «الطائرات»؛

9 - وسام المنقذ: «وحدة الطاقات القتالية للغة العربية».

= 10 - لماذا؟: «... كلامنا جاهد جهاد الأبطال؟»؛

13 - الأبناء: «فابتسم الطفل ابتسامة غامضة بينما كانت الأم ترتعد خاضعة لرعب قاس».

= 15 - الحبّ: «فامرأتي ليست مطبعة تطبع المنشورات السياسية الهدامة، وضحكاتها ليست مؤامرة استعمارية»؛

13 - الأبناء: «سأل طفل صغير أمّه: «ما الفائدة من العينين؟».

فتجهم وجه الأم، وقالت وهي تنظر إلى طفلها بريية وحذر: «العينان خلقتا لتنتظرا باحترام وحُب إلى صور زعماء البلاد».

قال الطفل: «والأذنان؟».

قالت الأمّ وقد تزايد خوفها: «الأذنان تسمعان الأوامر الرّسميّة والخُطب السّياسيّة».

قال الطّفّل: «واللّسان ؟» .

قالت الأمّ: «اللسان لا فائدة له سوى المساعدة على ابتلاع الطّعام بعد أن تمضغه الأضراس والأسنان». 10 - 11.

= 18 - في سبيل وطنٍ يسرّ السّائح: «إلى من يهّمه الأمر:

نحن المخلوقات البشريّة الرّثة الّتي تقطن في الأزقة الضيّقة المظلمة،
نطالب بما يلي:

(...) أن تُقَطَّع رؤوسنا بعد أن ثبت لنا أنّ ما يجعل المواطن خائناً هو العين الّتي تُبصرُ والأذن الّتي تسمع واللسان الّذي يتكلّم والعقل الّذي يفكر والعقل الّذي لا يفكر». 13 - 14؛

20 - الشّموس والأقمار: «الجبان الحيّ خير من الشّجاع الميت، فقبل اليد القويّة وادعُ في السرّ أن تُكسر، وإذا أردتَ مطلباً من كلب فقلّ له: مولاي الكلب.

كن أوّل من يطيع وآخر من يعصي، فلا رأي لمن لا يطاع، وإذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، والقناعة كنز لا يفنى، والحسود لا يسود، فاستقم كما أمرت وأطع أوّلي الأمر، وكلّ من سار على الدّرب وصل». 14 - 15.

= 24 - الوصيّة: «الحياة يا أولادي وأحفادي غريبة، فافعلوا كلّ ما هو سيّئ مشين، عيثوا فساداً في الأرض. لا تقولوا الصّدق ولو كانت أنشودة المشنقة تهمُّ بحصد رؤوسكم. اكذبوا، تملّقوا الأثرياء وذوي المناصب، تملّقوا التّافه والصّحل والأجوف والمُهرّج فالمستقبل الوضاء لهم لا لغيرهم. صفّقوا للوافد الجديد الصّاعد واشتموا الرّاحل الآفل. اسكروا. لا تصلّوا. لا تصوموا. لا تحسنوا إلى أحد. كونوا اليمين واليسار وكونوا الشّرق والغرب. احتقروا الكُتُب فابتسامة مسؤول أفضل من ألف كتاب. حاربوا الضّعيف المعوز، وناموا أذلاء على أعقاب القويّ القادر. امدحوا من لا يستحقّ المديح. صفّقوا إعجاباً بنباح الكلاب، واقرعوا الطّبول كي لا يُسمَعَ تغريد البلابل». 17؛

24 - الوصيّة: «ولكنّ الموت أقبل في تلك اللّحظة، فصمت المحتضر مفعماً بالمرارة والأسف». 18.

= 25 - النّهاية: «ورجالاً تواقين إلى موتٍ ثانٍ». 18.

= 26 - النّهاية: «لقد ماتت [الأرض]». 19.

2. 2. 5. 2. انتشار الأبنية الكبرى:

في مفهوم العداوة والأعداء ما يختزل صورَ قمع وإرهاب تُمثّل السّلطة في أسوأ مظاهرها وتجليّاتها وتتخذ من الشرطي رمزا لها، إنَّ تصريحاً كما في: «1 - البداية، 15 - الحب، 16 - الجريمة، 17 - أولو الأمر»، أو تلميحا سوطاً عذاب يوجّه الوعي، وينفلت منه اللاوعي هامشاً من الحرّية، والعفوية والتلقائية كما في: «13 - الأبناء، 21 - الصغار يضحكون».

إنَّ عنوان هذه الأقصوصة المُركّبة «الأعداء» ينتشر في جملة من المعاني هي الأبنية الكبرى الفرعية وتتجلى في طبيعة العلاقات بين أطراف ثلاثة هي: السّلطة، ومن يمثلها، وسائر الناس في معاناتهم اليومية سلباً للحياة والحق والفكر؛ وهو ما يبرّر الاستناد - في صياغة العبارة من حيث علاقتها بالمعنى - إلى ثنائية الإثبات والسلب حرباً مجازية مجالها الفكر قبل أن يكون الواقع الصريح من ناحية، والذي يقوم على المحاكاة من ناحية أخرى، إذ يمتزج فيها التقرير بالتقريع، والواقع بالخيال، وتؤدّن سُبُل الحياة بالانقطاع، لتُلوّح تجليات الموت بالاستمرار، وقائع وحوادث تحيل على الجدل القائم الفاطح بين الدين والدولة، والروح والحياة أو المادة، ولغة الكلام ولغة السلاح، والأصل والمرجع، والفرع والزائد. وهي معاني تُصاغ عبر القصص الومضات من خلال الشخصيات التي لا تستمد قيمتها وشرعية وجودها من البعد القصصي السردّي، وإنما من الإحالة الرّمزية فيما تُنقل به من أفكار، إذ تدور كلّ قصّة ومُضمة على فكرة منفصلة متصلة في أن بنقطة الارتكاز عنوان الأقصوصة: «الأعداء» أولاً، وبما قد يسبقها من قصص ومضات أو يلحقها ثانياً. وهذه الأفكار لنيس لها من المنطق إلا الصياغة اللغوية النحوية التركيبية، أمّا المعنى فهو على الهامش من منظور السّلطة وهو في المحور من منظور: «العقل الذي يفكر والعقل الذي لا يفكر» 18 - في سبيل وطن يسرّ السّياح - ص: 14؛ العقل الذي يقاوم التّغريب والتّأنيب ينعكس خطاباً في: «22 - الرّشوة + 23 - التّحقيق»؛ أمّا دلالة فهو التأسيس للشيء بنقيضه، وانتظار قد يُغيّب الأفق أو يُغري به في مقاربة معاني الألفاظ التي يُوهم منشئ النّص بأنّها مبدولة ولكنها في الحقيقة تولّد معنى المعنى ولا تقف عند تجليه الأول، وبذلك تساعد على التّقدّم في النّسق السردّي وفي تَوْسعة الموضوع ونشره.

2. 2. 5. 3. كيف يتوسّع الموضوع وينتشر؟

يكون ذلك أفقياً في بنية النّص وحدوده اللّفظية، وعمودياً تجانسا بين اللفظ والمعنى، أو وفق شبكة العلاقات التي تنتظم الأبنية الصّغرى في

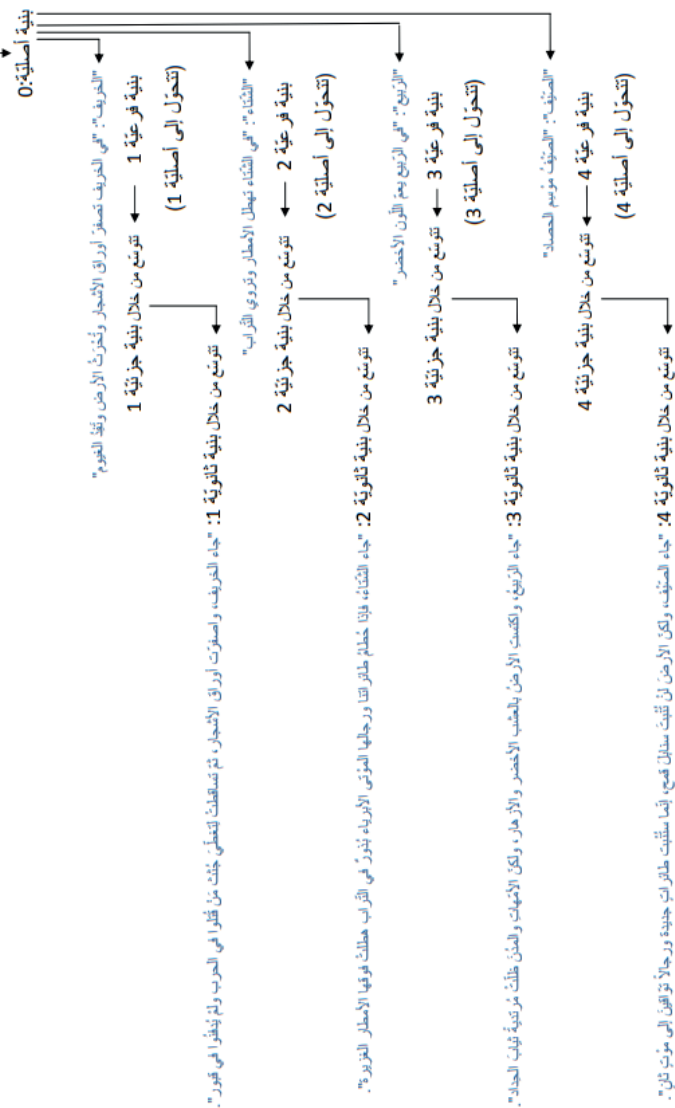
صلاتها بالأبنية الكبرى²³، يقول تورتيي: «يُسمَّى «التدرّج في الغرض» كيفية ترابط الأغراض المتتابعة، والعلاقات القائمة بينها داخل مجموعة متتابعة من الرسائل المؤلفة لوحدة، والمكوّنة مثلاً لنصٍّ ممّا يمثّل «نوعاً ما الهيكل العظمي للنصّ» كما يقول كومبات²⁴» (Touratier، 2000: 162):

قد يتطوّر الموضوع أو تتوسّع البنية الكبرى – أصلية كانت أم فرعية – أفقياً عندما يتحوّل مُكوّن ما من المحمول إلى العامل في سلسلة نهايتها تكون مع آخر النصّ، فيكون اتجاه الخطاب مائلاً وفي تدرّج؛

وقد يكون الموضوع واحداً ثابتاً، ولكنّ الانتشار يكون من خلال اللوازم والإحالات عليه، فيكون بناء الخطاب لولبيّاً، فالقالب اللغويّ واحد، لكن يتمّ تكثيف معانيه في اتجاهٍ واحد عموديّ: «يدلّ ذلك على عدم وجود غرض جديد مُعبّر عنه لغوياً، إذ ينجرّ الغرض فعلاً من السياق» (Touratier، 2000: 164)، ومن نماذج ذلك القصّة الومضة: «25 – النّهاية» على النحو التّالي:

23 هذا إضافة طبعاً، إلى نسيج العلاقات بالنسبة إلى الأبنية الصّغرى فيما بينها، وكذا الشّأن بالنسبة إلى الأبنية الكبرى.

24 COMBETTES Bernard, 1983, pour une grammaire textuelle, La progression thématique, Bruxelles, De Boeck et Duculot, p.91



قد تُفسّر هذه الأبنية المختلفة نحوياً أو لسانياً، على أنّ بعضها مستقلّ عن بعض، ويؤدّي معناه ارتباطاً بشكله، لكن، أنّ تَرَدّد في نصّ، فالسياق ينفي استقلاليتها، لتُصبح قراءتها وتأويلها بالنظر إلى ما يسبقها وما يلحقها، خاصّة وأنّ هناك بنية كبرى أصليّة «أربعة فصول» (18) هي المحور، وما سائر الأبنية إلّا نموّاً لها وتوسّعة، وبذلك تكون البنية الكبرى الأصليّة هي المرجع (Touratier، 2000: 164 - 165) بالنسبة إلى بقيّة الأبنية في البناء والتركيب، كما في الدلالة والتأويل.

وقد ينمو الموضوع لكنّ ليس بالإحالة عليه مباشرة، أو الارتباط به ضرورة، إنّما يكون ذلك بصفة ضمنية، ومنّ نماذج ذلك القصّة الومضة: «22 - الرّشوة»، انطلق الحديث فيها عن الهزيمة وأسبابها (ذنوب)، وما قد يترتّب من نتائج «إنذار بمستقبل حافل بالويلات والكوارث» 16. وانفتح هذا الموضوع على آخر وهو سبيل «الغفران وحسن الختام» ليكون الانغلاق بتحقيق الفعل دون الإرادة الفعلية: «بنوا مسجداً له مئذنة تُشبه رُمحاً غاصباً يوشك أن يندفع عبر الفضاء ليثقب طائرات الأعداء». 16 فالمواضيع متتابعة، وتبدو مستقلة بنية ومعنى، لكنّ الدلالة تحقّق النظم بينها ارتباطاً بالعنوان/ الرّمز في التمسك بالدينيّ الروحيّ دون الإيمان به نتيجة طريقة الممارسة، وسبل «الطاعة»، فتصبح - بناءً على ذلك - هذه المواضيع الثلاثة بمثابة لبنات إنشاء في اتجاهات متوازية في إطار فقرة واحدة، أو نصّ منسجم تؤدّي فيه النهاية معنى البداية.

وقد تكون مواضيع نصّ ما متنوّعة متعدّدة وربّما مختلفة - وهي في إطار النصّ الواحد من ذلك: القصّة الومضة: «4 - الثّأر

ثمة عدد من الأولاد مجتمعون في باحة المدرسة، يلعبون بحماسة لعبة جديدة.

« - أنا طرزان».

« - أنا عنتر».

« - أنا مليونير».

« - أنا مخترع القنبلة الذريّة».

« - أنا شرطي».

« - أنا مخترع الطائرات».

فانقضّ الأولاد على مخترع الطائرات، وراحوا يصفعونه ويلكمونه ويركلونه بينما كان يصرخ معولاً مستغيثاً». 7.

فكلّ تدخّل من تدخّلات الأولاد يمثّل موضوعاً مستقلاً بذاته يشمل أسباب اختيار كلّ منهم الأنموذج الذي يريد أن يكونه أو ينسج على منوال فعله؛ لكن ما سوّغ اندراجها جميعاً ضمن نصّ واحد هو اتّفاقهم على نبذ الصّورة الأخيرة، إذ تُقني جميع سابقاتها، فيكون بناء هذه القصّة الومضة على أساس التّنوّع والاختلاف لكن أيضاً على أساس التّجمّع والاقتضاب إلى درجة التّلاشي والغياب صوتاً ولا صدى.

فصياغة النصّ تُحدّد الوحدة والانسجام بين مكوّنات النصّ و«هيكله»؛ أمّا البداية والنهاية فلا يمكن التصرّف فيهما تحويلاً وتغيّيراً - إلا من خلال قراءة عكسيّة أو بناء مخالف -؛ وأمّا المثنّ فمن المرونة بما يساعد على التصرّف تقدّياً وتأخيراً في المكوّنات/ المواضيع، فلا يختلّ البناء العامّ ولا المعاني المراد تبليغها وفق العقد الافتراضيّ الذي يصوغه منشئ النصّ في علاقته بالمتلقّي، فقط ما يتغيّر هو التّنظيم، ولكنّه أيضاً لا «يُقنّن» إلا وفق بنيتة السردية «الأنموذج»، وهذه المسألة أيضاً نسبيّة كما يتجلّى ذلك في أكثر من موضع من البحث وخاصّةً على مستوى الإجراء.

هي تجارب ونصوص لا تعكس فيض الخاطر والفكر، بقدر ما تُحيل على هموم الذات المُبدعة وقد تراحمت وتداخلت فضاقت لغة الخطاب العاديّ على أن تستوعبها، فكان السبيل إلى لغة الخطاب الزمزي بكلّ خصائصه الإشاريّة التلمحيّة والكناييّة «صنّف صدر عن تعقّد الواقع وإشكاله، لكن، لينطلق في رحلة بحث يجرب فيها أساليب القول الجديد والتّليد في نفس الوقت. فهاجس الصّياغة التّشكيكيّة والاستراتيجيّة التّعبيريّة هو الأكثر سيّطرةً على هذا الفكر الحدائويّ والتّجريبيّ الذي فنّد السائد في عصره فجّد فيه وعاد إلى الموروث من غير عصره فتصرّف فيه» (الزّياحي، 2007: 188) فإذا اللفظ الواحد جُماع معانٍ بل قضايا وإشكاليات تكاثفت حتّى كادت تضمحلّ ملامحها، فأصبح هاجس إنتاج النصّ ليس معانيه ودلالاته، وإنّما آليات نسجه ونظم سده، وهو ما يجعل قيمة هذه الأقصوصة: «الأعداء» تتجاوز أبنيتها الكبرى لتتمحور حول الأبنية الصّغرى ألفاظاً وصيغاً وتراكيب، كما حوّل الأبنية العليا بحثاً في الجنس وقلقاً دون الانتهاء إليه في مميّزات مخصوصة بقدر الاندراج قسراً في إعادة صياغة المقول والموروث، لكن بإخراجه من قواعده وسننه وثوابته ليكون جزءاً من حادثة وتجريب؛ فإذا أهميّة هذه الأقصوصة تتجلّى خاصّةً في شحن القديم بقيم المغايرة والتّغريب: تغريب اللّغة عن معاجمها، وتغيّير التراكيب بجعل التّركيب الواحد يتخذ اتّجاهات مختلفة دون العودة إلى البدء أو الأصل، رغبة تُخنّزل في عنوان الأقصوصة: «الأعداء»، ورهبة تتشظّى في فروعها وتعكس رغبة لا تتجاوز مستوى الطّيف أو الصّدى أو السّرّاب.

إنّ لغة الرّمز والتّكثيف في بناء الأقصوصة عند زكريا تامر، بقدر ما تكتنز المعنى تُوسّع دلالاته «وفق منطق استشرافيّ تنبئيّ» (الرياحي، 2007: 385)؛ يقول جينيت في هذا الصّدد: «إنّ هذه الظّاهرة هي من أنجع طُرُق انتشار المعنى» (Genette، 1972: 98) بما يساهم في بلورة بنية الخطاب الكلّية الدّلالية الهيكلية ليس باعتبارها منوالاً جاهزاً أو هو الأنموذج، بل التّصوّر الذي يعكس رغبةً في جعل انسجام الخطاب لا يقوم ولا يتجلى إلّا بإنكار المرجع ورفض السّائد، والسّعي إلى إنشاء بديل لهما معاً بصياغة رؤية في المعنى وفي بنيته وفي تأسيسه عبر «سلسلة صور تشابهية... تُوثّق الخياليّ» (Ricardou، 1967: 59) ولكنّها بقدر ما تُقصي المرجع تتجذّر فيه تصويراً له في مظاهر منبوذة مرفوضة لا تُطلَب لذاتها، وإنّما هي أُسس للمعنى والبناء إشارة دون كشفٍ، وفكّ عُقدٍ؛ فكان الكاتب غير معنيّ بانسجام النّصّ ولا بالاستدلال على اندراجها ضمن بنية الخطاب، وإنّما هاجسه هو اتّخاذ النّصّ لإعلان القطيعة مع الموجود السّائد لبلوغ المنشود المُتخيّل في المرجع كما في إنتاج النّصّ بما تستدعيه بنيته من تشريك المُتلقي في بلورته أو في إعادة إنتاجه.

3. القسم التآلفي بالنسبة إلى الفصل الأول

يفصل بين المجموعتين القصصيتين «المعذبون في الأرض» لطف حسين، و«النمر في اليوم العاشر» لذكريا تامر - زمانيا - ما يقارب الثلاثين عامًا، فترة اقترنت بالكثير من المتغيرات على مستوى التاريخ والواقع والأدب والفكر، تبيّن بعض مظاهرها من خلال تناول نموذجًا عن كلّ مجموعة؛ وإن يكن الاختيار «اعتباطيًا»، فإن المنهج والغاية موضوعان مقصودان وفق أهداف بحث لم تخرج عن إطار الاستدلال على انسجام الخطاب السردّي الأقصوصي.

ولئن كانت النتائج خاصّة - في مستوى أول، وبالنسبة إلى كلّ أقصوصة - فإننا نروم في خاتمة هذا الباب الأول أن ننتيّن ما يمكن أن يُفضي إليه البحث من نتائج من خلال المقارنة بينهما خلفياتنا في ذلك ما يبدو من فروق بين الكاتبين على أكثر من مستوى؛ فهل يعني هذا اختلاف الأثرين ضرورة؟ ثم هل هناك ما يُسوِّغ المقارنة النصّية دون اعتبار الكاتب والمرجع؟ ثم هل من الضرورة أن نربط لسانيات النصّ بالبعد التداولي إن أصلاً في الخطاب أو غاية في القراءة والتأويل؟

إشكاليات نجيب عنها من خلال المقارنة التالية رغبة في الانتهاء إلى شموليّة الخطاب من خلال خصوصيّة النصّ.

نقاط التشابه

- اشتراك في لغة الرّمز الذي يتوارى خلف الإيهام بالوضوح في القصّ والسرد إثراء للفكرة التي قد تبدو مجهولة بالنسبة إلى المتلقّي وهو يسعى ولا شك إلى رفع اللبس والغموض استنادًا إلى عوامل مساعدة ثلاثة:

- (1) البعد الإنساني الكوني الذي يتّخذه الرّمز؛
- (2) المرجعيّة أو المرجعيّات التي يستند إليها منشئ النصّ، أو يوحي بها عبّر المعاجم المُعتمَدة، والمعرفة التي يستقي منها المعنى الأول تمهيدًا للمعاني المُحتَمَلة؛
- (3) الصياغة المُعتمَدة في بناء النصّ وإنشاء الخطاب وفق منهج يكون بتناول الجزئيات كلّ على حِدّة وصولاً إلى رؤية عامّة للمحتوى والمعنى عند كلّ من طه حسين وذكريا تامر؛ وما لغة الخطاب وهيكلة إلا مطيّة وطريقة من طرق تمثيل الدلالة والإيحاء بها والكناية عنها.

- ظاهر الخطاب سرّ وباطنه نقدٌ للسياسة وللمجتمع، وللدّ إيهامًا بالنّوي عن الجنس ومقولته مقابل إجابة لفنّ السّرد وجعل الأقصوصة تفتح على غيرها من أجناس القول وأشكال الخطاب.

- يُقدّ الخطابُ عند كليهما من مأساة الوجود والعدم مفارقات لا تأتلف إلا في نسيج النّص وهيكل الخطاب، إقبالاً على الفصيح من اللفظ، وإعرافاً عن الواضح من المعنى، فإذا المقصود هو ما لم يُقل، وليس ما قيل إلا بذرة شكّ وعمق تفكير في الحياة كيف كانت؟ وكيف ينبغي لها أن تكون؟

هواجس معنى وأبنية كبرى لا تأتلف إلا من انقلاب المفاهيم في الواقع، وتقليبها في الجنس، فلا يكون التّوازن الفريد في البناء إلا من خلال البلاغة والبيان والبدیع، مصطلحات «تدور على غير أسمائها» لأنّ بناء النّص عند كليهما هو مقصد ولا معنى، وتعمية ولا وضوح، وبدعة في هشاشة الوجود البشري، وهامشيّة الأغلبية التي توجد لتُشحق.

- الخطاب عند كليهما ينشر مفارقات بين ترف اللّغة وجمالها، وبين بؤس الواقع وقبحه.

- التّفكير والحجاج عند كليهما لا يتناقضان، بل هما خاصيّة من خاصّيات الأقصوصة الأجناسيّة، وهي القصر والاختزال، لأنّهما يقومان بدورهما على تكثيف دلالة المعنى في أحديّة اللفظ؛ والسّكوت عن التّسمية عند كليهما والميل إلى الصّفة هو جزء من إنشائيّة القصّة القصيرة.

- اعتماد الكناية بالجزء عن الكلّ، أو هي الشّخصيّة محور الهامش مزاجيّة بين خصوصيات الأقصوصة الأجناسيّة، وأصداء الواقع في مطلق التّجليات والمرجعيات.

- الإحالة على التّورية والنّفي في المرجع السّياسي خاصّة، واتّخاذها طريقة تعبير وإحالة على أصول باتت جزءاً من عبث في التّفاعل مع النّص/ اللّغة، ومع الخطاب/ الجنس.

- تقاطع الخطابين السّرديّ الأدبيّ والنّقدّي الإبداعيّ الذي ينقطع معه النّص عن السّياق المقاميّ ليستمدّ دلالاته اللّامحدودة من السّياق المقاليّ.

- الإيهام بتشظّي النّص وبانفراطه بما قد يُشئت - في الظّاهر - ذهن القارئ وتفكيره، لكن إنّ هي إلا القدرة على الملاءمة بين أجناس خطاب تختلف في المقولات وفي المرجعيّات، ولكنّها تُنشئ خطاباً جديداً ينفي مفهوم الزّمان والقاعدة، وإذا النّص مرآة لفكر الكاتب ولرؤيته النّقدية، وما لغة الخطاب إلا مطيّة لإبراز رؤية مخصوصة لأبعاده التّداوليّة أكثر من قوانينه النّقدية «ثورة على الأصول الموضوعية والقواعد المرسومة والخطط المُدبرة» (طه حسين،

المعذبون في الأرض - صالح، 2005: 29).

- إن في بناء الأقصوصة عند كليهما نفحة شعريّة تتجلّى في الاحتفال بالأساليب البلاغيّة في مختلف تجلياتها، فانتشار البنية والمعنى عبر فضاء النصّ إنّما يتأتّى من توقيع الذات/ الكاتب في إيقاع اللّغة قصداً وفي القارئ أثراً لا يبعث على الاطمئنان إلى شموليّة النصّ وخصوصيّة الخطاب، ولكن إلى حيّرة وقلق أصداء تنبعث من الكاتب إلى القارئ عسى أن يجد في أبنية النصّ ما يلائم به تصدّع المرجع بل انشقاقه.

- استلهام التّراث في لغة الخطاب وفي محتواه أيضاً، محاكاة له وتجاوزاً في أنّ في خطاب معنى وتعمية، ودلالة وتورية.

نقاط الاختلاف

≠

عند زكريا تامر

- اختزال شديد في القول والعبارة، فإذا القصّة القصيرة عنده هي القصّة الومضة ولمع لا تكاد تشي بالمعنى، ولكنها تُثير تساؤلات وإشكالات عديدة تُعمّق أبعاد الدّالة، وتوسّع دائرة التّأويل.

- البنية الكبرى الأصل هي السّياسي وانتشار آثاره في ما يدور في فلكه من رفض ونقد.

- يقلّ الوصف ويراع الكاتب بين سرد متقطّع وحوار لا يؤسّس للتّناغم بقدر ما يكرّس التّباعد في وجهات النّظر وفي الرّؤى؛ وليس إلا للقارئ أن يستدلّ على الانسجام في القول وفي المعنى، فينأى

عند طه حسين

- إطناب في الوصف والتّحليل حتّى تكاد تحاكي الأقصوصة القصّة من حيث الطّول؛ فإذا بُعد الدّالة يدور في فلك النّقد الواقعيّ والأدبيّ معاً.

- البنية الكبرى الأصل هي تواز بين النّقدين الأدبيّ (بمفهومه الواسع)²⁵ والاجتماعيّ، وأقصى منتهاهما السّياسي، يوهم الكاتب بهامشيّته إقصاء وإبعاداً، ليتحوّل في منتهى التّأويل إلى المحور الذي يُفرز كلّ مظاهر التّردّي والضعف والوهن.

- قلّما حضر الوصف؛ أمّا الغلبة فللوصف مدخلاً للسّرد ينشأ حدثاً ويطمسه النّقد رؤية الكاتب تفيض وتوجّه أفق تأويل القارئ تكثيفاً للاتّجاه الواحد في القراءة والتّأويل؛ فإذا رؤية القارئ هي انعكاس

25 بمفهوم قيميّ أخلاقيّ مرجعه النّقل والعقل، والسّياسة والاجتماع؛ وبمفهوم إبداعيّ إنشائيّ يجانس في ومعه إطار القول مضمونه ومحتواه.

الكاتب عن النَّصِّ، ويكون مَنْ يُعيد بناءه وصياغته هو القارئ في صيغة الجمع دون المفرد، فإذا بنية النَّصِّ المتعددة انتشارية لا تُحَدَّ أشعتها.

لرؤية الكاتب على أساس التناظر والتوازي.

- بنية الأقصوصة هي تجميع لهوم الجماعة وقد تمحورت في الذات.

- بنية الأقصوصة هي نشر لهوم الذات وقد أثقلها بؤس الجماعة.

- إيجاد أشباه ونظائر لأقصوصة في فروع عبر التتابع وأصداء المعجم.

- إيجاد أشباه ونظائر لأقصوصة أصل في فرع أو فروع عبر التضمين وأصداء المرجع.

- الاستناد إلى الترقيم في نظم الأقاليم يندرج ضمن تعريف الأصل عبر وجوهه الممكنة المحتملة.

- الترقيم يأتي بمثابة تبويب الأقصوصة الواحدة إلى أجزائها المكونة لها، وعي بمقوم من مقومات الأقصوصة الأجناسية - وهو القصر - فتكون التجزئة ذات وظيفتين: 1. اندراج ضمن جنس الأقصوصة ≠ 2. انفتاح على تخوم الرواية في فصول يختص كل واحد منها ببنيتها الكبرى، ولكن بينها خيطاً ناظماً يضمن انسجامها وانعقادها في كل بنيوي موضوعي شمولي، حتى وإن أعلن طه حسين عدم اندراجه في شروط الجنس الأدبي ومقولاته.

- بنية النص تسير في اتجاه عمودي لا أفقي، وهو انحداري يشي بالعمق والهاوية.

- بنية النص تشي بأفق انتظار وبعنصر تشويق.

لم تكن الأقصوصة خطاباً سردياً لتناى عن غيرها من الأجناس: القديمة والحديثة، والتبليغية منها والتأثيرية - وكلتاها جزء من الأخرى في الصيغة والقصد.

تتعدد الصيغ والأشكال والأبنية والأنسجة، إلا أنها تؤول جميعاً إلى البنية العليا/ العنوان/ البنية الكبرى الأصل - حتى وإن كان التوافق بين الوسم الكلي والآخر الجزئي كناية وتورية ولا إقصاء للمعنى.

إن الإشارة بالرّم وبالكلمة أو العبارة إحياء بالفردة توحى بالجمع في الصورة وفي المعنى، أما الجنس الأدبي فهو موجود مفقود يقلق الكاتب ويحيره، فيتأصل فيه حيناً، ويتنصل منه أحياناً. فتتضاءل ملامح الأبنية الصغرى فالحداثة، أما الفئض فللكبرى مواضع، بل قضايا وإشكاليات قد يرى لها الكاتب حلولاً تصاغ جزءاً من حبكة قصصية أو وصية نصاً وإرشاداً قد

يعنيان الحقيقة في خطاب واقعي كما أراده طه حسين؛ أو في حكمة تُنشأ
بما يناقضها، فتأتي سخرية واستهزاء، بل عبثاً ولا جدوى جزءاً من رؤية
زكريا تامر للواقع في متناقضات لا يراها تأتلف، فينأى المعنى عن المبنى،
وتُكتنَفُ الدلالة بالغموض والتعمية حتى تغيب أو تُعَيَّب في خطاب تجريب
وتغريب.

الفصل الثاني

الاستدلال على انسجام الخطاب
السردية الرواية نموذجاً

1. النَّصَّ الْأَوَّل

من رواية «دعاء الكروان» لطفه حسين

خصائص نسيج النصّ وخصائصه في التركيب والمعنى والجنس

1.1. 1. النَّصَّ

[I] ¹ (1) إِنَّ أَحَدَنَا لَنْ يَسْتَطِيعَ / أَنْ يَهْتَدِيَ فِي هَذَا الصُّوْءِ / إِلَّا إِذَا قَادَهُ صَاحِبُهُ. (2) إِنَّ الْعَبَّءَ لِأَثْقَلُ / مِنْ أَنْ تَحْمِلِيهِ وَحْدَكَ، (3) وَإِنَّ الْعَبَّءَ لِأَثْقَلُ / مِنْ أَنْ أَحْمِلَهُ وَحْدِي، (4) فَلْنَحْتَمِلْ شَقَاءَنَا مَعًا / حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا / كَانَ مَفْعُولًا.

[II] (1) ثُمَّ انْقَطَعَ الْحَدِيثُ بَيْنَنَا، / فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا / وَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، وَأَطْبَقَ عَلَى الْغُرْفَةِ صَمْتُ رَهيبٍ! (2) غَرِقْنَا فِيهِ يَقْظَيْنِ / كَمَا يَغْرِقُ النَّائِمُ فِي نَوْمٍ بَرِيءٍ مِنَ الْأَحْلَامِ.

[III] (1) وَلَكِنْ صَوْتِكَ أَيُّهَا الطَّائِرُ الْعَزِيزُ، / يَبْلُغُنِي / فَيَنْتَزِعُنِي انْتِزَاعًا مِنْ هَذَا الصَّمْتِ الْعَمِيقِ، / فَأَتَّبُ وَجَلَةً مَذْغُورَةً، وَيَتَّبُ هُوَ وَجَلًا مَذْغُورًا، (2) ثُمَّ لَا نَلْبَثُ أَنْ يَثُوبَ إِلَيْنَا الْأَمْنُ / وَبُرْدُ إِلَيْنَا الْهُدُوءُ. (3) فَأَمَّا أَنَا فَتَنْحَدِرُ عَلَى خَدِّي دَمْعَتَانِ حَارَّتَانِ، / وَأَمَّا هُوَ فَيَقُولُ / وَقَدْ اعْتَمَدَ بَيْنَيْهِ عَلَى الْمَائِدَةِ، دُعَاءَ الْكَرْوَانِ! / أَ تَرَيْنَهُ / كَانَ يُرْجِعُ صَوْتَهُ هَذَا التَّرْجِيعَ / حِينَ صُرِعَتْ هُنَادِي فِي ذَلِكَ الْفَضَاءِ الْغَرِيبِ!!

طفه حسين - دعاء الكروان - 160

1 تحليل الأرقام بين المعقوفين على الأبنية الكبرى عددًا وحدودًا؛ وتحليل الأرقام بين القوسين على الأبنية الصغرى عددًا وحدودًا بالنسبة إلى كل بنية كبرى؛ وتحليل الخطوط المائلة على القضايا التي تتوزع وفقها كل بنية صغرى.

1. 2. التحليل

يطرح هذا النصّ / الرواية إشكاليّتين: 1- منهجيّة: بحثاً عن السبيل التي بها تكشف عن انسجام النصّ النمط/ النموذج، مع تجليات بحثنا إشكالية تتطرّح فيما به يكون الخطاب خطاباً ينهض بذاته، ولكنّ كيانه بنية عليا لا يتمّ إلاّ بأجزائه أبنية موضوعيّة كبرى من ناحية، وأبنية لفظيّة لغويّة دلاليّة في آن: هي الأبنية الصغرى من ناحية أخرى. 2- أجناسيّة تتدرج ضمن السرد بنية عليا مُشتركة، وضمن الرواية بما لها من بنية نموذجيّة وَضَعَهَا كُتّابُهَا إنتاجاً وإنجازاً، ونظر إليها النقاد والدارسون في مجال الأدب تجريداً وتنظيراً، لتنتهي الرواية - في مستوى آخر - جدلاً بين هذا وذاك، نظرة لسانيين ومحليّ خطاب لم ينظروا إليه صيغة قول أو تعبير من جانب واحد، وإنّما هو تحليل الخطاب بما يحقّق انسجامه، بوتقة تتصهر فيها كلّ المناهج (بين بنيويّ وصفي، وموضوعيّ واقعيّ، وتاريخيّ أجناسيّ) دون أن ينصهر فيها، تحقيق فرادة، وهو ما يمثّل خاصيّة «تحليل الخطاب» الموجهة من اللفظ إلى النصّ، ومن اللغة إلى السياق، فلا يفترق المفهوم أو المصطلح عن الآخر إلاّ تنظيراً، أمّا الصياغة والمنهج فبحثٌ في الأبنية بين عليا وكبرى وصغرى، وَضَعَهَا أصحابها من اللسانيّين ومحليّ الخطاب تمييزاً وتأليفاً ثنائيّة مُفارقة تتسجم في إطار الشّكل من الجنس، وهو الرواية في هذا النصّ خاتمة «دعاء الكروان» التي تُوافق من بنية الرواية النمطيّة وضع النّهاية انفراجاً يستدعي نظيره بل نقيضه تتمة بنية وبناء في مثلث تكتمل زواياه الثّلاث بوضع البداية هدوءاً واستقراراً؛ ووضع اضطراب، بل هو التّأزّم عُقدة أرادها طه حسين دماءً تستدعي خيالاتٍ وأشباحاً وماضياً تشقى به الشّخصيّة وتسعد، ثنائيّة تحكم الرواية بأكملها وتختزلها خاتمة أردناها نصّاً تمثيليّاً لما رأينا فيه من مقومات بنيويّة تُحقّق الحاجة في التّعرّف إلى النصّ/ الرواية/ «دعاء الكروان» من مداخل في التّحليل وغاية في البحث من زوايا منظورة مسطّورة في مناهج اللّسانيّين ومحليّ الخطاب رأينا منها النّقاط التّالية:

- الأبنية؛

- النصّ والأحداث الكلاميّة والسيّاق؛

- الحدث والتفاعل؛

- البنية الأساس أو البنية القاعدية؛

- الشّخصيات؛

- تتابعات الجملة: التّجزئة: قضايا ← عناصر قضايا ← علاقات بين

قضايا ← عناصر القضايا

* التماسك

إحالية محمولية زمانية صيغية

* موضوع (بنية كبرى)

* الدلالة

= الأزمنة - الروابط - العبارات المرجعية

علاقة تلازم بينهما على مستويي الصياغة والدلالة.

هذه النقاط نتخذها أسس تحليل، أما الغايات فتختلف لتألف في نسيج النص/ المحور عسى أن نفوز في نهاية العمل بالتفاعل بين الأبنية الذي يضمن تحقق «دعاء الكروان» / الرواية/ السرد.

ينبني هذا النص على ثلاث أبنية كبرى تتوزع كالاتي:

الأولى: من قوله: «إِنَّ أَحَدَنَا...» إلى «...كَانَ مَفْعُولًا»، وفيها توحد بين الشخصيتين: المهندس وأمنة/ سعاد في المحنة والمصير؛ بنية كبرى تتفرع إلى أربع أبنية صغرى:

أ. «إِنَّ أَحَدَنَا لَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَهْتَدِيَ فِي هَذَا الضُّوءِ إِلَّا إِذَا قَادَهُ صَاحِبُهُ.»

ب. «إِنَّ الْعِبَاءَ لَأَثْقَلُ مِنْ أَنْ تَحْمِلِيهِ وَحْدَكَ»

ج. «وَإِنَّ الْعِبَاءَ لَأَثْقَلُ مِنْ أَنْ أَحْمِلُهُ وَحْدِي.»

د. «فَلَنَحْتَمِلَ شَقَاءَنَا مَعًا حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ

مَفْعُولًا»

والثانية: من «ثُمَّ انْقَطَعَ الْحَدِيثُ...» إلى «... مِنَ الْأَحْلَامِ»، وفيها تتوزع الشخصيتان بين عالم الحس وجودا ماديا، وبين عالم الخيال إغراقا في هموم الذات، كما في هموم الآخر.

وتتفرع هذه البنية الكبرى الثانية إلى بنيتين صغريين:

أ. «ثُمَّ انْقَطَعَ الْحَدِيثُ بَيْنَنَا وَلَمْ أَقْلُ شَيْئًا، وَأَطْبَقَ عَلَى

الْغُرْفَةُ صَمْتُ هَائِلٍ رَهيبٌ»

ب. «غَرِقْنَا فِيهِ يَقْظَيْنِ كَمَا يَغْرِقُ النَّائِمُ فِي نَوْمٍ بَرِيءٍ

مِنَ الْأَخْلَامِ»

والثالثة: من قوله «وَلَكِنَّ صَوْتَكَ...» إلى «...الغريضِ»،

وفيها تعود الشخصيتان إلى الواقع بكل أطره الحاقة وعناصره المساعدة من ناحية، المعرقة من ناحية أخرى.

وتتفرع هذه البنية الكبرى الثالثة إلى ثلاث أبنية صغرى كما يلي:

أ. «وَلَكِنَّ صَوْتَكَ، أَيُّهَا الطَّائِرُ الْغَرِيزُ، يُبَاغِثُنِي فَيَنْتَزِعُنِي
اِنْتِزَاعًا مِنْ هَذَا الصَّمْتِ الْعَمِيقِ، فَأَشْبُ وَجِلَةً مَذْغُورَةً وَيَشْبُ هُوَ وَجِلًا
مَذْغُورًا»

ب. «ثُمَّ لَا نَلْبِثُ أَنْ يَثُوبَ إِلَيْنَا الْأَمْنُ وَيُرِدَّ إِلَيْنَا الْهُدُوءُ»

ج. «فَأَمَّا أَنَا فَتَنْحَدِرُ عَلَى خَذِي دَمْعَتَانِ حَارَّتَانِ. وَأَمَّا
هُوَ فَيَقُولُ وَقَدْ اعْتَمَدَ بِيَدَيْهِ عَلَى الْمَائِدَةِ، دُعَاءَ الْكَرْوَانِ أَتَرْتِنُهُ كَانَ يُرْجَعُ
صَوْتُهُ هَذَا التَّرْجِيعَ حِينَ صُرِعَتْ هِنَادِي فِي ذَلِكَ الْفَصَاءِ الْغَرِيزِ»

والأبنية الصغرى في هذا النصّ محكومة بمقومات ثلاثة هي: القضايا التي تتفرع إليها؛ والروابط - بين الحضور والغياب - إذ تكتسب صبغة السردية ارتباطا بشكل الخطاب الذي تتدرج فيه وهو الرواية؛ والقرائن الزمانية تنشأ في حيز من الرواية مخصوص هو وضع النهاية ولكنها تختزل الخطاب - على امتداده وتمطّطه - فيكون الزمان من العوامل المساعدة على تجاوز النصّ منطوقا لفظيا ولوجا إلى الضمنيّ منه.

تنوّع البنية الصغرى الأولى إلى ثلاث قضايا هي: الاستطاعة، الاهتداء، والقيادة، وهي أفعال رهينة التقابل والتناقض بين:

- الإثبات «إِنَّ» والنفي «لَنْ»؛

- وقوع الفعل (استطاعة) وبقاءه رهين الشرط (عجزا)؛

- الفاعلية والمفعولية: وظيفتين سرديتين تنتقل بينهما الشخصيتان دون أن تثبت في إحداها، وهو ثبات تعجز دونه الشخصية لكنه يتردد صدى في البنية الصغرى الثانية في نهوضها على نقضين: عبء حدث وذكّر تتواء الشخصية بحمله، وشدة لا يخفف وطأتها إلا الآخر مساندة هو المهندس الذي ولد العقدة / المحور، وعنها تفرعت عقد عديدة بين حدث هو ما كان بين المهندس وهنادي، أو أحداث هي مسيرة آمنة/ سعاد ثنائية ظاهر وباطن، وذات وآخر؛ ومدينة وريف أو

ريف ومدينة؛ ووجدان/ عقل لم يكن إلا قيداً يكرّس معاناة الآخر لكي تحقّق سعاد ما آمنت به أمانة إيهاما بالفضيلة، اندراجا في الرذيلة، نهاية ختمت بها أمانة/ سعاد مأساتها بإعلان القطيعة مع كلّ ما يمكن أن يؤذيها.

وإنّ التكرار بنية صغرى ثالثة يوهّم بتعاود القضايا ولكنه الوجه الآخر منها قضيتين لا تختلفان عددا عن سابقتيها لكنهما تتأيان عنهما معنى ودلالة انقلاب تصوّرات وردود أفعال: فأما ما يتعلّق منها بالشخصية الأولى: أمانة/ سعاد فقد جاء على لسان الشخصية ذاتها تهيم بالرواية وتُشكّك ما عداها من الأصوات - إلا متى أرادت ذلك - منها صوت الشخصية الثانية المهندس، يتقلّص الوجدان عنده ليتضمّم العقل، فيكون ذلك عاملا مساعدا على توفير عنصر التشويق إذ يغيّر أفق انتظار المتلقّي الذي يتناول النصّ خطابا سرديّا بكلّ مقوماته ومكوّناته، إلا العبرة قيمة أخلاقيّة لا يصوغها الراوي/ الشخصية/ تقاطع أصوات في الرواية والحديث، لكن يستنبطها القارئ إذ يترك مسافة بينه وبين الشخصية لكي يعيد إنشاء الخطاب من وجهة نظره هو، فيربط النصّ بسياقه وأطره، ومرجعه السرديّ رواية شكلا من أشكال الخطاب، وببنيته القاعدية ارتباط قضية بسابقتها أو بلاقتها أو إدراجها ضمن البنية الصغرى فالكبرى التي تتدرج ضمنها، ومنهما معا تستمدّ دلالتها والمنطق الذي يحكم نسيجها.

إنّ من تجليات نسيج الخطاب التحوّل من الاختلاف انفصالا وفردة، إلى التّوحد في شؤون ثلاثة هي القضايا التي تكوّن البنية الصغرى الرابعة من البنية الكبرى الأولى:

أما القضية الأولى فشقاء وبؤس ينبثق من الماضي ويحكم الحاضر، ويسطر المستقبل؛

وأما القضية الثانية فمُصيرٌ مُشترَكٌ يجمع بين المهندس وأمانة/ سعاد، وجهين لوجه مختلف تتجلى فيما يلي:

- المهندس ← الرذيلة ← الفضيلة.

- أمانة ← الفضيلة ← الرذيلة ← الفضيلة ← الرذيلة.

ويصير هذا التحوّل في الوظائف تقويما للأحداث وحلولا فيها ولها، بتواز مع أحداث الرواية بين خطيّة واسترجاع واستباق. هي أنساق سردية ثلاثة تبرز تولّد القضية الثالثة توزّع شخصية بين ما كان وبين ما له أن يكون انتقاء إرادة، ونشأة تسليم.

والمفعولية إيدانا بنهاية البنية الكبرى الأولى إنّ هي إلا علامة سردية

فاصلة واصلة في آنٍ بينها وبين البنية الكبرى الثانية.

وهذه البنية تتوزع في أول مستوياتها إلى أربع قضايا: أما أولها فتشبي بانقطاع الحديث حواراً قرينة من قرائن السردية، يحل محله السرد اختزالاً كبيراً للحدث «ثُمَّ انْقَطَعَ الْحَدِيثُ بَيْنَنَا» يقابله تمطيط له على مستوى تقطيع الزمن تضخم انفعالات مقابل انتقاء الفعل: هي أنماط في الإنشاء السردية ثلاثة تحقّقها القضيتان: (2) «فَلَمْ يَقُلْ شَيْئاً» و (3) «وَلَمْ أَقُلْ شَيْئاً» فإذا صلة هاتين القضيتين بسابقتهما هي صلة الانتقال من الإجمال إلى التفصيل تواصلًا وامتدادًا.

وأما القضية الرابعة من هذه البنية الصغرى الأولى ضمن البنية الكبرى الثانية فتتمثل في: «وَأُطْبِقَ عَلَى الْغُرْفَةِ صَمْتُ هَائِلٍ رَهيبٍ»، قضية تعكس تحدد ملامح الشخصية من خلال الأطر الحافة وخاصة المكان: ضيق يناظر ضيق الشخصية النفسية، مع ما يتراحم في الذهن والذاكرة من مجالات معرفية متعددة متكاثفة متداخلة، تجمعها الشخصية من ماضيها بين مدينة وريف، أو بين ريف ومدينة، ويجمعها القارئ مجازاً، من حدود النصّ محور الاهتمام، و«حقيقة» من أطوار الرواية بنية عليا، وما هذه الأبنية الكبرى فالصغرى فأفعالها القضيوية إلا علامات تدلّ عليها ولا تُبرزها جميعاً إلا إذا نُظِرَ إلى المسألة من جانب المجاز المرسل إحالة جزء على كل (فما النصّ إلا وضع نهاية يستدعي في الخطاب السردية الروائيّ وضع بداية، ووضع تأزم أو عُقدة)، إضافة إلى زاوية المقومات الأجناسية المتوفرة في النصّ نقطة ارتكاز وتبئير تُجمع إشعاعاتها وامتداداتها على النصّ «دعاء الكروان» في كليته.

ومن هذه الإشعاعات البنية الصغرى الثانية - في البنية الكبرى الثانية - التي تتوزع بين قضيتين اثنتين: أولاهما: «عَرَفْنَا فِيهِ يَقِظِينَ» يمتزج فيها الواقع بالخيال، والوعي باللاوعي. وتوهم هذه القضية بانفصال الشخصية الأولى: المهندس عن الشخصية الثانية: أمانة/ سعاد، ولكن في انفصالهما انسجاماً وتواصلًا: وإلاّ فيمَ نبرّر وجودهما في نفس الزمان والمكان؟ ثم تناولهما في ما سبق من الخطاب موضوعاً همة مشترك بينهما هو جدلية الحياة والموت، أو الكره والحب، أو الإحساس بالذنب والرغبة في التحلّل منه لتخليص النفس من آثامها وحرصاً على الاندراج في عالم الصفاء والنقاء؟ أ ليست كلّ شخصية تفكر فيما تفكر فيه الأخرى؟ وتعتقد بأنها تعرف نفس ما تعرفه، وتعتقد أيضاً في اعتقادها بأنها تعتقد نفس ما تعتقده الأخرى؟

إن المعرفة الموسوعية في بعدها العلمي بين الشخصيتين هي مفارقة واختلاف: نهل المهندس منها الشيء الكثير ممّا كرّس النبأين والتباعد فكرياً

واجتماعيًا بينه وبين آمنة. ولم تأخذ منه آمنة إلا النزر القليل، وهي التي ما فتئت تعيش على الهامش تسترق ما تفتت من شظايا العلم والمعرفة من أسياها فتتال طمأنينة النفس حيناً، وينالها السخط والويل والتبور أحياناً.

لكن يقابل هذا البُعد الأول بُعداً ثانٍ مُباين له، فإذا المعرفة في ذهن كل شخصية - في البُعد الحداثي السردِيّ الروائي - تتأطرّ إذ اكتشفت كل شخصية خفايا الأخرى، فأصبح الظاهر باطناً، وتحوّل الباطن ظاهراً انفتاح كل واحد من الطرفين على الآخر، ولم تكن العقدة (مصرع هنادي) إلا نقطة الارتكاز في هذا التحوّل والتبدّل، وتطوير النسق السردِيّ بما يضمن الوصول إلى النهاية.

وإذا كانت القضية الأولى تحوّلًا من الواقع إلى الحلم، فإنّ القضية الثانية من هذه البنية الصغرى الثانية هي نقيض لها تحاكيه بنية وصياغة على أساس التشبيه: «كَمَا يَغْرُقُ النَّائِمُ فِي نَوْمٍ بَرِيءٍ مِنَ الْأَحْلَامِ» ولكنها تنفصل عنها كما انفصلت آمنة عن سعاد: زماناً، وعلاقات، وفهماً للأشياء وتماهيا مع الأطر الحاقّة، وحياة قطيعة مع الماضي وانفتاحاً على المستقبل.

ينشأ المستقبل لازمة لغوية حدثاً لغوياً في عبارة «أَيُّهَا الطَّائِرُ الْعَزِيزُ» وهذه اللازمة هي في الآن ذاته علامة سردية تحضر متى كان التحوّل في الرواية حوادث كبرى وتغيّرات جذرية في ملامح الشخصية. ومبرّر ذلك أنّ الطائر الكروان يتخذ بُعداً رمزياً يختزل أطوار الرواية الكبرى:

1/ هو الشخصية التي قَصّت نحبها (هنادي) وكانت ضحية الحب المدنس، والزديلة، وأعراف الرّيف حرصاً على العِرض والشرف، بل هي القيمة الأخلاقية التي تكرّسها الرواية وتدافع عنها وتبرزها من وجوه عديدة (كل امرأة أو فتاة في الرواية هي انعكاس لها).

2/ هو صدى المهندس في نفس آمنة تنفّيه وينفيها، ويأبى إلا أن يكون المتحكّم في كلّ مفاسل الرواية ومكوّناتها الأجnasية: شخصيات، وأطرا زمانية ومكانية، وأحداثاً، وأنماط إنشاء فنيّ.

3/ هو صدى نوازع الذات: بين ما يضع بثقله من هموم الحياة عليها، تسعى إلى تجاوزه ولكنه يعاودها يقظة ونوماً، وبين إشراقات الحياة أيضاً حلماً يقظة وبقظة حلماً. وهو ما تمثّله امتدادات البنية الصغرى الأولى من البنية الكبرى الثالثة والأخيرة: «يُلْغِي» انتهاء غاية إلى شخصية، وانتهاء شخصية إلى غاية، هذه الغاية هي القضية الثالثة: «فَيَنْتَزِعُنِي أَنْتِزَاعاً مِنْ هَذَا الصَّمْتِ الْعَمِيقِ» تنتج عنها القضيتان: (4) «فَأَتُبُّ وَجِلَةً مَدْعُورَةً» + (5) «وَيَتُبُّ هُوَ وَجِلًا مَدْعُورًا». وإنّ قيمة هاتين القضيتين ليست في السردية الحديثة وإنما في

السردية الكلامية تجليات أبنية صغرى من مستوى ثانٍ تُبيِّنُ خصائصها ووظائفها في مستوى لاحق من التحليل.

على أن انتقاء السرد لا ينفي الوصف علامات تحول في ملامح الشخصيات تجليها، البنية الصغرى الثانية من خلال قضيتها: تتعدد صيغ أفعال: «لَا تَلْبَثْ» - «يُثَوِّبُ» - «يُرَدُّ»، ولكنها تقول إلى وحدة هي جزء من انسجام الخطاب في بنيته الأفقية ترابطاً خطياً بين القضايا، كما بين الأبنية، فما القضية الثانية إلا ترجيع للأولى هو جزء من صدى صوت الطائر يفتح أفق الانتظار أمام الشخصية، كما يفتح أفق الإضافة للرواية، فإذا نهايتها إيذان باستئناف خطاب جديد: جِدَّة قَدَامَة بما أن بنيته القاعدية ستكون ما إليه انتهى الخطاب القديم.

ثم إن بنية التداعي تكون في اتجاهين:

1/ أفقي على النحو التالي:

خطاب قديم ← خطاب جديد ا ← خطاب جديد اا ← خطاب جديد ااا...

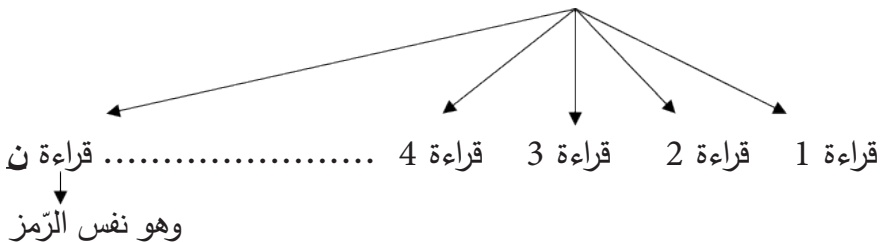
← خطاب جديد ن

«دعاء الكروان»

ن: قرينة دالة على اللانهاية في توسيع دائرة السردية: أشكالاً مضمونية متعدّدة للنوع الواحد وهو الرواية سلسلة تتفصل حلقاتها لتتصل بما أن نهاية كل حلقة هي بداية تاليتها، ومن هنا، فإن قراءة هذه النصوص المتعدّدة ستكون برؤيتين: أولاً قائمة على التشابه تكرر بنية عليا؛ وثانيتها أساسها الاختلاف تنوع مواضيع أو أبنية كبرى تختلف في المحتوى لكنها تتفق في قواعد الانتظام كما في الوظائف (ويستدعي تنوع الأبنية الكبرى اختلاف الأبنية الصغرى: وظائف ودلالات، فإذا هي جدل بين التكرار - وهما - وبين الإضافة - حقيقة وتجليات نصّ منجز -).

2/ عمودي انتشاري على النحو التالي:

خطاب قديم: «دعاء الكروان»



يُعتمد إحالة على اللاتناهي في تناول النصّ تعدّد قراء، واختلاف مناهج ومداخل.

هذا التّداعي في اتّجاه انتشاريّ توكّده البنية الصّغرى الثالثة والأخيرة بما تحنويه من أفعال كلاميّة وأفعال حدثيّة هي سبع قضايا:

أولاهـا: إحساس بحرقة وألم في آن: «فَأَمَّا أَنَا، فَتَنَحَدِرُ عَلَى خَدِّي دَمْعَانِ حَارَّتَانِ»؛

وثانيتهما: تنبّي بانفصال الرّاي عن الشّخصية بالاقتصار في الحديث عنها على الرّؤية من الخارج «وَأَمَّا هُوَ فَيَقُولُ»، نقل فعل مقترن بنقل الصّفة قضيةً ثالثة: «وَقَدْ اعْتَمَدَ بِيَدَيْهِ عَلَى الْمَائِدَةِ»، ولئن كانت هذه القضية تباعد مسافة بين الرّاي والشّخصيّة، فإنّها توسيع دائرة تأويل مسافة بين الشّخصيّة وبين متلقّي الخطاب، فتفهم القضية باستدعاء المقام، وما ترسّخ في الذّهن والذاكرة من علامات سرديّة تتعلّق بالشّخصيّة ومن أحداث أجهدت الشّخصيّة فباتت في حاجة إلى سندٍ أرادته معنويًا لكنّها في سياق الحدث لا تفوز إلّا بالمادّة مائدة جامدة علامة انعدام حركة تحرّكها رؤية ذهنيّة قضيةً رابعةً «دُعَاءُ الْكَرْوَانِ!» تصوغها الشّخصيّة بجعل اللفظة تدلّ على غير معناها «أَتَرَيْنَهُ» قضية خامسة فتكون الرّؤية حسيّة مادّيّة: هو الماضي الذي ولّى سيّرة زمنيّة ولكنّه يتجلّى في مظهرين هما القضيتان: (6) «كَانَ يُرْجِعُ صَوْتَهُ هَذَا التَّرْجِيعَ» + (Z) «...صُرِعَتْ هُنَادِي فِي ذَلِكَ الْفَضَاءِ الْعَرِيزِ!!»

فتتعدّد أصوات الرواية وتتقاطع نقطة التقاء في صوت الكروان: الكروان بما هو علامة سرديّة أرادها طه حسين عنوانًا بنيةً كبرى، ولكنّ اللغة والكلام لا يفصّحان عن الدّلالة والمعنى مواضع صريحة وإنّما يتحقّق مدلولها في لغة الرّمز: 1/ الكروان بما يّشي به لونه الأغبر من تداخل الألوان وميلها إلى القمامة؛ وهو الحدّة في المنقار عُقدة في الأحداث تُؤذي إلى حدّ الإيلام؛ وهو الاسم يدلّ على نقيضه: طائر يقال إنّهُ لا ينام اللّيل وكأنّه سُمّي بضدّه من الكرى أيّ التّعاس، شخصيّة هي بين التّوق والطّوق. 2/ دعاء: قرينة سرديّة لا نقل عن سابقها تجميع دلالات رواية في صيغتيها الخطابيّة والحدثيّة، فهي النّداء رغبة في الشّيء، وهي الإحساس بالحاجة إلى الآخر والرّغبة في الاستعانة به، وهي الدّعوة إلى الأمر تردّدًا بين القدرة والاختيار، والجبر والاضطرار، وهي تسمية الميت نُدبة أو حسرة وإشفاق، وهي رفع الصّوت اهتزازًا في الرّوح والجسد تصدّعا في النّفس، أو هو تردّدًا بين الحقّ والباطل، أو الرّغم والتّمني، أو الإيمان بشيء والسّعي إلى تعزيزه سيرة في الحياة

وتداعيات فكر. أو هي دواعي الدّهر وصروفه وحوادثه، أسبابا وعلا.

هو مدخل معجمي باعتبار المعجم من المرجعيّات التي تنهض عليها الأبنية الصّغرى، ولكنّ الخصوصيّة هي في كفيّة الصياغة: «دُعَاءُ الْكَرْوَانِ»



حدث كلامي يبدو قضيّة جزئيّة في خاتمة مطاف الرواية، ولكنّه في الآن ذاته اختزال لكلّ مكوناتها السّردية، بل إنّ محتوى الرواية - بكلّ ما فيها من توسيع وتمطيط - إنّ هو إلا انتشار صريح لخطاب مجاز هو العنوان، بما يؤكد أنّ البنية السّردية في الرواية قد تتخذ من الجزئيّات والتّفصيل مداخل منهجيّة لكنّها تحيل على هذا التّجانس والتّماسك بين مختلف أبنيتها.

ولئن كان المدخل الأوّل في دراسة سردية هذه الرواية من خلال نصّ مخصوص هو الأبنية الصّغرى في تفرعاتها أفعالا قضويّة، فإنّنا نتخذ أيضا مدخلا ثانيا لا يقلّ أهميّة وهو الروابط من حيث خصائصها ودلالاتها السّردية الروائيّة.

تمثّل الروابط بعض تفرعات الأبنية الصّغرى التي تساهم في دعم مقومات السّردية، ومن الأدوات في النصّ: «لنّ» أداة نفي لإمكان وقوع الحدث بعد أن التّلّفظ: احتمال تصوّغه الشّخصيّة استشرافا للمستقبل تراه بعين اليقين إثباتا وطلبا في أنّ، وتعلن من خلاله الشّخصيّة/ المهندس الإعراض عن الماضي مقابل الإقبال على المستقبل مُتّخذا من «هَذَا الصُّوء» علامة تحوّل في لغة النصّ، ولغة الخطاب ونسق البناء: إنشاء الأبنية، ونماء الشّخصيّة تساقا مع تطوّر الأحداث وتشعب القضايا. لكن بين الموجود والمنشود تقف علامة سردية أخرى هي: «إذا»: شرط ظرف يقلّص نسبة الإمكان حصرا ويجعل إرادة الفرد وفعله رهيني إرادة الآخر وفعله: هو التّناظر والتّلازم في أنّ بين الشّخصيتين، شأنهما شأن الزّمان ودلالته في السّرد: تتعدّد قرائنه بين ماضٍ وحاضر ومستقبل ويُنشأ لغة في خطاب استئناف تجربة يقترن فيها حال الشّخصيّة هيئة بصدور الفعل، فإذا تماسك الأحداث القضويّة لا تضمنه دلالاتها فحسب وإنّما هو التّركيز في الإنشاء السّرديّ على التّماسك في أبعاد ثلاثة هي: الصّيغة المنقاة: لفظا وتركيبا وعبارة؛ الزّمان: أفعالا وأدوات؛ الإحاليّة: ضمائر وأسماء إشارة.

أما الضّمائر فمتنوّعة (أحدنا - صاحبه - تحمليه - وحدك - أحمله - شقّاءنا - بيننا - غرقنا - فيه - صوتك - هو - إلينا - أنا)، وتنوّعها مقترن بثنائيّة الاتّصال والانفصال، كما بثنائيّة المفرد والجمع. والضّمائر -

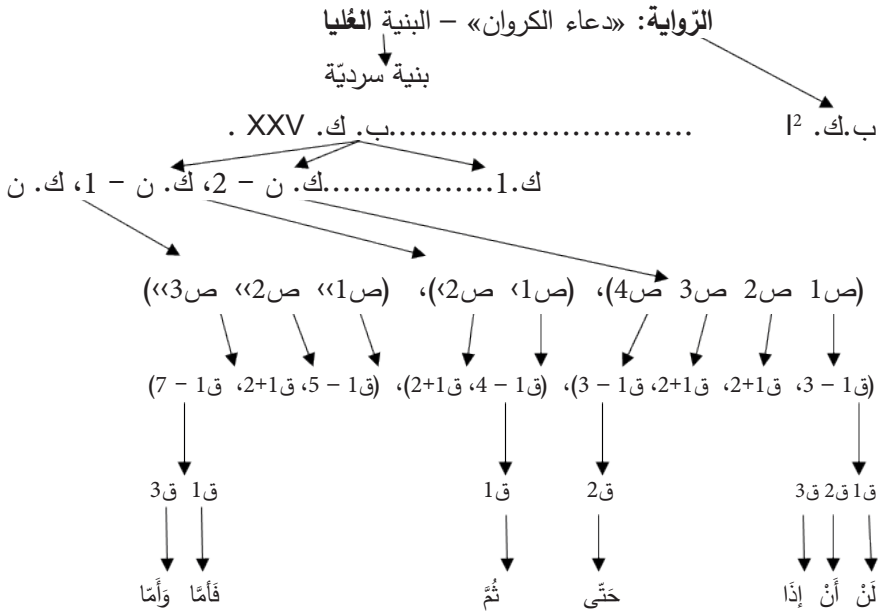
بنية تجزئية في إطار البنية الصغرى الواحدة - ليست مُنبَتة عن البنية الكبرى موضوعاً ودلالة، خاصة من حيث طبيعة العلاقة بين الشخصيتين المحكومة بالزمن وشروطه من ناحية، وبما يدور في ذهن كل منهما من ناحية أخرى: قرينتين توجّهان النّسق السردّي وتحدّدان نهايته إرادة راوٍ/ كاتب لا رغبة متلقٍ وكيفية صياغة النّصّ أخرى من منظوره وفكره وثقافته.

أسماء الإشارة فُخْزِلَ في اسم واحد هو «ذَلِكَ» يدلّ على البعيد. وإنّ بين اللغة علامات، ومواضع الاسم تركيباً، وبنية الرواية سرداً من التماسك ما يجعل الأحداث الكلامية رهينة النّصّ من ناحية، والسّياق من ناحية أخرى: فإذا «هَذَا الضّوء» القرينة التي تقلص ظلال الماضي وتفتح النّظر على المستقبل قُربَ عهد بما ولّى واستعداداً سريعاً لما سيأتي. وإذا «هَذَا الصّمتُ العميق» كناية عن الذّكري يُسَكَّتُ عنها وتكون خطاباً ضمناً مُضمراً في الذّاكرة ليكون الصّريح محاصراً بثلاثة أصوات هي: صوت الكروان؛ وصوت أمانة/ سعاد/ الشخصية/ القناع/ أو هي ترجيع صوت الكروان؛ وصوت المهندس الذي يختزل الأصوات جميعاً خاتمة حديث ورواية.

وإذا «هَذَا التّرجيع» يحلّ في الزّمان المطلق كما في المكان المطلق «ذَلِكَ الفُضاء العريض» حدود ولا حدود تدور بينهما الرواية ومنهما تستمدّ وجودها خطاباً ليس بين الشخصية وذاتها خطاباً باطنياً، وليس بين الشخصية وغيرها من الشخصيات وإنّما هو حوار الشخصية مع الآخر في كلّ زمان ومكان، وما الآخر إلّا قارئ الرواية تحقّق تفاعل يتجاوز التّفاعل بين الأبنية: صغرى وكبرى وعلياً، ليكون التّفاعل بين الخطاب فصاحبه والملتقى.

إنّ تصوّر القارئ لدلالة الخطاب يبقى افتراضياً قد يقارب رؤية صاحبه، وقد ينأى عنها، تردّد بين هذا وذاك يشاكلة يقين الشخصية في قراءة المستقبل استناداً إلى الأداة «أَنْ» اهتداء أو ما يشبهه خروجاً من الظلمة إلى الضّوء، ومن التّوتر إلى الهدوء، ومن التّأزم إلى الانفراج، فإذا النّواة من التّركيب تحيل عليه، وإذا الكلّ رواية يُؤلّف من تتابع جزئياته وتماسكها غاية يريد صاحب النّصّ أن يبلّغها كما تريد الشخصية أن تبلّغها، لكنّ الإرادة الثانية تتردّد في الخطاب في صيغة أو أداة: «حَتَّى يُفْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا» هي بين الإرادة قدرة وعلة وقوع فعل، وبين الحبر وقد تحدّد قضاء انتهاء مرحلة في الأحداث كما في تجربة الشخصية وإيدان باستئناف أخرى قرينتها «ثُمَّ»: أداة تدلّ على ترتيب الأحداث مع التّراخي فواصل زمنية وتمطيطة هو من لوازم الرواية الأجناسيّة تندغم من خلال التّركيب: «فَأَمَّا...فَتَنَحَدِرُ... وَأَمَّا هُوَ فَيَقُولُ...» تفصيل قول وحال، وتبويب حدث وزمان يتحقّق بهما الوضوح والبيان، صلة رواية بعنوان: صوت ودعاء يتردّدان بين اللغة الخطاب واللغة الدّلالة، بين ما أتيح من خلال النّصّ محور الاهتمام على أساس خصائص الأبنية (بجميع

أنواعها - وإن كانت الصغرى منها هي المدخل، وليس في ذلك تعسف بما أن الأبنية الصغرى هي البنية القاعدية الأساسية في الرواية، وفي الخطابات السردية، بل في أي نص - وبين وظائفها ودلالاتها، وإننا ننهي العمل برسم تجريدي هيكلي نلخص به بناء النص وموضعه من الرواية تباعدا من ناحية، اتصالا من ناحية أخرى:



2 أردنا بالرقم الروماني عدد الأبنية الكبرى التي تتفرع إليها البنية العليا/ الرواية، ويوافق هذا العدد ما تحتويه من فصول، وهي خمسة وعشرون فصلا، ولم نعتد في تحليلنا الخطاب إلا الجزء الأخير، وهو ما يوافق الأبنية الثلاث الكبرى الأخيرة، ففرعنا كل بنية كبرى إلى أبنيتها الصغرى حسب عددها، كما فرعنا كل بنية صغرى منها إلى الأحداث القسوية فيها. بقي أننا نشير إلى أمرين:

1/ أن البنية الصغرى يمكن أن تُعتبر بنية كبرى فرعية من مستوى ثالث، وتكون القضايا أبنية صغرى، وتكون الحروف والأسماء والأفعال هي التواتات الدنيا التي تتفرع إليها البنية الصغرى في التمثيل قاعدة - وإن كان من اللسانيين والمنظرين لتحليل الخطاب من يعتبر الحروف المعزولة (والحرف المعزول هو الوحدة الصوتية غير القابلة للتقسيم)، كما المقطع، هما أدنى ما يمكن أن تتجزأ إليه بنية، فيكون كلاهما (الصوت والمقطع) أدنى بنية صغرى ويتعلق هذا خاصة بالمدارس التي طورت لسانيات سوسير - بالإضافة والنقد - ومهدت لدراسة الكلام تحليل خطاب يقوم على «نظام مزدوج يسير جانبا في اتجاهين متوازيين لكنهما يلتقيان، الأول منهما هو المعنى - وهو موضوع علم الدلالة - والثاني هو الشكل - وهو موضوع علم النحو» (إبراهيم خليل: في اللسانيات وعلم النص - دار المسيرة للنشر والتوزيع - ط. 1، عمان - 2007: 32) -

1.3. التّأليف

إنّ القراءة التّجزئية التحليلية، وإن كانت منطلقاتها أسلوبية بحثاً في خصائص الألفاظ والتراكيب وحدات بنوية ومعنوية، فإنّ البحث في طبيعة العلاقات بينها وما يمكن أن تؤدّي إليه من تراكم وتكثيف يحيل على أنّ هذه القراءة هي قاعدة للبحث في انسجام النصّ يتجلى تكراراً وإيقاعاً، وينفتح على تداخل الأجناس ليس فقط النثرية منها بل في علاقة النثر بالشعر جديلاً أو تكاملاً؛ مبحث اتّخذه عبد الله صولة ليبين وحدة نصّ «دعاء الكروان»، رغم ما فيها من تداخل وتعقيد وتشابك³.

وإضافة إلى هذه الغاية الأولى، كان المدخل الأسلوبّي كاشفاً عن شعريّة «دعاء الكروان» من خلال الإيقاع خاصّة، ممّا يحيل على أنّ مرونة الجنس الأدبيّ - وهو الرّوائي في هذا المقام - تسمح بالتفاعل في المستوى الأسلوبّي «ليكون مجالاً لاستجلاء كيفية تعاضد هذه الخصائص على تغطية مساحة النصّ» (صولة، 1980: 171) التي قد تكون الفصل، وقد تعكس علاقته بغيره من الفصول إيداناً بالبداية، أو إحالة على استئناف، أو بناءً على خاصيّة انغلاق؛ وهذا يعني أنّ الأبنية، وإن تمايزت وانفصلت على مستويي اللفظ والمرجع، فإنّها تُدمج في إطار بنية الحدث أو مقومات الجنس تتردد بين الانتظام والانفتاح، وبين الصّوت والصّدى في الصّورة تعكسها الشّخصيّة خاصّة (على أساس التناظر بين آمنة والكروان) وفي الرّمز يخترق السرد ووظيفة الرّأوي.

إنّ انسجام الخطاب السردّي في «دعاء الكروان» هو جُماع مقومات عديدة تبدأ بالعلاقات بين القضايا والجُمَل لتتوزّع بين اللفظ والمعنى من خلال الأبنية الكبرى، وكلّها تمثّل شبكة من العلاقات نشأت تصوّراً معرفياً لدى الكاتب، وتجلّت إمكانيّة من إمكانيات تعريف الواقع من وجهة نظر النّاقّد يتّخذ من الأبنية اللّغويّة سبيلاً لإنشاء عالمين متوازيين: عالم التّعرف إلى الأشياء

وليس الأمر بغريب، ولكنّ تطبيق مثل هذا التّوجّه في تحليل الخطاب يكون أنجع مع النّصوص الشّعريّة التي تكتسب خصوصياتها ودلالاتها من كلّ الجزئيات التي تكونها إيقاعاً وبناءً ودلالة.

2/ إنّنا، مع نصّنا، لم نذكر كلّ الجزئيات والتفاصيل، وهو الأمر ذاته في التمثيل، وإنّما اقتصرنا على عناصر رأينا أنّها تُبيّن كيف تتماسك الأبنية الصّغرى فيما بينها، وكيف يؤدّي ذلك إلى ترابطها بالأبنية الكبرى بما يُفضي إلى أعلى نقطة في الرواية بناءً هرمياً وهي البنية الغليظة: أجناسيّة خطاب لا تتحقّق إلّا بالنظر إلى الخطاب صلةً بين البناء تركيباً، والدلالة معنى، والمقام مرجعاً.

3 انظر: عبد الله صولة، خصائص أسلوب طه حسين من خلال «دعاء الكروان» (ش. ك. ف. بإشراف عبد السلام المسدي)، 1979 - 1980.

من منظور مختلف من وجهة نظر الشخصية (آمنة/ سعاد)، وعالم الجنس الأدبيّ الروائيّ يتوزّع بين منطق المنوال والمقولة، وبين شحنها برؤى معرفيّة من وجهة نظر الكاتب/ النّاقّد، لذلك «فنحن نحتاج تصوّر النّصّ لنفسه تعقّد تنسيق الجمل (موضوع لسانيات النّصّ أو ما يسمّيه البعض أيضًا بـ «نحو النّصّ») ومن ناحية أخرى، اعتبار عدم إمكانيّة اختزال كلّ وحدة من الملفوظ - النّصّ (الوحدات التي نتّخذها معايير انسجام واستدلال في تحليل الخطاب السردّي). ونحتاج أيضًا، تصوّر الخطاب لنتبيّن علاقة النّصّ بما يوجّه إنتاجه وتأويله، ونتساءل عن مدى اندراجه ضمن التّطبيقات الخطابية المنظّمة اجتماعيًا وتاريخيًا، بأجناس الخطاب» (Adam، 2005: 13) فإذا الدّالة لا تستقيم إلّا رمزًا، وإذا الانسجام في الخطاب لا يتحقّق في ما استقرّ من الجنس، ولكن في ما يمكن أن ينشأ من التّأليف بين مختلف الأبنية من «تعقيد يبدو كتمشّ يبحث في عوالم الخطاب الصّغرى التي تُنتجها، وتتجلّى في المناسبة، والرّبط أو في استقلاليّة أصناف دلاليّة كثيرة، وهي التي تُبرز التّناظر بين الأبنية العميقة وتجلياتها على مستوى السّطح» (Greimas، 1976: 23) في إطار التّفاعل والانسجام في سرديّة الخطاب بين اللفظ والمعنى، يتحقّقان في نسيج النّصّ، لكن قد يتعارضان على مستوى علاقة العقل والمنطق بالحدث والوجدان ثنائيّة رفض ونقد من قبل الكاتب، وقراءة وتأويل من قبل المتلقّي.

2. النصّ الثّاني

دراسة رواية «الوجوه البيضاء» لإلياس خوري⁴ في
مستويين: أول: كلّ شموليّ؛ وثان: تجزييّ يتعلّق بفصل
مخصوص: الخامس من الرواية: «التّحقيق»:

انسجام الخطاب وتجليّاته في البذاء والأصداء: بين الأصول في المرجع
والفروع في الصورة؛ وفي الجنس الأدبيّ: بين السّنة والعُدول.

2. 1. التّحليل

« كلّ سيّئة أو ضرر وكلّ نقص جديد، تنتج عنه متتالية جديدة. وقد تتضمّن قصّة ما
متتاليات كثيرة، وعندما نحلّ نصّا ما، يجب قبل كلّ شيء، أن نحدّد من كمّ
متتالية يتركّب. ويمكن أن تتبع متتالية مباشرة، متتالية أخرى، لكن يمكن
كذلك أن تتداخل، وذلك عندما يتوقّف تأليف ما بدئ فيه ليترك المجال
لمتتالية أخرى تتداخل معه. وليس من السّهل دائما أن نُفرد متتالية ما لكن
قد يكون ذلك ممكنا دائما وبكامل الدقّة».

(Propp, Morphologie du conte : 113 - 112)

4 إلياس خوري: هو قاصّ وروائيّ وناقد وكاتب مسرحيّ لبنانيّ؛ وُلد في العاصمة بيروت
عام 1948، كتّب عشر روايات تُرجمت إلى العديد اللّغات، وثلاث مسرحيّات، وله العديد
من الكتابات النّقديّة، عاش الحرب الأهليّة اللبنانيّة كمواطن وكاتب، تتالت رواياته مؤرّخة
للواقع بجميع أطرافه وممكناته الإنسانيّة والتّخييليّة.
«الوجوه البيضاء» رواية نُشرت عام 1981.

2. 1. 1. المستوى الأول: الدراسة الكلية الشمولية

توحي القراءة الأولى للنص الأكبر بتشظييه وانفراطه وتداخل مكوناته حتى لا معنى، إلا أن ذلك لا يزيد القارئ إلا حرصا على البحث في أسرار البناء، وما به كان النص، بمختلف سماته وعلاماته، وهو ما افترض قراءة متأنية رُمنا من خلالها تتبّع نسيج النص فبناء الخطاب عسى أن تنتهي إلى الخصوصية أو التناظر إما بين النوع والآخر في إطار الجنس الواحد، أو بما يحيل على التقاطع دون القطيعة بين الجنس والجنس.

وما أوحى به القراءة الأولى أن هناك علامات لغوية بنائية بالأساس تسم النص بتكرار يبدو مُملاً مُضجراً في البداية، إلا أن الحرص على التأليف بين التركيب النحوي ودلالته، كما بين المعجم والمرجعيات والمقامات يقيم معادلة أخرى من حيث التناول والبحث والدّرس، وهو ما نسعى إلى السير على نهجه عسى أن نفوز بمنواله في علاقة الأبنية ببعضها في الاتجاهين الأفقي أو العمودي، كما في العلاقات في تجلياتها التراتبية شبكات يلتقي فيها ومعها المبنى بالمعنى، كما الأصل بالفرع، ونسج يقوم بالأساس على التكرار، وهو في خدمة البناء اللغوي وإنتاج الدلالة المختلفة باختلاف ترتيب الألفاظ داخل النسق الكلامي؛ فتتويع التكرار، أو تغيير مواقع الوحدات المتكررة بالنسبة إلى بعضها، هو الذي يمنح اللغة قدرتها على أن تكون مكافئة للوجود، على اعتبار أن اللغة متشكلة من أصوات تتكرر بطرق مختلفة، لغة حوارية، تقوم على التعدد، تنير إحداها الأخرى، وتعود إلى نظم مختلفة متقاطعة.

والسرد هو الأقدر على تمثّل وظائف التكرار ومزاياه التي تجعل اللغة لغة، عبر اعتماد نفس طرائق التنوع في استعمال الوحدات المتكررة، وتغيير طرائق ترتيبها في بناء الملفوظات والأنساق الكلامية على حدّ سواء. (صالح، 2003: 9) ولعل الأمر أيضا غير ما قد يشي به التنظير، إذ يكون في التطبيق التمرّد والعدول بما يُنشئ الحيرة دون الاطمئنان وطرح التساؤلات دون الفوز الفعلي بإجابات مقنعة لها؛ على أن الأمر أيضا، لا يقف عند طرح الإشكاليات وإنما بالبحث في سبل تجاوزها؛ ومن المداخل التي نسعى إلى اعتمادها في ذلك، البحث في بنية الرواية محور الاهتمام بما قد يساعد عليه من إمطة اللثام عن جملة من الخصائص في تحليل الخطاب السردية منهاجاً ونتائج تتراوح بين الخصوصية في النص وبين الشمولية في البنية والجنس.

2. 1. 1. 1. بنية الرواية: العلامات الدالة على الانسجام

فيها

البنية العليا الأولى: الرواية: الخطاب الأجناسي؛ قصة يكون فيها ومن

خلالها الكاتب هو الوساطة بين القارئ و«الحقيقة» التي يصوغها خطاباً مجازاً تأويله موزع بين طرفين: الكاتب من خلال الصياغة، والقارئ من خلال إعادتها. (Bourneuf & Ouellet, 1975: 24) ومن مقومات الرواية:

- الأحداث وتطورها عبر زمنٍ ما يسير وفق نسقين: أحدهما يرتبط بالخبر، والآخر بالخطاب؛

- ترتيب الأحداث وفق نسق يؤدي ضرورةً إلى الغاية أو النهاية المرسوم لها، النسق الذي لا يرتبط بجملٍ وإنما بمتتالياتٍ سردية: أحداثٍ أو أبنية كبرى (Eco, 1985: 50)؛

- توفّر وحدة موضوعية - حتى وإن تعددت وتفرّعت وتشعبت في سائر مراحل السرد. والغالب أن تكون هذه الوحدة شخصيةً محوريةً تتجلى ملامحها إما من خلال ذاتها، أو من خلال سائر الشخصيات (الرئيسية منها والثانوية وحتى الهامشية) (Adam, 1997: 46 - 49).

- الصورة الشعرية ليس لها إلا قيمة ثانوية بالنسبة إلى الرواية.

ويتوفّر بناء الرواية العام على جملة من:

- **العتبات:** الأولى: البنية العليا الثانية: عنوان الرواية: «الوجوه البيضاء»: تركيب يتردد بين التعريف لغة والتذكير معنى، وهو المعنى المتجاذب أيضاً بين دلالة أولى واضحة تستمد مرجعيتها من المعجم، وثانية خفية تستند إلى البلاغة بين الاستعارة والكناية بما تتطلبانه من منهج استدلالٍ لا يجد شرعيته إلا من خلال الرواية المتن بحثاً عن أسباب اختيار هذا العنوان، وهو «يحمل وظيفة عضوية وتمهيدية، إذ يُعدّ عتبةً يتم عن طريقها الولوج إلى عوالم النص، وعنصرًا مساعدًا في تفجير سيرورة الانفتاح التأويلي. ومن جهةٍ أخرى، يتداخل مع النصّ تداخلاً جدلياً، لأنه يساعد على فهم النصّ من حيث يساعده

5 العتبات هي مواثيق قراءة وكتابة تتعدّد خصائصها وتنوّع وظائفها حسب طبيعتها هي في ذاتها، وارتباطاً بسياق تأليفها، وهي نصوص موازية ثابتة للمثنى يسير على هديها الكاتب اقتباساً ونشراً وتحقيق مقصديات كتابة «بناءً على استجماع المؤشرات النصّية بما يعينه ذلك من رسمٍ مُسبقٍ لحدود التأويل ومسار التبليغ». (اسمهر، 2008: 53)؛ وللتوسّع في هذا انظر:

1) Gérard Genette : *Seuils*, Éditions du Seuil, collection Poétique, Paris, 1987.

2) عبد الرزاق بلال: «مدخل إلى عتبات النصّ: دراسة في مقدّمات النقد العربي القديم»، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب - بيروت - لبنان، ط 1، 2000؛

3) الهاشم اسمهر: «عتبات المحكي القصير في التراث العربي والإسلامي الأخبار والكرامات والطرف»، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت - لبنان، ط 1، 2008.

هذا النَّصَّ على فهم ذاته» (بن بوعزيز، 2008، 150) خاصة إذا كان قائماً على كثافة دلالية غائمة قد توجه فهم النص وتأويله.

الثانية: البنية العليا الثالثة: قوله الأبشيهي (ت. 854 هـ):

يقول إبراهيم صالح محقق كتاب: «المُسْتَطَرَف في كلِّ فن مستطرف»، مصدر القول، في المقدمة: «ليس للأبشيهي في هذا الكتاب من فضيلة سوى الجمع وحسن الترتيب، فقد ذُكر في مقدمته أنه اعتمد على كتابين لا ثالث لهما، هما «ربيع الأبرار» للزمخشري (ت. 538 هـ) و«العقد الفريد» لابن عبد ربّه (ت. 328 هـ)؛ ولقد تبين أثناء التحقيق أنه اعتمد على «ربيع الأبرار» اعتماداً شبه كلي، في الوقت الذي لم ينقل عن «العقد الفريد» إلا صفحات قلائل معدودات، وأغفل عن عمدٍ، ذكر «التذكرة المحمودية»⁶ ويأتي في الأهمية عنده بعد «ربيع الأبرار» مباشرة، وكذا تعمّد إغفال ذكر «المحب والمحبوب» للسري الرفاء (ت. 366 هـ)؛ وكان في أحيان قليلة ينصّ على ذكر «سراج الملوك» للطروشّي (ت. 520 هـ) في الوقت الذي كان ينقل منه بالحرف فصلاً كاملاً مطوّلاً؛ وكذا اختصر الباب المتعلق بالحيوان عن «حياة الحيوان» للدميري (ت. 808 هـ) دون أن يُنبّه على ذلك، وكذا «عجائب المخلوقات» للقرويني (ت. 682 هـ) (المستطرف، مقدّمة التحقيق، 10-9).

ومما جاء في الكتاب ويروى في [سراج الملوك (1، 69)] في الإسرائيليات: أنّ عيسى عليه الصّلاة والسّلام بيّنا هو في سياحته، إذ مرّ بجمجمة نخرة، فسأل الله أن تتكلّم، فأنطقها الله له، فقالت: يا نبيّ الله، أنا بلوان بن حفص ملك اليمن، عشّت ألف سنة، ورزقت ألف ولد، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، وفتحت ألف مدينة، فما كان كلُّ ذلك إلا كحلم النائم، فمن سمع قصّتي فلا يغترّ بالدنيا. فبكى عيسى عليه الصّلاة والسّلام بكاءً شديداً حتّى غشي عليه» (المجلد 11، 361 [الباب الثالث والثمانون (83)]: في ذكر الدنيا وأحوالها وتقلّبها بأهلها، والزهد فيها).

هذا هو محتوى القول في صلتها بخصائص كتاب «المستطرف» مراجع ومنهج تأليف بصفة عامّة؛ وقد تعمّدت نقل ما يتعلّق بخصوصيات كتاب المستطرف ككلّ وما يتعلّق بالقولة محور الاهتمام لسببين اثنين هما :

○ التناص الذي يقيم بنية الرواية (بمفهوميهما الشفوي والأجناسي) فينفي حدود الزمن، إذ يكون النصّ اختزالاً للذاكرة، وحفظاً

6 «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» لأبي عبد الله محمد بن فرج الأنصاري القرطبي (ت. 718 هـ).

لها وإثراء وإعادة صياغة دون أن ينفي كل ذلك خصوصية الأصول، أو أن يجعلها تطفو على سطح النص فتطمس ملامحه؛

○ هذه القولة/ العتبة وهي اختزال للرواية/ الجنس/ النص في تكثيف المعنى وإيلاء الأهمية للغة الإحياء والرمز.

وتحليل قولة الأبشيهي على جملة من الخصائص هي - في الآن ذاته - مبررات اعتمادها واعتبارها إحدى عتبات الرواية وتتمثل في:

- الجمع بين الحقيقة والخيال؛
- علاقة الإنسان بالزمان، إذ يرغب في امتلاكه وتجاوزه والانتصار عليه، فيعجز دون ذلك، حياة عبث وسعي توقفت: «فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم» (7)؛
- الزمن في قرائنه المحدودة ودلالاته المطلقة، إذ تكون تجلياته أصداءً متكررة - وإن بصيغ مختلفة -؛
- الحدث: بين عبور الزمن واتخاذ العبرة قيمة يستخلصها المرء، فتكون منطلق رؤية للحياة والأدب؛
- توفر جملة من المقومات اللغوية المعنوية الدلالية التي اكتنزت العبرة وهذه المقومات هي: الحياة والموت، المدينة (في صيغتي الأفراد والجمع)، المجاهدة والمكابرة فالتهاوي، الموت بين الإرادة واللاإرادة، العقيدة والاعتقاد: المجالات والتجليات، معاني يكتنفها الغموض ولا تقي البنية العليا برفع اللبس عنها حتى تتوسع دائرة المعنى، ولا يتم ذلك إلا ببيان طبيعة العقد بين الكاتب صاحب الرواية المتقنع، والمتلقي الذي يبحث في النص (بمختلف عتباته)، حتى يسقط القناع فيبرز الوجه.

والسّياحة أو رحلة البحث تنطلق من الشخصية في الحدث، لتتوسع دائرتها حتى تبلغ المتلقي - في صيغة الجمع - «وهي ليست قصة، كما سيلاحظ القارئ الرّصين، وأنا أعلم أنها قد لا تُثير انتباه أحد» (11)، لكن مع إعلان الإثارة دفع إلى البحث عنها فيما سيأتي من مراحل القراءة والبحث والتأويل في مستويات عدة منها:

الثالثة: التمهيد/ المدخل؛

الرابعة: الفصل: ترقيمه وعنوانه.

وهي جميعاً مشتركة بين الفصول السبعة⁷.

■ **مدخل: البنية العليا الرابعة:** علامة لغوية دالة على جزء من كل؛ وهو ما لا يطرح الإشكالية من حيث التركيز على مضمون أو مضامين الخطاب أبنية كبرى بقدر ما يحيل على انفصال الراوي/ الشخصية عن الاندراج في الحدث، ليكون الراوي/ الكاتب/ الناقد الأدبي هو الذي يبحث عن أصول الجنس، وعمّا يكون به الخطاب محدود الهوية محدّد القرائن الأجناسية، حيرة تتجلى في: **الرواية:** بين أصولها الشفوية، وبين أن تكون جنساً أدبياً لا يستمدّ شرعيته من القديم العربيّ فحسب، وإنّما من الحديث الغربيّ، ويظهر أيضاً في: **القصة:** بين أن تكون أو لا تكون، وتتجلى في: **«الوثائق والمعلومات»** التي لا تبحث في الجنس، وإنّما تنصهر في العدد، بما يحيل على أن إشكالية خليل أحمد جابر ليست إلا خبراً يمكن أن توجد له أشباه ونظائر فـ «ربّما استطاعت الوثائق والمعلومات التي جمعها أن تشكّل مدخلاً لفهم حالة السيّد خليل أحمد جابر، والحالات الكثيرة المشابهة التي نجد أنفسنا عاجزين عن فهم دوافعها، وعن تقدير سبب انتشارها بهذا الشكل» (13). هذه الأشباه والنظائر قد تتجلى في الفصول المختلفة من خلال الشخصيات وهو ما نهتمّ به في المرحلة الثانية من تتبع مسار «الرواية» بحثاً في أبنيتها وانسجامها: المدى والحدود.

■ **الجوهر: المتن — الفصول: 1 — 6:**

البنية العليا الخامسة: قائمة على مستويات ثلاثة: عتبة أولى: جزؤها الأول يوحى بأجناسية الخطاب الجامع: رواية - بمفهومها الحديث - : «الفصل الأول» تجزئة تقترن بثنائية استقلال هذه البنية العليا، مع ما توحى به من استدعاء اللاحق على أساس التتابع والتلاحق والدّاعي، وترقيم يستدعي السؤال وهو: وفق أيّ منطق تمّ ترتيب الفصول: هل على أساس الخطية في وقوع الأحداث، أم أنّ هناك مبرراً أو مبررات أخرى لهذا الانتظام؛ أم أنّه مجرد تنظيم شكليّ كان يمكن أن يكون قائماً على غيره فلا فوضى؟

7 يحدّد جنيت ما سمّاه بعتبات النّشر (وهي عتبات محايثة) في الشكل الطباعيّ (أو القطع) والسلسلة والغلاف وملحقاته والصفحة الأولى (صفحة العنوان) والتركيب الطباعي والسحب، وهي لا تخلو من دلالات ووظائف من حيث الحجم واللون والأبعاد التجارية والتداولية، بالنظر إلى علاقتها بموضوع الكتاب وقيّمته المعرفية والفئات المستهدفة والوضع الاعتباري للكاتب. (Genette، 1987: 20 - 37)

على أن هذا الجزء الأول هو مُبَدَّل منه لبدل هو نفسه قائمٌ على علاقة بدليّة⁸ بين: «الملاك» فاعليّة في زمن محدود ينتهي حيث يبدأ لاحقه صيغة مُبالغة «الشهيد» تستمرّ باستمرار الزمان مجازًا، وكناية عن مسكوت عنه إمّا لشهرته بحيث يصبح من فضلة القول الحديث عنه، أو هي العلامة الدالّة على التعميم دون التخصيص، وعلى الصّفة دون الموصوف، أو على الشّيء يُبَدَّل بغيره؟

عتبة ثانية: جاءت

بين معوقين؛

من الفصل.

البنية العليا السادسة: قائمة على مستويات ثلاثة: عتبة أولى: تُدَكِّرُ بالبنية العليا التي تسبقها من ناحيتين: أولاهما التّرقيم تبعيّةً لسابق وإيحاء بلاحق: «الفصل الثّاني» مرحلة أخرى من مراحل السّرد؛ وثانيتها: البذل: «أجساد مثقوبة» وضوح يُجلي ما جاء خطاب تعمية و«لاوعي» وفق ما ذكرته «السّيّدة نهى» زوجة خليل أحمد جابر وهي تراقب تصرفاته بحيرة وتساؤل، فلا تجد لهما تفسيرًا مُقنعًا، فإذا خليل أحمد جابر هو محرّك الحدث كما الحديث توجيهًا له وتوسعة وهو القادح لانتشار العلامة اللّغويّة بإخراجها من دائرة الرّمز إلى أطر الواقع؛

عتبة ثانية:

جاءت بين معوقين؛

من الفصل.

البنية العليا السّابعة: قائمة على مستويات ثلاثة: عتبة أولى: «الفصل الثّالث: الحيطان البيضاء»؛

عتبة ثانية:

جاءت بين معوقين: تعريفًا بالشّخصيّة محور الحدث والحديث في هذا الفصل – وإن كان الخيط النّاطم بين مختلف الفصول هو خليل أحمد جابر فـ: «قد أُخذت فاطمة (فخرو)، بعد اكتشاف جثة السيّد خليل أحمد جابر، عدّة مرّات

8 لمزيد التّوسّع في تعريف البذل وخصائصه ومعانيه، انظر مثلاً: لسان العرب، 1: 176 – 177؛ عباس حسن، النّحو الوافي، 111: 663 – 688؛ صولة، 2007: 258 – 259.

إلى التحقيق، واعترفت في النهاية بعلاقتها بالمغدور، لكنها نفّت أن تكون لها أية علاقة بمقتله. واقتنع الأخوة المسؤولون في مكتب الحيّ ببراءتها، نتيجة عدم توفر أي دليل ملموس ضدها، ونتيجة رغبتها الصادقة في التعاون» (75)

متن الفصل.

البنية العليا الثامنة: قائمة على مستويين: عتبة أولى: «الفصل الرابع: الكلب قرينة ترددت أصداؤها في أكثر من مستوى عبر الفصول في وصف الشخصيات، وصف يتأصل في اللغة العامية وفي الخطاب الجمعي الشعبي منه خاصة، إلا أنه لا ينقطع عن أبعاد رمزية إيحائية تكون في متن الفصل كما في عتبه؛

خاصية طباعية:

يتوزع الفصل، من خلالها ومن خلال الترقيم أيضا، إلى ثلاثة فروع هي أبنية كبرى في إطار هذه البنية العليا الثامنة: الفرع الأول: يبدأ الحدث عاديًا مألوفًا مخصوصًا إذ يتعلق بشخصية أخرى من شخصيات الرواية تتضاف بملامح جديدة لكن تستمد مقوماتها من السائد أحداثًا وشخصيات، كما خطابًا لغويًا أساسه تكرار نفس المعاجم والمرجعيات. لكن النهاية تتجاوزه لتربط الفصل بل الجزء منه بالشخصية المحورية: خليل أحمد جابر؛ والخطاب يسكت عن التصريح إلا أن القرائن المتكررة تحيل عليه وترفع اللبس عنه والغموض.

لقد وازى الكاتب في هذه البنية الكبرى الأولى من الفصل الرابع بين بدايتين ونهايتين، والبداية الأصلية كانت بانطلاق الشاحنة البلدية لنقل الفضلات ونهايتها الأصلية الطبيعية كانت بوصول الشاحنة «إلى الشويفات. المحرك يهدر، النفايات تنقلب فوق تلال النفايات. والشاحنة تمضي» (151)؛ ولكن الاستثنائي لم يكن فيما هو أصلي، وإنما فيما تم تضمينه من حكايات وأقاصيص توسع دائرة السرد، ليكون آخرها الكشف عما كان مجهولًا حول «قصة خليل أحمد جابر»، فإذا بناء هذه البنية الكبرى الأولى هو على النحو التالي:

بين زين علول وزملائه في العمل

بين زين علول وجاره

بين زين علول والطبيب والممرضة

بين زين علول وأمه وزوجته

= بين هذه الأطراف الثلاثة والمدينة والقرية/ النبعة

العودة إلى بين زين علول وزملائه في العمل

بين الجماعة، والذين يمارسون الرياضة الجماعية/ جميل ابن محمد السقا؛ الفتاة التي «تلبس بنطلونا أزرق⁹، شقراء الشعر وبضياء» (131)

↓
بينها ومحمد الخروبي، وردة فعل الشباب.

بين زين علول والجماعة في دكان أبي خليل

= علي شعيب: الذي قتل الأمريكي جون كرونرد ماكسويل

⇔ «يبدأ زين علول في رواية القصص عن علي شعيب وعن السلاح، ويجاوب على أسئلة الجميع، كأنه يعرف كل شيء» (134)

← علي شعيب «يقيم علاقات مع الفدائيين، وأنه رئيس تنظيم مسلح» (134)

قصته مع رجال البوليس/ الضابط - الملازم أول: نجيم.

العودة إلى العمل: شغف زين علول به والتبرم منه في آن؛

حكايته مع محمد الخروبي (أحد العمال الجدد)؛

حكاية زواجه بابنة عمه: حسنية؛

«زين يتقدم فيرى الجثة. رجلٌ ينام على ظهره، صدره عارٍ تمامًا، آثار حروق على يديه، والجسد كأنه منقوب بالرصاص» (148) = زين علول مع رجال الشرطة مُجدداً - في الإخبار عن الجثة: جريمة القتل

(الحارس - الرقيب أول حسن فخر الدين).

الفرع الثاني: لئن تميّزت البنية الكبرى الأولى بالتداخل في البناء والسرد من حيث القطع والمواصلة والارتداد إلى الماضي والرجوع إلى «الحاضر»، حاضر الحدث وواقع الشخصية: زين علول¹⁰، فإن هذه البنية الكبرى الثانية - رغم أنها لم تخلُ من تضمين - فالقصص الفرعية فيها قائمة على التتابع: تنتهي قصة لتستأنف أخرى: مروان بيطار: «جراح، عمل فترة طويلة رئيساً لقسم الجراحة في المستشفى الألماني في بيروت، هو الآن في الخامسة

9 الأزرق: هو الفراغ وقد تجمع وتكتف - يقترن بالأشياء، فينفي مدلولاتها اندراجاً في التجريد، نوياً عن التجسيد؛ وفي اللاوعي والحلم، ابتعاداً عن الوعي والواقع - وهو أيضا قرين الحقيقة والموت والآلهة؛ وقرين الجفاف والجوع والنار المقدسة. (Chevalier & Gheebrant، 1982: 128-132)

10 ذلك أن هنالك بيتين كبيرين تسيران متوازيتين هما: قصة زين علول، وحكاية خليل أحمد جابر - وإن كانت أولاهما في خدمة ثانيتهما: خبراً وخطاباً - وفي طيات كليهما تتوزع أبنية كبرى فرعية تخدم بصفة مباشرة قصة زين علول، وبصفة غير مباشرة حكاية خليل أحمد جابر، بما أن الجزئيات والتفاصيل الإخبارية كما السردية إنما تمثل تجليات بحث في الخبر، ومستويات تجريب في الرواية من الناحية الأجنبية.

والسنتين من العمر، توقّف عن إجراء العمليات الجراحية عام 1973 لأنّ يديه ترتجفان، وأصبح طبيباً شرعياً» (151 - 152)

= ابنه غسان: أصبح طبيباً للأمراض النسائية؛

الدكتور سليم إدريس: تلميذ الجراح مروان بيطار؛

زوجته وصديقتها إحسان (زوجة المهندس صالح أبو شقرا).

إذا كان السرد في مستوياته الخمسة الأولى يوحي بتشتت المواضيع والّا علاقة منطقية تؤلف بينها جميعاً والمستوى السادس والأخير من هذه البنية الكبرى الثانية، المستوى المتعلّق باستدعاء «الدكتور مروان بيطار» لتشريح جثة خليل أحمد جابر، فإنّ التأمّل في خصائصها الجزئية يحيل على أنّ العمل اللغويّ المتحكّم في البناء الموجّه لتناميه الضامن لانسجامه - رغم ما قد توحى به من انفراط - هو الوصول إلى الحقيقة التزاماً بالمعايير والأخلاق والضوابط، وتحتلّ جميعاً في شخصيّة مروان بيطار، والأطباء الذين يُناظرونه في المهنة دون شرفها، وتضع الحقيقة في التجربة، ويضمحلّ اليقين في البحث عن المعرفة؛ وهو ما يمثل جوهر هذه البنية الكبرى الثانية ومحورها.

الفرع الثالث: تمثّل البنية الكبرى الثالثة من هذا الفصل الرابع الكشف بعد الخفاء والتجليّ بعد الغموض في إطار التقرير الذي حرّره «الطبيب الشرعيّ، الدكتور مروان بيطار»، رغبة في محاصرة الحقيقة التي كانت القصص الفرعية مرايا لإخفائها وتجاوزها وتجاهلها، فإذا النشُر هو العمل اللغويّ الموازي لمضمونه.

ولئن غيّبت الصبغة السردية التخيلية أمام غلبة الصبغة الإخبارية التقريرية، فإنّها تبقى النواة والنتيجة لسببها، باعتبار الحياة هي المؤلّدة للفنّ.

البنية العليا التاسعة: قائمة على أربعة مستويات - وإنّ كانت العتبة الثانية مُضمّنة في البنية الكبرى الأولى من هذه البنية العليا التاسعة - : عتبة أولى: «الفصل الخامس التحقيق».

إنّ نظرة عامّة وربط الرواية الجنس¹¹ بالقصة الإطار الكبرى: قصة خليل أحمد جابر، يجعل البنية خطيّة في بنائها ارتباطاً بعنصر الزمن، وبمنطلق الأحداث؛ فبعد اكتشاف الجثة وتشريحها والتعرّف إلى بعض ملابسات الجريمة يكون «التحقيق» مرحلة يحاول معها رجال الشرطة الكشف عن «الحقيقة»،

11 على أساس أننا نربط الرواية الخطاب في النصّ محور الاهتمام: «الوجه البيناء» بصيغة المُشافهة فيها باعتبارها الأصل الذي اعتمده المؤلف قبل أن يكون النصّ مكتوباً من قبل الكاتب وفق خصائص فنيّة أدبيّة ثوابتها المعجم والنحو في تأسيس المعنى وربّما الدلالة.

إلا أن القراءة التحليلية التجزئية تجعل الخطاب لا يتوافق والأحداث التي لن اتخذت اتجاهًا خطيًا واحدًا أساسه التّقدّم والنّموّ، فإنّ للخطاب اتجاهات ثلاثة تتداخل وتتشابك وتلتقي لتتفرّق، وهذه الاتجاهات خطيّة من ناحية، استرجاعيّة في أغلب الأحيان من ناحية أخرى. وإنّ المتصرّف في الاتجاهات جميعًا ليس الرّاوي الأوّل بمفرده، وإنّما ينازعه في ذلك الكاتب كما الشخصيات على تعدّدها واختلافها؛ وهذا يفضي إلى النّظر في «الفصل الخامس: التّحقيق» من جانبين اثنين: أوّلًا باعتباره جزءًا من كلّ، وثانيًا باعتباره بنية لها وجودها المستقلّ الذي تمهّد له: العتبة الثّانية: ما جاء بين معقوفين (161)؛

مثن الفصل

الذي احتوى أيضًا العتبة الثّانية في إطار بنيته الكبرى الأولى:

1. في هذه البنية الكبرى الأولى لم يكن خليل أحمد جابر إلا جزءًا من شواغل عديدة تزدحم في ذهن الشّخصيّة الرئيسيّة (فهد بدر الدين) وذكرته. ولئن كان التّحقيق هاجس شخصيات أخرى وخاصّة «النّقيب سمير عمرو»، فإنّ البحث عن الحقيقة هو همّ الشّخصيّة الرئيسيّة، الحقيقة التي لا تتعلّق فعليًا بخليل أحمد جابر، لأنّه بالنّسبة إلى فهد بدر الدين هو مجرد نقاط استفهام ولا معنى، لأنّ المعنى بالنّسبة إليه هو ما سيأتي وليس ما انقضى، وهو المُنتظر وليس المنظور؛ فإذا كانت هيكله هذه البنية الأولى تقوم على الدّائريّة عودًا على بدءٍ من حيث استقرار فهد بدر الدين في المكتب، فإنّ الموضوع يدلّ على عدم استقرار توقّف إلى النّهاية «التي لا وجود لها» (200)؛ ولكنّها مع ذلك تُقرأ على وجوه متعدّدة تثبت انسجام الرّواية وتماسك مكوّناتها:

الوجه الأوّل: استشراف نهاية التّحقيق مع وفي قضيّة خليل أحمد جابر الذي لن ينتهي؛

الوجه الثّاني: نهاية المأساة تتمركز في ذات خليل أحمد جابر وشُيْع على كلّ شخصيات «الرّواية» بل على كلّ من آمن بـ «القضيّة» والمقاومة دون أن ينتهي إلى الحلّ الجذريّ؛

الوجه الثّالث: النّهاية لا وجود لها بالنّسبة إلى فهد بدر الدين/ الرّاوي/ الكاتب، بما أنّ الرّواية «الوجوه البيضاء» قائمة على التّضمين بما يُفسّح المجال إلى ما لا نهاية له من القصص تتعدّد وتختلف وتأتلف في الأصداء والمرايا ومنها البنية الكبرى الثّانية:

2. وَتَجَلَّى عنوان الفصل يتم في هذه البنية في توحُّدٍ على مستوى اللفظ «التَّحْقِيق»، واختلاف على مستوى الدلالة: إذ تَعْلَقُ التَّحْقِيقُ أَوَّلًا بسمير عمرو أثناء محنته في الاعتقال والسَّجْن، ويمتدُّ أُنْزُرُ هذه الشَّخصِيَّةَ لكن بلامح قد تَغَيَّرَ العَرَضِيُّ منها وبقي الجوهرِي قوَّةً وشِدَّةً وصلابة وعزماً، فيتعلَّقُ التَّحْقِيقُ ثانياً بخليل أحمد جابر؛ فلئن كان سَمِيرُ عمرو مفعولاً به في مستوى أَوَّلٍ فَإِنَّهُ فاعِلٌ في مستوى ثانٍ، ولكنَّ الوظيفَتَيْنِ محدودتان، أولاهما بأسباب ذاتية مُقْتَرَنَةٌ بِمَا تميَّزَ به سَمِيرُ عمرو من خصال، وثانيتها بأسباب موضوعية إذ «شَعُرَ باستحالة متابعة المسألة، فقرر إيقاف التَّحْقِيقِ وطَيَّ الملفَّ» (211)

ولم تخلُ هذه البنية الكبرى الثانية من علامات نصية تربط السَّابِقَ بِاللَّاحِقِ في الفصول من ذلك:

* السَّنَّ الذَّهَبِيَّ	- يتعلَّقُ في هذه البنية بسمير عمرو، - وَذَكَرَهُ علي كلاكش في حديثه عن الجماعة الَّتِي افْتَكَّتْ سَيَّارَتَهُ ولم يَتَذَكَّرْ من أفرادها إِلَّا صاحب السَّنَّ الذَّهَبِيَّ.
* شاشة بيضاء	- في علاقتها بفهد بدر الدِّين والسَّينَمَا، إذْ تَعكُسُ الواقع، وتَجْعَلُ الصُّورَةَ لَهَا ظلالاً، - ثَمَّ اللَّوْنُ الْأَبْيَضُ الَّذِي يُهَيِّمُنَ على كُلِّ شَيْءٍ، ويمثِّلُ كُلَّ شَيْءٍ، ولا شَيْءٍ، فهو أَقْرَبُ إلى التَّعْبِيرِ عن العدم، والضَّبَابِيَّةِ، واللامعْنَى، وإِحَالَاتِهِ على اللاَّوْعِي، بل على المسكوت عنه والتَّأْوِيلِ الَّذِي يدفع الكاتب والمتلقِّي إلى البحث عنه.

البنية العليا العاشرة: قائمة على مستويات ثلاثة: العتبة الأولى:
«الفصل السادس المُصَفَّات»

تجلياتها فيما سبق: أحالت على الشَّهداء عامَّةً وعلى خليل أحمد جابر، وابنه أحمد خاصَّةً، إذ اغْتَبِرَ كلاهما شهيداً؛

عتبة ثانية:

ما جاء بين معقوفين تعريفا بـ «السيدة ندى النجار، الابنة الثانية للمغдор» (217)؛

مثن الفصل:

* يتعلق بالفترة الأولى التي عقبَتْ وفاة أحمد وردّة فعل أخته ندى:

= الانفتاح على بداية الرحلة مع نديم: هو محور الحديث
والسرد والزواية.

* نديم والجماعة التي يستقبلها في دكانه/ أبو سعيد اللّخام «وأبو سعيد يقف أمام دكانه وذبائح الغنم المعلقة، حين مرّت سيارة مُسرعة، أطلقت عليه النار ومات» (234)

سامي الكردي وما وقع مع الشيخ:

«منذر نحاس» وابنه: «جان»:

* تذكر ندى الأيام الماضية مع أخيها أحمد (232):

* سرد بعض أطوار الأب بعد موت الابن :



ثم موته = أصداء البنية الكبرى الثانية تحقيقا
يقوم به «أبو جاسم مقطوع الذراع».

ويكون الالتقاء بين الفصلين الأول والسادس عودًا على بدءٍ في عناصر
هي:

المُلصقات والشّهاد؛

الشّيخة (السّت خديجة) واستحضار الأرواح؛

الحِرص على تعليق المُلصقات على الحيطان: كان
يقوم بذلك خليل أحمد جابر في الفصل الأول، ويأتي ظلّ من ظلاله: «أبو خليل» ليقوم بوظيفته ويحلّ محله في هذا الفصل السادس.

■ الخاتمة أو الفصل السابع: هو والفصل الرابع لم يحتويوا على عتبة
خامسة (ما يأتي بين معقوفين [] في إطار الحدّ والتعريف)؛

«هذه ليست قصّة» عبارة وردت في بداية المدخل وفي بداية الفصل السابع
أيضا، الخاتمة التي كان فيها العود على البدء، وتُختَم قصّة خليل أحمد جابر

خطاباً: «مصير السيّد خليل أحمد جابر، المأساويّ، كان مأساويّاً» (245)، دون أن تتغلّق خبراً، وتظلّ استفهاماً طلباً ولا استجابة ولا جواب. وإنّ تكن هي مأساويّة، فإنّها بدورها تنفتح على وجوه أخرى من المأساة هي قصّة:

1. «الزّوجة، السيّدة نهى جابر»؛
2. «السيّد علي كلاش»؛
3. «فاطمة فخرو»؛
4. «زين علول»؛
5. «فهد بدر الدّين»؛
6. «السيّدة ندى النّجار»

مع ما احتوته هذه القصص من قصص أخرى على أساس التّضمين أولاً، والتّتابع ثانياً، وهو ما يعني لا محدوديّة الخطاب كما الخبر سببٌ يبرّر تسمية الفصل السّابع بـ «خاتمة مؤقتة»، ففي «الرواية الباحثة نُفَجَّر اللَّحْظَةُ في عالم الذات وتتوالّد الوحدات السّردية. ولا تنتهي الرواية لأنّ البياض بعدها وجه آخر من وجوه ذلك الزّمن المطلق. وينهدّ الزّمن المظهريّ فإذا حركة السّرد تخرج بنا عن القياسات المتعارفة: الماضي والحاضر والمستقبل؛ وتتداخل الأزمنة» (الكيلاني، 1990، 81 - 82) وهذا يتجلّى في قصّة خليل أحمد جابر تنتشر أصداءً من خلال وقائع وحوادث تخصّ شخصيّات مختلفة ذواتٍ مؤتلفة ملامح، كما تنتشر من خلال قرائن نصيّة تتجاوز التّلميح والصّدى إلى التّصريح والرّدى: قتل خليل أحمد جابر: العلة والسّبب، وبهما يكون الانفتاح على الثقافة الجماعيّة والذاكرة الشعبيّة من خلال الأمثال السّائرة التي امتدّت على الصّفحة الثّالثة والسّبعين بعد المائتين (273) من الرواية امتداداً في اللامحدود فسحّ مجالاً للمفترّض: «لنفترض الآن...» (274) من خلال صياغة ورؤية مخالفة لما سبق وللماضي، وإنشاء افتراضيّ للحاضر. إنّهُ الإعراض عن الخبر والانفتاح على الخطاب يستمدّ خصوصيّاته النّقديّة من القديم: أدبا وسياسة وحياة: «وأنا لم أقصد من بحثي عن قصّته (خليل أحمد جابر) غير التّسلية والإمتاع والمؤانسة، كما قال مولانا وأستاذنا الكبير أبو حيّان التّوحيد (ت. 400 هـ)، الذي أحرق كتبه ورماها في مياه النّهر، من يأسّه من الدّهر ونكده من الدّنيا واحتقاره للزّمان وأسياد الزّمان» (275). وكان انفتاح الخطاب أيضاً بالتّحوّل إلى احتمالات ثلاثة تأتي استئنافاً واستدراكاً: «ولكن، لنفترض أنّ خليل أحمد جابر لم يُقتل. وأنّه يدور الآن في شوارع بيروت، ويحاول أن يمحّو ويطرش الشيطان فماذا سيحصل؟

أحدهم قد يقول، إنّهُ لا خطرَ منه أو عليه، وإنّهُ بالتّالي لا ضرورة لقتله.

وآخر، قد يقول إنّه لابدّ من قتله.

وثالث، قد يجد نفسه في الحيرة الكاملة، ولا يعرف أن يجاوب على سؤالنا» (276).

قد يتوسّع المتلقّي في هذه الاحتمالات إنشاءً روايات ثلاث أخرى، كما قد يُعرضُ عنها جميعاً، ويكون الاستئناف لا بالاستدراك وإنّما بالخلف نفيّاً وإثباتاً، وليس إثباتاً ونفيّاً كما أرادهما الكاتب في الرواية التّوّاة سواء أ كان ذلك في التّراكيب والتّعبير والتّصوّرات أم في علاقة العنوان: «الوجوه البيضاء» بالمنّ/ الفصول التي لم تقتصر على الأبيض قرين الموت، وإنّما اجتمع إليه الأزرق والأحمر والأسود، ألوان تؤذن بالاختلاف لكنّها توحى جميعاً بالدمار يأتي إرادياً من خلال الثّورة، أو لإرادياً من خلال التّقتيل والقبور، والموت الذي يقترن على امتداد الرواية بخليل أحمد جابر، فمنذ البداية كانت رحلة البحث، ليس فقط فيما به يكون النّصّ نصّاً خطاباً لكنّ بما يحيل على محتواه في علاقته بالفكر والتّفكير احتمالات ومحاولة ربط النتيجة بسببها (11 - 12) بحثاً في سبب قتل خليل أحمد جابر: هل هو المال والثّروة؟ أم النّساء؟ أم «أنّ السيّد خليل قد ذهب ضحية خطأ كالأخطاء الشّائعة التي يمتلئ بها مجتمعنا؟» (12)

في هذا الفصل السّابع الكتابة هي جزء من الرواية وانفتاح على نقدها من وجهة نظر الذات، كما من وجهة نظر الآخر، أو الوعد بالكتابة دون إنجازه يتجلّى في مستويات ثلاثة هي:

- حتّى عمليّة التّفكير في ما ذُكر تلميحاً وكان السّكوت عن تفاصيله تصريحاً «كقصّة الحلاق (...) أو قصّة الدّكتور صديقي عجاج أبو سليمان وغراميّاته التي لا تنتهي، أو حكاية جارتنا أمّ محمّد والطريقة التي مات بها زوجها» (248 - 249)، طريقة في توسيع دائرة السّرد دون الإيفاء بها ارتباطاً بالكون الرّوائيّ الذي يقوم على جملة من الخصائص هي: العوامل المساعدة والعوامل المعاكسة للمحور الأساس (سواء أ كان شخصيّة أم بنية هي جزء من المسارات السّردية والدّلالية التي يضعها الكاتب أسساً للنّصّ بما قد يجعل قراءته جدلاً بين اللفظ والماهية الأجناسيّة)؛ كذلك مدى القدرة على توضيح علاقة النّصّ بالجنس و«هو نوع من البحث في أشكال الإرغام التي يمارسها الجنس على النّصّ، وأشكال الإفلات الممكنة للنّصّ من قيود الجنس بحثاً عن التّحديد»

(أقلمون، 2008: 87).

- المخاتلة والمراوغة وتجلّت في مظهرين أولهما اعتبار النصّ المنجز جزءاً من وهم وزيف، إذ يقول الكاتب: «ولا أعرف كيف يكون هذا صحيحاً وتكون روايتي صحيحة في الوقت نفسه. ولولا خوفي من أن يقال أنني أضخم المسألة، وأني أبحث عن اليأس وأدعو إليه، وهذا يصبّ في التحليل الأخير في طاحونة القوى الامبريالية، لكنّ (...) كتبت قصة الوجوه البيضاء» (248 - 249)، وأنّ النصّ الفعليّ هو الذي لم يُنجز، وأنّ الرواية التي أرادها خبراً وخطاباً هي التي لم تُكتب ولم تسلم قيادتها إليه؛ وثاني المظهرين النزعة الانتقائية التي يعمد إليها الكاتب، يسكت عن قصصٍ وينتقل في بعضها من الإجمال إلى التفصيل كما في «حكاية الفلسطيني الذي وُجد مشنوقاً في مراحيض المطار» (249)؛

- البحث عن المعنى في المعنى بعد السقوط في اللامعنى، إذ يقول الكاتب: «فلأحاول، ربّما قد يعطي هذا لروايتنا بعض المعنى، ويقربها من النهايات السعيدة التي نسعى إليها جميعاً، حين نستخدم عبارة: مسك الختام، وينقذنا، وهذا هو الأهمّ، من هذه السوداوية المفرطة التي غرقنا بها» (249)، ولكنّ النصّ أي نصّ ليس مشروطاً «بالتشابهاً النصّية الشكلية والسيمائية» (أقلمون، 2008: 87) بقدر ما هو استثمارات متجدّدة للحقول التعبيرية وللسجلات اللغوية وهو ما لا يتعارض مع التناصّ الروائي ولا مع بناء الرواية على متتاليات سردية تبين حركتها وتلبّي حاجاتها دلاليّاً.

إنّ من العلامات الدالة على انسجام النصّ في بنائه العامّ تكرّر البنية من حيث اعتماد بنية القصة الإطار¹² والقصص المضمّنة في إطار الفصل الواحد. ولئن كانت الأبنية العليا والصغرى متشابهة بل متناظرة على أساس التكرار، فإنّ الأبنية الكبرى مختلفة متنوّعة ولا يضمن انسجامها وتآلفها إلا الأبنية الصغرى في إطار تلك اللّمع التي تشدّ نسيج النصّ وتحقّق ارتباط عناصره.

تتوافق الأبنية العليا في هيكلها العامّ، وفي بعض أبنيتها الصغرى بما يحقّق انسجام الخطاب ويضمن تماسك مكوّناته في إطار أشكال متماثلة متوازنة؛ إلا

12 الواقع أنّ القصة الإطار باعتبارها بنية عليا تتوزّع بين محوريّة واحدة: هي المتعلقة بقصة خليل أحمد جابر، وعنّها تتوزّع أبنية عليا فرعية هي التي ترادف مُتون الفصول، والغالب أنّ محور الحديث فيها هو الشخصية التي يتمّ التعريف بها في العتبة الثانية من كلّ فصل من خلال الخطاب الذي يأتي بين معقوفين. وترادف الأبنية العليا الفرعية أيضاً، الأبنية الكبرى من حيث الموضوع الغالب في كلّ فصل.

أنّ الهيكل والتراكيب والصياغة لها من المحتويات والمضامين ما يحيل على أمرين: أولهما: الزيادة والإضافة المقترنان بالكثرة عددًا؛ وثانيهما: الأصداء المحيلة على الكثافة والتجاوب.

إنّ الدّراسة البنيويّة التحليليّة تتجاوز الذات والموضوع للتركيز على اكتشاف النظام الذي يقوم على أساسه العمل الأدبيّ؛ ذلك أنّ اللّغة ليست مجموعة من العناصر المتنافرة المبعثرة، وإنّما هي نظام يبرز عند تحليل مستوياته المتعدّدة. إنّهُ على درجة عالية من الانسجام والاتّساق: فالمستوى الصّوتيّ يرتبط بالمستوى النّحويّ، والنّحويّ يتعلّق بالمستوى الدّلاليّ، والمستويات الثّلاثة مجتمعة تؤلّف وحدة متكاملة (غصن، 1999: 24) في بناء رواية «الوجوه البيضاء» عامّة؛ فرغم تجلّيات التّجريب فيها، لم تخرج عن المتداول اتّساع بناءٍ وشموله ومدلولاتٍ فكريّة: «فالحلّة التي يمكنها أن تكون منطلق القصّة وطاقّة التّوليد الكبرى فيها وتتوقّف بانتهائها تتحوّل إلى حياة بأكملها تتحدّد - مظهرًا - بمقدّمة وخاتمة خياليّتين مُطلقتين إطلاق الوجود الإنسانيّ الذي لا يعرف الحدّ أو الحصر» (الكيلاني، 1990: 11).

2. 1. 1. 2. الشّخصيّات: الأصداء ودورها في تحقيق انسجام النّصّ

في الخطاب السّرديّ، يتّصل الموضوع بالشّخصيّة من حيث التّطوّر والتّقدّم في النّسق إذ الشّخصيّة هي «أهمّ عنصّر في البنية الرّوائية لأنّها شبكة علاقات تمتدّ عبر الفضاء الرّوائي لتربط الأشياء بعضها البعض» (الكيلاني، 1990: 131)؛ وتقترن الشّخصيّة بالواقع، لكنّها في الآن ذاته تكون مُثَقّلة بالإيحاء والرّمز، خاصيّة الخطاب الأدبيّ (Adam، 1997: 37) الذي تجتمع فيه عناصر عديدة تضمن توافق أنسجته مع الدّلالة، ومن هذه العناصر الأصداء ما يأتي في مستوى بارز من رواية «الوجوه البيضاء» وهو أصداء الشّخصيّة المحوريّة (خليل أحمد جابر) التي تضمن انسجام الرّواية ككلّ - رغم ما توهم به من انفراط إذ ينقطع حبل القصّة الأصليّة - إلى حين - بتضمّن جملة من الحوادث لا قيمة لها في حدّ ذاتها - بقدر ما تقدّم صدى آخر للشّخصيّة المحوريّة، وما الأحداث إلّا شخصيات تتغيّر أسماء وإشكالياتٍ جزئيّة، إلّا أنّ الملامح والأطر الحافّة بها تكاد تكون واحدة، نماذج - على امتداد الرّواية - بما يحيل على التّشابه إلى حدّ التّطابق بين الشّخصيّات، فهي مرايا تعكس الصّورة ذاتها لكن من جوانب وزوايا مختلفة متعدّدة:

- أصداء الشّخصيّات من خلال: الملامح - الوظائف - الأفعال
- «هذا هو أجابث. هذا هو العمر الصّعب. اتقي الله يا ابنتي في

زوجك. هذا حدث لأبي عماد، كان في السابعة والأربعين، وفجأة نهضنا في الصباح فلم ينهض من فراشه، قال إنه لن يذهب إلى العمل، وبقي في سريره أسبوعين، لم يقبل على نفسه باب غرفته، فكنا نستطيع الدخول إليه، لكنه لم يكن يتكلم ولا يأكل إلا القليل. ثم بحمد الله نهض، وأنا أرى يا ابنتي، أرى حالة زوجتك تشبه حالة أبي عماد. إنه العمر الصعب، الرجل يشعر أنه لم يعد يستطيع، يشعر أن عمره هرب وأنه عاجز عن اللحاق به، يشعر أنه لم يعد رجلاً، هل تفهمين؟» (26)

وبتطور النسق السردى، يوهم الخطاب بالتوقف كفاً عن الحديث في قضية خليل أحمد جابر فسحاً لمجال الحديث عن قضية أخرى أو «قصة» مغايرة تتعلق بـ «الطبيب الأرمني»، إلا أن هذه العناية لا تخرج عن إطار ثنائية الظاهر والباطن التي تحكم مختلف فصول الرواية، إذ هناك علامات نصية تثبت ثنائية المحور والهامش لتجعل كل المتحدث عنهم والمتحدثين يؤصلون رؤية من زاوية مغايرة لما حصل مع خليل أحمد جابر. إنه الأمر ذاته مع «السيد علي كلاش» المهندس الذي يتحدث عن الطبيب الأرمني صدى من أصداء خليل أحمد جابر في محنة الموت وما اقترن بذلك من حوادث ثانوية متشابهة بين الطرفين:

* جاءوا إلى بيته ربّما للسرقة.

* كلاهما نُشر خبره في الجريدة: خبر التعذيب والقتل، في الجريدة كما في الصحف.

* انتشار الزائحة الكريهة منهما.

* كلاهما يكره الأكل ويفضل اللبن، يقول خليل أحمد جابر لفاطمة فخرو: «لماذا لا تشربون اللبن، اللبن أفضل شيء، أنا لا أكل غير اللبن» (116).

- المسلحون في الفصل الثاني هم صدى لأحمد في إيمانهم بالقضية والدفاع عنها «من أجل قضية الفقراء والمضطهدين» ومن أجل: «العدالة» (48).

= يجيب «الشاب الأشقر الذي تتدلى قنبلة يدوية من خاصرته (...)» [محمود فخرو وقد سأله]

- ولماذا الحرب؟

- الحرب، من أجل الثورة، من أجل تغيير هذا الوضع، من أجل الفقراء،

من أجل الناس الذين هم مثلك، لا يملكون شيئاً، ويعيشون في الفقر والتعاسة.
ومحمود يوافق، ويقول له إِنَّ الحقَّ معهم وَإِنَّ القضيةَ طويلةٌ» (92).

- الطَّبِيبُ الأرْمَنِي: «أقول لها إِنِّي لستُ رجلاً» (51)، متحدّثاً عن زوجته وإليها؛

= «وإنَّ ناديا جاءتها (والمقصودة زوجة علي كلاش) وأخبرتها أنَّ موسى [كنج] لا يستطيع، لا يفعل شيئاً» (63)؛

= يتحدّث فهد بدر الدّين عن نفسه فيقول: «أنا أستطيع أنْ أعود إلى القتال. كنْتُ أعتقد أنَّي انتهيتُ، لكنِّي أستطيع، موشي دايان¹³ احتلَّ

13 موشيه دايان وبالعبريّة משה דיין (20 مايو 1915 - 16 أكتوبر 1981) كان عسكرياً وسياسياً إسرائيلياً. يُترجم اسمه من العبريّة إلى العربيّة إلى «القاضي موسى» ويُلقَّب في الوطن العربيّ بالأعور. وُلد في فلسطين عندما كانت تحت الهيمنة العثمانية وعندما بلغ ١٤ عاماً، التحق دايان بمنظمة الهاجاناه العسكريّة والبالماخ في بداية تكوينها قُبيل الحرب العالميّة الثانية. عندما حُظر نشاط الهاجاناه من قِبَل القوات البريطانيّة في فلسطين، ألقت القوات البريطانيّة القبض عليه وتم إطلاق سراح دايان بعد عامين عندما قامت الهاجاناه بالتعاون مع القوات البريطانيّة ضدّ قوات المحور، وبمشاركة القوات الأستراليّة ضدّ قوات المحور في سوريا. فقد دايان عينه اليسرى وبدأ بارتداء غطاء العين الذي اشتهر به وقّلدته الحكومة البريطانيّة أعلى الأوسمة العسكريّة. شغل دايان العديد من الأدوار المهمّة في حرب 1948 وعمل على قيادة العمليات العسكريّة الدّفاعيّة في سهل الأردن، وأُعجب به رئيس الوزراء الإسرائيليّ ديفيد بن غوريون أشدّ الإعجاب واختاره وشيخون بربيز لحمايته الشخصيّة. وترقّى بالمناصب العسكريّة بعد حرب 1948 بين الفترة 1955 - 1958 إلى أن وصل لمنصب رئيس الأركان للجيش الإسرائيلي. في عام 1959، وبعد عام من تقاعد دايان من السلك العسكريّ، انضمّ دايان إلى تيار «مابي» السياسيّ اليساريّ بزعامة بن غوريون وعمل كوزير للزراعة حتى عام 1964. وبعد تسلّم ليفي أشكول لرئاسة الوزراء، وتنامي الموقف المتأزّم بين العرب وإسرائيل في عام 1967، عيّن أشكول موشيه دايان وزيراً للدّفاع رغم عدم محبّة أشكول له. لم يكن لدايان دورٌ يُذكر للتخطيط والإعداد لحرب 1967 إلا أنه أسهم إيجابياً للجانب الإسرائيليّ في مجريات الحرب، ولم يَدُخِر جهداً بعد الحرب في الأمور الدّعائيّة لنسب الانتصارات في حرب 1967 لصالحه. بتسلّم جولدا مائير السّلطة في عام 1969، وكان دايان وزيراً للدّفاع. ورفض دايان شنّ هجوم احترازيّ على كلّ من مصر وسوريا لقناعة دايان بقدرة الجيش الإسرائيليّ على صدّ أيّ هجوم عربيّ على إسرائيل وللحيلولة من تصوير إسرائيل أن تكون البادئة بالهجوم. وبتعاقب الهزائم الإسرائيليّة في بداية حرب أكتوبر، كان دايان على استعداد للإعلان عن هزيمة إسرائيل لولا منعه من قِبَل مائير من الإدلاء بمثل هذا التّصريح. وتكلّم دايان بدون تورية عن استعمال إسرائيل لأسلحة الدّمار الشّامل في حال احتياج إسرائيل لمثل هذه الأسلحة لدحر الهجوم العربيّ. وبعد الحرب، قامت اللجنة المسؤولّة بإعداد تقرير حرب

كلّ العرب بعين واحدة، وأنا أستطيع.

قلتُ للطَّبيب أنني أستطيع» (167).

الاستطاعة هي في الجنس كما في الحرب وكلاهما صراعٌ بين الحياة والموت كما بين البقاء والفناء.

- عايدة ابنة علي كلاش «فتاة في السابعة، وتبول على نفسها في الصّف» (65)؛

= ابن الطَّبيب الأرمني يتحدّث عن أبيه: «وكأنّها (زوجة الطَّبيب) لم تعد تطيق وجوده، وتهزأ من طريقته في التَّبول. كلّ مرّة يبقى ثلاث ساعات في الحَمّام واقفا وحفّية الماء مفتوحة، وأنا أنصح به عدم شرب الماء بهذه الكميّة، أين سيذهب الماء، أو إذا كان يريد أن يشرب بهذه الطريقة، فلماذا لا يُجري عمليّة البروستات» (58)؛

= يقول علي كلاش في شأن ابنته عايدة: «ماذا أستطيع أن أفعل، يجب أن أَسْتشير الطَّبيب. قرّرتُ أن أتصل غداً بالطَّبيب وتابعُ سيّري تحت المطر إلى البيت» (66)؛

= والأمر يتعلّق بعلي ابن فاطمة فخرو إذ «قالت لها السّت هدى إنّها عليها أن تأخذه إلى الطَّبيب، وإنّ الصَّبّي غير طبيعي» (84).

- الطَّبيب الجراح: مروان بيطار هو صدى للدكتور الأرمني خاتشا دوريان من حيث: المهنة - التَّقارب في السّن - الإحالة على المكان: «القنطاري» يقول الطَّبيب الأرمني: «بيتنا في القنطاري» (15) = ويحمل فادي ابن السّيّد متري الحلو فاطمة فخرو وعائلتها إلى «بناية في القنطاري» (86) «بناية مليئة بالأرمن والأغنياء والخواجهات» (87)؛ لكنّهما يختلفان: الطَّبيب الأرمني «لا يملك شيئاً»، أمّا مروان بيطار فله ثروة؛ وهو الذي يشرّح جثة خليل أحمد جابر: «يقلب الجثة كما كانت ثم يغطّيها بالشرشف الأبيض» (156).

- بشير الحاراتي = خليل أحمد جابر + محمود فخرو؛ فاطمة فخرو (123).

1973 بإعفاء الكادر السياسيّ الإسرائيليّ من المسؤولية في تكبّد الخسائر في الأيام الأولى من الحرب، إلا أن الغضب والاحتجاج الشعبيّ الإسرائيليّ أدّى إلى استقالة كل من دايان وجولدا مائير. في 16 أكتوبر 1981، مات دايان متأثراً بسرطان القولون في مدينة تل أبيب ودفن في «ناهال» حيث نشأ.

- خليل أحمد جابر: «إنَّه يشبه الشَّحَّاذِينَ الَّذِينَ اِمْتَلَأَتْ بِهِمُ الْمَدِينَةُ، أَوْ يشبه طفولتنا، كأنَّه أبو حشيشة السَّكران الذي باع امرأته واشترى دخان، كما نَغْنِي صغاراً، حين نراه. هذا ليس أبو حشيشة، ثيابه ليست مرقَّعة وهو لا يدَحِّن» (162): (هذه صيغة من الصَّيغ الَّتِي يتحدَّث بها فهد بدر الدِّين عن خليل أحمد جابر).

- تتراءى في ذاكرة فهد بدر الدِّين صورة سميح وقد امتزجت بصورة خليل أحمد جابر، وتتَّصل بهما صورة «الشَّابِّ الصَّغِير، وهو أسير» وعينان من زجاج صورة منه إلَّيه (192 - 193).

- «يشرب الضَّابط شفة، ويعلو صوتُ شفتَيْه وهو يَمصُّ بقايا القهوة العالقة بهما. يُشعل سيجارة ويأخذ منها نَفْسًا عميقاً» (207) (الضَّابط الَّذي حَقَّق مع سمير عمرو أثناء اعتقاله وسجنه).

- «يشرب [سمير عمرو] شفة من فجان القهوة المُرَّة الموضوع على الطاولة أمامه، ويعلو صوت شفتَيْه وهو يَمصُّ بقايا القهوة العالقة بهما، يُشعل سيجارة، ويأخذ منها نفساً عميقاً، ويتكلَّم» (211) (أبو جاسم، هو الآن مسؤول المكتب الَّذي يعمل فيه فهد بدر الدِّين - 209 -).

- «ابنتي ندى تنتظر ولداً ثانياً، وسيكون صبياً بإذن الله، وهي قالت إنَّها ستسمِّيه أحمد، وسيعود أحمد صغيراً إليّ، ولأعبه كما كنْتُ لأعبه» (31)، (هكذا تتحدَّث «السَّيدة هدى جابر»).

استعمال الضَّمير يُساعد أيضاً على تحقيق الصِّدى تطابقاً بين المقيس والمقيس عليه، مع ما يتركه التَّشبيه من مسافة فاصلة بين الطَّرفين امتداداً لما بين الماضي والمستقبل في القرينة والمفهوم بصفة موضوعية، وما بينهما من توافق في المدلول بصفة انفعالية تقترن بالشَّخصية/ الأمّ/ الزَّوجة (زوجة خليل أحمد جابر).

- صدَى الكلب¹⁴ في الشَّخصيات: التَّجَلِّي والدَّلالة الرَّمْزية

14 الكلب: يحتلُّ الرَّمْزُ مكانةً متنوّعة الوجوه والمعاني لدى قدماء الشُّعوب الآسيوية في عدّة مناطق من الصِّين ولدى قدماء المصريين القاطنين بأعلى نهر النيل ولدى سكان أمريكا الجنوبيّة حيثُ يُصوَّر الكلب بذاته أو مقروناً بحيواناتٍ أخرى مثل الذَّنَب: تارةً تصويراً إيجابياً باعتباره حارساً بنباحه لسيِّده مُجسِّماً وفاءه نحوه، وطوراً كأحد رموز الشَّياطين والكائنات الشرِّيرة : الكلب ذي الشَّعر الأحمر كلون النَّار، وينفث بنباحه لهيباً، فهو قرين الموت والجحيم والنَّار والعالم السَّفليّ؛ (Hécate) آلهة الأموات يصاحبها كلبها في حلّها وترحالها، بل الكلب نفسه يذكِّرنا بالكلب الَّذي يحرس الجحيم في الأسطورة البابليّة أو

- «صَبِيّ الصَّيْدِلِيّ الكلب» (55)؛

= «صارت عايذة تجلس تحت الطاولة، وترفض الجلوس على الكرسيّ في الصّفّ وتعوي¹⁵ كالكلاب (...) تجلس تحت الطاولات في البيت وتمثّل دور الكلب» (66)؛

= «الكلبة تقول إنّي لا أنفع، كلبه، كلّ النّساء هكذا» (71) (موسى كنج يتحدث عن المومس الشّرقاء)؛

= ويتحدّث عن زوجته ناديا فيقول: «عين لا تقشع قلب لا يوجع، تذهب وإنشاء الله نامت مع الكلاب» (71)؛

= ويبنّ ما يقوله فادي ويذكره محمود فخرو كناية عن المسلّحين الذين ضربوه: «قال لهم

ساربار (Cerbère) حارس مملكة الأموات. إنّ الكلب في تصوّر العرب يظنّ - في معنّى من المعاني - مُلتبسًا بالشرّ. (الجولي، 2003: 247)

= إنّهُ دليل الإنسان في اللّيل إلى الموت، ورفيقه أثناء النّهار إلى الحياة، وهو المؤلّف بين العناصر الثلاثة: الأرض والماء والقمر: رمز الخصب والآلهة والجنس (و من معانيه الجزيئة: القوّة والقدرة، والإغواء، وهو رمز الإثم أيضا)؛

وهو - في بعض الحضارات القديمة - حارس مملكة الموتى: بلد الثلج والظلمات؛ وهو العامل المساعد على كشف خفايا مؤث شخص ما، في ضرب من

الممارسات السّحريّة؛

وهو قرين الحرب، فالكلب عند قدماء الصّينيّين هو مصدر الرّعد ووميض البرق؛ وهو يعلن عن قنوم الحرب خاصّةً بلونه الأحمر كالنّار؛ وهو قرين المقاتلين والأبطال «الشّهداء» - بمفهوم الزّواي والرّواية في «الوجوه البيضاء»؛

ولاحتماء من البوم كان الصّينيّون يحفّزون الكلاب على النّباح، وذلك بجذب آذانها.

وعند التّتار عقيدة سائدة بأنّ الله، منذ نشأة الكون، أمّنّ نجاة الإنسان تحت حراسة الكلب ليقيه من الشّيطان؛

وعند قدماء الفُرس، يلعب الكلب دور مكافحة الجنّ والشّياطين؛ وتوجد نفس العقيدة عند شعوب آسيا التي تعتبر الكلب حاميا مباركا، وفي نفس الوقت مهبط اللّعنة الإلهيّة التي تجعل منه ملكًا مغضوبا عليه.

وفي النّقافة الإسلاميّة، من رموز الكلب ودلائله: الحقارة والدّناءة: فهو آكل الجثث، ولا يمكن أن يجتمع ملكٌ وكلبٌ في نفس المكان؛ ففي الجملة، الكلب، يجمع بين صفاتٍ محمودة، وأخرى مذمومة، فهو رمزٌ متناقض الوجوه. (Chevalier & Gheerbrant, 1982: 239 - 245) .

15 عند شعوب النّيل، يُصوّر الكلب وهو يعوي تحت وطأة الألم، وهو يجري نحو المنزل وقد اشتعل ذنبه ناراّ أجج بها الأدغال حيث يتسنّى للنّاس القبض عليه؛

وينهز الكلب عندما يُراد إبعاده عن النّار؛

ونباح الكلب حذو منزلٍ من المنازل دلالة على التّكهّن بالموت. (نفسه).

اتركوه يا أولاد الكلب (...) أولاد الكلب ضربوني على وجهي» (87)؛
= ويقول محمود فخرو: «كلاب، الأغنياء كلاب. كلهم كلاب. حتى فادي كلب،
كلب لا ينجح، كلب يوشوش، كلب.» (98)؛

= «ويدخل إلى الغرفة ويشتمها:

نسوان، والنسوان كلاب، النسوان كلاب»

(...) تريدني أن أشتغل مثل الكلب، أنا لستُ كلبا أفهمي، أنا لستُ كلبا
مثلهم» (99) (هكذا يتوجه محمود فخرو إلى زوجته بالخطاب)؛

= «لو تمادى هذا المحمد الخروبي لأطلق الشَّابَّ النَّار من مسدسه، ولمات
محمد الخروبي مثل الكلب، دون أن يسأل عنه أحد» (132)؛

= يتوجه أحد رجال البوليس إلى زين علول فيقول له: «يا كُفَّار يا ملحدين يا شيوعيين
يا أولاد الكلب (...)»

- لا تتكلم يا ابن الكلب (...)

- أين السلاح يا كلب (137)،

= يقول زين علول: «علي شعيب حرام، كيف يقولون عن شهيد أنه كلب، هم
الكلاب» (137)؛

= - لا، يقول السائق، رائحة كلب، كلب، كلب ميت.

يقترّب زين من تمثال حبيب أبي شهلا، فعلا إنها رائحة كلب ميت ونتن.

(...)

[ويقول صالح أحمد]:

- لا، فلتجلبوا جرّافة، أنا لن أحمل الكلب الميت والنّجس بيدي.

- هذا رجل

- أي رجل

- جثة رجل» (147 - 148)

«أفزع شيء هو الرائحة. كانت الرائحة تُشبه تلك الرائحة» (162)

هكذا يتحدث المؤلف عن خليل أحمد جابر إذ أتى به رجال الشرطة للتحقيق
معه، كشفا يُعَيِّب أفق انتظار القارئ إذ يتصوّر التحقيق في القضية بعد الوفاة
وليس قبلها.

هي رغبة الكاتب يُخفيها وراء قناع المؤلف ويصوغها في أشكال متجانسة متوافقة في هيكلها، لكن تحتل كل واحدة منها موضعًا مخصوصًا وفي اتجاهٍ محدّدٍ.

2. 1. 1. 3. أصداء المعاجم والألوان

- «قطة¹⁶ سوداء¹⁷، لا لون فيها غير الأسود» (30)
- لا أعرف ماذا جرى، لكنّ الأمور بقيت كما كانت، لم يتغيّر أيّ شيء، بلى القُطّ، أنا رأيته، صار القُطّ مختلفًا، كيف أقول، يعني بدأ لونه يتغيّر، قُطّ أسود. لكنّ السّواد بدأ يميل إلى البياض¹⁸، فصار لونه

16 القُطّ في التّصوّر العربيّ الإسلاميّ حيوانٌ إيجابيّ يمتلك بركة وداعية خير على صاحبه إلا إذا كان أسود اللون فهو يُثير الحبطة والحذر ويُتطيّر منه، بل هناك مَنْ يرى فيه جنًّا شريرًا إذا دَخَلَ بيتًا في الليل ينبغي السّلامُ عليه اتّقاءً لشرّه. هذا التّصوّر في اعتقادنا هو الذي يُفسّر التّعبير الشائع في تونس «كسّ مسّ» الذي يخلط بين القُطّ والجنّ الشرير، كسّ تُقال لطرد القُطّ، ومسّ تعني «مسّ من الجنّ»، والجمعُ بينهما طردٌ للقُطّ وطردٌ معه للجنون الشريرة التي تلتبس به. القُطّ الأسود عمومًا هو رمز للظلمة والموت، ولذلك ارتبط عند العرب المسلمين بالسّحر لأنّهم رأوا أنّه يمتلك قدرات سحرية ولذلك يُعطى لحمه للمسحور حتّى يستعيد حالته الطّبيعيّة. (الجولي، 2003: 291)

17 الأسود: يرمز إلى الحضور كما الغياب، الوجود كما العدم: الفراغ - الخواء/ خيول الموت هي بيضاء أحيانًا، سوداء أحيانًا أخرى؛

يقتربن بالمغادرة والتّحوّل عبر الأقطاب المتنافرة المتناقضة، بالموت الذي لا أمل معه ولا رجوع، الموت والنّوم واللّيل وكلّ مآسي البشريّة/ المرض - العجز - النّقل - الأعباء؛ آدم وحواء كانا يرتديان الأسود عندما هبطا من الجنّة رمز الإدانة؛ عند بعض الشّعوب، هو رمز العقم والبرد والشتاء والألم واللّوعي.

هو أكثر اقترانًا بالقبر من الأبيض: القبر مرادف الهاوية - الدّرك الأسفل والشّيطان؛ وهو يعني مكان إقامة الموتى حتّى البعث؛

تقدّم إلى إله الموت حيوانات سوداء: هي قرابين لا تقدّم إلا في الظّلام، ورأس القرين يجب أن يُوجّه إلى الأرض.

≠ هو لون المادّة الكونيّة - الأصل - المياه العميقة بما تحتويه من كنوز وثروات - الشّمال؛

النّصيحة والإنذار عبر الأحلام؛

« قرين الأرض الخصبة والسّحب المُثَقَّلَة بالأمطار - قرين اللّيل مصدر الخلق وكلّ الأشياء المخلوقة. (Chevalier & Gheerbrant، 1982: 671 - 674).

18 الأبيض: المطلق، الإشراق والصّياء والنّور - العدم: هو نهاية الحياة وبدايتها في آنٍ إيذانًا بمرحلة أخرى من البعث بعد الموت والقبر - وهو يؤلّف بين المتناقضات؛ يفتح على المجهول غير المنظور؛ وهو الاطمئنان بعد الفزع؛ رمز المعرفة اليقينيّة المُنبَتقة من عالم الغيب؛ رمز انعتاق الروح من الجسد - الوعي (Chevalier & Gheerbrant، 1982: 125 - 126) يولّد ثورة رغبة في إنشاء وجه آخر للوجود، الوجه الذي يحقّق الهويّة

أقرب إلى الرّمادي¹⁹، لكنّه رماديّ وسخ، وصرت أراه، الرّقبة منفوشة، وأرى جلد الجزء الأسفل منها، (...) لكنّ الرّائحة (...) لكنّ الرّائحة صارت لا تُطاق» (32)؛

= «عندما تصبح الصّورة غائبة بين اللون الرّماديّ والمزق التي تُحدّثها المحاية، كان ينتقل إلى الكتابة» (36)؛

= «والدها تزوّج تلك الشّيطانة المنفوشة الشعر» (والد فاطمة فخرو) (78)؛

= «والبحر أسود اللون» (65)؛

= «التّجاعيد والهزال والدوائر الكبيرة السوداء التي تنتشر تحت عينيه» (خليل أحمد جابر) (33)؛

- «وجهه (موسى كنج) مصبوغ باللّون الأحمر²⁰ الفاقع» (61)؛

والقوميّة، وهذا مبرّر اختيار عنوان «الرّواية»: «الوجوه البِيضاء» تختلف تتنقي لكنّها تقول إلى أصلٍ واحدٍ يريد الآخر (إسرائيل في الرّواية - رغم أنّ من وجوه «القضيّة» أيضًا الحرب الأهليّة في لبنان -) تشيّهه بل نفّيه؛ وتأبى الدّأث إلّا المقاومة: جدلٌ قائمٌ دائمٌ بين المتناقضات.

19 الرّماديّ: هو لون الرّماد والضّباب؛ والحزن والكآبة والضّجر: رمز العذاب الشّديد، يقترن ببغث الموتى، أو هو نصف الموت؛ هو المرحلة الانتقاليّة بين جميع الألوان المتناقضة. (Chevalier & Gheerbrant، 1982: 487 - 488).

والرّماد يثير المخاوف في المعتقد الشعبيّ التّونسيّ الجنوبيّ؛ والنّاس يُحذّرون قديمًا أبناءهم من اللّعب فوق قطعة أرض طُرِحَتْ رمادًا لاعتقادهم بأنّ الرّماد موطن للجنّ والأبالسة والأرواح الشرّيرة و«العبابيث» التي تعبت بفكر الإنسان وعقله. لعلّ ذلك يعود إلى طبيعة الرّماد لكونه يُحيل على معاني الموت والفناء، فهو ما يتبقّى بعد انطفاء النّار وخمودها كالجسد وقد انطفأ في شعلة الحياة وصار جُنةً هامدةً، رمادًا ترابًا فعاد إلى أصله كائنًا من تراب، الرّماد يكتسب رمزيّته حينئذٍ، من كونه دلالة على الموت في تضادٍ مع النّار الملتهبّة الحمراء التي تُعبّر عن الحياة في حرارتها ووهجها. (الجولي، 2003: 252)

20 الأحمر: هو كغيره من الألوان جُماع متناقض المعاني والدلالات ارتباطًا بالليل والنّهار (الأحمر المقترن بالنّهار وبالشّمس = الحركة - الجمال - الحبّ - القوّة - السّلطة - الحكمة - الصّحة - الثّراء - البطل الحرّ المُنتصر - الاحتفال بإلّربيع - الزّواج - الولادة)؛

هو رمز الصّدق والسّعادة، الانسجام والامتداد، الوفاء والبقاء على العهد؛ بقوّته وطاقته وضوئه هو رمز الحياة في غموضها، ورمز النّار والدّم والحرب والمحاربين (بما يحيل على العلاقة الجدليّة بين السّماء والجحيم)؛ هو رمز الأسرار والمقدّس (في عالميّ المادّة والرّوح)، لون الرّوح والقلب والعلم والمعرفة الباطنيّة.

≠ مع السّلطة وعدم المراقبة، يصبح اللّون الأحمر خطرًا يؤدّي إلى الأنانيّة والكراهيّة، والنّفوذ المطلق، أو إلى الحبّ الذي يؤدّي إلى الجحيم.

- «ومحاية كبيرة محاية بيضاء، ومحاية صفراء²¹، ومحاية رصاصية ومحايات... ضحك فظهرت أسنانه الكبيرة الصفراء» (36)؛
- = «ثم سمعت على باطون أرض الباحة صوت الطلقات الفارغة وهي تتساقط من خاصرة الرشاش، صفراء وسريعة» (51)؛
- = الحليب: «كنت أرى الحليب الأبيض، والأوعية الزجاجية بيضاء» (58)؛
- = «يرفع رأسه قليلاً، فأرى بياض عينيه يتسع» (37)؛
- = «وهم يضحكون، يسمع ضحكات ترتفع، قهقهات، أسنان، أسنان بيضاء، وأسنان صفراء وأسنان، ولسان طويل أحمر يتدلى ويسقط على الأرض» (95)؛
- = يذكر خليل أحمد جابر أمّه فحدثت فاطمة فخرجوا عنها فيقول: «أمي الحاجة صبحية كانت امرأة جميلة، خلوة وبيضاء، وكان أبي يضربها، وأنا أركض بين قدميها البيضاوين» (89)؛
- = وتصف فاطمة فخرجوا خليل أحمد جابر فتقول: «يجلس على الرصيف وإلى جانبه سطل مليء بالكلس الأبيض» (89)؛
- = يتحدث ابن الطبيب الأرمني عن ذلك، ويتحدث علي كلاش عن خليل أحمد جابر فيقول: «يدهن الحائط باللون الأبيض (...) والنقاط البيضاء تتساقط على الرصيف» (72)؛

≠ (Chevalier & Ghebrant، 1982: 831 - 833).
 21 الأصفر: قرين أشعة الشمس في قوتها وإبهارها وشدتها: متسع ممتد ملتهب، يخترق الأفاق، ومن العسير إطفاءه؛
 هو رمز من رموز القوة الإلهية والخلود - بالمفهومين الديني والأسطوري رمز السيادة والسلطان والنصر والمجد اللذين يستمدّهما الملوك والأمراء من الآلهة؛ وهو رمز الحياة الأبدية شأنه في ذلك شأن الذهب؛
 هو رمز الفضيلة والإيمان والحياة الأبدية والحب الإلهي؛
 وهو أيضا رمز الحكمة ورجاحة العقل؛
 هو لون الأرض والجسد عند تجدد الحياة خصبا وعطاء؛
 ≠ هو لون الأرض والجسد عند الموت؛
 الأصفر الباهت هو قرين الخيانة والغدر وخيبة الأمل؛
 ويحضر اللون الأصفر في عيون كلاب الجحيم حتى تكون أقدار على النفاذ إلى عمق الظلمات وأسرارها، كذلك الشأن بالنسبة إلى آذانها المصبوغة بالأصفر والأبيض
 (Chevalier & Ghebrant، 1982: 535 - 537).

= «جاءت شقيقته (شقيقة محمود فخرو) وقالت لها (فاطمة) إنَّ عليها أن تلبس الملاء البيضاء» (79)؛

= أخرج فادي سيجارة «كنت» من «العلبة البيضاء» (82)؛

= «والرصاص يملأ السماء. المطر لا يتوقف وأصوات استغاثات بعيدة، نساء وملاءات بيضاء، ركض وشوارع، شوارع لا تنتهي، وامرأة تنتحي، تلتقط طفلاً سقط من يدها، تمسح الدم عن أنفه بملاءتها البيضاء وتركض» (93)؛

= «وذهبنا بسيارتها الزينو الصغيرة البيضاء إلى شارع الحمراء» (177)؛

= «كان يحمل فتينة مانيكور بيضاء، يطلي الوجه باللون الأبيض ثم يقص الرأس بالمقص. يعمل بعناية ودقة كي يفصل الرأس عن الجسم. يأخذ الرؤوس البيضاء المقطوعة ويخلطها ببعضها، ثم ركبها على الأجساد، صورَ ولها رؤوس بيضاء» (39)

الصدى ينتشر من العنوان عنوان النص الأكبر إلى الفصل فالفصل الذي يليه من خلال اللون. وتختلط الألوان بل البياض بالحُمْرة نُويًا عن المعنى المُعجمي الأول امتلاءً بشحنة الدلالة والرمز: بين الموت (البياض) فالمحيل عليه: الدم (الحمرة)؛

= «أخذ المنشقة الحمراء وغطى بها المرأة» (42)؛

= «رائحة الدم.. رائحة دم ورائحة القط. ربّما هي دماء الصور، ماذا يحصل لي، لا أعرف، لكنها رائحة الدم» (43).

- «وكان الصابون يتساقط ويغطي المرأة، لكنّه يترك فيها ثقوبًا غير بيضاء. لكنّه يحاول بعناية فائقة أن يسدّ الثقوب (...)»

بقي حوالي الساعتين هكذا، يعالج المرأة بالصابون، والثقوب ما تزال ظاهرة» (41)؛

= «وبعد أن انتهت الحربُ جاءوا أمام البيت ورشّوه بالرصاص، امتلأ جسمه بالثقوب، والدم والزجاج الذي يتناثر» (90) (والمحدث هنا هو محمود فخرو)؛

= «وبقايا سيارات مثقوبة ومرمية كالجثث» (105)؛

= «وجدوه (خليل أحمد جابر) عاريًا من الأعلى ومثقوبًا بالرصاص» (125)؛

= «الشراشف البيضاء، قال لها إنَّ السرير يجب أن يطلى باللون الأبيض، وفوقه نضع شرشفا أبيض، ثم نتغطى بغطاء أبيض وننام. نرفع الغطاء إلى عيوننا فلا نرى سوى الضوء وقد تناثر إلى بقع بيضاء تنتشر في كل مكان» (101) (هكذا يحدث خليل أحمد جابر فاطمة فخرو)؛ ويواصل:

«أنا أبيض، أريد شرشفا أبيض أنام عليه، وفوق الشرشف غطاء أبيض، واللمبة في وسط الغرفة، أنظر من الغطاء الأبيض فأرى الضوء يتبعثر، الضوء نقاط بيضاء. أسناني بيضاء، والحيطان، الحيطان بيضاء» (101)؛
 = «تصل سيارة إسعاف، يخرج منها ثلاثة رجال بلباس أبيض، يغطون الجثة بشرشف أبيض ويقفون» (151)²².

تتعدد الألوان، ورغم خصوصية كل منها، فإن معاني أحدها لا تتحقق إلا بمقارنته بغيره، إما على أساس الاختلاف أو التقاطع أو التوازي؛ وقد يؤكد هذا البعد ما تميّز به بناء رواية: «الوجوه البيضاء» من اتخاذ أبعاد الألوان أصداء انسجام وتآلف، وهو ما يبرر اعتبار تتبع المعاجم والألوان من حيث الخصائص والتجليات والأبعاد الرمزية جزءاً من العناية ببناء الرواية عامة، لأنّ أبرز مقوم في نسجها الذي يضمن الانسجام والتماسك - رغم ما يوحي به النص من تداخل حتى لا معنى ولا رابطاً منطقي - هو التركيز على التكرار وعلى ألوان بعينها وأنواع من الحيوان مخصوصة والحرص على جعلها متناظرة إلى حدّ التماهي والانصهار، كلّ ذلك يجعل لها أهمية مخصوصة مقصودة في البناء والتركيب، كما في المعنى والدلالة.

وإنّ عنايتي بالأبعاد الرمزية - حتى وإن كان ذلك في الهامش - لا ينأى بي عن خصوصية البحث المتعلقة بمنهج تحليل الخطاب من ناحية لغوية لأنّ الدلالات الرمزية هي لبنة هامة في جعل الأبنية بمختلف أنواعها يُقضي بعضها إلى البعض الآخر، وأي جزء من التركيب فيها لا ينأى عن المعنى/ الموضوع، ولا عن الهيكل/ الجنس ممّا يؤكد أنّ الأبنية حتى وإن اختصّت مفهوماً وخصائص، فإنّ تواجدتها في نصّ واحد وفي سياق مؤلّف يستدعي ضرورة تفاعلها وارتباطها علاقة جزء بالكلّ، والعكس أيضاً.

22 عنايتنا بالمعاجم والألوان كانت من وجهة نظر مخصوصة تلك التي أملتتها طبيعة البحث والدراسة؛ لكنّ هذا لا ينفي ما أثارته في رواية «الوجوه البيضاء» من اهتمامات أخرى: فما يلفت نظرنا فيها - إضافة إلى ما تناولنا بالدرس والتحليل - أمران نسعى إلى البحث فيهما في دراسة مستقلة - ومبررات هذا الاختيار أنّهما ينأيان عن خصوصية الأطروحة ذات الصبغة اللغوية - فأما أول هذين الأمرين فالتعمق في معاني النصّ ودلالاته استناداً إلى المرجعيّات المعتمدة فيه وخاصة الأسطورية الرمزية: ما العلاقة بين الواقع وفنّ الرواية أدباً والأسطورة والرمز مرجعاً وسجلاً قول؛ ثمّ ما أسباب الاختيار والجمع والتأليف؟

وثاني الأمرين: العتبات: الخصوصيات - التجليات - أبعاد اختيارها أساساً من أسس بناء النصّ بين الاستقلالية فريدة وتميّزاً وبين التمازج والانسجام توافقاً وتقاطعاً.

تحليل الأصداء - في مختلف أنواعها وتجلياتها - على أمرين أولهما أن تكون مرايا تعكس جوانب من الشخصية المحورية في «الرواية»: خليل أحمد جابر، فتتصف بصفاتها وتقوم بما يحاكي أفعالها وردود أفعالها؛ على أن هذا لا يثبت الشخصية - وخاصة الثانوية - بقدر ما ينفىها ويجعلها مجرد أداة يمكن الاستغناء عنها فنياً من خلال قاعدة الاختزال التي يذكرها فان دايك في إطار إعادة إنتاج النص؛ أما إذا نُظر إلى الشخصيات الثانوية من حيث الحدث والبعد الالتزامي في التعبير عن قضايا الشعوب العربية من خلال نماذج منها فإنها تصبح مرايا لمختلف الهموم التي تعيشها ويحمل الكاتب عبئها وتقلها مما يجعل النص الأدبي أيضاً مثقلاً بالتفريع والتجزئة كما بتداخل الأجناس الأدبية في إطار الجنس الواحد؛ وثانيهما: ألا خصوصية للشخصيات الثانوية بما أنها مدلولات متعددة لدالٍ واحدٍ، توجهٌ يثبته التكرار على مستوى المعاجم وسجلات القول والمرجعيات وطُرُق صياغة الخطاب.

2. 1. 1. 4. الراوي والرواية: الاستدلال، من خلال خصائصهما، على انسجام النص/ الرواية

- الانسجام في علاقة الراوي والرواية بالشخصيات

الخطاب وتحديد السرد وطبيعة الرواية (بما هي راوٍ ونص مروي)، كل ذلك محكوم بثنائية الوعي يتجلى في الإثبات/

«وجدت نفسي هناك» (163)

«يسأل محمود» (95)

«يضع [خليل أحمد جابر] أصابعه فوق الحائط كأنه يستند استعداداً للركض» (100)

«هل فهمتم» (200)

«أنا هو الذي ينتظر كل شيء» (200)

«لكنه يتذكر التحقيق جيداً» (206) (سمير عمرو النقيب أبو جاسم)

واللاوعي يتجلى في النفي/

«لا، لم أجد نفسي، لا أدري، (...) لا أعرف، لا شيء» (163)

«لا، لم يسأل، أراد أن يسأل» (95)

«لكنه لا يركض» (100)

«لا أحد يفهم» (200)

«أنا هو الذي ينتظر لا شيء» (200)

«والحقيقة، أنه لا يعرف كيف، عندما يحاول أن يتذكر، يرى شاشة بيضاء، ولا يذكُر شيئاً» (206)؛

هذه نماذج تعكس تداخلات عالمي الوعي واللاوعي، وتساهم في إنتاج الصور والمعاني وتراكيبها المعقّدة، لكنّ ثنائية الصّريح والضّمني في الخطاب تعكس الخُلف لأنّ الإثبات نفّي واقع يضع بثقله على الشخصية (أي شخصية) فتسعى إلى الإفلات منه لكنّها تجد نفسها عاجزة دون ذلك لأنّها مكبّلة بهجوم الواقع وأثقاله متمثلة في الحرب وأهوالها وتبعاتها؛ ثم إنّ النّفْي إثبات مأمول تسعى الشخصيات/ الضّحايا إلى إنشائه فيبقى ذلك رهين المنظور دون المرئي، يعبر من خلالها صاحب النّص بلغة الأدب عمّا لا يندرج فيه محتوى ودلالة، قبح يتضاعف من خلال التكرار الذي يضمن انسجام النّص/ الفصل، كما الزاوية/ الخطاب.

أمّا الخبر فمحكوم بثنائية الحياة (تجاهد الشخصيات من أجل ضمانها بل محاصرتها وهي نُقِلت منها) والموت الذي يُغيّب كلّ شيء وكل نفس (إلا من كان يمثل النفوذ والسلطة المعنوية متجلية في الشرطية، ومن كان يمثل القوة المادية ثراء/ فادي، أبوه السيّد متري الحلو...)، والخبر محكوم أيضاً بالاستثنائي الذي يصبح عادياً مألوفاً/ فهد الشخصية الرئيسية في الفصل الخامس: «التحقيق»، إذ يروي بعضاً ممّا حدث له فيقول: «وهذه العين لا تبكي، عين من زجاج، الزجاج لا يبكي، عندما ركّبوها أحسست أنني أحمل جبلاً في محجري، أريد أن أقتلها، ثقيلة وتافهة ولا تتحرّك، كأنها شخص آخر، كأنها تراني ولا أراها. أريد أن أزيلها، وتعوّذنا، وبقيت في مكانها، وصارت كأنها لا شيء» (177).

فقصة فهد بدر الدين أو «الزاوية» جزء من فصول، هي من الأول إلى السادس، خطابات تأتي بين معوقين وتمثّل خطاباً أساسه التلخيص والتعليق والتوضيح، لكن مع المتن، ومع نهاية المستوى الأول، يغيب كلّ من الكاتب والمؤلف ليفسح المجال للشخصية، وهي مع الفصل الأول «السيدة نهى جابر» لتضطلع بسرد الأحداث التي لا تتخذ بُعد الأفعال بقدر ما تقترب بانطباعات الشخصية/ السارد/ الزاوي وبانفعالاتها تجاه ما وقع، وما يقع، وما سيقع: صوتها يلتقي بصوت خليل أحمد جابر زوجها، كما بصوت الجماعة في إطار ثقافة شعبية: «كان يقول لي دائماً، وأبي كان يقول والجميع يقولون: يا ربّي لا تموتني لا حريق ولا غريق ولا مشمشط عاطر» (15 - 16).

ويُقطّع خطاب الزوجة - نصّاً مكتوباً - بخطاب يوضع بين قوسين:

(المرأة تنظر إلى صورة ابنها في ثياب الملاك، تنهض باتجاهها، تمسحها بكفها، وتقف طويلاً صامتة أمامها) (18)، وهو تعليق يحيل على أمرين: يتعلّق أولهما بالمؤلف باعتباره هو من زار المنزل وقام ببعض التّحقّقات الصّحفية ينقلها شهادة عيان. ويحيل ثانيهما على القلق الفكريّ الأدبيّ الذي صيغ وفق ثنائية الوجه واللقا، أمّا الوجه فهو المؤلّف، وأمّا القفا فهو الكاتب، ويُبرّر هذا التّوجّه بما كان المؤلّف عبّر عنه من أنّ هاجسه ليس صيغة الخطاب بقدر ما هي الرّغبة في التّعرّف إلى الحدث، حدث قتل خليل أحمد جابر: أسبابه وخلفيّاته؛ أمّا هاجس الكاتب فهو موضع هذا النصّ من أجناسيات الخطاب: فهل هو قصّة؟ «وهذه ليست قصّة (...) لكنّ القصّة حدثت» (9)، أمّ هي رواية الخبر مشافهة ترتدّ بأصولها إلى عصر الأبيشيّ (ت. 854 هـ) لتجد أصداءها فيما ترويّه الشّخصية أو الشّخصيات؟ أمّ هو الخطاب المسرحيّ وليس الرّكح خشبة المسرح إنّما هو مسرح الحياة والواقع يُصاغ لغة ومجازاً من محنة الذات إلى محنة الآخر دون حصرٍ أو تحديد؟

هي رؤية في محاولة محاصرة أجناسيّة الخطاب تردّدًا بين قول وإشارة تعكس الحركة في مختلف أطوارها وتجليّاتها، لكنّها لا تُوقِف القول أو تُقصيه بقدر ما تساعد على استئنافه وتحويله من الحديث عن الأب إلى الحديث عن الابن دون أن ينفي أحدهما الآخر، لكنّ يُحضّره ويُجلي صورته المألوفة غير المعروفة.

وفي بعض مستويات الخطاب، تُهيمن على الحوار الزّوجة حتّى يكاد يختفي أثره فيكون سرداً، وهو مباشرٌ بالنّسبة إليها غير مباشرٍ بالنّسبة إلى الزّوج: خليل أحمد جابر، إذ تردّد بعض أقواله جزءاً من أقوال الزّوجة من ناحية، وجزءاً من زمن ماضٍ من ناحية أخرى: «لكنّه قال لا، أنا موظّف ولا أشتغل إلّا في البريد على التّليفونات والبرقيّات، أنا لا أبيع الدّخان..» «لكنّه كان يقول لي إنّ يكره السّياسة، هذه ألأعيب الأجنبي ونحن لا دخل لنا، إنّهم يلعبون بنا مثل الطّابة، ونحن لا علاقة لنا». يُقطع صوت الزّوجة بصوت خليل أحمد جابر استرجاعاً ومحاولةً تعويض الغياب بالحضور يُصاغ استدراكاً ويتّخذُ قوله صبغة الحجة والمبدإ. وبما أنّ الزّوجة هي القطب المحرك للحدث والحديث - في الفصل الأوّل - فإنّ التّحوّل فيه يكون بما يشير إليه من ذلك: «اقتربت منّي وبدأت تتكلّم بصوتٍ خافتٍ» (26)، هي العبارة المؤدّنة بتوسّع دائرة الحوار ودائرة الأحداث أيضاً إحالة على العزّافة «الستّ خديجة»، لكن ليس صوتها وحده الذي يبنى سدى النصّ ونسيجه إذ هناك أصوات أخرى كصوت «أمّ عماد الكعديّ» وصوت الطّبيب، وفي الحقيقة كلّ الأصوات الّتي تساهم في الحوار وبه تساهم في طرح الإشكاليات والقضايا ومحاولة التّعرّف إليها، وتوهم هذه الأصوات بالتبدّل والتغيّر لكنّها أصداء لأصل، أو

هي الأشعة المنبثقة من المحور المتجاوبة معه²³.

وقد يكتفي المؤلف بالتقديم والطرح ليفسح المجال، مع كل فصل، للشخصية لتكون المتكلم/ السارد/ الراوي، ومع الفصل الثاني هو شخصية مضافة²⁴ «السيد علي كلاش» (45)، الذي يقطع صوته ليسلم الرواية قسراً إلى الطبيب من خلال الخطاب الباطني: «ولكن، لماذا يتكلمون بصوت مرتفع، اللصوص عادة، يتكلمون بصوت منخفض ويلبسون أحذية مطاطية حتى لا يشعر بوجودهم احد» (46).

إن كل طرف جديد يضاف إلى الحديث والحدث تكون له وظيفتان من حيث العلاقة بالراوي، فإما أن يقاسمه الرواية، وإما أن يُغيّبه ليحلّ محله، بما أن المسكوت عنه لا تعرفه غير الشخصية المتحدثة إما حواراً أو سرداً؛ وهو الشأن مع الطبيب الأرمني إذ يحول الخطاب المباشر مع الآخر إلى غير مباشر؛ بل ويحول أيضا الحوار إلى سرد: «قال (ويقصد أحد المسلحين الذين أنزلوه و زوجته من منزلهما إلى الشارع) إن قضية الأرمن تُشبه هذه القضية، وإن وإن».

لكني قلت إنّه من الأفضل لهم أن يغادروا البيت، فنحن لا مكان لنا للذهاب إليه، ثم هم يستطيعون أن يقيموا متاريسهم في مكان آخر.

كان يهزّ رأسه كأنه يوافق ثم حين أحاول أن أصعد مرة ثانية إلى البيت يمنعني» (48). ويفتح السرد أيضا على الحوار ف«علي كلاش» مثلاً كان يسرد، وانفتح خطابه على علاقته ب«موسى كنج» وما كان يدور بينهما من حوارات لها دورها على مستوى الراوي والرواية وهي أن تكشف الشخصية عن نفسها بنفسها من خلال أقوالها، فتتعدد الأصوات حوارات كثيراً ما تتخذ صبغة السرد وهو جماع عناصر بنويّة عديدة منها المكان الذي يصبح بدوره امتدادا

23 لمزيد التوسّع في هذا من الناحية الأدبية الأجنبية، انظر:

André Gaudreault ; « Du littéraire au filmique : système du récit » ; éd. Méridiens Klincksieck, Paris, 2^{ème} tirage, 1989 : 84 – 85.

24 نقصد باللفظة معنيين: أولهما: معجمي بما يحيل على الزيادة والتوسعة، وثانيهما: نحوي، وفق التركيب الإضافي على أساس الكناية، باعتبار خليل أحمد جابر هو المضاف إليه الثابت في جميع فصول الرواية، أما المضاف فمتبدل متغير: يضطلع الكاتب بالتعريف به تعريفاً مبدئياً في العتبة الثانية من كل فصل بين معقوفين؛ على أن يتم التعريف به - في مستوى ثان - من خلال علاقته بخليل أحمد جابر: الشخصية والحادثة.

على أن هذا التعريف الثاني يُخرج الشخصية من المحورية التي تهتم بها العتبة الثانية إلى الهامشية خدمة لقضية خليل أحمد جابر، فتكون العناية بالمُضاف من قبل المؤلف دون الكاتب، ويكون تجاوزهما معاً، إذ تُسلّم الرواية إلى الشخصية/ «المضاف» كشفاً لبعض ما غمض واكتشافاً لبعض ما انستر.

للشخصية (مثل نبيل عامر في الفصل الخامس) وهي تروي ماضيها، وتحمل هموم حاضرها (مثل فهد بدر الدين ورفاقه الثلاثة)، ففهد بدر الدين يضطلع برواية الآن صورة لها نظائر في رفاقه، فإذا لم يكن الموت فمن ظلاله الفقد، فقد العين والنور والضوء والبصر، الشخصية تروي المحنة والأمل بين التضخم والتضاؤل، يقول فهد بدر الدين: «وهذه العين لا تبكي، عين من زجاج، الزجاج لا يبكي، عندما ركبوها أحسست أنني أحمل جبلاً في محجري، أريد أن أقتلعها، ثقيلة وتافهة ولا تتحرك، كأنها شخص آخر، كأنها تراني ولا أراها. أريد أن أزليها. وتعودنا، وبقيت في مكانها الجديد، وصارت كأنها لا شيء». (171)

الزواي/ الكاتب إما أن يُسلم الرواية إلى الشخصية من خلال الحوار كي تكشف عن نفسها بنفسها، أو لتُبدى رأياً أو موقفاً ومن أمثلة ذلك صوت ندى (ابنة خليل أحمد جابر الثانية) إذ يتحول خطابها من حوار مقتضب إلى التحليل والتعليل والتبرير²⁵؛ وإما أن يجعله خطاباً غير مباشر تغيب من خلاله الشخصية قولاً وتدفع بالحدث نحو التطور سرداً، ومن أمثلة ذلك: «وحسنية، زوجته [زوجة زين علول] تقول له إن الحالة لم تعد تطاق، وهو يحاول أن يطفئ الأجواء» (129)؛ فقد تكون الشخصية هي المتحدث أو أن تكون متحدثاً عنها، وهو أمر لا يخص شخصية دون أخرى، أو فصلاً دون فصل، لكن من نماذجه أيضاً أن عرّف المؤلف بالشخصية: «فهد بدر الدين» من خلال العتبة الثانية من الفصل الخامس، ويغيب لتحلّ محلّه الشخصية تصويراً للذات وللأحداث التي شهدتها، ويلتقي عندها صوت الظاهر بصوت الباطن، كما صوته بأصوات أخرى ويتداخل الحاضر والماضي صورة الموت والقبر: «كأن شيئاً حاداً دخل إلى الأعماق. قلتُ راحت عليك يا فهد، ورأيت وجه أمي وهي تقول لي راحت علينا، والطائرات تحلق فوقنا كأنها الجراد. طائرات بيضاء، والزمل يدخل في العيون. وأنا جامدٌ، أنا ميت. يبدو أنه لا دموع في الموت، الموت لا دموع، لم أبك، حاولتُ أن أجلس، جسدي لا يتحرك، أنا في القبر، شممْتُ رائحة غريبة. هذه رائحة القبر، والميت يبقى في القبر، أنا في القبر، والقبر لا شكل له. القبر قبر. اللون الأسود، فقط الأسود، لا يوجد أي لون. ثم بدأتُ أرى دوائر سوداء وبنية وحمراء. الدوائر تتسع وتضيق، وأنا أرى الدوائر». (163)

25 يمتد خطابها من الصفحة 219 «كيف يفعل ذلك أمام الناس...» إلى الصفحة: 221 «.. بكل هذه الحجج»؛ هذا استرسال في الكلام الذي وإن كانت تقطعه تدخلات شخصيات أخرى وخاصة زوجها نديم، فإنها تبقى مهيمنة على الخطاب على امتداد الفصل السادس: «الملصقات» فتكون بذلك الشخصية/ الزواي/ السارد.

فإذا كانت الرواية في الفصل الثاني تقوم على التّضمين، فإنّها - مع الفصل الثالث - استطرادات يمهّد لها الكاتب من خلال الحديث عن الشخصية المحورية في هذا الفصل: «فاطمة فخرو» ليفسح لها المجال للحديث عن نفسها من خلال الآخرين ومن بينهم «خليل أحمد جابر» الذي لا تذكره وصفاً أو سرّاً بقدر ما تُفسح له المجال لكي يجيب بغير ما يوافق الاستفسار جزءاً من «الحبكة» التي أرادها الكاتب أو فرضها المؤلّف تعمية وغموضاً في قضية خليل أحمد جابر، كما في ملامح شخصيته: تُؤوّلُ بأكثر من طريقة حسب تصوّرات الشخصيات وتخميناتها.

قد يتداخل صوت الراوي/ الكاتب مع صوت الشخصية ممّا يؤصّل الجدَل تجاذباً بين الصّبغتين الواقعيّة في الحدث، والفنّيّة الروائيّة في الخطاب؛ ولئن كانت الشخصية تمثّل المستوى الأوّل، فإنّ الكاتب يجمعهما باعتباره الأصل في رؤية الحدث بمرآة العين كما بمنظار العقل، من ذلك مثلاً: «زين علول لا يعتقد أنّ الأمور بهذه الخطورة، عدا عن أنّ المسألة لا تهّمه. الناس تتأقّف، ونحن الفقراء نعيش، الأوساخ مثل إبر التلقيح» (128). إنّهُ يتحدّث عن محنة قد تبدو ذاتيّة أو آنيّة لكنّ ما تجلّى من أصداء يبين أنّ هناك علاقة تلازميّة بين مكونات الخطاب السردّي، وأنّ الانسجام لا يتأتّى من مقوم واحد بل من مختلف العناصر ومنها الزّمن.

- الانسجام في علاقة الراوي والرواية بالزّمن

مع تعدّد الأصوات وانصهارها ينتفي مفهوم الزّمن ويصبح متمركزاً في نقطة واحدة هي وقت التّلقّظ بالخطاب دون الرّغبة في الوعي به أو بحث الشخصية/ الزّوجة عن معناه الحقيقيّ في الواقع أو في الحدث، من ذلك مثلاً، أنّ ما تقوله زوجة خليل أحمد جابر هو: «مجموعة متناثرة من الأقوال والأجوبة والأحاديث المنسوبة» (15) إليها يجمّعها المؤلّف ويصوغها الكاتب في فصول متشابهة شكلاً مختلفة حسب موضوع الفصل والشخصيّة الرّئيسيّة فيه، فيلتقي بذلك صوت الراوي/ الكاتب بصوت الشخصية، ويلتقي أيضاً صوت الحاضر بصدى الماضي، ومن تجلّياته الحوار الذي دار بين زين علول وأمّه: »

- لكنّهم يأكلون التّراب والأوساخ يا أمّي.
 - بنسلين يا ابني، اتركهم، البنسلين هو غفن، والأوساخ غفن، اتركهم.
 - هذا غير معقول.
 - بلى، أنا الممرّضة أخبرتني عن البنسلين « (128 - 129)؛
- وليس لأيّ شخصيّة أن تكون فرديّة أو مفردة لا في الحدث ولا في الحديث،

وهو ما يؤصل ازدواجية دلالة لفظة الرواية بين أن تكون دالة على الملفوظ الشفويّ مثل «يقولون» (130) نسبة إلى غير مسمّى ممّا يحيل على رواية المشافهة الأصل الذي يأتي عفو الخاطر ويقترب بالوجدان والانطباع أكثر من العقل والاستجلاء، أو أن تدلّ على رواية المكتوب الفرع الذي صيغ على أساس التأليف والنظم والتّداعي المنطقيّ فهو الجنس الأدبيّ بين الحدود والإمكان فالنّجّاوز شكلا من أشكال التّجريب في خطاب الكاتب كما في خطاب الشّخصيّة، ومن نماذج ذلك أنّ صوت «فاطمة فخرو» في الفصل الثالث، متضائل لا يكاد يتجلّى إلّا من خلال ردود على تساؤلات هي اعترافات لا تكاد تشي بمعرفة يقينيّة؛ أمّا الصّوت الغالب فهو صوت المؤلّف: يصف ويسرد مزيجاً من تجلّيات علاقات بين «فاطمة فخرو» وزوجة صاحب البناية من ناحية، وبين «فاطمة فخرو» ورجال المباحث من ناحية أخرى. ومن النّماذج أيضاً، أن يتوقّف خطاب ابن الدّكتور خاتشا دوريان: الطّبيب الأرمنيّ، ومعه تنتهي رحلة العمر والتّجربة بالنّسبة إلى أبويه بصفة لا إراديّة، لتكون الإرادة فعله هو ذهاباً ولا رجعة إلى الماضي ولا إلى بروت. على أنّ الزمن الماضي لا ينقطع في الخطاب السّرديّ، إنّما يُنحطّ من الذاكرة، وينشأ ذكرى حيلة فنيّة يتدخّل بها الكاتب ليغلق القصّة المضمّنة، قصّة الطّبيب الأرمنيّ بكلّ جزئياتها وتفصيلها ليعود فيستأنف القصّة الإطار قصّة خليل أحمد جابر كما يراها علي كلاش ويتذكّرها، فيكون هو منشئ التّدكر خطاباً ونصّاً: «علي كلاش يتذكّر.

أنا أتذكّر، المرّة الأولى التي التقيته بها كانت في المساء...» (59)؛ قرين زمنيّة لا تفيد التّحديد بقدر ما تضاعف خاصيّة التّعمية التي تميّز الحدث كما صيغته، فالمسارات المتعدّدة التي يقوم عليها النصّ تتكفّف وتتقاطع من خلال تفاعل مختلف الأنظمة اللّغويّة في بعديها الدّلاليّ والبنويّ التّركيبيّ أساساً يتجلّى في خطوطه الكبرى عبر أنماط الكتابة بين الكلّيّ الأجناسيّ (المشترَك بين مختلف الأجناس - وإن بتجلّيات مختلفة -) والتّجزئيّ الخصوصيّ في علاقات تبادليّة ارتباطيّة في آن.

- الانسجام في علاقة الرّواي والرواية بأنماط الكتابة

ينصهر الخبر في الخطاب من خلال المحاكاة: يرُدّ النصّ على لسان فهد الذي عاش الألم فيعجز عن أن يحكيه بصدق الانفعال والشّعور: «أنا محمّد السيّد، مقاتل في القوات المشتركة للثّورة الفلسطينيّة والحركة الوطنيّة اللبنانيّة، نحن نقاتل من أجل عروبة لبنان واستقلاله ووحدته، وتحرير فلسطين، ضدّ الامبرياليّة والصّهيونيّة والفاشيّة والرّجعيّة. ستوب. انظروا إلى جرائم الفاشيّة. ستوب. الحرب، نحن لا نحبّ الحرب، نحارب من أجل السّلام.

ستوب. الفاشية ترتكب الجرائم الوحشية ونحن ندافع عن الناس والأطفال. ستوب. الكثير من أصدقائي استشهدوا، حملتهم بين ذراعي وكانوا وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة يرددون شعارات الحرية. ستوب. أنا أصبْتُ، عيني أصيبت، هل تعرفون عيني. ستوب» (174)؛ ويحكيه المخرج فيكون صدى صادقا لتجربة لم يعيشها إلا من خلال الفن والتمثيل: «أنا محمد السيد، مقاتل في القوات المشتركة للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، نحن نقاتل من أجل عروبة لبنان واستقلاله ووحدته، وتحرير فلسطين، ضد الامبريالية والصهيونية والفاشية والرجعية. انظروا إلى جرائم الفاشية. الحرب، نحن لا نحب الحرب، نحارب من أجل السلام. الفاشية ترتكب الجرائم الوحشية ونحن ندافع عن الناس والأطفال. الكثير من أصدقائي استشهدوا، حملتهم بين ذراعي وكانوا وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة يرددون شعارات الحرية. أنا أصبْتُ، عيني أصيبت، هل تعرفون عيني.» (175)؛ وتنعكس المسألة أيضا بما «يخدم القضية» (176)، وتقول إحدى الشخصيات: سمر: «لا يا فهد، نحن لا نطلب منك أن نُمثِّل، نطلب الحقيقة» (177)؛ وبين الحقيقة والتمثيل، والواقع والفن تنشأ إشكالية المضطلع بإنشاء الخطاب: من أين ينبع وإلى أين يؤول، فالمؤلف في هذه الرواية هو غير الكاتب، وكلاهما قد يختلف أو يأتلف مع السارد وهو متعدّد إذ يجب من ناحية إرجاع المسؤولية الأولى في محتوى القصة بأكملها إلى هذا الضمني الملح الذي نتفق على تسميته بـ: «السارد الأصلي» ومن ناحية أخرى، أن نُقي اعتبار أن كل قصة، حتى تلك التي تبدو من فعل ساردين من مستوى ثانٍ مُصرّح بهم وثابتين، هي تحت مسؤولية ذاك الذي سمّيناه «السارد الأصلي»، والذي يمكن أن نعتبره أيضا صورة الضمني من النصّ، الذي يمثله كاتبه الحقيقي والفعلّي، ذاك الذي ينبغي أن نُبعده عن دائرة النصّ وأنّ «نقصيه» من «السردية» (Gaudreault, 1989: 88)؛ إلا أن هذا لا ينفي النقاء صوتي كلّ من المؤلّف والسارد (و كلاهما يمثّل خلفيّة الكاتب) في أكثر من موضع من الرواية من ذلك بداية «المدخل» - أول أجزاءها - : «هذه ليست قصة، وهي لن تلفت نظر القراء بشكل خاص، فالناس مشغولون في هذه الأيام بقضايا أكثر أهميّة من قراءة القصص أو الاستماع إليها، والناس معهم كلّ الحق. لكنّ القصة حدثت». (15)

وإذا غاب كلّ من المؤلّف والكاتب واضطلعت الشخصية بالرواية، فإمّا أن يكون خطابها باطنياً أو أن يتحوّل هذا الخطاب الباطني إلى مباشر من خلال السرد: «قالت لي هذا بيتك، وأنت لست رجلاً، وخرجت إليهم، لا لم تخرج، هم أخرجونا. كنّا نجلس في البيت، وكانت أصوات الانفجارات قريبة جداً، وأنا لم أكن خائفاً، كنت أجلس بهدوء وأستمع إلى الرّاديو، وهي كانت في غرفة الطّعام تقرأ، حين رأيّناهم، كانوا وكأنّهم يخرجون من الحيّطان، يحملون

أكياس الرّمل ويستقونها على نوافذ البيت». (47) ويكون التدرّج إلى الحوار الثنائي بين الطبيب وزوجته، وبينهما والمسلّحين الذين اقتحموا عليهم منزلهم.

يحلّ الحوار محلّ السرد نمط كتابة، إلّا أنّه لا ينفصل عنه من حيث الصبغة الإخبارية التّقريرية، وهو الشّأن ذاته بالنّسبة إلى الكاتب يجعل الشّخصيات مخبرة عمّا يريد التّعبير عنه من قضايا وإشكاليات لكن دون أن يغيب كلياً إذ ينشئ الفصل وفيه أصداء ممّا سبقه من فصول، كما يجعل علاقة انصهار بين الواقع والخيال، وبين الحقيقة والفنّ، وفيه أصداء أيضاً من النّخوم التي تنفي الفواصل القاطعة بين مختلف المجالات، الكاميرا والسّنيما والإعلام. وقد لا يكون الاختفاء أو الذّهاب طريقة من طرُق فكّ أسر السرد تقيداً بقصّة أو شخصيّة مروراً إلى غيرها، فقد يكون الدّالّ/ الرّايي جُماع مدلولات عديدة هي في الآن ذاته بين الشّخصيّة والمؤلف والكاتب؛ كما بين حيرة الحاضر استقهماما ويقين الماضي إخباراً: مرجعيّات عديدة تتّصل في ذات فهد بدر الدّين إذ يقول: «وأبقى، كيف أترك وإلى أين أذهب؟

كيف نترك الشّهداء؟ أذهب إلى المقبرة وأتكلّم معهم، كلّما حدثت مشكلة هامة أذهب إلى هناك، أقف أمام مقبرة طلال، أكلمه وهو يجاوبني.

يقول لي بسيطة. فأصدّقه». (199)

إنّ للرّواية أصداءً متعدّدة مختلفة سواء أ كان ذلك وفق ثنائيّة الظّاهر والباطن من الخطاب أو الحوار، أو مراوحة بين الصّوت «الأصليّ» وغيره من الأصوات المتدخّلة المتداخلة قطعاً فتسليماً فاسترجاعاً خاصّة من قبل المؤلّف الذي ينقل - منذ بداية الرّواية - ما قرأه في الجرائد والصّحف من اعترافات كالتي ذكرها الشّبّان الثلاثة الذين قاموا بمختلف الجرائم المتعلّقة بالطبيب الأرمني: وهو نقلٌ يمتزج فيه الوصف بالسرد بالحوار الذي دار بين المجرمين الثلاثة: سمير الصّمد؛ أحمد الحسيني؛ عصام كلاج، وبينهم وزوجة الطبيب الأرمني. وتتوفر في النّصّ قرائن دالة على اضطلاع الشّخصيات في الآن ذاته، بالمساهمة في الأحداث كما في روايتها بمختلف الجزئيات والتّفاصيل: «عاصم يروي - يقول سمير - أحمد يُسكّثُ سمير ويقول إنّّه فوجئ...» (54 - 55)، فقد يسكت الرّايي/ المؤلّف عمّن يضطلع بالوظيفة عوّضاً عنه من الشّخصيات، إلّا أنّ الرّايي/ الكاتب كثيراً ما يحيل على هذه القرائن اللّغويّة التي تنبئ باستئناف الحوار، أو بانتهاء بنية كبرى فرعيّة من مستوى ثانٍ إذاناً بالعودة إلى البنية الكبرى الأصليّة أو بالتحوّل إلى بنية كبرى فرعيّة أخرى من مستوى ثانٍ، وكلّ بنية كبرى فرعيّة قد تتوزّع إلى أبنية كبرى فرعيّة من مستوى ثالث.

وقد تضطلع الشّخصيّة بالرّواية بصفة محوريّة من ذلك علي كلاش

في الفصل الثاني، إلا أن طريقة السرد تتميز بخاصتين: الأولى: أن السرد ليس محضاً، إذ كثيراً ما يمتزج بالوصف، أو بالحوار الذي له ميزتان أيضاً، فقد يطول فيتحوّل بدوره إلى سرد، وقد تتعدّد أطرافه فيكون نمط كتابة يؤصل أجناسيّة الرواية؛ على أنّه في مواضع عديدة، تغيب شخصيّة السارد (وفي هذا الفصل هو علي كلاكش) لتحلّ محلها الشخصيّة المتكلّمة في الحوار - في دورة لا تنتهي إلا بانتهاء «القصة» أو الموقف أو ردّة الفعل. على أن تغيب الشخصيّة الساردة المحوريّة لا يكون إلا إلى حين تستأنف معه وظيفتها السردية، وما يضمن بقاءها هو فاعليتها في الخبر: أحياناً متنوّعة متشعبة إلا أنّها منسجمة على أساس الدّاعي الذي يفتّد ما قد يتبادر إلى ذهن المتلقّي أو القارئ للمرّة الأولى من أن الخبر إن هو إلا شتات أخبار لا رابط منطقيّ بينها.

والخاصية الثانية التي تميّز السرد تحيل على هامشين: ما يعرفه علي كلاكش عن خليل أحمد جابر، إذ يتحوّل هذا الحديث إلى شيء ثانويّ مقارنة بما ينساق السارد وراء روايته، وهو ما يمثّل الهامش الثاني الذي يفتح على ما حدث لعلّ كلاكش²⁶، أحداث ووقائع تتعدّد وتختلف لكنّها تجتمع في حياة علي كلاكش التي وجّهتها أيضاً قصّته مع خليل أحمد جابر منطلق رواية في الفصل الثاني ومنتهها أيضاً دون أن تنتهي «القصة» إذ كانت نهاية الفصل منطقيّة مؤدّية مضمونا واستدلّالا إلى منطلقها في اتجاه عكسيّ، بما أنّه قد وقعت الإشارة منذ عتبة الفصل الثانية إلى أن علي كلاكش «مقتنع بأنّ معلوماته لا تقود إلى نتيجة» (45)، والنتيجة حديث عن كلّ شيء ولا شيء: كل شيء إذ تحدّث علي كلاكش عن أصداء المحنة والألم والمعاناة التي لا تفرق بين الأفراد ولا الجماعات، ولا بين الأجناس أو الأعمار، فهي الحياة ولا معنى، كما أنّه الموت ولا معنى يرادف اللاشيء الذي اقترن بحديث علي كلاكش، في مفهوم أول، وفي مفهوم ثانٍ إذ تُربط المسألة بقضية خليل أحمد جابر. وما لم يُروّ هو الذي يضمن توسيع دائرة الرواية القول كما الجنس الأدبيّ تمطيّاً في الخطاب وامتداداً لظلال الشخصيّة المحوريّة وأصدائها في

26 قصة علي كلاكش مع:

- خليل أحمد جابر؛
- الطيّب الأرمنيّ؛
- موسى كنج وزوجته ناديا؛
- حادثة السيّارة والمسلّحين؛
- قصّة ابنته عايدة؛
- زوجته إنعام وأبيها؛
- موسى كنج والمومس الشّقاء، والأخرى السمراء.

مختلف المرجعيّات والسجلاّت صِلاتِ أبنية صغرى وكبرى بالعليا المؤرّعة بدورها بين أصليّة وفرعيّة في هيكل الخطاب الأجناسيّ الذي جيّث بعض خيوطه من الرّواة.

الرّواة: تلخيص الرّواية - من هذا المنظور - وفق الجدول التّالي:

الفصل	الراوي الأوّل ²⁷	عدد القصص المضمّنة ²⁸	الرّواة الفرعيّون (عددهم)
مدخل	المؤلف	6	لا يوجد
الفصل الأوّل	السّيّد نهى جابر	2	الكاتب (1)
الفصل الثّاني	علي كلاش	7	الكاتب - الطّبيب الأرمنيّ: خاتشا دوريان - المؤلّف - عاصم كلاج - سمير الصّمد - أحمد الحسيني - ابن الطّبيب الأرمني - ناديا: زوجة موسى كنج (8)

27 نقصد بالأوليّة الرّواية المباشرة دون اعتبار المؤلّف والكاتب، لأنّ كليهما قد يحضر - بصفة مباشرة أو غير مباشرة: بصفة ضمنيّة إيحائيّة أو نقدية - كما قد يغيب، فتضطلع الشّخصيّة الرّئيسيّة في أحداث الفصل المَعنيّ برواية الخبر أو الأحداث، على أن تُسَلِّمَ - في مستويّات لاحقة - الرّواية إلى سائر الشّخصيّات المساهمة في الحدث والمنشئة للحديث أيضاً: يبدأ حواراً ليتخذ صبغة السّرد؛ ومن هنا كان الاصطلاح على تسميتهم بالرّواة الفرعيّين.

28 نريد بالتّضمنين ما يقاس إلى القصّة الإطار، الفرعيّة الّتي يمثّلها كلّ جزء من الرّواية في كليّتها، والتّفريع هنا هو بالقياس إلى القصّتين الإطاريّتين اللّتين تسيّران بتوازيّ وهما: قصّة خليل أحمد جابر من ناحية، وقصّة ابنه أحمد من ناحية أخرى. ولئن أوهم الكاتب بأنّ ثانيتهما هامشيّة بالقياس إلى أوّلهما، فهذا لا يتجاوز مستوى الانطباع الأوّل؛ فالعلاقة الحقيقيّة بين القصّتين الإطاريّتين ليست قائمة على تفويض إحداها على الأخرى، وإنّما هما تسيّران في تجاذبٍ وتناظرٍ فتماهٍ بين الشّخصيّتين، بلّ بين جميع الذّين ماثوا شهداء في مختلف أحداث الرّواية واختزلوا جميعاً في رَمَزٍ: تمثال «حبيب أبي شهلاّ، فهو أحد صُنّاع استقلال لبنان، ثمّ إنّ تمثالَه هو التّمثال الوحيد لقادة الاستقلال الذي لم يسقط في الحرب الأهليّة» (الوجوه البيضاء: 10)؛ فإذا هذه الشّخصيّة هي المُطلق في الفاعليّة والحديثيّة والخطابيّة/ النّصّ المُنفّتح، اقتراناً بتداعي الأفكار وبارتباط التّجارب بعضها ببعض: تواصلٌ في الأحداث وتشابكٌ في البناء.

الفصل الثالث	فاطمة فخرو	5	الكاتب - المؤلف - خليل أحمد جابر (3)
الفصل الرابع	الكاتب	8	زين علول - المؤلف - الجراح: مروان بيطار (3)
الفصل الخامس	فهد بدر الدين	11	المؤلف - نبيل عامر (2)
الفصل السادس	المؤلف	6	ندى: الابنة الثانية لخليل أحمد جابر - نديم: زوجها (2)
خاتمة مؤقتة	الكاتب	6	المؤلف - طبيب الأسنان: عجاج أبو سليمان (2)

لقد تجاوز الكاتب «بتعدّد الرواة والروايات أحد عناصر الكتابة الروائية المتعارفة في الأدب [الكلاسيكي] والمتمثل في وحدانية الراوي ومحورية السرد الروائي». فتوزّع المركز السردّي إلى مواقع مختلفة، فكان مفهوم الرواية شبيهاً بالمجاري السردية التي تختلف منابعها إلا أنها تلتقي في مصب واحد (الكيلاني، 1990: 87)، وهذا يعني أنّ «الوجوه البيضاء» كانت مغامرة في الكتابة وتجاوزاً للنمطية في السرد.

ويبدو نصّ الرواية ككلّ متنازعاً بين صبغتين:

- تقريرية إخبارية تتعلّق بمباحث رجال الشرطة من ناحية وبما نقشيه الشخصيات من أسرارها إذا ما غلب صوتها صوت الراوي، وهو في نقل التقارير المؤلف «بحجّة أنّه صحافي (...) ويريد تغطية الحدث»؛ (15)

- أدبية فنية يصوغها الكاتب. ولئن كان المؤلف لا يجد عناء الصياغة في نقل الخبر إذ يقتصر على تقديمه كما يرويهِ الآخر/ الشخصية، أو كما يقول إنه يقرأ ذلك في الصحف والجرائد، فإنّ الكاتب يسرد وينقد ويقوم ويوفّر عنصر التشويق بما يضفي علامة دالة على أجناسية الخطاب من الناحية الفنية؛ فالكاتب يتحمّل عبء المؤلف والشخصيات والجنس الأدبي الذي يأبى عن المحاصرة - وإنّ أرادته رواية - ولكنّ الرواية لا تكون إلاّ تعدّد أصوات وتشابك حكايات وقصص، وهو ما يبرّر تداخل هذه الأصوات فقد يكون الراوي هو المؤلف، وقد يكون الشخصية، وقد يكون الكاتب، كما هو الشأن في

الفصل الثالث.

على أنّ هذا التّمييز لا يتجاوز الفرق بين وجه الورقة وقفاها، لكليهما خصوصيّة لكن لا يمكن الفصل بينهما إذ يمثّلان ذات العنصر. ولئن كان الطّرفان الأوّلان يساهمان في الحدث - وإنّ بنسب متفاوتة وتكاد تكون ضرباً من التعمية بالنسبة إلى المؤلّف - فإنّ الكاتب يتمحّض للرّواية سرداً قد يمتزج بالتّقد الصّمنيّ في الفصول السّتّة، ويحيل على حيّرة في الفصل السّابع في بُعدين: حدثي يلتقي من خلاله صوت المؤلّف مع صوت الكاتب، وبعد أدبيّ يلتقي فيه صوت الكاتب مع فكر المتلقّي لتشريكه في إعادة إنتاج الخطاب.

ما ننتهي إليه - من خلال النّظر في الأبنية وأهمّ سماتها البارزة المميّزة - أنّها رغم تمايزها واستقلالها، فإنّها تقوم على التّراكم والتّداخل والتّجاوب سواء أ تعلّق الأمر بأصداء الشّخصيّات ومرجعيات الخطاب وسجلّاته ومعاجمه، أم بتردد الأصوات في رواية الخبر وسير الأحداث. إنّ الأبنية الصّغرى، والكبرى، والرّغلا فيها من الخصائص ما يرشّح اندراج نصّ «الوجوه البيضاء» ضمن الرّواية جنساً أدبيّاً سرديّاً؛ إلّا أنّ الطّريقة التي اختارها إلياس خوري لا تدلّ على جدّة وطرافة بقدر ما تحيل على زخم من الأحداث والمواضيع، كما تشعّب كبير في طرُق البناء والتّفكير، ممّا قد يوهم بعدم انسجام محطّات الرّواية في مستوياتٍ هي:

المستوى 1: مؤلّف محسوس وقارئ محسوس.

المستوى 2: مؤلّف نظريّ وقارئ نظريّ.

(«نموذج»)

المستوى 3: السّارد والسّرديّ.

المستوى 4: الفواعل.

المستوى 5: المحطّات في الملفوظ. (Adam، 1994: 221 - 229)

إنّ أهمّ خيط ناظم لبناء الرّواية ككلّ هو الشّخصيّة المحوريّة: خليل أحمد جابر الذي يكون مدى حضوره أو غيابه في أيّ فصلٍ من الفصول رهين طبيعة الأحداث وخصوصيّات الشّخصيّات وملامحها، ممّا يدلّ على أنّ هاجس إلياس خوري لم يكن الجنس الأدبيّ عامّة، أو الجنس الأدبيّ المخصوص رواية بالأساس، بقدر ما كان المشغل هو التّعبير عن قضيّة تتفتح في الواقع على اللّامحدود من القضايا، وفي الخطاب على العديد منها، بما يجعل الرّبط بينها غير منطقيّ وإنّما هو تعسّفيّ سواء في الانتقال من فصل إلى آخر، أو من حدث إلى غيره في إطار الفصل الواحد كما من

شخصيّة إلى شخصيّة مخالفة مجانسة في آن: أمّا الخُلف ففي الملامح، وأمّا التّجانس ففي «القصة» لا يلتزم فيها الكاتب إليّاس خوري بالمقومات الأجناسيّة بقدر الانسياق وراء ما يرويّه المؤلّف سردًا هو أقرب إلى الواقع منه إلى الأدب في صياغته الفنّيّة الإبداعية.

ومسألة محاصرة جنس هذا النّصّ: «الوجوه البيضاء» تتعدّى منشئه لتشمل قارئه وناقده، إذ يبدو النّصّ وقد ألقت عليه أجناسٌ أخرى غير الرواية بظلالها، كالاقرافات، ثمّ السّيرة بين ذاتيّة، وأخرى غيريّة، بل لعلّ النّظر إلى كلّ جزء من هذه «الرواية» على حدة يكون أنجع، ومبرّر هذا التّوجّه أنّ رسم مخطّط هذا النّصّ بطريقة الشبكة التي تتصلّ عناصرها تشجيريًا، أو علاقاتٍ تراتبيّة يفضي إلى قراءة الأجزاء (المدخل؛ والفصول الستّة: كلّ فصل على حدة؛ والخاتمة المؤقّته) كلّ جزء منفصلاً عن سابقه فلاحقه؛ وهناك نوع آخر من القراءة وهو الفصل شكلاً ومضموناً بين مختلف «القصص المضمّنة» فيؤول الأمر بالدارس إلى جنس القصة القصيرة أو الأقصوصة؛ وهناك نوع ثالث من القراءة وهو إقصاء جميع «القصص المضمّنة» ولمّ شتات القصة الإطار وهي قصة خليل أحمد جابر، بما يُخرج النّصّ من إطار الرواية جنسًا أدبيًا إلى إطار القصة.

على أنّنا، في القراءة التّجزئيّة، سنعتمد على المنهج الأوّل استنادًا إلى أحد فصول الرواية والبحث في أنماط الكتابة فيه وفق المنوال الذي يُعتبَر معيار أجناسيّة الخطاب، وما ذلك إلّا في إطار علاقة الأبنية الصّغرى بالعليا، مع ما يمكن أن تودّي إليه هذه القراءة التّجزئيّة من نتائج.

2. 1. 2. المستوى الثاني: قراءة تحليلية تجزيئية للفصل الخامس: «التحقيق» بالبحث في أنماط الكتابة بين الإجراء والتّظهير: هل هو التّوافق، أم الاختلاف والخصوصية؟²⁹

يُنرجح الاهتمام بأنماط الكتابة السردية – سواء أكان من حيث الإنتاج أو إعادة إنتاج النصّ قراءة وتأويلاً، وهيكلته بحثاً عن الأنموذج الذي يُدرج النصّ ضمن الخطاب الأصليّ المُحتذى – في إطار البحث عن الوحدات الدّنيا التي تكوّن النصّ وتمثّل قاعدته اللّغوية والنّحوية والأجناسيّة للانتهاء إلى المنطق الذي يحكم نسيج النصّ ويسير به نحو النموذج المعتمد في الدّراسة وما يمكن أن يفضي إليه البحث من نتائج.

ويُبرّرُ الاستناد إلى هذا الفصل من «الرّواية» دون سواه إلى خصوصيّاته في بنائه العامّ – كما بيّنتُ ذلك في عنايتي بالأبنية العليا، ومختلف المستويات التي تُكوّنها – . وتقوم هذه القراءة التّجزئية على مراحل هي التّالية:

2. 1. 2. 1. المقطع السردى: أنموذج المتتالية السردية

1) وضع البداية في هذا الفصل هو عتبه التّانية التي تكوّنهما المقومات التّالية:

29 اتّخذنا سنّد عملٍ كتاب:

J. M. Adam (1997). *Les textes types et prototypes Récit, description, argumentation, explication et dialogue*, (collection crée par Henri Mitterrand – Série « linguistique »), Paris, Edition Nathan.

إذ تناول نماذج سردية عديدة بالدّراسة والبحث سعى من خلالها إلى التّوصّل إلى الأنموذج الذي يمكن احتداؤه مع كلّ شكل من أشكال الخطاب الأدبيّ خاصّة؛ على أن انطلاقاً منه في الدّراسة والبحث لا يعني أن ما توفّر في الكتاب من نتائج هي نهائية ومطلقة لأنّ النّصوص لا تخضع دائماً لنمطيّة الخطاب، إذ هناك عناصر حيويّة متبدّلة متغيّرة تتحكّم في النصّ أو النّصوص فتجعل له خصوصيّة – وإن كانت هناك أسس مشتركة بين جميع التّجليات الإجرائيّة لعلّها التي أراد أن يثبتها وينتهي إليها.

وما نريد أن نجيب عنه هو ما شغلنا من طبيعة العلاقة بين التّظهير والتّطبيق وكيف يمكن أن يتحقّق التّناظر – وربّما الانصهار بين المنظورين – مع ما يمكن أن يوجده الأثر المدروس من خصوصيات نسعى إلى تبينها على أكثر من مستوى في النماذج النّصيّة المتعدّدة ومن خلال المداخل المنهجية المختلفة.

(توجيه الحدث أو الشخصية) ← متتالية³⁰ الأحداث الأولى: م 1

(ل1): لحظة التحوّل في
متتالية من الأحداث.

اضطلع بتبيير الحدث والشخصيّة معاً، من حيث صلة «فهد بدر الدين»
بالقضية، و«كلّ علاقته بالمسألة، أنّه التقى بالمغدور خليل أحمد جابر، لمُدّة
عشر دقائق، لم يأتِ إلى الجنازة ولم يُعزَّ بالشَّهيد» 161

ولحظة التحوّل في متتالية الأحداث الأولى هذه، أنّ فهد بدر الدين كان
«يعاني من مرض في عينيه»

← حدودها: من قوله: [فهد بدر الدين... إلى «...أعزّب» 161

(2) العُقدة: القادح [1] ← متتالية الأحداث الثانية: م 2

كانت نتيجة قادح: التحوّل إلى الجبل بما ولّد متتالية من الأحداث ثانية:

← حدودها: من قوله: [أنا هنا... إلى «...كنتُ أقول لهم، كنتُ...» 163

(3) أحداث أو تقويم ← متتالية الأحداث الثالثة: م 3

تأتي جملة من الأحداث في إطار تقويم للحادثة:



كان في مستوياتٍ عدّة ووفق لحظات تحوّل مختلفة
باختلاف الشخصيات ومواقعها من الحادثة: الممرضة والطبيب؛ كمال:
صديق فهد بدر الدين الذي يُقيم بأمريكا؛ فهد بدر الدين نفسه.

ويمثّل كلّ مستوى من مستويات التقويم لحظة تحوّل في هذه المتتالية:

(2ل) + (3ل) + (4ل)

→ « حالته أفضل يا حكيم... العين الثانية سليمة » 164

→ « أخبرته عن عيني... صورتها » 165

→ « وجدت نفسي... وأنا أرى الدوائر » 163

30 المتتالية قد تقتصر على حدث واحد، وقد تتجاوزه؛ وهذا مرتبطٌ بالبنية الكبرى موضوعاً
يوحد بين الأحداث التي ليس شرطاً أن يراعى فيها ترتيبها الخطّي في المقطع أو النصّ
السردّي.

(4) الحل: القادح [2] ← متتالية الأحداث الرابعة: م 4

= المستشفى والعمليات

← حدودها: من قوله: [تأتي الممرضة...] إلى «...إني أستطيع» [167

(5) وضع النهاية ← متتالية الأحداث الخامسة: م 5

← مُتَّصِلَةٌ بِالْمُخْرَجِ وَسَمَر: سغيهما إلى إقناع فهد بكشف الحقيقة من خلال المزاوجة بين الواقع والتَّمثِيل عَبْرَ السَّيْنَمَا: «قالوا إنهم يُعَدُّونَ فِيلْمًا عن الحرب. ويريدون من أحد المقاتلين أن يروي مشاهداته أمام الكاميرا.

فكرة الفيلم، كما شرحها المخرج (...) هي أن يقف مقاتل أمام الكاميرا، ويروي مشاهداته، والكاميرا تنتقل من مكانٍ إلى مكانٍ» 173

(ل5): لحظة التَّحوُّل الخامسة:

يروي فهد: «طَبْعًا رَفَضْتُ أَنْ أُمَثِّلَ، لَكِنَّهَا لَمْ تَزَلْ، حاولتُ إقناعي لَكِنَّهَا لَمْ تَزَلْ، قالتُ إِنَّهَا تحترم موقفي ثُمَّ اخْتُفَّتْ»³¹ 188

(Adam, 1997: 54)

إنَّ خصوصيَّةَ هذا النَّمُودَجِ السَّرْدِيِّ أَنَّ وضعَ البداية - ومن النَّاحِيَةِ المنطقيَّةِ في تتبُّع الأحداث - هو وضعُ النَّهايةِ، والعكس صحيحٌ أيضًا. واللَّافِتُ لِلانْتباهِ أيضًا، أَنَّ وضعَ البداية يُوهمُ بالِغَايَةِ بخليل أحمد جابر، ولكنَّه لَمْ يَكُنْ إِلَّا القادحُ الأَصْلِيَّ لحدِيثِ فهد بدر الدِّين عن مختلفِ التَّجاربِ والمَحَنِ التي مرَّ بها فأفرزَتْ وضعه «الحاليَّ» إذ يقول: «كان ذلك في صبيحة 12 نيسان،

31 مِنْ حيثِ محاولة محاصرة أنموذج سرديٍّ واحد، يبدو الأمر عسيرًا لأمرين: أولهما: تَشَعُّبُ المتتالية الواحدة وتفرُّعها إلى عدَّة جزئياتٍ وتفاصيل تتأى في أحيان كثيرة عن الحدث المحور الذي يمثِّل موضوع المتتالية المركزي، فلابدَّ، بناءً على ذلك، من تتبُّع الفصل بأكمله للفوز بذلك؛ أمَّا تحديد الأقسام جميعًا، فهذا عملٌ يطول وقد يؤدي إلى كتابة صفحاتٍ عديدة لا تكون إلَّا نسجًا للنَّصِّ الأَصْلِيِّ، دون أن يكون لذلك كبيرُ فائدة، لذلك اقتصرْتُ، في تبْيِينِ البنية الكلِّيَّة السَّرديَّةِ إلى ذِكْر أهمِّ الأقسام أو العبارات المُوفِية بالغرض؛

وثانيهما: أنَّ هذه البنية الكلِّيَّة السَّرديَّة لَيْسَتْ حَكْرًا على النَّمُودَج النَّصِّي الذي اعتمدته - وقد برَّرْتُ بَعْدَ اختياري - وإنَّما يمكن القياس عليه في مختلف القصص المُصنَّعة؛ بقي أنَّ ما سيَتغيَّر طَبْعًا هو طول المتتالية أو قصَرُها - حسب الأحداث التي تحتويها - كذلك لحظات التَّحوُّل فيها: عددًا ونوعًا ووظيفة في نطاق سرِّد الأحداث وبيان طبيعة الخطاب.

أنا في المكتب، أعدّ الشاي وأستمع إلى إذاعة مونت كارلو، أغاني أجنبية متنوعة، وأعدّ طعام الفطور، بنينة مسلوقة وقليل من الجبن والزيتون، لم أكن أنتظر أحداً أو أتوقع حدوث أي شيء. هم ذهبوا، أنا لم أعد أهتم كثيراً بالموضوع، نجلس في المكتب من الصباح إلى المساء وننتظر الأوامر. وأنا أنتظر الأوامر (...) 161

لم أكن على علم بالقضية من أساسها، فأنا منذ فترة لا أتعاطى. أجلس وأنتظر. لماذا يجلبون هذا الرجل إلى هنا؟ 162

(...) قال لي الأخ عمر إنني لم أعد أصلح للقتال ويجب أن أعود إلى بيروت (...)

عدتُ إلى بيروت، وأقمتُ في هذا المكتب ولم أغيره بعد ذلك. أنا مستعدّ دائماً للقتال، لكن لا أحد يطلب مني ذلك، حتى عندما هاجمت إسرائيل الجنوب عام 1978، لم يطلب مني أحد الالتحاق بالجبهة». 194

فالمنطق الذي يُسيّر نسق الأحداث، ويربط بين متتالياتها ويؤطر نسيج النصّ، هو التفسير والتعليل والتحليل، والزواي/ السارد يتخذ من القصص المُضمّنة سندات تحوّل وضمانات إقناع استدلالاً على هذه النقطة القادح/ المنتهى في الأبنية - بمختلف أنواعها - كما في المعاني والدلالات ممّا يضمن انسجامها وتماسكها رغم غلبة التقطّع والاستطراد، لكنّ كليهما ينحصر في تنظيم القصص المُضمّنة وتبويبها، أمّا من حيث بناؤها، فهي قائمة على التّداعي شرطاً من شروط الاستدلال في علاقة فهد بدر الدين بقضية خليل أحمد جابر، وعلى هذا الأساس، «يكون السرد بمثابة الحوار القائم بين زمنين: حَدَث مضى وانقضى، ولغة مُحدثة تعيد للحدث حضوره في مستوى التذكّر والتّمثيل» (الكيلاني، 1990: 11).

ما يُتبيّن في تتبّع مقومات قصّة «فهد بدر الدين» أنّها لا تقوم على التّتابع أو الخطيّة، إنّما المنطق الذي يسيّرهما هو الذاكرة بما اختزن فيها من أحداث بعضها ضبابي غائم هو أقرب إلى اللاوعي، وبعضها الآخر واضح جليّ، لكنّ الشخصيّة/ السارد/ الزواي تأتي إلّا أن تُعتمها من خلال خطاب مسكوت عنه، أمّا شفراته فتلك المقارنات التي يعقدها «فهد بدر الدين» بين:

■ الغضون التي تنتشر على وجه أمّه، وشوارع القدس «الصّيقة» 165

■ عينيّه، وعيني «ليلي» زوجة كمال أحد أصدقائه، إذ تلتقي في البياض موتاً مجازياً بالنسبة إلى فهد، وضوءاً غريباً ينتشر في عيني ليلي. اللون الأبيض الكاشف الذي يُظهر الأشياء على حقيقتها، والمشهد بما يحفل به من عبثٍ وفجعية وجنون، وجدل بين الامتثال والتّمثيل؛

■ السعادة التي يشعر بها كمال، مقابل الشقاء الذي يعيشه فهد؛

وإذا البناء السردّي الفعليّ ليس ما يُنسج من ألفاظ وتراكيب ومقاطع، وإنّما هو

الجدل بين الكاتب يرغب في التّخفي، ولكنّ الطّريقة الّتي تُقدّم بها مراحل تجربة الشّخصيّة تعكس تلاصقاً بين هموم الطّرفين: بين لغة الخطاب ودلالته.

2. 1. 2. المقطع الوصفي: نموذج المتتالية الوصفية

مما يُطرح من إشكاليات متعلّقة بالوصف هو

- هل يُعتبر ضروريّاً في بناء أيّ نصّ باعتباره جزءاً من أصوله و ثوابته، أم يمكن الاستغناء عنه؟

- هل تقتصر وظيفته على النّاحية الجماليّة، أم يمكن اعتباره من المواضيع القائمة في متتالية وصفية مستقلة بذاتها، أو ربّما مُضمّنة في متتالية من نمطٍ آخر، أم أنّ اعتباره موضوعاً، أمرٌ ثابت لا مجال للتّردّد فيه؟

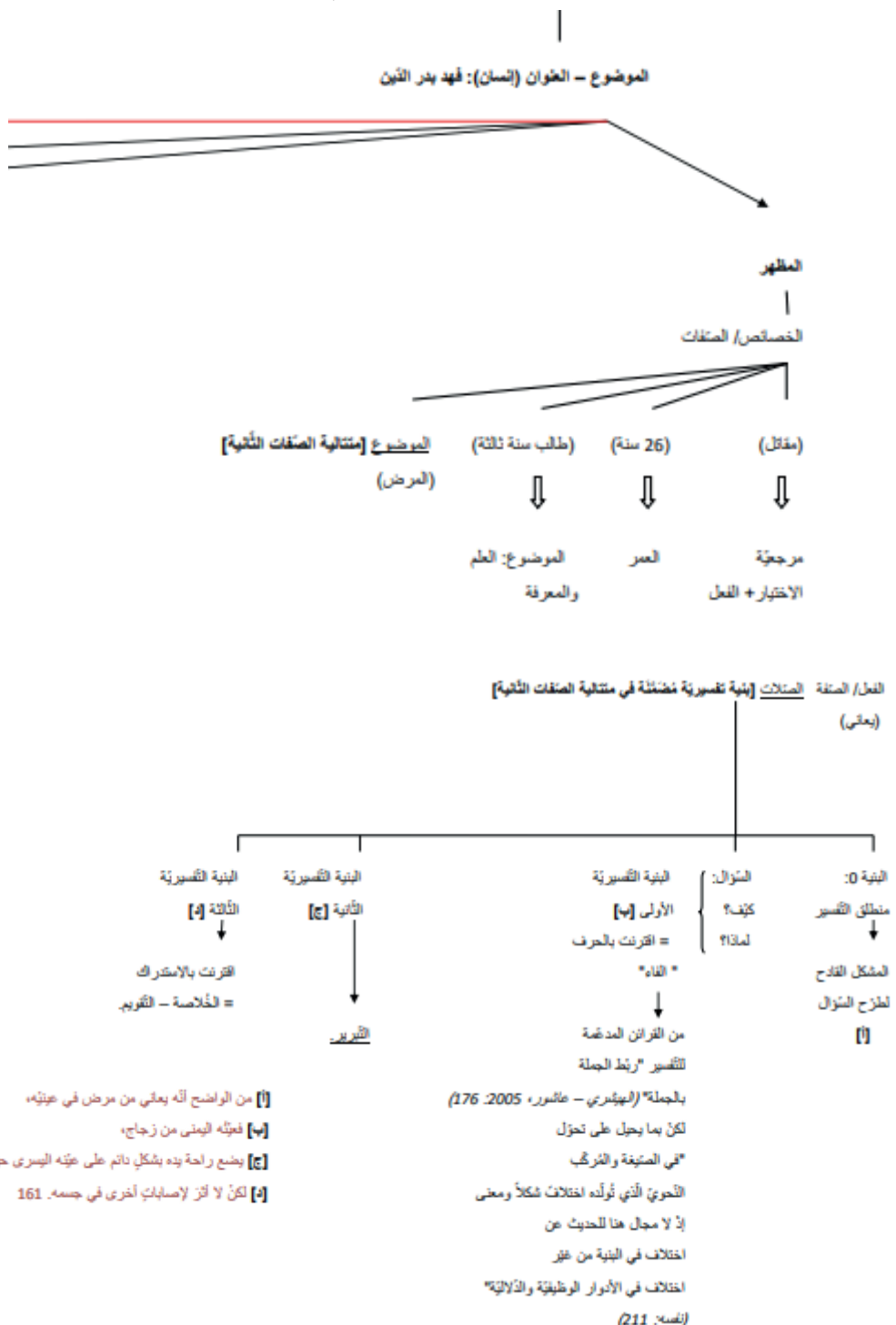
تساؤلات من وجوه متعدّدة نحاول أن نجيب عنها بما يوفّره شاهد نصّي³² من الفصل محور الاهتمام: «التّحقيق»

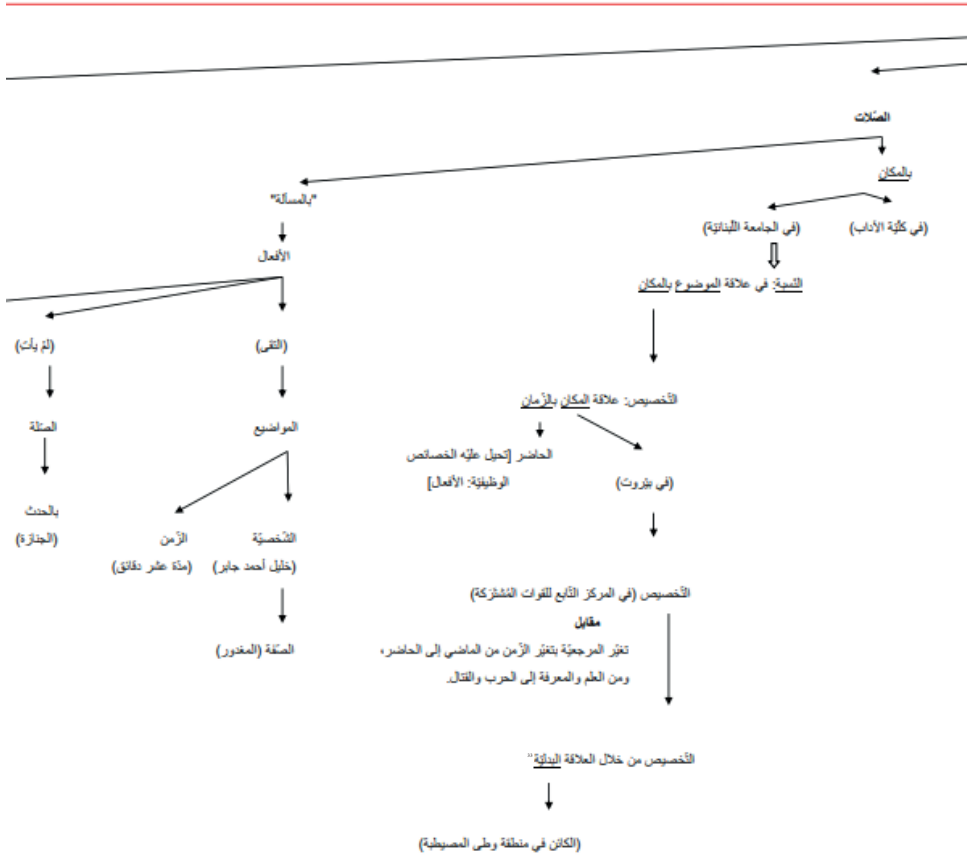
- المقطع الوصفي الأول: (المتعلّق بفهد بدر الدّين)

32 لم نقصد بالشّاهد النصّي النّموذج الواحد، إذ قد يكون في ذلك تجنّياً وتسرعاً في الحُكم؛ أو قد يعطي التّطبيق نتيجة حتميّة ثابتة؛ ولذلك، فإنّنا نعتدّ ثلاثة نماذج من الفصل المذكور، وتتعلّق النّماذج المختارة بـ:

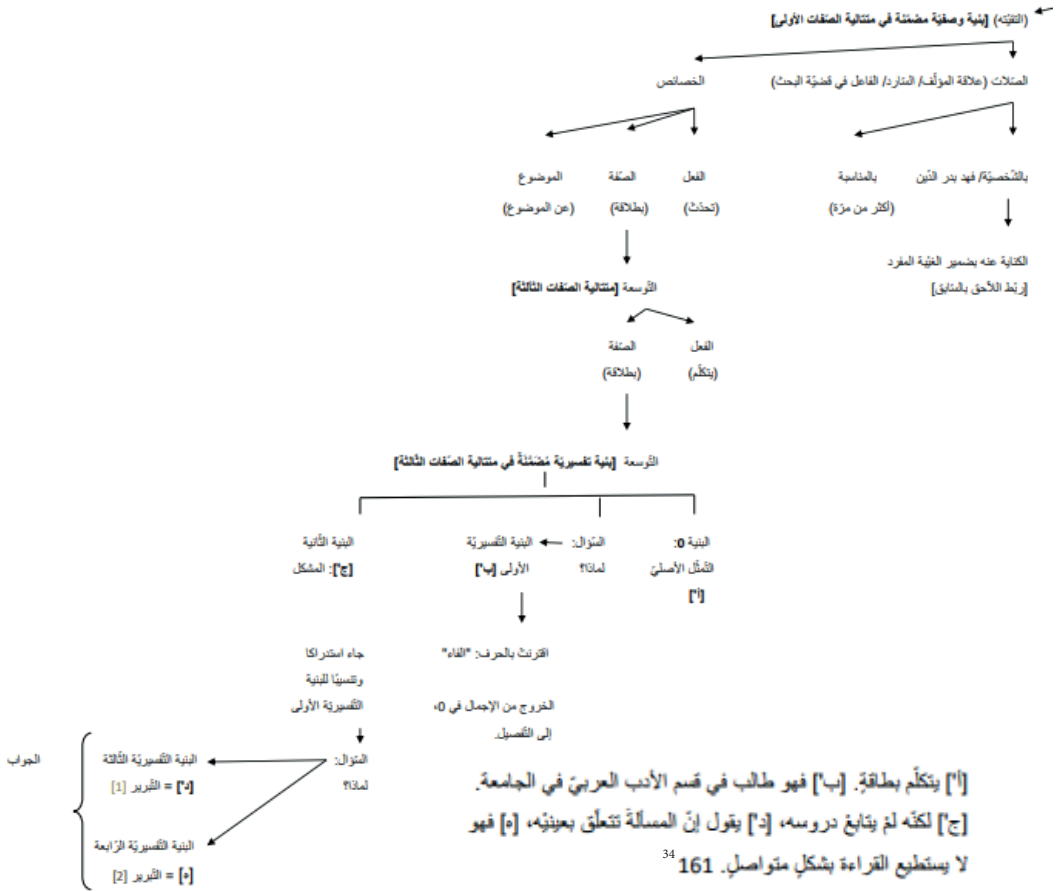
1. **فهد بدر الدّين** (باعتباره الشّخصيّة الرّئيسيّة في هذا الفصل: وكلّ الشّخصيّات والأحداث، والمعاني والدّلالات، إنّما تدور في فلكه)؛
2. **خليل أحمد جابر** (بما أنّ ما يذكره فهد بدر الدّين من تجارب ومِحَن قد تبدو متعلّقة به ذاتاً مفردة، لكنّها في الحقيقة تنشر امتداداتها على الشّخصيّة المذكورة أصداً تنبع منه وتعود إليه وفق ثنائيّة الجدوى واللّاجدوى)؛
3. **أم فهد/ القضيّة/ الأرض/ الحرب.**

العتبة الثانية: البنية الكبرى الأولى في البنية العليا الثامنة





33 ليس بالمفهوم الوظيفي النحوي، وإنما بالمفهوم الدلالي إذ يُبدل الموصوف بصفته فتحل محله دون أن تقصيه، إنما تزيده دقة ووضوحاً.

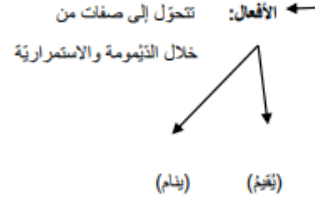


34 تحليل البنيتان التفسيريتان على أهم مقومات الأنموذج الأصلي المختنى؛ لكن لا يمكن القطع والبت بأن ما يوضع نظرياً يجب أن يتكرر - بكل جزئياته وتفاصيله وترتيبه - فيما هو تطبيقي، وهو ما تجلّى فعلياً في تتبع مكونات البنيتين محور الاهتمام، إذ كانت لهما خصوصيتاهما رغم وجود الهيكل العام. خلاصة القول أن ما بينه في كتابه وخاصة في الفصل المتعلق بالمتتالية التفسيرية (ص: 127 - 144) هو إبراز لجامع النصوص تأصيلاً لأجناسية الخطاب وأنماط الكلام فيه ونمطيتها دون أن نجد - ضرورة - كل الخصوصيات في كل نص أو إجراء، بما أن كليهما محكوم - إضافة إلى البنية العليا - بالأبنية الصغرى التي توجّهها أيضاً الأبنية الكبرى بما لها من إحالات: موضوعية، مرجعية وسياقية.

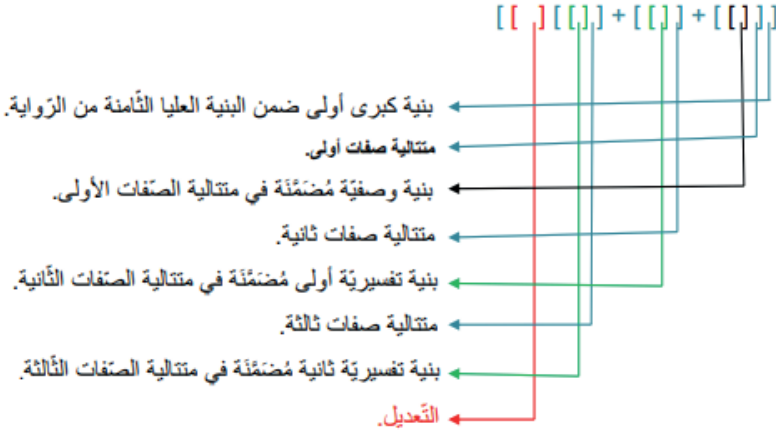
التعديل

خلاصة القول

(اعزب)



(ينام) (يقيم)



البنية العليا الثامنة (الفصل الخامس³⁵). البنية الكبرى الأولى: [متتالية الصفات الأولى]: «فهد بدر الدين مقاتل، 26 سنة، طالب سنة ثالثة في كلية الآداب، في الجامعة اللبنانية، يقيم وحيدا في بيروت، وينام في المركز التابع للقوات المشتركة، الكائن في منطقة وطى المصيطبة في بيروت. كل علاقته بالمسألة، أنه التقى بالمغدور خليل أحمد جابر، لمدة عشر دقائق. لم يأت إلى الجنازة ولم يُعز بالشَّهيد.

البنية الوصفية المُضمَّنة في متتالية الصفات الأولى: «التقيته أكثر من مرة، وتحدّث بطلاقة عن الموضوع».

متتالية الصفات الثانية: «من الواضح أنه يعاني من مرضٍ في عينيه،»

البنية التفسيرية الأولى المُضمَّنة في متتالية الصفات الثانية: «فعينه اليمنى من زجاج، يضع راحة يده بشكل دائم على عينه اليسرى حين يتكلم. لكن لا أثر لإصاباتٍ أخرى في جسمه»

متتالية الصفات الثالثة: «يتكلّم بطلاقة،»

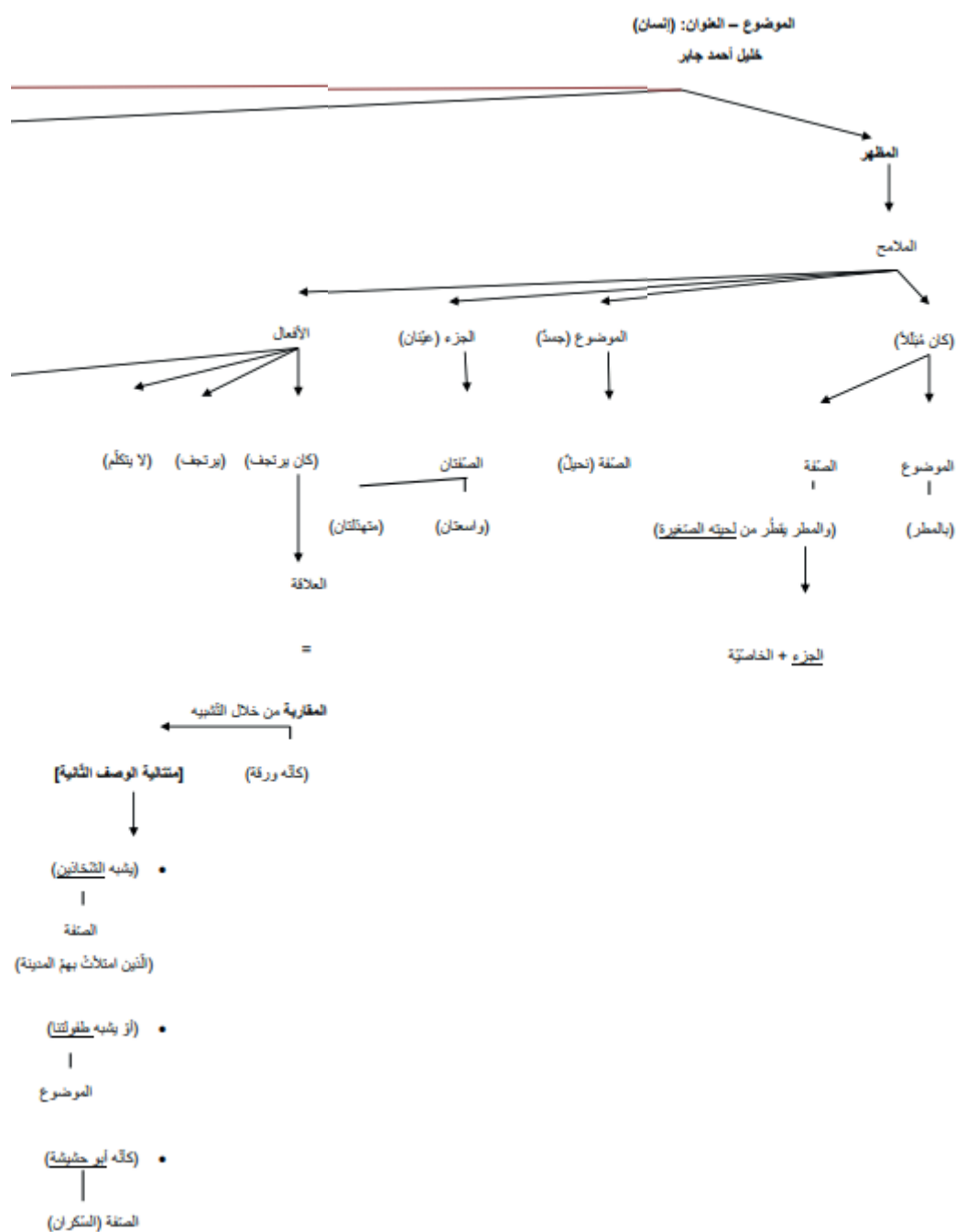
البنية التفسيرية الأولى المُضمَّنة في متتالية الصفات الثالثة: «فهو طالب في قسم الأدب العربي في الجامعة. لكنّه لم يتابع دروسه، يقول إنّ المسألة تتعلق بعينه، فهو لا يستطيع القراءة بشكلٍ متواصل.

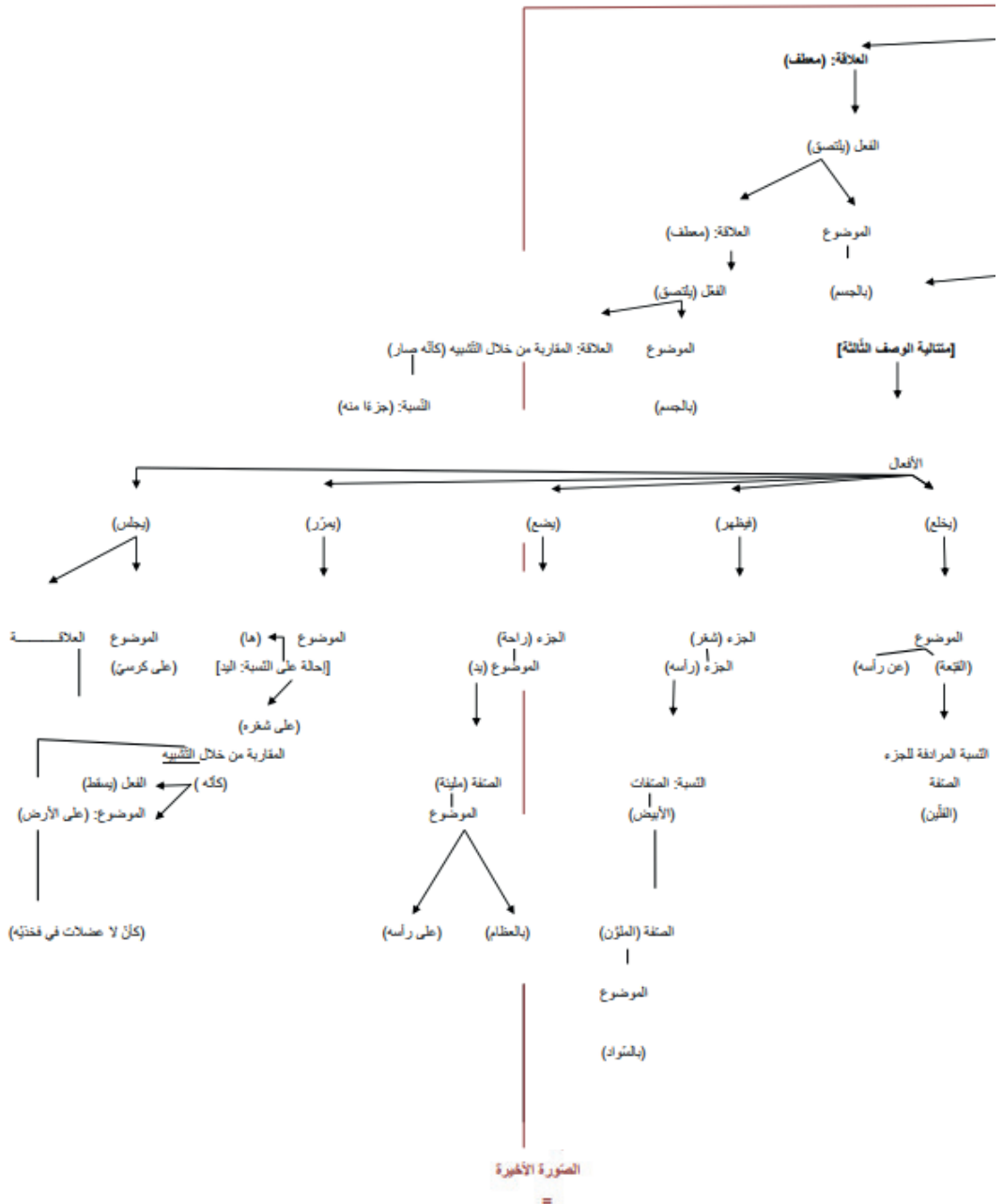
التعديل: أعزب [161

35 اصطلاحاً: لا نستعمل العبارة بالمفهوم الذي اعتمدناه في الحديث عن الأبنية العليا إذ ترادف العبارة العتبة الأولى، إنما نريد بها الجزء الخامس من الرواية.

- المقطع الوصفي الثاني: (المتعلق بخليل أحمد جابر)

- (1) «كان مبللاً بالمطر والمطر يقطر من لحيته الصغيرة (...)،
كان يرتجف كأنه ورقة، يرتجف ولا يتكلم (...) ملامحه،
عينان واسعتان متهدلتان، جسدٌ نحيل، معطف يلتصق بالجسم
كأنه صار جزءاً منه (...).
- (2) إنه يشبه الشّخاذين الذين امتلأت بهم المدينة، أو يشبه
طفولتنا، كأنه أبو حشيشة السكران.
- (3) (...) يخلع القبعة الفلين عن رأسه، فيظهر شَعْرُ رأسه الأبيض
الملوّن بالسّواد. يضع راحةَ يَدٍ مليئةٍ بالعظام على رأسه
ويمرّرها على شعره. يجلس على كرسيّ كأنه يسقط على
الأرض، كأن لا عضلات في فخذيه. 162





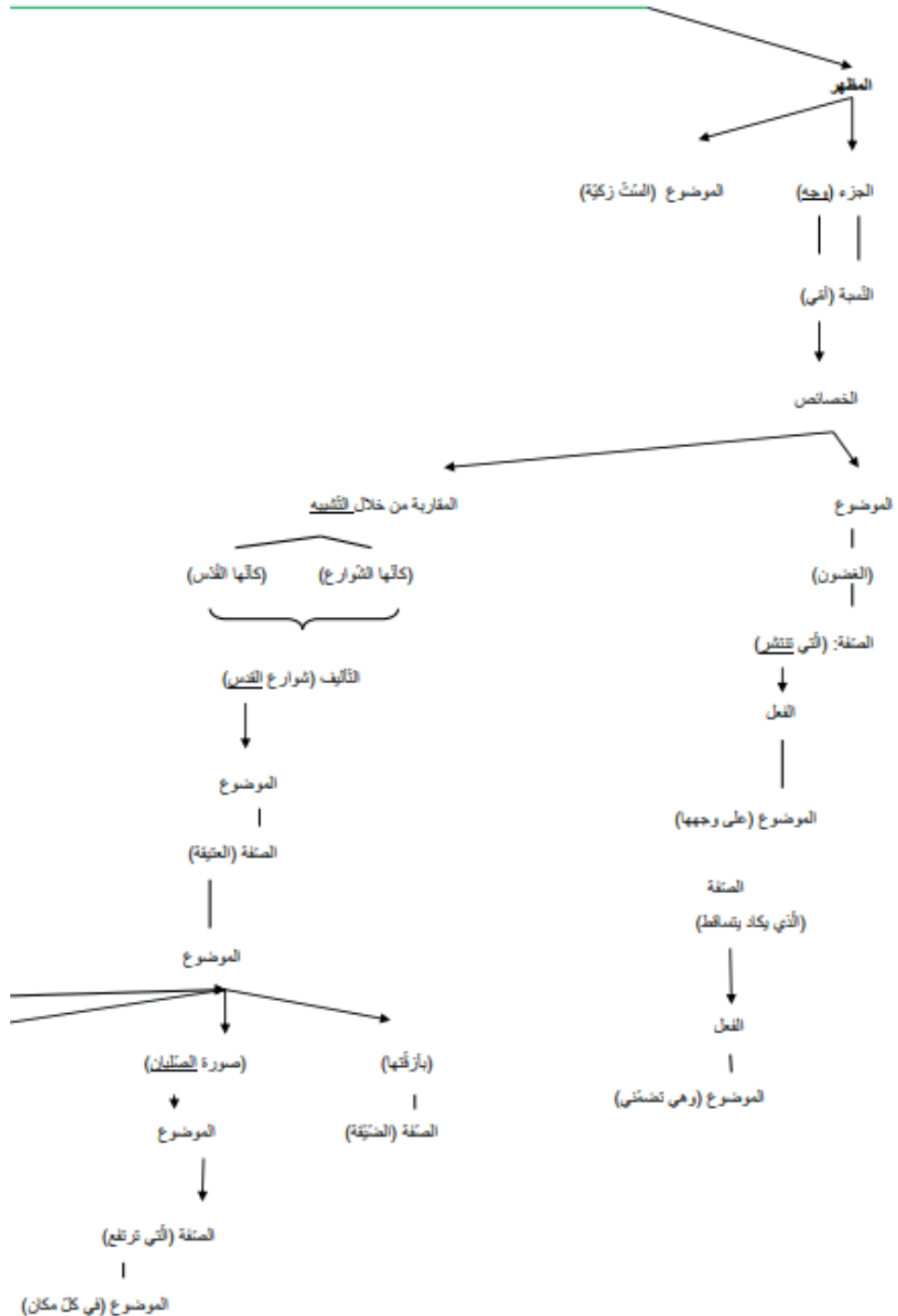
لا تمثل خليل أحمد جابر الشخص المخصوص في الوصف، إذ يصبح من خلال التشبيه المتعددة انعكاسا لكل البؤساء والاشقياء ضحايا المجتمع، والفروقة، والزمان، والقدر، رغم ما قد توحي به الأفعال من اختيار هو في الحقيقة ضرب من الاضطهاد في رحلة البحث والتجريب. فهذه الصورة الأخيرة هي ذات محور مصرح به، أما الأشعة فمستعارة عنها تضطلع بها لغة الإيهام والزعم.

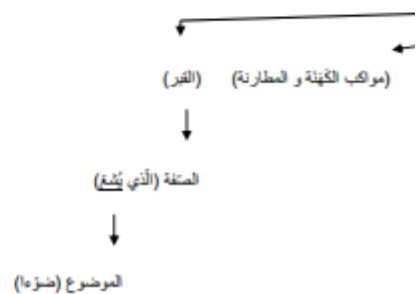
- المقطع الوصفي الثالث: (المتعلق بأمّ فهد/ القضية/ الأرض/ الحرب)

وجه أمّي. السّت زكيّة (...) الغضون التي تنتشر على وجهها، كأنّها الشّوارع، كأنّها القدّس؛ وجهها الذي يكاد يتساقط وهي تضمّني، كأنّه شوارع القدّس. القدّس العتيقة بأزقتها الضيّقة وصورة الصّلبان التي ترتفع في كلّ مكان، ومواكب الكهنة والمطارنة، والقبر الذي يشعّ ضوءاً. 164 - 165.

الموضوع – العنوان: (إنسان)

أمّ فهد بدر الدّين





الصورة الأخيرة = لا التزام فيها بالصورة الأولى المنطلق في الوصف

يتأخر عن البعد المادي ليندرج ضمن المعنوي، إذ يتحول الوصف إلى تصوير مشاهد عديدة تتكاثف وتتراص لتكوين الأم/ القيمة المفقودة/ المنشودة، كما الهموم التي حفرها الزمان فحشزها الزاوي قصّة حياة رمز هو القدس/ القضية بين الوجود والعدم، وهي المحنة يبحث الإنسان عن سبيل إلى تجاوزها، فينقذ دوله القبر والضوء الذي يكون المنتهى في الرحلة.

بناءً على تَضَخُّمِ البُعدِ الدَّلاليِّ في هذه المتتالية الوصفية الثالثة على حساب المُعْجَم والنَّحْو، فإنَّ الوصف ينشأ صوراً جماليةً أساسها البلاغة التي تتضاءل أمام التبليغ معاني تُفضي إلى الدلالة باتخاذ التأليف بين المختلف سبيلاً إلى القول من خلال إعادة إنجاز الأشياء بالكلام «أعني أنَّ نفس الجملة بما لها من إشارات وعلامات من نفس النوع، يجوز أن تستعمل تبعاً لتنوع مناسبات التلفظ مع تباين المعنى والمرجع، والحال كذلك في تنوع ضروب القول الخطبي وتباينه». (أوستين، 2008: 127).

ينفتح كلُّ مقطع وصفيٍّ من هذه المقاطع الثلاثة على الآخر على أساس تعلُّقها جميعاً بكلمة نواةٍ هي الموصوف في حدِّ ذاته، لكنَّ أيضاً من حيث صلته بالشخصية المحور، فالوصف ينبثق - لا محالة - من معاني الكلمات المستعملة المعجمية لكنَّ تتجاوزها إلى معاني لا تتعلَّق بالموصوف بقدر ما تتعلَّق بالواصف/ الشخصية/ فهد بدر الدين الذي يرى الموصوفات وفق معايير ثلاثة هي:

- إحساسه بـ «العمى» ألماً حسياً له آثاره النفسية العميقة؛
- احتكامه إلى الوجدان في اللاوعي، التمسك بالعقل في تجربة الوعي بما أنَّ الوصف يتعلق برؤية فكرية تحليلية أكثر منها برؤية حسية بصرية تقطع مع الحاضر لتتصهر في تذكُّر الماضي واستحضاره؛
- محاولته صياغة خطابٍ يؤلِّف فيه بين المتناقضات في فهم الأشياء وتبريرها وتعليلها.

وأنَّ يكون الخطابُ بهذا النسق في البناء والدلالة، فإنَّ هذا يعني أنَّ الوصف لا تتجزه الشخصية بقدر ما ينجزه الكاتب بما يضمن انصهار العُدول عن الجنس الأدبيِّ روايةً في الارتباط بالسُّنة بما هي أشكال تعبير نمطية يحافظ فيها على الأصول، أمَّا الفروع فمتبدلة متغيرة في الإنجاز النصِّي؛ فليس من الضروري أنَّ تتكرَّر كلُّ الأبنية الصَّغرى معايير نمطية بما أنَّ الوصف لا يخضع للنموذج بقدر ما يخضع للسياق الذي تحدِّده الأبنية الكبرى: نواة الوصف ومحوره، الذي يفتح سُبلاً أخرى لإخصاب النصِّ وإثرائه كتابَةً وقراءةً. (Adam، 1997: 100).

2. 1. 2. 3. المقطع الحواريّ: أنموذج المتتالية الحوارية

يمثّل الحوار شكلاً من أشكال النّصّ اللفظيّة³⁶ يحيل إلى تعدّد الأصوات غالباً سواء أ كان ذلك بصفة صريحة أم بصفة ضمنيّة وبالقراءة لفظاً أم بالتأويل فكرياً، وتتّظم مكوّنات الحوار وفق منطق يحقّق الانسجام والتّربط بين السّابق واللاحق تداولاً بين أطراف الحوار (Adam، 1997: 147). ومع الحوار يغيب كلّ من الزاوي الأصليّ - إذا تعلّق الأمر بنصّ سرديّ - والمتلقّي بما أنّ أطراف الحوار هي التي تضطلع بالوظائف مجتمعة من حيث صياغة النّصّ لفظاً ومعنى، ودلالةً وتقويماً لقضايا النّصّ دون النّصّ.

على أنّنا في تناولنا لنموذج تمثيليّ للمتتالية الحوارية لن ننساق وراء ما ذكره اللّسانيّون ومحلّلو الخطاب بصفة آليّة، وإنّما سيكون ذلك منطلق الدّراسة حتّى يبيّن النموذج نفسه عن مكوّناته وخصائصه من حيث علاقة التّنظير بالتّطبيق، والعكس أيضاً، خاصّة وأنّ ما سنعتمده مأخوذ من «رواية» مخصوصة في بنائها وأبعادها الخطابيّة نسيج لفظ ومعنى، وتحديد رؤية للنّصّ ولوظيفته أو وظائفه، دون أن يخرج ذلك عن البعد المعرفيّ التّدوليّ.

والنموذج الذي نعتدّ جاء بين الصّفحتين الرّابعة والتّسعين بعد المائة والسّابعة والتّسعين بعد المائة (خوري، 1981: 194 - 197) متتالية «الالتقاء» في هذا الحوار أنشئت سرّداً ينبثق فيه الماضي من الحاضر تذكّراً للطّرف الآخر وتعريفاً به، واستدلالاً على صفاته من خلال المتتالية الحوارية الأولى خطابياً وحدثياً يُقيمها فهد بدر الدّين ويعتبرها جزءاً من الحاضر، فهي حجة من التي يعتمدها فهد بدر الدّين لتبديد شكوكه إثباتاً لليقين (وهو ما يبرّر انفتاح السّرد والحوار معاً على الحجاج).

وحيرة فهد بدر الدّين ذات وجوه ثلاثة:

1/ الاسم مستعار هو عصام، وأصلّ هو إبراهيم والمدلول واحدٌ باعتباره الطّرف الثاني في الحوار؛

2/ المسافة الزّمنيّة الفاصلة بين زمنين: الماضي قرين الجبل والمقاومة، والحاضر المعتم في البداية بالتّجاهل أو عدم التّعرف الفعليّ إذ يقول فهد بدر الدّين: «النقيته في بيروت، فمّر من جانبي كأنّه لا يعرفني» (194)؛

36 ونميّز هنا بين الشّكل اللفظيّ باعتباره إجراءً، والشّكل الهيكليّ إذ يتوق إلى الأنموذج ومحاصرة الكلّي من الخطاب.

3/ عندما يقول فهد بدر الدين متحدّثاً عن إبراهيم/ عصام: «هذه هي المرّة الأولى التي أنقي فيها بأستاذٍ جامعيٍّ ومُقاتل، كنتُ أظنُّ أنّ جميع أساتذة الجامعات، يُشبهون هؤلاء الذين نراهم في المكاتب، بكروشهم ونظاراتهم وأيديهم تلتوي، وكلامهم الفارغ الذي لا معنى له، إبراهيم كان مختلفاً»؛ وعن هذا الاستثناء في شخصيّة عصام تأتي المتتالية الحواريّة شاهداً ودليلاً:

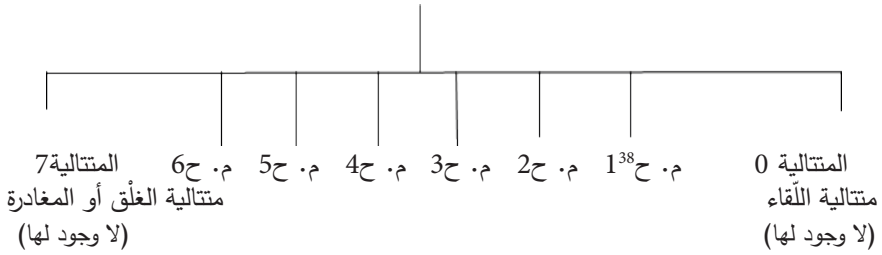
- المتتالية الحواريّة الأولى

ف1 - يا أخ عصام،	[أ] ³⁷
ف1 - أنت مُصاب.	[ب - ب']
ع1 - أعرفُ	[ب' - ت]
ف2 - انسحب	[ت]
ف2 - وأنا أعطيك.	[ث - ت']
ع2 - لا،	[ت']
ع2 - يجب أن نجلب طلال.	[ج - ح]
ف3 - طلال،	[ج]
ف3 - أين طلال؟ س1	[ح]
ع3 - إنه هناك، ج1	[ح' - خ]
ع3 - أعتقد أنّه أُصيب في رأسه،	[خ]
ع3 - واستشهد.	[د']

37 نقصد بالحروف «الأصليّة» أو «الفرعيّة» الإحالة على مختلف عناصر المبادلة الحواريّة (l'échange dialogale) سواء أ تعلق الأمر بتتابع العنصر الواحد منها أو بالتبادل مع العنصر الثّاني؛
ونريد بالمعقوفات التي بالخطّ البارز العلاقة المباشرة بين عنصرَي الثّنائيّة، التي منها ما جاء في صيغة سؤال/ جواب (س/ ج).

[خ]	ف4 - انتبه
[د - ز - س']	ف4 - الهجوم عنيف
[ذ]	ف4 - وأنا أخاف أن تضيع جُثته
[ذ']	ع4 - ما بك؟ س2
[ر - ذ]	ف5 - لا شيء ج2
[ز']	ع5 - تقدّم
[س']	ع5 - وأنا أغطّيك
[ز]	ف6 - لا،
[س]	ف6 - أنت انسحب
[ش]	ف6 - وأنا أجب طلال
[ص]	ف6 - أنت مُصاب،
[ض - س']	ف6 - اتركني
	... لا جواب...
[ض']	ع6 - لا تبك
[ض«]	ع6 - نحن نستشهد من أجل الحياة
[ض««]	ع6 - الرجال لا تبكي الشهداء

ويمكن رسم هذه المتتالية وفق المخطط التالي:
المتتالية الحوارية الأولى



= م. ح 1: 1 [أ] + [ب]
ع 1 [ب]
م. ح 2: 2 [ت] + [ث]
ع 2 [ت] + [ج]
م. ح 3: 3 [ج] + [ح] ← س 1
ع 3 [ح] ← ج 1 + [خ] + [د]
م. ح 4: 4 [خ] + [د] + [ذ]
ع 4 [ذ] ← س 2
م. ح 5: 5 [ر] ← ج 2
ع 5 [ز] + [س]
م. ح 6: 6 [ز] + [س] + [ش] + [ص] + [ض]
ع 6 [ض] + [ض] + [ض]

في هذه المتتالية الحوارية الأولى: كان هناك تناسق وتداول وتبادل بين طرفي الحوار بصفة منتظمة من حيث التمشي والهيكل، إلا أن المحتوى لم يدل على منطق واضح أو تفكير منسجم بين الطرفين مما أدخل بعض الارتباك على مستوى المضامين وردود أفعال كل طرف مما يحيل على أن ما يُسير نسق الحوار ليس التداعي أو المتابعة بقدر ما كانت رغبة كل طرف في التفاعل مع الحدث دون الحديث، ومع الخواطر دون الأهداف، ولعل وراء ذلك

38 نقصد بالحرف م مبادلة، وبالحرف ح حوارية، وبالرقم الإحالة على مستوى المبادلة الحوارية الأولى التي تقوم على ست (6) مبادلات حوارية تقوم كل واحدة منها على ثنائية عنصرية «»، بما أن التناحر هو بين طرفين اثنين.

المنظومة المعرفية التي يتصرّف وفقها كلّ طرفٍ، والتي أثّرت على نظام الحوار الذي يكاد يؤدي إلى خطابين أحدين منفصلين هما عبارة عن أطروحتين يسعى صاحباها إلى الإقناع بهما كلّ من ناحيته، يدافع عن وجهة نظره ويستدلّ عليها، وهو ما يبرّر تناظر هذه المتتالية الحوارية الأولى مع بنية حجاجية اعتمادا على نفس النّص – وإن اختلفت المصطلحات والمفاهيم وفق النّسق التّالي:

- المتتالية الحجاجية

لها وظيفتان: أولاًهما: بنيوية إذ تمثّل جزءاً من نسيج النّص الذي ترُدّ فيه، وثانيتهما: تفاعلية تواصلية سواء أكان بين طرفي الحوار أو أطرافه، أو بين منشئ النّص ومتلقّيه، وفي جميع الأحوال الغاية من الحجاج هي الإقناع، ممّا يستدعي ضمناً دعوة الآخر إلى تغيير وجهة نظره المُصرّح بها أو المُنصّورة في ذهن المتكلّم تجاه موضوع ما أو إشكالية أو قضية، أو على الأقلّ بالنسبة إلى منشئ النّص التعديل والنسبية، وهي صورة من الجدل الذي قد ينشأ بين المتحاورين يُبرز مظهرًا من مظاهره من خلال الخطاطة التالية:

"تَقَدَّم، وَأَنَا أُعْطِيكَ" 195

الدَّعْمُ لِلإِقْنَاعِ

إِلَّا إِنْ: التَّقْطِيسُ + الْحَدُّ
الْأُطْرُوحَةُ التَّقْطِيسُ الثَّقِيَّةُ
(بِالنَّسْبَةِ إِلَى فَهْدٍ بَدْرٍ الثَّنُونِ): الْمُتَقَابِلَةُ الْحَاجِيَّةُ السَّائِسَةُ: م. ح. 6

الاستنتاج
"أَبْرُكِي"

التسوية

"أَنْتَ لَنْ تَنْجُو"

الإطار: الثَّقِيَّةُ + الرُّفْعُ
"أَبْرُكِي"

الواقعة

المنطلق / الحقيقة: "أَنْتَ مُصَابٌ"

ومن المتتالية الحوارية الأولى، تغيب متتالية «المغادرة»، لأنّ الذي استُخْصِرَ من خلال الذاكرة إنّ هو إلاّ شاهد ودليل على استئناف حوار آخر يَثْبُثُ طَرْفاه تَلَفُظًا، أمّا سياقه ومرجعياته ومحتواه ودلالته فمتبدّلة متغيّرة بتغيّر الإطارين الزماني والمكاني، كما الدوافع والغايات؛ وهو ما يفضي إلى متتالية الحوار الثانية:

- المتتالية الحوارية الثانية

لهذه المتتالية خصوصيات من حيث البناء والتوزيع، ذلك أنّها ليست حوارية محضة، وإنّما اقترنت بمتتالية سردية ليس على أساس التّضمين بل وفق تتابع في العناصر المكوّنة لكلتا المتتاليتين دون أن تنبّت إحداها عن الأخرى من حيث الموضوع والسياق، فكلتا المتتاليتين الحوارية والسردية تتسجان خطابًا متماسكًا متكاملًا يرتبط بالمتتالية الحوارية الأولى من ناحية، ويفسح المجال لتطوّر النسق السرديّ ميزة الرواية ككلّ من ناحية أخرى؛ بل إنّ هناك توافقًا في أبنية المتتاليتين الصّغرى من حيث الوظيفة دون العلامة المميّزة لها في إطارها المخصوص، وهو ما يتوضّح أكثر من خلال الرّسم التّمثيلي:

فهد بدر الدين: [ف1]: (قلْتُ له) [1]³⁹ إنّني هنا، [2] وأنت (سألتَه).

إبراهيم: [1]: [3] أنا لا شيء، (أجاب) [4] أعمل في الجامعة.

فهد بدر الدين: [ف2]: [5] والثّورة؟

إبراهيم: [2]: [6] الثّورة، [7] صحيح، [8] كلّ شيء فرط، [9] خلص، [10] كلّ شيء.

فهد بدر الدين: [ف3]: [11] لا يا إبراهيم، [12] كيف تقول هذا، [13] وطلال ماذا نفعل به؟

فهد بدر الدين: [ف4]: [14] ما هذا يا إبراهيم، [15] أين الأفكار الثّورية؟

إبراهيم: [3]: [16] كلّ شيء فرط.

فهد بدر الدين: [ف5]: [17] ولكنّ، [18] ولكنّ الدّنيا حرب يا أستاذ، [19] ماذا نفعل؟

إبراهيم: [4]: [20] لا شيء، [21] هذه ليست حربنا.

فهد بدر الدين: [ف6]: [22] أين حربنا؟

39 نقصد بهذه الأرقام ما يوافق كلّ قضية في المبادلات الحوارية.

إبراهيم: [5]: [23] حَرْبُنَا سَتَأْتِي.

فهد بدر الدين: [ف7]: [24] يعني، [25] عندما تنتهي هذه الحرب، [26] تريدني أَنْ أُحَارِبَ مِنْ جَدِيدٍ؟

إبراهيم: [6]: [27] بِالضَّبْطِ، [28] عندما تنتهي هذه الحَرْبِ، [29] تبدأ الحرب الحقيقيّة.

فهد بدر الدين: [ف8]: [30] إِذَا لَا تَتَّكِلْ عَلَيَّ. [31] نحن بهذه الحرب و نكاد نختق، [32] يا أستاذ حربٍ واحدة تكفي. [33] الله يخلِّيك يكفي.

إبراهيم: [7]: [34] لماذا لَا تَأْتِي لزيارتي في البيت (وَدَلَّنِي عَلَى بَيْتِهِ) فهد بدر الدين: [ف9]: [35] (قَلْتُ) واجبنا.

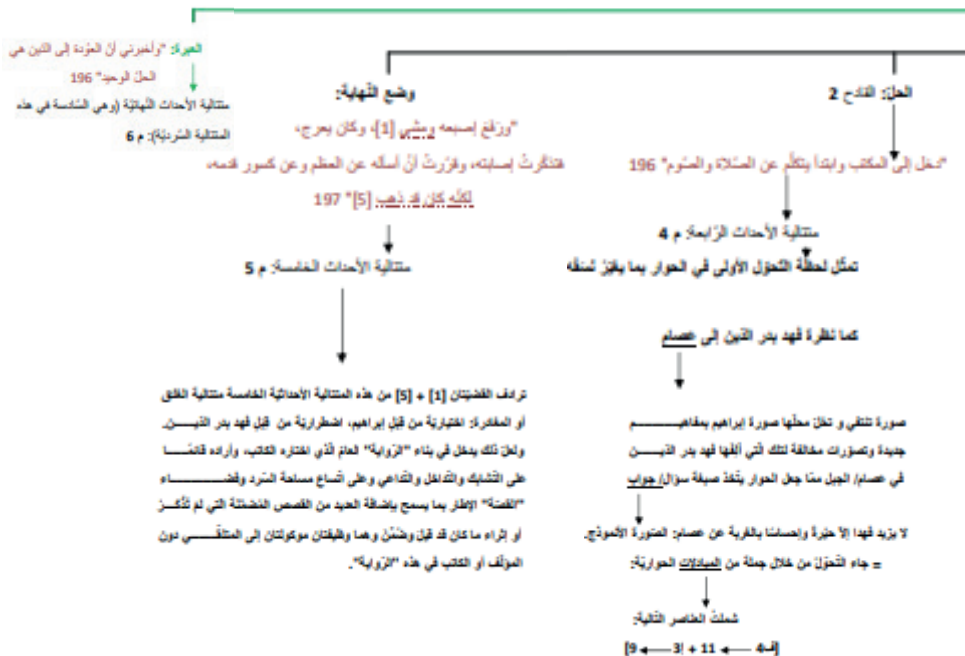
إبراهيم: [8]: [36] لا، [37] تعال، [38] غَدًا في السَّابِعة مساءً عندنا دروس دينيّة.

فهد بدر الدين: [ف10]: [39] وَلَوْ يَا أَسْتَاذ

إبراهيم: [9]: [40] وَلَوْ يَا فَهْد. [41] خلص، [42] يجب أَنْ تَقْتَنِعُوا.

فهد بدر الدين: [ف11]: [43] بِمَاذَا نَقْتَنِعُ؟





إنَّ البنية الحداثيّة في هذه المتتالية السردية لا توافق بنية النصّ الخطيّة، إذ أنَّ الفكرة تسبق الحَدَث، أو أنَّ القول بالنسبة إلى «إبراهيم» جزء من حاضر له جذور في ماضٍ «قريب» مجهول بالنسبة إلى «فهد بدر الدين» يقتصر «إبراهيم» على جُغله مستقبلاً: «تعال غداً في السابعة مساءً عندنا دروس دينيّة» (196). خطاب قائم على الإجمال والتعمية، أو هو السؤال ولا جواب أو الاستفهام ولا معنى: «بماذا نقتنع؟» (196)؛ ويظلّ التّواصل بين الطّرفين محكوماً بالرغبة في المعرفة دون الوصول إليها، وبالسكوت دون كشف الحُجب عنه.

اتّصال وانفصال بين الشّخصيتين كما بين المتتاليتين: السردية والحوارية وفق ما يُبيّن من الرّسوم.

ثمّ لم تدلّ الرّسوم على خصوصيّة الجنس بقدر ما دلّت على خصوصيّة النّمط تتجلّى مقوماته الأساسيّة – إنّ تصريحاً أو تضميناً – وهي أنماط لا يوجّهها النصّ، ولا الخطاب إنّما تُكتسب من السّياق أولاً، ومن المرجع ثانياً؛ ومن هنا، يكفّ الكاتب عن أن يكون هو السّلطة على النصّ، ليتحوّل النّفوذ إلى اللّغة تُحدّد أنماطها وأشكال تعبيرها على أساس أنّ الأبنية الصّغرى هي التي تؤسّس البنية العليا وليس العكس، وهذه الأبنية جميعاً (الصّغرى والعليا) مُسبّجة وموجّهة بالموضوع الكلّي أو الجزئيّ الذي يقوم عليه النصّ كما الخطاب.

وما بيّنه الرّسم التّمثيليّ أيضاً أنّه لا يمكن القول ببنية التّضمين دون سواها تتجلّى فيها أيّ بنية نمطيّة لشكل من أشكال التّخاطب على أنّها منفصلة تماماً عن نسيج النصّ الذي ترد فيه بحيث يمكن أن تكون هناك توأمة بين عناصر من أنماط كتابة متعدّدة فيكون التّوافق بينها بنية وهيكل ووظيفة – وإنّ اختلفت في تصوراتها الأنموذجيّة بحثاً في الأصل المُحتدّى.

وما تعكسه هذه المتتالية الحواريّة الثّانية أنّ قراءتها نصّاً مُنتجاً توجي بأنّ الحوار هو الأصل والمنتهى، وأنّ السّرد، بالنسبة إليه، وفي حدوده وأطره، إنّ هو إلّا على الهامش؛ ولكنّ إعادة إنتاج النصّ كرست بنيته العليا الأصليّة جنس رواية، إذ تقوم على السّرد أصلاً، لا على الحوار، وأنّ مسألة الإنشاء ليست رهينة الكمّ، وإنّما هي مقترنة بنظّم في الانسجام والتّكامل لا يمكن الاستدلال عليها إلّا من خلال اللّغة ذاتها في أبنيتها ومعانيها ودلالاتها، وفي علاقة السّابق باللاحق أنسجة بنيويّة أولاً (من خلال البنية العليا: أجناسيّة خطاب).

خاصيّة هذا الجزء الحواريّ أنّه قد يطرح إشكالاً في فنّيّات الخطاب من النّاحيتين البنائيّة والجماليّة خاصّة من حيث علاقة الحوار بالسّرد، أو علاقة

الحوار بالحجاج، ممّا يعني أنّ انسجام أيّ خطاب ليس رهين تجانسه في إطار وحدة شكلية تتمثل في نمط كتابة واحد، وإنّما في تفاعل أبنيته وتناغمها بما يؤسّس صورة النصّ النهائية - حتّى وإنّ تعدّدت الأشكال فيه واختلفت في أصولها ومرجعياتها. على أنّ قيام هذا النصّ على تعدّد أنماط الكتابة يعكس عسر إدراجه ضمن أنموذج أجناسيّ مخصوص، حتّى وإنّ كانت هذه الأنماط متجانسة.

2. 1. 3. التّأليف

قد تترك رواية «الوجوه البيضاء» انطباعاً بعدم انسجامها لتكوّنها من مقاطع عديدة مختلفة متشابكة متداخلة متقطّعة، ولكنّ الأصل فيها هو وجود كثير من الروابط والعلائق تجمعها لإنتاج نصّ واحد متماسك ينهض على الحجاج والبحث والاستدلال على الأسباب والمسببات سيّورة تتجلى من خلال التعدّد في الخطاب السردّي مظاهر ومؤشّرات نصيّة هي:

1- الالتزام بالموضوع نفسه طيلة النصّ الحكائيّ (إشكالية خليل أحمد جابر ونظائرها في مختلف فصول الرواية: مظاهر «الحياة» وتجلياتها، وأسباب الموت وخلفياته: الحقيقة والوهم)؛

2- التدرّج الموضوعاتيّ المنفجر (الاستطرادات والاسترجاعات، والاستباقات والتداخل الحكائيّ)؛

3- اعتماد المحيالات بنوعيتها (النصّي والمقامي)، وأدوات التّضيد (حروف العطف والتّعليل، وأدوات الاستثناء، وما يدلّ على الغاية والشّروط والجواب)، والروابط الحجاجية (لأنّ، بينما، وبما أنّ، ورينما، إذن، إلّا إذا، فاء التّنتيجة أو التّفسيرية)؛

4- شروط التّكييف الخطابيّ (المصاحبات النصّية): وتلزم المتلفظ والمتلفّظ له بمراعاة الشّروط المقاميّة، واحترام الشّفرة اللّغويّة، (الدّاهي، 2006: 129 - 130) إذ «يتصوّر المتلفّظ فرضيّة، فينظّمها، ثمّ يعمل على إخراج مقاصده على نحو يُمْكِن مِنْ إحداث بعض الآثار (الاعتقاد والإغراء في المتلقّي)» (Charaudeau، 1983: 5) بما يُحيل على أنّ العمل الروائيّ يقوم على مراحل ثلاث هي:

- تصوّر الخطاب (باستحضار مقوماته اللّسانية واللّغويّة مِنْ خلال الأفكار ومرجعياتها)؛

- إنتاجه في ممارسة لفظيّة فيها المعنى والتّبئير والدّلالة وفق ثنائية القول والمسكوت عنه؛

- إعادة إنتاجه: إمّا عبّر النّماذج والهياكل التّجريدية، وإمّا من خلال ما يُمكن أن يُقيمه المتلقّي (فردًا أو جماعة) من أبعادٍ حواريةٍ استنادًا إلى المسار التّوليديّ، وإلى الثّوابت المعرفية المُشتركة، وإلى التّصورات البنيوية المُفترضة (الدّاهي، 2006: 264 - 265 + Parret، 1996: 54).

3. القسم التآلفي بالنسبة إلى الفصل الثاني

تُطرح الإشكالية بالنسبة إلى روايتي «دعاء الكروان» لطفه حسين، و«الوجوه البيضاء» لإلياس خوري من حيث الصيغة والمحتوى، والمنطلق والنتهى في الخطاب والجنس: المكونات والميثاق، والأبنية: بين الخصوصية والتشاكل، والاتساق والانسجام، والاحتواء والتحول؛ ثنائيات تنشأ من المستوى الفني لتنتشر في المواضيع والمعاني، والغاية هي النص الواحد، أو النص الجامع. وأفضى البحث في هذه القضايا والإشكاليات إلى نقاط تشابه بين الأثرين، وإلى وجوه اختلاف نردها على النحو التالي:

نقاط التشابه

1. توحى الأبنية الصغرى والكبرى بوضوح العلامات وانسجامها مع المعنى، إلا أن البحث في القرائن الدالة على هذا الانسجام سرعان ما تخفيه والمعنى، ويدخل كلاهما في الصدى يخفى ذكرًا ويتردد أثرًا، فإذا الشخصية تعيش الاغتراب في ما تظن أنها تستأنس به، وتبلغ منتهى غير منظور.

2. لا يتوفر عنصر التشويق من خلال الاستمرارية في الخطاب السردى، ولكن من خلال ما فيه من اعتراضات وقطع مما يضطر القارئ إلى أن يكون طرفًا في صياغة الخطاب بل إعادة إنتاجه.

3. الرواية عند كليهما متعددة الأصوات متنازعة بين أطراف عديدة هي: الكاتب، الراوي، السارد، الشخصيات في أبعادها المفردة، ولكن أحدها إذ يحل، لا ينفي الآخر بل يعوضه إلى حين في إحدى شبكات النسيج النصي؛ وليس دخول أي طرف إلا من باب تطوير النسق السردى في إطار تقنية التبيين ونشر المحور إلى فروعه أو جعل أحدها محورا في أبنية النص دون أحداثه، لأن الأحداث عند كل من طه حسين وإلياس خوري هو حدث/ مفهوم/ تجربة فردية تُلقى بظلالها على كل الشخصيات والأطر الحاققة بها. وفي كل هذا، يوهم الراوي بالتساوي مع الأطراف الأخرى في الوظيفة، ولكنه، في حقيقة الأمر، هو من يسيّر الحدث، فإما أن يخفيه أو أن يُميط اللثام عنه، ولا يجعل غيره إلا ناطقًا بما يريد ووفق ما يريد، فإذا روايات الآخرين هي استعارات لأصل هو صوت الراوي يتخذ صيغًا متعددة «ولكنها في الحالتين كلتيهما تنهض على المحاكاة وتؤول إلى المشكلة». (القاضي، 2005: 136)

4. التاريخ عند كليهما هو «صناعة لا مجموع حوادث الماضي [إذ] الماضي

التاريخي هو عالم ذهني يُستتب في كل لحظة من الآثار القائمة، أو بعبارة أخرى موضوع التاريخ الذي هو حاضره» (العروي، 1992: 17 - 38) رؤية فكرية ومسافة تفصل بين «حدث» قاده للإنشاء الفني عند طه حسين، وهو استمرارية في الزمان والمكان عند إلياس خوري.

نقاط الاختلاف

≠

تجليات الرواية عند طه حسين | تجليات الرواية عند إلياس خوري

- التاريخ يرادف القصة أو الحكاية. - التاريخ يرادف القصة أو الحكاية.
- وهو إضافة إلى ذلك، جزء مما وقع عبر عنه إلياس خوري من خلال «الحوادث المتضمنة في رموز تدلّ عليها، وهو ما يصطلح عليه بالوثائق». (القاضي، 2005: 31)
- المرجعية اجتماعية أخلاقية قيمية. - المرجعية سياسية أمنية.
- الواقع مرجعية قاعدية يحكمها الجانب التخيلي، والميثاق السردى الأجناسي.
- الواقع هو الذي يطفو ويهيم، والميثاق السردى هو موثيق تتقاطع وتتناظر، وتتوازي وتتشابك تُغري بوجودها في نسيج النص ولكنها لا تعكس إلا بحثاً في ما به يكون النص سردياً وربما روائياً لرواية لم تُكتب كما يقول إلياس خوري في الأثر ذاته.
- المقومات الأجناسية واضحة. - غائبة في رحلة بحث وتجريب لا تزيد العتبات إلا غموضاً وضبابية في إطار جنس روائي زئبقي يتأبى عن المحاصرة إلا على أساس التشاكل والتناص ضمن الرواية صيغة دون الجنس.

- الأثر يقوم على جانبٍ إبداعيٍّ وآخر فكريٍّ، وربما إيديولوجيٍّ، إلا أنَّ الحادثة هي معاصرة وبحث في ما به يُحقّق الإنسان وجوده بالفعل لا بالقوّة، ويتّخذ طه حسين من «الكتابة بحثاً عن بديل إبداعيٍّ يكون مراعاةً للإعلان عن تصوّرٍ جديدٍ في الفكر والرؤية إلى الكون». (القاضي، 2005: 211)

يتّخذ الشكل في الروايتين، كما في كلّ خطاب تجلّيين أولاً من ناحية مادّية فعلية تلك التي تنجز العمل اللّغويّ في أنساق منظّمة، وثانياً من ناحية الموضوع الذي يعبر عن أشياء خارج اللّغة، فالرواية، كما تجلّت في العملين هي جُماع أساليب وأبنية عديدة تمثّل تنوعاً واختلافاً، ولكنّها لا تخرج عن إطار وحداتٍ في النّظم تقوم على التّركيب يُنشئه الكاتب ويضيفه إلى السارد إذ يتّخذ تجلّياتٍ هي الراوي، والكاتب المُفترَض، والشخصيّة.

وقد أنشئت الروايتان أيضاً على شذراتٍ من الواقع أو على ما يوهّم بأنّه هو ذاته وقد حُكي، ولكنّ الحكاية لاتسرد الواقع ولا تحاكي الحياة، وإنّما هي إعادة إنشاء لهما بما يحمل وعياً «بالوجود الممكن في الوجود الحقيقي» (THibaudet، 1938: 12)، أو هي الحياة تنحسر نحو المحور حتّى تكاد تضمحلّ، فإذا الجانب الإبداعيّ في أبنية الرواية هو في جغل الممكن حيّاً، وليس في إحياء الواقع؛ وبالتالي، لا يكون المرجع إلّا مصدرًا لروافدٍ بكرة في تصوّر الرواية تنظيمًا وفي نقدها، وهو ما قد يُضفي خصوصيّة في البناء وفي المكوّنات السردية هي جزءٌ من فرادة الأثر ومن انسجامه الخفيّ، رغم ما قد يبدو من اضطراب و «فوضى» في إنشاء الحدث وصياغته حتّى وإنّ أوهم الكاتب بالوضوح والتّتابع المنطقيّ.

وإذا كانت البنية سردية بالأساس، فإنّها لا تنفصل عن محتوى قد يتّخذ صبغة إيديولوجيّة، أو على الأقلّ فكريّة تتقنّع بما هو بلاغيّ أو شعريّ «فكّل رواية، في إجمالها، ومن وجهة نظر اللّغة والوعي اللّسانيّين اللّذين يُستعملان في إطارها، هي [جنس] هجين. لكن علينا أن نؤكّد أيضًا أنّها هجانة مقصودة وعن وعي، وهي أدبيّة منظّمة وليست مُعتمّة؛ وهي إدماج آليّ بين اللّغات (أو بأكثر دقّة بين عناصر من اللّغات). وموضوع الهجانة

القصدي، هو تمثيل اللّغة تمثيلاً أدبيّاً». (Bakhtine، 1978: 182) فبالنسبة إلى الخطاب الروائيّ، قد لا يشدّ الانتباه فيه المحتوى المعرفيّ بقدر التركيز على الجانب النقديّ يتعلّق بالبنية الأجnasية وبالصيغة الروائيّة، وكلتاها تُبين عن أنّ «الرواية هي جنس يرفض القواعد والنّظم» (Valette، 1993: 7)، وهو لا يُغري ببلورة نظريّة أدبيّة، بل بالحرية التي يهبها للكاتب للإبداع، ولإنشاء الخلف؛ فالأبنية في الرواية توهم بالتكرار، ولكنها تعكس التداخل وتعدّد الأشكال، فإذا الأبنية متجاذبة بين الوحدات أبنية صغرى، والنصّ بنية عليا مؤلّفة للمدلول الكلّي في حركة السرد وفي انسجام الحكاية بما يجانس الخطاب دون الواقع (Valette، 1993: 59) في ثنائيات اللفظ والمعنى وتمثيل الأنساق في الشخصيات والزمن، مرجعيات في الاستدلال على انسجام الخطاب السردّي الذي يُفضي إلى استنتاجات في القراءة، لا تعني نتائج نهائيّة في تقنين البنية أو ضبط الجنس، بما أنّ الرواية هي جنس يحمل في «حاضره» الحنين إلى الأصول التراثيّة، والانفتاح على «العالم الجديد في جماليّة الرواية». (Valette، 1993: 228)

الفصل الثالث

الاستدلال على انسجام الخطاب
السردّي السيرة الذاتيّة نموذجاً

1. النّصّ الأوّل

الفصل العشرون من «الأيام» - الجزء الثالث، لطفه

حسين

حدود الأبنية وتجلياتها في الضمير والزمن: قيود الميثاق الأجناسي أو
تحرر الفكر النقديّ

1.1. النّصّ

الفصل العشرون

إيمانٌ بالثّورة !

لم يكن صاحِبنا قد أتمَّ العَقْدَ الثَّالثَ مِنْ عُمُرِهِ حين عاد مِنْ أوروبّا وأصبح أستاذًا في الجامعة، ولكنّه كان يَعْتَقِدُ أَنَّ تجارِبَهُ الكثيرةَ الَّتِي بَلَأَ حُلُومَهَا ومُرَّهَا في أَثناءِ إقامَتِهِ في فرنسا قد تجاوزَتْ به هذه السَّنَ، ونَيْفَتْ به على الأربعين، فهو قد أنفق في فرنسا أعوامَ الحربِ العالَميّةِ كُلِّها، وهو لم يَعْشُ تلكَ الأعوامَ لاهيًّا عما كان يجري حوله مِنَ الأحداثِ، ولا غافلاً عما كان في هذه الأحداثِ مِنْ عِبرٍ وعِظَاتٍ. وهو لا يَذْكُرُ أَنَّهُ صُرفَ عَنْ أحداثِ الحربِ وأصدائها في الأُمّةِ الفَرَنسيّةِ وَغَيرِها مِنَ الأُمَمِ المُحَارِبَةِ يَوْمًا مِنَ الأَيّامِ. كان يقرأ الصّحفَ الفَرَنسيّةَ مَعْنِيًّا بقرائتها، وكان يُطِيلُ التّفكيرَ فيما يقرأ.

وهو لم يَعْذُ إلى مصرَ إلّا بَعْدَ أَنْ وَضَعَتِ الحزْبُ أوزارَها، وامتناز المُنتَصِرُ مِنَ المُنْهَزِمِ، وظَهَرَتْ آثارُ الانتصارِ عند الغالبين، وآثارُ الهزيمةِ

عند المغلوبين، وثَلَّتْ عُروُشُ كان النَّاسُ يُقَدِّرون لها الخلودَ، وذَلَّتْ شعوبُ
كان النَّاسُ يُقَدِّرون لها سُلطانًا لا يزول.

وفي أثناء تلك الحرب، كانت ثورة لم يعرف لها التاريخ نظيرا إلا
الثورتين الأمريكية والفرنسية في القرن الثامن عشر. وقد حاولت هذه الثورة
أن تحقق نظاما كان الناس يقرؤونه في الكتب، ويعتقدون أنه من هذه المثل
البعيدة التي لا سبيل إلى تحقيقها.

كل ذلك عرّفه صاحبنا وتتبع أنباءه وآثاره في عناية لم تكن أقل من
عنايته بالدرس والتحصيل، وهو في هذا الدرس وهذا التحصيل قد قرأ وسمع
أساتذته يفرضون ويفسرون تاريخ الأمم القديمة والحديثة، وما اختلف
عليها من الأحداث التي تطورت لها نظم الحكم على اختلاف العصور. وكان
شديد التأثر بدروس الأستاذ دوركيم¹ في علم الاجتماع. وكان الأستاذ
دوركيم قد أنفق عاما كاملا يدرس لتلاميذه مذهب الفيلسوف الفرنسي سان
سيمون² الذي يقوم على أن أمور الحكم الصالح المنتج الذي يحقق
العدل، ويكفل رقي الشعب، ويتيح للإنسانية أن تتقدم إلى أمام، يجب أن
تصير إلى العلماء لأنهم هم الذين يستطيعون أن يلائموا بين نتائج العلم
على اختلافها، وبين حاجات الناس وطاقاتهم واستعدادهم للتطور والمضي
في سبيل الرقي.

فليس غريبا أن يعود صاحبنا إلى وطنه مؤمنا بالثورة التي نشبت
فيه، ومؤمنا في الوقت نفسه بأن عبءا خطيرا من أعباء هذه الثورة سيقع
على العلماء والمتقنين من أبناء هذا الوطن، فهم قد عرفوا تجارب الأمم،
وعرفوا حقائق العلم، واستطاعوا أن يميزوا بين ما يمكن من الأمر وما لا
يمكن، وهم القادرون على أن يقودوا الشعب إلى الخير، ويسلكوا به قصد
السبيل، ويعصموه من التورط فيما تورطت فيه شعوب كثيرة فلم تجن منه

1 دوركيم: (Dorkheim, Emile) [1858 – 1917] هو واحد من مؤسسي علم الاجتماع الحديث.

وإذا كان هذا العلم يعود إلى أوغست كونت (Auguste Comte) [1798 – 1857] منذ 1848، فإن لدوركيم الفضل في تطويره وإشعاعه في نهاية القرن التاسع عشر.

2 سان سيمون: (Saint – Simon : Claude Henri de Rouvroy, comte de) [1760 – 1825] فيلسوف فرنسي، وهو صاحب المذهب المعروف باسمه، كان لأفكاره تأثير على الأجيال اللاحقة وعلى أغلب فلاسفة القرن التاسع عشر.

Dictionnaire de la langue française : Encyclopédie – Noms com –)
muns – Noms propres, Italie – Edition 2 – 1994 [Hachette – spa –
(dem – adagp 1980] p. 400 + 1140.

إلا شراً.

وكان صاحبنا يَقْدِرُ أَنَّ السَّاسَةَ الَّذِينَ يَقُودُونَ الثَّوْرَةَ سَيَخْتَلِفُونَ فِي يَوْمٍ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّ الْعُلَمَاءَ وَالْمُفَكِّرِينَ لَنْ يَنْحَاذُوا إِلَى الْأَحْزَابِ، وَلَنْ يَكُونُوا كغَيْرِهِمْ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ، الَّذِينَ يُقَادُونَ وَلَا يَقُودُونَ. وَلَمْ يَكُن يَقْدِرُ أَنْ سَيُشَارِكَ فِي السِّيَاسَةِ مِنْ قُرْبٍ أَوْ بُعْدٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُن يَتَرَدَّدُ فِي أَنَّهُ لَنْ يُحْجَمَ عَنْ أَدَاءِ الْوَاجِبِ وَقَوْلِ كَلِمَةِ الْحَقِّ إِنْ اضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ غَيْرَ حَاسِبٍ لِلظُّرُوفِ وَلَا لِلْعَوَاقِبِ حِسَابًا.

على أَنَّهُ لَمْ يُنْفِقْ فِي مِصْرَ شَهْرًا حَتَّى تَبَيَّنَ أَنَّهُ كَانَ وَاهِمًا فِي كُلِّ مَا قَدَّرَ، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ وَالْمُفَكِّرِينَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ يَتَأَثَّرُونَ بِالْجَمَاعَاتِ الَّتِي يَعِيشُونَ فِيهَا، فَيُخْطِئُونَ مِثْلَهَا وَيُصِيبُونَ. بَلْ هُمْ قَدْ يَرَوْنَ الْخَطَرَ وَيَعْمَدُونَ إِلَيْهِ مُتَابِعِينَ لِلْجَمَاعَاتِ الَّتِي يَذْهَبُونَ مَذْهَبَهَا أَوْ يَرَوْنَ رَأْيَهَا. هُنَاكَ، تَبَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ الشَّاعِرَ الْجَاهِلِيَّ³ إِنَّمَا صَوَّرَ حَقِيقَةً خَالِدَةً مِنْ حَقَائِقِ الْجَمَاعَاتِ حِينَ قَالَ (الطَّوِيلُ):

أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللَّيْلِ
فَلَمَّا عَصَوْنِي كُنْتُ مِنْهُمْ وَقَدْ أَرَى
فَلَمْ يَسْتَبِيئُوا الرُّشْدَ إِلَّا ضَحَى الْغَدِ
غَوَايَهُمْ أَوْ أَنَّنِي غَيْرُ مُهْتَدٍ
وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غُرْيَةٍ إِنْ غَوَتْ
غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غُرْيَتُهُ أَرُشِدَ

وكان أَوَّلُ مَا لَاحِظَ بَعْدَ أَنْ أَقَامَ وَقْتًا قَصِيرًا فِي مِصْرَ، أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ مُخْتَلَفًا بَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ عُلَمَاءَ وَمُفَكِّرِينَ، وَبَيْنَ عَامَّةِ النَّاسِ وَالشَّبَابِ مِنْهُمْ خَاصَّةً.

فَأَمَّا أُولَئِكَ فَكَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالثَّوْرَةِ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِأَنْفُسِهِمْ أَيْضًا، وَهُمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأَحْدَاثِ وَلَا يَشَارِكُونَ فِيهَا خَالِصِينَ لَهَا فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَقْدِرُونَ لِأَرْجُلِهِمْ مَوَاضِعَهَا قَبْلَ الْخَطْوِ، وَلَا يَتَحَرَّجُونَ مِنْ نَقْدِ السَّاسَةِ وَالْقَادَةِ وَالتَّنَدُّرِ بِهِمْ حِينَ يَقُولُونَ

3 هو الشَّاعِرُ الْفَارِسِيُّ دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ الْجَشْمِيُّ، شَجَاعٌ مِنَ الْأَبْطَالِ، خَيْرٌ مِثَالٍ عَلَى الْمَوْقِفِ النَّقْدِيِّ الْمُتَحَضَّرِ مِنْ أَخْطَاءِ قَبِيلَتِهِ جَشْمٍ - مِنْ هَوَازَنَ - ؛ وَهُوَ زَعِيمُ الْقَبِيلَةِ وَفَارِسُهَا غَيْرُ الْمَنَازِعِ؛ غَزَا نَحْوَ مِائَةِ غَزْوَةٍ لَمْ يُهْزَمْ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَعَاشَ حَتَّى سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَنْ عَيْنَيْهِ، وَأَدْرَكَ الْإِسْلَامَ وَلَمْ يُسْلَمْ (مُشَارَكَتُهُ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ سَنَةِ 8 هـ/ 630 م وَمَقْتَلُهُ، إِذْ كَانَتْ هَوَازَنُ خَرَجَتْ لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ فَاسْتَصْحَبَتْهُ مَعَهَا تَيْمَنًا بِهِ، وَهُوَ أَعْمَى، فَلَمَّا انْهَزَمَتْ جُمُوعُهَا أَدْرَكَهُ رَبِيعَةُ بْنُ رَفِيعِ السَّلَمِيِّ فَقَتَلَهُ، وَهُوَ يَبْلُغُ مِنَ الْعُمُرِ مَا يَزِيدُ عَنْ 100 عَامٍ). لَهُ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ. وَالصِّمَّةُ لَقِبَ أَبِيهِ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَارِثِ. (الأعلام، 11: 339).

وحيث يفعلون. وكان هذا الموقف يُعرضهم للانقسام على أنفسهم ومشاركة الساسة في الاختلاف حين يتورطون فيه.

وأما عامة الناس - والشباب منهم خاصة - فكانوا مؤمنين بالثورة، قد أخلصوا لها أنفسهم وقلوبهم وأيديهم أيضًا. لا يفكرون في عاقبة ولا يخافون هؤلاء مهما يكن. وهم كانوا يُعرضون صدورهم لرصاص الإنجليز، ويُغامرون بحياتهم مُغامرة رائعة على حين كان بعض الساسة القائمين بالحكم في تلك الأيام لا يحفلون بهم ولا بما يلقون، وإنما يُصانعون الإنجليز حينًا، ويصانعون القصر حينًا آخر، ويسخرون من أولئك الذين كانوا ينتظرون في باريس أن تفتح لهم أبواب وزارات الخارجية أو يحاولون في لندن أن يصلوا مع الإنجليز إلى كلمة سواء.

ولم يكد الإنجليز يُغلثون زُهدهم في الحماية وميلهم إلى الغائها، وإقامة نظام خير منها، ولم تكد وزارة الثقة - كما كانت تُسمى في تلك الأيام - تنهض بأغواء الحكم، ولم يكذ سعد - رحمه الله - يعود إلى مصر، حتى نجم الخلاف بين الوزارة وبين الوفد حول المفاوضات: من الذي يُجريها؟

أ تجريها الوزارة لأنها تمثل السلطان الشرعي؟

أم يجريها الوفد لأنه يمثل الشعب الثائر؟

وكان الغريب من أمر هذا الخلاف أنه كان يتصل بالمظاهر والصُور لا بالوقائع وحقائق الأمر. كان أعضاء الوزارة وأعضاء الوفد يؤمنون جميعًا بحقي مصر في الاستقلال، وبأن هذا الاستقلال يجب أن يُستخلص من الإنجليز بالمفاوضة الحرة إيثارًا للسلم ورغبة في العافية وبُخلًا بالدماء على أن تُراق وبالنفوس على أن تُزهق قبل أن تُستنفذ وسائل السلم. ولكنهم على هذا الاتفاق والإجماع، كانوا يختلفون في مظاهر هذه المفاوضات، لأن من يُجريها سيتأخر له تحقيق الاستقلال إن قدر له النجاح.

وكذلك انقسم المصريون وثارَت بينهم فتنة مُكررة جعلت بأسهم بينهم شديدًا.

ونظر صاحبنا فإذا العلماء والمفكرون كغيرهم من الناس قد انقسموا إلى فريقين: فريق منهما مال إلى الوفد وقال مع القائلين: «لا رئيس إلا سعد»، وفريق آخر مال إلى الوزارة وقال مع القائلين: «إنما المفاوضات لمن ولي الحكم». ثم نظر صاحبنا فإذا هو كغيره من عامة الناس، وإذا هو مع الفريق الذي مال إلى الوزارة ورئيسها عدلي باشا، رحمه الله.

وما أسرع ما اضطربت الفتنه حتى مس لها كل نفس وكل عقل وكل ضمير، وإذا الوفد يتمنى الإخفاق للوزارة في مفاوضاتها، ويدبر لهذا الإخفاق، وإذا أتباع الوفد يجهزون في غير تحفظ بدعائهم ذاك البغيض: «الحماية على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلي»

وإذا صاحبنا يُنفق أقصى ما كان يملك من الغنى في مهاجمة هؤلاء الوفديين الذين اتخذوا من بغضهم لعدلي وأصحابه، ومن حرصهم على رئاسة المفاوضات دينا، وإذا هو يكتئب ذات يوم في صحيفة «المقطم» ساخرا من السعديين: «يقول الوفديون لا رئيس إلا سعد كما يقول المسلمون لا إله إلا الله».

وقد بلغ الشر أقصاه بين الفريقين حتى انتهى إلى إخفاق المفاوضات، ولم ينزل الإنجليز لعدلي عن الاستقلال، وكثرة المصريين لا تؤيده بل لا تحبه بل تبغضه وتبغض أصحابه أشد البغض وأنكره.

ويعود عدلي مخفقا، فيفرح بإخفاقه الوفد وأتباعه، ويزعم أصحاب عدلي أن صاحبهم قد كان أبيا كريما قد ثبت للإنجليز فلم ينزل عن حق الوطن ولم يقبل منهم الدنية وعاد أشم مرفوع الرأس.

ويرى صاحبنا نفسه ذات يوم في محطة القاهرة مع المستقبلين لعدلي وهو يصيح مع الصائحين: «ليخي عدلي باشا».

وقد حمل العدليون صاحبهم على الأكتاف حتى وضعوه في سيارته. ولا يكاد المستقبلون للمخفق العظيم يخرجون من المحطة حتى تنهال عليهم اللعنات ويصّب عليهم الاستهزاء صبا، ثم يُقذفون بالحجارة والعصى، ويصاب صاحبنا ببعض الأذى، ولولا أن رفيقه كان ماهرا لبقا لتعرض لشر كثير. ولكن رفيقه انعطف به إلى حارة من الحارات، ثم نفذ به إلى حيث أمن الحصى والحجارة والشتم. وأعادته إلى داره موفورا مكثودا مع ذلك.

ويُنقَى سعد بعد إخفاق عدلي بقليل، ويُكر عدلي هذا الإخفاق، ويُلق في قبول استقالته، ويرى أصحاب عدلي أن نفي سعد إهانة للوطن كله، وتوشك الكلمة أن تجتمع، ويوشك المصريون أن يصبحوا يدا واحدة على خصمهم من الإنجليز، ولكن العصا لا تلبث أن تنشق، والخلاف لا يلبث أن يعود كأعنف ما كان، لم يغير أحد الفريقين من رأيه ولا من خطته شيئا.

يقول العدليون إن حب الوفد للرئاسة قد أضاع المفاوضات!

ويقول السعديون إن ازدراء عدلي للشعب وممثله قد أضاع الاستقلال،

ويوشك الاستقلال أن يُنسى وتنصرف عنه النفوس بفضل هذه الفتنة المظلمة التي كان المصري فيها يُخرج يده فلا يكاد يراها.

على أن تصريح الثامن والعشرين من شهر فبراير سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف يرد إلى العدليين شيئاً من ثقة وكثيراً من أمل. فقد ظفر ثروت باشا - رحمه الله - ببعض الحق، وشيء خير من لا شيء.

وقد أُتيح لمصر أن تدبر أمورها بنفسها، وأتيح للشعب أن يكون له دستور، وأن يحيا حياة ديمقراطية كريمة.. وأصبح السلطان ملكاً، وأصبح لمصر أن ترسل ممثليها السياسيين إلى البلاد الأجنبية بعد أن عادت إليها وزارة الخارجية التي ألغها الإنجليز حين أعلنوا الحماية.

وكل هذا يتيح لمصر مظاهر الاستقلال وشيئاً من حقائقه مهما يكن قليلاً فإن له ما بعده. ولكن السعديين كانوا يُنكرون هذا التصريح ويرونه شراً ونكراً ويرون قبوله جريمة وإثمًا.

والخلاف يمضي في طريقه لا تهدأ ثورته ولا تزداد ناره إلا اضطراباً، وصاحبنا ماضٍ مع أصحابه في إنكاء هذه النار لا يعنيه أن يرضى عنه الراضون أو يسخط عليه الساخطون، وإنما هو مقتنع بأن شيئاً خير من لا شيء، وبأن القليل صائر إلى الكثير، وبأن هذه المظاهر ستصبح في يوم من الأيام حقائق إن عرّف المصريون كيف يحزمون أمورهم وكيف يجمعون كلمتهم وكيف يُحسنون انتهاز الفرص.

وقد أخذ ثروت باشا - رحمه الله - يهيئ لوضع الدستور فألف لجنة الثلاثين، وأخذت هذه اللجنة في عملها. ولكن شراً آخر يظهر في أفق مصر...

فهذه اللجنة قد أخذت عملها على أنه جد... وجعلت تضع دستوراً ديمقراطياً يخول للشعب من الحقوق ما لا يريد القصر أن ينزل عنه. وإذا سلطان الأمر وملك اليوم يُمكّر بالوزارة واللجنة جميعاً. وإذا الخلاف يظهر بين القصر وبين ثروت باشا، وتكون ديمقراطية الدستور هي أصل هذا الخلاف. وصاحبنا ماضٍ في تأييد الدستور الديمقراطي غير مُلق بالاً إلى القصر ولا إلى صاحب القصر الذي أحسن لقاءه ومنحه كثيراً من العطف والبر والتشجيع.

وفي ذات يوم، يُنبئ ثروت باشا صاحبنا بأن القصر ساخط عليه، وبأنه يحاول أن يُلصِح الأمر.

قال صاحبنا متزاحكا: فأصلح الأمر بين الوزارة والقصر - إن وجدت إلى ذلك سبيلاً - فهذا أجدر بعنايتك من إصلاح الأمر بين القصر وبينى.

ولم يستطع ثروت باشا أن يصلح الأمر بين القصر والوزارة، ولا بين القصر وصاحبنا، وإنما استقال.

ونظر صاحبنا فإذا هو بين عدوين لا يدري أيهما أنكى له من صاحبه. يراه السعديون مارقا مالا المارقين.

ويراه القصر كافرا بالنعمة جاحدا للجميل.

ويرى هو أنه قد أرضى ضميره وأدى واجبه وليكن بعد ذلك ما يكون.

وكذلك غرق صاحبنا في السياسة إلى أذنيه، وكان جديراً أن يفرغ للعلم والتعليم أولاً يفكر إلا في طلابه وكُتبه، ولكن بعض الظروف تحيط بالشعوب فتجعل الحيدة بالقياس إلى بعض أبنائها إثماً لا يُعْفَر، ولا تَمحي آثاره.

وكان صاحبنا يرى الحيدة في ذلك الوقت جُبناً ونفاقاً. والمهم أنه غرق في السياسة أو احترق بنارها، ولم يكن له بُد من أن يحتمل تبعات هذا الغرق أو هذا الحريق. وهل كانت حياته كلها منذ تلك الأيام، إلا نتيجة طبيعية لإقدامه على السياسة وغرقه فيها واصطلائه نازها؟

كل ما لقيه بعد ذلك في حياته من خير أو شر، أو من عُرف أو نُكر، ومن رضا أو سُخْط لم يكن إلا أثراً من آثار تلك السياسة التي أقدم عليها غير حاسبٍ لأعقابها ونتائجها حساباً. وعلى كثرة ما لقي من أهوال السياسة وما احتمل من أثقالها وما تعرض لسُخْط المتطرفين حيناً والمعتدلين حيناً آخر، لم يُنكر من سيرته شيئاً ولم يندم على فعلٍ فَعَلَهُ أو قولٍ قَالَهُ.

وكثيراً ما كان الناس من صديقه يلومونه على أنه عَرَضَ نَفْسَهُ لِسُخْطِ هذه الفئة أو تلك. فلم يكن يزيد على أن يَهْزُ رأسه ويرْفَع كَتِفَيْهِ وَيُجِيب هؤلاء الصديق بما كان يُديره بينه وبين نفسه دائماً: لو استؤنف الأمر من حيث ابتدأ لاستأنف سيرته التي سارها، لم يُغَيِّر منها شيئاً، ولم يُنكر منها قليلاً أو كثيراً. ذلك أنه لم يستجب فيما قال أو فعل إلا لما كان يدعو إليه ضميره من الإقدام في غير تهيب أو وجل، ولا سيما حين يبلغ الشر أقصاه وتنتهي الفتنة إلى غايتها...

ولقد رأى نفسه ذات يوم وليس بينه وبين المحنة إلا خطوة إلى أمام، وليس بينه وبين العافية إلا خطوة إلى وراء، وأن أصدقاءه المحبين له

العاطفين عليه الذين لم يكونوا يملكون له في تلك الأيام إلا المشورة والنصح، ليلحوا عليه في أن يؤثر العافية، ولو وقتا قصيرا، فلا يسمع لمشورتهم ولا يحفل بإلحاحهم، وإنما يخطو خطوته تلك إلى أمام، فيلقي بنفسه «بين ذراعي وجبهة الأسد»، كما يقول الشاعر القديم⁴. وما أمض

4 « بين ذراعي وجبهة الأسد »

هذا عجزٌ وصدره:

«يا مَنْ رَأَى غَارِضاً أَسِرَّ بِهِ»؛ يُسْتَدَلُّ به في: المضاف والمضاف إليه مُرَكَّبٌ؛ يرى النحويون أنَّ المضافَ إليه وقع موقع التثوين من المضاف، ومن أحكامه عندهم أنه لا يُفصلُ بينهما شيء، ولذلك يُصَرُّ المُصَحِّحون اللغويون على خطئ العطف على المضاف قبل استكمال الإضافة، فلا تقول (كتاب وقلم محمد) بل كتاب محمد وقلمه، ولكن الشعراء أتوا في أشعارهم ما عدَّه النحويون مخالفاً لهذا الحكم. فهذا الفرزدق (*) يقول [الرجز]:

يَا مَنْ رَأَى غَارِضاً أَسِرَّ بِهِ *** تَبْنَ ذِرَاعِي وَجَبْهَةَ الْأَسَدِ

فأنشده سيبويه (1: 180) على أنه فصل بين المضاف (ذراعي) والمضاف إليه (الأسد). وأنَّ المعنى بين ذراعي الأسد، والجبهة مُقَحَّمَةٌ على نية التأخير أي وجبته. قال ابن يعيش (شرح المفصل، 2: 189): «ذراعي الأسد، وجبته الأسد»

على أن المضاف إليه محذوف، بقرينة المضاف إليه الثاني، أي بين ذراعي الأسد وجبته. و«العارض»: السحاب الذي يعترض الأفق. وجملة «أسر به»، صفةٌ لعارض. و«الذراعان والجبهة»: من منازل القمر الثمانية والعشرين، فالذراعان أربعة كواكب، كل كوكبين منهما ذراع. قال أبو إسحاق الزجاج في «كتاب الأنواء». ذراع الأسد المقبوضة، وهما كوكبان نيران بينهما كواكب صغار يقال لها: «الأظفار» كأنها في مواضع مخالبا الأسد، فذلك قيل لها الأظفار. وإنما قيل لها الذراع الأخرى، وهي مقبوضة عنها، ونوءها يكون لليلتين تمضيان من كانون الثاني، يسقط الذراع في المغرب غدوة وتطلع البلدة والنسر الطائر في المشرق غدوة. وفيه يجمد الماء ويشد البرد. والجبهة: أربعة كواكب فيها عوج، أحدها براق وهو اليماني منها، وإنما سُمِّيتِ الجبهة لأنها كجبهة الأسد. ونوءها يكون لعشر تمضي من شباط، تسقط الجبهة في المغرب غدوة، ويطلع سعد السعود من المشرق غدوة. وفيه تقع الجمرة الثالثة ويتحرك أول العشب، ويصوت الطير ويورق الشجر، ويكون مطرٌ جود. ويسمى نوء الأسد، لأنه تتصل به كواكب في جبهة الأسد.. وخصَّ هاتين المنزلتين لأنَّ السحاب الذي ينشأ بنوء من منازل الأسد يكون مطره غزيراً، فلذلك يسر به. والنوء: غيبوبة الكوكب في المغرب غدوة وطلوع رقبه في المشرق غدوة، وسمي النوء لأنه ناء أي: نهض للغيوب.

وكانت العرب تزعم أنه يحدث عند نوء كل منزل مطرٌ أو ريح أو حرٌّ أو برد.

(*) والفرزدق (38 هـ / 658 م - 110 هـ / 728 م) هو هُمام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، أبو فراس، الشهير بالفرزدق: شاعر من النبلاء، من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة، كان يُقال: لولا شعر الفرزدق لذهبَ ثلثُ لغة العرب، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس. يُسَبِّهُ بزهير بن أبي سلمى. وكلاهما من شعراء الطبقة الأولى، زهير في الجاهليين، والفرزدق في الإسلاميين. وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل، ومهاجاته لهما أشهر من أن تُذكر. كان شريفاً في قومه، عزيز الجانب، يَحْمِي مَنْ يستجير بغير أبيه - وكان أبوه من الأجواد الأشراف - وكذلك جدّه.

مَا وَجَدَ وَوَجَدَ أَهْلَهُ مَعَهُ مِنْ أَلَمٍ؛ وَمَا أَمَرَ مَا ذَاقَ وَذَاقَ أَهْلَهُ مَعَهُ مِنْ شَقَاءٍ... وَلَكِنَّهُ كَانَ يَسْتَحِبُّ تِلْكَ الشَّدَّةَ الشَّدِيدَةَ وَالْقَسْوَةَ الْقَاسِيَةَ عَلَى الْعَافِيَةِ وَاللَّيْنِ.

كَانَ يَعْرِفُ نَفْسَهُ حِينَ يَشْقَى فِي سَبِيلِ مَا يَرَى أَنَّهُ الْحَقُّ، وَيُنْجِرُهَا أَشَدَّ الْإِنْكَارِ بَلْ يَبْغُضُهَا أَشَدَّ الْبَغْضِ إِذَا نَعِمَ بِالْخَفْضِ وَاللَّيْنِ لِأَنَّهُ صَانِعٌ أَوْ دَاجِي أَوْ جَهَرَ بِغَيْرِ مَا يَسُرُّ أَوْ آثَرَ رِضَا السُّلْطَانِ عَلَى رِضَا الضَّمِيرِ. وَكَانَ شِعَارُهُ دَائِمًا الشَّعَارُ الَّذِي كَانَ يُبَادِي بِهِ مَنْ يَخَاصِمُهُ كَمَا كَانَ يِبَادِي بِهِ مَنْ يَغْرِيهِ
قَوْلُ أَبِي نَوَاسٍ⁵:

وفي شرح نهج البلاغة، كان الفرزدق لا يُنْشَدُ إِلَّا قَاعِدًا، وأراد سليمان بن عبد الملك أن يُقيمه فثارت طائفة من تميم، فأذن له بالجلوس.

وقد جُمِعَ بغض شعره في «ديوان» - ومن أمهات كتب الأدب والأخبار: «نقائض جرير والفرزدق» (ثلاثة مجلدات). كان يُكْنَى في شبابه بأبي مَكْيَةٍ، وهي ابنة له. وَلَقِبَ بالفرزدق لجهامة وجهه وغلظه. وتوفي في بادية البصرة، وقد قارب المائة. وأخباره كثيرة. وكان مشتهراً بالنساء، زير غَوَانٍ، وليس له بيتٌ واحد في التَّسْبِيحِ مذكور. وقال المرتضى: كان يَحْسُدُ عَلَى الشَّعْرِ وَيَفْرِطُ فِي اسْتِحْسَانِ الْجَيْدِ مِنْهُ. وَمِمَّا كُتِبَ فِي أَخْبَارِهِ «الفرزدق» لخليل مردم بك، ومثله لحنا نمر، ولفؤاد أفرام البستاني. (الأعلام، VIII: 92)

5 أبو نواس: (146 - 198 هـ = 763 - 814 م) الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء، شاعر العراق في عصره. وُلِدَ فِي الْأَهْوَازِ (من بلاد خوزستان) ونشأ بالبصرة، وترحل إلى بغداد، فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، ومدح بعضهم، وخرج إلى دمشق، ومنها إلى مصر، فمدح أميرها الخصب، وعاد إلى بغداد فأقام إلى أن تُوفِّيَ فيها. كان جد خراساته مولى للجراح بن عبد الله الحكمي، أمير خراسان، فَنُسِبَ إِلَيْهِ. وفي تاريخ ابن عساكر أن أباه من أهل دمشق، من الجند، من رجال مروان بن محمد، انتقل إلى الأهواز فترَّجَّع امرأة من أهلها اسمها جليان، فولدت له ولدين أحدهما أبو نواس، قال الجاحظ: ما رأيْتُ رجلاً أعلم باللغة ولا أفصح لهجة من أبي نواس. وقال أبو عبيدة: كان أبو نواس للمُحَدِّثِينَ كَامِرِي الْقَيْسِ لِلْمُتَقَدِّمِينَ، وَأُنْشِدَ لَهُ النَّظَامُ شِعْرًا ثُمَّ قَالَ: هَذَا الَّذِي جُمِعَ الْكَلَامُ فَاخْتَارَ أَحْسَنَهُ. وقال كلثوم العنابي: لو أدرك أبو نواس الجاهلية ما فُضِّلَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وقال الإمام الشافعي: لولا مُجُونُ أَبِي نَوَاسٍ لَأَخَذْتُ عَنْهُ الْعِلْمَ، وَحَكَى أَبُو نَوَاسٍ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ: مَا قُلْتُ الشَّعْرَ حَتَّى رَوَيْتُ لِسْتَيْنِ امْرَأَةٍ مِنَ الْعَرَبِ، فَمَا ظَنُّكَ بِالرِّجَالِ؟ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَهَجَ لِلشَّعْرِ طَرِيقَتَهُ الْحَضَرِيَّةَ وَأَخْرَجَهُ مِنْ لَهْجَتِهِ الْبَدَوِيَّةِ. وَقَدْ نَظَّمَ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الشَّعْرِ، وَأَجُودُ شِعْرُهُ خَمْرِيَّاتِهِ. لَهُ دِيْوَانُ شِعْرٍ، وَدِيْوَانُ آخِرِ سُمِّيَ «الْفَكَاهَةُ وَالْإِسْتِنْسَانُ فِي مُجُونِ أَبِي نَوَاسٍ». وَابْنُ مَنْظُورٍ كَتَابَ سَمَاهُ «أَخْبَارُ أَبِي نَوَاسٍ» فِي جَزَائِنِ صَغِيرَتَيْنِ. وَلَعَبَدُ الرَّحْمَنِ صَدَقِي «الْحَانُ الْحَانُ فِي حَيَاةِ أَبِي نَوَاسٍ»، وَمِثْلُهُ لِعَمْرِ فَرُوحَ. وَلَزَكِيَّ الْمَحَاسِنِي «النَّوَاسِيَّ». وَابْنُ هَقَّانَ عَبْدُ اللَّهِ الْمَهْزَمِيُّ «أَخْبَارُ أَبِي نَوَاسٍ». وَفِي تَارِيخِي وَوَفَاتِهِ خِلَافًا: قِيلَ فِي وَوَلَدَتِهِ 130 وَ 136 وَ 141 وَ 145 وَ 146؛ وَقِيلَ فِي وَوَلَدَتِهِ 195 وَ 196 وَ 198 هـ. (الأعلام، II: 225)

البيت من الطويل، وَيُرْوَى أَيْضًا، «قدِير» عَوْض «أَمِير»؛ ضَرْبَةٌ لَازِبٌ: أَمَرَ صَغَبٌ.

وَمَا أَنَا بِالْمَشْغُوفِ صَرْبَةً لِأَرْبٍ وَلَا كُلُّ سُلْطَانٍ عَلَيَّ أَمِيرٌ

الأيام - 157 - 165

1. 2. التحليل

رغم الصبغة البنيوية التي أسعى إلى تغليبها وجعلها منهجاً في تحليل النصوص التي أتناولها، فهذا لا ينفي ما قد تفرضه طبيعة النص من خصوصيات مرجعية لا تخرج عن إطار البحث وأساسه وتوجهاته، وتحيل هذه المرجعيات أحياناً، على ما قد يوهم بالخروج عن الإطار البنيوي سيرورة بحث ودرس، لتتدرج فيما له صلة بما هو خارج النص من جوانب معرفية قد يعود بعضها إلى الواقع، وقد يستند بعضها الآخر إلى التاريخ؛ إنّه الشأن بالنسبة إلى النص الذي اخترناه من كتاب «الأيام» سواءً فيما يتعلّق بهذا الفصل العشرين من الجزء الثالث في حدوده بدايةً ونهايةً تتحصران في تسع صفحات⁶، إذ ننظر إليه منفصلاً عن أيّ سابق - يحيل على الفصول التسعة عشر السابقة - أو لاحقٍ مسكوت عنه خطاباً ونصاً قولياً، لكننا نجد له أشباهاً ونظائر في مصنفات أخرى مثل كتاب «مستقبل الثقافة في مصر»⁷ انفتاحاً على زمن موضوعي أكثر منه ذاتي أو أدبيّ إبداعيّ سرديّ ينفصل عن

6 حسب الطبعة المُعتمَدة عن دار المعارف - مصر، 1996، ص 157 - 165 (وعدد هذه الطبعة لم يُحدّد).

7 كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» (1938)، «طَرَحَ فيه [طه حسين] المسألة الحضارية الكيانية برمتها» (محمد جابر الأنصاري - تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي من 1930 إلى 1970، سلسلة عالم المعرفة - عدد 35 - 1980: 93)

وكتاب «الأيام» (III) - في كثير من معانيه ودلالاته - هو صياغة أخرى لكتاب: «مستقبل الثقافة في مصر» ونشر له في خطابٍ أدبيّ اللغة، حضاريّ المحتوى، تداوليّ الأبعاد.

وفي علاقة كتاب «الأيام» بسائر ما جاء في «النصّ الحسيني» «سواء في النقد الأدبي، أو في الترجمة الذاتية، أو في البحث التاريخي، أو في الإبداع الروائي، أو في الأدب الرمزي، أو في أدب الخواطر، أو في أدب الرحلة، أو في المقال الصحفي، أو في النصوص المترجمة» يقول منجي الشملّي إنّ «النصّ الحسيني» متنوّع الأغراض، مختلف الأجناس الكتابية: هو نصّ متعدد المظاهر، ولكنه راجع بالضرورة إلى مقصد واحد هو المشروع [الثقافيّ التربويّ الاجتماعيّ السياسيّ] - الذي - أراد أن يُحقّقه تدريجياً، رغبةً منه في ترقية العقل العربيّ والنّهوض بالمجتمع العربيّ. وهو نصّ في صيغة الجمع (...) وهو نصّ مُفَرَّدٌ إنّ نحن أدركنا المقصد منه».

(في تقديم منجي الشملّي لكتاب: «طه حسين مؤرخاً» لعمر مقداد الجمني، ج. 1، 1993: 14).

السِّيَاق والمرجع، لِيُؤَسَّس كِيَانَهُ فِي عَالَمٍ مَتَخَيَّلٍ هُوَ جُزْءٌ مِنَ الذَّاكِرَةِ بِمَا اخْتَرَنَ فِيهَا مِنْ مَعَارِفٍ قَدْ تَتَجَاوَزُ إِطَارَ الْجِنْسِ الَّذِي يَنْدَرِجُ فِيهِ الْخُطَابُ لِتَكُونَ لَهُ بَجِنْسٍ أَوْ بِأَجْنَاسٍ أُخْرَى رَوَابِطٌ قَدْ تَكُونُ صَرِيحَةً، وَقَدْ تَكُونُ ضَمْنِيَّةً.

وَيَتَعَلَّقُ الْأَمْرُ فِي جَانِبٍ ثَانٍ مِنْهُ بِعِلَاقَةِ الْفَصْلِ مَحْوَرِ الْإِهْتِمَامِ بِكِتَابِ «الْأَيَّامِ» فِي جُزْئِهِ الثَّالِثِ بَحْثًا فِي انْسِجَامِ النَّصِّ الْكَلْبِيِّ رَغْمَ تَوَرُّعِهِ عَلَى فُصُولٍ تَمَيَّزَ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ لَكِنْ بَيْنَهَا مَا يَرْجِعُهَا إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي يُوَحِّدُهَا، وَإِنَّا سَاعُونَ - فِي مَسْتَوًى ثَانٍ مِنْ تَحْلِيلِ هَذَا النَّصِّ - إِلَى الْبَحْثِ فِيهَا بِمَا يَبْرُرُ مَوْضِعَ الْفَصْلِ الْأَخِيرِ مِنْهَا، مَبَرَّرَاتٍ بِنُيُوءَةٍ أَوَّلًا، بِمَا أَنَّ هَذَا هُوَ هَاجِسُنَا فِي الْبَحْثِ، إِضَافَةً إِلَى مَا قَدْ يُطْرَحُ مِنْ خُصُوصِيَّاتٍ جُزْئِيَّةٍ لَا تَخْرُجُ بِدَوْرُهَا عَنِ الْوُضَائِفِ السَّرْدِيَّةِ مَقُومًا مِنْ مَقُومَاتِ الْأَثَرِ الْأَجْنَاسِيَّةِ: الْبُعْدُ الْأَجْنَاسِيُّ بِمَا جَعَلْنَاهُ مُرَادِفًا لِلْبُنْيَةِ الْعُلْيَا نَصًّا يَنْفَتَحُ عَلَى الْخُطَابِ⁸ الَّذِي يَتَعَالَى بِدَوْرِهِ عَنِ الْجَانِبِ الْإِجْرَائِيِّ لِيَنْدَرِجَ فِيمَا هُوَ تَجْرِيدِيٌّ هَيْكَلَةٌ تَتَجَاوَزُ اللَّفْظَ إِلَى الرَّمْزِ، كَمَا الطَّبِيعَةُ إِلَى الْفِكْرِ أَوِ الْمَعْنَى إِلَى الْعِلَاقَاتِ الرِّيَاضِيَّةِ الَّتِي تَنْظُمُ هَيْئَةً الْمَوْجُودِ وَالْوُجُودَ مَعًا.

إِنَّ الْمَنْهَجَ الَّذِي نُرُومُ تَتَبُّعَهُ فِي تَنَاوُلِ هَذَا الْفَصْلِ الْعَشْرِينَ مِنْ كِتَابِ «الْأَيَّامِ» فِي جُزْئِهِ الثَّالِثِ، قَدْ ذَكَرْنَاهُ عَكْسِيًّا مِنَ الْعَامِّ إِلَى الْخَاصِّ، وَلَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى النَّحْوِ التَّالِيِ فِي مَرَاكِلِ ثَلَاثٍ: أَوَّلَاهَا: النَّظَرُ إِلَى النَّصِّ فِي حُدُودِهِ اسْتِنَادًا إِلَى بَنِيَّتِي الضَّمِيرِ: الْخُصَائِصِ وَالتَّجْلِيَّاتِ، وَالزَّمَنِ: الْوُضَائِفِ وَمَا يَقْتَرِنُ بِهَا مِنْ أُبْعَادٍ أَجْنَاسِيَّةٍ تَرْبِطُ الْبُنْيَةَ الصَّغْرَى بِالْعُلْيَا⁹؛ وَثَانِيَّتُهَا: تَبَيُّنُ شَبَكَةِ الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ مُخْتَلَفِ أَنْوَاعِ الْأُبْنِيَةِ بِمَا يَبْرُرُ اعْتِبَارَ النَّصِّ مَحْوَرِ الْإِهْتِمَامِ

8 نَنْظُرُ إِلَى النَّصِّ بِاعْتِبَارِهِ أَحَدَ الْجَوَانِبِ الْإِجْرَائِيَّةِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَتَجَلَّى فِيهَا أَيُّ خُطَابٍ بِاعْتِبَارِهِ الْجَامِعَ لِنُصُوصٍ عَدِيدَةٍ قَدْ تَخْتَلَفَ فِي بَعْضِ الْأُبْنِيَةِ الصَّغْرَى، وَتَتَبَاعَدُ فِي الْأُبْنِيَةِ الْكُبْرَى مَوَاضِيْعَ، لَكِنْ تَبْقَى هُنَاكَ أُبْنِيَةُ صَغْرَى هِيَ الْأَصْلُ الَّذِي يَتَكَوَّنُ مِنْهُ أَيُّ نَصٍّ يُنَاطَرُ نَصًّا آخَرَ فِي نَسِيجِهِ بِمَا يَضْمَنُ تَبَرِيرَاتٍ ائْتَدِجَتْ فِي الْخُطَابِ الْوَاحِدِ، أَوِ الْبُنْيَةِ الْعُلْيَا الْوَاحِدَةِ؛ وَإِنَّا نَرْكُزُ فِي تَحْلِيلِ النَّصِّ مَحْوَرِ الْإِهْتِمَامِ عَلَى بَنِيَّتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ هُمَا:

1. الضَّمِيرُ؛
2. الزَّمَنُ؛

وَتَبَرِيرُ هَذَا الْإِخْتِيَارِ سَيَكُونُ تَحْلِيلًا وَتَعْلِيلًا مِنْ خِلَالِ النَّظَرِ التَّقْصِيلِيِّ فِي نَسِيجِ النَّصِّ بِمَا يَحَقِّقُ تَمَاسُكَهُ وَحِدَةَ كَلَامِيَّةٍ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَبِمَا يُوَكِّدُ أَيْضًا أَلَّا تَتَافَرَ بَيْنَ بَنِيَّتِي النَّصِّ الْأَفْقِيَّةِ وَالْعُمُودِيَّةِ وَإِنَّمَا هُوَ التَّكَامُلُ وَالتَّجَانُّسُ بَيْنَ وَحَدَاتِ النَّصِّ وَمَتَتَالِيَاتِهِ وَرُجُوعِهِ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي يَكُونُهُ وَيُؤَطِّرُهُ.

9 عَلَى أَنَّ إِهْتِمَامَنَا بِهَذَيْنِ النُّوعَيْنِ مِنَ الْأُبْنِيَةِ لَا يُقْصَى عَنََايَةِ الْبُنْيَةِ الْكُبْرَى/ الْمَوَاضِيْعِ بِمَا أَنَّهَا تَنْبَثِقُ - شَيْنَا أَمْ أَبَيْنَا - مِنْ الْعَنََايَةِ بِالنُّوعَيْنِ الْآخَرَيْنِ عِلَاقَةً عَضُوءِيَّةً، هِيَ عِلَاقَةُ الْبُنْيَةِ التَّرْكِيبِيَّةِ بِتَجْلِيَّاتِهَا الْمَعْنَوِيَّةِ الدَّلَالِيَّةِ.

خاتمة¹⁰ في القول والبناء؛ وثالثتها: أي بنية عليا يمكن أن يُقُول إليها هذا النصّ، والغالب أن تكون سيرة ذاتية، لكن هل الأمر كذلك فعلاً استناداً إلى النصّ ذاته، بما قد يحيل عليه من وضوح في مقومات الجنس سُنّة، أو ما قد يُربِّكُ به المنظومة الأجناسيّة الواحدة كما قد يربطها بأجناسٍ أخرى أو يفرّقها؟

1.2.1. المستوى الأوّل من التحليل

1.1.2.1. الضمير

عنوان هذا الفصل العشرين: «إيمانٌ بالثوَرَة» جاء في المُطلق لم يتّصل بالذات فردية كانت أم جماعية، وكأنّ التفكير والفكر في علاقتهما بموقف من الحياة والثقافة، لم يعودا حِكْراً على فردٍ أو مجموعة بقدر ما يختزل توجّه الإنسان في مُطلق الزّمان والمكان. ولئن وُجِدَتْ ثورات مثّلها أفراد، فإنّ أصداءها وظلالها قد نفت الأخبار لتتخذ بُعد الإحياء والزّمر، وهو ما يشي بتعدّد الأصوات.

ولم يشذ استعمال الضمير أو الضمائر في متن الفصل عمّا أوحى به عنوانه، وإنّ لذلك مظاهر شتى تبدأ من القرينة: «صاحبنا»، وضمير المتكلم الجمع يعكس رغبة الكاتب في إنشاء عقْد تقبّل وتفاهم وانسجام بينه وبين المتلقّي؛ والكاتب لا يصوغ ذلك طلباً، وإنّما هي عملية مناورة يُفحِّمُ فيها ومن خلالها المتلقّي في الخطاب لغة ودلالة. والرّفقة بين الكاتب والمتلقّي تنشأ خطاباً سرديّاً في صبغته الأدبية وبمقوماته الأجناسيّة¹¹، وتتطوّر لتشمل الفكر والتّفكير، وهذا المستوى الثّاني لا يعني ضرورة، تواصل العقْد الذي أنشأه الكاتب لعوامل بعضها ذاتي يتعلّق بالمتلقّي، وبعضها الآخر موضوعي يتّصل بالأطر الحافّة بقراءة النصّ وتأويله وإعادة إنتاجه.

ولئن دلّ ضمير المتكلم الجمع - مبدئياً - على تواصلٍ - وإنّ نسبياً - بين الكاتب والقارئ، فإنّ ضمير الغائب المفرد الذي يُكَنّي به الكاتب عن الشّخصيّة يعكس تباعداً مُتعمّداً بين الطّرفين ف «الضمير لا يشغل بالضرورة

10 والمسألة فيها نظرٌ، ولن نتخذ أحكاماً مسبقة حتّى تأتي النّتائج بطبيعتها سلبية أسبابها في الطّرح والشرح.

11 لا نقطع بأيّ حُكم في هذا المجال، بما أنّ «الأيام» من النصوص الّتي تأبى أن تكشف عن حدود أجناسيّة واضحة، وهو ما يجعل الباحث أو الدّارس يُقلّب النصّ على وجوهه المختلفة عسى أن ينتهي إلى ما يؤصل هذا الخطاب ضمن جنس بعينه وربّما أجناس؛ وهو ما نتناوله في المستوى الثّالث والأخير من هذا التحليل.

مكان الاسم، فضمير المتكلم الآن يعبر عن الناطق المتكلم لكنه لا يعوض اسمه» (Dirven & Radden، 2006: 40)، ولذلك أسبابه ومبرراته منها الفترة الزمنية الفاصلة بين الحدث أو الأحداث وتدوينها، مما يجعل الكاتب يصوغ الخطاب برؤية الآن، وإن بقرائن الماضي، ويكون الخطاب هو تصور الكاتب للواقع وليس الواقع كما عاشته الشخصية خاصة وأن من المحاور ما يقع التركيز عليه في أكثر من فصل، بل يكون هو ما يُنتقى حاضراً برمته أو بظلاله¹² عبر الفصول جميعاً.

على أن الانفصال بين الشخصية والكاتب ليس مطلقاً، بما أن الراوي يؤسس لعلاقة التواصل بينهما باعتباره الراوي العليم يستبطن الشخصية أحاسيس ومشاعر، كما مواقف هي أصداء حضور الكاتب فالبطل بالمفهومين الحقيقي (سرداً) والمجازي (نقداً وتعليقاً): «لم يعيش تلك الأعوام لاهياً عما كان يجري حوله من الأحداث، ولا غافلاً عما كان في هذه الأحداث من عبر وعظات. وهو لا يذكر أنه صرف عن أحداث الحرب وأصدائها في الأمة الفرنسية وغيرها من الأمم المحاربة يوماً من الأيام. كان يقرأ الصحف الفرنسية معنياً بقراءتها، وكان يطيل التفكير فيما يقرأ» 157.

هذا الفعل وردّ الفعل يجعل ضمير الغائب المفرد يفتح على الراوي من ناحية، وعلى الكاتب من ناحية أخرى، لكن له روابط - وإن تبدو دقيقة - بسائر الضمائر أو الشخصيات المساهمة في تحديد نسبة العلاقة بين الشخصية والراوي والكاتب، وبينها أيضاً إذ يقول: «وقد حاولت هذه الثورة أن

12 وما لاحظناه من خلال قراءة مختلف فصول «الأيام» في جزئها الثالث، أنها محكومة بمحورين أساسيين:

أولهما نفسيّ تردّد بين الشقاء والسعادة وهذا المحور يتحكّم بصفة مباشرة في الشخصية/البطل؛

وثانيهما عقليّ يركّز من خلاله الكاتب على العلم والمعرفة سبيلاً للارتقاء بالذات/الفرد، كما بالذات/الجماعة، وهو ما يبلور مفهوم «الثورة» الذي يتّوج آخر فصول «الأيام» - وفي الحقيقة، لم تكن سائر الفصول إلا علامات دالة على هذه الغاية وتمهيدا لها مما يجعل كتاب «الأيام» ذا صبغة حجاجية جدلية: أما الأطروحة فيها فهي العلم والمعرفة، وأما السيرة الحجاجية - بما فيها من استدلال وضمانات وصول إلى الغاية - فسائر الفصول بما فيها من مختلف أساليب الإقناع، إنّما تعكس هذه الرغبة في التفسير والتحليل والتعليل، في أسلوب هو مزيج من أدب وفلسفة، وأما الغاية والمنتهى فتورة على السائد الذي كانت الشخصية - في أكثر من تجربة. ونكاد نجزم بأن كلّ التجارب التي ذكرنا انتقاء وليس إجهاداً للذاكرة للوصول إليها، إنّما هي مرايا الضحية التي تحولت إلى بطل وأنموذج لن يتواصل حتى يعي سائر الأفراد دلالاتها ليتحقّق أيضاً مفهوم الثورة سبيلاً لرفي الأمة العربية ونهضتها الفكرية التامة سبيلاً إلى التحرر من التبعية وتحقيقاً لحوار الحضارات الفعّال.

نُحَقِّق نظامًا كان النَّاس يقرؤونه في الكُتُب، ويعتقدون أنَّه من هذه المُثُل البعيدة التي لا سبيل إلى تحقيقها» 157 مجموعة ينحت الكاتب تصوراتها ومعتقداتها نسجًا على منوال الذات¹³، فلا يكون ضمير الغائب الجمع منفصلاً عن المفرد بقدر ما يعكس طريقتين من طبيعة العلاقات بينهما: إمَّا على أساس الانصهار علاقة جزء (هو المفرد) بالكل (هو الجمع)، وإمَّا على أساس الإشعاع علاقة أصل (هو المفرد) بالفروع (هي الجمع)، من منظور أنَّ النَّاس هم أصداء للصورة الأنموذج التي رُسمت للبطل¹⁴.

ولا يرى الكاتب الغائب الجمع المفعول به دائماً، وإنَّما يستحضر وجهها آخر لهذا الضمير من خلال «تاريخ الأمم القديمة والحديثة» 158 باعتبارها مرجعاً يقيس عليه الكاتب¹⁵ حاضره تأسيساً لمستقبل المصريين بل الشعوب عامة بما «يكفل رقيَّ الشعب ويتيح للإنسانية أن تتقدَّم إلى أمام» 158. وضمير الغائب يجد له أشباهاً ونظائر بما يغيِّر علاقته بضمير الجمع الغائب من المفعولية (سلباً وإيجاباً) إلى التساوي والالتقاء بما يحقِّق التوازن بين الحياة والعلم في مجال السياسة؛ لكنَّ التَّجَلِّي الثالث لضمير الغائب الجمع¹⁶ يعكس نمطاً آخر من العلاقات هو الإقبال والإدبار، كما الاتفاق والاختلاف، بالمشاركة في السياسة لكن دون أن يعنِّي ذلك الانحياز إلى الأحزاب، أو قبول الانقياد إليها؛ وأتَّى للكاتب أو من يشاركه أو يقاسمه العلم والتفكير والثقافة أن يقبل الخضوع والخنوع وهو الذي أعلن التمرّد منذ كان صبياً في الكتاب ثم فتى في الأزهر مع كلِّ ما ابتُلِّي به من المحنَّ؟!

وعلاقة ضمير الغائب المفرد بضمير الغائب الجمع لا تتجلى فقط على مستويي الحياة عامة والسياسة خاصّة، بل إنَّ أصولها ترجع إلى طرف آخر يشترك معها في الإحالة دون المرجعية المعجمية أو الدلالية، أو حتّى اتّجاه العلاقة بين الضميرين المفرد والجمع، فالجمع في هذا المستوى «أساتذته» باعتبارهم فاعلين في الشخصية بإذكاء جذوة الثورة وإشعال نار التمرّد على كلِّ

13 وما يبرز توجّهنا هذا هو ما يغلب على كتاب «الأيام» من صبغة تعليمية يرى فيها الكاتب نفسه الأنموذج الذي قد يكون مرجعاً في التعامل مع الحوادث والزمان في إطار التفاعل الإيجابي.

14 وإنَّ كان الكاتب لا يفتأ يُبرز الشخصية في مواطن ضعف وشكوى وحاجة ملحة إلى الآخر، لكن ما ذلك إلّا طريقة من طرق إثبات الشئ بنقيضه؛ يقول شكري المبخوت في ذلك: «ثورة طه حسين الممزوجة بشيء من السخرية وشيء من النعمة» (المبخوت، 1992: 29 - ولمزيد التوسّع، انظر: الأنموذج التطبيقي المتعلق بالفصل الأول من كتاب «الأيام»: 145 - 162).

15 وإنَّ أوهم من خلال الصبغة السردية بأنَّ الشخصية هي التي تقوم به وتتجزه حدثاً ونقداً.

16 على أساس أنَّ التَّجَلِّي الأول هو «النَّاس» والثاني هو «العلماء والمثقفون».

ما يُمكن أن يُقْصِي الفرد أو يَهْمَشه.

ومن هذه الصيغة الجمع يتقرّع أفراد يكتّي الكاتب عن بعضهم بضمير الغائب المفرد في صيغة الأفعال خاصّة، كما بلفظة «صاحبنا»؛ أو أن يذكرهم بأسمائهم جزءًا من ماضٍ حقيقة، وعلامة على حاضر ومستقبل في آن مجازًا، من ذلك «الفيلسوف الفرنسي سان سيمون» و«الأستاذ دوركيم». وبقدر ما توصل هذه الأطراف الخطاب ضمن الواقع وتبعث نفحة من «حقيقة» في مسار الأحداث و«سيرة» الشخصية، فإنّها أيضًا تُرشّح حضور الكاتب في الخطاب دون الشخصية، بما أنّ التركيز على شخصيات «ثانوية» دون أخرى لا يخدم المسار السرديّ بقدر ما يكرّس مبادئ «الثورة» ومرجعياتها سندات استدلال وإقناع وهو ما يعبر عنه الكاتب ببعض القرائن التفسيرية ربطًا بأسباب بنتائج إذ يقول: «فليس غريبًا أن يعود صاحبنا إلى وطنه مؤمنًا بالثورة التي نشبت فيه، ومؤمنًا في الوقت نفسه بأنّ عبثًا خطيرًا من أعباء هذه الثورة سيقع على العلماء والمثقفين من أبناء هذا الوطن» 158.

إنّ وظيفة الضمير «هو» في الرواية قد تعبّر عن تجربة وجودية. وعند الكثير من الرواة المحدثين، يندمج تاريخ الإنسان في مسافة التصريف: والإنسان - المؤلف، إذ ينطلق من «الأنا» التي لا تزال أوفى صيغة لعدم التسمية، يفوز شيئًا فشيئًا بحق الضمير الغائب، وذلك رويدا رويدا عندما يصبح الوجود مصيرًا، ويصبح الخطاب الفرديّ رواية. وهنا، ليس ظهور الضمير «هو» دائمًا منطلق التاريخ، فهو منتهى جهد توصل إلى إخراج - من عالم شخصيّ من الأهواء والحركات - صيغة صافية معبرة حالما تصبح إذن ذاوية بفضل زينة اصطلاحية ودقيقة تمامًا لضمير الغائب. (Adam, 1994: 235 - 236)

إنّ ضمير الغائب المفرد لم يكن مقصودًا لذاته علامة لغوية وأداة ربط معنوية دلالية سياقية فحسب، بل قد اتخذها الكاتب أيضًا لما يميّز به - وأيّ ضمير آخر - من مرونة تتمثّل في وحدة الدال وتعدّد المدلول حسب السياق والمرجع اللذين يستند إليهما الكاتب في الإنشاء والتعبير، كما في النقد والتقويم، تقويم يعبر عنه من خلال المقارنة بين رمز العلم والفكر والثقافة - على وجه مخصوص وفي فئة معينة - وبين «عامّة الناس والشباب منهم خاصّة» 159، إذ يمثلون التجلّي الرابع لضمير الغائب الجمع، وتبين المقارنة في الوجوه التالية، وهي لا تعكس التوافق، بقدر ما تكرّس الاختلاف والمفارقة:

≠

« عامة الناس والشباب منهم خاصة »

الكاتب/ العالم المفكر المثقف (في صيغة
المفرد التي تنفتح على النظائر صيغة
جمع)

- الإيمان بالثورة والاندرج فيها
كلياً.

- الإيمان بالثورة وبالنفس أيضاً، بما لا
يعني الانسياق والتهميش.

- الانسياق وراء الأهواء والاندفاع
دون البحث في العواقب، أو فيما قد
يعود عليهم بنفع أو بالضرر.

- لا يشاركون في الأحداث إلا بعد
النظر إليها بمنظار العقل: تثبّتاً وترتيباً.

- الإعلاء من شأن الساسة والقادة
«على حين كان بعض الساسة
القائمين بالحكم في تلك الأيام لا
يحفلون بهم ولا بما يلقون» 159.

- نقد الساسة والقادة.

مقارنة لم يُرد من خلالها الكاتب أو بها إحباط عزائم كل من يكون صورة من
هؤلاء، لكن أراد أن يوضح الأسس التي ينبغي أن تقوم عليها الثورة، وأن يدعو
إلى المعايير التي لابد من اعتمادها في علاقة الشعب بصاحب السلطة. ومن
هنا، فإن من أبعاد استعمال الضمير الغائب المفرد، نفي ما قد يُرمى به
الكاتب من صبغة تعليمية جافة أساسها التسلط¹⁷ إلى سُبل الإقناع وفق منهج
عقلي منطقي لا يتصل بالذات، بقدر ما يكرس الصفات، بحثاً عن «حقائق
الأمور» 160.

وسعي الكاتب/ الناقد إلى الفصل بين الذات/ السيرة الذاتية، والصفات/
البُعد الحضاري، جَعَلَ الجنس الأدبي (الذي لم تتحدّد معالمه بعد - حتى وإن
أغرث بعض المقومات بترشيح السيرة الذاتية -) ينفتح على التاريخ سرداً
لجملة من الوقائع والأحداث، وهنا يُطرَح عددٌ من الإشكاليات:

1. هل ينبغي للنص الأدبي أن ينفتح على التاريخي، أو أن يلتزم به؟
2. إذا كان صاحب النص يتحدث فعلاً عن «نفسه»، فهل سيكون نقله

17 وهو الذي لم يفتأ ينقد ذلك من خلال الجامع الأزهر في مناهج تدريسه، وسياسة إدارته،
ورود أفعال شيوخه، بما جعله يُكْرُ التبعيّة والخنوع والاستلاب.

مجريات الأحداث برؤية الشخصية، أم بمنظار الكاتب، خاصة إذا ما وُضِعَتْ في الحسبان المسافة الفاصلة بين الحدث وتدوينه؟

3. هل يخدم التاريخ الجنس الأدبي، أم يدرجه ضمن العُدول دون السُّنة؟

إنّ هذه الإشكاليات تعكس علاقة البنية أو الأبنية العليا بسائر الأبنية التي تكوّننها في نظام تراتبيّ، منذ القاعدة حتّى قمّة الهرم سواء أ تعلق الأمر بالأبنية الكبرى أم بالصّغرى، لأنّ المرجعيّة - وهي في الأصل جملة المعاجم التي يستند إليها صاحب النّصّ في الإنشاء والتّعبير - لا تعكس ضرورةً، معانيها الأوّل وإنّما معانيها التي تكتسبها ارتباطاً بالبنية الكبرى التي تندرج فيها، وهي بدورها لا يمكن أن تكتسب شرعيّة وجودها الفعليّ المعنويّ إلّا من حيث علاقاتها بسابقاتها كما بلحاظاتها في انسجام النّصّ وتماسكه، وكلاهما لا يقوم ضرورة على اتّباع نفس النّسق في البناء أو المعنى، فقد يكون الخُلف أيضاً عاملاً مساعداً على ذلك، ومن مظاهره علاقة ضمير الغائب المفرد (الشّخصيّة) بضمير الغائب الجمع (العلماء والمفكّرون) ممّا يوحي بالالتقاء في الصّفات لكنّه يقوم على الاختلاف في المواقف ووجهات النظر: «وَنَظَرَ صَاحِبُنَا، فَإِذَا الْعُلَمَاءُ وَالْمُفَكِّرُونَ كَغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ قَدْ انْقَسَمُوا إِلَى فَرِيقَيْنِ» 160 «ثُمَّ نَظَرَ صَاحِبُنَا، فَإِذَا هُوَ كَغَيْرِهِ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ، وَإِذَا هُوَ مَعَ الْفَرِيقِ الَّذِي مَالَ إِلَى الْوِزَارَةِ وَرَأْسِهَا عَدْلِي بَاشَا» 160.

إنّ ضمير الغائب المفرد في هذا الفصل العشرين - وفي كتاب «الأيّام» - في الجزء الثّالث - لا يبدو قرينة دالة على السّيرة جنساً أدبيّاً، بقدر ما يحيل على كناية عن الفاعل الشّرعيّ في الحياة، من خلال «الإيمان بالنّورة»، فيصبح هذا الضّمير - حتّى وإنّ تعلق بالشّخصيّة/ البطل في خطاب سرديّ - ذا بُعد رمزيّ في فكر نقديّ لرجل فكر آمن بالسياسة ليس بالاندراج فيها، بقدر الخروج منها في قوانينها الموضوعية ونواميسها المسطورة، وإعادة صياغتها وفق الإجابات عن أسئلة يصوغها العقل، وهي منبثقة عن الواقع لكن لا تلتزم به، لأنّها جميعاً تأتي لتبرز استقلال ضمير الغائب المفرد، الشّخصيّة/ الكاتب عن رجال السياسة الذين لا يمثّلون أدبها، بقدر ما يعكسون صراعاتها وخلافاتها ف «لَمْ يَكِدْ سَعْدٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَعُودُ إِلَى مِصْرَ، حَتَّى نَجَمَ الْخِلَافَ بَيْنَ الْوِزَارَةِ وَبَيْنَ الْوَفْدِ حَوْلَ الْمَفَاوِضَاتِ: مَنْ الَّذِي يُجْرِيهَا؟

أ تُجْرِيهَا الْوِزَارَةُ لِأَنَّهَا تُمَثِّلُ السُّلْطَانَ الشّرعيّ النَّظَامِيّ، أم يُجْرِيهَا الْوَفْدُ لِأَنَّهُ

يُمثِّل الشَّعبُ النَّائر؟» 160¹⁸؛ استفهام فعل كلامي، وهو أيضًا فعل خطابي¹⁹ لا يهتم فيه الكاتب باللفظ صيغة إنشائية - بالمفهوم التواصلي أو البلاغي - بقدر ما يختزل الزمن أو ينفي «دلالته الموضوعية» لتكون الحوادث انطباعات محكومة بالعقل؛ وهذه المزوجة تجعل ضمير الغائب المفرد صهرًا لدلالة الشخصية فالراوي كما الكاتب في بوتقة واحدة وهي تهميش السرد ومحورة النقد، واتخاذ الخطاب الأدبية شكلًا لمضمون حضاري، ومن انعكاسات ذلك أن يُلقَى مفهوم الاستقلال أيضًا بظلاله على الراوي من حيث رؤيته للأحداث، فيتجلى في مثل هذه السياقات باعتباره الراوي من الخارج يُتابع الأحداث بقدر ما تكشف عنه هي ذاتها حسب التقدّم فيها، فيتوازي الراوي مع المتلقّي في التعرّف إلى ما سيأتي.

هذه الانزياحات تحيل على أمرين: أولهما أن ما كان اختلافًا بين العلم والفكر، وبين الحياة والسياسة قد أدّى إلى ضرب من الجدل - إن إيجابًا أو سلبيًا -؛ وثانيهما أن ما كان اتفاقًا بين ممثلي العلم والفكر قد أنشأ تباعدًا؛ والأمران معًا يعكسان أن الضمير يحيل على المعنى الأول للمحمول، أما دلالته فتتأى عنه حسب البنية الكبرى التي يُدرج ضمنها. وإذا كان المعنى الأول من وضع الراوي، فإن الدلالة هي من وضع الكاتب الذي لا يكتفي

18 لغويًا: يبدو هذا العمل إنشاءً صريحًا، لكن المرجع والسياق يجعلانه أقرب إلى الوصف والإخبار، بما أن الراوي/الكاتب عارفٌ بالفكرة وبحالتها في الكون واقعة، لكنّه يريد أن يُدرج المتلقّي في إنتاج النصّ «تأويلًا لفكرة من المطلوب أو ينبغي أن يُطلب الاحتفاظ بها باعتبارها معرفة» (المبخوت، 2008: 124) تقوم على «علاقة بين الصورة القصويّة والممثل الذهني» (نفسه: 126) الذي يتجلى في مستويات ثلاثة:

- (1) الاستناد إلى المعرفة الموسوعية وانتقاء ما يتوافق بينها والمرجع، خاصة وأن من مقومات هذا النصّ البنائية ما يربطه بالسيرة الذاتية وهي على تخوم المذكرات؛
- (2) الاستفهام أو الاستخبار باعتباره نوعًا من أعمال الخبر، يتوقّر ضمنيًا على مسار استدلاليّ يستند إلى ثنائية الصدق والكذب من ناحية، وإلى علاقة التركيب النحويّ شكلًا، بالمجاز منهجًا ووظيفة تأويلية؛
- (3) السعي إلى إيجاد مخطط يجرّد القول ويعيد «بناء القول» استنادًا إلى «الصور المنطقية والتمثيلات الذهنية» «لكنّها طرقٌ توجه عملية الفهم والتأويل وجهات متنوّعة دون أن تكون محدّدات قاطعة الدلالة على نوع العمل اللغويّ (المبخوت، 2008: 128 - 130)، ولا تكون صيغة الخطاب مبنية عن جنسها بقدر ما تُدرج المتلقّي في عملية بحثٍ عن المعالم «النهائية» التي يمكن أن تتخذها بنيتها العليا، وهل أن بنية صغرى واحدة كفيلة بتحقيق هذه الغاية؟

19 الفعل الخطابي بما هو: «طريق تأدية الإنجاز، وكيفية باستعمال تلك الألفاظ، مقرونة إلى حدّ ما، بالمعنى والمرجع» (جون لانكشو أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة: كيف نُنجز الأشياء بالكلام - ترجمة: عبد القادر قينيني - 2008: 124).

بإنتاج النصّ وإنما يسعى أيضا إلى توجيه قراءته إلى متلقّيه أيضا، وهو ما يبرّر القول إنّ للنصّ جانباً صريحاً هو لفظه وآخر ضمنياً هو معناه الذي يتأتّى بمنهج معكوس لما تقوم عليه الكناية بما أنّ الكاتب يقَدِّم آخر مرحلة من مراحل الاستدلال فيها، ومنها ما يصوغه المتلقّي على أساس التأويل خروجاً من النصّ (الثّورة: أسبابها - مظاهرها) إلى ما وراء النصّ (ما يمكن أن يستخلصه القارئ من غايات قلب مراكز النّقل في السرد من الشّخصيّة/ البطل إلى سائر الشّخصيّات ذات البعد السّياسي أساساً).

وهذا التّحوّل كان أيضاً من النّقد إلى النّقص إلى التّقويم خاتمة فصل وكتاب: الثّورة/ التّناج وهي:

- حبّ الوطن والإخلاص له (مهما يكن الاختلاف والتّباعد في المواقف والآراء) بما يضمن استقلاله وسيادته؛
- الحياة الدّيمقراطيّة الكريمة؛
- الإيمان بالذّات²⁰، وبالعلم والفكر، بما يضمن الحقوق والواجبات والتّوازن بينها؛
- الموازنة بين السّياسة والعقل والأخلاق²¹.

20 الذّات الفرديّة باعتبارها المحور في الحديث والحدث، الّتي تُنشُر فتتحوّل إلى ذات جماعيّة، لا في إطار الإنشاء الأدبيّ، لكن في مستوى المشروع الحضاريّ ومن ازدواجهما بعض ما يُبرّر الانزياح عن اعتبار «الأيام» السّيرة الذّاتيّة لتكون أقرب إلى المذكرات، يقول جورج ماي في انعدام الحدود الفاصلة بين الجنسين: «إنّه ليندر ألا يُفهم كاتب المذكرات نفسه من حين إلى آخر فيما يكتب، وبذلك يغدو، دون قصد منه أحياناً، كاتب سيرة ذاتيّة. وكذلك الشأن بالنّسبة إلى كاتب السّيرة الذّاتيّة، إذ يندر ألاّ تطفو على سطح ذاكرته الأحداث العامّة التي كان عاشها، بحيث يضطلع أحياناً في ما يكتب بدور المُدوّن لتلك الأحداث، وإن لم يكن ذلك تعمّداً» (جورج ماي، 1992: 134)؛ فكان سيرة الذّات هي سيرة الجماعة بل سيرة الإنسان: كيف كان، وكيف ينبغي له أن يكون؟

21 إنّ الهدف التّربويّ للكتاب ظاهرٌ جليّ: يبرز فيه طه حسين رجلاً صافيّ الذّهن، لبيباً حنّكته العقود الطّويلة الّتي أنفقها في المخالطة الهوجاء لقادة السّياسة. إنّ تجربته تؤهّله لأن يُنصب نفسه مُرشّداً، وأن يُمحّضهم النّصح بفكره الحصيف. إنّ الماضي كان دوماً، بالنّسبة إليه، منهجاً متميّزاً لإدراك الحاضر إدراكاً ساطعاً. وبالمزاوجة المُستمرة بين تاريخه الشّخصيّ والتّاريخ المعاصر، يُعرّض على القراء مادّة ومراجع تُنتج لهم التّأمّل في مِراس السّلطة وفي المهمّة الّتي يجب على كلّ فرد. إنّ الرّجل الّذي هيأ في حماسيّة، مشروعاً للنّهوض الثقافيّ في مصر - وهو مشروع نجح طه حسين في تحقيقه جزئياً حين كان وزيراً للمعارف سنة 1950 - هو الّذي يواصل - حتّى في رواية ذكرياته - القيام برسالته التّربويّة. (ليلي لوقا، 2000: 106)

1. 2. 1. 2. الزمن

تُطرح إشكالية الزمن منذ العنوان «إيمانٌ بالثَّوْرَة»، إذ هناك عُدُولٌ عن الفعلية إلى الإسمية بتجاوز الزمن في قرائنه المحدودة المعروفة²² ليكون الانفتاح على المطلق منه.

على أن هذا التكتيف في الدلالة سرعان ما يتوسّع في معنى من المعاني اقتراناً بأداة الجزم «لم»²³ إذ لا تسبق فقط الفعل بموضعها في صدارة الجملة، وإنما هي فاتحة الفصل قطعاً مع الماضي وإعلان بداية الحدث من لحظة الحديث أو زمن الخبر في توازيه مع زمن الخطاب؛ إلا أن أولهما سرعان ما يتعدّد فيتعلّق بالشخصية حيناً «قد أتمّ العقد الثالث من عمره»، وبالموضوع اختياراً واضطراً حيناً آخر «حين عاد من أوروبا وأصبح أستاذاً في الجامعة»، وبالفكر الذي يرتدّ زمنه إلى بداية حياة الشخصية وصولاً إلى لحظة الكتابة وصياغة الخطاب، فإذا كانت لحظة الإنشاء الفني هي «الحاضر» انفتاحاً على المستقبل، فإن زمن الفكر ينتهي حيث ابتدأ سابقه وتتجمّع أشتاتة ممّا علّق في الذهن والذاكرة، فإذا هذا الزمن يتردّد بين اليقين والشك، كما بين الثبات والاستدراك يصوغهما الراوي بالقول: «ولكنّه كان يعتقد أن تجاربه الكثيرة التي بلا حلّوها ومُرّها في أثناء إقامته في فرنسا قد تجاوزت به هذه السنّ، ونيفت به على الأربعين»، فإذا زمن الفكر يحيل على الشخصية والراوي معاً، ليكون الدخول في زمن النقد، الذي يعقد رابطة مجازية بين الكاتب والمتلقّي رحلة بحث في «الواقعي» والفنيّ بين التّقارب والتّباعّد خاصّة مع وجود قرائن نصّية لا تجعل المتلقّي يندرج في الخياليّ بقدر حرصه على البحث في أسباب إدراج قرائن زمنية «موضوعيّة»²⁴ هي «أعوام الحرب

22 يتحدّد الزمن إمّا ببعده الموضوعي في سيرورته الميقاتيّة (ماض - حاضر - مستقبل)، أو حسب معايير التّصنيفيّة - وهي في الحقيقة، جزء من المستوى الأوّل، وليس الاختلاف إلا في المرجعيّة - (Maingueneau, 2005: 54).

23 لم: «حرف ينفي المضارع ويقطعه ويقبله إلى ماضٍ» (الهيثري - عاشور، 2005: 196) «... فالجزم سمة الدلالة النّحويّة غير الواجبة جهياً» و«لا معنى لوجودها خارج الائتلاف والعلاقات التّركيبية» (نفسه: 173)؛ وهو حرف «عنصر من ائتلاف الكلام المفيد» «... يُكوّن مع غيره معنى آخر: فالحرف معناه غيّر» (نفسه: 175) «فالحروف تختصر النّوّة وتختصر ما يحتاج إليه العمل النّحويّ من توضيح الدلالات وتفسير المقولات» (نفسه: 183).

24 نعدّم إلى وضع بعض الكلمات بين ظفريّين لسببين اثنين على الأقلّ: أولاً: أننا إزاء نصّ أدبيّ، ومن الكلمات ما يبدو غريباً عن إطاره المفهوميّ، بما أن أغلب الصّيغ الأدبية تقوم على الخيال لا الواقع، وعلى المجاز لا الحقيقة؛ وثانياً: مدى علاقة التّلازم أو التّباعّد بين الشخصية والراوي والكاتب تجربتين ذاتيّة

العالمية كلها» التي لا تتجلى في النصّ زمنًا مقياتيًا بقدر ما تعكس صورتها في زمن الفكر الذي يبدو غير محدّد، لكنّه يوازي الزمن الماضي الممتدّ²⁵ انصهار ذاتٍ في موضوع، واستئناف قول موصول بحدث أساسه التوسّع في علاقة الوضع بالفرد «وهو لم يعيش تلك الأعوام لاهيًا عمّا كان يجري حوله من الأحداث، ولا غافلاً عمّا كان في هذه الأحداث من عبر وعظات. وهو لا يذكر أنّه صُرفَ عن أحداث الحرب وأصدائها في الأمة الفرنسيّة وغيرها من الأمم المحاربة يومًا من الأيام. كان يقرأ الصحف الفرنسيّة معنّيًا بقرائها،

من ناحية، متعدّدة الأبعاد من ناحية أخرى.

25 الذي يرادف «l'imparfait»: إذ يدلّ على وقوع الفعل في زمنٍ ماضٍ، وعلى أنّ حدثًا لم يتمّ عندما وقع حدثٌ آخر؛ كما يدلّ - بصفةٍ عامّةٍ أو مُطلَقًا - على امتداد الحدث في الزمن، وعلى وقوع الحدث بصفةٍ مستمرةٍ أو متكرّرةٍ في الماضي. كما يُستعمل لوصف أو تصوير للظروف أو البيئة التي يقع فيها الفعل؛ ويُستعمل في بعض الحالات، بمعنى فعل الشرط في الماضي / «J'aurais du» = «Je devais le prévoir...» - بما يوافق القول: «كان عليّ أن أرتئي ذلك - أن أتكهّن به». ويُستعمل أيضًا في تعبير قصصيّ أو تاريخيّ للدلالة عن فعل يقع في زمنٍ دقيقٍ من الماضي؛ ويُستعمل بمعنى الماضي وذلك لعدم مصادمة المخاطب/

« Ecoute, Caroline avant que tu me quittes, je voulais te demander quelque chose ».

(Fr. Mauriac, Feu sur terre, p.162)

«اسمعيني، يا كرولين قبل أن تغادريني، كنتُ أودّ أن أسألك شيئًا» ومن انعكاسات هذا الزمن أيضًا وصلاته ما يتعلّق بالشخصيّة كما بالزواوي، من ذلك مثلاً أنّ «الماضي الممتدّ في الزمن في كثير من الروايات، [...] لا يعني أنّ الزاوي [موجود] في الزمن المستقبل لإحدى شخصياته (وخاصّةً البطل)، لكن بكلّ بساطةٍ، ليس هو تلك الشخصيّة، والتي يظهرها لنا « - حتّى وإنّ تعلّق الأمر بسيرة ذاتيّة، كما بيّنّا ذلك في لعبة الصّمائير: معاني ودلالات.

(Adam, 1994: 233 - 234)

ويُستعمل للتعبير عن فعلٍ افتراضيّ متبوعٍ بفعلٍ شرطٍ ضرورةً/ «Si j'avais l'argent (aujourd'hui ou demain) je vous en donnerais» «إنّ كان عندي المال (اليوم أو غدًا) لأعطيتُك إياه».

Dictionnaire de la langue française : Encyclopédie - Noms communs - Noms propres Italie - Edition 2 - 1994 [Hachette - spadem]. (- adagp 1980) p. 647.

وانظر أيضًا:

- Le bon usage : grammaire langue française : Maurice Grevisse André Goosse, collection : Langues vivantes, édition : Duculot Louvain, 15^{ème} éd. - France - 2011 : 1290 - 1292

وكان يُطيل التفكير فيما يقرأ» 157.

يَفيض الزّمن الفكريّ على الزّمن «الوقائعيّ» يستقطبه وينفيه، ليكون التّركيز على الأصداء منه، فإذا كان الزّمن الثّاني يدخل الطّيّ والمرحليّة، فإنّ الزّمن الأوّل يؤسّس للنّشر والسّلسليّة. وإذا نُظِرَ إلى المتتاليات الحديثة، فإنّ زمن الخطاب يراعي خطيّة زمن الخبر، إلّا أنّ التّجزئة تجعل الزّمن المعياريّ الفعليّ في إنشاء الخطاب هو زمن التّدكّر بين القدرة عليه والإيهام بالعجز دونه الذي لا يجاوز مستوى اللفظ: «وهو لا يذكر»، أمّا نسيج النّصّ فيحيل على تماسك وانسجام بتتبع مراحل بعينها هي التي تروم الشّخصيّة (صاحبنا)/ الزّاوي/ الكاتب/ النّاقّد إبرازها والتّركيز عليها وفق ثنائيات تدور في فلك واحد، هي: الانتصار والهزيمة؛ والبقاء والفناء؛ والحرب والسّلم؛ والتّخمين والصدّق؛ والوجدان والعقل؛ والقطب/ المحور والمدار/ الهامش.

وفلك هذه الثّنائيات جميعاً هو الزّمن الذي لا «يؤرّخ» للواقع والوقائع بقدر ما يحيل على رؤية نقدية تبحث عن شرعيّتها استدلالاً وإقناعاً لا في زمن الصّراعات المادّيّة حروباً ومعارك وهي حروب الفناء، وإنّما في زمن الصّراعات المعنويّة القيميّة ثوراتٍ فكريّة فلسفيّة حروب بقاء هي «الثّورة الأمريكيّة والفرنسيّة في القرن الثّامن عشر». وقد حاولت هذه الثّورة أن تحقّق نظاماً كان النّاس يقرؤونه في الكُتب، ويعتقدون أنّه من هذه المثلّ البعيدة التي لا سبيل إلى تحقيقها». هي الأزمنة التي تتباعد موضوعياً بين القرنين الثّامن عشر والعشرين لتتقارب بل لتتناظر أو تتوازي أو تتزامن في خطاب تأريخ الموقف النّقديّ من التّاريخ إذ «في أثناء تلك الحرب (أي العالميّة الأولى) كانت ثورة لم يعرف التّاريخ لها نظيراً إلّا الثّورة الأمريكيّة والفرنسيّة في القرن الثّامن عشر»، أو هو زمن «الفيلسوف الفرنسيّ سان سيمون» ينشأ علماً وينتشر صبغة تعليميّة وزمناً مستقبلاً «على أيّ نحو تُبنى صروحه»، في جدليّة الغرب والشرق، أو التّابع والمتبوع رؤية يريده الكاتب أن يفوضها في مستقبل يتأسّس في اللّغة من خلال قرائن استشرافيّة قريبة: «سيختلفون - سيكونون - سيقضون»، إلّا أنّها - وباللّغة ذاتها ترتدّ لتكون جزءاً من ماضٍ مُتدكّر: «وكان صاحبنا يقدّر» سابقه و«كان مؤمناً... وكان مستيقناً...» لاحقين، فإذا زمن المستقبل إنّ هو إلّا زمن السّرد في خطّيته الاسترجاعيّة، إذ يسير عكساً مع زمن التّدكّر، وكلاهما ينصهر في زمن الفكر، الفكر الذي يتقاطع فيه السّياسيّ مع الاجتماعيّ مع الأدبيّ بحثاً عن «الحقيقة» التي تغدو وهماً وزيفاً في مختلف التّجارب التي خاضها الكاتب، إلّا في تجربته المعرفيّة «فهو قد أنفق في فرنسا أعوام الحرب العالميّة كلّها» ولكنّها أيضاً تجربة

معرفية ترتدّ إلى العصر الجاهليّ حيث «تبين أنّ ذلك الشاعر الجاهليّ إنّما صور حقيقة خالدة من حقائق الجماعات» تُثبت حكمة تتعالى على الزمن، أو هي تجد لها نظائر وأشباهاً في كلّ زمانٍ على أساس المقارنة والمقايسة بين المبدأ والممارسة، وبين الفعل وردّة الفعل، ثنائيات تتجلى في أحداث متعدّدة لا يعمد فيها إلى التفصيل والتجزئة، بل يجعلها في قرائن دالة عليها: «الإنجليز - وزارة الثقة - سعد [زغلول] - الوفد - المفاوضات: من الذي يجريها؟»؛ كما تتزاحم وتتكاثر لتتجمّع في ثنائية الرّفص والتمرد وما قد يؤلّان إليه من نقاشٍ أو حوار: أحداث مستقبلية يصوغها الكاتب استقهاماتٍ إنشاءات طلبية تستدعي منظوراً محدداً لكنّ التحديد لا يتأتّى من المستقبل وإنّما ينبثق من الماضي حدثاً متذكّراً، ومن الحاضر زمن إنشاء الخطاب الفنيّ والبيان النقديّ، ومن المستقبل الذي يحده القارئ لا الكاتب²⁶، إذ هيمنة الكاتب تبدو على الماضي اختزالاً للأحداث بل تعليقاً عليها، وعلى الحاضر في محاولة فهم ما حدث، وهو الخطاب الذي يبدو مُغيّياً تماماً أمام الصبغة التقريرية التي يُهمَل معها زمنُ السرد زمن الوقائع، فلا يحفل فيها الكاتب إلا بخفايا الصراع بين الوفيين والعذليين، الصراع الذي يضيف عليه صبغة المصالحة في مشروع تحريريّ تنويري لا يولي أهمية إلا للمصلحة العامة، إذ يقول: «ويُنْفَى سعد بعد إخفاق عدلي بقليل، ويُكرّ عدلي هذا الإخفاق، ويلجّ في قبول استقالته، ويرى أصحاب عدلي أنّ نفي سعد إهانة للوطن كله» 161 في فترة حرجة من الزمن من القرائن الدالة عليها: «الثامن والعشرين من شهر فبراير سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف» 162 والخرج حرجان: انشفاق بين المصريّين ومحاولة تجاوزه للتخلّص من حماية الإنجليز بما «يُتيح لمصر مظاهر الاستقلال وشيئاً من حقائقه» 162، الحقائق التي تبدو مُطلّقة في المفهوم كما في الزمن «يوم من الأيام» 162، يوهم الكاتب بتجاهله - بما أنّ سرده للأحداث استرجاعيّ - ولكنّه يريد أن يلتزم فيه بالتدرّج الموضوعي في ربط النتائج بالأسباب تركيزاً على السياسة والسياسيين كما على العلماء والمفكرين المنخرطين في السياسيين يوجّهون فكرهم بما يحقّق التوافق بين النّظر تأملاً يقترن بالحاضر، وبين الرّؤيا محاولة محاصرة للمستقبل بما قد يجمع بين العقل والسياسة والأخلاق والمبادئ أسس سيرة لم يلتزم صاحبها بتقريرها، بقدر الحديث عن تجلياتها في مسار لغويّ يجتمع فيه

26 وإن كان الكاتب هو القادح لنشأة قراءات متعدّدة للنصّ، وربّما إنتاج نصوص النصّ إعادة صياغة له لا بالمفهوم الأدبيّ السرديّ، وإنّما برؤية تحليلية تبحث فيما وراء النصّ من إشكاليات بنويّة ومنهجية وتأويلية.

التّاريخي/ الواقعيّ بالفنّي الأدبيّ؛ وصورة الآخر بصورة الذات المفردة (حتّى وإنّ بدتْ مندرجة في الآخر صيغة متكلم جمع: «صاحبنا»؛ أو منفصلة عنه بالتشابه أو بالخلف²⁷).

والثنائيّ في الخطاب اقترن بالثنائيّ على مستوى الزّمن منه ، فرغم ما أفضى إليه التحليل من تعدّد الزّمن في خصائصه وتجليّاته ووظائفه، فإنّ هذا التعدّد يؤوّل إلى مستويين: أولهما: سرديّ يمتح من الرّواية، والمذكرات، والسّيرة الذاتيّة²⁸، يتّخذ معه الزّمن بُعدًا جماليًا أطرّه واقعيّة؛ وثانيهما: إيديولوجيّ، لا يعكس اندراجًا في الزّمن بقدر الرّغبة في التّحلّل منه، فإذا الزّمن هو جمع شتات الأزمنة كلّها ما كان وما لم يكن، أمّا معالمة ومكوّناته فالأفضل من الفترات، ومفهوم الأفضليّة يقترن بتلك التي يكون فيها إيمان الإنسان بذاته يكونها لا على أساس الخنوع والتّملّق، لكن من نسيج الثّورات التي قوّضت - على امتداد العصور - قوى الظلم والاستبداد والتّهميش وأسست - ولا تزال - لإنسانيّة الإنسان: هي الصّورة التي جمّعها الكاتب في هذا الفصل الأخير، لكنّ كيف كانت صورة الزّمن فيما سبق من الفصول: هل بالانسجام والتّلاؤم، أم بالانفراط والتّشتت؟

27 وهو ما بيّناه في عنايتنا بالضمير العلامة اللّغويّة والبنية الصّغرى التي تضمن انسجام النّصّ واندراجه - أو انزياحه - عن بنيته العليا أو أجناسيّةته.

28 وهنا نذكر مختلف الأجناس الأدبيّة التي أوحى بها عنصر الزّمن في سرديّة الخطاب دون أن نغلب أحدها على الآخر حتّى يكون المستوى الثّالث من دراسة هذا الفصل العشرين من كتاب «الأيام» في جزئه الثّالث، لنرى هل أنّ النّصّ هو خطاب الجنس الواحد، أم أنّه النّصّ الذي يقع على تخوم مختلف الأجناس المذكورة، أم أنّه النّصّ الجامع دون ترشيح لأيّ جنس؟

1.2.2. المستوى الثاني من التحليل: العنوان: الزمن في «الأيام» [الجزء الثالث] بين الاكتناز والانتشار²⁹

الفصل الأول

لم تكن للزمن أهميّة سردية مخصصة، إنّما هو الاندراج في خطيته التي قد تُقطع إمّا استرجاعاً (بما أنّ الكتابة تستمدّ محتواها من الذاكرة)، أو استباقاً على رغبة في الآتي، أو رهبة منه لعلم الشخصية بما سيحدث «حياة مطردة متشابهة لا يجدُ فيها جديد منذ يبدأ العام الدراسي إلى أن ينقضي» (١١١، 3)

على أنّ هذا الزمن السردية الذي يمثل الخطوط الكبرى وخطوطه الأصلية في نسيج النصّ، يكتسب ثراءً من زمنين آخرين بارزين، أولهما: زمن موضوعي تحدّد من خلاله الأحداث اليومية المألوفة، المقترن بمواقيت الصلاة إيذاناً بالنور، وإحالة على الظلمة؛ وثانيهما: الزمن النفسي الذي ينبثق من المعاناة اليومية في دروس الأزهر وشيوخه والاستلاب الذي يهدّد الفرد بالاندثار والفكر بالتبدّل، لكنّ هذا الجانب المؤلم من الزمن النفسي تبدو له إشراقات رمزها الجامعة وأساتذتها حدّاً وتعريفًا عهداً من الزمن يُقطع معه التمثطّ والتقلّ لتحلّ محلّهما سرعة الانقضاء والرغبة في الإطالة، إذ «أعلن الأستاذ أنّه سيعيد هذا الدرس بعد دقائق لِيُتاح للطّالِب الكثيرين الذين لم يُتَح لهم دخول الغرفة أن يسمعوهُ. وانصرف الفوج الأوّل من الطّالِب، ولكنّ صاحبنا لم يرمِ، وإنّما أقام في مكانه حتّى سمع الدرس مرّة أخرى»⁷؛ فتنتفي مع هذا الزمن النفسي دلالات الزمن الميقاتي صيغ إلزام مضبوطة ممقوتة ليكون التحلّ والتخلّص من حساب الزمن بالأعوام ليُصبح بالدقائق كشفاً عن بواطن النفس أكثر من اتّخاذ الحديث عن الحوادث هاجساً في حدّ ذاته، فإذا محور الفصل العِلْم والسعي إلى المعرفة بين الاضطراب في الجامع الأزهر، والاختيار في الجامعة، بما تعنيه القرينتان من دلالات اختزلت في أنّ الفتى «لم يُنفق... ثلاثة أيّام منذ افتتاح الجامعة حتّى تغيّرت حياته تغيّراً فجائياً

29 نقتصر - في هذا المستوى الثاني - على النّظر في عنصر الزمن عبر مختلف الفصول السابقة في «الأيام» (١١١) للسّببين التّاليين:

1. للإجابة عمّا طرحنا من إشكاليات؛

2. تناول شكري المبخوت مسألة الصّмир في كتاب «الأيام» من حيث علاقته بالشّخصية الرئيسيّة وبالزاوي، وما قد يحيل عليه من توحّد، أو تباعد، أو تقارب، وهو تناولٌ شمل الخصائص والوظائف والدلالات. (انظر: 1992: 76 - 104)

كاملاً» 8.

الفصل الثاني

يُغري هذا الفصل بالتحول تطوير نسق سرديّ، وهذا قد ينطبق على الأبنية الكبرى فيه من حيث المواضيع لكنّ الزّمن لم يتغيّر إلّا في بُعدين:

البُعد الأوّل: باعتبار الحديث عن مرحلة أخرى من مراحل حياة «صاحبنا» تتردّد بين الوصل والفضل مع الفصل الأوّل، إذ تبقى نقطة الارتكاز في الحدث ثنائيّة الجامعة والأزهر، إذ «لم يكد صاحبنا يتّصل بالجامعة حتّى رثت الأسباب بينه وبين الأزهر» 9، وهو ما ولّد

البُعد الثّاني: بما أنّ علاقة الشّخصيّة بالزّمن لم يعدّ يحدّدها الوجدان أو توجّدها التّفسّيّة، وإنّما حلّ محلّهما العقل، والإرادة و الحرّيّة اختياراً انتقى معه الاضطرار.

ومن هنا، لم يعدّ الزّمن أحديّ الرّؤية والمعنى، وإنّما تشابكت فيه المعاني وأصبح الحيزُ الزّمنيّ الواحد يُرى بحسب علاقات الشّخصيّة «صاحبنا» بسائر الشّخصيات التي إمّا أن يُعرّفها صفة «الشّيوخ»، أو صفة واسماً «الشّيخ سيّد المرصفي»، مواقف من الحاضر والآتي، وبذلك لم يعدّ مفهوم الزّمن مقترناً بالرتابة والقدرة على معرفة ما سيأتي - في كلّ جزئياته وتفصيله - بل توفّر عنصر الجِدّة في الحدث، كما في ردّة الفعل، ولم تعدّ السّيرة «سيرة الغائب» فحسب بل «سيرة الآتي» أيضاً³⁰.

الفصل الثالث

رغم أنّ القرائن الزّمنيّة بحساب «الأعوام» و«الأيام» والشّهر، فإنّه لم يغب عن هذا الفصل ما يجعله في نظر الكاتب وعيّا، وليس مجرد سيّورة تحكم الإنسان مولداً ونشأة، وحياةً ومماتاً؛ هو الوعي المقترن بالرّغبة في التّقويم والتّغيير، وإذا كان هذان الأمران من منظور مستقبليّ، فإنّ الدّوافع تقترن بفترات زمنيّة متعدّدة مختلفة:

- الأعوام التي تتقلّص إلى «تلك الأيام» إلى «تلك السّاعات»؛
 - «المساء» و«النّهار»، «آخر الشّهر» و«كلّ شهر» و«الأسبوع»:
- وحدات دلاليّة تتحكّم في تمفصلات البنية الصّغرى الثّانية من هذا

30 وهو ما وسم به شكري المبخوت دراسته حول «أيام» طه حسين في الأجزاء الثلاثة في بُعْدٍ من أبعاد الدّلالة.

الفصل الثالث إحساسًا بوطأة الزّمن الموضوعيّ الذي يفيض على الزّمن السّرديّ حتّى يكاد ينفيه؛

- «تلك الأيام» التي تستقرّ في الذاكرة لكن لا يُخصّى لها عدد، ولكنّ المرادف لها هو زمن الأدب والشّعْر على امتداد قرون، فإذا البنية الصّغرى «تلك الأيام» المُنظّمة لسير الأحداث تنفتح على الزّمن الذي يفيض على حدود الوحدة السردية فيصبح التّقدّم في نسق الخطاب تتاولاً للحدث الواحد لكنّ من زوايا نظر مختلفة، فيوهم الزّمن السّرديّ بالتّقدّم لكنّه يتوقّف عند حدود الفترة الواحدة تعكسها شظايا مرآة متكسّرة من زوايا عديدة اتّصلت³¹ في خطاب هزل يتحوّل فيما بعد إلى خطاب جدّ صيغ مواقف من الأزهر وشيوخه وطلّابه؛

- هو الزّمن التّكرريّ الذي يختزل فيه ومن خلاله الرّاي ما حدث مرّاتٍ عديدة بسرّده مرّة واحدة. والوحدة البنيويّة التي يقاس بها الزّمن - في هذا المستوى من النّص - ليست وحدة قياسية، وإنّما هي درجة وعي «الفتى» وانتقاله من مستوى الحفظ والنّقل والرّواية إلى مستوى النّقد والعقل والدّراية إحالة على الأسماء الأعلام التي ترتبط بدرجات الوعي هذه، وهي أسماء ثلاثة: الشّيخ سيّد المرصفيّ: الذي «يذكّره بأئمة البصرة والكوفة»؛ ولطفي السيّد: الذي «يذكّره بفلاسفة اليونان الذين سمع أسماءهم في الأزهر وجعل يدرس أطرافاً من فلسفتهم في الجامعة»؛ والشّيخ عبد العزيز جاويز الذي «كان يُحبّب العنف إلى الفتى ويُرجّبه فيه، ويُزيّن في قلبه الجهرَ بخصومة الشّيوخ والتّعي عليهم في غير تحقّظ ولا احتياط» 20.

- الزّمن «السّياسي» الذي كان الزّمن الأدبيّ سبيلاً إليه من حيث التّمرّس بملّكة النّقد (إذ نشأت هجاءً، وسخرية، واستفزازاً وانسياقاً وراء الهوى، وتحوّلت - عبر الأسماء المذكورة، وخاصة منها لطفي السيّد - إلى قدرة على الإضافة البتّاءة) وهي خاتمة هذا الفصل الثالث.

الفصل الرابع

«ذات صباح - بهذا اليوم (يوم الاحتفال برأس العام الهجريّ) - ذات عامٍ - تعاقبت أحداثٌ - قد جاوزَ الفتى سنّ الشّباب والكهولة - الصّبا وأيام

31 انظر في ذلك الفصل من قوله: «وقد جعل هؤلاء الفتيّة الثلاثة يحيون...» إلى قوله: «...ليسمعهم من قيل فيهم من الطّلاب» ص ص: 16 - 18 (حسب الطّبعة المُعتمّدة).

الطلب - حياته الماضية - بعد أعوام طوال - في يوم من الأيام - ذات يوم - ذات مساء - أصبح من ليلته تلك - قبل يومه ذاك - في يوم قريب - مَضَتْ أَيَّامٌ وَ أَشْهُرٌ - بعد أَيَّام - مساء الثلاثاء - بعد حين»، قرائن زمنية قام عليها هذا الفصل، وهي تُوهِمُ بتتبع مرحلة من العمر وفترة من الزمن تتبعا خطيًا مما يرسم خطّة في الإنشاء وحبكة في السرد لا تفاوت فيها، لكن الغموض الذي يكتنف هذه القرائن يجعل وضوحها رهين صاحبها، بل حتى هذا الأخير لا عناية له بها زمنًا مضبوطًا دقيقًا إلا باعتبارها ذكرى نَفَتْ مفهوم الزمن وتحولت إلى رمز عذابات نفس (وهي قليلة في هذا الفصل)، أو فترات سعادة قد تطول وقد تقصر.

والمسألة التي تُطرح - في هذا الفصل - هي: من أيّ وجهة نظر تتحدّد دلالة الزمن: هل تتعلق بالشخصية، أم بالراوي، أم بالكاتب؟
صحيح أن مشغلنا لا يتعلّق بهذا الجانب من البحث³²، لكن ما جعلنا نثيره هو كيف نفسّر وحدة النصّ وانسجامه؟

والواقع أن الشخصية تنصهر في الراوي كما في الكاتب بما أن القرينة الواحدة لا تحيل على قيمة الزمن في حدوده الموضوعية بقدر ما هو علامات دالة على إثبات النّقد بصبغة الروائيّ، إذ يتضمّن الوصف والتّصوير مواقف حزن و سعادة، قبول أو نفور، خشية أو رجاء، وعاطفة أو عقل.

الفصل الخامس

يقترن الزمن - في هذا الفصل - بـ «أول عهد المصريّين» بالجامعة، عبارة تستدعي ضمنيًا عبارة نقيضًا، أو ما يشي بالتغيّر وبالتبدّل يتجلّيان مع النّقد في مسار النصّ حين «اضطّرت الجامعة إلى أن تنظّم دخول غرفات الدّرس»، تحوّل في الزمن قد لا يثير كبير اختلاف من حيث مدّة الزمن السّرديّ خطابًا في علاقته بالزمن الحداثيّ خبرًا، بما أن كليهما يقوم على الاختزال والتكثيف والتّركيز، كما على الاختيار والانتقاء في مختلف الفصول، لكنّ عناية الشخصية بالزمن هي التي توجّه رؤية الراوي له، إذ تتضخّم النظرة النفسيّة إلى الزمن، فلا يذكر من الحوادث إلا ما يؤذيه، أو ما يثير فيه

32 قد تناول شكري المبخوت في «سيرة الغائب سيرة الآتي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطف حسين» ما للزمن - من حيث بناؤه وعلاقاته بالمعاني والدلالات - من صلات متينة بالشخصية، الراوي، الكاتب: إمّا في تباعد الوظائف أو اتصالها، فوفق هذه الثنائية يكون «تأويل البناء الزمنيّ» (المبخوت، 1992: 73 - ولمزيد التوسّع، انظر كذلك الصّفحتين: 74 - 75).

الكبرياء .

ولئن أُوهم الرّاي بأنّ الزّمن - في بُعْدِهِ - إنّما ينأى عن الشّخصيّة ليتّصل بمختلف الشّخصيات الفاعلة - بصفة مباشرة أو غير مباشرة في الحدث والحديث - فإنّ خيوط هذا الزّمن لتتجمّع وتضيق المسافات الفاصلة بينها لتُمثّل وحدة زمنيّة نقطة ارتكازها هي الشّخصيّة المحوريّة أو «الفتى» تجميع يقلّص تجلّي الزّمن العموديّ في النّصّ ليُصبح الاتّجاه أفقيّاً حتّى يكوّن نقطة واحدة هي أفق السّرد ومداه الذي تننقي معه مختلف الشّخصيات - بما في ذلك شيوخ الأزهر - ولا تتجلى في الأفق إلّا صورة الفتى في علاقته بأستاذه الإيطاليّ «سنتلانا» الذي « يُدرّس بالعربيّة (...) تاريخ الفلسفة الإسلاميّة وتاريخ الترجمة خاصّة» 34، وما الأستاذ إلّا رمز الجامعة وخطاب العقل الذي تتعطلّ معه ثقافة النّقل والتّقديس ليكون الزّمن إيذاناً بفترة أخرى من التّاريخ والثّقافة والحضارة.

الفصل السادس

الفترة من الزّمن الجديدة انفتحت - إضافة إلى «الأساتذة الأجانب» - على ما كان في الجامعة من أساتذة مصريّين ساهموا في رسم صورة المستقبل الذي لم تكن ملامحه واضحة قبل أن يصبح جزءاً من ماضٍ أثير ينبع من الذاكرة كأنّه الآن الذي لا تتوسّع دائرته إلّا بقدر سعة دائرة العلم ومجالها رغبة شغفا وتقييما ونقداً.

وإنّ للزمن خاصيّة أخرى في هذا الفصل، إذ قد تتوقّف الفترة من الزّمن عند نقطة مضبوطة على مستوى الخطّ السّرديّ، فتتوسّع وتنتشر من خلال التّداعي والتّضمين عودة إلى نقاط أخرى من الزّمن تبدو أكثر بُعْداً، ولكنها ليست منبئة عن النّقطة الإطار، فتبعث هذه الطّريقة في التّعامل مع الزّمن على القول بالفوضى والاضطراب لكن ما ذلك إلّا جزء من نسيج الزّمن في حبكة القصّ، باعتبار أنّ « رؤية» الفتى قد تقتحمها في مواضع عديدة آراء الكهل فتتحسر وظيفة السّرد لفائدة تجلّيات النّقد مواقف من الأساتذة المصريّين ومنهم «الشّيخ محمّد الخضريّ... وقد سحر الفتى... وكان يظنّ أنّ ليس فوق علم الأستاذ علم، ولكنّه لم يكد يسمع دروس التّاريخ في أوروبا حتّى عرّف أنّ الأستاذ رحمه الله كان ينقل دروسه نقلاً من كُتُب القدامى في غير نقدٍ ولا تعمقٍ وفي أيسر ما كان يمكن من فقه التّاريخ» 39 - 40؛ صورة لم تقترن بواحد فقط من الأساتذة المصريّين بل شملت العديد منهم، فإذا تقدّم الزّمن بالنّسبة إلى «الفتى» إنّ هو إلّا إحالة على أمرين متناقضين: تباعد عن

زمن صفاء الجامعة مع من درسه فيها من المستشرقين مقابل تكاثف زمن
البؤس المعرفي مع من نكدهم من المصريين.

بقي أن المسألة تُطرح من وجه آخر: هل لهذه المفارقة أسس موضوعية
أم أن المسألة اقترنت بتزايد الوعي والنضج والمعرفة بما نفى النظرة إليها
باعتبارها امتلاكًا قياسيًّا بالزمن إلى النظر إليها باعتبارها عطاءً؟

الفصل السابع

كثيرًا ما تتردد لفظة «أول»، فكان الراوي / الشخصية وهو يبحث في
الذاكرة يحاول أن يحاصر الذكرى بخصوصياتها التي يروم الإفصاح عنها.
وإذا كانت لكل فصل خصوصيته، فإننا واجدون مع بداية كل فصل، من
الزمن ما يذكر بسابقه، والعكس صحيح أيضًا؛ فإذا ما توهّم به بنية الزمن -
من حيث صلة كل فصل بالآخر - من انفراط وتشتت إن هو إلا ظاهر
خطاب يتعلّق بالتّوّع على مستوى المواضيع أبنية كبرى، أما الصّغرى فتوهّم
بالاختلاف ولكنها تتجلى في كل مرة بشكل مُغاير، أما الأصل فتأبّت سلسلة
حلقات لكل منها وجوده وكيانه المستقلّ، أما في إطار الهيكل الواحد فوجود
الفرد ينتفي ولا يتحقّق إلا بسابق ولاحق؛ لكنّ السؤال الذي يُطرح هو: هل أن
هذه السلسلة منفتحة أم منغلقة؟

إنّ الزمن في قرائنه الدّالة عليه لا يُحيل مع كل فصل إلا على علاقته
التّلازميّة بالحدث «يمتدّ أو يقصر» حسب منزلة الحدث وحدوده واستثنائه
بالفصل دون غيره أو أن يكون جزءًا من كلّ. وهو - في هذا الفصل السابع -
زمن تعلّق الفتى باللغة الفرنسيّة وحرصه على ما ستأتي به في مُقبل
«الأيام» أكثر ممّا جناها منها في حاضره أو ماضيه القريب، وكلاهما اقترن
بأوجّه معاناة جعلت خطيّة الزمن السّرديّ في هذا الفصل، لا تتخذ نسقًا
مستقيمًا وإنما هو التّصاعد والانحدار في غير توازن أو اتّفاق: «فأقبل على
دروسه كلّ يوم من السّاعة الثّانية إلى منتصف الخامسة... فكان يلقي
أستاذه النّظاميّ كلّ يوم في موعده المُحدّد... وكذلك كان الفتى يختطف
دروسه اختطافًا بين يقظة الأستاذ ونومه... والتمس صاحبنا لنفسه أستاذًا
آخر... وبفضّل هذا الرّفيق محمود سليمان، رحمه الله، خطأ الفتى في درس
الفرنسيّة خطوات بعيدة... ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجامعة بالقياس إليه
وسيلة بعد أن كانت غاية... وكان يغيب أخواته بأنّه سيقيم في أوروبا
أعوامًا... وأنّه سيعبر البحر إلى باريس...»

فتجليات الزمن في هذا الفصل السابع، هي تجليات صراع بين الذات والموضوع

بما هو أطر حاقّة بالتجربتين: الحياتيّة مضموناً، والإبداعية شكلاً؛ وبكلّ العراقيل والصعوبات التي لا يزيدها الزمن إلا شدة وقسوة ووطأة، لكن أيضاً تحدياً وإصراراً.

الفصل الثامن

الزمن في هذا الفصل زمانان: زمن العلم والتّعليم والبحث «بعد أن جاوزَ طور الطّلب وأصبح أستاذاً ومؤلفاً» 54؛ وزمن تاريخي وهو على ضربين: أولهما إذ «كان [الصديق الثاني] من أهل القرن الثالث أو الرابع، وكان يعيش في القرن الرابع عشر للهجرة» 55 ويتحوّل إلى زمن فتّي إبداعي يدخل في إطار إبراز ملامح الشخصيات؛ وثانيهما إذ يُقَطع هذا الزمن الفتيّ الإبداعي لينفتح على التاريخي: «في الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء خامس مايو سنة 1914» و«5 مايو سنة 1914» - في إطار الإحالة على محضر الامتحان الذي سجّله لجنة امتحان العالمية بالجامعة³³؛ وليس ذلك عناية من الراوي بـ «الحقيقة» والواقع فيما يقدر اعتماده لهذه الشهادات ضمانات تأكيد وإثباتٍ لرهانات وُضَعها في الماضي وسعى إلى إنجازها في «الحاضر»، بُغية الوصول إلى الغاية في المستقبل³⁴.

وهذا الزمن الثاني لئن اقترن بذكر مراحل محدّدة، فإنّه الزمن الموصول الذي يؤلّف بين مختلف فصول «الأيام»، وهو ما ينفي حتّى التمييز بين الزمنين المذكورين ليكون ثانيهما استطراداً يؤكّد ويدعم أولهما، تجزئةً له وتوقفاً عند مراحل هي التي سنثبت ما سبق³⁵، أو تؤسّس لما سيلحق³⁶. وهذه الطريقة

33 دكّر الكاتب قبل هذا المحضر كُتِبَ ثلاثة - وذلك في الفصل السابع - تأتي في إطار حرّص «صاحبنا» على «أنّه سيغيّر البحر إلى باريس لدرّس التاريخ في السبّون» 48. 34 إنّ الحديث عن هذه القرائن الزمنية في معانيها العادية المألوفة إنّما يكون دائماً في إطار الزمن الأصليّ الذي يحكم «الأيام» جميعاً، وهو الزمن الماضي الذي يقترن برحلة حياة أهمّ ما فيها العلم والدراسة والبحث، وأيّ انفتاح على مجالاتٍ أخرى - قد تبدو مفارقة - ليس إلاّ ضرباً من التّوسّعة في إطار الإقناع برؤية للحياة والوجود في علاقة الإنسان بالزمن يقدّمها «الراوي» سيرة.

35 كحصول «الفتي» على درجة الدكتوراه، وهو الذي «قبل تحدي الجامعة وظفر بدرجة الدكتوراه، وأصبح سفره إلى فرنسا له على الجامعة ديناً ليس لها بُدّ من أن تؤدّيه له» 62.

36 كسرّد أطوار علاقته ببعض الصديق الذي سيكون له دورٌ فعّال في إتمام رسالة الدكتوراه، إذ ساعد «الفتي» سعة اطلاع على الأدب القديم عموماً، وعلى أدب أبي العلاء المعريّ خصوصاً (موضوع الرسالة) بما أمكن من إثبات ما ينبغي إثباته فيها من معارف، أو باتّخاذ الفتى له رفيقاً في الكتابة والتّدوين. (انظر في ذلك ما جاء في الفصل الثامن:

في التعامل مع الزمن تجعل من العسير التمييز أيضا بين زمني الخطاب والخبر، إذ كلاهما يقوم على الاختزال والتركيز، فلا يتميز زمن الخطاب عن زمن الخبر إلا في مستويين: الأول: عندما يتوقف الفعل أو الحدث لفائدة الوصف؛ والثاني: عندما تُدرج بعض النصوص على أنها وثائق تُقطع مع الزمن في سيرورته، ولكن ذلك لا يتجاوز مستوى النص/ اللفظ، أما النص/ الزمن فهو التوسع والانفتاح ليس فقط على «زمن الشخصية» سيرة، بل على «زمن تاريخ الشعوب والأمم والحضارات» منذ أقدم العصور إلى مدى بعيد في المستقبل الذي أحال عليه الكاتب تنويجا للثورات.

الفصل التاسع

لم يكن الاحتقال - في هذا الفصل - بالقرائن الزمنية الماضية، بقدر الاحتقال بالمستقبلية منها، احتقال يدلّ على أهميّة الآتي رحلة عبر الزمن والمكان والعالم المنشود غير المألوف. على أنّ استباق الزمن لم ينف ما يُذكر بالفصول السابقة من حيث التوقّر على زمني السرد والتاريخ أو الحكاية: بنفس الخصائص والوظائف التي وُجدت في سائر الفصول إلا باعتبارها علامات لغوية تعكس التقدّم في الزمن بنسقه الطبيعي: «مِنْ غَدٍ - إذا كانت الساعة الخامسة بعد الظهر... ظهر الغد...» 63.

على أنّ من القرائن أيضا ما يؤصل النص ضمن السيرة استعمالاً لصيغ الأفعال الماضية كالقول: «ورأى الفتى... ورأى نفسه»، أما الدلالة فانصهاراً بين مفهومي الزمن الموضوعي والتصورّي يكون التأليف بينهما في صيغة المضارع تحييناً للمستقبل «والفتى يسمع ويرى نفسه مختلفاً بعد وقت يقصر أو يطول إلى دروسه في السوربون» 65؛ مرحلة قصوى تُقطع في أحيان كثيرة بالوقف وصفاً أو تأملاً في الذات حديثاً عن الفتى «وهو مُغرق في السكون والصمت لا يصنع شيئاً ولا يقول شيئاً (...) وكان يتعجل مرّ الساعات ويتمنى أن تعود إليه حرّيته حين يُردّ إلى غلامه ذاك الأسود الذي كان ينتظره غير بعيد» 68.

وقطع خطّ الزمن السردّي بمثل هذه المقاطع يندرج في خطة لا يرسم معالمها الراوي بقدر ما ينسج خيوطها الكاتب عقداً ونقداً وترشيحاً لما يوهم بالهامش مقارنة بالمركز، بما أنّ الزمن السردّي الذي يمثل الإطار العام للجنس «سيرة ذاتية» يدقّ أمام بروز هذه التّنوعات التي لا تفيض فقط على الذاكرة، وإنّما أيضاً على سطح النص وتصبح هي المحددة لروابطه اللغوية

أبنية صغرى ولمتالياته الحديثة أبنية تركيبية دلالية وصولاً إلى «الفصل» باعتباره الكل في الهيكل والمحتوى، الهيكل الذي يعكس التناظر في الصفة والخاصيات العامة وبعض لوازم البناء لينفتح في محتوياته على ثنائية الثابت والمتحول بما يؤسس لجذلية السنة والعدول، وي طرح بصفة ملحّة السؤال الأجناسي خاصة من حيث التردّد بين الرواية والسيرة الذاتية؛ وإذا أُريدَ أن يُنشأ الهيكل العامّ - بنيةً عليا - فعلى أيّ أساس يكون البتّ في اختيار مكوناته؟

الفصل العاشر

أغلب ما يحكم الزمن في هذا الفصل هو التّمطّط: «تلك الأيام الطّوال الثّقال» - «ماضيها الثّقيل، المستقبل المظلم» - «وكانت [السّفينة] تُؤثّر المهل على العَجَل، وتفضّل الأناة على السرعة، وكانت السفنُ تُغيّرُ البحرَ بين الإسكندرية ومارسيليّا في أربعة أيّام، فأما أصبهان (اسم السفينة) فكانت تحبّ البحرَ وتُؤثّر أن تُغيّره في ثمانية أيّام لا أربعة» 76؛

وهذا التّمطّط في الزمن يجعل البنية الصّغرى الواحدة على وفرة في الخطاب بين البتّ والتّلقّي، فإذا البنية الواحدة لا تكتسب قيمتها من المقول بقدر ما تتجلى في المسكوت عنه، وهو ما يحولها أيضاً من مستوى اللفظ إلى مستوى المعنى، فتتحوّل البنية الصّغرى إلى أخرى كبرى تخترنها وتجعل ملامحها ضبابية دون أن تخفيها أو تطمسها - وهو ما يجعل إعادة مثل هذا النصّ إنتاجاً وقراءة لا على أساس اختزاله إلى منواله بما قد يردّ الفروع إلى أصلها بنية عليا، بقدر ما تحيل على بنية انتشارية يقوم فيها ومن خلالها النصّ الواحد، بل البنية الصّغرى الواحدة منّاظرة لعديد الأبنية الكبرى التي تتفّلت منها بإرادة الشّخصية أولاً (على مستوى خاصية الملفوظ المُثقل بالمعاني والدلالات والإحالات)، دون الراوي أو الكاتب، ثمّ بإرادة المتلقّي (في قراءاتٍ متعدّدة، فإذا البنية الصّغرى³⁷ هي: الزمن/ السرد؛ والحدث/ التاريخ؛ والألم/

37 الغالب الأعمّ في تعريف البنية الصّغرى أن ترادف الجملة بنية تركيبية إعرابية معنوية، بقي أنّ البحث في انسجام خطاب ما، وتماسك النصّ وما يمكن أن يحقّق تلاؤم أجزائه والنقائض هو أصله الذي يميّزه عن سائر النصوص، قد يدفعنا إلى اعتبار مقوم بنيوي تجزيي بنية صغرى تضمن تماسك النصّ وانسجامه، فتكرار ظاهرة لغوية ما - وليس شرطاً أن يكون هذا التكرار لفظاً، وإنّما قد يكون من خلال بعض لوازمه معجماً أو سجلاً قول أو حقل دلالية - يصبح هو البنية الصّغرى المتحكّمة في بناء النصّ في اتّجاهه الأفقي والعمودي، وهو المولد لمعانيه أبنية كبرى، وليس هذا الانتشار بالاعتباطي لكن وراءه أصل أجناسي - قد ينفيه الكاتب وقد يُثبتُه - هو الذي يوجّه طريقة النّسج حتّى تصبح الأبنية الصّغرى، كما الكبرى جزءاً من هذا الأصل - مهما تعدّدت المظاهر

النفسية؛ والبنية/ الدلالة؛ ونمط الكتابة/ الجنس... ومحور هذه القراءات المتعددة في هذا الفصل العاشر، هو الحرب تحكماً في: الماضي: «حالتْ خطوبُ الحرب بينه وبين ما كان يريد» 73؛ والحاضر: «ليستْ أمامه غايةٌ يسعى إليها، ولا أربٌ يطمع فيه» 73؛ والمستقبل: «ويُنْبئُه بأنه مسافر بعد أيامٍ إلى فرنسا» 74.

وفي هذا الفصل - وفي سائر فصول «الأيام» - لا يُسَيِّجُ الزَّمَنُ الأحداثَ على مستوى الخطاب والخبر فحسب، بل يميّز الشخصية الرئيسية - في مختلف أطوار حياتها - كما سائر الشخصيات من ذلك: «فأما أحدهما فكان قد نيفَ على الأربعين» - «وأما الآخر فكان قد نيفَ على الثلاثين»؛ لكن ماذا يمكن أن تُفيدَ مثل هذه الإحالات في بناء النصّ لولا ربطها ببعض مناهج البحث والدّرس وتصبح في بعضها الآخر من باب التّوسّع في القول الذي يمكن الاستغناء عنه.

والإشكالُ أيضًا، أن تناول مسألة الزّمن في كتاب «الأيام» - وفي جزئه الثالث تحديدًا - قد لا يساعد على تأصيله ضمن جنس أدبيّ بعينه، بقدر ما يجعل النصّ شبكةً علاقاتٍ تتصل بأجناسٍ متعدّدة، فلا يكون التّمثيل الهيكليّ قائمًا على تتبّع نقاط الالتقاء والاتّصال بينها بقدر ما يحيل على صفة التّراصّ والتّكاثف بين الهيكل والآخر.

الفصل الحادي عشر

إذا نُظِرَ إلى الزّمن - من زاوية نفسيّة الشخصية، ولا بدّ من قراءته من هذه الزّاوية لهيمنتها وتوجيهها لمختلف تجليات الزّمن في هذا الفصل - فإنّ تحديده يكون وفق طوَرَيْنِ كبيرَيْن هما: زمن السّعادة مقابل زمن الشّقاء، وهما طوَران يؤسّسان لعلاقاتٍ وثيقة بين الأبنية الصّغرى في بعدها البنيويّ التركيبيّ، وبين الأبنية الكبرى بما ترتبط به من معانٍ ومواضيع، وهو ما يحيل على تبين هذه المفاصل في الفصل، وما تقتّرّن به من شبكة العلاقات بين مختلف القرائن الزّمنية ودلالاتها وفق التّوزيع التّالي:

(1) النّشوة الفُصوى بتحوّل المنشود إلى موجود: س 1 — 3؛

← التّقاء لحظة الحدث بزمن التّجربة النفسيّة.

واختلفت التّجليات - وإنّ اعتمادنا على الزّمن من ناحية، وعلى الصّغير - في مستوى آخر من التّحليل - بنيتين صغريّين لتفسيران وتبرزان منهجنا ورؤيتنا وطريقتنا في البحث والاستدلال والتّأويل.

(2) إنكار زمن الصِّبا: صورة مظلمة قاتمة تقوم على اتِّجاهين متعاكسين: حِرْصٌ على المحافظة على الزَّمن المولَد للتذكُّر، يقابله إمعانٌ في إنكار الذِّكْرَى وزمنها الَّذي أضاع على الصَّبِيِّ فترةً من العمر والحياة: س 3 ← 7؛

← النِّقاء زمن التَّجربة النَّفسِيَّة بزمني التَّذكُّر والتَّفكير: خروجاً من طُور إرجاع الذَّاكرة إلى الزَّمن البعيد/ القريب، إلى طُور الموقف منه ورَدَّة الفعل جدلاً قائماً بين الشَّخصِيَّة والكاتب وفق ثنائية الاتِّصال والانفصال.

(3) تتوقَّر في هذه البنية الكبرى جملة من الأبنية الزَّمنيَّة الصَّغرى، الَّتِي كثيرًا ما تتردَّد في هذا الفصل، كما نجد لها صدى أو أصداء في كتاب «الأيَّام» عامَّةً، وهذه القرائن هي: «أوقات الطَّعام في وسط النَّهار وفي آخره - في تلك الأيَّام - في الصَّباح - المساء - الضَّحى»؛ وهي تُوهِّمُ بالتكرار لكنَّ ذلك لا يتجاوز مستوى اللَّفظ، بما أنَّ الوظائف متبدِّلة متغيِّرة ارتباطاً بتطوُّر نسق الأحداث من ناحية (الوظيفة الَّتِي يحدِّدها الرَّاي ويسعى مِنْ خلالها إلى إحكام نسيج النَّصِّ وحبكته السَّردِيَّة)، وبالطَّريقة الَّتِي يصوغ بها الكاتب/ النَّاقِذُ الرُّويَّة الَّتِي يُريد تبليغها إلى المتلقِّي تقييماً وتقويماً يقدِّمهما من خلال المقارنة والموازنة بين فترتين من الزَّمن: تلك الَّتِي عاشها في الأزهر ومع الأزهرِيِّين فاقَّةً وحرماناً، وهذه الَّتِي «يعيشها» في فرنسا وتحديداً في «مونبلييه» مع الجامعة وأهلها؛ وهي مقارنة وموازنة بقدر ما تُسعد الفتى تُشقيه، بما أنَّ ظلال الماضي ما تزال تتبَّعه وتُلقي عليه لوازِمها «فيرى نفسه أسعد النَّاس وأعظمهم حظاً من النَّجح والتَّوفيق، وهو مع ذلك لم يكن مُيسِّراً عليه في الرِّزق، وإنَّما كان عليه أنْ يُدبِّر مرتبَّه ذاك الَّذي لم يكن يتجاوز اثني عشر جُنيهاً لِيُنْفِق منه على نفسه وعلى أخيه» 80.

وفي المقطع السَّردِيَّ الأوَّل من هذه البنية الكبرى (من قوله: «ثمَّ يوازن بين حياته...» إلى «... أكثر ممَّا أصاب»)، يوهِّم الكاتب بأنَّ مشغله الَّذي جعله يُحسَّ بوطأة الزَّمن هو الحياة وشظفها، ولكنَّ النَّقْدَم في الخطاب يعكس أنَّ المسألة تتعلَّق ببُعْدَيْن: أولهما: المقارنة بين الأزهر ولوازمه، فالجامعة ومعطياتها؛ وثانيهما: إضفاء صبغة حاجيَّة جدليَّة على النَّصِّ كانت البنية الصَّغرى الأولى فيه أطروحة ليكون سائر النَّصِّ سيُروِّد حاجيَّة أساسها الاستدلال وفق ضمانات وصول يبرِّر بها الكاتب/ الشَّخصية الانتصار إلى

فرنسا الاختلاف والتتوُّع، والجِدَّة والطَّرَافَة، والعِلْم والإضافة؛ أشياء استفادت منها الشَّخصيَّة واستدلَّ الكاتب على قيمتها، ولم يكن خطابه من باب تشريك المتلقِّي في إعادة إنتاج النصِّ نقدًا وتقويمًا: س 8 — 30؛

(4) يوازي زمن الخطاب في هذه البنية الكبرى زمنَ الحدث، كما يصوغه الكاتب إذ ينتهي زمنُ المُقايِسة والمقارنة عند نقطة كثيفة جدًّا من الزَّمن تتحوَّل إلى زمن مستقبل تتكاثف فيه الأفعال وتُختَزَلُ الأعوام بين بداية رحلة ونهايتها؛ فلئن كان زمن المستوى الثالث متردِّدًا بين اليقظة والحلم، وبين الأمل والألم، فإنَّ هذا الزَّمن المستقبل المختزل يحيل على العقل المحض، بما أنَّ «الفتى... أقبل إلى هذا البلد الغريب ليدرس ويحصل ويجوز الامتحان، ويظفر بالدرجات الجامعيَّة التي لم يظفر بها أحدٌ من قبله من مواطنيه» 80؛ وقد أخذ بأسباب ذلك جميعًا:

س 31 — 70؛

(5) مفارقة تحكُّم زمن الخطاب في صلته بزمن الخبر، إذ تشتدَّ محاصرته حتَّى يكاد مفهوم الزَّمن ينتفي أصلًا، إلا أنَّ الأحداث تفيض على اللفظ ويتولَّد الزَّمن من الزَّمن بالخلف، فلا تُكوِّن الشَّخصيَّة المحوريَّة هي التي ترسم ملامح الزَّمن، وإنَّما تتدخل الشَّخصيات الأخرى في تغيير مجراه لا في نسقه وسيرورته، لكن في معانيه ودلالاته، وفيض خاطر الذي ينبع من الحدث يأتي العقل ليحدِّده ويحاصره بين «أول النَّهار... وآخره»، وهو تَكَرَّر في الإطار واختلاف في المحتوى: س: 71 — 85؛

(6) والاختلاف في المعنى له ما يبرِّره في كَيْفِيَّة صياغة الزَّمن: فهو مستقبل/ حاضر من علاماته حديثُ استفهام لا يفيد الطلب، وإنَّما يحيل على الطَّرح والإخبار، وعلى المنع والإدبار في علاقة «الفتى» بـ «الرفاق». وهو مستقبل لا يُدرى إن كان قريبًا أم بعيدًا، زمن يتَّصل بالمتلقِّي يجعله الكاتب صِنُو نفسه فيوازي بين الطرفين في خطاب مباشر إذ يقول: «وكيف تريد فتية من المصريين على أن يعيشوا في فرنسا ويختلفوا إلى القهوات والأندية وبعض ما يُقام من الحفلات بدون أن يداعبهم الحب؟» 83 فيتوازي زمن الكتابة وزمن القراءة وفق إرادة الكاتب بل الشَّخصيَّة في الاعتراف والبوح، وإنَّ بصفة مجازيَّة لا تتجاوز مستوى العبارة واللفظ:

(7) الزّمن باعتباره استدراكًا قد يوحى بالانفراج لكنّه يُدرج المتلقّي قسرًا في برنامجين: أولهما: سرديّ مباشر يتساوى فيه ومن خلاله الزّمن مع سائر مقومات الخطاب البنائية؛ وثانيهما: يتعالى فيه ومن خلاله الزّمن على هذه المقومات لتتولّد عنه هذه المقومات سواءً أ تعلّق الأمر بالشخصيّة المحوريّة في قوله: «ولكنّ اللّيل لا يكاد يتقدّم حتّى يتفرّق عنه رفاقه جميعًا، وإذا هو يخلو إلى نفسه» 84، أو بسائر الشخصيات: «وقد كاد اللّيل يبلغ ثلثيه (...) وأقبل عليه أحد رفاقه» 84، أم اقترن ذلك بأنماط الكتابة سردًا أو وصفًا «وإذا هو يقضي ليلَةً بيضاء لا يذوق فيها للنّوم طعمًا، فإذا غدا على حياة لا خير فيها لعقله ولا لجسمه» حسب هذه البنية الكبرى – أم بتوفير عنصر تشويق «وفي نفسه صوتٌ عذبٌ رقيق يشيع فيه البرّ والحنان، ويقرأ عليه هذا الأثر أو ذاك من روائع الأدب الفرنسيّ القديم؟» 85.

فالزّمن في هذا المستوى من الفصل، هو ظروفٌ وأحوالٌ، وحياةٌ وأيامٌ، وإيهامٌ بماضيٍّ وإعراضٌ عنه، وإثباتٌ لمستقبلٍ وإقبالٌ عليه في حاضرٍ مستمرٍّ: س 102 ← 130؛

(8) في هذا المستوى، يَنقُضُ الحاضرُ الماضيَ وينتفي الزّمنُ الثّابتُ (الموت: أبو العلاء المعري) ليحلّ محلّه الزّمنُ المتحوّلُ (الحياة: الصوت)، فلا يقتصرُ الزّمنُ على الوظيفة المرجعيّة أو الوظيفة الأجناسيّة المحدودة، وإنّما يجعل هذا الجنس في إنشائيّةٍ شعريّةٍ تغيب معها لغةَ الواقع والتّقرير لتحلّ محلّها لغةُ الخيال والكناية التي تحلّ الصّفات فيها محلّ الموصوف، فإذا الحياة كلّها تُختزّلُ في تاريخٍ يتردّد بين الوضوح والتّجلي، والغموض والتّخفي: «الثّامن عشر من شهر مايو في ذلك العام»؛ ولعلّ السّكوت عن التّحديد رغبةٌ في عدم البلوغ بالتّجربة حدّها الأقصى بما قد يهدّد بفنائها، فإذا هي صدّى لزمنٍ قَلْبٍ حُلْبٍ إذ «يرى الفتى نفسه ذاتَ يومٍ من شهر سبتمبر يسعى مع رفيقه الدّرعمي إلى السفينة، وكلاهما محزونٌ مكسوف البال، كأنّه لا يسعى للعودة إلى الوطن، وإنّما يُساق إلى الموت...»

إنّ الزّمنَ في هذا الفصل هو مجرد شبكة من علاقاتٍ بين قرائنٍ هي من معجمه وسجله؛ وهو تعالقٌ بينها وسائر الشّبكات السرديّة المتكوّنة من مختلف المقومات من شخصياتٍ وأحداثٍ ومكانٍ ونمطيّ كتابيّةٍ بين سردٍ

ووصف، شبكاتِ علاقات لا تقوم على التّراصّ أو التّتابع، وإنّما على التّولّد والانبثاق علاقة أصل هو الزّمن بفروعه وهي سائر المكوّنات.

الفصل الثّاني عشر

- كانت أيّام السّفينة السّتّة طويلاً ثقلاً - يصبحهما ≠ يُمسيهما؛
في النّهار ≠ في اللّيل أعواماً طويلاً - همّ ولم يفعل

تعلّم الفرنسيّة اختلف إلى الدّروس أخذَ يتهيأ لإعداد رسالته
≠ إذا الحرب تردّه؛ إذا عاد إلى فرنسا + استأنف ما كان فيه؛ ردّته الأزمة الماليّة.

- حين تخرّج - في ذلك الوقت - وهو يعود... ليعيش (الدرعمي)

= ردّه إعلان الحرب - عاشَ أشهراً

← كان أبو العلاء قد ألقى في رُوعه أنّه لن يذوقها ما عاش، وإذا الأيّام تدنيه منها أو تُدنيه منه (الفتى).

- تدعوه إلى مصرَ ليعودَ إليها - في أشهره تلك التي قضّاها في مصرَ
بعد أن أُغلّبت الحرب - وهو يعود ليلقى التّبطّل والفراغ مرّة أخرى في مصرَ.

- كان يقطع الأمد بين مونبلييه ومارسيليا أثناء ليلته تلك الثّقيلة - طالما... - الآن - فلن نلتقي بعد أن ينقضي الصّيف.

- أيّام السّفينة - هذا الحزنُ الجاثمُ المُقيم الذي لا يفارقه إلّا ريثما يعود إليه.

- كانت - كانت - كان - كان - فلم يكن - إنّما كان يجب أن ينتظر
ويطول انتظاره حتّى يؤدّن له بالدّخول.

- قد انتظر... حتّى... وإذا هما يُقيمان في السّفينة يوماً ويوماً في
هذين اليَوْمين... بعد لأيّ.

- ثلاثة أشهر - كان يسعدُ - كان ينجيه بين حينٍ وحينٍ - وكان
يسعدُ بهذه الرّسائل التي كانت تصلُ إليه بين حينٍ وحينٍ.

- في هذه الأشهر الثلاثة - تشكو الزّمانَ إلى الزّمان... لأنّ الزّمان

- الزّمان - لأنّه لم يكن يشكو الزّمان إلى الزّمان، ولا يشكو الزّمان إلى النّاس، ولا ينتظر من الزّمان.

• في تلك الأيّام - في كلّ أسبوع - كان يتردّد ... - ذات يوم - كان - كانوا - في تلك الأيّام - الأيّام - أيّامه تلك - ذات يوم - بعد أيّام.

• في ضحى يوم من الأيّام - كانوا - أن يكونوا - أيّام... بعد... في هذه الأشهر - حيناً.

• صباح يوم - كانوا سينزلون - يُصْبِحُ مِنْ غَدٍ - كان - كان - حتّى حين... بعد أن تقدّم اللّيل قليلاً... - ذات صباح - كانتا تنتظرانه - حتّى إذا كان اللّيل...

يتميّز الزّمن - في هذا الفصل الثّاني عشر - بخصائص في البناء تتوزّع بين القراءتين: الأفقيّة والعموديّة، ونقاط الالتقاء بين خطوط الاتجاهين يحقّقهما التّكرار، يتجلّى في اللفظ، وفي الصّيغة بين الزّمن: المُختَزَل الذي لا يستغرق فيه الحَدَث أكثر ممّا يتطلّبه الفعل إنجازاً أنيًّا؛ والممتدّ على أيّام أو أشهر؛ والمُضَعَّف بتقطيعه إلى عناصره المكوّنة له، الزّمن الذي لا نجد له نظيراً إلا على مستوى نفسيّة البطل في تأرجحه بين اليأس والأمل؛ والحاضر؛ والمستقبل؛ وكلّها أزمنة مُدرّجة ضمن زمن الحَدَث والتّجربة دون التّدكّر والكتابة.

ويتجلّى التّكرار أيضاً في الإيهام بالتّقدّم على مستوى الحدث لكنّه تقدّم في الخطاب دون الخبر الذي يُختَزَل في بداية هي مغادرة فرنسا، ونهاية هي العودة إليها وما بينهما ثلاثة أشهر لم يكن الحديث فيهما وإنّما حولهما بالتركيز فقط، على ما سبق البداية، امتداده هو في ما بعد النّهاية مفاعيل تقيّد انتهاء الغاية.

والبنية العموديّة لا تشتمل على العلاقات القائمة بين مختلف أبنية هذا الفصل، وإنّما تتعدّاه لتوجد لمع تذكّر بما قيل في الفصول السّابقة نفياً لها دون الإثبات؛ وهذه اللّمع، لأن كانت مقترنة بالامتلاء في فصولها المَعْنِيّة، فإنّها تحوّلت إلى حلقات مُفرّغة من المحتوى والدّلالة في هذا الفصل الثّاني عشر ارتباطاً بجِرس الشخصية على التّبدّل والتّغيّر، وباندراج الكاتب ضمن عالم الفكر نقدا وإنشاءً.

الفصل الثالث عشر

لا تبدو للزمن سمة خاصة في هذا الفصل، ففي خصائصه التركيبية والمعنوية والدلالية هو امتدادات لمختلف الأشعة التي تتواصل في نسق روائي يؤلف بين الفصول؛ وتبرز قيمة واحدة هي «ثلاثون ساعة» في القطار ما بين «نابولي» و«باريس» كانت دافعاً لتطوير النسق السردى.

الفصل الرابع عشر

لئن كان الزمن من المقومات البنيوية التي توصل الجزء ضمن الكل، فهو أيضاً من الخصائص الفنية التي تجعل الجنس الأدبي يفتح على الآخر؛ ذلك أن مقارنة هذا الفصل بما سبقه تحيل على أن هناك تردداً بين السيرة الذاتية بما تنشأ عليه من مؤشرات «تاريخية» وأخرى «واقعية» تنسب جانب الخيال وقد تُعَيِّبُهُ أو تُقْصِيهِ، وبين الرواية إذ تسيّر في اتجاه عكسي، فلا يكون الزمن - علامة لغوية - إلا قيمة من القيم التي تُرْشِحُ الخيال على حساب الواقع الذي يصبح مجرد قاذح للقول الفني، وهو ما يتجلى من خلال هذا الفصل الرابع عشر في انسيابية التعامل مع الزمن في نسق خطي لا تكاد تبرز فيه مراحل تصاعد أو انحدار، أو اتجاهات استباق أو استرجاع، إلا بما ينسجم وخطية الزمن؛ ولا يخضع الخطاب ضرورة، إلى مقوم بنوي واحد يكون هو الغالب على جميع نصوصه، إنما هي نسب متفاوتة تُقَدِّرُها البنية أو الأبنية الكبرى دون العليا. وبما أن هذه البنية العليا المرادفة لأجناسية الخطاب تنهض أيضاً على عدة أبنية صغرى، فمن الطبيعي أن يتغير حضور إحداها أو غيابها حسب عنصر التبئير الذي يُقيم عليه الراوي/ الكاتب/ الناقد الفصل/ النص؛ وغلبة مقوم من المقومات الفنية بنية تركيبية معنوية دلالية هو الذي يجعل النص متردداً بين السنة والعدول، أو بين الجنس الأدبي والجنس الآخر، أو يؤدي إلى غلبة بنية صغرى وإفاضتها على سائر الأبنية من جنسها.

الفصل الخامس عشر

رغم ما يتميز به السرد في هذا الفصل، وفي غيره من فصول كتاب «الأيام» في جزئه الثالث، من اختزال وتكثيف، إلا أن الزمن الحدسي يأبى المحاصرة والحد ويفيض على زمني الخطاب والكتابة معاً، إذ يجتمع الماضي والحاضر والمستقبل في سياق واحد: أما الماضي فعبر الاسترجاع، وأما الحاضر فعبر المعاينة والتجربة، وأما المستقبل فمتنازع بين شخصية تجهله حيناً من الدهر في ماضيها وتجاهله أو تنفي بعض خصوصياتها أحياناً في زمن التذكر، أو في حاضرها كتابةً وتدويناً، وبين طرف ثالث ينخرط - اختياراً

أو اضطراراً - في وضع ملامح هذا المستقبل: كيف عساه يكون؟ وهذا الطرف الثالث هو القارئ إذ يصوغ نصاً على النص في حديث يوهم بالخفاء إذا «خلأ صاحبنا إلى نفسه يذكّر ماضيه الغريب، وينعم بحاضره السعيد، ويفكر في مستقبله المجهول» 116، ولكته يكشف ليؤسس لمرحلة الاكتشاف في علاقة تماسٍ بين فكر صاحب النص، وفكر متلقيه.

ولكن النص لا يتسع زمنياً من حيث انفتاح المستقبل على المستقبل فحسب، بل من خلال ما تتميز به طريقة السرد ذاتها، فالحوادث كثيرة تُذكر نقاطاً متعدّدة تكاد تكون واحدة في شكلها، لكن من النقاط ما تتسع دائرته، فتتعدّد الجزئيات والتفاصيل حتّى ينشغل القارئ عن الكتابة عن الحياة ذاتها بالحياة، فيندرج في الزمن الماضي، ويتساوى في الإحساس بالزمن: سيرورة، وتأثيراً مع الشخصية، فيتحول الزمن من قرائن لفظية دالة عليه إلى مضامين ومعان هي اللحظات، كما الأيام في أحيائها المتفاوتة طولاً و قصرًا: بين «الزهوة والترويض» و«القراءة» و«الفتى يستعدّ لامتحان» و«الغريب من أمر صاحبنا أنّه لم يكن يتهيأ لامتحان الليسانس وحده، وإنّما كان في الوقت نفسه يُعدّ رسالته للدكتوراه، وقد زاده إذن الجامعة له بالزواج جدّاً وكذا ونشاطاً، حتّى كان العام الأول لخطبته غريباً حقاً، كلّف فيه نفسه وخطيبته من الأمر أعسره وأشدّه مشقةً» 119.

إنّ بناء الزمن في هذا الفصل الخامس عشر، لا ينفصل عن معناه، وفي منطق الخلف، ليست الأبنية الصغرى هي التي تُنشئ البنية الكبرى التي تحتويها، إنّما الاتجاه عكسي لأنّ الزمن النفسيّ هو المُسيّر المُسيج للزمن السرديّ الإنشائيّ بما يجعل البنية الصغرى لا تكتسب مؤضعها من الخطاب ومعناها بما وُضعت له أصلاً، وإنّما بما يفرضه التركيب من ناحية في صلة اللفظ بسابقه كما يلاحقه، والسياق من ناحية أخرى بما أنّ الوجدان والنفسيّة هما من الأشياء التي يعسر حصرها أو تقنينها، فتصبح طبيعة الموضوع هي التي تحدّد قدر المحمول وحدوده وشكله بما يحقق التوافق والانسجام بين الغاية والسبل الكفيلة بضمان الانتهاء إليها.

الفصل السادس عشر

الزمن في هذا الفصل، يرادف عامّاً دراسياً في بنيته الكبرى وعنّها تتفرّع أبنية صغرى هي مختلف المراحل والأطوار التي مرّت بها الشخصية:

• التوازي بين فترتين:

الفترة الأولى

- التَّهَيُّؤُ لَامْتِحَانِ اللَّيْسَانَسْ؛

- النَّجَاحُ فِيهِ: «وَلَمْ يَنْقُضِ شَهْرٌ يُولِيُو مِنْ ذَلِكَ الْعَامِ...» 124 لَكِنْ

- إِرْجَاءُ «الَامْتِحَانِ الشَّفْهِى عَلَى الدَّوْرِ الثَّانِي فِي أَوَّلِ الْعَامِ الدَّرَاسِيِّ... إِلَى شَهْرِ نَوْفَمْبَرٍ»

- الِاسْتِعْدَادُ لِهَذَا الِامْتِحَانِ طِيلَةً «شَهْرَيْنِ»

- إِنْجَاذُهُ

- النَّجَاحُ فِيهِ.

الفترة الثانية

إِعْدَادُ رِسَالَةِ الدَّكْتَوْرَاهِ =

○ مَخْتَلَفُ فِتْرَاتِ إِمْلَاءِ فُصُولِهَا؛

○ الْوَقْتُ الَّذِي تَسْتَغْرِقُهُ قِرَاءَةُ هَذِهِ الْفُصُولِ: فَصلاً فَصلاً مِنْ قَبْلِ الْأُسْتَاذِينَ الْمُشْرِفِينَ؛

○ مَخْتَلَفُ الْأَوْقَاتِ الَّتِي تَسْتَغْرِقُهَا الْمُرَاسَلَاتُ بَيْنَ «صَاحِبِنَا» وَ«الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ» الْمُرَاسَلَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْإِذْنِ فِي تَقْدِيمِ الدَّكْتَوْرَاهِ =

○ تَذَكُّرُ مَا أَثَارَتْهُ رِسَالَةُ دَكْتَوْرَاهِ «مَنْصُورِ فَهْمِي مِنْ ضَجِيحٍ وَعَجِيحٍ أَثَارَا سُخْطَ الْهَيْئَاتِ الرَّسْمِيَّةِ أَوَّلًا، وَسُخْطَ الرَّأْيِ الْعَامِّ بَعْدَ ذَلِكَ، وَاضْطَرَّ الصَّدِيقُ الْكَرِيمُ إِلَى أَنْ يَنْأَى عَنِ مِصْرٍ قَرِيبًا مِنْ عَامٍ، وَلَا يَعُودُ إِلَيْهَا إِلَّا حِينَ اضْطَرَّتْهُ الْحَرْبُ إِلَى أَنْ يَعُودَ» 122؛

○ «... وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْبِثْ أَنْ رُوِّعَ بِوَفَاةِ الْأُسْتَاذِ دَوْرِكِيمِ الْمُشْرِفِ الْفَلَسْفِيِّ عَلَى رِسَالَتِهِ. وَكَانَ الْفَتَى لِأُسْتَاذِهِ مُحِبًّا وَبِهِ مُعْجَبًا إِعْجَابًا يَوْشِكُ أَنْ يَبْلُغَ الْفَتُونَ، فِإِدْرَاكِهِ لِلخَطْبِ فِيهِ حُزْنٌ عَمِيقٌ. وَلَكِنْ لِلْحَيَاةِ حَقَائِقُهَا وَتَبْعَاتُهَا وَلَيْسَ بَدٌّ لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ مِنْ أَنْ تُنَاقَشَ» 128؛

○ امْتِحَانُهُ فِي مَوْضُوعَيْنِ قَبْلَ الْمُنَاقَشَةِ؛

○ مَنَاقَشَتُهَا «بَعْدَ الصَّيْفِ» 124

- «فإذا كان اليوم التاسع من أغسطس من ذلك العام، أصبحا زوجين حين انتصف النهار، وتركا باريس إلى الجنوب حين أقبل الليل»
124.

- الزمن ليس باعتباره لغة إنشاء وتعبير وبناء، وإنما باعتباره أيضًا مادة امتحان واستقراء ونقاش: بين «تاريخ العصور القديمة وتاريخ القرون الوسطى والتاريخ الحديث والتاريخ المعاصر» 124؛ وكل واحدة من هذه الأبنية الصغرى تتردد بين وحدة الكلمة وحدودها، وبين سعة الاستقراء وإطلاقه، وهذا من منظور الشخصية، وربما بتشريك القارئ في ذلك أيضًا.

وضمن هذه البنية الكبرى، توجد أخرى على أساس الاستشراق إذ «استأذن [صاحبنا] الجامعة في أن يتهيا لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، على أن ذلك يستلزم أن تمتد إقامته في أوروبا أربعة أعوام بعد حصوله على الليسانس والدبلوم» 122؛ زمن مستقبل يُصبح جزءًا من واقع وتاريخ يوافق «سنة تسع عشرة وتسع مائة وألف»، قرينة تُخرج الحدث من حدود الذات إلى أطر الموضوع، مما قد لا يؤصل الخطاب ضمن السيرة الذاكرة بقدر ما يربطها بالمذكرات عناية بالأطر الحافة في أبعادها التاريخية، والسياسية، والثقافية، والعلمية المعرفية.

لكن، ما يحّد من اندراج هذا الخطاب ضمن المذكرات أن الكاتب قلما يحتفل بالتواريخ المضبوطة، إذ في الأغلب الأعم تأتي العلامات الزمنية مُطلقة من ذلك: «ضحى ذلك اليوم» - «في ذلك اليوم» 125؛ «بعد ذلك - بعد قليل - في أول الصيف» 126؛ «ذات يوم - بعد ذلك - بعد سنين» 127؛ وهي علامات تعكس العقل أداة تمثّل للحوادث والقضايا، أكثر من الانشغال بسرديتها في بُعد خيالي مما قد يجعل الخطاب الأدبي السردّي عند الكاتب يفتح أيضًا على مشروع فكري ثقافي حضاري أساسه العلم: سُبُلُه ومظاهره بين السلب والاستلاب في مصر، وبين الإيجاب والإغناء في أوروبا أو باريس/ السوربون³⁸، الصورة النموذجية التي لم يفتأ البطل، بل الكاتب يبرزها من خلال المقارنة بين كثير من الأطراف المتناقضة المختلفة.

38 إن صيغة الخطاب الأدبية في «الأيام» لم تنف الاستناد إلى القرائن الزمنية فيها لاتخاذها عاملاً مساعداً للبحث في المنحى التاريخي الذي رآه بعض الدارسين والنقاد، وهو ما يتجلى مثلاً في:

الجمني (عمر مقداد): طه حسين مؤرخاً (مجلدان)، تقديم: منجي الشملي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون - بيت الحكمة، 1993، تونس، ط. 1.

الفصل السابع عشر

لا ينفصل الزّمن عن الحدث، إلا أنّ نسقَ تقديم التّوازي بينهما محكومٌ - إلى جانب الخصائص المتواترة في جميع فصول «الأيام»، وإنّ بنسبٍ متفاوتة، قرائن لفظيّة، ومُدّة وجدلاً بين جُملة من التّثانيات أبرزها الواقع والخيال، والتّاريخ والإيهام به - بنمطين: أولهما: تجميع للحوادث وتكثيف إلى درجة التّشنج، من ذلك الحديث التّالي: «ولكنّه لا يكاد يبلغ باريس حتّى يُصرّف عن الرّسالة صرّفاً عنيفاً، ويُشغَل عنها شُغلاً متّصلاً أكثر من شهرين، فهذا رفيق مصريّ من رفاقه في الدّرس، وصديق من أصدقائه قبل البعثة وبعدها، قد ألَمَّ به مرضٌ عصبيّ خطيرٌ، وليس له في باريس من يرعاه أو يهتمّ بشأنه. وقد انتقلت إدارة البعثة الجامعيّة من باريس إلى لندن فلم يكن بدّ للفتى من أن يعنى بصديقه وزميله في الدّرس، ويقوم منه مقام مدير البعثة، وهو يعرضه على الطّبيب بعد الطّبيب، ويكتب في شأنه إلى مدير البعثة مرّة وإلى الجامعة في القاهرة مرّة أخرى. ويُنفذ أمر الأطباء، فينقل صديقه من باريس إلى حيث يستطيع أن يعيش خارج المدينة في الهواء الطّلق والحياة الهادئة التي لا عجيج فيها ولا ضجيج. وهو مضطّر إلى أن يزوره بين حينٍ وآخر، وقد يدعوه فجأةً صاحب الفندق الذي يُقيم فيه المريض فيُسرع إليه، ويسمع من أنباء صديقه ما يملأ قلبه لوعةً وحزناً، ويُثير أمامه من المشكلات ما لا يعرف إلى التّفوّد منه طريقاً. وهو في أثناء هذا كلّهُ يتلقّى الرّسائل المتناقضة من الجامعة ومن مدير البعثات، ويتلقّى المال القليل ليُنْفِق منه على المريض الذي كان يُسرف في الإنفاق، ولم تكن حاجاته تنقضي، ويتلقّى في الوقت نفسه من الجامعة مطالبتَه بتأدية الحساب الدّقيق عمّا أنفق» 136 - 137؛ وثانيهما: هدوء وتتبع للأحداث في نسقٍ عاديّ متواتر من الزّمن بما يوحي بالانسياب والرّاحة: «وفي أثناء هذا كلّهُ تضع الحرب أوزارها، وتعلن الهدنة، وابتهج الفرنسيون ونزلاء فرنسا بمقدّم السّلم. ولا يكاد صاحبنا يمضي فيما عاد إليه من الدّرس بعد تلك المحنة في صديقه الكريم عليه الأثير عنده حتّى تأتي الأنباء من مصر فتصرفه مرّة أخرى عن رسالته وإعدادها صرّفاً عنيفاً. ولكنّه لم يكن حزيناً ولا مُروّعاً، وإنّما كان سعيداً يملأ القلب غبطةً والضّмир رُحاً والنّفس ثقةً وإعجاباً. فقد جاءتِ الأنباء بأنّ مصرَ تطلب استقلالها إلى المحتلين المنتصرين» 137.

وما يُرشّح هذا الجانب أو ذاك هو القرائن الزّمنيّة: «فجأة - فيُسرع - حتّى - بعد تلك المحنة - ثمّ - منذ - دقائق - في أثناء هذا كلّهُ - ذات ضحى - حين كان... بعد أن كاد»، قرائن توقّف عند الحدث في ذاته، ولكنّها أيضاً،

أدوات تضمن تماسك النص أفقيًا وعموديًا، فما يُوهَم به السارد من استطرادات تبدو منفصلة عن الحدث الإطار الذي يختزله عادةً عنوان الفصل³⁹، هي في الحقيقة توضحه وتبرّر موضعه من الخطاب ككلّ، وتحقّق الانسجام بين الزّمن وسائر المقوّمات السردية من ناحية، وبين مختلف أطوار الحدث من ناحية أخرى، لا يكون الحديث معها عن أبنية صغرى فحسب، بل عن متتاليات من الجُمْل، بتجميعها تكون البنية الكبرى الواحدة - إذ تستقلّ بموضوعها، لكنّ تظلّ مقترنةً بالبنيتين الكبيرتين إذ تسبقها إحداهما أو تلحقها في نسيج النصّ وتألّف معانيه.

الفصلان الثامن عشر والتاسع عشر

الجمّع بين هذين الفصلين في البحث عن تجليات الزّمن يُبرّر بوجود قرينة قد تبدو للوهلة الأولى بعيدةً عن مفهوم الزّمن، مندرجة ضمن مرجعيّات أخرى متّصلة بالمجتمع، وربّما بالاقتصاد أيضًا، وهذه القرينة هي «الدّين» التي جاءت منطلق الفصل الثامن عشر ومنتهى الفصل التاسع عشر، وهي لم تغب أيضًا في مثنيهما لازمة لغويّة اتّخذت معيار الخطاب والفعل والقول والانطباع سواء في علاقة الشخصية بسائر الشخصيات المدينة لها، أم في علاقة الشخصية بالكاتب، وتجليات «الدّيون» هي:

- دين سعد [زغلول]: معنويّ؛
- دين «زميله ذاك الذي سيعود معه على السفينة نفسها... والذي لا يخلو جيبه من مالٍ كثير» 145: مادّيّ؛
- دين «صديقه الكريم عليه المؤثر له حسن باشا عبد الرزاق محافظ الإسكندرية إذ ذاك» 145: مادّيّ؛
- هو دين مُردوّج: معنويّ لـ: «صديق كريم هو الأستاذ محمّد رمضان إذ ضمنه عند هذه الشركة»؛ ومادّيّ لـ: «شركة كانت تُسمّى شركة التعاون المالي... أقرضته مائة من الجنيهات» 147؛
- دين الجامعة المتمثّل في «ما أنفقت عليه في أثناء إقامته في

39 يقطع صاحب النصّ مع المؤلف من حيث اعتبار النصّ انتشارًا للعنوان الذي يسمّيه، فإذا العناوين في كتاب «الأيّام» في جزئه الثالث، لا تمثّل إلّا حدثًا هامشيًا، مقارنةً بمحور الحديث الذي يُنشئه أجزاءً متعدّدة تجتمع كلّها حول الصّورة الفردانيّة التي تُرسمُ لشخصية البطل، هذا في تصوّرٍ أوّل؛ وفي تصوّرٍ ثانٍ، تتجلّى أبنية النصّ في شكلٍ متجانسٍ لكلّ جزء منه كيانه المستقلّ لكنّه لا ينفصل عمّا يسبقه أو يليه.

فرنسا» 154: مادّي؛

• دين «السلطان»: معنويّ.

ولئن كان ردّ ما هو مادّي بالنسبة إلى الشخصية يسيراً بعد عُسر، فإنّ ردّ ما هو معنويّ، كان عسيراً أو شبه مستحيل بالنسبة إلى الكاتب؛ فلئن كانت السّيرورة الزّمنيّة كفيلة بفكّ عقدة المادّة، فإنّها لم تكن لتغيّر المبادئ والقيم التي سيّجت الأحداث ووجّهتها وحكمتها ممّا ضاعف الاختلاف بين من آمن بـ «المراسم» وبين من لم يبحث إليها سبيلاً إلّا في نهج العلم والمعرفة والأدب، وهو ما ولّد طريقة مخصوصة في نسيج النصّ في هذين الفصلين: فلئن كانت خطوط الزّمن تسير متوازية بما يضمن تألف اللّغة وتراكيبها، فإنّ ثنائية القبول والرفض كانت تسير في اتجاه عموديّ جيئةً وذهاباً؛ ولم يكن هذا المنهج ليحدث اضطراباً وفُرقة، وإنّما أضفى خصوصيّة من حيث التّعامل مع الأبنية في مختلف تجلّياتها، تتمثّل في نظام الفوضى ومعيّاره العقل أداة تفكيرٍ أوّلاً، وسبيل حزم المنفلت ثانياً؛ وهو ما يدعم تداخل أجناس أدبيّة متعدّدة في صلب «الأيام» في جزئها الثّالث؛ ونسعى إلى توضيحه في المرحلة الثّالثة من ربط الفصل العشرين والأخير من الأثر بسائر فصوله، كما بقرينة الزّمن آليّة من آليات البحث والاستدلال على أنّ انسجام النصّ والخطاب عامّة، لا يتأتّى من خارجه وإنّما ينبع من مكوناته وعناصره وكيفيّة سبكها.

لئن تناولنا بنيتين صغيرتين هما الضّمير والزّمن من حيث الانتشار والوحدة والانسجام، فهذا لا ينفي وجود مقومات بنيويّة أخرى يُمكن أن تُبرز هاتين الخاصّيتين، بقي أنّ اختيارنا لهما كان من منطلق ما تردّد في آراء النّقاد والدارسين من القول إنّ «الأيام» - في جزئها الثّالث - متجاذبة بين المذكرات، فالسيرة الذاتيّة؛ فأردنا الاستناد إلى المشترك بينهما لتكوّن المرحلة الأخيرة من التحليل إجابة عن تساؤلين:

1. هل يمكن القطع - فعلياً - بأنّ أيّ نصّ لا بدّ أن توافّق بنيته العليا الأجناسيّة جنساً بعينه دون سواه؟
2. وهل أنّ الإجراء والتّطبيق من المرونة بحيث ينسجم - بصفةٍ آليّة - مع المنوال والأنموذج؟

1. 2. 3. المستوى الثالث من التحليل التفاعلي بين الأبنية وسردية الخطاب ومفهوم السيرة وحدودها

لم يفتأ هاجس وضع حدود البنية العليا يهيمن على التفكير في قراءة كتاب «الأيام» في جزئه الثالث، والتركيز عليها يُبرّر بأنها جُماع ما تؤسسه الأبنية الصغرى والكبرى، من تراكيب ومتتاليات شكلاً ومعنى، لكنها مسألة عسيرة لعدم وضوح هذه الحدود المميّزة، لأنّ التحليل أفضى إلى أنّ النصّ محور الاهتمام أو الخطاب - في كليته - بدأ منفحاً على أجناس أدبية متعدّدة هي: الرواية والمذكرات والسيرة الذاتية في نقاطٍ نذكرها لا اهتماماً بالجنس في حدّ ذاته من وجهة نظر أدبية، وإنما نعتنى بالعلامات اللغوية والمقومات التي تُحقّق وحدة النصّ أو الخطاب وانسجامه وفق ما أفضى إليه التحليل، وهذه المميّزات هي:

- الزمن في قرائنه المتعدّدة بين ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ؛ كما في اتجاهاته بين استرجاع ونسقٍ خطّيٍّ مُوازٍ لسيرورة الزمن الموضوعيّة، واستباقٍ؛ أو في مرجعيّاته المختلفة بين ذاتيّ وتاريخيّ، وواقعيٍّ وخياليٍّ، ووجدانيٍّ وعقليٍّ، ونفسيٍّ وفكريٍّ⁴⁰.
- محاسبة النفس أو «الآخر» (جورج ماي، 1992: 28 - 31).
- التفسير والتبّير سواء أكانا جزءاً من نمط الكتابة، في علاقة النصّ بلغته ومنهجه، أم في علاقة الجنس بالآخر «إذ السيرة الذاتية تحوي بين دفتيّها كلّ ما سبقها وتفسّره وتبرّره، وهي إلى ذلك تتويجٌ للأعمال أو للحياة التي قدّحت شرارتها» (نفسه: 39).
- التردّد بين البقاء في إطار التاريخ أو الانحراف عنه، في التوثيق والتوضيح، وعلاقة ضمير «الأنا» بضمير غيره تعريفاً ومقارنةً فإدراك قيمة تبرز من خلال التّباري مع الزمن أو البحث عنه أو إنشائه أدباً لا يبعد بين الأجناس الأدبيّة إلا بقدر ما يبرز ما بينها من تُخوم فـ «عند نقطة قريبة جدّاً من قطب التاريخ توجد المذكرات واليوميات. وبقدر الامتداد من التاريخ نحو الرواية لتجاوز المذكرات واليوميات تبدأ السيرة الذاتية» (العمرى، 2005: 143).

والتّخوم على مستوى النّشأة و السّيرورة في الزمن تُلقِي بظلالها أيضاً على

40 خصوصيات هذه التّجليات تبرز في الإجراء أكثر من التّجريد ارتباطاً بالسياقات اللّغويّة التركيبية التي تردّ فيها، وتكون كفيلاً بتوجيه معانيها ودلالاتها.

الأجناس من حيث الالتقاء في بعض محدّدات الهوية وإقرار المواثيق.

- الفصول: بين الترتيب العرَضِي والترتيب المنطقيّ أو التعليميّ إذا كان «الكاتب» لا يريد أن يفحص عن تسلسل أطوار حياته، وإنّما يريد أن يكشف النقاب عن بعض القيم التي قامت عليها هذه الحياة» (جورج ماي، 1992: 80). وقد بيّن أنّ الحديث عن الذات لا يراد بها دائماً «الأنا» في حدود المعنى المعجمي، وإنّما هي الذات الجماعيّة أو المطلقة إمّا انعكاساً، أو تناقضاً، أو تطابقاً وتناظراً.

- الضمائر: بين الإفصاح والإحالة في مستويات ثلاث هي: الشخصية، والزاوي، والكاتب: مدى الوحدة والانسجام، والتّباعّد والانفصال علاقات محكومة بالغائب مقارنةً بالمتكلّم أو المخاطب، كما بالوظائف بين التأمّل والاختيار والتأويل «من جهة الإنشاء»⁴¹، ثمّ من جهة التّقبّل بما يربط البنية بالدلالة في أبعادها المختلفة: «إنّ لعبة الضمائر في «الأيام» لمن أهمّ ركائز اللعبة السردية عموماً في الكتاب. وليس مرّد ذلك إلى المنزلة التي يحتلّها تنويع الضمائر ولا إلى تلك المسافات الجماليّة التي يخلقها بين أعوان السرد، ولا إلى أثر هذه المسافات في حتّ القارئ على إعادة بناء الكتاب لحظة القراءة، بل إنّ مردها في تقديرنا إلى أنّها مكنت طه حسين من إخفاء مقاصده وغاياته» (المبخوت، 1992: 104)، وهي صدى لتاريخ الجيل الذي كانت الذات من أفرادها، في مرجعيّاته السياسيّة والفكريّة والأدبيّة، إنّ تشابهاً أو اختلافاً، في إطار الجنس المحدود أو المتعالى عن الحدود.

ولئن كان تمازج الأجناس المذكورة قائماً على المُشترك بينها، وهو نتيجة القراءة والتأويل أكثر ممّا يتّصل بالإنتاج، فإنّ هناك شكلاً آخر من أشكال انفتاح الجنس على الجنس، ويوجّه بوجه من الوجوه، دلالات المحتوى وهو ثنائيّة الحدث/ «الواقع»/ الخبر بالشعر، أو هي ثنائيّة الأصل والفرع في البناء والجنس.

قد يعود الاستناد إلى الشعر في إنشاء هذا النصّ النثريّ إلى عوامل هي:

- أهميّة الشعر في الذاكرة الجماعيّة، وفي المخزون التراثي العربيّ خاصّةً، والعالميّ عامّةً؛ وهو من حيث الوجود يكتسب قيمته - ربّما على حساب النثر لأسبقّيته هذه - وحتى من حيث العناية به إنشاءً ونقدًا وتدوينًا؛

- إنَّ قيمةَ الشَّعر تتجاوز علاقته بالنثر لتنتفح على نظرة المبدع ذاته له، وكيفية تصريفه له. فطه حسين، في هذا النص، قد نسب البيت [الطويل]:

«وَمَا أَنَا بِالمَشْغُوفِ ضَرْبَةً لِأَرْبٍ وَلَا كُلُّ سُلْطَانٍ عَلَيَّ أَمِيرٌ»

إلى صاحبه أبي نواس، لكنه اكتفى بالنسبة إلى الأبيات [الطويل]:

«أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى فَلَمْ يَسْتَبِيحُوا الرُّشْدَ إِلَّا ضَحَى الْغَدِ

فَلَمَّا عَصَوْنِي كُنْتُ مِنْهُمْ وَقَدْ أَرَى غَوَايَتَهُمْ أَوْ أَنَّنِي غَيْرُ مُهْتَدٍ

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غُرْيَةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تُرْشِدْ غُرْيَةٌ أُرْشِدْ»

بقوله: «وهناك تبين أن ذلك الشاعر الجاهلي إنما صوّر حقيقةً خالدة من حقائق الجماعات»

وبالنسبة إلى العجز: «بَيْنَ نِزَاعِي وَجِبْهَةِ الْأَسَدِ» يقول بعد أن جعله جزءاً من الخطاب السردى: «كما يقول الشاعر القديم»؛ وهذا يعني أن «الشعر يُنسب عادةً إلى قائله، وإذا أُهْمِلَ ذِكْرُهُ، فإنَّ ذلك لا يعني أنه شِعْرٌ لا صاحب له» (القاضي، 1998: 540)؛

- إنَّ تطعيمَ النثر بالشَّعر يدخل في إطار اتِّخاذ ثانيهما طريقةً مِنْ طُرُقِ التَّرصيع على مستويي اللَّفظ والمعنى بما يوحي بالتناص والتماسك والتجانس في إطار الإقناع ليس فقط بالرأي والموقف والتوجه، وإنما أيضاً بـ«الحبكة»، فلا تأتي «البنية مهلهلة متهاففة»؛ فرغم أن الكاتب قد استند في نصه على الشَّعر، واقتصر على عجز البيت في بعض المواضع، إلا أن الأهمية تُستمدُّ «من المضامين التي يعبر عنها».

- قراءة مخصوصة، إما أن «تنهض على رُفْعِ الحرمة عن الشَّعر واعتباره كلاماً غير مجازي، وظيفته الأولى الإبلاغ المجرد»؛ وإما إضفاء صبغة جمالية فنية على النثر من خلال الشَّعر، فتمتج «الحقيقة» بالمجازي في اللغة والمعنى، وتُعطى السمة الإخبارية التقريرية «سمة الشَّعر الإيحائية، وتنهض سردية الخبر على محور مجازية الشَّعر».

على أن المسألة تُطرح من وجهٍ آخر، وهو أن طريقة استناد طه حسين إلى الأبيات الشعرية - التي لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما جاءت على هامش النثر - تحيل على أن الشَّعر لم يعد هو الصوت، والنثر هو الصدى، بل تغيرت الخصائص والوظائف والنظرة التقييمية أيضاً. وقد يبرَّر ذلك بأن للكاتب توجهاً يؤمن فيه ومن خلاله بأن هذه العلاقة بين الشَّعر والنثر تعكس

التفاعل والتواصل على المستويات: الأدبي، والموضوعي (من حيث القضايا المطروحة)، والتاريخي طمس حدود وفواصل بين قديم وحديث. ثم كان الشعر يصبغ الحجة والدليل في بُعْدَيْن: واقعي، وآخر فكري؛ فيسترجع - ضمنياً - سلطته وأسبقيته على النثر. فقد استخدم الكاتب «الشعر في مناسبات عديدة برهاناً على صحة ما ورد»، وهذا لا يعني أن الشعر ينفي النثر، إنما يغطيه ليكون استئناف السرد في مرحلة لاحقة إن حقيقة أو افتراضاً (بما أن إنشاء النص وإنتاجه ليسا حكراً على صاحبه، وإنما لمتلقيه أيضاً دور في إتمام ما نقص، وفي ملء ما فرغ).

وقد لا يرى الكاتب في هذه المزوجة بين الشعر والنثر صراعاً أو تفاوتاً، بقدر ما هو مظهر من مظاهر الاشتراك في الموضوع، وتقديم الظروف الحاقّة بالخبر أو الحدث بما يعنيه ذلك من تحاور بين الجنسين؛ فكأن الاختلاف هو في الظروف الحاقّة بنشأة كليهما، يتراوح بين الجزئية والكلية (إذا لم ننظر إلى الفاصل الزمني وأصول الثقافة والتفكير إلى كل منشي).

ولسنا نبحت عن أصول العلاقة بين الشعر والنثر، بقدر بحثنا في دوافع المزج بينهما ووظيفة ذلك بنيوياً ودلالياً، وأهميته في اقتران مجالي الأدب والسياسة، ومدى الصلة بالواقع أو مجافاته والتعالي عليه «واختراع مقامات جديدة له تُغيّر من معانيه ومقاصده» خدمةً لغايات منشي النص أولاً، وتمهيداً لما يمكن أن ينتهي إليه قارئه في تأويله ثانياً⁴².

هي وجوه لا تعكس الحدود القطعية الفاصلة بين الجنس والجنس، أو بين النص والآخر، بقدر ما تحيل على سمة التحريف والتقلب بين وظائف هي: السرد والتاريخ، والتفكير والنقد، التي توجه نظام الأبنية دون الجنس في حد ذاته بما أنه هو نفسه يقوم على النقص والنقض وهو ما يبرر العناية بالأبنية الصغرى والكبرى قبل العليا لأن النوعين الأولين يبدوان أكثر مرونة في تحديد هوية النص الفنية التي تشي بالخلفية التاريخية والثقافية التي تمثلها، وتطلبها دون أن تلتزم فيها - إن اختياراً أو اضطراراً - بالحقيقة، بما أن ما يميز جنساً أدبياً عن آخر ليس المحتوى، وإنما هو البناء من خلال شبكة أو شبكات العلاقات التي تنتظمه، ومن أبرزها العلاقات بين الصّامتر في مدى

42 استندنا في الكثير مما ذكرنا في هذا المستوى إلى الفصل الأول: «الخبر والشعر» من الباب الخامس من: «الخبر في الأدب العربي»، لمحمد القاضي، 1998، ص 540 - 592.

انفتاح الصّмир الغائب المفرد على سائر الصّمائير أو الكنايات الدّالة على بقيّة الشخصيات، وهي فردية وجماعية؛ وتتوزّع في فصول الكتاب، تعريفًا وإحالةً بالصّمائير أو الأسماء أو الصّفات، وتُختزلُ تكتيفًا في: ش.1: الفتى؛ ش.2: الطّلاب؛ ش.3: الرّفاق والأصحاب والأصدقاء؛ ش.4: الشّيوخ؛ ش.5: الأساتذة؛ ش.6: أهل الأدب والثّقافة والفكر؛ ش.7: الأسرة؛ ش.8: السّياسيون؛ ش.9: النّاس، واعتبار هذه الشّخصيّة - رغم عدم فاعليّتها المباشرة في الأحداث - أنّها مساهمةٌ - على غيابها - في بناء النّص وتنامي شخصيّة الفتى في العلم والمعرفة: أخذًا وعطاءً، ورويّة فكر ونقدًا، بما يجعل تطوّر الكناية عنها من فضّل إلى آخر جزءًا من رؤية في صياغة النّص وربطه بمقدّماته من ناحية [وهي لم تكن أجناسيّة صرّفًا، وإنّما لطبيعة اللّغة فيها أداة ومرجعًا دورٌ كبير في انتقاء الأبنية وتشكيل خصوصيات العلاقات بينها]، وبغاياته وأبعاده من ناحية أخرى. وأبرز أثر لهذه الشّخصيّة التّاسعة، ما يقوله طه حسين عن «الفتى» إذ: «كَانَ يَرَى نَفْسَهُ إِنْسَانًا مِنَ النَّاسِ، وَلَدَ كَمَا يُوَلَدُونَ، وَعَاشَ كَمَا يَعِيشُونَ مَقْسَمَ الْوَفِّ وَالنَّشَاطِ فِيمَا يُقْسَمُونَ فِيهِ وَقَتَهُمْ وَنَشَاطَهُمْ. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَأْسُسُ إِلَى أَحَدٍ، وَلَمْ يَكُنْ يَطْمَئِنُّ إِلَى شَيْءٍ، قَدْ ضُرِبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ وَالْأَشْيَاءِ حِجَابٌ ظَاهِرُهُ الرِّضَا وَالْأَمْنُ، وَبَاطِنُهُ مِنْ قِبَلِهِ السُّخْطُ وَالْخَوْفُ وَالْقَلَقُ وَاضْطِرَابُ النَّفْسِ، فِي صَحْرَاءٍ مُوحِشَةٍ لَا تَحْدُهَا الْحُدُودُ، وَلَا تَقُومُ فِيهَا الْأَعْلَامُ، وَلَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا طَرِيقُهُ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَسْلُكَهَا، وَغَايَتُهُ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهَا» (الأيام، 112).

إنّ الغاية من الاهتمام بالشّخصيات مرّده سببان: 1 - ترجيح انتساب «الأيام»، 111 إلى السّيرة الذاتيّة من عدمه؛ 2 - وليس هذا البحث في الجنس الأدبيّ هو المبتدأ والمنتهى في الدّراسة، بل هو جزء من المشغل الرئيسيّ في الأطروحة وهو النّظر في بناء النّص (بمفهومه النظريّ) العامّ، وتبيّن مفاصله التي تضمن تماسكه وانسجامه؛ وما هذه المفاصل إلّا أبنيته الصّغرى والكبرى في تجلياتها وطبيعة العلاقات بينها، باعتبارها ضمانات استدلال على أنّها من المقوّمات التي تعكس بنية النّص أو أبنيته العليا التي بها يوافق هيكل الجنس الأدبيّ الذي يفترض أنّه جزء منه؛ افتراض محكومٌ بثنائية السّنة والعدول، أو الثّبات والتّحوّل. وإفراد الشّخصيات بالبحث يدخل في إطار ما اتّفق عليه في ميثاق سيرة الذات من وجود شخصيّة/ محور هي الأصل والمنتهى في كلّ الأحداث، وفي مختلف مجالات الحديث.

تتعدّد الشّخصيات وتتنوّع وتختلف، تجلّيات منحوتة في الذاكرة لدى صاحبنا/ الفتى، مُصاغة أدبًا وفكرًا من الكاتب/ المفكّر/ النّاقّد؛ صفات ليست

بمعزلٍ ولا بمنأى عن صورة الفتى تعكس توافقاً وانسهاراً بين الطرفين. والشخصيات في انتشارها ونشرها عبر فصول الكتاب وصفحاته، لا تخدم أحياناً بقدر ما تعكس فكراً تجتمع فيه المتناقضات تتجلى في الشخصيات منفردة، ولكنها مُقدّمة كما كان يراها الفتى، وكما أنشأها الكاتب لُغةً وأدباً وفكراً، فإذا تَوَزَّعُها أو وظائفها أو تجلياتها إن هي إلا امتداداتٌ للمُسْتَحْسِنِ عند الفتى أو المُسْتَكْرِه؛ فتغيب، بناءً على ذلك، الشخصيات باعتبارها فواعل مباشرة في الحدث، لِنَقْدٍ مِنْ وجهة نظر الفتى/ الكاتب/ المُفَكِّر/ الناقد، فيتوازى بذلك الحديث عن سيرة في الحياة والآثار التي تركتها في الفكر كما في تصوّر «المشروع الحضاري»، نَحْتُ يَبْرُرُ أَيْضاً التَّقَاوُتَ الواضح في الحديث عن الشخصيات أو الإحالة عليها وفق ثنائيات هي: الإفراد والجمع؛ التعريف والتتكير؛ النشر والاختزال؛ القبول والرفض. مقابلة بين فكرين، وبين نمطين في العلم والمعرفة، كما في مناهجهما ومرجعياتهما.

وتواتر الشخصيات في فصول «الأيام»، ^{١١١} يختلف من فصلٍ إلى آخر، قلةً وكثرةً، فالشخصيتان 4 + 5، أو الشيوخ والأساتذة رغم ذِكْرِهِم بصيغة الإفراد أو الجمع، وكذلك بالصفة أو الاسم، فإننا فضّلنا إرجاعهم إلى صنفين كبيرين: الشيوخ ≠ الأساتذة [إلا مَنْ كان له أثر مباشر هام في حياة الفتى كما في فكره]؛ لأن غاية الكاتب العامة هي المقاربة النقدية لِسَبُلِ الفَتَيْنِ ومناهجهما ومرجعياتهما في التدريس كما في العلاقة بالطلّاب، وعلى وجه الخصوص بالفتى، فتكون العناية أحياناً تهم ذات الشيخ أو الأستاذ، لتكون في أحيان كثيرة أخرى مندرجة ضمن المقارنة بين الأزهر وشيوخه، وبين الجامعة المصرية والأساتذة فيها المستشرقين والمصريين، ثم بين المؤسستين والجامعة الفرنسية وأساتذتها. فالأغلب الأعم هو عناية الفتى/ الكاتب بالصفة أكثر من الاسم - وإن كان له في مواضع عديدة آثار في الشخصية على مستويي الوجدان والنفسية وخاصة الفكر -

يعكس توزيع الشخصيات بنية النص المنسجمة القائمة على أبنية صغرى يرتبط بعضها ببعض الآخر أفقياً وعمودياً، في إطار بنية شمولية هي تمثيل تجريدي هيكلي للمُنْجَزِ النَّصِّي الصَّرِيحِ المَقُولِ، مع ما يحيل عليه من ضمنيّ مسكوت عنه يَبْرُرُ من خلال الاستدلال والتأويل؛ ذلك أن الشخصيات كانت أبرز بنية صغرى ميّزت هذا الفصل بل عبر «الأيام»، ^{١١١} جميعاً، في تلك العلاقة بين الذات المفردة وقد ثبتت، وبين الذات الجماعية التي تأتلف من رؤية الشخصية/ الذات المفردة لها؛ يوهّم المظهر باستقلال مكونات الذات الجماعية، وبفعلها في الواقع وفي التاريخ، ولكنه فعلٌ مُوجَّهٌ

بصورة وموقف انطبعوا في ذهن الذات المفردة فصاغتاهما حسب نزعة فكرية ثقافية حضارية عامة.

ورغم بروز الشخصيات في هذا النص، فإنه لا يمكن اعتبارها العنصر الدال على النص/ النوع، بما أنها ترد في التصوص جميعاً، أو في النص/ الأنواع؛ ولكن الطريقة التي بها تُصاغ وتُقدّم هي التي تجعلها الجنس/ الإطار الذي يحتوي النص/ النوع؛ وهو الشأن بالنسبة إلى النص محور الاهتمام؛ فالظاهر عناية بالمقام وتركيز على المرجعية التاريخية/ السياسية في فترة محدّدة من تاريخ مصر، مع اهتمام بشخصيات كثيرة كان لها دورها في تحديد المسارات - بمختلف مشاربها وتوجّهاتها - ولكن أبرز حضور كان للشخصية/ الذات المفردة/ «هو» بطريقة متميزة جداً تفوق حضور سائر الشخصيات - رغم أن الصياغة السردية توهم بأن هذا الحضور باهت، وأن الذات المفردة هي على الهامش، وأنها مفعول بها - ولكن نسيج النص يُظهر الذات الجماعية مرايا تعكس الذات المفردة في همومها ومشاعلها وآمالها، بل في وجودها بالفعل، لا بالقوة؛ وهو ما يُرشح توجّهنا إلى اعتبار «الأيام»، اا جزءاً من سيرة ذات، وإن كانت لا تقطع مع ملامح الرواية كما المذكرات، شأنها في ذلك هو شأن «الأيام» جميعاً.

إن التنوع والاختلاف في اختيار الشخصيات يُحيل على مختلف القضايا التي كانت ترق طه حسين. وإذا كانت هذه الشخصيات ذات وجود واقعي تاريخي في الخبر، فإنها مع الخطاب، تتحول إلى عوامل مساعدة على إنتاج النص حسب المرجعية التي تولّد مشكل الجنس الأدبي في «الأيام»، اا مع النص دون الخطاب؛ بل إن نسيج النص هو تركيبي، تعبيري، مرجعي، أجناسي، تداولي تضعف معه الشعرية، وهو ما جعل «الأيام»، اا قائمة على بنية مُركّبة ذات مستويات متعدّدة تتعلّق بالبنية العميقة ولا تُبرزها البنية السطحية.

الأدب عند طه حسين هو أدب الفكر لا أدب الجنس؛ والأنموذج عنده يُنسج من الذات، وليس ممّا يُمليه الآخر. وفهم طه حسين للسردية ليس على أنها هياكل وليس للكاتب إلا أن يبين مظهرًا إجرائيًا من مظاهرها؛ إن بناء النص عنده ينشأ بنية صغرى هي القاعدة والقادح للتفكير والتعبير، ولكنها لا تكون إطاراً بارزاً في بناء النص إذ تظل أهميتها قائمة، ولكن الأبنية الكبرى تفيض عليها وتغلب، أما البنية العليا، فهي أبنية متعدّدة لا تبرز إلا فيما تخلفه من آثار في مزيج من أجناس أدبية متعدّدة مختلفة مؤتلفة.

السردية في «الأيام»، ااا ليست إلا مقومًا من عدة مقومات تُنشئ النص، وليست هي التي تحدّد نهايته بل الفكر هو الذي يُبلّغ التقويم، وضع نهايةٍ للملفوظ السرديّ دون المشروع الحضاريّ النّقديّ الذي يراه طه حسين في المستقبل دون الحاضر والماضي. إنّه لا يخضع لمقومات السردية بالمفهوم النقديّ التأسيسيّ ولكن، من خلال الملاحظة النّقديّة للأدب والواقع معًا، وهو بذلك يُحلّ توجّهاتٍ مغايرة في النصّ وجنس الخطاب.

2. النصّ الثّاني

دراسة «الخبز الحافي» لمحمد شكري

الاختلاف في المرجع والتنوّع في الجنس الأدبيّ وآثارهما في تحقيق
انسجام النصّ وتحوّل الخطاب

2. 1. التحليل

«أما الوهم (أو التجربة العادية للبشر) فهو المادّة التي يعمل فيها الكاتب،
ولكنّه - بعمله فيها - يحولها إلى شيءٍ مختلفٍ بمنحها شكلاً محدّداً،
وبتثبيتها داخل حدود قصصيّة، فإنّه يتمكّن من التّباعدها. ويكشف
لنا عن حدودها فيُسنّم في تحريرنا من أسرٍ وهما»

(تيري إيجلتون، 1986: 26)

2. 1. 1. تمهيد

كَتَبَ مُحَمَّد شكري «الخبز الحافي» سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة
وألف، ولم يُعرَف الكتاب في البلاد العربيّة إلّا سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة
وألف، ويدخل ذلك في إطار الكتب الممنوعة، والخلفيّة بالنّسبة إلى «الخبز
الحافي» قيميّة اجتماعيّة مرتبطة بطريقة تفكير ونمط حياة. وكانت الأسبقيّة
في العناية بهذا الكتاب إلى حضارة الغرب وثقافتهم، إذ نُشرَت أوّل مرّة باللّغة
الإنجليزيّة تحت عنوان: «For Bread Alone»، أو «من أجل الخُبز
وَحْدِهِ»، وقد ترجمها إلى الإنجليزيّة الكاتب الأمريكيّ بول بولز (Fredirik
Paul bowles) سنة ثلاثٍ وسبعين وتسع مائة وألف، لتُترجم فيما بعد إلى

ثمانى وثلاثين لغة منها الإسبانية والألمانية؛ إضافةً إلى التّرجمة الفرنسيّة بعنوان: « Le pain nu » التي أنجزها الطّاهر بن جلّون سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وألف.

والمقصود ليس هذا المدخل التّاريخي في حدّ ذاته، بقدر اتّخاذ مطبّة إلى الإشكالات الحافّة بـ«الخبز الحافي» لا فقط في التّعامل معها من حيث المضمون بل أيضًا - وهذا هو الأهمّ - من حيث الطّريقة التي صاغها بها محمّد شكري والمداخل التي سبقت المثن وتتمثّل فيما جاء في صفحة الغلاف: «الخبز الحافي سيرة ذاتيّة روائية 1935 - 1956»، فهذا العنوان يشي ببعض ملامح الأثر الذي يحتويه ويرغب في نشره، وهو ما يبعث على طرح أسئلة عديدة تتعلّق بمجالات الإبداع والإنشاء الفنّي - نقطة لا تخلو من ملاسبات، خاصّة إذا رُبطت بإحدى مميّزات حياة محمّد شكري، وهو الذي لم يتعلّم القراءة والكتابة إلّا في العشرين من عمره، معنى هذا أنّه قد كتبها في سنّ السّابعة والثلاثين؛ فهل كانت سبع عشرة سنة كافية ليعي الكاتب خصوصيات الأجناس الأدبيّة، أم أنّ المسألة بالنسبة إليه لا تتعلّق بنثر فنّي له مواثيقه وأُسسه وقواعده بقدر ما هي همومٌ أثقلته فأراد أن يتخفّف منها بلفظها كتابيّةً أولاً، وبتشريك الآخر فيها ثانيًا سواء أ تعلّق الأمر بالأحداث والحوادث، أم بالقراءة؟

لكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تُترجمُ إلى ذلك العدد الكبير من اللّغات؟ أم أنّ المسألة لا تتجاوز الصّراع بين الغرب والعرب في مختلف مظاهره وتجليّاته، وأحد أسلحته الكتابة فضحًا وتشهيرًا من ناحية، واعتراقًا بالخصوصيات سواء أ كان الأمر إراديًا من الكاتب نفسه، أم بغاية استغلاله لأغراضٍ شخصيّةٍ أولاً، وأخرى تاريخيّة حضاريّة ثانيًا؟

هذه الأسئلة والخصائص جميعًا شحذت الفضول للتعرف إلى هذا الأثر⁴³

43 إلى حدّ الآن، لم نصنّف «الخبز الحافي» ضمن أيّ جنسٍ أدبيّ لأنّ المسألة ليست من اليسر الذي اقترن ببعض الآراء والانطباعات الانفعاليّة التي لا تتجاوز مستوى تصنيف ما جاء في الأثر ضمن ما يخدش - وربّما يجرح - أو يسيء إلى الجانب القيميّ الأخلاقيّ؛ لكن لننظر إليه من زاوية أخرى لغويّة أدبيّة عسى أن تُخرجنا من الإسفاف إلى ما يكشف عن الجوهر وعمّا لم يُقل - رغم ما قد يوحي به الأثر من صراحة ووضوح وشفافيّة حتّى لا مزيد.

ونقصد بالأثر معنيين: أولهما الكتاب قبل الوعي بجنسه أو مكوّناته الأجناسيّة - إذ قد يتجاوز الجنس الواحد لينفتح على غيره - ؛ وثانيهما في بُعدٍ تواسليّ وهو الأثر الذي يريد صاحب النّص أن يتركه في المتلقّي.

والرغبة في تبين ما به اكتسب شهرته العالمية التي جدها كثير من العرب.
البحث ينشأ إذن، من صفحة الغلاف، إذ هناك مداخل ثلاثة لقراءة الأثر:

1. استعاري: يقترن بالجزء الأول من العلامات الدالة عليه: «الخبز الحافي»: عبارة تقوم على استعارة مكنية غاب فيها المستعار منه وهو الإنسان، لتحل محله إحدى قرائنه الدالة عليه «الحافي»؛ واستناداً إلى «لسان العرب»: حَفَّتْ قَدَمُ فُلَانٍ، بمعنى رَقَّتْ مِنْ كَثْرَةِ الْمَشْيِ بِلَا خُفٍّ وَلَا نَعْلِ.

على أن للجذر اللغوي: (ح، ف، ي) من المشتقات وحروف المعاني التي تقترن بالأفعال ما يجعله يتجاوز هذا المعنى الأول إلى معاني أخرى وهي:

احتفى به: بالغ في إكرامه وإظهار الفرح به؛

خفي عنه: أكثر السؤال عن حاله، وردده، أي ألح عليه وبرح به في الإلاح؛
حمله على أن يبحث عن الخبر؛

خفي إليه في الوصية: بالغ فيها؛

تحفى في الشيء: اجتهد؛ وله: بالغ في إكرامه؛

تحافيا إلى السلطان: ترافعا؛

احتفى البقل⁴⁴ اقتلعه من الأرض بأطراف أصابعه من قصره وقتله - القوم المرعى: لم يتركوا منه شيئاً؛

استحفى عن كذا: استخبره عنه على وجه المبالغة؛

الحفي: العارف الشيء حق معرفته، المبالغ في الإكرام والبر وإظهار السرور.

هي معاني متعددة قد توجي بالاختلاف من حيث علاقتها بالحروف، أو في نوع الصيغة وكلها لها خصائص ومميزات، لكن ليس شرطاً أن تدل على الفقرة التامة، على الأقل في الجذر الذي يوجي بالأصل الواحد والمرجعية الأصل تتمثل في الإنسان الغائب الحاضر، قول وتعبير قد ينكشف بعض غموضه إذا ما رُدَّ إلى المستعار له: «الخبز»، فيتولد الإشكال في أيهما الأصل، وأيها الفرع، المنعوت أم النعت؟ ولماذا عمَد الكاتب إلى التأليف بين مرجعيات متعددة: نشأت من البلاغي البياني، وارتدت إلى المعجمي، لتؤول إلى النحوي التركيبي الإعرابي؛ والتقاء هذه المرجعيات لا يوضح الدلالة، بقدر

44 البقل: هو ما ينبت في بزره أو بذره لا في أصل ثابت.

ما يزيد المعنى غُموضًا، ويكتفِ التساؤلات حول الكلمة المنطلق: «الخبز»، والأخرى المنتهى: «الحافي»؛ فهل لترتيب الكلام بُعدٌ ومقصد، أم هي اللغة تقرر قوانينها في نَظْم الكلام؟ أم أنَّ المجازَ في التعبير على أساس المشابهة - إذ تقوم على تقوُّق الأصل فيها على الفرع في الصِّفة والخاصية أو الخاصيات - لا يعدو أن يكونَ إلَّا ضربًا من بحثٍ عن المعنى ولا معنى ولا اسم، بما أنَّ المُسمَّى (الخبز) مفقود أصلاً، وتبرير السَّعي إليه تفسره كلمة: «الحافي»، عذابًا وشقاءً، لكن، هل سيؤدِّيَان إلى الرَّاحة والطَّمأنينة، أم أنَّ الأمر لا يعدو أن يكونَ عبثًا ولا جدوى؟

ثمَّ من المقصود بهذا الخطاب، ولماذا الميل إلى التَّعمية والغُموض دون الصِّراحة والوضوح؟

جوانب من الأسئلة المُلِحَّة تبدأ في التَّجَلِّي من خلال الجزء الثَّاني من عنوان الأثر وإنَّ كان هو ذاته لا يخلو من إشكاليات:

2. أجناسيٌّ: يقترن بالجزء الثَّاني من العلامات الدَّالة عليه: «سيرة ذاتية روائية»: كلمات ثلاث تُحيل أولاً على إشكالٍ أجناسيٍّ له مظاهرٌ عديدة: سيرة ذهابًا في الأرض، وطريقة ومذهبًا في الحياة، وكيفية سلوكٍ بين النَّاس، اقترنت بالذَّات دون الآخر على ألا تتفيه سواء أ كان ذلك اختيارًا في التَّجربة الإبداعية، أم اضطرارًا في الأحداث التي نُسِجت من خلالها رواية تروي عبْرها الشَّخصية ما حدث، ويحدث، أو يؤذن بالحدث؛ وما محورية الذَّات إلَّا إحياء بوجود أطراف أخرى وظروف حافَّة قد تقلب الموازين، فتجعل المحور هامشًا، والهامش محورًا في الخبر والحدث، لكنَّ الإشكال بالنسبة إلى هذا الجزء الثَّاني من العنوان لا يقف عند حدود المعنى بل الأعماق هو في علاقة النَّوع الأدبيِّ بالآخر، ثمَّ في التَّرتيب الذي جاءت عليه الكلمات، أيضًا مبررات التَّحوُّل من الاندراج في تجربة إبداعية إلى إردافها بأخرى: فهل يكون ذلك جمعًا وتأكيديًا، أم هو الإيمان بعدم الالتزام بميثاق السَّيرة الذاتية فيما أنشئ حتَّى كان العُدول إلى الروائية، لكن بأيِّ مفهوم؟ أيضًا، هل هي الحادثة في الجنس تنبع من الأصالة في طريقة التَّعبير والتَّواصل من خلال تناقل الخبر مشافهةً، أم أنَّ القصد جعل السَّيرة محتوى لإطارٍ يحتويها هو الرواية وكلاهما بالمفهوم الحديث كما أسَّسه الغربيُّون وشكَّلوهُ؟

3. تاريخيٌّ: 1935 - 1956، وهو ما يمثِّل المرحلة الأولى من

حياة⁴⁵ محمد شكري، ولكن هذا يمثل إشكالاً آخر، أما التاريخ الأول فيوازي تاريخ ميلاد محمد شكري، والمسألة لا تخلو من حيرة، فكيف للكاتب أن يُدَوِّن أطوار حياته منذ الولادة؟ أم أنه قياس السابق المجهول على اللاحق المعروف؟ ومتى كانت المعرفة، والمعرفة بأية صيغة؟ الممنوحة، أم القائمة على طرْح السَّوَال بحثاً عن الذات وفيها، كما في مكوّنات الحياة ومقومات الوجود؟

وأما التاريخ الثاني، فهو إيدانٌ بانتهاء مرحلة أولى، واستئناف ثانية من خلال: «زمن الأخطاء»؛ والسؤال الذي يطرح هو لماذا التوقف عند هذا المستوى؟

وينضاف إلى هذه المداخل الثلاثة مدخلٌ رابعٌ يتعلّق بمقدّمة الطّبعة العربيّة التي كتبها محمد شكري في السّابع عشر من جوان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وألف، وتدلّ على فرق كبير في لغة تعبيره؛ فهل يرتبط ذلك بفعل الزّمان الذي طوّر تجربة الكاتب وصقل موهبته في الكتابة، أم أنّ الأمر مقصودٌ منه بأنّ يُنشئ «الخبز الحافي» بالطريقة والصيغة اللتين تميّزان هذا الكتاب، أم أنّ المسألة تتعلّق بموقع محمد شكري بين أن يكون سارداً كاتباً، أو أن يكون كاتباً له رؤية نقدية تجاه الكتابة والحياة؟⁴⁶

أفكارٌ وتساؤلات سنسعى إلى الإجابة عنها لكن ليس في ذاتها إلاّ بالقدر الذي يخدم أهداف الأطروحة العامّة ويسلّط الضّوء على جوانب أخرى منها - في إطار تحقيق التّكامل والتّجانس بين القسمين النظريّ والتّطبيقيّ - ويوضّح العلاقات بين مختلف الأبنية التي أقيم عليها الأثر في تجلّيات

45 حياته التي صاغها كتابةً في أجزاء ثلاثة ثانیة وسمّاه بـ «زمن الأخطاء» أو «الشطار»، وثالثها بـ «وجوه».

46 قد نجد تفسيراً لذلك لدى أحد النّقاد وهو محمد كامل الخطيب إذ ينظر إلى الفنّ الروائيّ في سياق الصّراع السّیاسيّ والحضاريّ القائم بين الدّاخل والخارج (لحمداني، 1990: 98)؛ وهو يُلخّص تصوّره الإيديولوجيّ المباشر من خلال قوله: «كلّما تقدّم المجتمع العربيّ في عمليّة تمثّل الحضارة الحديثة واستيعابها تقدّم كذلك في تمثّل الأجناس الأدبيّة واستيعابها - وقد اخترنا الرواية مثالا - التي أنتجها الغرب. وكلّما ازداد تقدّم المجتمع العربيّ في تمثّل الغرب واستيعابه، ازداد نطاق هذا التّمثّل على مستوى القاعدة الشعبيّة. أي كلّما تخلخل البناء الاجتماعيّ القديم (على مستوى الطّليعة المثقّفة فقط) استطاع الرّوائي العربيّ إتقان صناعته تكتيكياً، استطاع الفكر والأدب - خاصّة - أن يمارسا دورهما في التّعبير والتّأثير، والتّحوّل من مُجرّد العكس الميكانيكيّ لواقع متخلّف ومُجرّئ إلى التّمثّل الواعي والتّأثير، والمساهمة في بناء مجتمع متقدّم، ومُوحّد، والفكر والنّقاة عامّة، لا يمكن أن يمارسا دورهما التّقديميّ بل والطّليعيّ، وعلى النّحو الصحيح إلّا في مجتمع «متحضّر» أو على الأقلّ نظيف من الأميّة» (الخطيب، 1976: 9).

الكتابة، فيكون البحث في خصوصيات الخطاب من خلال التحليل والنقد، بمراعاة الجوانب التالية: السوسيو - لساني؛ علم النفس؛ المكان وعلاقته بالشخصية/ المحور/ الذات؛ في علاقة السيرة الذاتية بالرواية، أو بالروائي، أو سيرة الذات الروائية، أو رواية السيرة الذاتية.

هذا المدخل الرابع هو كلمة مُفْتَتَحٍ يتنازعها التكرار إبهامًا بالرتابة أو بالتجدد وربما بالتفاؤل في عبارة: «صَبَاحُ الْخَيْرِ»، تتردد لغةً ومعنى وصدى لثقافة جمالية متأصلة في القدم هي ثقافة الجماعة مهما تكن لغتها أو إرثها الحضاري؛ لكن، من التشابه والتناظر ينبثق الاستثناء في توزع تفارقي يتأصل معه المعجم وتفترق الرؤى والتوجهات: «اللَّيْلِيُّونَ» و«النَّهَارِيُّونَ»، كلُّ له اختياره أو اضطرابه، أو مساره في البحث عن ذاته في زمانٍ قد لا تكون له من دلالة غير بُعد الميقاتي الكوني؛ ومن فرقتهما طرفين متناقضين تتولد ذات الكاتب التي تبدو بدورها باحثة عن المكان ثباتاً «طنجة المنغرسية» تجذراً في العشب واللاجدوى، وجذور منبثة في اللامعنى، أو المعنى الوهم الذي لا يحاصر إذا اقترن بـ «زَمَنٍ رَبِّيَّ».

وبين الزمان والمكان يحاول الكاتب أن يلمّ شتات نفس تتبدى له طيف خيال أو ملامح دون هوية، يبحث عنها الكاتب فيما حُطَّ من كلمات، وما نُسِج من عبارات يُعَبَّر عنها الكاتب بقوله: «مَا خَطَطْتُهُ عَنْ «حَيَاتِي» الْمَاضِيَةِ - الْحَاضِرَةِ... كَلِمَاتٌ وَاسْتِيهَامَاتٌ وَنُدُوبٌ لَا يُلَاقِيهَا الْقَوْلُ».

هي الحياة التي لا تكتسب معناها، بالنسبة إلى الكاتب إلا في اللغة والمعجم. ولكنها تأتي استثناءً وفي غير موضع حقيقي من المعنى في التركيب والسياق، حياة لازمة وجود وعدم، وصفتان تفرقان في القرينتين اللَّفْظِيَّتين، وتتفقان في البعد والدلالة: أحداث يطويها الزمان، وتتتابع في «مَنْطِقٍ طَبِيعِيٍّ كَوْنِيٍّ» ولكنها تُخْتَرَل وتتكاثف وتتراص لنقول إلى نقطة مركز واحد هي الذكريات التي تتولد من الذاكرة أو عبرها لكن، من الأمكنة المحدودة المحصورة «الأزقة»، أو تجليات طنجة في رموزها التي يبحث من خلالها الكاتب عن معنى حياته؛ معنى يصوغه استفهاماً وإنكاراً: «أَيْنَ عُمْرِي مِنْ هَذَا النُّسْجِ الْكَلَامِيِّ؟» وإنّ لذلك دلالات هي:

- في علاقة الكتابة بالواقع، أو الفن بالحياة: أية صياغة لهما، وأية صلة؟

- مدى المسافة التي تفصل الكاتب عن ذاته في حديثه عنها الوجود بالفعل، والوجود بالقوة أي معنى يختار الكاتب، ووفق أي معايير؟

- العلاقة بين العقل والوجدان في عملية الكتابة: هل هو النسخ على منوال الواقع كما يوجد قسراً وقهراً؟ أم هو التخلي عن كل النواميس المسطورة لإعادة الصياغة مزوجة بين الكتابة والفكر؟

إن سيرة الذات بالنسبة إلى محمد شكري تُغري باستعادة زمانٍ قد مضى وولّى؛ وإن في النفس لرغبة في العودة إليه وحنيناً إلى أجمل ما فيه، ولكن الرغبة الجارفة توقفها رهبة جامحة هي نتيجة حتمية لما ترسخ في الذهن والذاكرة، وفي النفس والوجدان من آلام تُعقد استدراكاً ومقابلة: «لَكِنَّ عَيْبَرَ الْأَمَاسِيِّ وَالنَّيَالِي الْمُنْتَظَّةِ بِالتَّوَجُّسِ وَانْدِفَاعِ الْمُغَامِرَةِ يَسْلُلُ إِلَى دَاخِلِي لِیُعِيدَ رَمَادَ الْجَمَرَاتِ غِلَاةً شَفَافَةً أَسْرَةً...»

هي حالة تؤثر حارقة يمرّ بها الكاتب/ الذات؛ يحاول أن يتخلص من حاضره في ماضيه، فيدفعه دفعا إلى لحظة الذكرى دون التذكر، وإذا كانت هناك مُتعة فليست إلا تلك التي يلفظ فيها همومه، ويصوغها كلمات متجانسة متنافرة، طيعة في العبارة، أبية دون أن يستعيز عنها الكاتب بنقاط تتتابع تتعطل معها لغة الكلام؛ أو ربّما هو الحرص على إسقاط ذكرى أو ذكريات لا تُولد إلا التشنج والشكوى.

وإذا كان عالم الذات مقترنا بـ «الحرمان والقهر وعنف الصراع الجسدي» فإنّ عالم الآخر هو عالم المواساة والمؤانسة، والحياة والأمل، كما الثقافة والحضارة وقد اتخذ الكاتب لذلك رموزاً عديدة هي: «عبدون فروسو»؛ وامتداداته في قصة «الخيمة»؛ والآثار في سيرة ذاتية اغتربت «عشر سنوات... قبل أن تعرف طريقها إلى القراء في شكلها الأصلي العربي».

هو إيمان مترسخ لدى الكاتب بتقدّم الغرب وانتصاراً لجانب الإنسان في البشر، مقابل تأخر العرب الذين يقتلون جانب الحياة في الإنسان ويهمشونه تقهقراً وقهراً لأنّه لم يخضع للنوابت ذات المرجعيّات المختلفة، وهم في كلّ ذلك، في غفلة عن أسباب البؤس، وعن خلفيات الكتمان. والانبهار بالغرب ليس لأبعاد جغرافية، وإنّما يُرجعه الكاتب مجازاً إلى المقوم العقلي الذي يُعتبر المعيار في البحث عن أسباب التّقدّم والرّقيّ والهيمنة أيضاً، بعيداً عن التّحجّر الفكري؛ وإن كان الكاتب في قرارة نفسه، يتمنّى بلوغ درجة من الوعي يجد معها الأسباب المُساعدة على الإيمان بالذات، والرّجوع إلى أصولها لكن بمنظار التوازن الحضاريّ بكلّ تجلياته ومظاهره، ومنها:

- الإيمان بالتّبدّل والتّغيير - حتّى وإن تطلّب ذلك وقتاً -
- الوعي بالذات - مهما تكن الصّعوبات والعراقيل -

- الإيمان بالفعل، بالذات وفيها أولاً، ومنها تتحوّل الرّهبة إلى رغبة متضمّنة في الوجود الذي تتقلّص معه مسافات التّباين والاختلاف؛ هي المسافات التي عبّر عنها الكاتب في بداية كلمته فصلاً بين كلمتي: «اللّيليّون» و«النّهاريّون»، لتقول إلى ثنائيات تحكّم الوجود الكوني وتنبّه، دون أن تكون مقابلات تفرّق، إذ يقول الكاتب: «فيا أيّها اللّيليّون والنّهاريّون، أيّها المتشائمون والمتفائلون، أيّها المتمرّدون، أيّها المراهقون، أيّها العقلاء...: لا تنسوا أن «لُعبة الزمن» أقوى منا، لُعبة مُميّنة هي، لا يمكن أن نواجهها إلّا بأن نعيش الموت السّابق لموتنا، لإماتتنا: أن نرُقّص على حبال المخاطرة شُداناً للحياة» 8؛

خطاب «عقليّ» يستدعي ثلاثة خطابات أخرى هي:

«أقول: يُخرج الحيّ من الميّت.

يُخرج الحيّ من النّين ومن المتحلّل. يُخرجه من المتخّم والنّهار...

يُخرجه من بطون الجائعين ومن صلب المتعيشين على الخبز الحافي».

خطاب أو خطابات لم تخلّ من احتراز ومن نسبيّة يتأتّيان من نسبيّة الوجود البشريّ ذاته المحكوم بثنائيّة الحياة والموت، ثنائيّة تُلَفّ وجوداً عدماً عبثاً يسعى الإنسان إلى إعطائه معنى بالمحاولة والسّعي والإيمان بأنّ الفرد والجماعة صيغتان تتلازمان ولا يمكن ضمان أحدهما إلّا بوجود الطّرف الآخر، وهو ما يبعث الأمل ويضمن البقاء - وإنّ إلى حين - . وتأتي اللّغة المجاز معبّراً إلى «الواقع»، وتختزل «الكلمة» السّيرة، سيرة ذات معذبة في رحلتها مع «الخبز الحافي»، ومع الكتابة نشرّاً للذات الفرديّة مرآة للجماعيّة في عذاباتها عبر الزّمان يُفني الإنسان فينفيه فعل مداومة ومقاومة وانتصار.

النّظرة الأولى تشي بأنّ «الخبز الحافي» هي سيرة حياة عبر المكان والزّمان؛ ولئن لم يول محمد شكري للزّمان كبير عناية، فإنّ للمكان أهميّة بالغة سواء أ كان ذلك في ترتيب البناء فصلاً سمة من سمات الرّواية، أم في نحت ملامح شخصيّة محمد شكري إذ تتلبّس بالبطل، فإذا هي جدلّ بين بداية الوعي بالذات وبالحيّة وبالوجود من خلال طرح الأسئلة التي لم تترك فيه إلّا ألماً وشكاً واهتزاز نظرة إلى «المقدّسات» الأخلاقيّة والاجتماعيّة التي لم ير في الواقع والممارسة إلّا ما يكذبها ويضيّق دائرتها حتّى التّلاشي؛ هذا التّضارب بين المثاليّ في القول والمتردّي من الفعل جعله يندرج في الرّذيلة كرّدة فعل

بدأت غريزية لتتطور وتصبح اختيارات واعية، إذ يواجه محمد شكري قبح الواقع بممارسات أبشع منه، فإما أن ينفي الوجود من حوله، أو أن ينفي ذاته إذ لم يجد الطريقة التي تضمن له التحلي بالفضيلة، أو هو لم يجد الأسباب المساعدة عليها، فكان السوء في لغة التعبير، وفي أساليب التعامل، وفي ضمان الحياة بإفناء الحياة ذاتها خروجاً منها، وإن مجازاً، بالاندراج في عالم الخيال واللاوعي، هذا على مستوى علاقة الشكل العام بالمحتوى، لكن:

- كيف كان التكوين اللساني لغة خطاب «فظة غليظة»، أو مفهومي جمال وقبح: المعايير والمقاييس؟
- وفيم تجلّى التنظيم اللساني - الخطابي بحثاً في إنشائية الخطاب وميثاق الجنس؟
- وماذا يعني المحتوى الدلالي جدلاً بين العالمين «العلوي» و«السفلي»، وبأي مفهوم، وإلى أية غاية؟

2.1.2. مراحل التحليل

قراءة «الخبز الحافي» لم توح باقتطاع جزء منها واعتباره نموذجاً قد يعكس الكل، لذلك رأينا إنشائية هذا الأثر البنيوية في البحث عن التماسك والانسجام والاستدلال عليهما، من خلال تناوله جميعاً وفق مرجعيات أربع هي:

- * المدخل السوسيو - لساني، أو علم اجتماع النص الأدبي؛
- * المدخل السيكلوجي أو علم النفس التحليلي؛
- * توزيع البناء: الخصوصيات والغايات؛
- * علاقة الشخصية السيرذاتية بالمكان في مستويين: مادي ومعنوي: المدار في نحت الملامح بين «الحاضر» حاضر الحدث، وبين المستقبل/ الأمل المغاير للسائد المفروض.

2.1.2.1. التكوين اللساني

- في علاقة النص بالمرجع في «الخبز الحافي»: هل هو المدى أم الحدود؟

المرجع هو:

المجالي: يتصل بعالم الرواية وما يمثل من إحالات على الخلفية المجتمعية وغيرها من الخلفيات، وعلى الحوادث والأماكن الفعلية للحدث الروائي؛

الوظيفي: يتعلّق بعقليات وذهنيّات وأنماط سلوك مُحَمَّلة برؤية الكاتب ومتراوحة بين المُتَحَيَّل والمُحْتَمَل؛ ومن تجلّياته التّاريخي والاستمراري، أو جدليّة الحياة والموت في «الخبز الحافي»، وهي من الثّنائيات التي تتجلّى خطابًا وطريقة منطقية في الأشكال الممكنة التي تصوغ الشّخصيّة وفقها، الحاضر والمستقبل قياسًا بالماضي⁴⁷ صياغات لغويّة تتوازى مع الهياكل المضمونيّة في تحوّلها جميعًا ارتباطًا بإقحام التّاريخي في الاستمراري (Greimas، 1966: 254).

هذه الهياكل في تحولاتها الزّمنيّة، ترتبط قطعًا، بالدّلالة التي تتّصل أولاً وأصلاً بالشّخصيّة السّيرداتيّة، لكن في اقترانها ثانياً وتوازيًا مع المجتمع؛ فلا حديث عن الفرد إلاّ بوضع الوصف والإنشاء عامّة، في سياق يشمل جميع الجوانب والهواجس والمشاكل والشّواغل التي تعيشها الشّخصيّة في علاقة تلازم مع كلّ العناصر الحافّة - سواءً أكان ذلك في مرجع واقعيّ، أم في بُعْد أدبيّ وتصوير كلّ ذلك في مظاهر شتّى منها «الحقيقيّ»، ومنها الخياليّ؛ وهي مظاهر تلعب دورًا هامًا في بُروز نزعة إيديولوجيّة - مهما تكن درجتها، حتّى وإن كانت باهتة - لأفراد، أو لجماعات. هي النّزعة التي قد لا يبدو الخطاب ولغة الخطاب مرّنين بالنّسبة إلى الشّخصيّة لإبرازها وترشيحها ارتباطًا بدرجة الوعي، ولكنها تساعد الكاتب على كلّ حال، في مرحلة من مراحل حياته، هي الأولى، على أن يفهم العالم من حوله، ويحاول أن يجد أسبابًا وعللاً منطقيّة للمفارقات التي كانت تحكم وجوده كما المجتمع من حوله، وما يحكم الكلّ من إرهابات تتجاوز حدود الشّخصيّة، لكنّها تبدو قادمًا على استشراف المستقبل بالبحث في أشكال التّحوّل والتّغيير، ومرجعيات التّداخل بين النّقافات، والتّفاعل بين الشّعوب المختلفة كما حكمت وجوده في بُعدين: آنّي وزمانيّ، وهو ما يولّد لدى الشّخصيّة صراعًا ذا أبعادٍ متعدّدة من أبرز ثنائياتها الفكر والنّفس.

النّقافي: (النّصّي) يكون عامًّا أو خاصًّا؛ أمّا العامّ فهو الذي يدخل في علاقة حوارية مع النّصوص الغائبة، بينما الخاصّ هو الذي يُحيل على هذه النّصوص دون ذِكْرها. (بن جمعة، 1999: 71)

«ثمّ إنّ المرجع لنيس إرجاعًا إلى الواقع أو بالأحرى الواقعيّ، لأنّ التّعامل مع النّصّ الأدبيّ وكأنّه نسخّ للواقع، يُدخلنا في تناقض لأنّ النّصّ نظامًا مستقلًّا من الدّلائل، يختلف عن العالم حيثّ الوحدات الدّالة فيه تدخل

47 القصد من هذه الأزمنة إرجاعها إلى الحدث واقعًا؛ أمّا تجليها حديثًا وخطابًا ففي هذه الأشكال المقصودة بالعناية والتّحليل.

في علاقة تبادل فيما بينها. من جهة أخرى، يظهر لنا النصّ الأدبيّ (أي المدلولات)، التي ينقلها وكأنّها تُحيل مباشرةً إلى الواقع نفسه بينما يوجد النصّ كنظام دلاليّ في تنظيم مختلف عن الواقع، بالرغم من أنّه يوهمنا بما يُخالف ذلك. وهو ما جعل علاقة النصّ الأدبيّ بالمرجع ترتبط عند بعض الدارسين بمصطلح الاحتماليّة، أي أنّ النصّ لا يقدّم حقيقة بقدر ما يقدّم واقعا مُحتملاً. وما نعتقده عند الوهلة الأولى بأنّ ما يحيل إليه النصّ ليس سوى من عمل الدلائل وقدرتها على خلق التأثير، وهو ما عبّر عنه الناقد ريفتير بقوله «إنّ القارّ والمتعوّد على الاستعمال المتعدّي للغة، يقوم بتفكيك الإرساليّة وكأنّها تحيل إلى مرجع. وهو نفس التّصور الذي دَفَع بارت أن يعرّف الأدب بأنّه «لغة غير متعدّية» أي أنّها لا تحيل إلى واقع خارج عنها (بن جمعة، 1999: 69).

- اللّغة في «الخبز الحافي»

* أبعادها

متعدّدة: هي لغة الخطاب اليوميّ الذي يرادف في مواضع كثيرة، اللّهجة إذ توجد مقاطع حوارية عديدة عمّد فيها السارد إلى صياغة لغتها باللّهجة العاميّة الريفيّة، مكثّفاً بذلك دلالتها الواقعيّة ومضفياً على خطاب شخوصها الواقعيّة والعفويّة ومن ثمة الإقناع؛ «إنّ الرّواية ترتبط بالقوى اللّغويّة الطّاردة»⁴⁸، أي باللّهجات، ومختلف لغات الفئات الاجتماعيّة الموجودة في الواقع، حتّى تلك التي لا يُعترف بها على المستوى الرّسميّ» (لحمداني، 1990: 79)، ومن تجلياتها:

«أمّي تقول:

- خم أو ماش (انظر أخاك) نتا ويتروشا (إنّه لا يبكي). إشك ثرود (وأنت تبكي)» 9.

وحوار الشّخصيّة مع الشّيخ عند خروجهما من المقبرة:

- «مانا الذم ما؟ (ما هذا الذم؟)

- عفسغ خ الزاج. (عفسغ على الزجاج.)» 13؛

48 أصل العبارة جاء عند «باختين» في قوله: «إنّ الرّواية، والأنواع الأدبيّة النّثرية قد تشكّلت في تيار القوى اللامركزيّة والطّاردة» :

(Forces décentralisatrices et centrifuges) : M. Bakhtine : Esthétique et théorie du Roman: 96.

وهي لغة الأدب سيرة ذاتية ومسيرة حياة، وهي لغة التفكير التي تتحول معها المعلومة من الحديث عن تجليات حياة إلى تحويل العالم إلى شبكة واسعة من العلامات يُنْبِت معها الكاتب رغبته الملحة في إيجاد معنى لما كان يخوضه من مغامرات سواء أ كان بصفة إرادية أو لا إرادية، مغامرات يبدو بعضها عادياً مألوفاً: «أَعْلَقَ الشَّرْطِيُّ الْبَابَ وَالْكُوَّةَ بِصَخَبٍ. فَكَرْتُ: لَمْ تَعُدْ هَذِهِ الْحَرَكَاتُ الْعَنِيفَةُ تُثِيرُ فِيَّ آيَةً رَهْبَةً. مَعَ الزَّمَنِ، قَدْ لَا تُثِيرُ حَتَّى الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهَا، وَكَذَلِكَ وَضَعْنَا هُنَا» 190؛ ويكتنف بعضها الآخر الغموض: «فَكَرْتُ: كَيْفَ سَتَصِيرُ حَيَاتُنَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ لَوْ كَانَ مَحْكُومًا عَلَيْنَا أَنْ نَقْضِيَ حَيَاتَنَا فِي هَذَا الْوَضْعِ وَفِي هَذِهِ الْحُجْرَةِ؟ لَأَشْكُ أَنَّنَا سَنَظَلُّ نُمَثِّلُ أَدْوَارَ حَيَاتِنَا حَتَّى نَمَلَّ مَاضِينَا وَحَاضِرَنَا. سَنَنْتَهِي إِلَى صَمْتٍ أَبَدِيٍّ. سَنُخَفِّي الْوَاحِدَ إِثْرَ الْآخَرِ. أَتَعَسَّنَا هُوَ الْأَخِيرُ فِي الْإِخْتِفَاءِ» 190؛ فإذا هو جزء من عالم مجهول تكتشفه الشخصية بالتوازي مع القارئ، أما الشخصية فعلى مستوى التجربة قبل أن تتحول إلى كتابة، وأما القارئ فمع سيرورة الخطاب الخطية، والالتقاء إنما هو في الحدث وأثره.

ولا يكتشف القارئ فقط تجربة أو تجارب الشخصية، بل يكتشف أيضاً اللغة وهي تخرج من قوانينها وضوابطها لتنتفتح على نواميس أخرى تحاكي من خلالها عالمي الحياة والموت كما تراهما الشخصية وتحتهما.

إنَّ العلامات - باعتبارها وحدات تجمع بين المعنى والشكل - تمكّن الطّرفين (الشخصية/ الكاتب والمتلقي) من التّواصل ومن تحليل كمّ هائل من التّجارب والتّصرّفات؛ فإذا التّفاعل ليس فقط بين الإنسان والإنسان، بل بينه واللّغة أيضاً؛ وهي في كلتا الحالتين جدلٌ بين المعقول واللامعقول⁴⁹ المقترنين أساساً بالرّغبة في الإفهام والفهم في إطار النّصّ أحداثاً وعلاقات بين الشخصيات، أو في إعادة بناءه من خلال العلاقة بين الشخصية والقارئ. فاللّغة ليست مجرد أداة لوصف الواقع، فهي - إلى جانب ذلك - تعكس مساراً تنظيمياً للتّجربة الإنسانية (Nyckees، 1998: 16) يتّخذها الكاتب/ الشخصية للتّعبير عن جملة من الأحاسيس والمشاعر تمتزج بأفكار وهواجس تنبثق من المعروف توقاً إلى المعرفي: «أَخْرَجَ حَمِيدٌ قَلَمَ رِصَاصٍ صَغِيرًا وَأَخَذَ يَكْتُبُ عَلَى الْحَائِطِ. سَأَلَتْهُ:

49 في صلتها بالعقل ملكة تفكير وتفكيك وتأليف؛ وفي علاقتهما بما يكون قيداً سواء أ كان ذلك في المجتمع، أم في النسيج النّصي، أم فيما يُسيج كل ذلك بين التزام بأجناسيّة الخطاب، أو السّعي إلى التّحلل من أسرهما معاً تأسيساً لغير الموجود.

- مَاذَا تَكْتُبُ؟
- أَكْتُبُ بَيِّنَاتٍ لِلشَّاعِرِ التُّونِسِيِّ أَبِي الْقَاسِمِ الشَّابِيِّ.
- مَاذَا يَقُولُ هَذَا الشَّاعِرُ؟
- هَذَا مَا يَقُولُهُ:
- إِذَا الشَّعْبُ يَوْمًا أَرَادَ الْحَيَاةَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ الْقَدَرُ
- وَلَا بُدَّ لِلَّيْلِ أَنْ يَنْجَلِيَ وَلَا بُدَّ لِلْقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِرَ
- قُلْتُ لَهُ بِإِعْجَابٍ:
- عَظِيمٌ!
- هَلْ تَفْهَمُ مَا يَقُولُ؟
- كَلَّا، لَكِنَّهُ عَظِيمٌ. أَحْسُ أَنَّهُ عَظِيمٌ.
- (أَصْفْتُ): مَا مَعْنَى الَّذِي يَقُولُهُ؟
- إِرَادَةُ الْحَيَاةِ، هَذَا هُوَ مَعْنَى مَا يَقُولُهُ.
- وَمَا مَعْنَى إِرَادَةِ الْحَيَاةِ؟
- إِرَادَةُ الْحَيَاةِ مَعْنَاهَا هُوَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ هُنَاكَ شَعْبٌ مُسْتَعْبَدٌ أَوْ إِنْسَانٌ مَا وَأَرَادَ أَنْ يَتَحَرَّرَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَسْتَجِيبُ لَهُ، وَالْفَجْرَ يَسْتَجِيبُ وَالْقَيْدَ يَتَهَرَّسُ بِقُوَّةِ إِرَادَةِ الْإِنْسَانِ.
- إِنِّي أَفْهَمُ الْآنَ.
- لَا حَظُّتُ أَنَّ الرِّفَاقَ يَتَّبِعُونَ بِاهْتِمَامٍ مَا يَقُولُهُ حميد. قُلْتُ لَهُ:
- إِنَّكَ مَحْظُوظٌ.
- قَالَ مُنْذِهِشَا:
- أَنَا مَحْظُوظٌ؟
- نَعَمْ، أَنْتَ مَحْظُوظٌ.
- لِمَاذَا؟
- لِأَنَّكَ تَعْرِفُ كَيْفَ تَقْرَأُ وَتَكْتُبُ.
- أَنْتَ أَيْضًا يُمَكِّنُ لَكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ إِذَا شِئْتَ.
- كَتَبَ شَيْئًا آخَرَ عَلَى الْحَائِطِ وَسَأَلَنِي، وَاضِعًا رَأْسَ قَلَمِ الرِّصَاصِ الْقَصِيرِ

عَلَى الْحَرْفِ الْأَوَّلِ:

- مَا هَذَا؟

- لَا أَدْرِي

- هَذَا أَلِفٌ.

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الْحَرْفِ الثَّانِي:

- وَهَذَا؟

- لَا أَدْرِي.

- هَذَا حَرْفُ الْبَاءِ، وَهَذَا؟

- التَّاءُ

سَأَلَنِي بِدَهْشَةٍ:

- كَيْفَ عَرَفْتُ؟

- لِأَنِّي سَمِعْتُ النَّاسَ دَائِمًا يَقُولُونَ: أَلِف، بَاء، تاء....

- عِنْدَكَ الْحَقُّ.

رَدَدْتُ مَعَهُ الْحُرُوفَ الثَّلَاثَةَ وَقَالَ:

- مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الثَّلَاثَةِ يُمَكِّنُ لَنَا أَنْ نَسْتَخْرِجَ بَعْضَ الْكَلِمَاتِ مِثْلَ:
أَب، بَاب، بات، إلخ...

جَلَسَ وَقَالَ

- ذَاتَ يَوْمٍ سَأَعْلِمُكَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ. عِنْدَكَ اسْتِعْدَادٌ لِكَيْ تَتَعَلَّمَ.

طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يُعِيدَ عَلَيَّ الْبَيْتَيْنِ لِلشَّاعِرِ التُّونِسِيِّ عِدَّةَ مَرَّاتٍ حَتَّى
حَفِظْتُهُمَا». 190 - 193

لَمْ يَهْتَمْ مُحَمَّدٌ شُكْرِي بِاللُّغَةِ فِي بُعْدِ إِنْشَائِي فَنِّي، أَوْ إِبْدَاعِي تَخْيِيلِي، وَإِنَّمَا اتَّخَذَهَا فِي «وُظُفَةِ فِكْرِيَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ تَصْدِيقِيَّةٍ تَتِمَّلُ فِي كَوْنِهَا أَدَاءً لِتَحْصِيلِ الْمَعْرِفَةِ وَبِرَهَانًا عَلَى تَصْدِيقِهَا، وَتَتَحَقَّقُ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ الْأَشْخَاصُ لِإثْبَاتِ شَيْءٍ أَوْ لِلتَّصْرِيحِ بِمَا يَقَرُّونَ»، وَهَذِهِ الْوُظُفَةُ مُسَخَّرَةٌ «لِعَقْلِ الْوُجُودِ» وَقَوْلُهُ وَاسْتِعْيَابُ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْكُونُ مِنْ وَقَائِعِ «(مِيلَاد، 2001: 483)، الْفِكْرُ بَيْنَ الْفَرَاغِ الْقَسْرِيِّ وَبَيْنَ الْإِمْتِلَاءِ الْإِخْتِيَارِيِّ لَا تَقْوَزُ الشَّخْصِيَّةَ بِأَسْبَابِهِ إِلَّا مَعَ أَوَاخِرِ الطُّورِ الْأَوَّلِ مِنْ سِيرَةِ أَقَامِهَا الْكَاتِبُ عَلَى عَقْدٍ مَعَ الْمَتَقَبَّلِ بُغْيَةِ التَّأْثِيرِ فِيهِ مِنْ خِلَالِ الْعِلَاقَاتِ السَّائِدَةِ بَيْنَ الشَّخْصِيَّةِ وَالْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهَا، وَهُوَ وَجُودُ

مادّي يُلغِي المعنويّ إلّا أملاً وطموحاً يجذّران القطيعة بين الشّخصيّة والأطُر الحاقّة بها: تنغمس فيها تجارب مادّيّة وتنفصل عنها مشاعر وأحاسيس نفسيّة تعكس وتبرّر في مواضع عديدة طبيعة اللّغة التي يستعملها الكاتب.

كثيراً ما تُعتمَدُ «كلمات وقحة مجافية للباقة، ولم تكن تلك الكلمات الحشنة تعني شيئاً، إلّا أنّها كانت تُشير إلى أشياء، إلى ماذا؟ إلى وضعيّة ثوريّة بكاملها، هذا إذن، مثال لكتابة لم تعد تقتصر وظيفتها على الإيصال أو التّعبير، بل ترفض «ما وراء» لغة هو في آن التّاريخ والواقع والمجتمع، (...) لغة مليئة بالأسرار مُقدّمة لنا كحلم وكتهديد في آن واحد» (بارت، 1992: 27-29)

تتخذ الشّخصيّة اللّغة للتّواصل في بُعد اجتماعيّ من خلال معاني النّص ومقاماته الحداثيّة، إلّا أنّ الشّخصيّة - إذ تنفصل عن الحدث - تتحوّل مع فعل الكتابة، من المظهر الذي هو الإبلاغ إلى الأغراض والمقاصد ضيقاً بالحياة ونفياً مجازياً لها، مقابل البُحث عن المعنى الذي يتجاوز «استخدام أحكام النّحو (...) لِنُظَم الأغراض بحسب تلك الأحكام» ويفضي «إلى ملامسة القصد للإرادة والاعتقاد، إذ أنّ كليهما يبقى معنّى كامناً في النّفس إذا لم يتحقّق بالكلام المؤلّف للمعاني المُنبئية بدورها على مفهوم العُقَد الوضعيّ الصّامت» (ميلاد، 2001: 570 - 571).

إنّ المعاني التي يريد الكاتب/ الشّخصيّة إنشائها ليست تلك التي تُقيدها أفعال القول أو الكلام، وإنّما هي معاني نفسيّة لا تتسجم مع المقامات الاجتماعيّة - وإن انغرست الشّخصيّة في تركيباتها المجتمعيّة - صنفها الكاتب - وإن بصفة لا إراديّة - وتتبع أنسجتها لكنّ ذلك لم يزد الشّخصيّة إلّا رفضاً لها وإنكاراً، وبحثاً عن المواضيع التي تساعده على طلب زمانٍ غير زمان الحدث ومجراه.

* نظام الجمل ونظام الأحداث

يتوازي النّظامان خطيّاً وزمنيّاً (من حيث القراءة)، ولكنّ التّوازي لا يعني التّوافق والانسجام دائماً، فقد يخضع أحد النّظامين أو كلاهما إلى تغيّرات ناتجة عن أسباب سوسيو - ثقافيّة تتجلّى في:

- الظروف الثقافيّة: ذلك أنّ الشّخصيّة تعيش حاضرها التّقافيّ لكنّ على وقّع ماضيها، وكلاهما قد يضع بعض ملامح المستقبل، النّقافة التي لم تكن شخصيّة ولا فرديّة ولا محلّيّة، وإنّما هي ثقافة عالميّة إمّا

لطبيعة مدينة طنجة - محور استقطاب حياة الكاتب وفكره - أو للقسر الذي كان المجتمع المغربي - والعربي - تحت وطأته يبدأ استعماراً وينتهي غزواً ثقافياً: «مِنْ خِلَالِ شَبَابِكَ السِّدَّةِ أَرَى السُّوقَ الْكَبِيرَ. إِنَّهُ يَوْمُ الْأَحَدِ. السَّاحَةُ عَامِرَةٌ بِالْبَاعَةِ الْجَوَالِينَ وَالْمُتَشَرِّدِينَ وَالْمُتَجَوِّلِينَ الَّذِينَ لَا يَشْتَرُونَ شَيْئًا. الرِّيحُ تَهْبُ وَالسَّمَاءُ غَائِمَةٌ الْمَطَاعِمُ وَالْمَقَاهِي وَالْمَتَاجِرُ الْمَغْرِبِيُّهُ مُقْفَلَةٌ. فَوْقَ أَبْوَابِ بَعْضِهَا رُفِعَتِ الرَّايَةُ الْمَغْرِبِيَّةُ وَالرَّايَةُ السُّودَاءُ. أَصْحَابُ بَعْضِ الْمَقَاهِي الشَّعْبِيَّةِ اسْتَعْلَوْا هَذَا الْيَوْمَ لِلْقَمَارِ. عِنْدَمَا سَأَلْتُ فِي هَذَا الصَّبَاحِ التَّشَاطُوعَ عَنْ هَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ الْوُطْنِيَّةِ قَالَ لِي بِصَوْتِهِ الَّذِي يَخْرُجُ نِصْفُهُ مِنْ فَمِهِ وَنِصْفُهُ مِنْ أَنْفِهِ:

- إِنَّهُ الْيَوْمُ الْمَشْهُومُ
- مَا مَعْنَى الْيَوْمِ الْمَشْهُومِ؟
- أَلَا تَعْرِفُ مَعْنَاهُ؟
- لَا.
- 30 مارس (آذار) 1912 هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي عَقَدَتْ فِيهِ الْحِمَايَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ مَعَ الْمَغْرِبِ فِي عَهْدِ مَوْلَايَ عَبْدِ الْحَفِيطِ. الْيَوْمُ 30 مارس 1912 تَمُرُّ أَرْبَعُونَ سَنَةً عَلَى حِمَايَةِ فَرَنْسَا لِلْمَغْرِبِ. لِهَذَا صَارَ يُعْتَبَرُ 30 مارس الْيَوْمَ الْمَشْهُومَ.
- وَالْيَوْمَ مَاذَا نُرِيدُ نَحْنُ الْمَغَارِبَةُ مِنَ الْفَرَنْسِيِّينَ؟
- نُرِيدُ مِنْهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا. الْيَوْمَ تَنْتَهِي عُقْدَةُ الْحِمَايَةِ.
- هَلْ نَطَالِبُ أَيْضًا أَنْ يَخْرُجَ الْإِسْبَانِيُّونَ؟
- نَظَرٌ إِلَيَّ نَافِذَ الصَّبْرِ قَائِلًا:

- اسْمَعْ، لَيْسَ عِنْدِي وَقْتُ الْآنَ لِلْكَلامِ الْكَثِيرِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ. اطْلُعْ إِلَى السِّدَّةِ وَاسْتَقْصِ هُنَاكَ بَعْضَ الرِّفَاقِ عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ.

118 - 117

يميل الكاتب إلى تفسير مظاهر الفساد الاجتماعي والاقتصادي بالعنصر السياسي؛ والكاتب لا يقدم صورة تاريخية ذات بُعد وثائقي بقدر ما يُعبر عن موقف تجاه الوضع السياسي في عصره.

■ ما قد يستوحيه الفرد والجماعات البعض عن البعض الآخر: ذلك أن

المعجم الذي يستعمله الكاتب/ الشخصية ليس واحدا وإنما هو مزيج من لهجات ولغات بما لا يعكس الخصوصية بقدر ما يكرّس تطوّر المعاني المخصوصة حسب الجماعات الاجتماعية التي تستعملها؛ وما اللغة إلا جزء من التجربة السلوكية المتعلقة بالفرد مقارنة بتجارب أخرى، وفي مسارات معرفية هي غاية الفرد/ الشخصية السير ذاتية، وهي مبحث متلقّي النصّ في سعيه إلى الرّبط بين المقول، والمسكوت عنه، وبين الصّريح من اللفظ والضمّن منه. إنّه البحث في علاقة اللغة بالواقع بالتناظر، أو بالتناقض مع الجانب الموضوعي المقرّن بالعالم، ومدى استقلالية الفرد عنه في معرفته وتصوّراته واعتقاداته.

إنّ لغة الشخصية تنمّ عن نشأتها في بيئة تتوافر فيها أنماط لغوية مخصوصة لا تعكس الثقافة بقدر ما تعكس التجربة الاجتماعية، وهي اللغة التي ستأخذ مساراً جديداً وتُصقل من خلال تجارب الفكر والمعرفة في الدّهن.

■ اختلاف الطبقات الاجتماعية وتعدّد التجارب الجماعية: فعندما نربط التّغييرات الدّلالية بتتوّعات التجربة الجماعية، يدعم هذا وجود أسباب تلازم بين الاجتماعيّ والثّقافيّ في علاقتهما بالتّاريخيّ: «عثر لي زَوْجٌ خالتي على عملٍ في مزرعة الفرنسيّة التي يَعملُ في اصطبلها (...) استقبلتني زوجة مُراقِبِ المزرعة (...) كَلَمْتَنِي بِالْإِسْبَانِيَّةِ (...) كُنْتُ أَرَى أحياناً، مسيو سيجوندي الإيطاليّ...» 54 - 57؛ يقول الجاحظ في البيان والتبيين: «وكلام النّاس في طبقات كما أنّ النّاس أنفسهم في طبقات» (الجاحظ، البيان والتبيين، ا: 144)، ويعني هذا أنّ الخطاب الإنسانيّ طبقات، وطبقية مترتبة على طبقية المجتمع، فالمخاطبون هم من النّاحية الاجتماعية طبقات، ولكلّ طبقة لغتها التي تُحدّد هويّتها السّوسيو لغوية. (المودن، ا، 2010: 243) فما اللغة إلاّ فعل اجتماعيّ يتجدّد في علاقته بالتّجربة - وإنّ حافظ على أسس الأنظمة والأنساق الدّاخلية التي تكونه.

* بنية اللغة وبنية المجتمع

اللغة تحتوي المجتمع فتعبّر عن همومه وعلى ما يحيل عليه من شواغل ومشاكل؛ وقد يتجلّى المجتمع في بنيته في كثافة أو تجاوز، أو بتغليب جانب على آخر، من ذلك أنّ محمّد شكري لم يكن ليلتزم بتلك «النزعة الخطابية

والوعظية الأخلاقية التي لونت خطاب النماذج البدئية الأولى في جنس الرواية» (بن جمعة، 1999: 39)، وهذا مرتبط بالتقافة بين الحضور والغياب، وبطبيعة الانتماء الاجتماعي الذي يُعتبر من العناصر الموجهة لعلاقة اللغة والكلام بمقام النشأة. فليست الأنساق اللغوية هاجسا في حد ذاتها، وإنما هي مسارات لبلوغ العمق من النص/ المجتمع الذي نحت ملامح الشخصية فكانت الوحدة الأصلية الرئيسية في الموضوع، وفي الأفعال وفي صياغة النص بمختلف أشكاله، فإذا الشخصية هي التصور الذي أنتج النص في كليته وتركيبه وتعقيده؛ وإذا لغة الخطاب هي الخلفية لإبراز المعرفي الذي يُنتج أفعال الشخصية/ المجتمع؛ «وعندما يكف التمثيل⁵⁰ عن احتواء المُمثل⁵¹، وعندما يُحيل المُمثل⁵² على شيء ما، ضمني، غير ظاهر ولكنه يوصل على ما يظهر، فإن هذه المراجع الجديدة - الحياة، والعمل، واللغة، والتاريخ - هي وفي نفس الوقت كاشياء، ظروف إمكان لكل ما يبدو - من كل ظاهرة - في ترتيبها. هي أشياء تجاوز.» (Wahl، 1968: 90): «دَخَلْتُ السُّوقَ. امْرَأَةٌ أَجْنَبِيَّةٌ تَدْفَعُ ثَمَنَ مُشْتَرِيَاتِهَا، ثُمَّ تُعِيدُ مَحْفَظَةً نُقُودَهَا الصَّغِيرَةَ الْمُحْشَوَّةَ بِالْأَوْزَاقِ الْمَالِيَّةِ إِلَى حَقِيْبَتِهَا. انْتَبَهْتُ إِلَى نَظَرَتِي نَحْوَ حَقِيْبَةِ يَدِهَا. شَدَّتْهَا بِحُرْصٍ. قَالَتْ لِي نَظَرْتُهَا اللَّطِيفَةَ: أَلَا تَحْشُمُ؟ خَجَلْتُ وَخَرَجْتُ مِنَ السُّوقِ. إِنَّهُ يُوَسُّ الْعَالَمَ يَا سَيِّدَةَ الْعَالَمِ. إِنَّ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ هُمْ أَيْضًا لَا يَحْشُمُونَ. إِنَّهُمْ يَشْتَرُونَنَا بِأَبْخَسِ الْأَثْمَانِ. رَبِّمَا أَنْتَ لَا تَحْتَاجِينَ أَنْ تَبِيعِي نَفْسَكَ» 109 وهذا التَّجاوز هو الوجه الآخر الذي يُيَّمُّ العناصر الثلاثة المكوِّنة للنص - على اعتبار أن اللغة هي عنصر استقطاب الوجهين بما تنفتح عليه من مجموع التمثيلات المتعلقة بالإنسان والمكان خاصة -

- التنظيم اللساني - الخطابي

يقوم الكتاب على ثلاثة عشر فصلا توزعت حسب تغير المكان كما عدد كبير من الشخصيات، المكان هو المدينة غالبا بين طنجة وتطوان وكتامة والدوالي وسيدي بلعباس ووهران ووجدة والتَّانُظُور ومليبية والدَّار البيضاء والعرائش، وبين الفصول وفي مفاصلها، تنتشر الأسواق (السوق

50 عبَّرَ الأنساق اللغوية بروابطها وتراكيبها وإحالاتها.

51 الأفكار والمواضيع.

52 الكاتب أو الشخصية وهي تتحدَّث عن نفسها جهرا من خلال كل من وما يحيط بها، أو بوحًا استدعاءً للمتلقِّي ورغبة في تشريكه في الحدث والحديث تقبلاً وتفكيراً، وربما إعادة إنتاج له.

البرّاني [أو السّوق الكبير، أو السّوق الخارجيّ] - السّوق الدّاخليّ - السّوق الجديد)، والسّاحات (ساحة أمراح - ساحة بيرث جالدوس - ساحة الفدان - ساحة السّقاية - ساحة القصبة - ساحة السّوق الدّاخليّ)، والأبواب (باب الفحص - باب متجر هندي - باب السّوق) والأحياء (عين قطيوط - بني شرقي - عين خباز - الطرانكات - الطّحطاحة - الدّوار الجديد - سيريمين - حيّ المدينة الجديدة): تختلف في الأسماء وتتفق في الملامح (فقر وبؤس وشقاء) وفي عذابات نفس الشّخصيّة تتخفّف إذ ترى آثارها في بقايا ما تهشم من الشّخصيات الّتي تعيش نفس مأساتها - وإنّ من زوايا نظر مختلفة في الأسباب والخلفيات :- «كُنَّا نَسْكُنُ هُنَا فِي طَنْجَة ثُمَّ انْتَقَلْنَا إِلَى تَظْوَانِ».

- هَرَبْتُ؟
- نَعَمْ
- حَتَّى أَنَا هَرَبْتُ.
- مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟
- مِنْ «جبل حبيبي»
- فَكَّرْتُ: هُوَ جَبَلِيّ إِذَنْ.
- لِمَآذَا هَرَبْتُ؟
- يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ فِي جُيُوبِهِ.
- طَرَدَنِي زَوْجُهُ أَبِي.
- وَأُمُّكَ؟
- مَاتَتْ (...)
- وَلِمَآذَا هَرَبْتُ؟
- كَانَ أَبِي يَضْرِبُنِي كَثِيرًا. أَحْيَانًا كَانَ يُعَلِّقُنِي مِنْ رِجْلِي إِلَى فَرْعِ شَجَرَةٍ وَيَضْرِبُنِي بِحِرَامِهِ الْعَسْكَرِيِّ. كُنَّا نَسْكُنُ فِي عَيْنِ خَبَازٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ.
- أَنَا أَيْضًا كَانَ أَبِي يَضْرِبُنِي عِنْدَمَا تَشْكُونِي إِلَيْهِ زَوْجَتُهُ» 98 -

.100

إنّ الوحدة في الدّلالة العامّة لا تعني التّوحد في المعاني الجزئية المتبدّلة إمّا بالقياس إلى الشّخصيات أو إلى الأحداث الفاعلة فيها أو إلى نفسيّة

الشخصية المحورية - وهذا هو الغالب الأعم، رغم بعض الاستثناءات التي تجعل البطل يخرج من المزاجية والانطباعية إلى التفكير ومحاولة فهم الحياة والوجود عامة، بمنظار مخالف لما فرضته طبيعة المجتمع الذي يضطر في أغلب الأحيان إلى العيش فيه وربما إلى معاشته.

رغم غلبة الحديث عن الذات باعتبارها المحور المتحكم في مختلف مكونات النص والخطاب، فإن هناك محورين كبيرين لم يفتأ يغيران مجريات الأحداث كما ملامح الشخصية في مختلف أطوار الحكاية، أما أولهما فما كانت تشهده المغرب من تجاذبات سياسية وصراعات واستعمار وجهت إلى حدّ، أنماط حياة شعوب متعدّدة وتحكّمت في مصائرهما وأمزجة أفرادها، بل تجاوز ذلك إلى أنّ القضايا المحليّة والدوليّة تعكس ما كانت تعيشه شعوب العالم من توترٍ وعدم استقرارٍ:

«- لَكِنْ مَاذَا فَعَلْتَ لَهُمْ؟

- لَا شَيْءَ. إِنَّ رَامِي هُوَ سَبَبُ كُلِّ مَا حَدَثَ.

- مَاذَا فَعَلَ؟

- إِنَّهُ يُخَفِّضُ دَائِمًا أَثْمَانَ السَّاعَاتِ. (...)

- أ لَمْ تَتَحَدَّثْ مَعَهُمْ عَنِ الْحَرْبِ فِي الْمَغْرِبِ وَالْجَزَائِرِ؟

- أَبَدًا. قُلْتُ لَكَ إِنَّ رَامِي هُوَ السَّبَبُ.

- وَمَعَ الْيَهُودِ !

- قُلْتُ لَكَ لَمْ أَتَكَلَّمْ عَنِ السِّيَاسَةِ مَعَ النَّصَارَى أَوْ مَعَ الْيَهُودِ. هَلْ تُرِيدُنِي أَنْ أَقُولَ لِلْفَرَنْسِيِّينَ وَالسِّبْنِيغَالِيِّينَ أَلَّا يَذْهَبُوا إِلَى الْجَزَائِرِ، وَلِلْيَهُودِ أَلَّا يَهَاجِرُوا إِلَى فَلَسْطِينَ؟

النَّيَّازُ يَجْرِفُنَا وَالرَّيْحُ تَقْوَى. « 207

وأما ثاني المحورين فيعتبر هو المنطلق والمنتهي في بناء الكتاب؛ إنّه سياج أساسه الموت يتصل «بالذاكرة اللاإرادية التي تُلغِي المسافة الزمنية الفاصلة بين زمن الذكري وحاضر استرجاعها، وتختزلها في لحظة حسية قوامها استعادة لاشعورية لذكرى ماضية تطفو فجأة على سطح الوعي، بصورة غالبا ما تكون غير منتظرة»؛ (الطريطر، ا، 2009: 474) ذكرى لا تحقّق الانتشاء - بأي نوع من الأنواع - وإنما تصعد المعاناة في نفسية الشخصية كما في وتيرة الأحداث والسياق:

«سَأَلَنِي الشَّيْخُ:

- أَ كُنْتُ تُحِبُّ أَخَاكَ؟
- كَثِيرًا. (مَازِلْتُ مُنْتَحِبًا). أُمِّي كَانَتْ تُحِبُّهُ كَثِيرًا. تُحِبُّهُ أَكْثَرَ مِمَّا تُحِبُّنِي.
- مَنْ لَا يُحِبُّ وَلَدَهُ؟

تَذَكَّرْتُ كَيْفَ لَوَى أَبِي عُثْقَ أَخِي. كِدْتُ أَصْرُخُ: أَبِي لَمْ يَكُنْ يُحِبُّهُ. هُوَ الَّذِي قَتَلَهُ. نَعَمْ قَتَلَهُ. نَعَمْ. قَتَلَهُ. قَتَلَهُ. رَأَيْتُهُ يَقْتُلُهُ. هُوَ هُوَ قَتَلَهُ. قَتَلَهُ. رَأَيْتُهُ يَقْتُلُهُ. لَوَى عُثْقَهُ. تَدْفَقُ الدَّمُ مِنْ فَمِهِ. رَأَيْتُهُ رَأَيْتُهُ يَقْتُلُهُ. أَبِي قَتَلَهُ قَاتَلَهُ اللَّهُ.

لَكِنِّي أَخَفِيفٌ مِنْ كَرَاهِيَّتِي الشَّدِيدَةِ لِأَبِي، أَخَذْتُ أَبْكِي مِنْ جَدِيدٍ. كُنْتُ خَائِفًا مِنْ أَنْ يَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلَ أَخِي. نَهَرَنِي بِصَوْتٍ مُخَفِضٍ وَعِيدٍ:

- أَلَنْ تَكْفَ عَنِ النُّكَاءِ؟» 14

«أَخَذَ يَقْرَأُ. أَتْنَاءَ قِرَاءَتِهِ، كُنْتُ أَثْنُرُ الزُّهُورَ وَالرَّيْحَانَ عَلَى بَعْضِ الْقُبُورِ وَعَلَى الْأَرْضِ (...) كَانَ مَدْفُونًا هُنَاكَ. رُبَّمَا تَحْتَ قَدَمَيَّ أَوْ تَحْتَ قَدَمَيَّ عَبْدِ الْمَالِكِ أَوْ فِي مَكَانٍ مَا. فَجَاءَ فَكَرْتُ. لَكِنْ لِمَ أَذًا هَذِهِ الْقِرَاءَةُ عَلَى قَبْرِ أَخِي الْمَجْهُولِ؟ إِنَّهُ لَمْ يُذَيَّبْ. لَمْ يَعِشْ سِوَى مَرَضِهِ ثُمَّ قَتَلَهُ أَبِي. تَذَكَّرْتُ قَوْلَ الشَّيْخِ الَّذِي دَفَنَهُ: «أَخُوكَ الْآنَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ».

أَخِي صَارَ مَلَكًَا. وَأَنَا؟ سَأَكُونُ شَيْطَانًا، هَذَا لَا رَيْبَ فِيهِ. الصِّغَارُ إِذَا مَاثُوا يَصِيرُونَ مَلَائِكَةً وَالْكِبَارُ شَيَاطِينًا.

لَقَدْ فَاتَنِي أَنْ أَكُونَ مَلَكًَا.» 228

بين البداية والنهاية «تحليل النهاية» بطريقة لا يلتزم فيها الكاتب/ الشخصية باستعادة حوادث الحياة بقدر المضي في تحليلها وتأويلها. إنها رغبة ضمنية في «إعادة تركيب مسار الحياة وفق خطة تفسيرية، تنتظم فيها الوقائع السيرداتية وفق مقولة الترابط السببية التي تُوجدُ لُحمة عضوية بين النتائج الحادثة في الحياة والأسباب الدافعة إلى حدوثها، وهو ما يدفعنا إلى اعتبار الحكاية السيرداتية من خلال هذا المفهوم، ارتقاءً من استعراض شريط الأحداث الخاصة، إلى فهم الحياة الشخصية وتأويلها في زمن القص، بُغية الكشف عن مغزاها الكلي الخفي، وهو ما تضطلع به بنية السرد، بوصفها إعادة تشكيل⁵³

لوقائع الحياة المروية»؛ (الطريطر، ١، 2009: 491 - 492) ووظيفة اللغة - في هذا السياق - أن تساعد على تحقيق الانتظام بين الدال والمدلول ليس كما توافقا في اللغة والمعجم، ولكن في عوالم الإمكان التي قد تُصرَح بها الشخصية - اندراجا في عالم المُتخَيِّل - وقد تسلَّت عنها جزءا من عالم الإمكان.

«الخبز الحافي»: سيرة ذاتية استمدت مقوماتها من الرواية؛ وهي رواية استمدت مقوماتها من السيرة الذاتية، فالعلاقة بين الجنس والجنس ليست قائمة على تفوق حضور أحدهما على الآخر، وإنما هما يسيران في توازٍ وتجانس وتكامل. والميثاق الاجتماعيّ يحلّ محلّ الميثاق السردّيّ يتمحور حول الذات دون الجنس الأدبيّ.

في الكتاب، كثيرا ما يكون «استبدال السياق الموضوعي للسرد والوصف، بتدخلات تعبيرية تُحلّ خطاب «الروائي» محلّ خطاب الرواية». (عبيد، 1988: 214) وفي السياقين المقاميّ اللغويّ النصّي، والاجتماعيّ المرجعيّ، يساعد الوصف غالبا على تصنيف الشخصيات: اجتماعيًا، ونفسيًا، وخاصة سرديًا من حيث مقاماتها ووظائفها (محورية، رئيسية، ثانوية، مساعدة، معرقة...). وفي الوصف، يقترن الواقعيّ بالمُتخَيِّل، بل إنّ ثانيهما يحيط بأولهما حتى يكاد يغيبه جزءًا من تجارب الشخصية في الحياة والفكر والنفس؛ وهو الأمر ذاته مراوحة بين وصف عوالم الذات الباطنة بالأمها وآمالها وصراعاتها، وبين وصف العالم الخارجيّ ينعكس انطباعات وردود أفعال أسبابها التّجاوز واللامبالاة: «وَضَعْتُ أُمِّي صَبِيًّا. أُخْتِي إِرْحِيْمُو صَارَتْ قَادِرَةً عَلَى أَنْ تَحْرُسَ أَخَاهَا عَاشُورَ. ذَاتَ مَسَاءٍ، شَرِبْتُ اللَّبِيدَ وَتَحَسَّشْتُ فِي الْمَقْهَى. جَلَسْتُ خَارِجَ الْقَهْوَةِ أَسْتَهْوِي، أَتَأَمَّلُ نُجُومَ السَّمَاءِ وَنُجُومِي حِينَ أَغْمَضُ عَيْنَيَّ. نَهَرَنِي مَخْدُومِي:

▪ قُمْ وَأَعْطِ لِدَلِكِ السَّيِّدِ كُوبَ مَاءٍ.

حَالِمًا نَظَرْتُ إِلَيْهِ. الْمَلْعُونُ. أَطْفَأَ نُجُومِي.

▪ وَأَنْتِ؟ مَاذَا تَفْعَلُ أَنْتِ هُنَا؟ أَعْطِهِ بِنَفْسِكَ.

صَفَعَنِي مَخْدُومِي وَهَرَبْتُ. تِلْكَ كَانَتْ آخِرَ لَيْلَةٍ لِي فِي الْمَقْهَى.

سَرْتُ فِي الظَّلَامِ وَطُيُورُ اللَّيْلِ فِي رَأْسِي، لَمْ أَخَفْ مِنَ الْأَشْبَاحِ: لَا مِنَ الْإِنْسِ وَلَا مِنَ الْجِنِّ» 38.

هي ثنائية الوعي واللاوعي في إنشاء الخطاب، وجهين لذات الشخصية بين

عالم خارجي يُعلن الكاتب القطيعة معه، وآخر داخلي هو الذي يُمثل نسيج النصّ وعالم الشخصية «الأبدى» بالتّمني بما أنّه يصطدم بسابقه يتلاشى وتتضاعف المحنة ارتداداً إلى الواقع. ومن هنا، تلتقي اللغة - بأنسجتها المُغلقة - مع قيود عالم الحسّ فتنبّط إمكانية تحقيق الشخصية المصالحة مع الآخر، أو حتّى مع الذات؛ وهو ما يعكس التعارض بين الوعي واللاوعي باعتباره «الحقيقة المستحيلة»: إنّها التّجربة وقد نُقلت وفق القوانين الموضوعية، لغةً وحياءً، ولكنّها تبحث عن أصولها خارج حدودها؛ أو هي الشخصية تفكّر في الطّريقة التي بها تكون.

2.2.1.2. بنية الخطاب السّردية: مكوّناتها وانتشارها

- تقنيات القصّ (الحكاية)

* الزّمن

يقترن المحكي - باعتباره شكلاً يشمل في آن الرواية والتّاريخ - بزمن الخطاب كما بزمان الخبر، فالأول هو جزء من تداخل الأزمنة المعيشة موازاةً بين تجارب الذات المُفردة وبين حركة المجتمع عامّة، قد ترتبط ارتباطاً سببياً، وقد تنفلت من قيود الزّمنية، فلا يطفو على سطح الخطاب إلّا الطّريقة التي صيغت بها الأحداث - وإن كان ظاهر النصّ يوهم بحكي حوادث ظرفيّة مقصودة لذاتها - والواقع أنّ الزّمن في «الخبز الحافي» إنّ هو إلّا «انفجار الواقع يُعيد السارد إلى فعل نحيل وخالص، بدون كثافة ولا حجم ولا انتشار؛ ووظيفته الوحيدة هي أن يربط، بأسرع ما يمكن، سبباً بغاية» (بارت، 1982: 49). أمّا السبب فهو البحث عن الذات، وأمّا الغاية فالتحرّر من زمان الأحداث والوقائع والحوادث للاندرج في زمن التّلقّي؛ وإذا كان الزّمان الأوّل هو زمان العبث والغموض، فإنّ الزّمن الثّاني - رغم استنرافيّة - يبدو أقرب وأوضح بالنّسبة إلى الشخصية، وكأنّ ملامحها منسجمة مع لحظات اكتشاف الممكن ومعه الذات الفاعلة، وليست أسيرة التّغيب والتّغريب والتّهميش؛ وبذلك، يكون الماضي هو حكاية الواقع، أمّا المستقبل فهو موقف منه وإعادة صياغة له.

لم يرد الكاتب الزّمن ماضياً ينبثق من التّدكّر، ولكن رؤية فكريّة ذهنيّة حُفرت في الذاكرة حتّى تماهت مع الرؤية العينيّة يفقد الماضي فيها أصل صيغته ليدلّ على مفهوم واحد هو مفهوم الأمل والمعاناة والألم يتجلّى في أبعاد عديدة هي: الفرديّ والجماعيّ، الماضي والآتي، المحليّ والعالميّ، الاجتماعيّ وخلفيّةته المحكومة بالسياسيّ: «أبكي موتَ خالي والأطفال من

حَوْلِي. يَبْكِي بَعْضُهُمْ مَعِي. لَمْ أَعُدْ أَبْكِي فَقَطْ عِنْدَمَا يَضْرِبُنِي أَحَدٌ أَوْ حِينَ أَفْقِدُ شَيْئًا. أَرَى النَّاسَ أَيْضًا يَبْكُونَ. الْمَجَاعَةُ فِي الرَّيْفِ. الْقَحْطُ وَالْحَرْبُ.»

9

إِنَّ لِلزَّمان دورًا في ضمان انسجام النَّصِّ وتماسك نسيجه، ذلك أَنَّ الحوادث هي جزءٌ من ماضٍ نقطة البداية فيه بالنسبة إلى الصَّبِيِّ (صدى من أصداء الكاتب) هي نقطة نهاية أو موت الخال، لكنَّ دائرته تتوسَّع في مستويات عديدة هي:

- التَّمَطُّط، فإذا الحدث يتردَّد تكرارًا مقيتا في الصَّورة وفي الصَّدى: «هُوَ الَّذِي قَتَلَهُ. نَعَمْ. قَتَلَهُ. رَأَيْتُهُ يَقْتُلُهُ. قَتَلَهُ. قَتَلَهُ. رَأَيْتُهُ يَقْتُلُهُ. أَبِي قَتَلَهُ.» 14؛ يريد الكاتب أَنْ يجعلها جزءًا ممَّا ترسَّخ في الذاكرة قسرًا، وكان مولدًا للإنشاء كتابيةً وتدوينًا ومحاصرةً للحدث، ولكنَّ الصَّبِيَّ يراها صورةً ثابتة لا تَمُحِي؛

- الاستمرارية في الحدث، ليس فقط على أساس القَصِّ التَّكرَّري، ولكن صيغ أفعالٍ مضارعة يكون معها الحاضر جزءًا من ماضٍ، أو لا انفصال: «يَشْتَرِي كَيْسًا مِنَ الْخُبْزِ الْأَبْيَضِ وَالتَّبَغِ الرَّخِيسِ. يَذْهَبُ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنْ طَنْجَةِ لِيَقَايِضَ الْجُنُودَ الْإِسْبَانِيِّينَ فِي ثُكُنَاتِهِمْ. يَعُودُ مَسَاءً حَامِلًا مَلَابِسَ الْجُنُودِ. يَبِيعُهَا فِي السُّوقِ الْكَبِيرِ لِلْعَمَالِ وَالْفُقَرَاءِ الْمَغَارِبَةِ»؛ 14

- الجدل بين الزَّمان الموضوعي وبين الزَّمان الذَّاتي، أمَّا أولهما فهو الغالب على النَّصِّ بأكمله يُوازي سير الأحداث ونماء الشَّخصية سِنًا وتجربةً؛ وأمَّا ثانيهما فيأتي لَمَعًا وشذرات تقطع الزَّمان الأول، وتتجلى في الخيال أو في أحلام اليقظة: «بَدَأْتُ أَحْلُمُ كَثِيرًا» 65، «وَأَفْضَلُ أَنَا النُّبَاءَ نَائِمًا أَوْ حَالِمًا فِي يَقْظَةٍ بِذِكْرِيَّاتِي فِي طَنْجَةٍ وَتَطْوَان وَوَهْرَان. فِي اللَّيْلِ، يَصِيرُ لِلْحَيَاةِ طَعْمُ الْخُلُودِ» 79، «حُلُمٌ يَنْتَهِي فِي تَطْوَان، وَحُلُمٌ يَبْدَأُ فِي طَنْجَةٍ. كُنْتُ مَارِلْتُ فِي تَطْوَان وَأَنَا أَضِيعُ فِي شَوَارِعِ طَنْجَةٍ» 96، «صَيَّادٌ يَأْكُلُ فُطِيرَةً مَحْشُوءَةً. أَكَلَهَا مَعَهُ فِي خَيَالِي» 101، «يَوْمٌ جَدِيدٌ مَعَ قَلِيلٍ مِنَ الْيَأْسِ وَكَثِيرٍ مِنَ الْأَحْلَامِ» 109. وفي أحيان كثيرة، يتداخل الزَّمانان الموضوعي والذَّاتي ويفقد كلاهما دلالته، إذ تتعدَّد التَّجارب ولكنها لا تختلف إلا زمانًا ومكانًا وربما أطرًا حافَّةً وعوامل مساعدة أو معرقة، ولكنها جميعًا تقول إلى نفس المرجع، فلا تدلُّ على نماء الوعي لدى الشَّخصية/ «البطل»

بقدر ما تتصل بتعطيل العقل وحركة الوعي توهمًا بإيجاد الذات أو بالتعرّف إليها، تجارب تُفضي إلى نتيجة واحدة وهي تضاعف الإحساس بالمرارة والقهر يروم «البطل» التخلّص منه بإفناء الزّمان مفهوميًا وقرائن بالاندراج في عالم اللاوعي، وهي الثنائيّة التي تتجلى في مختلف فصول السّيرة رواية لوجه واحد من الحياة لكن، من زوايا نظر متعدّدة ومن جوانب متقاربة، متباعدة، متناظرة، فيعبّر عن الزّمن بالليل، والليّلة، والنّهار واليوم، والأيام والأسبوع، وبالصّباح والمساء؛ ولا تخرج القرينة عن إطارها المعجمي أو من دلالتها الأولى إلا مجازًا إلى الخيال والحلم والذكرى؛ وكلّ مستوى - وإن كان يُدخلُ توازنًا وإن ظرفيًا عَرَضِيًّا، أو وهمًا وزيفًا على نفسيّة «البطل» - فإنّه يُربك الخطاب وبناءه على مستوى الزّمن تشابكا وتقاطعا، يصبحان جزءا من التّتابع والخطيّة.

وقد يذكر الراوي/ الشّخصيّة بعض العلامات التي توصل الحدث ضمن السّيرة الذاتيّة جنسًا أدبيًّا، بالحديث عن الأنا في طور ما يرتبط بما يستدعيه من حوادث الماضي: «تَأَلَّمَتِ الْمَرْأَةُ لِمَوْتِ أَخِي عَبْدِ الْقَادِرِ الَّذِي تَعَرَّفُهُ فِي الرَّيْفِ (...) قَالَتْ إِنَّهَا تَرَكَتْنِي فِي الْخَامِسَةِ أَوِ السَّادِسَةِ مِنْ عُمْرِي فِي الرَّيْفِ.

- هَاهِي الْآنَ قَدْ مَضَتْ حَوَالِي ثَمَانِي أَوْ تِسْعَ سَنَوَاتٍ. 54

« إِنَّهَا مُعَامَرَةٌ تَجْعَلُنِي أَشْعُرُ بِرُجُؤَتِي وَأَنَا فِي السَّادِسَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِي. إِنْ مَرَحَلَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ حَيَاتِي تَبْدَأُ فِي هَذَا الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ » 156.

وعلى مستوى تجربة الذات، يقترن الزّمن بالحدث ويستمدّ تعريفه وتخصيصه منه، ذلك أنّ نظرة الشّخصيّة ورؤية الراوي إنّما تنصبّان على ما يتركه الحدث، والأثر الذي يصوغه الكاتب هو الذي يعكس انصهار التّرادف على مستوى الصّورة - دون الوظيفة - عند «البطل»/ الشّخصيّة/ السارد/ الراوي/ الكاتب؛ ذلك أنّ الحوادث/ التّجارب هي التي نحتت ملامح الذات: وجدانًا ونفسيّة وفكرًا.

إنّ من أثقل الهموم التي كانت الشّخصيّة تعيش تحت وطأتها الزّمان ومن قرائنه ما يُحيل على الموضوعيّ التاريخي/ «30 مارس (أذار) 1912 هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي عَقِدْتُ فِيهِ الْحِمَايَةَ الْفَرَنْسِيَّةَ مَعَ الْمَغْرِبِ فِي عَهْدِ مُؤَلَّيْ عَبْدِ الْحَفِيطِ. الْيَوْمَ 30 مَارِسَ 1952 تَمُرُّ أَرْبَعُونَ سَنَةً عَلَى حِمَايَةِ فَرَنْسَا لِمَغْرِبِ. لِهَذَا صَارَ يُعْتَبَرُ 30 مَارِسَ الْيَوْمَ الْمَشْهُومَ» 118؛ «تَوَوَّلَ الرّواية

التَّارِيخَ وترفضه، وتعطي التَّأْوِيلَ الرَّافِضَ صياغاتٍ متعدّدة. وبالنَّسبة إلى الكاتب، التَّارِيخُ هو الشَّرُّ المتجدّد في سلطة شريرة متجدّدة» (دراج، 2004: 367). «والنَّصُّ بِرُمَّتِهِ عبارة عن رؤية شاملة لتصوّر (...) كيفية تجاوز التَّأخَّرِ التَّارِيخِيِّ الشَّامِلِ الَّذِي يُشكِّلُ سمة بارزة في بلده المغرب»، وهو ما تجلّى في الكتاب، في «عملية تصادم بين مجموعة إيديولوجيات، تمثل مجموعة توجّهات وقيم ثقافية» (عبّاس، 2002: 64) قليلها أو النادر منها مقبول وأغلبها مرفوض خاصّة إذا ما تعلّق الأمر بالشَّخصيّة ثنائية ماضٍ وحاضر ولا معنى: «دَكرَني مُنْظَرُهُمَا بِالْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي قَضَيْتُهَا فِي مَنْزِلِ السَّيِّدَةِ عَزِيزَةٍ فِي تَطْوَان. فَكَرْتُ: فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ كَانَ عِنْدِي أَلْفٌ بَسِيطَةٍ. الْيَوْمَ جُيُوبِي مَتَّقُوبَةٌ وَبِلَا عَمَلٍ قَارٌّ» 130؛ ومنها ما يعكس تطلّعاً للمستقبل ولا أفاق: «دَكرَني وَضْعِي فِي الْكُوخِ بِذَلِكَ الصَّبَاحِ الَّذِي حَبَسَنِي فِيهِ صَاحِبُ الْغُرْسَةِ الَّذِي كُنْتُ أَكُلُ لَهُ إِجَاصَهُ فِي حَيِّ عَيْنٍ قَطِيطٍ، لَكِنَّ الْوَضْعَ يَخْتَلِفُ. أَسْتَطِيعُ أَنْ أَبْقَى هُنَا أَوْ لَا أَبْقَى. نَهَضْتُ. وَقَفْتُ عَلَى الْمَطْرَبَةِ وَأُظْلَلْتُ مِنْ الْكُوَّةِ الْمَفْتُوحَةِ عَلَى الْبَحْرِ. السَّمَاءُ غَائِمَةٌ. الْبَحْرُ هَائِجٌ. بَعْضُ الْبُؤَاخِرِ تَغْبُرُ الْبَحْرَ» 143؛ وربما كانت القرائن الزمنية جزءاً من نفسيّة الشَّخصيّة في تردّدها بين التَّشَاوُمِ والتَّعَاوُلِ، لا ينبعثان من الذات بقدر ما تتحكّم فيهما عوامل خارجيّة تجارب تبدأ بالحياة وتمرّ بالوجدان والنَّفْسِيَّةِ لتنتهي إلى العقل والفكر والتفكير فيما حَدَثَ أو يحدث وجوباً وإمكاناً: «إِنَّهَا مُغَامَرَةٌ تَجْعَلُنِي أَشْعُرُ بِرُجُولَتِي وَأَنَا فِي السَّابِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِي. إِنَّ مَرَحَلَةَ جَدِيدَةٍ مِنْ حَيَاتِي تَبْدَأُ فِي هَذَا الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ» 156 : تَقَرَّرَ الشَّخصيّة من الذي مضى وتسعى جاهدةً إلى طيّه، وتضيق بحاضرها فتجد في عالم اللاوعي وأسبابه أداة سهلة للإفلات منه، أمّا المستقبل فهو الهول الذي لا تُقدّر الشَّخصيّة عليه إلّا مع تجربتين أخرجتاها من عالم التَّشَابَهِ والابتذال والرَّذِيلَةِ الَّذِي لَمْ تَكُنِ الشَّخصيّة لترى فيه إلّا نظائر لها، ليكون الاندراج في عالم آخر مفارق يهزّ الشَّخصيّة ويكشف لها وضاعتها وهامشيّتها: أمّا التَّجربة الأولى فمع حميد، تقول الشَّخصيّة: «جَلَسْتُ مَعَهُمَا. أَرَيْتُ لِعَبْدِ الْمَالِكِ الْكِتَابَ الَّذِي اشْتَرَيْتُهُ وَقُلْتُ لَهُ:

- لَابَدَّ لِي مِنْ أَنْ أَتَعَلَّمَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ. أَخُوكَ حَمِيدٌ كَانَ قَدْ عَلَّمَنِي فِي مَخْفَرِ الشُّرْطَةِ الْجَنَائِيَّةِ بَعْضَ الْحُرُوفِ وَقَالَ لِي بِأَنْ عِنْدِي اسْتِغْدَادًا لِلتَّعَلُّمِ» 225

وأما الثانية فمع عبد المالك الذي كان «حين يَطْلُبُ مِنْهُ أَحَدُهُمْ شَرْحًا أَكْثَرَ وَضُوحًا لِأَحَدِي الْأَفْكَارِ يَجِدُ الْفُرْصَةَ لِيَتَّعَالَى عَلَيْنَا، نَحْنُ الْأُمِّيِّينَ، الْجُهَلَاءُ، فَيَزِدُّهُ شَرْحُهُ غُمُوضًا» 215

إن علاقة الشخصية بعبد المالك هي جدلٌ بين الصداقة والعداوة المُفْتَعَلَتَيْنِ مردّهما عوامل خارجية قد ترشّح إحداها على الأخرى، أما سببهما الأصلي فهو ما كانت الشخصية تعيشه من إحساس فظيع بالنقص الثقافي، وبالتبعية للآخر بما يجلب له الإهانة والاحتقار - إن حقيقة أو مجازًا - : «كُنْتُ فُخُورًا أَنْ يُصَاحِبَنِي شَخْصٌ مُتَقَفٌ مِثْلَهُ. كَانَ يُجِيبُنِي عَنْ كُلِّ أَسْئَلَةٍ (لَمْ أَكُنْ أَدْرِي إِنْ كَانَ عَلَى صَوَابٍ أَوْ عَلَى خَطَأٍ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ). كُلُّ مَا أَذْكَرُهُ هُوَ أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ أَفْهَمُ مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلَ» 216

«كُلُّهُمْ ضِدِّي الْيَوْمَ. إِنَّهُمْ يَتَكَبَّرُونَ. لَسْتُ إِذَنْ فِي مُسْتَوَاهُمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ. حَتَّى عَبْدُ الْمَالِكِ يُهَيِّئَنِي هَكَذَا» 217

إنها الصراعات المادية والنفسية التي لم تزد الشخصية إلا حرصًا على الخروج من حالة الابتذال والتردي إلى إعادة صياغة الذات بالعلم والمعرفة: «في الصَّبَاحِ، بَعْدَ صُغُودِي مِنَ الْمِيْنَاءِ، ذَهَبْتُ إِلَى مَكْتَبَةٍ فِي وَادِي أَحْرُضَانَ وَاشْتَرَيْتُ كِتَابًا لَتَعْلَمَ مَبَادِي الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ» 225. رحلة حياة جديدة كانت بوادرها مع التجربة الأولى، وتبلورت في الثانية مع الأخوين عبد المالك وحسن؛ وقد فُتِحَتْ للشخصية آفاق الدراسة - وإن تكن له عشرون سنة من العمر - وربما الحياة أيضًا، لكن بأي معنى؟

هما تجربتان تُنبئان برغبة الشخصية في التبدّل، إذ انتهت «إلى استكشاف أشكال الوعي بالذات وأهم خصوصياته، إلى أنّ صورة الوعي الذاتية، هي خلاصة تعالق صورتين أساسيتين: صورة الأنا الكائن، وتحيل على تصوّر الإنسان لوجوده الحاصل بالفعل، وصورة الأنا الصائر، التي تُحِيلُ على تصوّر مثالي لما ينبغي أو ما يؤمل أن تكون عليه صورة الوجود الفردية الآتية» (الطربيطر، 11، 2009: 641). ويلتقي الزمانان الذاتيّ والموضوعيّ في الإحالة على الصراع من أجل البقاء، الصراع/ المفارقة في كره الحياة وضيق بها، وحرصٍ عليها واتخاذ جميع السبل المشروعة وغير المشروعة لضمانها. ومن الصعب القول ما إذا كانت الأفعال في المضارع الدالّ على الحاضر السردّي أو المقترن بتعريف أو حقيقة عامّة. فالمضارع الزّمن الأكثر اقترانًا بتعدد الدلالات، ولذلك، قد يبدو أنّ بنية الزّمن الموضوعيّ تتميّز بدوامها واستمراريتها؛ لكن، يجب أن ندرك في الوقت نفسه أنّ الخصائص

التي تنتج عن التنظيم الاجتماعي للزمن الموضوعي ليست ثابتة، ولا يعني هذا التناقض. (Benveniste، II، 1995: 62)

إن الثنائيات وخاصة ثنائية الحياة والموت لا تحكم فقط بداية الرواية ونهايتها، وإنما هي مبنوثة في كل ثنائياتها وموجهة لكل الفواعل فيها بصفة إرادية أو لإرادية، فواعل تتعدّد وتختلف في الملامح والأقوال والأفعال، لكنّها تؤوّل إلى نقطة الارتكاز الشخصية/ «البطل»، ويرشّح هذا النوع من التردّد ليدور حول الميثاق السرديّ أو الوصفيّ لقطعة ما لا تبدو منبئة عن سياقها ولا عن بناء الأثر بأكمله في تماسكه وتجانسه. وعلى أيّ حال، فطريقة العرض تشي بالتداخل الأجناسي، (Adam، 1993: 88) ومن مظاهره أنّ الرواية تؤوّل إلى السيرة الذاتية وربما العكس!

* الحكاية والحبكة

عادةً ما تقتضي الحكاية عامّةً ومهما كانت النصوص السردية حبكة إذ تقتضي ترتيباً معيناً للأحداث والأفعال ذا منطق خاص، وكثيراً ما نتناول الحديث عن الحبكة وفق ثلاثة مستويات رئيسية هي: منطق تتابع الأفعال والأحداث الذي كثيراً ما يقوم على عنصر السببية والتأثير الداخلي الذي ينتج خاصة عن ظهور أفعال جديدة في طبيعتها أو نوعيتها أو بروز شخصيات جديدة تؤثر بصفة واضحة في مجرى الأحداث كما ينتج عن تحويل طارئ للعلاقات السائدة بين أبرز الشخصيات القائمة في الحكاية وأخيراً البداية والنهاية في الحكاية، فكل حبكة تبدأ من نقطة معينة لكي تصل في آخر المطاف إلى نقطة أخيرة. (الباردي، 1993: 131).

والحبكة في «الخبز الحافي» تقوم على مفهوم محوريّ مثلّ المبتدأ والمنتهى وهو مفهوم: «التطهير»، إذ تريد الشخصية أن تتخفّف من الهموم والهواجس التي أضعفت الجسد وأرهقت الذهن، من خلال عملية البوح التي تتخذ فيها الشخصية القارئ مخاطباً يُرسّخ لديه الغرض العامّ من العمل عمل الكتابة ككلّ، إذ تتجلى أجزاؤه في مختلف فصول الرواية نفسيراً وحفاظاً موضوعية يتخذها السارد علامات تواصل مع المتلقّي. وبقدر ما تحاول الشخصية/ السارد الاستئناس بالمتلقّي واعتباره امتداداً لفكره، وتخطياً لعجزه الاجتماعي والثقافيّ المُقرّن بالفترة الممتدة تاريخياً من سنة 1935 إلى 1956، فإنّ هذا الانسجام يراه مجازاً في عملية التلقّي، ويصوغه تغريباً في التعبير عن الواقع، وما الفترة الزمنية الفاصلة بين زمن الأحداث وزمن الكتابة (1972) إلّا عاملاً مساعداً على ذلك، إذ لا يرى «الواقع» الأصل وإنما يراه وقد انعكس

في مرآة الذات بعد أن تطوّر الوعي من مرحلة الفكرة والتكوين (من خلال الرغبة في التعلّم والدخول في طوره مع آخر فصول الرواية السيرة) إلى مرحلة التّضج والإنجاز.

لقد جاءت الحكبة في «الخبز الحافي» قائمة على تحقيق نسيج الأثر بين الوظيفة/ البؤرة وهي «التّطهير»، وبين أسبابه ومظاهره التي تعود إلى مرجعين أساسيين يتجلّيان في الأشياء كما فيما يناقضاها، وهذان المرجعان هما الاجتماعي من ناحية، والأخلاقي من ناحية ثانية؛ «فحبة الرواية هي سلسلة الأعمال والأحداث المرتبطة عادة برباط السببية مرتّبة حسب ظهورها في الخطاب السردّي» (رزق، 1998: 39).

إنّ ما يُنشئ الحكبة في «الخبز الحافي» ليس البنية الحدثية المقصودة لذاتها، وإنّما هي بنية الشّخصيّة وبنائها وتناميه من خلال البنية الأولى «يقنّس منها ما هو بحاجة إليه، فبالجانب النّفسيّ يضع ملامح استرعت انتباهه هنا، أو لفئة ذهنية لفتت ذهنه هناك، وقد يأخذ في تشكيل شخصيّة ولا يعنيه أن تكون صورة طبق الأصل، بل ما يعنيه حقاً هو أن يخلق وحدة منسجمة محتملة الوجود تتفق وأغراضه الخاصّة». (نجم، 1966: 93)

و«تُميّز إنشائية القصّة بين الحكاية والحكبة، فكلّ رواية تُفهم قبل كلّ شيءٍ على أنّها حكاية تُروى، وهي بهذا المعنى، مصطلح عامّ يضمّ الأفعال والشّخص، في حين أنّ الحكبة تتابع عبر القراءة، إذ هي بمثابة الخيط الذي يربط بين الشّخص والأفعال معاً وفق تركيب مُعيّن للبنية السرديّة» (الباردي، 1993: 96).

إنّ كلّ قصّة تروي حكاية تقع عموماً في مستوى أوّل يُسمّى تصويريّاً، أي أنّ العناصر الدلالية المُستخدمة تنتمي إلى الإدراك الحسيّ، وتعني إذن، إمّا البصر أو السّمع أو الذّوق أو الشّم، أو اللمس. وكلّ حكاية تكون متنوّعة بـ «توجيه أخلاقيّ» أي أنّها تُعطي عن الجزء التّصويريّ كلّهُ تأويلاً غرضيّاً يقع على مستوى ثانٍ لا ينتمي إلى الأحاسيس الفيزيولوجيّة والإدراك، ولكن ينتمي إلى المصافّ المفهوميّة تمييزاً بين الغرض التّوليديّ والغرض الخصوصيّ (Courtès، 2007: 113)، أو بين الدّالة والتّواصل شكلاً من أشكال الثقافة والتنّظيمات اللفظيّة، وبين المعنى جزءاً من ذات الشّخصيّة/ الكاتب أو السرد و«النّقد» يجد أسبابه في الذات ويعجز عن الإمساك بخيوطه وأسبابه في الحياة والمجتمع، وهو ما يجعل الشّخصيّة تعيش حالة قلق وتوتّر مستمرّين، وصراع نفسيّ وفكريّ تعجز عن تجاوزهما فيتحوّلان إلى عنف ماديّ.

على أن الطريقة التي يعتمد عليها محمد شكري لاستبعاد الحكمة التقليدية تتمثل أولاً في الالتجاء بدرجة أساسية وفي كامل النص الروائي إلى الأفعال الصغرى، وهي عادة ما تكون أفعالاً عادية غير نموذجية. وإن مثل هذه الأفعال الصغرى تتسج خيطاً سردياً قوامه النتائج القائمة بدورها على منطق سببي واضح وما يشد هذه الأفعال إلى بعضها البعض في الحكاية المركزية رباط باهت يمكن حصره في مقاطع سردية عامة لا يصل بينها إلا حضور الراوي. (الباردي، 1993: 132 - 134)

* علاقة المكان بالشخصية

تتميز الأمكنة بالصيق والاتساع، والانغلاق والانفتاح، والإحياء بالحياة والإيذان بالموت، والوعي بالذات والسعي إلى إثباتها، فالحرص الشديد على الدخول في تجارب اللاوعي تغييباً للذات وإنكاراً لها ورغبة في التحلل منها. ثنائيات محكومة بالثنائية الكبرى وهي: الرغبة والرغبة. ولنست للمكان قيمة في حد ذاته بالنسبة إلى الشخصية، إذ تجد نفسها منساقة إليه، مُجبرة على البقاء فيه - وإن إلى حين - : «جُنُونٌ. الشَّوْقُ إِلَى التَّطَوُّانِ جُنُونٌ (...). جُنُونٌ جَمِيلٌ. تَطَوُّانٌ مَجْنُونَةٌ. لَيْسَ هُنَا جُنُونِي. فِي أَيِّ مَكَانٍ فِي الْعَالَمِ سَأَبْحَثُ عَنْ جُنُونِي» 68.

ومهما يكن المكان الذي تجد الشخصية نفسها فيه، فإنها لا تُعيره اهتماماً مخصوصاً في حد ذاته، بقدر ما تعتبره مجال تجربة تتخذ أبعاداً متعدّدة مرجعها الكشف عن الذات واكتشاف الآخر ومكونات العالم من حولهما بما قد يشذ الرغبة في المعرفة يصوغها السارد/ الشخصية استفهامات وتساؤلات لا يجد لها إجابات واقعية مباشرة، وإنما تكون التجارب هي مجالاتها، بما أن أغلب الذين يحيطون بالشخصية - إن لم يكونوا كلهم - من المهتمّين الذين لم يعرفوا علماً ولا وعياً: «اسْتَوَلَى عَلَيَّ شُعُورٌ غَرِيبٌ: لِمَاذَا يَسُوقُ الْقَدَرُ هَذَا الْكَلْبَ إِلَى الْمَوْتِ بِهَذَا الشَّكْلِ الْفَظِيعِ؟ الْقَطِيعُ أَيْضًا دَاسُهُ الْقَطَارُ. الرَّاعِي غَيْبٌ. تَجْرِي [الكلب] غَيْبٌ. تَجْرِي لَا يَعْرِفُ مَعْنَى الْمَوْتِ. لَا شَكَّ أَنَّ الْعَالَمَ مَلِيءٌ بِالْغَبَاءِ. أَنَا أَيْضًا غَيْبٌ؟» 63

إن المكان - إذ يتغير ملامح وخصائص - فإنه يمثل مقوماً من مقومات النسيج السردى سواء أ تعلق الأمر بعلاقة عنوان الأثر بمتنه: «الخيز الحافي» رحلة بحث ورغبة في الامتلاك تحول العوائق والعراقيل الموضوعية دونهما، أم بانتشار الذات شخصية ومقوماً فنياً؛ ف «إذا كان المكان يتخذ دلالاته التاريخية والسياسية والاجتماعية من خلال الأفعال وتشابك العلاقات،

فإنّه يتّخذ قيمته الحقيقيّة من خلال علاقته بالشّخصيّة عامّة، ظاهرة فنّيّة» (الباردي، 1993: 232)، هذه الظاهرة تشدّ خيوط النّص ومكوّناته الأسلوبية من ناحية، وينشر هذه الذات أحداثاً ووقائع، تكشف المُعَيَّبَ والمُنْتَظَرِ أكثر من احتفالها بالموجود المنظور، وهو ما يجعل صورة الكاتب تفيض على الشّخصيّة فتتقد «واقعيتها»، وتصبح مجرد أداة في يد الكاتب النّاقِد الذي يروم تعرية الواقع وبسط الذات في أكلح فترات حياتها وأغربها - وقد صيغت خطاباً وتبلورت أفكاراً وتصوّرات تتعلّق بالماضي وتحقّق الآتي وكلاهما جزءٌ من الآخر لا ينفصلان في الدّهن والذاكرة -

- التنظيم السردّي

تبدو الحكاية سيروية في الزّمان والمكان وإعادة لها في نظام حدثي تنشئه الذاكرة من خلال الأحداث الماضية ويستقطبه الفكر في اتجاهين: زمني قرين الواقع والموجود قسراً، وسببيّ يحوّل «الحقيقة» من المنظور حسّاً إلى المُنتظر تفكيراً يتجلى في صيغ استفهام من ذلك:

«لِمَاذَا اللهُ لَا يُعْطِينَا حَظًّا مِثْلَمَا يُعْطِيهِ لِبَعْضِ النَّاسِ؟ هَكَذَا سَأَلْتُ أُمِّي» 15

«لِمَاذَا يَمُوتُ الْإِنْسَانُ؟ (...) أَيْنَ يَذْهَبُ مَنْ يَمُوتُ؟ (...) وَمَاذَا هُنَاكَ؟» 17

«لَكِنْ لِمَاذَا نَهْجُرُ نَحْنُ الرِّيفَ وَيَبْقَى آخَرُونَ فِي بِلَادِهِمْ؟ يَدْخُلُ أَبِي السِّجْنَ، تَبِيعُ أُمِّي الْخُصْرَ، تَارِكَةً إِيَّايَ وَخِدي جَائِعًا وَيَبْقَى هَذَا الرَّجُلُ وَرَوْجَتُهُ فِي مَنْزِلِهِمَا؟ لِمَاذَا لَا نَمْلِكُ مَا يَمْلِكُهُ غَيْرُنَا؟ 21

هي محاولة تعرّف إلى الأسباب حيناً، وهي أشكال رفضٍ وتمردٍ قد تتصارع في باطن الشّخصيّة وتحوّل الأسباب الموضوعيّة دون البوح بها حيناً آخر، فتظلّ جزءاً من المعاناة التي يتقاطع فيها الفرديّ (الأنا) مع الجماعيّ (الآخر في كلّ أشكاله ومظاهره) دون أن ينصهر فيه أو يقبله - إن جزئياً أو كلياً -:

«مَاتَ أَخِي عَاشُورَ. لَمْ أَخْرَنْ عَلَى مَوْتِهِ. كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَصْرُخُ وَارَاهُ يَحْبُو، لَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَفَكِّرُ فِيهِ. (...) أُخْتِي إِرْحِيمُو أَيْضًا أَرَاهَا تَكْبُرُ وَتَتَكَلَّمُ، لَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَهْتَمُّ بِهَا. كُنْتُ غَارِقًا فِي هُمُومِي وَتَشَرُّدِي، حَالِمًا بِمِلْدَاتِ الْعَالَمِ. أَنَا فِي الدُّرُوبِ أَكْثَرَ مِمَّا أَنَا فِي الْمَنْزِلِ». 49

وقد تتجلى أشكال الرّفْضِ والتمرد من خلال الفعل الذي لا يعكس إلّا انتقاماً من الذات بالإمعان في تعذيبها - إن مادياً أو نفسياً - : «فَإِنَّا أَيُّهَا اللَّيْلِيُّونَ

وَالنَّهَارِيُّونَ، أَيُّهَا الْمُتَشَائِمُونَ وَالْمُتَفَائِلُونَ، أَيُّهَا الْمُتَمَرِّدُونَ، أَيُّهَا الْمُرَاهُثُونَ، أَيُّهَا «الْعُقَلَاءُ»...: لَا تَنْسُوا أَنَّ «لُغْبَةَ الزَّمَنِ» أَقْوَى مِنَّا، لُغْبَةُ مُمِيتَةٍ هِيَ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوَاجِهَا إِلَّا بِأَنْ نَعِيشَ الْمَوْتَ السَّابِقَ لِمَوْتِنَا: أَنْ نَرْفُصَ عَلَى حِبَالِ الْمُخَاطَرَةِ نَشْدَانًا لِلْحَيَاةِ» 8؛ فلا يكون السَّرْدِيُّ اندراجًا في منظومة نظرية لإنشاء الخطاب، بقدر ما يجعل السَّارْدُ/الشَّخْصِيَّةَ الملفوظَ السَّرْدِيَّ قائمًا على علاقاتٍ بين الأشياء والأحداث، مستعملًا طاقة اللُّغَةِ وشحنها للتعبير عن هموم الدَّاتِ وهواجسها بما يحقق التَّواصل والتَّفهَمَ بينه والمتلقِي في عمليةٍ بَوَحٍ يتوازى معها المساران البنيوي والموضوعي المقترن بالرَّغبة في أكثر من بُعدٍ وفق ثنائيات متباينة متنافرة منها:

* تشدّد الأمّ في تلقين الابن القيمَ والحِرصَ على الأخلاق الحميدة
 ≠ عجزه عن الثَّباتِ عليها أمام الفاقة والحرمان والجوع الذي
 ينخر جسده؛

* الرَّغبة والرَّهبة/ «تَطَلَّعْتُ إِلَى الشَّجَرَةِ. امْتَرَجَ حَبِّي وَكَرَاهِيَّتِي لَهَا. لَنْ أَكُلَ مِنْهَا بَعْدَ الْيَوْمِ» 22

«عَظِبْتُ عَلَيْهَا فِي خَيَالِي. أَنَا أَدَافِعُ عَنْهَا وَهِيَ تُسَكِّنُنِي» 23

* التَّنَاقُضُ الَّذِي شَهِدَهُ الْإِبْنُ بَيْنَ أَقْوَالِ أُمِّهِ وَأَفْعَالِهَا: إِيهَامٌ بِالْفَضِيلَةِ، وَانْدِرَاجٌ فِي الرَّذِيلَةِ: «إِنَّهَا تَكْذِبُ. لَنْ أَصْدِّقَهَا بَعْدَ الْيَوْمِ» 26 وهو ما أُوْجِدَ لَدَيْهِ وَضْعِيَّةٌ نَقْصٌ وَعَى بِهَا فَحَثَّتْهُ عَلَى الْفِعْلِ بَحْثًا يَتِمَّتِلُ فِي مَحَاوِلَةٍ تَعْوِيزُ ذَلِكَ النِّقْصَ (CHaraudeau، 1983: 122) عسى أَنْ يَكُونَ الْإِنْتِهَاءُ إِلَى نَتِيجَةٍ مَا فَشَلًا أَوْ نَجَاحًا، وَهُوَ تَقْيِيمُ تَرَاهِ الشَّخْصِيَّةِ أَوْ يَصُوغُهُ الرَّأْيِي مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِهِ.

- وَجْهَةُ نَظَرِ الرَّأْيِي

وَرَاءَ كُلِّ الظَّوَاهِرِ الْفَنِّيَّةِ مِنْ أَفْعَالٍ وَشَخْصٍ وَمَكَانٍ وَزَمَانٍ يَقِفُ رَاوٍ يَتَوَلَّى مَهْمَةَ التَّرْتِيبِ وَالتَّصْنِيفِ وَالتَّنْصِيدِ دَاخِلَ النَّصِّ الرَّوَائِيِّ، وَالرَّأْيِي فِي «الْخَبْزِ الْحَافِي» لَا يَهْتَمُّ بِالْمَوَاقِفِ السَّرْدِيَّةِ أَوْ الْأَجْنَاسِيَّةِ، وَإِنَّمَا يَتَّخِذُ مِنْ حَوَادِثِ الْوَاقِعِ، وَمِنْ صِلَةِ الْأُنَا بِالْآخِرِ وَبِالْمَجْتَمَعِ سَبِيلًا لِكَشْفِ الصَّرَاعَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي تَعِيشُهَا الشَّخْصِيَّةُ، تَحُولُ الْأَسْبَابُ الْمَوْضُوعِيَّةُ دُونَ الْبَوَحِ بِهَا حَدَثًا فَعْلِيًّا فَيَنْتَجِهَا الْكَاتِبُ حَدَثًا كَلَامِيًّا هُوَ مَرَاةٌ لِلْحَدِثِ الْفِكْرِيِّ تَحَقُّقٌ مِنْ خِلَالِهِ الشَّخْصِيَّةُ ذَاتَهَا وَإِرَادَتُهَا الَّتِي تَكْبَلُهَا سُلْطَةُ الْأَبِ وَتَسْلُطُهُ وَجَبْرُوتُهُ، لَكِنْ الشَّخْصِيَّةُ تُطْلِقُ الْعَنَانَ لِهَذِهِ الْإِرَادَةِ بِالْإِنْدِرَاجِ فِي تَجَارِبِ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ

يتعاطفون معه لا من باب الشفقة ولكن بدافع تقاسم نفس الشقاء وعذابات النفس والجسم:

«جَلَسَ عَلَى مُقَرَّبَةٍ مِنِّي شَابٌّ. أَخْرَجَ غُلْبَةً سَجَائِرَ سَوْدَاءَ وَسَأَلَنِي:

- أ تَدْخُنْ؟

هَزَزْتُ لَهُ رَأْسِي وَقُلْتُ بِصُغْفٍ:

- نَعَمْ

انْبَعَثَ لَدَيَّ رَغْبَةٌ فِي أَنْ أَفْنِي هَذَا الْجَسَدَ الْجَافَ بِأَيِّ شَيْءٍ. حَلَقِي نَاشِئُ
وَقَلْبِي يَخْفِقُ بِوَهْنٍ» 103

والسارد - إذ يصوغ الماضي ويرويه - لا يسعى إلى تغييره بقدر ما يعكس
رغبة في تغييره، لكنه قد حفر في ذاكرته حتى بات من العسير التخلّص منه،
لأنّ تراتب الأحداث وتتابعها لا يخضع لحبكة قصصية⁵⁴ وإنما يبدو الحدث
نتيجة آلية - بصفة إرادية/ لا إرادية - لما يسبقه بتأثير من الآخر أكثر منه
ثبات الشخصية أمام العوائق التي تعترضها ومنها: «عِنْدَمَا صَعَدْتُ إِلَى
السَّطْحِ، صَاحَ جُنْدِيٌّ سِينِيغَالِيٌّ فِي ظَهْرِي مِنْ بَعِيدٍ:

- إِيه أَنْتَ! انْتَظِرْنِي هُنَاكَ!

لَا بُدَّ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَرُدَّ لِي السَّاعَةَ الَّتِي اشْتَرَاهَا مِنِّي. رَأَيْتُ حَوْلَ رَأْسِي حَلَقَةً
جُنُودٍ. الْمَلْعُونُ الَّذِي لَا يَصْحُو قَطُّ مِنَ السُّكْرِ، يَبِيعُ لَهُمُ السَّاعَاتِ بِنِصْفِ
النَّمَنِ الَّذِي بَعَثَ لَهُمْ بِهِ. هَذِهِ عَادَتُهُ. قُلْتُ لَهُ:

- أَنْتَ دَائِمًا قَوَادٍ.

(...) أَفْتَرَبُ بِوَصُوفٍ بِسُرْعَةٍ مِنَ الْبَاحِرَةِ. أَلْقَيْتُ الْقُقَّةَ إِلَى الزُّورَقِ. انْزَلَقْتُ
فِي الْحَبْلِ. رَاحَتَايَ تَسْلُخَانِ. انْقَطَعَ الْحَبْلُ وَهَوِثُ فِي وَسْطِ الزُّورَقِ (...)

- جَذِفَ بِسُرْعَةٍ. سَيَقْذِفُونَنَا بِأَيِّ شَيْءٍ. لَيْسَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ. إِنِّي
أَعْرِفُ هَؤُلَاءِ الْجُنُودِ (...)

أَمْسَكْتُ لَوْحًا. سَمِعْتُ زَجْجًا يَشْتُمُنَا بِصَوْتٍ عَالٍ وَيَخْنُقُ أَحَدَنَا فِي الْفَرَاغِ. إِنَّهُ

54 إلا إذا تحدّثنا عن «الملفوظ السيرداتي بوصفه مقولة سردية، قوامها التآليف بين
الظواهر غير المتجانسة، وتقديم وقائع الحياة المروية في نسق سرديّ، تنتظمه علاقات
مُبَرَّرَةٌ، قوامها الرّبط الارتجاعي بين النتائج وأسبابها البعيدة في الزّمن» (الطّريطر، 11،
2009: 728)

فكأن ما يشد نسيج النص ويضمن بقاءه هو الواقعي دون السردى - وإن كان الفصل بينهما فعلا نمطياً، ذلك أن الراوي يمتد بظلاله على أبعاد العمل الأدبي السردى الثلاثة كما اقترحها جيران جينيت وهي «الحكاية التي تُروى (المدلول أو المضمون السردى)، والحكي (الدال أو الملفوظ أو الخطاب أو النص السردى)، والسرد (الفعل السردى المنتج أو العملية التي يقوم بها الحاكى حين يروي حكايته). وهذه الأبعاد المتميزة في الواقع القصصي ترتبط بعلاقات تبادلية بحيث يتطلب وجود بُعد واحد منها وجود البُعدين الآخرين». (رزق، 1998: 71)

تتزاوج الرؤيتان: من الأمام التي يوهم من خلالها الراوي باكتشاف الحوادث والأشياء مع القارئ كلما تقدّم في السرد والوصف؛ ومن الخلف التي لا تقدّمها الشخصية، وإنما الكاتب في نزعة انتقائية للعبارة والكلمات التي تتحسر معانيها الأصلية أمام توسّع دائرة النقد والرغبة في نفي صور قاتمة تعكس فعل الأقدار وعجز الإنسان: «في طريق هجرتنا، مشيناً على الأقدام، رأينا جثث المواشي تحوم حولها الطيور السوداء والكلاب، روائح كريهة، أحشاء ممزقة، دود ودم وصديد»¹⁰. هو العجز أمام الموت تريد الشخصية أن تنفيه بحثاً في أسباب الحياة، ويصبح الراوي جزءاً من الشخصية، بل كلاهما هو الآخر من خلال الاستبطان يتجلى تقابلاً بين الحياة والموت: «عثرت على دجاجة ميتة. ضمنتها إلى صدري وركضت إلى بيتنا. أبواي في المدينة، أخي في ركن مُعدّد، نصفه الأعلى مرفوع فوق وسادة. يتنفس بضغوبة. عيناه الكبيرتان الدابلتان ترقبان مدخل الباب. يرى الدجاجة. تتيقظ عيناه. يبتسم يتورد وجهه النحيل. يتحرك كأنه يفيق من إغماء. يسأل فرحاً»¹¹.

إن الشخصية في «الخبز الحافي» هي - في الآن ذاته - السارد والكاتب والراوي الذي يحدث بأصداء الشخصية من خلال الحوار الباطني أو الحوار الداخلي المباشر⁵⁵ بتصوير الواقع الداخلي وما يجيش في الكيان النفسي من مواقف تجاه العالم الخارجي.

ويتعطل السرد «الموضوعي» لتجعل الشخصية/ الراوي صورة الذات متجلية في الآخر مرايا تعكس آفاق السرد في اتجاهين: متعطل على مستوى الشخصية، ومنفتح على مستوى الأحداث: «أدركت أنني لست سوى أنا.

55 انظر الفصل الخامس من «حوالات الحبكة مقدّمة لدراسة الرواية العربية» لخليل رزق.

وَحَدِي أَرَانِي فِي مِرَاةِ نَفْسِي. الْعَالَمُ يَبْدُو لِي مِرَاةً كَبِيرَةً مَكْسَرَةً وَصَدِئَةً أَرَى فِيهَا وَجْهِي مُشَوَّهًا». 31

وقد يتصل الخطاب غير المباشر بالمباشر إذ يُنشئ السارد مسافة بين الشخصية ومن يتحاور معها، وهو جزء من تصوير النفسية ومختلف الأطوار التي تمر بها، فيأتي الضمير الغائب المفرد متصلاً بضمير المتكلم المفرد صورة من ذات العلاقة التي تُقيم تواصل الشخصية بالأب: «نُظِّلُهُ. هَذَا مَا لَا يَجْعَلُنِي أَكْرَهَهَا كَمَا أَكْرَهُهُ أَوْ أَتَمَنَّى مَوْتَهَا كَمَا أَتَمَنَّى لَهُ» 92

مقارنة ومفارقة تتمناها الشخصية فلا تفوز بها إلا عبر المُخيلة والخطاب الدّاخلي، ويحوّلها السارد من حوار مباشر إلى سردٍ، ومعهما ينقلب الحاضر إلى ماضٍ حتّى لا رجوع؛ قطيعة تتأصل في انصهار الراوي في الشخصية.

وقد يتخذ السرد بُعداً استشرافياً، معه تتفصل الشخصية عن السارد، ويتصل السرد بالوصف إذ تقول الشخصية: «رَأَيْتُ الْكَبْدَانِي يَخْتَفِي فِي ضَبَابِ اللَّيْلِ وَهَدِيرِ الْأَمْوَاجِ» 156؛ وتنقلب الرؤية الحسية إلى رؤية خطابية من الخلف، يبدو معها الراوي عليمًا لكنه يتخذ من الشخصية قناة، فإذا أنماط الرؤية، وطُرُقُها وأساليب التعبير عنها هي جزء من اتساق الخطاب وانسجامه: «أَخْشَى أَنْ يَكُونَ الْكَبْدَانِي قَدْ سَقَطَ فِي فَخِ رِجَالِ الْجَمَارِكِ» 163؛

«- الْكَبْدَانِي مَاتَ.

قُلْتُ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ، فَاتِحًا عَيْنَيَّ، فَأَعْرَأَ فَمِي:

- مَاتَ؟

- نَعَمْ، مَاتَ. رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ. (...)

- كَيْفَ مَاتَ؟

- عِنْدَمَا عَادَ كَانَ الْمَرْكَبُ قَدْ فَرَّ مِنْ زَوْرِقِ الْجَمْرِكِ. أَضْطَرَّ الْكَبْدَانِي أَنْ يَغُودَ إِلَى الشَّاطِئِ. لَقَدْ أَضْطَدَمَ زَوْرُقُهُ مَعَ الصُّخُورِ. عَثَرُوا عَلَيْهِ مَيِّتًا، وَزَوْرُقُهُ انْقَدَفَ مُحَطَّمًا إِلَى الشَّاطِئِ» 172.

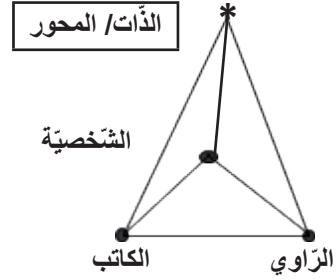
- الذّاتِي (الشّخصي)

الذّات في «الخبز الحافي» هي المحور، وهي الانتشار؛ هي الخطاب أو الحكاية، وهي الخبر أو القصة؛ هي الواقع، وهي صياغته الأدبية، ذلك أنّ بناء الكتاب لا ينفصل في أية لحظة من لبناته عن حضور الذّات بصفة مباشرة في فرادتها وفرديتها، وبصفة مناظرة من خلال سائر الشخصيات التي تعكس

هواجس الذات وآمالها وآلامها؛ ثم لم يخلُ حدثٌ من عبور تجارب الذات في وجه مخصوص يكتسح كلِّ الوقائع وهو البؤس والشقاء والعناء، اختيرت له من الأنساق اللغوية ما لم يف بالجنس الأدبي بقدر الإضافة إليه وتضخيم الذات على حسابه.

وفي «الخبز الحافي»، يختلط الوعي باللاوعي، ويأتي الذاتي متصلاً بالموضوعي سياسةً ومجتمعاً واقتصاداً، قضايا تولد عدم استقرار الشخصية، أو انتهائها إلى قرار قد يوصلها إلى الطمأنينة أو التصلح مع الآخر، تصالح قد تحقّقه المصلحة المادية وتقف دونه طرق التفكير وتفسير الأشياء، بين رؤية أحدية وأخرى تسيطر على الشخصية رؤية للواقع وأحداثه، وبحثاً في خلفياته وأسبابها. هذه الملامح المتقلّبة، قد تصوّر الذات وتجعلها البؤرة في الحدث والحديث، ولكنّ بروزها لا يتحقّق إلاّ في خضمّ التجاذبات العديدة التي تميّزها، وقد يبدو بعضها مفروضاً كما قد يندرج بعضها الآخر ضمن المُفترض دون المعطيات المادية المحسوسة التي تُعرّض عنها الشخصية - حتّى وإنّ بدت مندرجة فيها - وما ملامح الشخصية في تجاذباتها إلاّ مرآة لـ «وضعية الكاتب الواقعية فهي التي تكون المسؤولة عن تحديد الذات المتكلمة في النصّ (...)، لكنّ الذات لا تعبّر عن نفسها في الكتابة إلاّ من خلال نقيض هذه الوضعية نفسها لأنّ المسألة هنا متعلّقة بالتعبير بوصفه حاجة إلى تصحيح هذه الوضعية الذاتية. فبحكم أنّ إيديولوجيا الكاتب هي غير وضعيته بالضرورة (لأنّ فيها بعض الطموحات التي لم تتحقّق في الواقع) فإنّها هي التي تحدّد شروط المتكلم في النصّ». (لحمداني، 1990: 28)

وبقدر اندراج الشخصية في اللاوعي، ينمو لدى الراوي الوعي مُبرّراً من مبررات ازدواجيات عديدة حكمت النسق السردّي كما أنماط الرؤية؛ وتكتمل ملامح مثلث الذات بالكاتب سخطاً على الواقع، ونقمة على الأعراف والقوانين، وبحثاً عن الخلف الذي يتجاوز الآخر فلا تكون الذات معه إلاّ مرآة لذاتها دون سواها. وما الانفصال بين زوايا المثلث التي تُقيمه إلاّ على مستوى الوظائف أمّا المحور فيستقطبها جميعاً على النحو التالي:



فالذات هي التي تخرق نسيج النص وتسيجه وتستدل على مضامينه من خلال المسافة الموضوعية بين الحادث والحديث – وإن كانت الشخصية/ الراوي/ الكاتب تؤسس وتوهم بما هو مقامي «واقعي».

إن الشخصية تعيش الحدث بالقوة كما تفرضه الظروف الزمانية والمكانية والشخصيات التي تحتلها وتسيرها، على أن تجربة الفكر تؤسس لتلك المسافة الفاصلة بين المعيش بالقوة، وبين المفترض بالتخيّل، وهو ما يجعل القارئ يتناول نص «الخبز الحافي» وفق ثلاثة أبعاد استناداً إلى الحديث: المَقُول، والمسكوت عنه، وظلالهما؛ فـ «فعل الإدراك و/ أو العملية الذهنية واصلٌ أساسيٌّ لوجهة نظر الشخصية لأنه يعبر عن عملية ذهنية. وهو يُقيم، بفضل هذه العملية، علاقة بين الموضوع المُدْرَك والذات المُدْرَكَة. وهذا الفعل يسبق، في الغالب الأعم، الإدراك، ولكنه قد يتأخر عليه»، (العمامي، 2011: 41) يسبقه فكراً وتصوراً، ويتأخر عليه مُنجزاً حدثياً، ويساوقه وفق ثنائية التّغيب في الواقع والحضور في الخيال:

- * «غَضِبْتُ عَلَيْهَا فِي خَيَالِي، أَنَا أَدْفَعُ عَنْهَا وَهِيَ تُسَكِّنُنِي» 23؛
- * «سَتَمْتُهِ فِي خَيَالِي (...) أَضْرِبُهُ وَأَلْعَنُهُ فِي خَيَالِي. لَوْلَا الْخَيَالُ لَانْفَجَزْتُ» 53؛
- * «قَالَتْ لِي خَالَتِي:
- لَا بُدَّ أَنَّكَ تُعَذِّبُ أَمَّكَ كَثِيرًا فِي تَطَوَان. كُنْ عَاقِلًا.
- قُلْتُ لَهَا فِي خَيَالِي:
- كَيْفَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَكُونَ عَاقِلًا يَا خَالَتِي؟ كَيْفَ؟» 67؛
- * «صَيَّادٌ يَأْكُلُ فُطِيرَةً مَحْشُوءَةً. أَكُلُّهَا مَعَهُ فِي خَيَالِي» 101.

ظاهر نص «الخبز الحافي» تَمَاهٍ بَيْنَ الشَّخْصِيَّةِ وَالرَّأْيِ وَالْكَاتِبِ، إِلَّا أَنَّ التَّجَادُبَ فِي الْوَعْيِ وَاللَّأْوَعْيِ، وَالْعَقْلَ وَالْوَجْدَانَ، وَالْأَنَا وَالْآخَرَ، يُغْلِبُ زَمَانَ الْكِتَابَةِ عَلَى زَمَانِ الْحَدَثِ، فَلَا تَنْشَأُ لُغَةُ الْخَطَابِ إِلَّا وَفْقَ مَا تَحْتَمِلُهُ مِنْ

دلالات، لا وفق ما تحمله من معاني. وتستمدّ هذه الرواية كثافتها الدلالية ممّا تتوفّر عليه من علامات تقاطع بين الذاتيّ والموضوعيّ، الواقعيّ والحلميّ المدرجين كثيراً في تجربة الحسّ ومن مظاهره الجنس الذي يعرّض في تجربة محمّد شكري الروائيّة سبيلاً إلى اكتشاف الذات وإثبات الكيان وبلورة ملامح الوعي الفرديّ (الباردي، 1993: 639)

و«يمكن أن نعدّ محمّد شكري نموذجاً متميّزاً هو الآخر للأدب المكشوف في المغرب العربيّ، إذ تُدرّك التّعرية المشهديّة واللّغويّة في كتابته القصصيّة والروائيّة بالأساس مدّى يصدم بجرائته ضوابط البيئة والأخلاق في مجتمعات مغربيّة تبقى محافظة رغم ما يبدو عليها من مظاهر تحرّر، وذلك من خلال الحديث عن المسكوت عنه جهراً، حديثاً يتحدّى عين الرقيب أيّاً كان موضعه ولا تهيبه الحافة عندما يشارفها، إذ لا يهاب الاحتراق بتعرية الذات الكاتبة وهتك أستار الذوات الأخرى بحكم مزاجه فغل الكتابة لديه بين سيرة الذات وسيرة المجتمع». (الباردي، 1993: 661)

قد عانى شكري كثيراً من تبعات القمع الأخلاقيّ الذي مارس سلطة المنع على أدبه، وهو ما يجعل كتابته عن الذات تعبيراً عن موقف معارض للمجتمع في سكونيّة أعرافه، وقيمه، وعن مفهوم مغاير للكتابة يقوم على انتهاك المفاهيم المثاليّة للفنّ وما استقرّت عليه مواضعاته الأدبيّة والثقافيّة والجماليّة، من خلال تجاوزها كلّ المحرّمات الاجتماعيّة والأخلاقيّة واللّغويّة على صعيديّ الرّؤية والأدوات. فتكون الكتابة بذلك، صنوا للحياة والمعاشيّة والتّجربة، ونفيا في الوقت نفسه، للكتابة السرديّة النّقليديّة المتعارف عليها، ولعلّ في ذلك يكمن سرّ دعوة شكري لسيرته بأنّها «شطاريّة»⁵⁶، لأنّ أدب الشّطار في تراثنا العربيّ أدب سير من نوع فريد، لا تقتصر فرادته على طريقة كتابته، وإنّما تشمل كذلك نوعيّة الشخصيات والتّجارب التي يعرضها. ثمّ إنّ هذه الكتابة في عفويّتها وجرائتها الصّادمة، والمُنبتقة من عمق المعاناة ليست نتاج بحث شكليّ أو أسلوبيّ لغويّ، وإنّما هي نتاج الاستجابة العفويّة للواقع، ومحاولة تقديمه كما هو لا كما يجب أن يكون، من خلال حشد كلّ وسائل الإبلاغ الممكنة من سرد واعتراف واستخدام للحلم، وتنويع للغات الحوار ببساطة متناهية لا تخلو من عمق مثير، إنّها ببساطة تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقيّة المباشرة مهما كانت هذه التّسميات جريئة وصادمة لأفق انتظار القارئ. (بن جمعة، 1999: 168)

56 نسبة إلى الشّطّارة، بمعنى الاتّصاف بالذهاء والخباثة؛ الشّاطرُ جُمع شُطّار.

2. 1. 2. 3. المحتوى الدلالي

- الجانب النفسي: الاستقطاب والانتشار، مسيرة في الحياة وسيرة في الجنس

لا يجهد الكاتب الذاكرة ليسترجع ما فات، وإنما تطفو أحداث بعينها إلى السطح فيسجلها تتابعاً في الخطاب، وتشابكاً بين النفسي/ الذاتي، وبين الاجتماعي والسياسي والعالمي، حتى يصبح من العسير فهم أي مجال من هذه المجالات إلا ارتباطاً بغيره؛ يقول السارد: «أَبْكِي مَوْتَ خَالِي وَالْأَطْفَالُ مِنْ حَوْلِي يَبْكِي بَعْضُهُمْ مَعِي. لَمْ أَعُدْ أَبْكِي فَقَطْ عِنْدَمَا يَضْرِبُنِي أَحَدٌ أَوْ حِينَ أَفْقِدُ شَيْئًا. أَرَى النَّاسَ أَيْضًا يَبْكُونَ الْمَجَاعَةَ فِي الرِّيفِ، الْقَحْطَ وَالْحَرْبَ» 9

على أن المفارقة هي أول علامة سردية تؤذن بالبداية خطاباً وبالنّهاية حياةً ووجوداً موتاً أو ما يوحي بالموت: «فِي اللَّيْلِ يُسْمَعُ غَوَاءُ النَّعَالِ قُرْبَ الْخَنِيْمَةِ الَّتِي نَنصِبُهَا حَيْثُمَا يُوقِفُنَا النَّعْبُ وَالْجُوعُ. النَّاسُ، أحياناً، يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ حَيْثُ يَسْقُطُونَ» 10. ويستمدّ الخطاب سرديته من مقومات القص وأنماط الكتابة، ويقترن السرد بالوصف لكنّ كليهما ليس إلا أداتين تساعدان الكاتب على أن ينحت صورته في جانب استبطاني لا يكون الظاهر إلا إطاراً لاحتوائه، ولا تكون العناية بالمكان أو بالزّمان أو بالشخصيات إلا بقدر ما يبيّن مختلف نوازع الذات، والتجاذبات الشخصية/ الذاتية التي كان يمرّ بها «البطل» في كلّ طور من أطوار حياته، أطوار يتركز بيانها على المؤثرات والتأثيرات النفسية والوجدانية؛ يقول: «حِينَمَا اقْتَرَبْتُ مِنْ مَدْخَلِ الْمَقْبَرَةِ فَكَّرْتُ: أَنَّ الْمَقْبَرَةَ هِيَ الْمَكَانُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُمَكِّنُ لِلوَاحِدِ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ بَابِهِ فِي أَيِّ سَاعَةٍ يَشَاءُ، نَهَارًا أَوْ لَيْلًا، دُونَ أَنْ يَطْلُبَ مِنْ أَحَدٍ إِذْنًا بِالْدُخُولِ. مَعَهُمُ الْحَقُّ، لِمَاذَا الْحَارِسُ؟ لَيْسَ فِيهَا أَيُّ ثَرَوَةٍ. إِنَّ الْمَوْتَى لَا يَتَاجَرُونَ، لَا يَخَافُونَ، لَا يَحْرَتُونَ وَلَا يَتَخَاصِمُونَ، كُلُّ مَيِّتٍ فِي مَكَانِهِ. حِينَ يَتَهَدَّمُ قَبْرُهُ، يَدْفِنُونَ مَكَانَهُ مَيِّتًا آخَرَ. إِذَا كَانَ الْعَالَمُ قَدِيمًا، فَإِنَّ الْأَرْضَ كُلَّهَا قُبُورٌ» 108.

حقائق وخفايا، وتساؤلات ونقاط استفهام لا تجد الشخصية سبيلاً للتعرّف إليها والإجابة عنها إلا الخروج منها بالوجوب دون الوضوح إذا ما تعلّق الأمر بالحياة، أمّا الموت فقد آمن به «البطل» منذ السادسة من عمره كما آمن وهو في السادسة عشر أن «لَيْسَ هُنَاكَ مَكَانٌ أَكْثَرَ أَمَانٍ مِنَ الْمَقْبَرَةِ» 109.

وإذا كان عالم التجربة الحسيّ يعني الأسر والقيّد، فإنّ عالم التجربة

الفكرية يعكس التحلل منهما وكسرهما وتجاوزهما، ففي العالم الأول لا ترى الشخصية ذاتها، ولا يمكن لها أن توجد إلا في علاقتها بالمجتمع: قلة أو كثرة؛ وأمّا العالم الثاني فهو الذي يريد البطل ويفعل فيه ومن خلاله ما يحقق استقراره النفسي، وبه يتخلص من عذابات النفس، ومن رؤية الآخر وإملاءاته؛ الآخر الذي إذا أسعده حيناً، فليُشقيهِ أحياناً كثيرة، شقاء حاصره منذ سنّ السادسة عندما كان مريداً غير قادر، حتّى العشرين من عمره إذ توقّرت أسباب المادّة والمال، وغاب ما يريح الجسد والنفس والروح ظلّ جميعها ينخرها الشكّ والزبّة بحثاً عن الطمأنينة دون الوصول إليها وأمنية مرادفة لنهاية الحياة مع بدايتها سعادة أبدية رأى البطل مداها عندما قال: «أخي صار ملاكاً. وأنا؟ سأكون شيطاناً، هذا لا ريب فيه. الصغار إذا ماثوا يصيرون ملائكة والكبار شياطين».

لقد فأتني أن أكون ملاكاً» 228. وهو ما يبرّر اعتبار مفهوم البطولة في هذه الرواية نسبياً يقتصر على محورتي الحديث عن الشخصية/ الأنا باعتبارها تستقطب الشخصيات والأحداث، ولكنها في الحقيقة كانت تعيش على الهامش منبوذة مردولة: عبث ولا معنى!

– البعد الاجتماعي في النصّ:

تعكس اللغة في «الخبز الحافي» ارتباط الاجتماعي بالسياسي وكلّيهما بالثقافي، ولم تكن الشخصية لتعكس الهوية، بقدر البحث عنها وقد غيّبت ملامحها في إطار مدينة عالمية «طنجة»⁵⁷، وتحت وطأة استعمار يكرّس القهر والاستغلال والاستلاب، ولعلّ هذا من مبررات ارتباط السيرة الذاتية فيها بالنقد الاجتماعي:

- * «أنا أسخر لجيراننا الإسبانين» 29؛
- * «وجوه الناس عبوسة. الفقّر في ثيابهم وفي مساكنهم المبنية بالحجر والطوب. الأشياء الثمينة يملكها النصاري» 51؛
- * «عثر لي زوج خالتي على عمل في مزرعة الفرنسية التي يعمل في اضطنلها» 55.

لكن، رغم ما كان يعتري الشخصية من ألم نتيجة التباين الكبير في نمط العيش، وفي الثقافة، وفي الحضارة – إذ تكون المقارنة بالفرنسيين أو بالإسبان

57 وجدّ الكتاب الأجنبي في «طنجة الدولية» ضالّتهم، فهي مدينة استوعبت كتاباً عالميين ورسامين ورحالة وموسيقيين وسينمائيين وإعلاميين، توافدوا إليها هرباً من أوطانهم، لما وجدوا فيها من تحرر ومناخ ثقافي بعيد عن العصبية والغليان السياسي.

– فإنَّ الحياة بينهم قد مثَّلت بذرة الإحساس بالسَّعادة ونماء الذات وانفتاحها: «فَتَحَّتْ الرَّادِيُو. بَعْدَ لَحْظَةٍ، أَقْفَلَتْهُ، وَشَغَلَتْ الفونوغراف. كَلِمَاتُ الاسطواناتِ لَمْ أَكُنْ أَفْهَمُهَا. مُوسِيقَاهَا هِيَ الَّتِي تَطُوفُ بِي عَوَالِمَ فَيَزِيَّةِ اللُّون. مَخْذُومَتِي تَعْرِفُ حُبِّي لِمَقْطُوعَةِ «الدَّانُوبِ الْأَزْرَقِ». حِينَ يَكُونُ مِرَاجُهَا رَائِقًا، تَقُولُ لِي بِاسْمَةٍ: «سَأَصُغُ لَكَ اسطواناتَكَ. «ستراوس» مُوسِيقِي عَظِيمٌ» 61.

إنَّ البعد الاجتماعيَّ في تصوير الذات يمثِّل مادَّة النَّصِّ لجانب أدبيِّ لا يركِّز فيه الكاتب على الجماليَّة بقدر النَّظر في الواقع بنية مُرْدَوَجَةٍ قائمة على ثنائيَّة الذات وانعكاسات التَّعبير عنها في نسيج النَّصِّ أولاً، وفي وضع ميثاق قراءة مُتأملٍ ثانياً وذلك إذا منحنا الواقعيَّة معنى خَلَقَ عالم تُشَبِّه بنيته بنية الواقع الاجتماعيِّ الأساسيَّة والتي كُتِبَ فيها الأثر الأدبيِّ (الباردي، 1993: 330)، باتَّخاذ الخطاب لعرض الحياة بما تحمله من هموم وهواجس فكريَّة، بِمنح المضمون الاعتبار الأوَّل على حساب الشَّكل، ذلك أنَّ الشَّخصيَّة المحوريَّة تدرج في الواقع المعيش دون أن تتسجم معه لأنَّه يعكس بكلِّ مكوِّناته، الشَّكَّ والارتياب والصِّراعات الخفيَّة منها والمُعلَّنة.

هيمنة شبكة العلاقات الاجتماعيَّة كبديل لشبكة المفاهيم، أي أنَّ الشَّخصيَّة هي كناية عن الواقع وليست عن المفاهيم، فالشَّخصيَّة تُجَابِه «الحاضر» الاجتماعيَّ المتضخَّم الممزوج أحياناً بالحاضر السِّياسيِّ بكلِّ عنفه، بنزعة وجدانيَّة في الأغلب الأعم، عقليَّة في الهامش، (عبيد، ١٩٨٨: ١٥٤) والعقل عقلاَن: أحدهما كناية عن قيود ومكَبَّلات تضيق على الشَّخصيَّة مفهوم الحياة والوجود اللّذين يصوِّرهما بإبراز مختلف تجلّيات العنف على المستوى الاجتماعيِّ الطَّبقيِّ، وفي إطار العائلة والوطن، فيُنكر كلَّ ذلك كُفْراً بالسَّائد في العيش؛ وثانيهما في الأدب: يوهم الكاتب في «الخبز الحافي» بالاندراج في المعروف المألوف سيرة ورواية وتاريخاً، إلّا أنَّ مظاهر التَّمَرّد والرَّفْض والبحث عن صِيغٍ مخالفة لكلِّ ذلك يُوجِّه القارئ إلى تناول الأثر لنيس باعتباره مُعطى ولكن على أنَّه صِيغٌ استهْما تعكس الجدَل بين الصُّورة وانعكاسها وعكسها على أساسٍ نقديِّ.

– «الخبز الحافي» بين حكاية المجتمع ومحاكاة الجنس

من الدَّوافع لطرح هذه الإشكاليَّة ما تضمَّنه الأثر من مواقف نفسيَّة وعاطفيَّة في غاية الدَّقَّة والحساسيَّة تقترب بتجارب وأحداث قلَّما يرغب المرء في الكشف عنها أو تعريضها؛ لكنَّ محمَّد شكري رسمها واقتربت بِ «كثافة الصِّراع داخل نفس صاحبها»؛ وهي خصائص تجعل الأثر أقرب إلى

الاعترافات، فكان «هذه العملية عملية (تطهير) وعلاج للنفس المُثَقَلَة بالآلام والذنوب» فإذا هي الرغبة في التخفيف من المعاناة التي كابدها تعبيراً شعبياً «(آل مريع، 2010: 55 - 56).

وتطرح الإشكالية أيضاً، في الازدواجية «سيرة ذاتية روائية»: هل هو على أساس التمايز والتباعد والاختلاف بين جنسي السيرة الذاتية والرواية، أم هي العلاقات القائمة والممكنة بينهما خاصة إذا بحثنا فيها من زاوية علم النفس التحليلي؟

ترسّخت هذه الخاصية من إنشاء الرواية استناداً إلى ما عاشته الشخصية حياةً وأحلاماً وخيالاً، يستدعي المستوى المستوى تحولاً من التجربة المادية الحسية إلى التجربة الإنشائية السردية المؤرّعة بين التخيل بديلاً عن «الواقع»، وبين الحلم قطعاً مع أصول النشأة، وبحثاً عن فروع بديلة. ولئن أوهمت صيغة الرواية بأن الأصل هو في التاريخ، وفي المجتمع، فإن السيرة ترشّح الذات ومشكلاتها، الذات الشخصية والكاتب والإنسان، فإذا السؤال عندها «عن أصل الرواية (باعتبارها حكاية) هو وجه من وجوه البحث عن الوجود الإنساني، أو هو بالنتيجة قراءة أو إحدى قراءات الإنسان للإنسان». (مارت روبير، 1987: 11)⁵⁸

تبدأ الرواية في هذه السيرة مع تضخم الإحساس بثنائية الحياة والموت، وكلتاها تمثل ثقلًا بالنسبة إلى الشخصية، فلا هي قادرة على تحقيق مصالحة مع الأولى، لأنها تفقد أسبابها وضماناتها، ولا هي قادرة على فهم الثنائية أو الانتهاء إلى كنهها وجوهرها. إن الضمانات الاجتماعية والنفسية التي تلقّتها الشخصية قد وجّهت بناء الحكاية وإنشاء الرواية وفق ثنائية اللاوعي عبّر عنه في صيغ استفهام، والوعي من خلال التجربة «نضجاً في الجسد، (...) تقدماً في الذهن، وبالتالي بداية تكون مفاهيم التشابه والاختلاف، والاتحاد والافتراق، وغيرها في بعدها الاجتماعي على الخصوص» (مارت روبير، 1987: 14).

قد اتخذت المفارقات والاختلافات أبعاداً عديدة هي: الاجتماعي، والنفسي، والروحي، والطبيعي، وما فوق الطبيعي؛ وكلها ثنائيات جعلت منهج الرواية يساوق «حركة الواقع الذاتية في دقائقها بتفكيكها وإعادة تركيبها» فكان غرض الرواية هو «تحليل الحياة النفسية - الاجتماعية للكشف عن ثغراتها»

58 الأصل هو

Marthe ROBERT & Paul ROBERT : Roman des origines et Origines du roman.

(مارت روبير، 1987: 40) من خلال تعرية الذات كما المجتمع، تعبيرًا عن رفضه والرغبة في تقويضه بالبحث عن شكل آخر من الوجود.

إنَّه الجدل بين الجنس والصيغة: سيرة ذاتية روائية، وبين الجنس والمحتوى: رواية السيرة الذاتية، ومن وجوها أن «الكاتب يسرد سيرة شخص معين أو سيرته الذاتية على أساس محورهما معًا حول فرد يتوفّر على خصائص نوعيّة، وتربطه علاقة إشكاليّة بعالمه» (أزرويل، 1989: 105)، إضافة إلى ما يوجد من نقاط التقاء يمكن تلخيصها في ما يلي:

- علاقة المُبدع بالواقع الاجتماعي؛
- الإيهام بثنائية الواقعي والمُتخيّل: أيّهما الأصل، وأيّهما المرجع؟
- مدى الصدق في طرح القضايا المتّصلة بالبطل (بن جمعة، 1999: 137)؛
- العلاقة بالزمن: الماضي جزءًا من «الحدث»، و«الحاضر» جزءًا من الكتابة، والجامع بينهما هو مستقبل القراءة والتأويل والنقد بحثًا في الميثاق الأجناسي: الحضور والغياب، أو المُعلن منه والمُخفي، أو الالتزام به والعُدول عنه.

ويقول بوشوشة بن جمعة في هذا الصدد: «إنّ جنس السيرة الذاتية الذي يُميّزه أصحابه أو نقاد الأدب عن الرواية لا يختلف في الواقع اختلافًا كبيرًا عنها، فكلاهما ينطلق من التجربة الذاتية ليتجاوزها بعد ذلك إلى مسالك التخيل وفضاءاته، وبذلك، فإنّ كليهما ينبني على فعاليات التخيل والإيهام بالحقبة. وهو ما يجعل البحث في مسألة التّطابق بين الذاتيّ والإبداعيّ، أو بالأحرى بين السيرة الذاتية والرواية غير هامّ» (بن جمعة، 1999: 138).

و«الخبز الحافي» أثرٌ يحتوي على علامات لفظيّة توحى إمّا بالقلق إزاء جنسه، أو بالحيرة الناتجة عن عدم استيعاب الأجناس والأنواع الأدبيّة بما يعني البتّ باندراجه ضمن بعضها دون البعض الآخر؛ أو هي الرغبة في التجريب بجعل الأثر جُماع أجناس متعدّدة مقصودة لذاتها وبمقوماتها النوعيّة التي بها تكون وتتميّز؛ و«الخبز الحافي» هو أثرٌ من هذا الصّنف الثالث الذي يندرج ضمن السيرة الذاتية، وضمن الرواية بمفهوميهما الروائيّ الحكائيّ خبرًا، والقصصيّ السرديّ خطابًا، وهو إلى ذلك وكما بيّن صاحب الأثر نفسه منفتح على المذكرات إذ يقول: «أكتب هذه المذكرات في سنة 1972. لم أر حتّى الآن سلافة وصديقتها بشري. لقد مضى عشرون عامًا. أخبرتني امرأة في سنة 62 أنّ سلافة وبشري دخلتا معًا بورديل بسوسبير في الدار البيضاء لتحترفا الدّعارة رسميًا في

نفس سنة 52. بعد شهور، تزوجت بشرى نادل مقهى من مدينة الجديدة. بعد فشل زواجها، عادت إلى نفس البورديل مع سلافة. لا أدري أين هما الآن» (هامش الصفحة: 162)

المذكرات بما هي: سلسلة من وقائع قصيرة، أو هي الحوادث التي للشخصية المحورية ضلعٌ فيها إما بالمساهمة، أو بالمشاهدة؛ أو هي «التأليف التي فيها الحوادث المعاصرة والتاريخ نفسه بأهمية أكبر بكثير مما تحظى به شخصية الكاتب»؛ والمذكرات باعتبارها مجالاً متسعاً يشمل مجال السيرة الذاتية وفق «أنماط ثلاثة هي: إخبار المرء عما شاهد أو سمع، وإخباره عما أتى أو قال، وإخباره عن الأحوال التي كان عليها. وقد جرى القوم في زماننا على أن يُطلقوا اسم المذكرات على التمثيلين الأولين، ويخصّوا النمط الثالث باسم السيرة الذاتية». (ماي، 1992: 132)

«إننا كلما أوغلنا في البحث عن الحدود الفاصلة بين السيرة الذاتية والمذكرات، ازددنا يقيناً من أنها غائمة زئبقية قلب وهمية. فلئن جاز لنا أن نساير النقد من حيث المبدأ في تأكيدهم قدرتهم على استشفاف السيرة الذاتية من خلال ما تختص به من «نبرة» ونوعية حضور و«تميز للصوت»، فإنه لا مناص لنا من الإقرار بأن مقاييس كهذه ذاتية مفرطة في الذاتية إلى حد أنها تمنع حصول الإجماع بين القراء. ولما كانت السيرة الذاتية سلية المذكرات، فإنها لم تحظ في الواقع، إلا باستقلال ذاتي هش لا يعدل ذلك الاستقلال الذي حظي به اسمها. إن تاريخ هذا الاسم هو بدون شك صورة لطبيعة السيرة الذاتية، ولكنه مع ذلك لا يضبط لها حدوداً، ولا يجعل لها قيوداً». (ماي، 1992: 137)

وقد تبدو في «الخيز الحافي» بعض آثار الذكريات خاصة في آلية الكتابة إذ تتصف «بالسهولة بشكل يقترب من العفوية والتلقائية» (آل مريع، 2010: 55 - 56). ولئن كانت السيرة الذاتية هي الأساس في الجانبين الموضوعي والإجرائي، فهذا لم يحل دون انفتاحها على مرجعيات وأجناس أخرى، «فالأجناس ليست فقط أشكالاً، بل هي أيضاً، أنماط حياة، وسبل وجود، إنها أطر الحراك الاجتماعي، وهي محيطات القراءة، وهي المواضيع التي تصاغ منها المعاني. وبالأجناس نشكل أفكارنا التي بها نتواصل ونتفاعل» (Bazerman، 1997: 19)، فالجنس الأدبي لا ينفصل عن الأحداث التي يحتويها، والاتصال هو بين المبنى والمعنى، والتواصل هو بين من ينشئ الخطاب وبين من يتلقاه؛ ومن هنا، لا يمكن القطع بوجود قواعد نهائية واعتبارها حقائق مطلقة في التعرف إلى الجنس الأدبي. وقد يتخذ البحث

فيها بُعداً آخر سيكون معه الجنس ضرباً من الاستعارة التي لا تلتزم بالمعنى الحقيقيّ بقدر انفتاحها على المجازيّ منه يُستمدُّ من المتعدّد دون الأحاديّ اقتراناً بالطرف وبالسّياق. (Swales, 2004: 61)

وقضية الجنس الأدبيّ في «الخبز الحافي» قد تبدو وهميّة أو مُفْتَعَلَةٌ على أساس الظاهر البائن من معايير السيرة الذاتية إطاراً عامّاً للكتاب، لكنّ الحيرة في التّسييج والتّأطير قد نشأت منذ العنوان، وهو ما ولّد أبعاداً وتساؤلات في البنية العليا: الوحدة والتّعدّد، والانغلاق والانفتاح في المخطّطات والهيكل التي يمثّل كلّ جزء منها تجلياً محدوداً لما يحتاجه المرء في عمليّة التّواصل في سياق اجتماعيّ ومعرّفٍ يخصّصه صاحب النّصّ - وهو مظهر لرؤيته للواقع - ويُطلّقه متلقّيه استناداً إلى ما يدلّ عليه النّصّ ضمناً أو يقتضيه.

وأنّ تفتّح السيرة الذاتيّة في «الخبز الحافي» على عدّة أجناس أخرى، فهذا يدلّ على مرونتها وحركيّتها، حتّى وإنّ لم يكن لدى محمّد شكري وعيٍ أجناسيّ واضح⁵⁹، أو صيغة فنيّة مخصوصة تُمثّل الهدف المركزيّ بالنّسبة إليه في إنشاء «الخبز الحافي»، بما أنّ الحبكة عنده مضمونيّة أكثر منها شكليّة - وإنّ كان هيكل الكتاب ككلّ، يجمعهما ويوافق بينهما في وظيفة التّبلغ الاجتماعيّ في علاقته بالتّقافيّ، وكلاهما يمثّل مؤسسة لا بالمعنى المفهوميّ الاصطلاحيّ، وإنّما في إطارهما التجريبيّ الوجوديّ، وهو نموذج التّعبير والإنشاء بالنّسبة إلى الكاتب، وهو «أفق تَوْقَع» بالنّسبة إلى القارئ (Todorov, 1990: 18)، الأفق الذي يرتبط بأفعال الكلام من ناحية، وبنظام الأجناس وتقاطعها في نسيج النّصّ من ناحية أخرى، سواء أكان هذا التقاطع على أساس الالتقاء أم الاختلاف.

خلاصة

لا نبحث في «الخبز الحافي» عن النّموذج الأصليّ بل المنهج العكسيّ هو الأكثر انسجاماً مع بنية الأثر العامّة في تنوّع أبنيتها وتركيبها الخطابيّ الوثيقة الصّلة بالبعدين الاجتماعيّ والتّاريخيّ والمنظور الذي يوافق الدّراسة هو في ربط السّردية بالنّسقين الزّمنيّ من ناحية، والسّببيّ من ناحية أخرى. (Filliettaz & Grobet, 1999: 221) وحتّى بالنّسبة إلى هذين النّسقين،

59 في عدم وضوح الوعي الأجناسيّ لدى محمّد شكري، انظر أيضاً: محمّد الباردي، إنشائيّة الخطاب في الرواية العربيّة الحديثة، مركز النّشر الجامعيّ، تونس، 2004: 275، إذ يقول: «نعتقد أنّ مسألة الوعي بطبيعة الجنس غير واضحة لدى الكاتب، فعلاً السيرة الذاتيّة والمذكّرة هما شيء واحد في ذهن محمّد شكري، وفي ذهن الكاتب العربيّ عموماً».

فالقاعدة يمكن أن تُحرق، فلا يُعْتَبَران معيارين ثابتين على انسجام الخطاب ووحده، إذ قد توجد وحدات أو متتاليات تكسر الخطية فنربط إمّا بالتقاطع، أو بالارتداد سواء أ تعلق الأمر بالوصف أم بالحوار في تناول لا يتفق والسرّد. ومكونات «الخبر الحافي» ترتبط بالتنوع الأجناسي والمظاهر النصّية المقترنة بالمتتاليات أكثر من الجنس وطرازه؛ والمتتاليات في علاقاتها بالعلامات اللغوية ومنها الروابط، كذلك بالسياق في مفهوم واسع.

2. 2. التّأليف

انسجام الخطاب في «الخبر الحافي» لا تشي به مكوناته الفرعية بين أبنية صغرى وأبنية كبرى، لأنّها جميعاً تقوم على التناثر والتّباع، والتناقض والخلف، ولكنّ الانسجام يتحقّق من خلال لوازم الخطاب والحدث تتكرّر وتخترق نسيج النصّ - رغم تعدّد التّجليات واختلافها، بما يضمن تطوّر النّسق السّرديّ - وهذه اللّوازم محورها الشّخصية السّيرذاتية في صراعاتها التي تتجلى في بُعدين: داخليّ، وآخر خارجيّ - وإنّ كان أولهما محكوماً بثنائيهما، لأنّ توتّر الشّخصية واضطرابها وآلامها إنّما سببها الأطر الحافّة بها والشّخصيات التي تتعامل معها اختياراً منها أو اضطراباً - وفي كلتا الحالتين، تعيش الشّخصية إحساساً بالقهر والحرمان، فالأمل بالنّسبة إليها مقرون بالألم الدّائم: تتوق فتجد نفسها مُطوّقة بقيود السياسة والمجتمع، أمّا الأخلاق فقد ضربت بها عرّض الحائط، ولعلّ في ذلك ما يزيد عذابات النّفس لأنّ الجوانب المادّية الحسيّة لا تزيد الشّخصية إلّا إحساساً بالإسراف في الابتذال، والاندرج في متاعب الجسد والروح.

ومن اللّوازم التي تُحقّق الانسجام أيضاً ثنائيّة الوعي واللّوعي، كما المَقول والمسكوت عنه، أو هي كلّ الثّنائيات التي تُمثّل عُقد الشّخصية النّفسية، وعُقد الرّبط والتّماسك في مكونات الخطاب السّرديّة. وينضاف إلى هذا الإطاران الزّمنيّ والمكانيّ يتكفّان عدداً، ويتّفان وظيفة كلّية شموليّة وهي الكشف عن باطن الشّخصية من ناحية، وتحقيق التّناظر بين مراجع النصّ: الشّخصية/ الرّاي/ السّارد/ الكاتب، وبين الإنشاء الأدبيّ سيرة ذاتيّة روائية، مع النّقد الدّاتيّ يعبره النّقد الاجتماعيّ بمختلف المكونات التي تُسيّجها وتوجّهه، وخاصّة منها السّياسي والأخلاقيّ حروب بقاء مُشتركة بين أبناء الأمّة الواحدة عرقاً ودينياً، وبين أبناء المجتمع الواحد وميسمه ثنائيّة القوّة والضعف، أو التّقدّم والتّطوّر مقابل التّخلف والتّردّي في غياهب الجهل والموت الحقيقيّ منه والمجازيّ في علاقه بالحياة، وهذه هي اللّازمة التي توازّت مع

رسم ملامح الشخصية وأُطرت بناء النص جميعاً، فكانت الثنائية التي ضمنت اتساق الخطاب وانسجامه جميعاً مبرراً من مبررات اختراق النص بثنائية السؤال والجواب، الأول تتعدد مظاهره، أما الثاني فيغيب ويبقى جزءاً من الحيرة التي كانت تعيشها الشخصية، فألزمته بالبحث - عبر النص - عن خصائص الذات، دون الالتزام بثوابت الخطاب في بنيتها العليا، أو منواله الأجناسي الذي وإن أحوال - منذ العنوان - على ازدواجية في المقومات تجلّت أيضاً في النص، فإن هيمنة الذات في الموضوع والصيغة قد جعلت العناية بالجانب الأجناسي أمراً ثانوياً إلا ما أتى منه عفواً.

إن اتساق النص وانسجامه قد حُكما بالموت في نُقطتين، وما بينهما هو الشخصية السيرداتية في تجليات «مقاومة» عديدة بحثاً عن معنى الحياة والوجود؛ ويمكن التعبير عن ذلك من خلال الرسم التالي:



الشخصية في رحلة
البحث عن الذات والمعرفة.

2. 3. النقد

2. 3. 1. مدى العلاقة بين «الخبز الحافي» والتجريب في الأدب العربي الحديث

غلبة طابع التجديد، باعتبار الانخراط في تيار التجريب والحادثة وانحسار علامات التقليد في الممارسة الروائية عند محمد شكري استناداً إلى الأسباب المذكورة، وبمفهوم التجريب باعتباره «قوام التجاوز، فالأدب التجريبي كما تُعرّفه القواميس المختصة «يُشخص فترات القطيعة في التواصل الإبداعي، ويوافق بالنسبة إلى الكاتب والقارئ تحرراً من المصطلحات السائدة» (الباردي، 1993: 71)؛ ويكون التجريب بُغية اكتساب الخصوصية والنقْد، ليس من منطلق الإبداع الفني، لكن من منطلق شذوذ التجربة في الحياة دون فرادتها، فالخصوصية تنبع من الذات المفردة التي تشكّلت من خلال مكونات المجتمع المغربي ومختلف المناخات الثقافية التي ارتبطت بالممارسات الطبقيّة حيناً، الاستعماريّة حيناً آخر.

والسيرة الذاتية عند شكري استُعْمِلَتْ «للتحدّث، وللقصّ، ولتأكيد حضور شخصية فردية أو اجتماعية»؛ والكاتب «يرمي قبل كلّ شيء، إلى التعبير عن استلابه، وأحياناً عن وساوسه؛ بل يحاول أن يُفسّر الآليات المجتمعية والنفسية لذلك الاستلاب ولتلك الوسائس (...). إنّ السيرة الذاتية كانت في الحقيقة، نقداً اجتماعياً [عبر مرآة الذات، وبصياغة أدبية تُقَرِّب «الخبز الحافي» من الرواية، إذ] من الممكن الاعتراض على ذلك بأنّ الرواية بعيدة عن أن تكون هي نموذج الشهادة «الأصلية» التي تسمح لنا بتحقيق النقد الاجتماعي» (الخطيبي، 2009: 126 - 127)، فالغاية تُضمّن فيما هو فنّي خيالي، الخيالي صورة من استبطان الذات في السيرة، وجزء من نؤي عن الواقع بإعادة صياغته من منظور الكاتب دون الشخصية (حتى وإنّ أوهم الكاتب أنّ الشخصية قد حلّت محلّ الراوي واضطلعت بمهامه ورأت برؤيته) في الرواية تجاذباً بين الجنسين دون الانفصال بينهما في النصّ، لكن بتمايزهما هيكلية في الخطاب وموثيق في النقد.

2. 3. 2. في جنس «الخبز الحافي»

لم يهتمّ محمّد شكري بجنس أدبيّ واحد مخصوص، وإنّما جاء كتأبّه توازياً بين السيرة الذاتية والرواية، توازياً قد يؤوّل إلى تشابك أو تقاطع؛ وتأتي ملامح الجنسين على هامش المحتوى. إنّ استيحاء السيرة الذاتية في الكتابة الروائية المغاربية بأفق تخيليّ هو إلى الخطاب الروائيّ المتنوّع أقرب منه إلى الميثاق السّير ذاتيّ الأحاديّ الاتجاه، يُشكّل ظاهرة دالة على حداثة خطاب هذه الرواية، باعتبار المكونات السّير ذاتية، تُعدّ عناصر تكوينيّة في الخطاب الروائيّ، من خلال مساهمتها في بلورة وجهة نظر المؤلّف تجاه الذات والعالم معاً. (بن جمعة، 1999: 616) ومن مبررات ترشيح الجنس الروائيّ على السّير ذاتيّ في «الخبز الحافي» أنّها تتوفّر على جوانب عديدة من نظرية الرواية التي اعتمدها غولدمان وسعى من خلالها إلى البناء والتّطوير⁶⁰؛

60 «عندما ننتقل إلى غولمان (Lucien Goldmann) نجد لديه صيغاً متكاملة المعالم لخطوات نقد سوسيولوجي، يستند إلى أفكار لوكاتش، إذ أنّ الميزة الأساسية التي تطبع النّصّورات النّقدية لدى غولمان كامنّة في ذلك التّظيم الذي ننتج عن إعادة بناء أفكار لوكاتش على وجه شديد الإحكام، مع تأسيس عدد من المفاهيم المحدّدة وبلورتها:

- كمفهوم	رؤية العالم	La vision du monde
- ومفهوم	الفهم	La compréhension
- ومفهوم	التفسير	L'explication

ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- الحواريّة: أقيمت خاصّةً على المخالفة بين وعي الشّخصيّة ولاوعيها، وبين مواقفها ومواقف سائر الشّخصيات المُساهمة في الفعل الحداثيّ؛ وهي جزء من الحكمة في أنساقها المتعدّدة؛
- الإيهام: بتماهي صوت الشّخصيّة بصدى صوت الكاتب، ولكنّ الانفصال بينهما يأتي من خلال خطابين متوازيين متنافرين: أمّا أوّلهما فذاك الذي يقوم على السرد جزءاً من «أحداث ووقائع»، وأمّا ثانيهما فهو الذي تعبّر عنه قرينة لفظيّة تعكس عالم الفكر: «فكّرت»، تأتي علامة تفسير أو تأويل، أو نفي وتأسيس؛
- إنّ الرواية هي تعبير عن «رؤية العالم»، وهي رؤية تتكوّن داخل جماعة أو طبقة معيّنة في احتكاكها بالواقع، وصراعها مع الجماعات الأخرى؛
- إنّ الشّكل الخياليّ للعمل الروائيّ أيّ بناءه الجماليّ يتميّز باستقلال نسبيّ عن بناء العلاقات الاجتماعيّة وشكلها، لذلك، فالنصّ الروائيّ لا يطابق الواقع، ولكنه فقط يُمكن أن يُماثل بنية أحد التّصورات الموجودة عن العالم في الواقع الثقافيّ والفكريّ؛
- اجتماع الوعي⁶¹ واللاوعي في العمل الأدبيّ الروائيّ، كما «علم الاجتماع والبنائية المعاصرة»، وهو يعني انفتاح العالم الروائيّ - والإبداعيّ بشكل عامّ - على علم الاجتماع كما على علم النفس.

- ومفهوم البنية الدالّة La structure significative

- وقد أعطى سوسولوجيا الرواية مظهرًا جديدًا شديد المرونة، دون أن يتنكر أو يتخلّى عن المبادئ الفلسفيّة الأساسيّة التي انطلقت منها الأشكال السّابقة لسوسولوجيا الرواية، وهي مبادئ الفلسفة المادّيّة ». (لحمداني، 1990: 66).
- 61 يميّز غولمان بين مستويين من الوعي: الوعي الواقع، والوعي المُمكن (لمزيد التّوسّع انظر: لحمداني، 1990: 69).

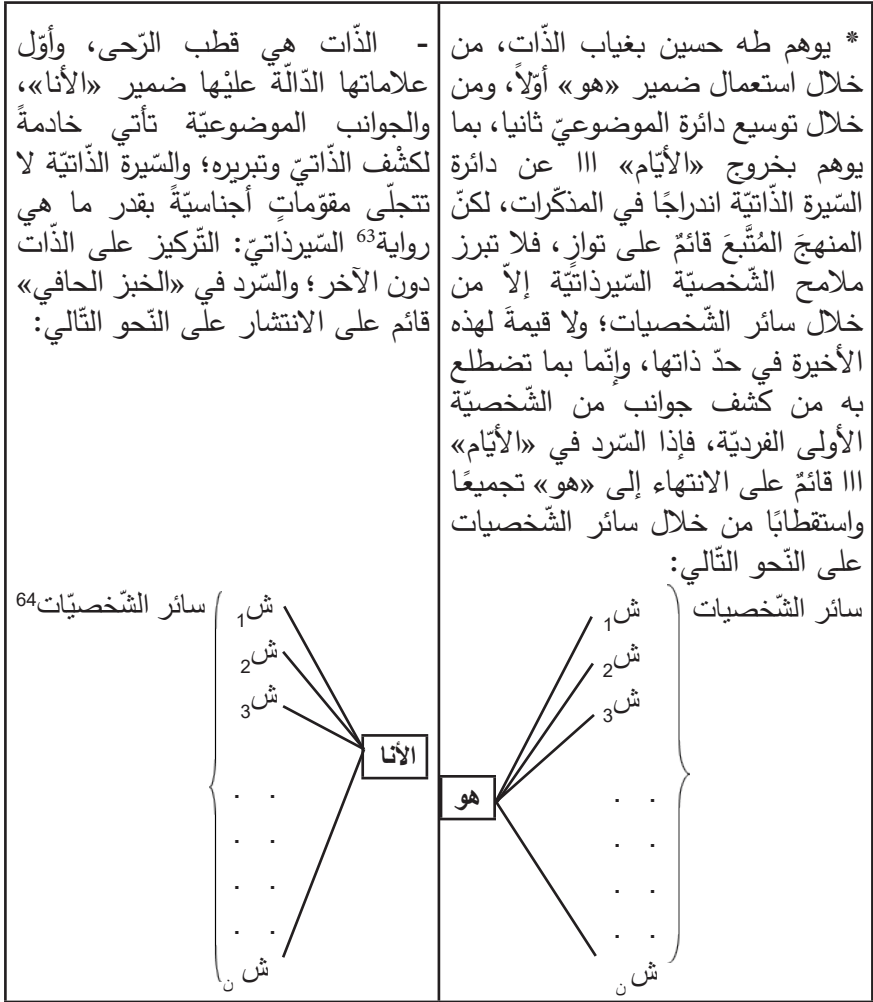
3. النتائج التقييمية لنصي السيرة الذاتية

تناولنا - في إطار السيرة الذاتية جنسًا أدبيًا - أثرين بالدراسة لا شك أنّ بينهما من نقاط الالتقاء⁶² ما شرّع إدراجهما ضمن نفس المجال من البحث، وهذان الأثران هما:

- «الأيام» في جزئها الثالث، لطفه حسين؛
 - الجزء الأول من سيرة محمد شكري الذي وسمه بـ «الخبز الحافي».
- وما أغرى بتحليلهما ليس ما انتهينا إليه من تشابه وإنما هو التباعد والاختلاف اللذان يتجلّيان في الجدول التالي:

«الخبز الحافي»	«الأيام» ١١١
- هناك اتصال وثيق بين الكاتب والشخصية والراوي، إذ تمثل الأطراف الثلاثة محورًا لحياة وواقع أكثر من العناية بالصياغة السردية في بعدها الإبداعي الفني.	*العلاقة بين الكاتب والشخصية والراوي هي جدلٌ بين الالتقاء والتباعد: في الغالب الأعم، هناك مسافات فاصلة (واقعية، موضوعية، فكرية) بين الأطراف الثلاثة.
- الشخصية السير ذاتية صيغت من إرهاصات الواقع، ومن هموم الحياة، فكان السرد اندراجًا في الحدث؛ والحديث كان حوارًا بين الشخصيات أو خطابًا باطنياً يعكس صراعات مادية وضبابية في الرؤية، فكانت الشخصية هي المتحكمة في نسق الأحداث لا يجهد الكاتب الذهن والذاكرة في استرجاعها وإنما تأتي انسيابية؛ فكأن الماضي هو الحاضر يحضر بجزئياته وتفاصيله التي يتضخم فيها العاطفي الوجداني، أما الفكري فكان في طور التكوين من خلال كثافة الاستفهام ليبدو بذرة مع آخر هذا الجزء الأول من السيرة الذاتية: «الخبز الحافي».	*الشخصية السير ذاتية صيغت من أفكار وتوجهات إيديولوجية، وكان الكاتب يمارس سلطة معرفية آمن بها وسعى إلى تكريسها، وكان الراوي ينتقي من ذكريات الحياة ما يخدم مشروعه الثقافي، فيقدمه بوجهة نظره الخاصة، فيفيض الفكري على العاطفي الوجداني حتى يكاد يطمس.

62 وهي التي اعتُبرت من قِبل المهتمين بالسيرة الذاتية ميثاقها.



63 الرواية بمفهومين: رئيسي وهو حكاية أطوار حياة، وثانوي بالمعنى الأجناسي، بما أن نسيج «الخبز الحافي» يُذكر كثيرا بمقومات الرواية أكثر من ميثاق السيرة الذاتية؛ ولعلّ هذا ما يبرّر ازدواج الإحالة منذ عنوان الأثر، وكذلك توجه بعض الدارسين إلى العناية بـ«الخبز الحافي» ضمن رواية السيرة الذاتية/ بوشوشة بن جمعة إذ يقول: «فهذا النوع من رواية السيرة الذاتية في المغرب العربي يمارس لا جنساً أدبياً يحيل إلى تجربة فردية فحسب، ولكن جنساً يجسد واقعاً موضوعياً تفاعل مع ذات الكاتب وتأثرت به حاضراً، فكانت صياغتها له إبداعاً وهو ما جعل رواية السيرة الذاتية لا تنهض على تاريخ الفرد، وإنما تجلو تاريخ الواقع الذي ينعكس في ذات الفرد. وهكذا فإن الخطاب الروائي في هذا النمط الأدبي يسهم في بلورة وجهة نظر المؤلف تجاه الذات والعالم معاً» (بن جمعة، 1999: 205). وهو ما يفصح عنه عبد القادر الشاوي، في قوله: «إن السيرة الذاتية هي الحقل المُفضّل لمتابعة التاريخ الفردي في ظلّ التاريخ العام» (الشاوي، 1981: 302).

64 الضمير في أيّ تجلٍ إنما يعكس صوت السارد وهو يحكي «مختلف جوانب الشخصية،

- لا يتجلى دور الكاتب إلا باعتبار الأثر مدونة، أما الغالب في الحضور فهو الشخصية الحائرة التي تتساءل وتبحث أكثر مما تفكر بمنهج العقل بما أن الغريزة هي التي توجهها.	* الحضور الغالب هو للكاتب المفكر الذي ينقد ويؤسس أكثر مما يسرد وينقل.
= التجربة حياتية فيها عرض لكل الأزمات النفسية والاجتماعية التي كانت تعصف بالشخصية فلا تحس بالاستقرار والاطمئنان والأمن.	= التجربة «إنسانية حيوية منفتحة على حاضر السرد تحاوره ويحاورها» (الطريطر، ١١، 2009: 599)
- محورة الشخصية السردية تقترب بالمهمشين من أرادل المجتمع: الشخصية هي أسيرة سلطة الآخر وقهره.	* صورة الشخصية السردية تقترب بأنموذج بطولي: الشخصية كونت ذاتها بذاتها؛ وحتى إن أعجبت - في فترات من حياتها - ببعض الأشخاص واعتبرتهم مرجعاً في الثقافة والفكر، فإن ذلك لم يطمس ملامح الذات ولم يفقدها روح النقد والتجاوز والحرص على النضج والوعي، والثقافة والفكر.
- المثل العليا والقيم الإنسانية، والعقل والفكر والمعرفة تبدو أفقا بعيدا، تسعى الشخصية إلى الإمساك بها، ولكنها تتأبى عن المحاصرة، بما أنها تصطدم بالواقعي بكل قذارته، فتتهقر الشخصية دون القدرة على التأثير الإيجابي في واقعها أو الاستجابة لحلم الذات.	* المثل العليا والقيم الإنسانية، والعقل والفكر والمعرفة متوفرة لدى الشخصية، وقد خرجت بها من مستوى الاستيعاب والممارسة إلى مستوى التنظير والنقد، فلم يعد الهاجس فردياً ذاتياً، وإنما هو اجتماعي تاريخي حضاري.

لأشك أن اختلاف السياقين التاريخيين كما الظروف الاجتماعية والأطر السياسية والحضارية عامة قد كان له أثره في توجيه كتابة الطرفين، ومقاربة كل من طه حسين ومحمد شكري لكشف الذات - وإن بنوازع مختلفة - فالجنس الأدبي الذي يؤطر «الأيام» ١١١ و«الخيز الحافي» هو السيرة الذاتية،

النفسية والسلوكية والأخلاقية، في مختلف أدوار حياتها وأطوارها، (...) ولكنه يكشف [أيضاً] عن مقاصد استعمال [الضمير] في السيرة وأبعاده» (بن جمعة، 1999: 165) يقول محمد شكري: «إن لعبة الضمائر هذه هي أيضاً نوع من المراوغة والاستغناء والتواضع الذي قد يحمل معنى الكبرياء لأن «الأنا» ليس دائماً تأكيداً للذات واكتراثاً بها، كما أن الغائب المستعار ينبغي ألا يغربنا بالناتية الطيبة عن تجرد الذاتية من الترجسية» (شكري، 1981: 322).

إلا أن المرجعية الفكرية عند طه حسين مُوجَّهة بالسياسة والمجتمع، وعند محمد شكري بالعنصرين العِرْقِيَّ والدِّينِيَّ - وإن كان الكاتبان لا يخرجان عن قطب الصراع بين الغزب والشرق، ومدى إمكانية تحقيق المصالحة بينهما -

إن الجنس الأدبي بالنسبة إلى كليهما لا قيمة له في حد ذاته بقدر اتّخاذه مطيةً لطرح قضايا تشغل الذات وتدور حولها، ولكنّها تكتسب شرعيّتها من بُعدها الإنسانيّ، لأنّ ملامح الذات في سيرتها، يمكن أن توجد لها أشباه ونظائر، وما التّفاوتُ إلا في لغة الخطاب تتولّد من ثراء المدينة وتوفّر الأسباب المساعدة على «قراءة التّراث في علاقته بتجديد الهوية الجمعيّة» (الطّريطر، ١١، 2009: 633)، أو العجز دون ذلك لافتقارها لأسباب التّفافة.

لئن استند الأثران إلى الكشف عن الشّخصيّة السّيرذاتيّة فقد اختلفا في:

- وجهة نظر الزاوي؛
- المرجعيّات البنائيّة والموضوعيّة والوظيفيّة؛
- السّرد: الخصائص والوظائف والغايات التّقييميّة: هل تكون على أساس المعايير النّقدية الأدبيّة، أم الأعراف الأخلاقيّة؟

يذكر محمد الباردي أسباباً ذاتيّة «هي بمثابة دوافع تقف وراء مؤلّف السّيرة الذاتيّة، فالإحساس الحادّ بالزّمن واللّذة الفنّيّة والنّرجسيّة كلّها أسباب ودوافع قد تجتمع معاً، وقد يغيب بعضها ويحضر بعضها الآخر ولكنّ للذات المبدعة وللنفس المُنشئة مبرراتها دائماً»؛ ويقول أيضاً: «السّيرة الذاتيّة، رغم إغراقها في الذات، تُكْتَبُ، شأنها شأن الأدب والفنّ عموماً، في مناخ موضوعيّ وإطار اجتماعيّ وثقافيّ مخصوص، ولذلك، نجد في المجتمع والثّقافة مبررات كثيرةً لنشوّنها وظهورها للنّاس في فترة زمنيّة محدّدة. فهي في أغلب الأحيان، تجيب عن سؤال يعتقد المؤلّف أنّه مطروق في ذهن القارئ يتعلّق ببعض مظاهر حياته أو بعض مواقفه في المجتمع، أو ترد مباشرة لتبرّر بعض المواقف التي اتّخذها المؤلّف ولم تُفهم فهمًا جيّدًا، أو لتُصَفّي بعض الحسابات في إطار الجدل الثّقافيّ أو الصراع الفكريّ في المرحلة التي عاشها المؤلّف وكان طرفاً من أطراف الجدل أو الصراع، لكن من هذه الدوافع والأسباب ما يكون أكثر تأثيراً في توجيه كتابة السّيرة الذاتيّة وأكثر دلالةً ترتبط بظهورها ونشأتها» (الباردي، 2008: 76 - 77).

وأن تتعدّد أشكال التّعبير، وتختلف صيغُ الإنشاء، فهذا لا يعني أنّ أيّ كاتبٍ عليه بالبقاء في حدود النّقد وأطر الميثاق الأجناسيّ، لأنّ ذلك يتنافى وتطوّر الحياة الطّبيعيّ بما يدخل فيه من عوامل وأدواتٍ أبرزها الزّمن واللّغة.

إنَّ السَّيرةَ الدَّانِيَّةَ - كغيرها من الأجناس - وإنْ تكن لها ثوابتها ومعايير أجناسيتها، فإنَّها مُخْتَرَقَةٌ بالحذف أو بالتَّعديل وفق ما يتطلَّبه الجانب الإجماليُّ في تعدِّده وتنوُّعه، لأنَّ هناك تحولاتٍ قد تفرضُها مقدِّمةٌ أو جزئيةٌ حتَّى يتمَّ للنَّصِّ كيانه المخصوص؛ ومعه تُقبَلُ فرضيةُ الجنس في تجاذبٍ دائمٍ بين التَّنظير والتَّطبيق، وفي القِيَم الثَّابتة، وفي الأخرى المتحوِّلة: أمَّا الأولى فنُبذَ بها اجتماع نصوصٍ عديدة في إطار الجنس الأدبيِّ الواحد - حتَّى وإن اختلفت في المرجعيَّات الفكرية والتَّاريخية والاجتماعية وحتَّى الأدبية -؛ وأمَّا الثَّانية فهي طبيعِيَّة ارتباطاً بالفكر البشريِّ، أو بملَكَة تعبيره، وكلاهما متبدِّل متغيِّر.

خاتمة القسم التطبيقي

تشي قراءة الملفوظ النصي بخطوط كبرى تُدرج النص ضمن خصائص خطابية بعينها وتُقصي مبدئيًا، إمكانية اندراجه في إطار جنس أدبي آخر غير الذي توجي به العلامات النصية المكونة لألفاظه التجزئية والتركيبية، ونريد بذلك أبنيته الصغرى، التي وإن كانت في مرجعيتها الأولى الأصلية اعتباطية ومن المُشترك بين النصوص جميعا، مهما كانت مرجعياتها وسجلات قولها، فإنها تكتسب خصوصيات أخرى عندما تتحول إلى شبكة من العلاقات المعنوية من ناحية صلتها بالأبنية الكبرى، ومن الأنسجة الهيكلية في علاقات نوعي الأبنية الصغرى والكبرى بالبنية العليا نصًا مخصوصا في صلته بالبنية العليا الأوسع خطابا، أو جنسا أدبيا له ميثاقه وعلائته التي بها يكون ويضمن تميزه عن سائر الأجناس الأدبية.

كلّ هذا قد تبين من خلال مختلف النصوص النماذج التي اعتمدتها في إنجاز هذا القسم الثاني القائم على الإجراء والتطبيق؛ لكن، هناك استثناءات وخصوصيات تتعلق بـ:

- 1- علاقة الكاتب بالنص أو النص بالكاتب؛
- 2- المنهج المتبع في إنشاء النص بين السُّنة والغُدول، وهنا تُطرَح إشكاليات منها: هل يخضع النص للميثاق الأجناسي، أم أن الجنس الأدبي هو الذي يستدعي جملة من المقامات اللفظية والأنسجة الهيكلية حتى يوافق النص الخطاب؟ وهل يعني اندراج نصّين أو أكثر، ضمن الخطاب الواحد تشابههما ضرورة، بما يؤدي إلى إقصاء الكاتب والحديث فقط، عن أنسجة تركيبية معنوية دلالية هيكلية مهما يكن النص محور الاهتمام؟
- 3- في علاقة الكاتب بمتلقي النص، وفي علاقة المتلقي بالنص والكاتب معًا، هل هنالك حدود وضوابط تُسجّع هذه العلاقة، أم أنها ترتبط بعوامل أخرى خارجهما، أم أن قراءة النص وتأويله لا يخضعان لأي شروط أو قيود؟
- 4- علاقة النص/الخطاب/الجنس الأدبي/البنية العليا بما قد يناظرها مشابهة، أو بما يتقاطع معها التقاء في نقطة أو أكثر، لتكون القطيعة في سائر الخصائص والمقومات بما يعكس التعدد، أو قد يؤدي هذا التعدد إلى الخلف تمامًا؟

يكون تجاوز هذه الإشكاليات من خلال ما استخلصناه من نتائج على ضوء تحليل الخطاب من مداخل متعددة، ولكنها تقول إلى أصل واحد وهو البحث في انسجام النص بل النصوص عبر لازمة هي الأبنية، وهذه النتائج هي:

- اتفقت «مضر المريضة» مع «الأعداء» في مقومات الأقصوصة الأجناسية العامة، إلا أن البعد والتجلي الأدبيين في الأقصوصتين قد انقطع مع خصوصيات الأبنية الصغرى في كليتهما؛ يبرز ذلك في:

≠

الأعداء	مضر المريضة
* النقد البياني الذي يقوم على الاستعارة والكناية وتكثيف المعنى، فلا تفاصيل دقيقة في تعريف الدلالة ولا في تحديد أقسامها إلا ما يمكن أن يُولد المتلقي فكاً لشفرات رسالة رمزية يُنشئها زكريا تامر، فإذا التنافر بين الأبنية الصغرى في «الأعداء» وبين الأبنية الكبرى المُكتنفة بالغموض يتحول إلى انسجام بين صاحب النص ومتلقيه على النحو التالي: بالنسبة إلى صاحب النص، بساطة وسهولة في اللفظ وفي التركيب واسترسال في الأبنية الصغرى ≠ اللامعنى والتباعد بين الأبنية الكبرى لاختلاف سجلات القول ومرجعياته! ↔ بالنسبة إلى متلقي النص، لا منطق في الربط بين الكلمات وفي عقد التراكيب ≠ انسجام النص هو في الربط بين المعنى والدلالة، أو بين الأبنية الكبرى وما يمكن أن يتفرع عنها من أبنية.	- اعتماد منطق في الربط بين الأبنية الصغرى أساسه التفسير والتبرير، فإذا البنية الصغرى إما سبباً أو نتيجة في سلسلة المتتاليات السردية التي تتخذ بُعداً جدلياً: أما الأطروحة فيه فهي موقف طه حسين المفكر الناقد، وأما الأطروحة النقيض فهي تلك التي تمثل العقدة ووضع التأزم، ولا انفراج إلا افتراضاً!

* إِنَّ الدَّلَالََةَ عندَ زكريا تامر رمزيَّة تتشأ من خارج النَّصِّ وترتسم صورة ذهنيَّة عبر الخيال؛ إِنَّ المرجع مع هذه الدَّلَالََةَ يُستثنى من البنية ومن العلامة اللَّفْظيَّة.	- إِنَّ الدَّلَالََةَ عند طه حسين هي انسجامٌ وتوافقٌ بين الأبنية الصَّغرى والأبنية الكبرى؛ إِنَّها دلالة طبيعيَّة تحقِّق التَّفاعلَ بين لغة الخطاب ومرجعيتِه.
* الإضافة مُنتَظَرَةٌ من المتلقِّي وليس من صاحب النَّصِّ استنادًا إلى ما يمكن أن يفترضه مِنْ دلالاتٍ وضعيَّة، إشاريَّة غير لفظيَّة، بمعنى الإيحاء والتَّلميح.	- الإضافة للنَّصِّ يُقدِّمها طه حسين ذاته استنادًا إلى الأطر الحافَّة بالخطاب في إطار البحث عن استلزام المعلول للعلَّة، أو ما يرادف الحديث عن مصر بتلك الطَّريقة التي استنكرها طه حسين والتي أُرْجِعَتْ إلى وباء الكوليرا وانعكاساته النَّفسيَّة واستجاباته العقليَّة.
* الأجزاء السَّتَّة والعشرون التي تتكوَّن منها أقصوصة «الأعداء» - رغم الانفصال والخصوصيَّة - فإنَّها تقوم على «التَّرتيب التَّجاري»¹: تتعدَّد وتختلف لكنَّها تؤول إلى مُقوِّمٍ دلاليٍّ واحد هو عنوان الأقصوصة: «الأعداء»؛ والأسلوب البياني الذي ساعد الكاتب على تحقيق المساواة بين «الدَّلالة الحقيقيَّة» و«الدَّلالة المجازيَّة» هو الكناية باعتبار أنَّ المدلول الأوَّل الأصليُّ هو أيضًا مقصودٌ مع المدلول الثَّاني.	- بنية «مصر المريضة» تقوم على التَّداعي وفق «دلالة الالتزام، فتكوَّن دلالة الجزء على الجزء المجاور له ضمن مجموعة مُرتَّبة من الأجزاء» (فاخوري، 2004: 45) ترتيبيًا ينفُتَح فيه الكلُّ على الجزء تضمَّنًا وانتشارًا وتوسعةً.

إِنَّ المفارقات في أبنية الأقصوصتين لم تنفِ التَّجانس في رؤية النَّصِّ الكلِّيَّة مِنْ حيث تكوينه وطابعه: الأدبي، والفكري، و«التَّاريخي»²، كذلك النَّصِّ باعتباره يُمثِّلُ المُحتَمَل في علاقته بالقصديَّة العقلانيَّة التي تُنظِّم النَّصَّ:

1 للتَّوسُّع في هذا المفهوم، انظر: عادل فاخوري، 2004: 45 - 46.
2 ونريدُ بهذا التَّاريخ في بُعْدٍ أنيَّ قادمًا للكتابة والنَّشر والنَّقد، وفي بُعْدٍ زمنيٍّ، إذ لا نعتقد أنَّ طه حسين أو زكريا تامر قد أرادا فقط، الوقوف عند لحظة إنشاء النَّصِّ ومقام التَّلَفُّظ، بل أرادا أن يطرحا قضيَّة النَّصِّ: اللُّغة والمحتوى طرحًا تحليليًّا نقدِيًّا يتعالى عن قرينة مُحدَّدة للزَّمان - حتَّى وإن اختلفت عندهما الآليات والأهداف في البناء والرؤية -

تركيباً ودلالة. والمُحتمل هو النصّ وقد أُعيدَ إنتاجه انطباعاتٍ أولاً، وتطوراً لفكرته ثانياً؛ وهو كذلك «المُحتمل التركيبي» بما يعنيه من «قابلية اشتقاق النسق الصوريّ الشامل (مختلف أجزاء خطاب ملموس) من مقاطعة ذات القواعد التّفصليّة خاصّة»³ وذات النسق التّليغيّ أو البلاغيّ عامّة، بالرجوع إلى مكوّناته الدّلاليّة، وهي قائمة على التّكرار والتّرادف أحياناً (عند طه حسين)، وعلى الدّليل «متعدّد المعاني يعني كلّ شيء وأي شيء ولا شيء» أحياناً أخرى (عند زكريا تامر) رغبةً في محاصرة الواقع وفي إعادة صياغته في أن إمّا بالتّداخل التركيبيّ، وإمّا بالتّداخل النّصيّ، ومبرّرها هو التّشكيل الإيديولوجيّ للخطاب الأدبيّ بما يجعل تحليله يتجاوز أبنيته أو نحوه إلى الانفتاح على خاصيّة الأجناس الثّقافيّة (Rastier, 1989: 41)، ويوسّع مجاله من الهيكلة التّجريدية وضِعاً للنّموذج إلى أن يكون المتلقّي مشاركاً لصاحب النّصّ في ممارسة اجتماعيّة مُشفّرة سياسيّاً في الوقت نفسه الذي يُنشئ فيه التّمثيل اللّسانيّ من خلال عناصر المنوال الموضوعيّة.

- لنن وافقت رواية «دعاء الكروان» لطله حسين منوال الرواية وفق ما بيّنه كلّ من فان ديك وآدام - وكما ذكرناه وانتهينا إليه تنظيراً وتطبيقاً - فإنّ رواية «الوجوه البيضاء» لم توافق الرواية/ الجنس الأدبيّ/ الطّراز، ولكنها اتّخذت الرواية بالمفهوم الحكائيّ السّرديّ الذي يرتدّ بأصوله وجذوره إلى التّراث في صيغ متعدّدة ومرجعيات مختلفة جعلت رواية «الوجوه البيضاء» تتعالى وتتجاوز حدود السّائد المألوف في البناء والطّراز لتكتسب أشكالاً من النّسج والتّرابط مخصوصة توحى بالانفراط والتّشّنت، ولكنّ تتبّع الرواية: كلياً وجزئياً كُشِفَ عن تصوّراتٍ مُبتكَرة تُحيل على دقّة كبيرة وتركيز شديد في صيغ الخطاب من أبرز تجلّياته الأصداء في مختلف مظاهرها.

ثمّ، لا يقف إلياس خوري عند حدود تغيير الرواية مفهوماً وجنساً، بل ألقي بالمتلقّي في اللّامعنى واللاّرواية، وأنّ ما ينبغي أن يُنشأ فعلاً في الرواية لم يتمّ إلّا مشروعاً وفكرةً قد يُعيدها صاحبها، ولكنّ الرّغبة انتفت برغبة أخرى في نفس انتكاسات الماضي وتناحر الحاضر، انتكاسات أمة وتناحر شعوب في الدّاخل والخارج، وهو ما لم يُخلف إلّا الموت والدّمار لازمتين تحتان

3 انظر: جوليا كريستيفا، علم النّصّ، ترجمة: فريد الزّاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، سلسلة: المعرفة الأدبيّة، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء - المغرب، ط. 2، 1997 (ط. 1، 1991): ص 47، والأصل

Julia KRISTEVA, Semiotiké, Recherches pour une Sémanalyse, Editions du Seuil, collection «Tel Quel», 1989.

«الوجوه البيضاء» وتُحدّدان البداية وترسمان ملامح النهاية التي لا تُوافق نهاية الأثر الأدبيّ ولكنها تنسج خيوط نهاية منظورة تُحوّل البياض إلى قرين الرماد والسّواد وجوه للحياة والموت ولأنسجة الخطاب السّرديّ وقد قُدّت منهما فأصبحت جميعاً تستمدّ كيانهما ومفهومهما من الأخرى.

كذلك، بالنّسبة إلى إلياس خوري، الرّواية قد تجد ما يناظرها رواية ولكن أيضاً وخاصّة أقصوصة هي: أقصوصة: «الأعداء» لـ زكريا تامر في تشعبها وتعدّدها ورمزيّتها وتكثيفها للمعنى؛ بل إنّ التّناظر ليس فقط بين هذه الأقصوصة الجزء ورواية «الوجوه البيضاء»، بل هو بينها والمجموعة القصصيّة كاملة التي أخذت منها «الأعداء»، ونقصد المجموعة القصصيّة: «النّمور في اليوم العاشر»؛ ووجوه التّقارب والتّناظر تبدو في:

✓ النّقد السياسيّ المُبطّن في لغة الرّمز بما يعنيه وما يقترن به من إحياء وتكثيف، وغموضٍ وتلميح؛

✓ الهاجس بالنّسبة إلى كلّ من زكريا تامر وإلياس خوري ليس في تثبيت الجنس وإبراز القدرة على المناظرة والسّير على المنوال ولكن في إبداع أشكالٍ من التّعبير تُعكّس البِدَع في الحياة والواقع: ينكرهما كلّ من زكريا تامر وإلياس خوري، فيجدان في التّغريب والتّجريب في البناء والصّياغة والتّعامل مع أنساق الخطاب ما يساعدهما على النّقد والرّفص سُبلَ تقويض يبحث عنها الكاتب فلا يجد جنورها إلّا في التّراث لُغةً ومرجعيّةً، أمّا الفروع فلا تنمو لأنّها محكومةٌ بالموت والانبثاق عن الأصل وعن الهويّة.

إنّ الرّواية تعكس منهجاً في الكتابة وطريقة في الحكاية لا تُحاكي الطّراز تواصلًا في الجنس وفي الزّمان، ولكنها تُقرأ قراءةً أنيّة هي جزءٌ من مقام تلقّظها، فإذا النّمودج الذي ترسمه الأبنية وتُفضي إليه لا يتجلّى من خلال صور الجنس الواحد وانتماءاته، ولكن بما يُخالفه اندراجاً في المناظرة بين النّصّ والنّصّ، و بين الجنس الأدبيّ والجنس الآخر الذي قد يخالفه في الأبنية الصّغرى والعليا، ولكنّ الكبرى تأتي لتعكّس التّوافق في الهموم والشّواغل، فإذا انسجام الخطاب السّرديّ إنّما تدلّ عليه أصداء الأبنية الكبرى حتّى وإن كانت هناك عناصرٌ خُفّ، فإنّ هناك توافقاتٍ في:

- بعض مقوّمات الأبنية الصّغرى؛
- الإطار العامّ الذي يوجّه فكر الكاتب وتصوراته الأدبيّة في كتابة لا تتأى عن أسبابها ومخلفاتها؛

▪ رفض القيود بجميع أشكالها الموضوعية الجماعية، والتأسيس لشكل ذاتي فردي - حتى وإن وُجدت نقاط اشتراك هي نتيجة طبيعية للمعرفة الموسوعية المُتَشَمِّة بين الأفراد ذوي اللغة والثقافة والحضارة الواحدة.

- إنَّ عاملَ الزَّمانِ ليس كافياً للقول بـ «كلاسيكية» أثر أدبي ما، أو بـ «حداثته»، فكلتاها خاصية في البناء وفي المفهوم أكثر من تعلُّقهما بفترة زمنية سابقة أو لاحقة، أو آنية أو محكومة بالامتداد والتواصل؛ فالسيرة الذاتية عند كلٍّ من طه حسين ومحمد شكري (رغم اختلافهما المكاني والزمني، والمعرفي والثقافي والإيديولوجي) هي انعكاسٌ لرؤية مخالفة مُغايرة للحياة وللواقع؛ وكلاهما لم ينشغل بالاندراج في منظومة أدبية أجناسية أصلها ميثاقٌ وتجليها أنموذجٌ نقديٌّ قد لا يوافق دائماً الإجراءيَّ من خلال المُنتَج من النص. لقد اتخذ كلاهما من الحديث عن الذات مدخلاً للنقد الاجتماعي والاقتصادي، وهما مجالان محكومان عندهما باختلال السَّياسي في تكريس التَّبعية للآخر وطمس ملامح الذات أو تغييبها - إرادة أو ضرورةً -

إنَّ الأبنية عند كليهما لم تُصنع عفو الخاطر، أو انسيابية تصويراً للذات وسرداً لوقائع التاريخ وسيرورة الحياة، إنما سيرة الذات عند كليهما تحكمها الأبنية الكبرى مواضع أثر من الأبنية الصَّغرى، أو العليا بحثاً في السيرة والجنس.

إنَّهما يبحثان عن مجالات العلم والمعرفة، وكيف يُمكن لهما أن يستفيدا منهما، أو أن يُغيِّرا بهما صورة الظلم والقهر والتهميش.

رغم التباين والاختلاف بين طه حسين ومحمد شكري في سياقات القول وفي مقامات التَّلَقُّظ، إلا أنَّ السيرة الذاتية عندهما قد كانت من المرونة واللين والانفتاح بحيث صارَتْ قادرة على استيعاب غيرها من الأجناس الأدبية ومن الأنواع المعرفية ومن الهواجس الفكرية والحضارية العامة؛ وهي مستوياتٌ ومجالاتٌ قد تبدو متباعدة في مناهج البحث والدراسة، لكنَّ هناك من الشواغل ما يجعلها متقاطعةً متقاربة، ويقوم بعضها أحياناً على تخوم البعض الآخر؛ ومنَّ هنا، يتجاوز مستوى البحث في الأبنية خصائصها وطبيعة العلاقات بينها إلى النَّظر في وظائفها لا محاصرةً للجنس ولكن بالبحث في مظاهر التَّحوُّل والتَّبدُّل في «الصورة الأنموذج» التي يشملها التَّغيُّر ارتباطاً بدوافع القول، وبأهداف الإنشاء الفنِّي.

إنَّ النَّصَّ في أبنيته وفي مواضيعه وفي أفاقه هو من إنجاز صاحبه: هو الذي يُحدِّدها، وهي متغيرةٌ متبدِّلةٌ مِنْ نصٍّ إلى آخر - حتَّى بالنسبة إلى الكاتب ذاته - بما أنَّ الخلفيات والأسباب التي يتَّخذها صاحب النَّصِّ مقدِّماتٍ للتفكير والكتابة هي التي ترسم هيكل النَّصِّ ونسجه في الفكر قبل أن يتجسّد لغةً وملفوظاً؛ ومن هنا، فإنَّ الذي يُحدِّد البناء والأسلوب هو صاحب النَّصِّ، وليس العكس؛ وليس شرطاً أن نتَّخذهما دليلاً على صاحبهما، بما أنَّ اللغة تتبدّل باختلاف المقام والسياق، وهو ما يبرّر أيضاً تعدّد الأفكار ولامحدودية التأويل: «إنَّ محاولة الوصول إلى دلالة نهائية ومنيعة سيؤدّي إلى فتح متهاتات وانزلاقاتٍ دلالية لا حصر لها» (إيكو، 2000: 33) سواء أكان ذلك بالقياس إلى الخطيّة الزمانيّة التي يتحدّد نظامها من خلال الروابط السببيّة، وبالتالي، ما يُقبَل في لحظة من التاريخ قد لا يُوافق ضرورةً، لحظةً أخرى، أو إلى المعيار العقلانيّ، وهو ليس واحداً: لا بالنسبة إلى الأفراد، ولا إلى الثقافات.

والاعتماد على مُدَوّنة قد تتّصل بعض نصوصها زمانياً، وقد يفترق بعضها الآخر قد آل بنا إلى مستويين: أولهما: أنَّ بنية نصٍّ ما لا تخضع ضرورةً إلى كلّ مكوّنات الجنس الإطار الذي تندرج ضمنه، إذ قد تُوجّه بميولات صاحب النَّصِّ وباختياراته في الكتابة كما في النّقد؛ وثانيهما: أنَّ لعامل الزّمان دوراً واضحاً في بلورة الجنس الأدبيّ وفي تغيير ملامحه بجعله خاصّةً يفتح على رؤية إبداعية وتصورات في إنشاء النَّصِّ تتعالى على التقنين وعلى التّأصيل، ليكون هاجس الكاتب العدول عن السّنة والاندراج في التّجريب باستتباط أشكال جديدة في الكتابة؛ فتكفّ عن أن تكون تسمية الجنس ومرجعه هي الأصل في التّمييز بين النّصوص فالخطابات لتصبح «فكرة الجنس الخليط أو المزيج هي نتيجة مطابقة بين نظامين جنسيّين» (Ducrot، 1972: 195) أو أكثر، ويكون هذا المزج عمليّة ارتداد في الزّمان بالنظر إلى تأسيس الجنس، ولكنّه أيضاً عمليّة تقدّم في ظهور «جنس» آخر يقوم في الآن ذاته على الاختلاف والانتلاف، وبالتالي، لا مجال للقول بأبدية الجنس الأدبيّ، أو بعدم إمكانية تحوّل نموذجيه.

وإذا كان محور اهتمامنا ومنهجنا في تحليل النّصوص هو الأبنية - بمختلف خصائصها وتجلياتها وطبيعة العلاقات بينها - فهذا لا يمكن أن ينفى الانفتاح على مختلف حقول البحث والمعرفة والدراسة منذ القرن التاسع عشر - حتّى وإن لم يكن الأمر مقصوداً لذاته - إذ اللغة التي هي أصل النَّصِّ وكيانه، تمثّل نقطة الالتقاء بين مختلف مجالات التّحليل والتّعليل. ثمَّ إنَّ

مفهوم النظام لم ينتف في أي تيار من تيارات دراسة اللغة، وإن اختلفت المداخل والمبررات والمقاصد من تجزيئية قد تهتم بالأصوات، أو بالنحو، أو بالمعجم، وتركيبية، وتوليدية، وغيرها. وإذا كان من جدل، فليس في النواحي المذكورة، لكن فيما يمكن أن تُقضي إليه من نتائج على مستوى التأليف والأنظمة إما بالإقناع انسجامًا، أو بالرفض والدحض والنقض انتهاءً إلى غير المنتظر، أو ما لا يمكن تفسيره أو اعتباره نظرية متكاملة تتأسس أنيا وتضمن بقاءها زمنيًا.

على أن العناية بالأبنية والهيكل لم تُقص أسباب التفكير والتأول فيما يتعلق بالنص في صلته بالنظرية التي ينبثق عنها أو يحيل عليها؛ أيضًا من حيث شبكات العلاقات بين الأبنية المختلفة المتعددة في نظام تفرعي تتصل فيه الأبنية بعضها ببعض، لكن دون أن تمتزج أو يطمس جزء منها الجزء أو الأجزاء الأخرى. واختلاف أنظمة العلاقات محكوم لا محالة، بطبيعة الجنس أو البنية العليا التي تمثل النص، وهي مُسبجة أيضًا بقراءة النص، إما قراءة آنية، وإما أخرى زمنية تمكّن من اعتبار العناصر جميعا وفي نفس الوقت، وبالتالي، من ملاحظة مدى ثباتها، ووحدتها، وانسجامها؛ أو هو التأليف بينهما في إطار النصوص التي تنتمي إلى نفس الجنس الأدبي، بما يؤكد أن ليس وراء النص منشئه فحسب بل إن للمقام والمرجع أثرهما في صيغة النص وقراءته أبنية، وفي تأسيس نظامه هيكلًا تجريديًا يضمن الوصول إلى الصنف أو النوع أو الجنس الذي يندرج فيه النص وكل النصوص الممكن إنجازها موافقة للنظام والوحدة.

الخاتمة العامة

أردنا بهذا البحث، الاهتمام بتحليل الخطاب ولسانيات النص من النظريات البنيوية في إطار علم جامع. ويقوم العمل على التحليل البنيوي الذي تتجلى من خلاله المرجعيات أيضًا نوعًا من الأبنية؛ فلا يُنظر إليها معزولة، ولكن باعتبارها عوامل مساعدة على تبين المنهج وخصوصيات النظرية في آن؛ وهو أمر لم يخل من عسر لأن المرجعيات ذاتها مرتبطة بعامل التاريخ وبخصوصية الثقافة بما يطرح مشكل المعنى من حيث التحول من السياق إلى المقام، ومن النظام اللغوي إلى الجانب التداولي؛ وبالتالي، من حقل دلالي إلى آخر.

ويندرج الاهتمام بالبنية في مختلف أنواعها وتجلياتها، ضمن الاستدلال على انسجام الخطاب تنظيرًا، وتبيين اتساق النص وحوارية أنظمته وأنسجته بما يعكس انسجام اللفظ والمعنى من ناحية، والنوع والجنس من ناحية أخرى، حتى وإن أبدت نتائج البحث والدراسة التحليلية والتفصيلية تنسيبًا للمسألة ليس من حيث وجود الاتساق والانسجام ولكن من حيث مذهبها والمؤشرات الدالة عليهما ضمانات تساعد على تبين الاستدلال في المحتوى النصي، وتبينه وتتبع مساراته منهجًا في الإنشاء والنقد معًا.

وربما تعلقت النسبية أساسًا بالاتساق في الخطاب السردية لخصوصية التعامل أو التفاعل مع الروابط اللغوية والأدوات المنطقية والقرائن الزمنية التي تكتسب مميزات في سردية الخطاب وفق ثنائية الحضور والغياب: الأسباب والخلفيات والمبررات؛ وإن أغلبها موضوعي مقترن بنسيج النص، وبأجناسية الخطاب، وإن بعضها «ذاتي» هو رهين تعامل صاحب النص مع الأطر الحاققة ومجموع المرجعيات التي تتخذ أشكالاً أخرى من الانسجام إذ تحول إلى عالم لغوي هو أقرب بكثير إلى الخيال منه إلى الواقع.

وإن وظيفة الاستدلال والانسجام، سواء أُنظر إليهما منفصلين مفهومين، أم مقترنين في سياق بحث معين يتعلق بالخطاب السردية، فإنهما يتجاوزان حدود الموضوع الواحد والمرجع الواحد ليعكسا تفاعلاً تتفاوت مستوياته حسب درجات الانسجام الظاهرة منها والضمنية، بين نصوص وخطابات متعددة، وربما مختلفة، لكن ليس شرطاً أن تتناقض، بما أنه يُنظر إلى الاستدلال والانسجام منهجاً ولغة خطاب، وليس شرطاً أن يعكسا اتفاقاً في المضمون.

ولا رَيْبُ في أنّ هناك جزئيات وتفاصيل تميّز الاتّساق عن الانسجام، وكليهما عن الاستدلال. وإذا كنّا بيّنا نظرياً هذه الجوانب، فإنّنا ونحن نبحت في الجانب الإجرائي نظرنّا في جوانب التّناغم والتّفاعل، لكن ما الذي يحدّ هذا التّوجّه؟ إنّهُ ليس الوجود أو العدم في التّجلي، لكن الحدود ومبرّراتها، والاختلافات وأسبابها، وهذا أيضاً ممّا يقترن بتعدّد أشكال الخطاب السّرديّ المُعتمَد في دراسة المدوّنة دراسة يتفاعل فيها المنطقيّ مع الأدبيّ، واللّغويّ مع الفلسفيّ بحثاً في الأسباب والعِلل، واستدلالاً على ما أنشئ وقياسه بممكن الصّياغة والوجود.

ولقد تعدّدت وجهات النّظر ومقاربات محاصرة مفهومي الاتّساق والانسجام سواء أ كان ذلك من حيث المفاهيم¹ أو العلاقات بينها في صلة المرجعيات بهذين المظهرين؛ ولكنّ مجالات بحثنا ارتكزت على الاستدلال عليهما للوصول إلى النّصّ وحدة معنويّة في سياق ومقام يعنيان تنظيم الخطاب - النّصّ، ويرتبطان بالاتّساق علاقاتٍ خطّابيّة تقوم بالأساس على الرّوابط وُجدتْ أو لم توجدْ، وبالانسجام علاقاتٍ مرجعيّة أساسها التّكرار ابتداءً عدّة عبارات متتابعة بلفظة واحدة، ومن أبرز مظاهره الزّمن/ المظهر أو الجهة، وهو تكرار يتجلى في المتتاليات التي تتّفق في المصطلح وتختلف في المفهوم بين أبنية صغرى، أو كبرى، أو عليا، وفي النّوع والصّياغة والتّصوّر.

يتّصل كلّ من الاتّساق والانسجام بنسيج النّصّ وأنظمتها اللّغويّة، ويكون الاستدلال عليهما في الخطاب عامّةً، والسّرديّ منه خاصّة بدراسة المجالات المميّزة، وتتبع المجموعات التركيبيّة والبنويّة المُشتركة التي تكون بمثابة «الشّفرات» الدّالة على الاتّساق والانسجام الخطّابين بين الاستقلاليّة في المرجع، والترابط في مستويات النّصّ دلاليّاً ومنطقيّاً، أو باعتبارهما خاصيّتين في النّصّ، ولهما وظائف فيه وفي الخطاب أيضاً؛ ومن هذه الوظائف بيان الخصائص البنيويّة في توزيع الألفاظ والقرائن وتحقيقها نسيج النّصّ في مختلف شبكاته؛ كذلك التّعرّف إلى مميّزات العبارات واختلاف دلالاتها بتغيّر مواضعها من النّصّ، واقتراءً بصبغة النّصّ ذاته سواء أ كان ذلك على مستوى تراتب العبارات، أو بنمط بنيته العليا التي توطّره؛ وفي وظيفة ثالثة، تحقيق التّفاعل بين المقول من النّصّ، والمسكوت عنه افتراضاتٍ قد تقترن بجوانب تداوليّة، وقد تظّل رهينة البرهان الرّياضيّ.

1 إضافة إلى علاقة الاتّساق والانسجام بمفاهيم الجملة والنّصّ والخطاب، تطرح علاقاتهما بمفاهيم أخرى كالمناسبة والإفادة والدّلاليّة والتّداوليّة.

إنَّ العلاقة بين الاستدلال والانسجام في الخطاب السردِيّ يُقيّمها صاحب النصّ أولاً ويدعمها ويبرز تجلياتها المتلقّي في ناحية بنيويّة ولكن في ما يتجاوزها أيضاً، وذلك حسب تعدّد الثقافات واختلافها، ولكن ما يوحدها هو الفكر الإنسانيّ الذي يضع قوانين عامّة قد لا تُحاصر النصّ ولا تحدّه، ولكنّها تُؤسّس للخطاب بالمفهومين: التداوليّ المعرفيّ، والأجناسيّ البنيويّ، فيؤوّل التعدّد إلى الانحسار، وتتخذ البنية الكبرى معنى أو معاني تقارق الأصل مرجعاً، وتتأصل في الجنس أنموذجاً يُصبح بدوره عاملاً مُساعداً على تحليل الخطاب. ويقترن الاستدلال بالانسجام من حيث دراسة خصائص الأنظمة العامّة في ترتيبها وتراتبها، وفي تطوّرها وتناميها، وفي صياغاتها العامّة وفق ثنائية المحور والأشعة، تتكثّف في المستوى الأوّل بما يوافق البنية العليا، أو البنية الكبرى، لتتوسّع في الأبنية الفرعيّة منهما معاً، أو في الأبنية الصغرى على وجه الخصوص. وقد لا يبدو الانسجام واضحاً في هذه العلاقات حتّى يكون الاستدلال سبيلاً لبيانها من خلال البحث في الأسباب والعلل، أو في القرائن الصريحة منها والضمنيّة الدالة على الاتّساق أو الانسجام أو عليهما كليهما، وهذا رهين وضعيّ البداية والنهاية من كلّ نصّ وما بينهما من علاقات وأوضاع تُناظر أو تتفتح على ما يمكن تصوّره من صلات بين التّموذج والنّظام الذي يتجلّى فيه والتّفاعل بينهما ونموذج ونظام آخرين، فلكلّ وجوده واستقلّاله، ولكنّ من نقاط الالتقاء ما يجانس بين الأطراف كلّها، وبالتالي، ليس الحديث عن الاتّساق والانسجام رهين النصّ وحدة مستقلة بذاتها ولكن في إطار العلاقات بين الأبنية العليا والجنس والنوع على حدّ سواء.

إنَّ الغاية من الاستدلال على انسجام الخطاب السردِيّ هي التّعريف إلى خصائص التّفاعل بين عناصر النصّ بما يبرز وحدته الإجماليّة، وأنّ نُرجع المتعدّد من النّصوص إلى أنموذج مُركّب يختزل مختلف الفرضيات الممكنة في بناء النصّ وإنشاء الخطاب، وبيان الطّريقة التي بها تُنشأ العلاقة بين النصّ المرجع والخطاب الجنس الأدبيّ. وأفرز البحث أنّ النّظر في انسجام الخطاب السردِيّ لا يقتصر على بنائه العامّ تفاعلاً بين الجزئيّ والكلّي، وتأليفاً بين المبنى والمعنى، ولكنّ انسجامه يقترن أيضاً بأطراف وعوامل ومرجعيات خارجة عنه يتّصل بعضها بما هو لغويّ تلقّضيّ اجتماعيّ، ويحيل بعضها الآخر على ما هو نقديّ وفق ثنائية القبول والرّفص علاقة جدليّة بين صاحب النصّ ومتلقّيه، ليس فقط في بُعدٍ أني بل في آخر زمنيّ يربط النصّ بالتّاريخ من ناحية، وبالتّطوّر الأجناسيّ الأدبيّ من ناحية أخرى: التّألف والانسجام أو التّباين والاختلاف.

إنَّ البنية في تحليل الخطاب هي مجموعة من العلاقات موضوعية على نحو مخصوص؛ والمقارنة بين خطاب وآخر لا تعني التَّوَابِت فحسب بل المتغيَّرات؛ وبهذا، تتحوَّل المُعادلة من البنية التي تصنع الأنموذج إلى الأنموذج الذي يُحدِّد البنية إمَّا على أساس الأنظمة اللُّغويَّة أو الأبعاد الرَّمزيَّة تُستمدُّ من التَّقافي على أساس التَّقابل أو التَّكامل بين المعنى الظَّاهر والمعنى الخفي.

ثمَّ إنَّ دراسة مدوَّنة تقوم على التَّنوع والاختلاف يعود إلى رغبة في تبيين النَّظريَّة في وحدتها وانسجامها من خلال مظاهر نصِّيَّة متعدِّدة أفرزت تحولات بنيويَّة عديدة دون اعتبار العامل الزَّماني أنيًّا كان أم زمنيًّا بصفة مُطلقة، فتأثيره مُقترن بالعناصر الأخرى التي تُساهم في بناء النَّص وفي إنشاء الخطاب وفق منظرين: أولهما في إطار سلسلة نصِّيَّة أنيَّة، وثانيهما ضمن كلِّ أجناسي زمني.

كان تحليل الخطاب السَّردي من خلال النَّبْح في مفاصل النَّص وفي مُبررات مواضعها دون سواها، وقد يكون الرَّمزُ تجلِّيًّا من تجلِّيات النَّص، فإذا هو جزء من مرجعيَّة معجميَّة معرفيَّة موسوعيَّة عامَّة؛ كما يُمكن أن يكون طريقة من طُرُق الخطاب، فإذا هو جزء من لغة رياضيَّة تجريديَّة كونيَّة؛ وليست العلاقات بين المستويين إلَّا منطقيَّة تحاول أن تُحاصر الطَّبِيعي (وهو اللغة) من ناحية، والوطني (وهو الأنساق والأنظمة السِّياقيَّة) من ناحية أخرى، من أجل وصف منسجم للنَّص أقمناه على بُعدين: بنيوي ينهض على خصائص النَّص: تجربة إبداعية أوَّلًا، ومن خلال الاستدلال باعتباره من أسس بناء الخطاب، ومنهجًا في البحث، بما يجعله في علاقة تلازم مع الانسجام مقومًا لثنائيَّة النَّص والخطاب، وسبيلًا لتقريب المُنجز اللَّفْظي من القراءة الفكريَّة إذ تتصل بمختلف المعطيات التي يقوم عليها النَّص، فإذا هي مُتجاذبة بين الظُّهور والإضمار، وبين النَّص وقصده الموضوعي أو المضموني.

وأنْ نهتمَّ بالنَّص وحده كلاميةً، فهذا لا يعني عزله عن الأطر الحاقة به والعناصر الموجهة له سواء أ كان ذلك بصفة مباشرة أم غير مباشرة، لكن فقط تقييم أي نص لا يكون بعناصر خارجة عنه، وإمَّا من داخله؛ فالنَّص هو الذي يفتح على الخارج وليس العكس الذي قد يعني الإسقاط والتَّسْف في الاستدلال على انسجامه في وحدته، وتفاعله مع نصوص أخرى من جنسه أو من غير جنسه. وأفضت المقارنة إلى أن الاستدلال على انسجام النَّص يكون أيضًا من خلال علاقته بالخطاب، فالجانب الإجرائي أفرز أن القول

باقتصار النَّصِّ على جنس أدبيّ واحد يبدو عسيرًا، سواء أ تعلق الأمر بالخطاب أم بالنَّصِّ بنية عليا هي نفسها محكومة بالتنوّع و الاختلاط بين أبنية صغرى فرعيّة كثيرًا ما اعتُبرت أبنية عليا فرعيّة قد تتتابع وقد تتداخل على أساس التّضمين أو القطع السّرديّ.

وما يدلّ على أنّ النَّصِّ ليس أسير نمطيّة نهائيّة هو أنّ طريقة تحليله فالاستدلال على انسجامه لا يتمّان بآليات خارجة عنه مفروضة عليه، ولكنّ النَّصِّ هو الذي يعكس منهج البحث في خصوصياته، حتّى وإنّ كان المدخل العامّ لجميع النّصوص على اختلاف أنواعها ومرجعياتها، هو اعتباره وحدة كلاميّة لها نسيج مخصوص يبرّر غلبة عنصر بنيويّ، أو توجّهًا في الإنشاء والتّعبير له تجلياته وآثاره في تحديد طبيعة العلاقة بين الباث والمتلقّي.

* * *

بما أنّ النَّصِّ هو شيءٌ أو مكوّن دلاليّ مُركّب، يميّز شافير بين أربعة أنواع يقوم عليها المنطق الأجناسيّ، وهي التي تخترق النّصوص، وهي في الآن ذاته، طُرُق مختلفة ومساعدة لإبراز العلاقات التي تُقيمها مع «جنسها»؛ وهذه الأنواع هي:

- منطق التّمثيل عبر الإجراء الذي تُكوّن به للنّصّ بنية، و المبدأ في ذلك هو بيانيّ إحصائيّ؛
- منطق التّمثيل عبر «الأنساب» أو ما فوق النّصّي الذي يتّخذ عبره النّصّ موقعه مقارنةً بنصوص أخرى سابقة أو معاصرة، والمبدأ في ذلك تخصيصيّ؛
- منطق التّمثيل عبر القياس الذي يُشبه من خلاله، كلّ نصّ نصوصًا أخرى، و المبدأ في ذلك طرازيّ.
- منطق التّمثيل الشّامل الذي يُكوّن به النّصّ فعلا تواصلّيًا (يؤدّي جملة من الأسئلة مثل: «مَنْ يتكلّم؟»، «إلى مَنْ؟»، «ما الغاية من ذلك؟»)، والمبدأ في ذلك هو التّباين أو التّناقض أو التّضادّ؛
- إنّ نوع نصّ ما نتيجة عمليّة أو عدّة عمليات لغويّة مُنجزّة أثناء مسار الإنتاج؛ وهذه العمليات يمكن أن تتعلّق بالأبعاد التّالية:
- تحديد العلاقة بالنّسبة إلى وضعيّة الإنتاج الماديّة بين أن تُكوّن ضمنيّة، أو مستقلّة؛

- تعريف علاقة لفظية بالمقارنة أو من حيث صلتها بما قيل، إذ تُتناول منفصلة، منتمة إلى عالم آخر يُنَجَّرُ لغويًا، أو تُتناول مُتَّصِلَةً، منتمة للعالم ذاته؛

- و قد تتضاف معطيات أخرى إلى الأشكال الأجناسية التي يُمكن التَّعرِّف إليها مثلاً بالرجوع إلى أصناف المتتاليات التي ميَّزها أدام (1992).

هذه الأبعاد المختلفة قد لا تتوفَّر جميعًا ودفعة واحدة، فقد تتكوَّن عبر التَّطوُّر، ولنأخذ مثالاً على ذلك بُعْدَ الضَّمْنِي/ المستقل، يمكننا أن نقول في مستوى أوَّل من التَّحليل، أنَّ هذا البُعد يوافق بشكلٍ من الأشكال، الجنس. وقد تكون أنواع النصوص، أو الاختيارات الخطابية التي تُنَجَّرُ في مستوياتٍ متعدِّدة من الوظائف، أبنية تطوريَّة ضروريَّة لاستقلال هذه المستويات؛ وبصفةٍ عامَّةٍ، للعبور من الأجناس من مستوى أوَّل إلى الأجناس من مستوى ثانٍ (على أساس أنَّ الأنواع لها وجهان: أولهما يتعلَّق بعملية اختيار ضمن مجموعة ممكنة؛ وثانيهما هو تعبير لساني عن هذا الاختيار، وكلاهما يُمَثَّل أبنيةً ضروريَّة لتسيير أكبر عدد مُمكنٍ من أنواع الأجناس المختلفة، لضمان تَحَكُّم أكثر عقلانيَّة فيها. ومن هنا، يُمكن اعتبارها عناصر تنظيم قويَّة هي من دُعائم الأجناس) (Schneuwly، 1994: 170 - 171)، وهي ليست بمعزل عن السياقات والمقامات والمرجعيات التي تنشأ فيها وترتبط بها.

إنَّ النَّصَّ الحكائيَّ السَّرديَّ هو جزء من تاريخ البشريَّة في بُعْدِهِ الإنسانيِّ، مهما اختلفت أشكاله وأنواعه، وهو يعود إلى هذا المَعين المُشترك، وإنَّ تعدَّدت الثقافات واختلفت وجهات النَّظر، ربَّما إلى درجة التَّباين التَّام: تاريخيًا وجغرافيًا؛ ذلك أنَّ فنَّ الحكاية هو جزءٌ من الحياة، بما يضيفي عليه صفة الكونيَّة. وهنا، يُطرح مفهوم المعنى في علاقته بالبناء وبصيغة الخطاب: أين يكمن الخلاف، وفيِّم تتجلى الخصوصية بالنسبة إلى النَّص: الشَّكل والمحتوى؟ كيف يمكن أن نميِّز نوعًا أدبيًّا عن آخر إذا كانت جميعًا متَّصلة في جنس أدبيٍّ أو هيكلٍ سرديٍّ مُوحَّد؟

إنَّ تباين الأجناس الأدبية من حيث مواثيقها وهيكلها العامَّة التجريدية منها خاصَّة، لا يعني ضرورة، اختلافها في الأنساق اللُّغوية، والخصائص الشَّكلية، لكن ربَّما يتَّضح الخُلف في الأنواع من حيث المرجعيَّات والمجالات التي تدور المواضيع المطروحة في فلکها. وخصوصية النَّص السَّرديّ أنَّه لا يُولي الأنواع الأهميَّة القصوى بقدر ما يتَّخذها منظومة تشدُّ أواصر النَّص

وتجانس نسيجه من حيث علاقة الأوعية بمحتوياتها، فلا تكون هناك فراغات. والأبنية الصغرى تتباين وتتفاضل من بنية إلى أخرى، في مدى تحقيقها الانسجام بين الجنس والنوع؛ والمعرفة لا تختص بالجانب الموسوعي سجلات قول، بل فيما يعتمده صاحب النص، وما يثيره من تساؤلات وإشكاليات هي سبيل المتلقي لإعادة إنتاج النص.

يُقَدِّم الجنس الأدبي صاحب النص حتى يندرج ضمن الخطاب السردى؛ وهو مع هذا، مقيد بالانطباعات التواصلية في بُعد اجتماعي باستخدام اللغة في خطاب فردي ولكنه جماعي أيضًا؛ فالنص وصاحبه كلاهما يخضع، وإن إلى حد، إلى تقنين التصرفات/ المعاني والأشكال، لكن الدائرة تتوسع من خلال الفرضيات التي يقيمها صاحب النص، وهي جدل بين ما ترسخ في الذاكرة، وبين ما يريد المنتج أن يصوغه اعتقادات حول العالم. توسع لا يخرج عن مستويات ثلاثة مشتركة بين النصوص، وهي: مكونات العقد الوضعي الظرفي؛ وأصناف القيود الخطابية؛ ومختلف مظاهر تنظيم النص و/ أو النصوص الشكلي.

هي مستويات أو قواعد مرنة مرونة الظرفية الاجتماعية: تتبدل وتتغير لكن دون القطع مع القواعد العامة التي تقوم بوظيفة التنظيم وتحقيق التوازن في النسيج العام الذي يُعْتَبَرُ قالب الأشكال المدونة، والمعيار الذي وفقه تتم المقارنة بين النصوص والخطابات: الثبات والتحول؛ والشكل والمحتوى؛ وما الذي يُشْرَعُ مقارنة دون أخرى؛ فتكون إحداها منطقية والثانية غير ذلك؛ ثم، ما المقصود بالمنطق أصلاً؟! إنه التوافق عامة في الخصائص وفي الوظائف، وفي منطلق الاستدلال وغايته عبر التعريف بالأشياء وبالأطر؛ والعلامات المميزة لنص ما بين الذاتية والموضوعية في التناول والعرض؛ وفي التنظيم الأفقي، فالهرمي الذي يسبق النص، أي نص، أما الأفقي فلغوي بنائي؛ وأما الهرمي فيتعلق بالنص، كما بمنهج قراءته وتفسيره في مستويات إعادة بناء وتأويل، مع مراعاة المعطيات الوضعية الظرفية التي تتصل بها.

بحثنا في الأجناس الأدبية وأنواعها، فإذا بينها تشابهات يمكن أن ترادف مقومات ميثاقها نظرياً، أكثر منه إجرائياً، لأن النصوص - و هي قرينة عوامل عديدة متبدلة متغيرة - من الطبيعي بدورها، ألا نجد فيها تشابهاً كلياً أو تفسيراً مباشراً للمنظومة اللغوية التي تنهض عليها في المزوجة بين المبنى

والمعنى. فموضوعية البحث التي نَشُدُ لا تتعلق بالنصوص مادّة بحثٍ بقدر ما نسعى إليها في المنهج دراسة للبنية ومكوناتها التي قد توهم بالتماثل ولكنها تتوغل في التباين والاختلاف خاصّة إذا ما وُضِعَ النَّصُّ في محيطه الإنسانيّ الذي نشأ فيه؛ ومن هنا، إذا أردنا أن ندرس نصًّا - أي نصًّا - في حدوده اللغوية فذلك ممكن إذا كانت غايتنا النَّصَّ ذاته بنيةً هيكليةً تتشابه مع أخرى موضوعية لا تنهض إلا بعلاماتٍ جزئية وفعريّة هي التي تنتظمها وتمنحها معناها؛ لكن إذا نظرنا إلى النَّصِّ في علاقته بالجنس، فالمسألة تتطلب منهج مقارنة على مستويي النشأة وعامل الزّمان ومدى تأثيره في رؤية الخبر وصياغة الخطاب.

إنَّ أيّ نظرية أجناسية لا يمكن أن تفصل الأدب إلى أقسام نصوص بصفة نهائية قطعية بحيث تكون لكلّ منها خصوصيته، أو طبيعته الدّاخلية المُقرّنة به وحده، ووفقها يتطوّر حسب برنامج داخليّ، فالعلاقات النَّسقية تستند إلى أصلٍ جامع هو «الأدب» أو «الشّعر» أصلٌ تكون معه النظرية الأجناسية نفسها بمثابة البنية العليا أجزاؤها هي مختلف الأجناس والأنواع. (Schaeffer, 1989: 63)

وأن نستنبط أنموذجاً نظرياً لجنس أدبيّ ما، أو لبنية عليا تمثيلية، فهذا لا يعني التّجَرُّ أو القول بأحكام قاطعة لأنَّ «الأنموذج الأوفى» يبقى صورة نظرية تعيب منها عناصر عند الإجراء، لتحضر أخرى، وهو ما يؤكّد أن انسجام الخطاب السّرديّ ليس رهين البنية فحسب، بل يرتبط أيضًا بمقامات الإنشاء وسياقاته، وبأطر التّلقّي، إنَّ كلّ خطاب يدخل في إطار شبكة من الخطابات، فمجموعة تسبقه تاريخياً وتمثّل جزءاً من ظروف إنتاجه، ومجموعة تُلحقه تاريخياً وتمثّل جزءاً من ظروفه المعرفيّة.

يستدعي الحديث عن أيّ خطابٍ سرديّ الرّجوع إلى نظام ضمنيّ من الوحدات التي تكوّنه، وإلى القواعد التي تُمثّل نسيجه، ينشأ فرضية عملٍ وتحليلٍ بنيويّ - معنويّ في آنٍ وفق نظرية المستويات (كما بيّنها بنفنيست) التي تقدّم نوعين من العلاقات: توزيعيّة (إذا كانت العلاقات موجودة على نفس المستوى)، وتكامليّة (إذا كان المستوى فيها يحيل على الآخر)، وما المستويات إلاّ التّاريخ أو الحكاية (الحُجّة)، إحالة على منطق الأحداث و«تركيب» الشّخصيات، والخطاب، واحتواء للزّمن ومظاهر السّرد وأشكال القصّ. (Barthes, 1966: 5).

جعلنا البحث في قسمين كبيرين نظري وآخر تطبيقي، وأردنا من أولهما اتخاذه أرضية علمية معرفية لدعم الأطروحة والاختيارات المنهجية فيها، ولعل ذلك مما يبرر عدم الدخول في كثير من الجزئيات والتفاصيل، إذ اقتصرنا في مواضع كثيرة على الإحالة وطرح الإشكاليات لتكون الإجابة عنها، كلها أو بعضها في القسم الإجرائي، اقتراناً بمبدأ النسبية في ما هو متبدل متغير.

ثم إن أغلب الدراسات والبحوث التي اعتمدنا فيها ميل إلى المروحة في إطار المسألة الجزئية الواحدة، بين التنظير والتطبيق، فكأننا نرى السلطة الفعلية هي للقاعدة والنظرية دون الإجراء والتوجه العملي؛ ولكننا جعلنا الغاية من البحث أن يكون النص ذاته هو المبدأ والمنتهى، والدليل على ذلك، حتى عندما اعتمدنا تطبيق بعض النظريات على نص ما؛ فإنه لا يُسلم قياده إلا في حدود ما يتوفر فيه من خصائص بنيوية تتراوح بين الوحدات اللفظية، والأقسام الموضوعية مما يبرر ما انتهينا إليه من نتائج تدور حول محورية النص، وأن ما قد يحف به من عناصر خارجة عنه لا توجهه، ولكن تكون في خدمته، وتابعة له.

والنتائج التي انتهينا إليها هي:

1/ أن للاتساق والانسجام مظاهر عديدة: 1. في علاقة النظام الأصل بالأنظمة الفرعية التي يتم عبرها التحليل والتفكيك؛ 2. في علاقة الأبنية الموضوعية بالأخرى الهيكلية، وإرجاعها جميعاً إلى النموذج؛ 3. الأبنية الصغرى أو الوحدات الدنيا التي تدل على مختلف أنساق النظام؛ 4. ما يبين أن لأنساق النص أو الخطاب منطقاً قد يكون جلياً أو ضمناً، هو الذي يضمن التسلسل والترابط.

وتتفتح ثنائية التماسك والانسجام على ثنائيات أخرى منها: الصريح والضمني، والمتحدث به والمتحدث عنه، والتوجه المنطقي - الدلالي، في علاقة اللغة بالفلسفة خاصة على مستوى بناء النص سواء أ تعلق الأمر بعلاقات الأبنية الفرعية فيما بينها، أو بينها والبنية العليا التي تمثل هيكل النص العام وفق خطط ثلاث هي: تناول مواضيع عديدة مختلفة لكن على أساس التتابع، فلا يتم الانتقال من أحدها إلى الذي يليه حتى يكون الانتهاء دون رجعة، من الأول أو السابق؛ والعلاقات بين المواضيع التي تكون قائمة على الانتشار، موضوع محوري عنه تتفرع مواضيع أخرى يمكن أن يستقل كل واحد منها بنفسه، فيمثل وحدة بنيوية - موضوعية قائمة بذاتها، لكن، إذا نُظر إلى هذه المواضيع مجتمعة وفي إطار النص بأكمله فهي تكون أشعة وتوسعة للموضوع الأصلي فيه؛ ثم أن يكون النص الواحد منفتحاً على مواضيع عديدة

متداخلة متشابكة، إمّا على أساس التّضمين، أو التّنابؤ، وربّما اقترن هذا المنهج في البناء بالحجاج في علاقته بالتّفسير، أو بالوصف، أو بالسرد، أو بالحوار.

2/ كانت مشاغل البحث أيضًا، منصبّة على النّظر في علاقة التّوازي بين البناء والمعنى يتجلّى تماسكًا وانسجامًا في ارتباطهما بسياق إنتاج النّص، كما بمقامات تلقّيه، فإذا تحليل الخطاب هو العناية بمقوماته «الذّاخلية» كما بما يسيّجه من عناصر خارجيّة، تُتّوَجُّ بوحدة أشكاله الكبرى وعلاقتها بالجنس أو الأجناس الأدبيّة التي تشي بها عبارات وتقسيمات ذات العلاقة بالنّحو والدّلالة والنّسق التّطوّريّ الذي يحكمهما، ويحكم الصّلات بينهما بنية ومعرفه، وارتباط سابق بلاحق في نسيج النّص واستمراريّته الدّلاليّة خاصّة عبّر علامات المرجع، والإبدال، والإضمار أو الحذف، والرّبط والتّماسك المعجميّ، في إطار تتابع ينظم المعلومات في السّلسلة النّصيّة يتصل فيها التّماسك بالانسجام «ذلك أنّ المفهومين ليسا منفصلين جذريًا، بل المسألة أبعد من ذلك، فالتّماسك ليس فقط ظاهرة مخصوصة، أو مجموعة فرعيّة من انسجام الخطاب، ولكنّه أيضًا أداة بناء: فعلى سبيل المثال، وفي إطار التّصرّف في المعلومة، مفهوم النّمّو الموضوعيّ (الذي يُتّأَوَّلُ عامّة، في إطار التّماسك النّصّي) هو نفسه عامل انسجام تداوليّ، على أساس أنّ النّص لا يكون متماسكًا إلّا إذا جعله صاحبه قائمًا على نمّو موضوعيّ» (Détie، 2001: 57).

3/ كانت مقاربتنا للمدونة السردية المُعتمَدة قائمة على النّظر في النّصوص في تشكّلاتها الأولى ثمّ تحليلها واستنطاقها استنادًا إلى اللّغة والأدب من أجل إعادة بنائها سواء أكان ذلك بعزل التّجلي النّصّي اللّغويّ عن الواقع مرجعيّات وسياقات ثقافيّة، أم بإدراجها فيها حسب خصوصيّة كلّ نصّ؛ لكنّ الغاية دائمًا هي توخّي استنباط الخصائص الأسلوبية والبنائية لتقضيّ المعالجة التّفسيرية إلى «نوع من التجريد الذي يرتفع بالظاهرة المدروسة عن شرطها التاريخيّ والثّقافيّ، ويجعلها عامّة لا صلة لها بالزمان والمكان اللّذين ظهرت فيهما»؛ (إبراهيم، 2003: 325) والمنطلق والغاية في آن، أن نتتبّع المكوّنات والعناصر ومساراتها، ومدى اتّساقها في بنائها العامّ ووفق العلاقات التّبادليّة بين مختلف الأبنية: الصّغرى، والكبرى، والعليا.

4/ إنّ البحث في أبنية النّصوص لا يميّن الاعتماد فيه فقط على بنية الجملة وحدها، بل استنادًا إلى الموضوع وإلى البناء العامّ أيضًا؛ وكلّ هذا له صلة بكيفيّة صياغة النّص، وطريقة قراءته فتأويله ارتباطًا بالمنطق والاستدلال بالبحث في العلاقات بين الأبنية، مهما يكن حدّها الأدنى، في بساطتها وفي

تعقيدها. وهذا البحث ليس بسيطاً ولا يسيراً بما أنّ المنهج يشمل المرجعيات والوضعيات الإجرائية منها والتجريدية، والعقلية الافتراضية المقترنة بعالم «الإمكان» إضافة إلى عالم «الوجود»؛

5/ القول بتداخل الأجناس الأدبية في النصّ الواحد أو الانتهاء إلى تعدّد الأنماط فيه، لا ينفي خصوصيته، ولا وظيفته التمثيلية عن الجنس الأدبيّ الذي أريد منه وفيه. والمشكل الذي يظلّ قائماً هو هل النصّ سابق للجنس أم العكس، خاصّة وأنّ الجوانب الإجرائية، ملاحظة وتحليلاً واستقراءً، أبرزت أنّ الأبنية الصغرى، وكذلك الكبرى لها أهميّة في إبراز خصوصيّة النصّ الأجناسيّة؛ والتمثيل الهيكليّ هو إفراز تمثيل بنيويّ - معنويّ في آنٍ؛

6/ التفكير في قضية أجناس الخطاب من وجهة نظر جدليّة، وفقاً لأنواع من الخطاب التي تبدو فيها. ويمكن أن يتّخذ الجدل أشكالاً مختلفة قد تحيد به عن أنماط من التفكير المُدرّجَة لاستكشاف ممارسات خطابيّة متنوّعة، وتسمح بتقديم نماذج بديلة من الحجج، فضلاً عن الأنماط التقليديّة. واستناداً إلى هذا المنهج، من العسير جدّاً إدراج نصّ ما ضمن جنس أدبيّ واحد، لكن نقول إنّ الجنس الواحد الذي تغلب سماته الطرازيّة يكون هو الإطار الذي يحتوي أجناساً أخرى مجانسة له خاصّة في المكوّنات الأساسيّة للبنية السردية. وإنّ تميّز أثر سرديّ عن آخر لا يتجلّى في مدى وفائه للميثاق الذي انبثق منه وتولّد، ولكن في جدليّة الكائن والمُتخيّل: أيهما يغلب على الآخر ارتباطاً بالبوّة التي يتمركز حولها السرد؛

7/ العامل الزمانيّ ودوره في بلورة سُنن في الإنشاء جديدة قد تؤدّي إلى صياغة مخالفة للجنس الأصل حتّى وإن بقيت وحيّة لعلاماته المميّزة، دون تضيق أطر العالم المُراد التعبير عنه، وقد تنشئ نوعاً جديداً هو تشكّل من أنواع عديدة؛

8/ إنّ البحث في أجناسيّة الخطاب السردية وخاصّة الحداثيّة منها يُبيّن «ضعف الحدود الفاصلة بين الأجناس والأنواع، وتداخل النصوص، وغياب الهويّات النصيّة الثابتة، وتفكك الأنظمة السردية التقليديّة، وانحسار دور القيم الثقافيّة المُطلّقة، التي كانت تدعم الخصائص القارّة للنصوص والأنواع والأجناس وتعرّز ثبات موضوعاتها وأغراضها وأبنيتها وأساليبها، وتحوّل دون تفاعلها الأسلوبية والبنيوية».

9/ أن يكون الخطاب السردية أقرب إلى المُتخيّل منه إلى الواقع، فهذا لا ينفي بُعدَه التداوليّ خاصّة إذا اعتبرنا أنّ العلاقة بين النصوص والأنواع والمرجعيات

قضية أساسية في البحث عن علاقة الخطاب بكل العناصر الحاقّة به، التي لا تقل أهمية عن مكونات نسيجه في المستويين الإجرائي والنظري؛

10/ إن التطور الموضوعي أو النمو البنوي يفتح المجال أمام الأنموذج أو الطراز بحيث لا يخلو من إشكاليات خاصة وفق ثنائية الاستقلالية والتداخل، وإلى أي مدى يمكن القول بتمحض نص ما لجنس معين! المسألة تتعلق بتصنيف دلالي - معرفي أكثر منه بأنموذج بنيوي، ويبرز ذلك بـ:

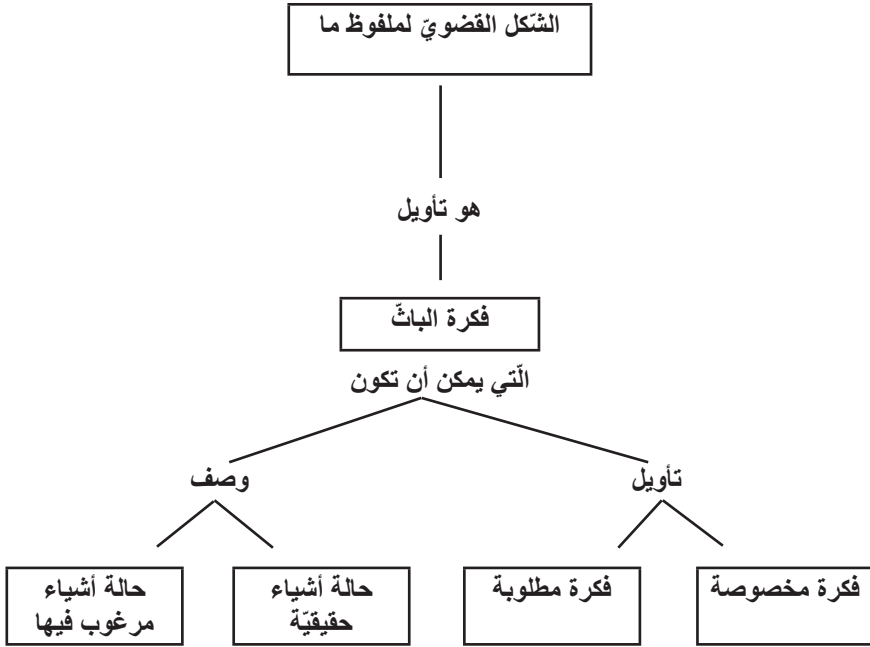
- أن النص، أي نص، متنازع بين المتتاليات التي تكونه، وبين علاقاته بالعوامل الخارجية عنه التي لا يفصل عنها سواء أكان ذلك بصفة مباشرة أم غير مباشرة، فالنص، تماسكا وانسجاما، هو تمثيل لجزء من العالم يقوم على خصائص ومميزات معنوية دلالية؛

- النص في أبعاده المختلفة: الأفقي والعمودي والهرمي، هو مزيج من مبنى ومعنى في علاقة تلازمية قد تعكس بُعدا إيديولوجيا يتجلى في إنتاج النص، أو في قراءته وإعادة إنتاجه، بما أن الباث والمتلقي كليهما يبرهنان على تمثيل علاقة المتخيل فكريا بالظروف الواقعية المادية للوجود؛ وتكون البرهنة بأصناف ثلاثة من الاستدلال: باعتماد الحجج شبه المنطقية، وخاصة من خلال التحليل القائم على القياس بالتشابه والتماثل؛ أو الحجج المستمدة من البنية الواقعية؛ أو الحجج القائمة على الأمثلة؛ (Paveau & Sarfati, 2003: 220)

- إن أي خطاب سردي يتضمن جهازا استداليا (حتى وإن اختلفت آلياته ودرجاته وتفاوتت من نص إلى آخر وفق ثنائية الصريح والضمني الذي قد يتعلق بمحتوى الملفوظ، أو بعملية التلقظ ذاتها: بين المقول والمسكوت عنه الذي يتوزع بين المسلم به والمفترض الممكن) يؤول إلى المعنى الجامع المشترك في الجنس وفي الهيكل العام؛

- من وجهة نظر تداولية، يُدرس النص من حيث علاقته بالواقع، أو باللغة في بعدها النفعي متجليا في التواصل والتفاعل من خلال الأعمال اللغوية، فالاستدلال يستدعي وإن حدا أدنى من الانسجام بين الباث والمتلقي يتمثل في مبدأ القواعد العامة التي تحكم الخطاب أكثر من النص المحدود المخصوص، المتعارف عليه بـ «المعرفة المشتركة»، ومنها تستمد الفرضيات اللامحدودة في فك شفرات نص ما، وهو ما يبرز توجهنا إلى الخطاب باعتباره مفهوما أوسع من النص له قدرة انتشارية - استقطابية في آن؛ وهذه الثنائية هي ناتجة عن مدى التواصل بين الباث والمتلقي في علاقة الأثر المعرفي بالانسجام إنتاجا وتواصلًا وصياغة نص: أصل، وآخر فرع، إمكانات مختلفة

يمكن تَبَيُّنُهَا في الرَّسْمِ التَّالِي:



(230 : 2003 ، Paveau & Sarfati)

ما نخلص إليه هو أنّ تحليل الخطاب، إذ يقوم على اللغة مادّة درس، وآلية انسجام واستدلال في آن، هو نظريّة تكرس العلاقة العضويّة بين المبنى و المعنى في بُعْدَيْن: تجريديّ وإجرائيّ على مستويي مادّة الدرس، والمنهج المُعْتَمَد في الجانب النفعي، وفي التّصوّر الفكري لبنية النّص والخطاب، ارتباطاً بسياق القول، وبمقام التّلفّظ، وبالأطر الحافّة بعملية القراءة فالتأويل: نسقياً وزمانياً.

وليس انسجام الخطاب السّرديّ رهين بنية صغرى واحدة، أو الأبنية الصّغرى جميعاً التي تنتظمه، وليس هو قرين الأبنية الكبرى وحدها، إنّ انسجام الخطاب السّرديّ هو جُماع كلّ هذه العناصر والمكونات مُتلفة في نسج عامّ ذي بُعْدَيْن: أفقيّ وعموديّ، وكلاهما يجتمعان ويتّصلان في نقاط تشابك عديدة هي التي تشدّ هيكل النّص أولاً، ونموذج الخطاب طرازاً ومنوالاً يجمع نصوص الخطاب الواحد، وأيّة بنية لا قيمة لها في حدّ ذاتها، إلّا إذا نُظِرَ إليها من ناحية شكلية محضة، فالقيمة تكتسبها من مقامها في النّص، ومن سياق تركيبها فقولها؛ وما القول إلّا إفراز لشبكة انسجام أخرى هي شبكة

التّواصل في بُعدهِ التّداوليّ وفق ثلاثيّة الباث، والمتلقّي، والرّسالة. تسميات عامّة تتّصل بالخطاب في تجلّيه الشّفويّ والمكتوب، رغم أنّ مدوّنهُ البَحْث تتّصل بثنائيهما، والواقع أنّنا تعمّدنا ذلك لأنّ التّظنن إلى النّصّ، مهما تكن أبنيتُهُ أو جنسُهُن يقوم على أساسين قد يختلفان في المرجعيّة ولكنّهما يتّفقان في الغاية. أمّا الاختلاف في المرجعيّة ففي اتّجاهين: أولهما يتّصل بالنّصّ في نسجه اللّغويّ وبمحتواه المعنويّ، الَّذي لا ينفصل، وإنّ بنسبة ضئيلة قد لا تكون مقصودة لذاتها، بالواقع والمجتمع؛ نقطة أولى تنفتح على ثاني الاتّجاهين الَّذي يربط القراءة بالتّأويل والنّقد، فيكون السّياق النّصّيّ منفتحاً على المجالات المعرفيّة الموسوعيّة، وعلى سياقات قراءة لا يحدها زمان ولا مكان، ولا إيديولوجيا أيضاً. وأمّا الغاية نقطة الاتّصال فهي الاستدلال على انسجام الخطاب السّرديّ في مراحل ثلاث تتّصل جميعاً بنقطة ارتكاز واحدة وهي لحظة الإنشاء الفنّيّ والفكريّ معاً، وهذه المراحل هي: ما قبل النّصّ؛ وما بعد النّصّ؛ وبينهما النّصّ المُنتج جدلاً بين منتهجه ومتلقّيه أو معيد إنتاجه.

وبناءً على هذا، لا يمكن القطع أو الفصل بين أبنية النّصّ وسياقاتها ومقاماتها، لأنّ النّصوص إذ تُنتج، تتضمّن ضرورة، بُعداً حاجبياً، فإنّ لم يكن إيديولوجياً، فهو تأسيسٌ لرؤية معيّنة للواقع وللتّاريخ، وللذّات بمنظاريّ: يتّصل أحدهما بالأنا، ويشي الآخر بهو: وبين الصّمائير ومنها يتولّد أثرٌ وثوقيّة الجنس الأدبيّ، أو نشره جمّع مقوّمات أجناس عديدة، وهو ما يؤدّي إلى أنّ النّصّ الواحد لا يمثّل جنساً أدبياً واحداً، فاستناداً إلى المدوّنّة المدروسة، تبيّن تقاطع جنسين أدبيين على الأقلّ في النّصّ الواحد وفق النّتائج التّالية:

* الأقصوصة: هي جزء من سيرة ذات، ومن نقد في «مصر المريضة»، لطفه حسين؛

وهي مزيج من الخطاب الحكائيّ الخرافيّ، ومن الإنشاء الشعريّ إيحاءً ورمزاً وتلميحاً في «الأعداء»، لزكريا تامر.

* الرّواية: هي رواية المغامرة في الحدث وفي الفكر والثّقافة في «دعاء الكروان»، لطفه حسين، وهي رواية الوجدان بين السّقوط في الرّذيلة والمادّة والضعف ونموّ التّجربة بما يؤدّي إلى الفناء مقابل الطّاقة والذكاء الفعّال والحركة في اتّجاهين روائيّ بين الواقعيّ والرمزيّ، ونقديّ بين الأدبيّ والحضاريّ؛

وهي الرّواية البوليسيّة، والمقال الصّحفيّ وجزء من تاريخ لبنان ومحنة الحرب الأهليّة فيه في «الوجوه البضاء»، لإلياس خوري.

* السيرة الذاتية: حوار الذات مع الذات، وصراعها مع الآخر حدثاً وحديثاً وفكراً في «الأيام» في جزئها الثالث، لطفه حسين؛ و«الخبز الحافي»، لمحمد شكري.

ويعكس الأثران تقاطعاً بين الأدب والواقع، وبين السيرة الذاتية والمذكرات، وبينهما والرواية، حتى تكاد تفيض الرواية فتطمس ملامح السيرة الذاتية؛ وهي إلى كل هذا، انفتاحاً على رؤية مغايرة لما تعيشه الشخصية، فلا يكون الماضي/ الحاضر إلا تعلقاً لاستشراف المستقبل الذي تصوغه الذات دون الأقدار؛ وفي هذا المستوى، يكفّ القدر عن أن يكون موجّهاً للذات قسراً وعبر التاريخ، لتصبح الذات نفسها هي الباحثة عن جوهرها عبر الفكر والعلم والمعرفة.

لقد أدى البحث في جنس النص والخطاب إلى ألا نعتبر الأسلوب هو مرآة الإنسان، وإنما الإنسان/ الكاتب هو الذي يصوغ الأسلوب ويحقق الالتئام والتوافق، والتماسك والانسجام بين اللفظ والمعنى، وبين البنية والدلالة. وإن الاستدلال على انسجام الخطاب السردي قد أفضى إلى أن المسألة تتجاوز البناء والهيكل، لتفرض ضرورة، مواقف نقدية تبدأ عند صاحب النص إنتاجاً، وتتخذ مسارات عديدة لا متناهية عند قرّائه؛ تعدّد قد يؤسس لنظرية في تحليل الخطاب، لكن لا يمكن القول بانغلاقها أو بتبلورها تماماً «فالأدب أنواع وأجناس ونصوص ليست لها قوالب متحجرة ولا قوانين مُسطّرة، ولكن لها ملامح بها تُعرّف في الآداب، وأطواراً على أساسها يجري النقاش في الحدود والعلامات، والأسُس والمقومات التي تُحدّد في ضوئها الأجناس الأدبية» (الطرابلسي، 1994: 20)، وهو ما يؤكّده مسار التجريب في الأدب الذي وإن لم يكن مقصوداً لذاته أو عن وعي عند محمد شكري، فإنه يمثل مرحلة نضج عند كل من زكريا تامر وإلياس خوري، ففي أقصوصة: «الأعداء»، وفي مجموعة: «النمور في اليوم العاشر» عامّة؛ وفي رواية: «الوجوه البيضاء» هناك علاقة «بمختلف الأجناس والأشكال الأدبية التراثية دون التخلّي عن الانخراط في تيار الحداثة بكل ما فيه من نزوع إلى التجديد المستمر وتحديث أشكال الخطاب وتطوير فنون التلقظ.

إن النص مثلاً يقع صلب سنن جنسه وضوابطه، فإنه يتمرد عليها ويسعى بصورة مستمرة إلى خرقها وتطويرها، ممّا يؤسس علاقة جدلية قوامها التفاعل المستمر بين النظري والمُنجز» (بن مبروك، 2008: 10 - 11)، إذ «يعقد النص مع جنسه علاقة تمثيل أو تحويل، في الأولى يكون تكراراً للجنس، وفي الثانية، يقوم بتعديل المقولات العامة أو ينحرف عنها. والتحويل يتم داخل

الجنس نفسه أو يتحوّل على جنس آخر. فالنصّ إما أن يكون مطابقاً لقوانين الجنس، أو معدّلاً لها. وإذا ما كان الانحراف عميقاً، نكون أمام نصّ يصعب تصنيفه» (الهمامي، 2009: 55)²

مكّننا الاستدلال على انسجام الخطاب السردّي من بلورة بعض النظريات في لسانيات النصّ وتحليل الخطاب، وما قد ينتج عن ذلك من أبعاد تدلّية مقترنة باستعمالات النموذج الممكنة. وقد تركّز البحث على تمثّل خصائص الأنظمة الإجمالية: الحدّ والمدى، والمرجع والتّواصل. وبينّا العلاقات بين تمثيل الأنظمة وما يمكن أن تحتويه من تحليل عرفانيّ، و/ أو آخر برهانيّ، وما يعنيه ذلك من تفاعل بين مجالات معرفيّة متعدّدة وربّما مختلفة، ولكنّ البحث اللّغويّ في علاقته بالأدبيّ استناداً إلى المنطلقات والمناهج والغايات التي اعتمدنا، قد وضح إمكانيّة التقاطع والالتقاء والانسجام. وهذا يضعنا أمام تصوّرات يمكن أن تكون مجالات بحث أخرى في دراسة مقارنة في الجانب التّطبيقيّ من حيث النّتائج التي تمّ الوصول إليها استناداً إلى مرجعيّات بحث متعدّدة (الأرشفيف؛ السياسة؛ الإعلام؛ العلوم الصّحيحة...) لتبيّن ما إذا كانت مناهج التّحليل ووضع الهياكل والمناويل واحدة في نسيج النصّ وإنشاء الخطاب، أم أنّ اختلاف المحتوى والموضوع قد يغيّر مفاهيم الأبنية وطُرُق تناولها واستعمالها.

2 انظر أيضاً:

- كارل كانقا: إشكاليّة الأجناس الأدبيّة، ترجمة: عبد الرّحيم الرحوتي، كتابات معاصرة - مجلد 14 - عدد 53، جوان - جويليّة 2004؛
- جان ماري شاغر: ما الجنس الأدبيّ؟، ترجمة: غسان السيّد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997.

ثبت اصطلاحيّ عربيّ - فرنسيّ - أنكليزيّ

الهمزة

Cohesion	Cohésion	اتّساق
Effect of meaning	Effet de sens	أثر المعنى
Reference	Référence	إحالة
Integration	Intégration	إدماج
Demonstration	Démonstration	استدلال برهانيّ
Metaphor	Métaphore	استعارة
Induction	Induction	استقراء
Involvement	Implication	استلزام
Deixis	Deixis	إشاريّة
Emphasis	Emphase	إطناب
Relevance	Pertinence	إفادة
Presupposition	Présupposition	اقتضاء مُسبق
Incorporation	Incorporation	إقحام
Persuasion	Persuasion	إقناع
Performative	Performatif	إنجازيّ
Consistency	Cohérence	انسجام
Emotions	Emotion	انفعال
Discourse typology	Typologie des discours	أنماطيّة الخطابات

الباء

Transmitter	Emetteur	بَاث

التاء

Framework	Cadrage	تَأطِير
Focalization	Focalisation	تَبْنِير
Exchange	Echange	تَبَادُل
Diaphony	Diaphonie	تَدَاخُل صَوْتَيْنِ
Pragmatics	Pragmatique	تَدَاوُلِيَّة
Schématization	Schématisation	تَرَابِط
Diagram	Schéma	تَرَسِيمَة
Isotopy	Isotopie	تَرَسِيمِيَّة
Configuration	Configuration	تَشَاكُل
Polyphony	Polyphonie	تَشَكِيل
Popularization	Vulgarisation	تَعَدَّد الأصوات
Conversational Interaction	Interaction Conversationnelle	تَعْمِيم المعرفة
Explanation	Explication	تَفَاعُل بَيْنِ
Assertion	Assertion	أَطْرَاف
Freezing	Figement	مُشَارَكَة /
Intertextuality	Intertextualité	تَفَاعُل كَلَامِي
Orientation	Orientation	تَفْسِير
		تَقْرِير / إِبْثَات
		تَكْلَس
		تَنَاصِيَّة
		تَوَجِيه

الجيم

Dialectic	Dialectique	جدل
Sentence	Phrase	جملة
Period	Période	جملة مسترسلة
Modality	Modalité	جهة

الحاء

Warnings plot	Mises en intrigue	حبك العقدة
Argumentation	Argumentation	حجاج
Argument	Argument	حجة
Ellipsis	Ellipse	حذف
Narrative text	Récit	حكاية
Dialogic	Dialogique	حواري

الخاء

Specificities	Spécificités	خصوصيات

الدال

Denotation	Dénotation	دلالة اللفظ
Connotation	Connotation	التصريحية
		دلالة اللفظ الحاقفة

الرّاء

Connector	Connecteur	رابط

السّين

Polemic	Polémique	سجال
Script	Script	سكريبت
Sows	Sème	سمة دلاليّة
Context	Contexte	سياق
Scenario	Scénario	سيناريو

الشّين

Argumentative marker	Marqueur argumen- tatif	شارة حاجيّة
Production conditions	Conditions de pro- duction	شروط الإنتاج
Code	Code	شفرة
Text grid	Grille de texte	شكل نصّي

الصّاد

Morpheme	Morphème	صرفم
Image	Image	صورة

الضَّاد

Guarantor	Garant	ضامن
Implicit	Implicite	ضمني

العَيْن

Operator	Opérateur	عامل
Cognitive	Cognitif	عرفاني
Act	Acte	عمل
– Perlocutionary	- perlocutoire	– تأثير بالقول
– To argue	- d'argumenter	– الحجاج
- Reading	- de lecture	– القراءة
- Utterance	- d'énoncé	– قولِي
- Propositional	- propositionnel	– قضوي
- Speech	de langage	– لغة
- Linguistic	- langagière	– لغوي
- under – heard	- sous – entendu	– مفهوم
- Presupposed	- présumé	– مقتضى
Shifters	Déictiques	عناصر إشاريّة

الفاء

Performative verb	Verbe performatif	فعل إنجازي
Enunciation	Enonciation	فعل القول

القاف

Maxim	Maxime	قاعدة
Stereotype	Stéréotype	قالب جاهز
Narrative text	Récit	قصة
Utterance	Enoncé	قول
Illocutionary force	Force Illocutoire	قوة لاقوليّة
Syllogism	Syllogisme	قياس

الكاف

Speech	Parole	كلام

اللام

Language	Langue	لغة
Moneme	Monème	لفظ

الميم

Hyperbole	Hyperbole	مبالغة
Transphrastique	Transphrastique	متجاوز الجملة
Locutor	Locuteur	متكلم
Enonciator	Enonciateur	متلقظ
Parody	Parodie	محاكاة ساخرة
Dialogue	Dialogue	محاورة
Abstract	Abstrait	مجرد

Corpus	Corpus	مدوَّنة
Deictic	Déictique	مشير
Lexicon	Lexique	معجم
Connotation	Connotation	معنى حافّ
Norm	Norme	معيّار
Assumption	Présumé	مقتضى
Statement	Enoncé	مقول
Prescribed	Prescrit	ملزم
Stimulus	Stimulus	منبّه
Engaged	Embrayé	موصول

النّون

Hypotext	Hypo texte	نصّ أصل
H yper textuality	Hyper textualité	نصّيّة لاحقة
Tracking system	Système de repérage	نظام تجديد إحاليّ
Type of discourse	Type de discours	نمط الخطاب

الواو

Shifter	Embrayeur	واصل
Figure	Figure	وجه بلاغيّ

فهرس المصادر والكتب الأهماء والمراجع الواردة في البحت

1- العربفة والمعرفة:

آل مرفع (أحمد بن على): 2010

* السفة الذأفة: مفرابة الحد والمفهوم، صفاقس - تونس، دار صامد للنشر.

إبراهفم (عبد الله): 2003

* السرفة العربفة الحدفة: تفكفك الخطاب الاستعمارف وإعافة تفسير النشاء،
الذار البفضاء - المغرب؛ بفروت - لبنان، المركز الثقافف العربف.

الأبشفهف (بهاء الذفن أبو الفتح محمد بن أحمد بن منصور): 1999

* المستطرف فف كل فن مستطرف، بفروت، دار صادر للطباعة والنشر.
(3 مجلأاا)

ابن خلأان: 1994

* وففاء الأعان وأبناء أبناء الزمان، بفروت، دار صادر. (7 أأزاء)

ابن السأراج (أبو بكر محمد بن سهل): 1985

* الأصول فف النأو، بفروت.

ابن عبد الكرفم (أمعان): 2009

* إشكالفاء النص، المأألة أنموأأا، دراسة لسانیة نصفة، الذار البفضاء،
النادف الأأبف - الرفاء - المركز الثقافف العربف.

ابن منظور (أبو الفضل جمال الذفن محمد بن مكرم): 1997

* لسان العرب، بفروت - لبنان، دار صادر للطباعة والنشر. (14 مجلأا)

أبو أحمد (أامد): 2006

* قراءاا فف القصة القصرفة، مصر، الهفئة المصرية العامة للكتاب.

أبو دفب (أمال): 1986

* الرؤف المأقعة - نأو منهأ بنفوف فف دراسة الشعر الأاهلف، مصر،

الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أدراوي (العيّاشي): 2011

* الاستلزام الحواريّ في التّداول اللّسانيّ من الوعي بالخصوصيات النّوعيّة للظّاهرة إلى وضع القوانين الضّابطة لها، الرّباط - المغرب، دار الأمان؛ الجزائر العاصمة - الجزائر، منشورات الاختلاف.

أزرويل (فاطمة الزّهاء): 1989

* مفاهيم نقد الرّواية بالمغرب، الدّار البيضاء، نشر الفنك - الجزائر، لافوميك.

اسمهر (الهاشم): 2008

* عتبات المحكيّ القصير في التّراث العربيّ والإسلاميّ الأخبار والكرامات والطّرف، بيروت - لبنان، الشبكة العربيّة للأبحاث والنّشر.

أقلمون (عبد السّلام): 2008

* في رحاب السّرد: قراءة في البنيات والدّلالات الرّوائيّة، المغرب، ربانيت.

الأنصاريّ (محمّد جابر): 1980

* تحولات الفكر والسّياسة في الشّرق العربيّ من 1930 إلى 1970، سلسلة عالم المعرفة - ع 35 دد -.

أوستين (جون لانكشو): 2008

* نظرية أفعال الكلام كيف ننجز الأشياء بالكلام، المغرب، أفريقيا الشرق.

أوكان (عمر): 2001

* اللّغة والخطاب، المغرب، أفريقيا الشرق.

إيجلتون (تيري):

* 1986: الماركسيّة والنّقد الأدبيّ، الدّار البيضاء - المغرب، منشورات عيون المقالات.

* 1995: نظرية الأدب، منشورات وزارة الثّقافة في الجمهوريّة العربيّة السّوريّة.

إيكو (أومبرتو): 2000

* التّأويل بين السّيميائيات والنّفكيّة، الدّار البيضاء، المركز الثّقافيّ العربيّ.

بارت (رولان):

* 1982: الدّرجة الصّفر للكتابة، بيروت - لبنان - دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، الرّباط - المغرب - الشّركة المغربيّة للنّاشرين المتّحدين.

* 1988: نظريّة النّصّ، حوّلّيات الجامعة التّونسيّة / 27: 69 - 97.

الباردي (محمّد):

* 1993: الرّواية العربيّة والحدّاث، اللاّذقيّة - سورية، دار الحوار للنّشر والتّوزيع.

* 2004 (أ): إنشائيّة الخطاب في الرّواية العربيّة الحديثّة، تونس، مركز النّشر الجامعيّ.

* 2004 (ب): سحر الحكاية: المرويّ والزّاوي والميتاروائي في أعمال إلياس خوري، تونس، مركز الرّواية العربيّة.

* 2008: عندما تتكلّم الذات السّيرة الذاتيّة في الأدب العربيّ الحديث، تونس، مركز الرّواية العربيّة - كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس.

الباهي (حسان): 2000

* اللّغة والمنطق، الرّباط، منشورات المركز الثّقافيّ العربيّ.

بدر (عبد المحسن طه): 1977

* تطوّر الرّواية العربيّة الحديثّة في مصر (1870 - 1938)، مصر، دار المعارف.

البُعْزَاتِي (بناصر): 1999

* الاستدلال والبناء: بحثٌ في خصائص العقليّة العلميّة، الرّباط، المركز الثّقافيّ العربيّ - دار الأمان.

بلال (عبد الرّزّاق): 2000

* مدخل إلى عتبات النّصّ: دراسة في مقدّمات النّقد العربيّ القديم، الدّار البيضاء - المغرب - بيروت - لبنان، أفريقيا الشّرق.

بلانتان (كريستيان): 2008

* الحجاج، تونس - المركز الوطنيّ للترجمة، دار سيناترا.

بلنجر (ليونيل): 2010

* عدّة الأدوات الحجاجيّة، إربد - الأردن - عالم الكتب الحديث للنّشر

والتوزيع، 121 - 159. (جماعي)

بليث (هنريش): 1999

* البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، الدار البيضاء - المغرب - بيروت - لبنان، أفريقيا الشرق.

بن بوعزيز (وحيد): 2008

* حدود التأويل: قراءة في مشروع أمبرتو إيكو النقدي، الجزائر العاصمة - الجزائر، منشورات الاختلاف - بيروت - لبنان - الدار البيضاء، الدار العربية للعلوم ناشرو.

بن جمعة (بوشوشة): 1999

* الرواية في المغرب العربي، تونس، المغاربة للطباعة والنشر والإشهار.

بن حمودة (رفيق): 2004

* الوصفية مفهومها ونظامها في النظريات اللسانية، نشر دار محمد علي وكلية الآداب سوسة.

بن مبروك (الأمير): 2008

* القصة القصيرة عند زكريا تامر الانتهاك المنظم، صفاقس - تونس، مكتبة علاء الدين.

البهلول (عبد الله): 2013

* الحجاج الجدلي: خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، صفاقس، مطبعة دار نهى للطباعة - الناشر: قرطاج للنشر والتوزيع.

بورايو (عبد الحميد): 1992

* الحكايات الخرافية للمغرب العربي: دراسة تحليلية في «معنى المعنى» لمجموعة من الحكايات، بيروت، دار الطليعة.

تامر (زكريا): 1981

* النّمور في اليوم العاشر (قصص)، بيروت، منشورات دار الآداب.

الثعالبي (أبو منصور عبد الملك): 1425هـ / 2004 م

* فقه اللغة وسرّ العربية، حقّقه حمدو وطّاس، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): د. ت.

* البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل.
(الجزء ١)

الجرجاني (عبد القاهر):

* 1422هـ / 2001 م: دلائل الإعجاز في علم المعاني، بيروت، دار المعرفة.

* 1423هـ / 2002 م: أسرار البلاغة في علم البيان، بيروت، دار المعرفة.

الجمني (عمر مقداد): 2001

* ما بعد الأيام: أيام لم يكتبها طه حسين، تونس، مركز النشر الجامعي،
29 - 81. (جماعي)

جيد (أندريه): 2000

* «الصَّبِيّ الضَّرِير هبة الله لمصر»، تونس، المجمع التّونسيّ للعلوم
والآداب والفنون «بيّث الحكمة»، 75 - 90. (جماعي)

الحربي (فرحان بدري): 1424هـ / 2003م

* الأسلوبية في النّقد العربيّ الحديث دراسة في تحليل الخطاب، بيروت، مجد
المؤسسة الجامعية للدراسات والنّشر والتّوزيع.

حسن (عبّاس): د. ت.

* النّحو الوافي مع رُبّطه بالأساليب الرّفيعة والحياة اللّغوية المتجدّدة، مصر،
دار المعارف. (4 مجلدات)

حسين (طه):

* 1978: دعاء الكروان، مصر، دار المعارف.

* 1996: الأيام، مصر، دار المعارف. (الجزء ١١١)،

* 2005: المعذبون في الأرض، تونس، دار سراس للنّشر.

الحيزم (وئام): 2009

* تأويل اللفظ والحمل على المعنى، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانيّة
والاجتماعيّة.

الخالدي (كريم حسين ناصح): 2006

* نظريّة المعنى في الدّراسات النّحويّة، عمّان - الأردن، دار صفاء للنّشر والتّوزيع.

خطابي (محمّد): 1991

* لسانيات النّصّ: مدخل إلى انسجام الخطاب، بيروت، المركز الثقافي العربيّ.

الخطيب (محمّد كامل): 1976

* المغامرة المعقّدة، مقدّمة في تاريخ العلاقة بين المجتمع العربيّ والغرب كما يُظهرها الفنّ الروائيّ في نشوئه وتطوّره، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ.

الخطيبي (عبد الكبير): 2009

* في الكتابة والتّجربة، بغداد - بيروت، منشورات الجمل.

خليل (إبراهيم): 1427هـ / 2007 م

* في اللّسانيات ونحو النّصّ، عمّان، دار المسيرة للنّشر والتّوزيع والطّباعة.

خوري (إلياس): 1981

* الوجوه البيّضاء، بيروت - لبنان، مؤسّسة الأبحاث العربيّة.

الذاهي (محمّد): 2005

* سيميائيّة الكلام الروائيّ، الدّار البيّضاء، شركة النّشر والتّوزيع المدارس.

درّاج (فيصل): 2004

* الرّواية وتأويل التّاريخ: نظريّة الرّواية والرّواية العربيّة، الدّار البيّضاء - المغرب، المركز الثقافيّ العربيّ.

رزق (خليل): 1998

* تحولات الحبكة مقدّمة لدراسة الرّواية العربيّة، بيروت - لبنان، مؤسّسة الأشرف للتّجارة والطّباعة والنّشر والتّوزيع.

روبير (مارت): 1987

* رواية الأصول وأصول الرّواية: الرّواية والتّحليل النّفسيّ، دمشق، منشورات اتّحاد الكُتّاب العرب.

الزّويلي (ميجان) - البازعي (سعد): 2002

* دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من خمسين تيارًا ومصطلحًا نقديًا معاصرًا، بيروت - الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

الرياحي القسنطيني (نجوى): 2007

* الوصف في الرواية العربية الحديثة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس - جامعة تونس.

الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمان بن إسحاق): 1992

* اللامات، بيروت - لبنان، دار صادر للطباعة والنشر.

الزركلي (خير الدين): 1999

* الأعلام: قاموس تراجم: لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين المستشرقين بيروت - لبنان، دار العلم للملايين. (8 أجزاء)

الزناد (الأزهر):

* 1993: نسيج النص (بحث في ما به يكون الملفوظ نصًا)، بيروت - الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

* 2005: الإشارات النحوية بحث في تولد الأدوات والمقولات النحوية من الأصول الأحادية الإشارية في اللغة العربية، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات منوبة.

زهران (الب دراوي): 1982

* أسلوب طه حسين في ضوء الدرس اللغوي الحديث، مصر، دار المعارف.

السكاكي (أبو يعقوب): 1983

* مفتاح العلوم، بيروت، دار الكتب العلمية.

سويرتي (محمد): 2007

* النحو العربي من المصطلح إلى المفاهيم - تقريب توليدي وأسلوب وتداولي -، المغرب، أفريقيا الشرق.

سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر): 1408 هـ / 1988 م

* كتاب سيبويه، القاهرة، مكتبة الخانجي. (5 مجلدات)

شارودو (باتريك) - منغو (دومينيك): 2008

* معجم تحليل الخطاب، تونس، المركز الوطني للترجمة - دار سيناترا.

شاغر (جان ماري): 1997

* ما الجنس الأدبي؟، دمشق، اتحاد الكتاب العرب.

الشّاوش (محمّد): 2001

* أصول تحليل الخطاب في النّظرية النّحويّة العربيّة تأسيس «نحو النّص»، تونس، جامعة منوبة كلّية الآداب - منوبة؛ المؤسّسة العربيّة للتّوزيع. (جزءان)

شيبيل (الحبيب): 1992

* من النّص إلى سلطة التّأويل، منشورات كلّية الآداب بمنوبة، 445 - 459. (جماعيّ)

شرفي (عبد الكريم): 2007

* من فلسفات التّأويل إلى نظريات القراءة: دراسة تحليليّة نقدية في النّظريات الغربيّة الحديثة، الجزائر - منشورات الاختلاف؛ بيروت - الدّار العربيّة للعلوم - ناشرون.

الشّريف (محمّد صلاح الدّين):

* 2002: الشّروط والإنشاء النحويّ للكون بحث في الأسس البسيطة المولّدة للأبنية والدّلالات، جامعة منوبة منشورات كلّية الآداب، تونس، شركة أوربيس للطّباعة. (جزّان)

* 2007: خواطر شكّ نظريّة، تونس، مؤسّسة مرايا الحداثة للإنتاج الفكريّ.

شكري (محمّد):

* 1981: مفهومي للسّيرة الذاتيّة الشّطارية، بيروت، دار ابن رشد للطّباعة والنّشر، 321 - 324. (جماعيّ)

* 1982: الخبز الحافي، الرّباط، دار السّاقي للطّباعة والنّشر.

الشّهري (عبد الهادي بن ظافر): 2010

* آليات الحجاج وأدواته، إربد - الأردن - عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوزيع، 76 - 141. (جماعيّ)

صالح (صلاح): 2003

* سرد الآخر: الأنا والآخر عبر اللّغة السّردية، الدّار البيضاء - المغرب، المركز الثقافيّ العربيّ.

الصّمعي (أحمد): 1992

* أمبرتو إيكو وحدود التأويل، منشورات كلية الآداب منوبة، 461 - 477. (جماعي)

صمود (حمادي):

* 1994: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات كلية الآداب منوبة.

* 1999: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، منشورات كلية الآداب منوبة، 11 - 48. (جماعي)

صولة (عبد الله):

* 1979 - 1980: خصائص أسلوب طه حسين من خلال «دعاء الكروان» (ش. ك. ب. [مرفوعة])، إشراف: عبد السلام المسدي.

* 1993: مدخل إلى دراسة أسلوب طه حسين: من مقولة «الأسلوب هو الإنسان» إلى مقولة «الإنسان هو الأسلوب»، 169 - 205. (جماعي)

* 1999: الحجاج : أطره ومنطقاته وتقنياته من خلال «مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة» لبرلمان وتيتيكان، منشورات كلية الآداب بمنوبة، 297 - 350. (جماعي)

* 2001: أثر نظرية الطراز الأصلية في دراسة المعنى، حوليات الجامعة التونسية/ 45، 259 - 284.

* 2002: المقولة في نظرية الطراز الأصلية. حوليات الجامعة التونسية/ 46، 369 - 387.

* 2007: الججاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، بيروت - لبنان، دار الفارابي؛ منوبة - تونس، كلية الآداب والفنون والإنسانيات؛ تونس، دار المعرفة للنشر.

الطرابلسي (محمد الهادي): 1994

* النوع والجنس والنص، تونس، منشورات كلية الآداب منوبة، 19 - 23. (جماعي)

الطريطر (جليلة): 2009

* مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (بحث في المرجعيات)، تونس، مركز النشر الجامعي - مؤسسة سعيدان للنشر. (جزءان)

طودوروف (تريظان): 1990

* الشَّعْرِيَّة، تونس، دار توبقال للنَّشر. (1968)

عامر (عطية): د. ت.

* لغة وأسلوب طه حسين في «الأيام»، تونس، منشورات دار المغرب العربي، 135 - 157. (جماعي)

عبّاس (إبراهيم): 2002

* الرّواية المغاربيّة: الجدليّة التّاريخيّة والواقع المعيش: دراسة في بنية المضمون، الجزائر، منشورات المؤسّسة الوطنيّة للاتّصال والنّشر والإشهار.

عبد الرّحمان (طه): 1998

* اللّسان والميزان أو التّكوثر العقليّ، الدّار البيضاء - المغرب؛ بيروت - لبنان، المركز الثّقافيّ العربيّ.

عبد السّلام محمود (عبد الرّحمان): 2005

* تعالقات الخطاب: السّرديّة والمقالية: «طه حسين» نموذجًا، القاهرة - مصر، مركز الحضارة العربيّة.

عبد العظيم (محمّد): 1992

* معاني النّصّ الشّعريّ: طُرُق الإنتاج وسُبُل الاستقطار، منشورات كلّية الآداب منوبة، 321 - 339. (جماعي)

عبيد (عبد الرّزّاق): 1988

* النّصّ الرّوائي «دراسات في الرّواية»، دمشق، الأهالي للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

عثمان (أمين): 2012

* فصول في الرّواية المغاربيّة، تونس، الدّار التّونسيّة للكتاب.

العجيمي (محمّد النّاصر):

* 1992: الظّاهر والخبفيّ في النّصّ: القصّة نموذجًا، منشورات كلّية الآداب منوبة، 321 - 339. (جماعي)

* 2006: في الخطاب السّرديّ: نظريّة غريماس - سلسلة «دراسات أدبيّة ونقدية»، تونس، عالم الكتاب.

عروس (بسمة): 2008

* تحليل الخطاب والخطاب الأدبيّ، كلّية الآداب والفنون والإنسانيات -

منوّبة، 91 - 143. (جماعي)

العزاوي (أبو بكر): 2010

* الحجاج في اللغة، إربد - الأردن - عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع،
56 - 75. (جماعي)

عشير (عبد السلام): 2006

* عندما نتواصل نغيّر مقارنة تداوليّة معرفيّة لآليات التّواصل والحجاج،
المغرب، أفريقيا الشرق.

العقاد (عبّاس محمود): 1984

* المجموعة الكاملة لمؤلفاته - المجلّد الأول: العبقريّات الإسلاميّة - ا
(يحتوي على عبقريّة محمّد؛ عبقريّة الصّدّيق؛ عبقريّة عُمر)، بيروت، دار
الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة.

العامي (محمّد نجيب):

* 2010: الوصف في النّصّ السّرديّ بين النّظريّة والإجراء، صفاقس -
تونس، دار محمّد علي للنّشر.

* 2011: الذاتيّة في الخطاب السّرديّ، صفاقس، دار محمّد علي للنّشر؛
كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيّات منوّبة.

العمرى (محمّد): 2005

* البلاغة الجديدة بين التّخييل والتّداول، المغرب، أفريقيا الشرق.

عناني (محمّد): 1997

* المصطلحات الأدبيّة الحديثة، القاهرة، لونجمان.

غاليم (الحاج محمّد): 2010

* المعنى والتّوافق، مبادئ لتأصيل البحث الدّلالّي العربيّ، إربد - الأردن،
عالم الكُتب الحديث.

غصن (أمينة): 1999

* قراءات غير بريئة في التّأويل والتّلقّي، بيروت، دار الآداب للنّشر والتّوزيع.

غولمان (لوسيان): 1981

* المنهجيّة في علم الاجتماع الأدبيّ، بيروت، دار الحداثة للطباعة والنّشر.

فاخوري (عادل): 2004

* علم الدلالة عند العرب دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر.

فان ديك (أ. تون):

* 2000: النصّ والسّياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، المغرب، أفريقيا الشرق.

* 2005: علم النصّ مدخل متداخل الاختصاصات، القاهرة، دار القاهرة.

الفارصي (محمد علي): 1999

* البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، منشورات كلية الآداب منوبة، 387 - 402. (جماعي)

القاضي (محمد):

* 1997: تحليل النصّ السردّي، تونس، دار الجنوب للنشر.

* 1998: الخبر في الأدب العربيّ: دراسة في السردية العربيّة، تونس، منشورات كلية الآداب - منوبة؛ بيروت، دار الغرب الإسلاميّ.

* 2005: إنشائية القصّة القصيرة: دراسة في السردية التونسيّة، تونس، الوكالة المتوسّطية للصحافة.

القلطاط (هشام): 2008

* البياض مكوّنًا من مكوّنات الخطاب الواصف، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات منوبة، 145 - 195. (جماعي)

كريستيفا (جوليا): 1997

* علم النصّ، المغرب، دار توبقال للنشر.

الكيلاني (مصطفى): 1990

* تاريخ الأدب التونسيّ الحديث والمعاصر، تونس، المؤسسة الوطنيّة لترجمة والتّحقيق والدراسات «بيت الحكمة».

لحمداني (حميد): 1990

* النّقد الرّوائيّ والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرّواية إلى سوسيولوجيا النصّ الرّوائيّ، بيروت، المركز الثقافيّ العربيّ.

لوقا (ليلي): 2000

* الخطاب التّرجذاتيّ عند طه حسين في الجزء الأخير من كتاب «الأيّام»، تونس، المجمع التّونسيّ للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة»، 91 - 112. (جماعيّ)

مانفريد (يان): 2011

* عِلْم السّرد مدخلٌ إلى نظريّة السّرد، سوريا - دمشق، دار نينوى للدراسات والنّشر والتّوزيع.

ماي (جورج): 1992

* السّيرة الذاتيّة، تونس، المؤسّسة الوطنيّة للتّرجمة والتّحقيق والدراسات «بيت الحكمة».

المبخوت (شكري):

* 1992: سيرة الغائب سيرة الآتي السّيرة الذاتيّة في كتاب الأيّام لطله حسين، تونس، دار الجنوب للنّشر.

* 1999: نظريّة الحجاج في اللّغة، منشورات كلية الآداب منوبة، 351 - 385. (جماعيّ)

* 2006 (أ): الاستدلال البلاغيّ، تونس، دار المعرفة للنّشر وكلّيّة الآداب والفنون والإنسانيّات بجامعة منوبة.

* 2006 (ب): إنشاء النّفي وشروطه النّحويّة الدّلاليّة، مركز النّشر الجامعي - كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيّات جامعة منوبة.

* 2008: نظريّة الأعمال اللّغويّة، تونس، مسكيلياني للنّشر والتّوزيع.

المبرّد (أبو العباس محمّد بن يزيد): 1415 هـ / 1994 م

* المقتضب، القاهرة، نشر وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة - لجنة إحياء التّراث الإسلاميّ. (4 مجلّات)

المرادي (الحسن بن قاسم): 1413 هـ / 1992 م

* الجنّي الدّاني في حروف المعاني، بيروت، منشورات محمّد عليّ بئوضون - دار الكتب العلميّة.

المودن (حسن): 2010

* دُور المُخاطَب في إنتاج الخطاب الحجاجيّ، إربد - الأردن - عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوزيع، 236 - 259. (جماعيّ)

ميلاد (خالد):

* 1992: المعنى عند البلاغيين: السكاكي نموذجاً، منشورات كلية الآداب
منوبة، 155 - 170. (جماعي)

* 2001: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية،
تونس، جامعة منوبة - كلية الآداب منوبة؛ المؤسسة العربية للتوزيع.

نجم (محمد يوسف): 1959

* فن القصة، سلسلة النقد الأدبي، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر.

نحلة (محمود أحمد): 1997

* التعريف والتكثير بين الدلالة والشكل، الإسكندرية، دار التّوني للطباعة
والنّشر.

الهمامي (قيس): 2009

* التجريب وإشكالية الجنس الروائي، تونس، مجمع الأطرش للكتاب
المختص.

الهيشري (الشاذلي) عاشور (المنصف): 2005

* قضايا في معالجة الأبنية الإعرابية والدلالية، تونس، منشورات كلية الآداب
والفنون والإنسانيات منوبة.

2- الأجميّة:

ABDELFAHATTAH, Essam: 2009

* Le récit médiatique : stratégies argumentatives, IN : Le récit
populaire entre oralité et écriture – VII^e Colloque International
du Département de Français – 28 – 30 Mars 2009, Faculté des
Lettres – Université du Caire, Cairo, Egypt, Elain Publishing
Company, 2009, 1^{ère} éd., 35 – 57.

ADAM, Jean – Michel:

* 1993: La description, Série : « Que sais – je », Paris, Presses
Universitaires de France, 1^{ère} éd.

* 1994: Le texte narratif : Traité d'analyse pragmatique et
textuelle, Collection créée par Henri Mitterand, Série « Linguis-

tique », Paris, Nathan, 1^{ère} éd.

* **1997**: Les textes : types et prototypes Récit, description, argumentation, explication et dialogue, Série « linguistique », Paris, Nathan, 3^{ème} éd.

* **1999**: Le récit, Série : « Que sais – je », Paris, Presses Universitaires de France, 6^{ème} éd. (1^{ère} éd. : 1984).

* **2008**: La linguistique textuelle Introduction à l'analyse textuelle des discours, Coll. Curus • Linguistique, Paris, Armand colin, 2^{ème} éd. (1^{ère} éd. : 2005)

ADAM, Jean – Michel & GOLDENSTEIN, Jean – Pierre: 1976

* Linguistique et discours littéraire : théorie et pratique des textes, Coll. L, Paris, Librairie Larousse, 1^{ère} éd.

ALBALAT, Antoine: 1900

* L'art d'écrire enseigné en vingt leçons, Paris, Armand Colin, 6^{ème} éd. (1^{ère} éd. 1896).

AYOUB, Abderrahman: 1990

* Quelques aspects évolutifs dans les versions hilaliennes de Jordanie. IN : Sirat Béni Hilal, Actes de la 1^{ère} table ronde internationale sur la Geste des Béni Hilal, Hammamet – (Tunisie) 26 – 29 Juin 1980, Présentation : Abderrahman Ayoub, Maison Tunisienne de l'Édition – Institut National d'Archéologie et d'Arts, 1^{ère} éd., 59 – 83.

BAKHTINE MIKHAIL, V. N. Voloshinov:

* **1977**: Le marxisme et la philosophie du langage Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique, traduit de russe et présenté par Marina Yaguello, Paris, Minuit, 1^{ère} éd. (1929).

* **1978**: Esthétique et théorie du Roman, traduit du Russe par Daria Olivier, Gallimard.

* **1984**: Esthétique de la création verbale, Paris, Gallimard.

BARDIN, Laurence: 2007

* L'analyse de contenu, France, Quadriga/ PUF. (1^{ère} éd., Presses Universitaires de France, 1977).

BARTHES, Roland: 1970

* *S/Z*, collection: Tel Quel, Paris, Seuil.

BENVENISTE, Emile: 1995

* Problèmes de linguistique générale, I+II, Série : Idéa, Tunis, Cérés éd., 1^{ère} éd. (1^{ère} éd., Gallimard, 1974).

BERRENDONNER, Alain: 1983

* Cours critique de grammaire générative, Série : « Linguistique et sémiologie », Presses Universitaires de Lyon – Editions Universitaires de Fribourg, 1^{ère} éd.

BERTRAND, Denis: 2000

* Précis de sémiotique littéraire, Série : « Linguistique », Paris, Nathan HER, 1^{ère} éd.

BIGOT, Michèle: 2006

* L'ellipse et la cohérence du texte narratif, IN : Cohérence et Discours, Frédéric Calas (dir.), Presses de l'Université Paris – Sorbonne, 1^{ère} éd., 307 – 317.

BOREL, Marie – Jeanne: 1990

* Logique et interaction, IN : L'interaction communicative, édité par Alain Berrendonner et Herman Parret, Série : « Sciences pour la communication, Berne. Frankfurt/ M. New York. Paris, Peter Lang, 89 – 108.

BOUHLEL, Ezzeddine: 2008

* L'opacité référentielle des pronoms personnels, IN : Actes du Colloque international sur La référence, 31 Novembre, 1^{er} et 2 Décembre 2006 [Faculté des Lettres et Sciences Humaines – Kairouan – Unité de Recherche « Recherche en Pragmatique »], Tunis, Miskiliani Editions, 1^{ère} éd., 75 – 83.

BOURNEUF, Roland & OUELLET, Réal: 1975

* L'Univers du roman, Paris, Presses Universitaires de France.

BRONCKART, J. – P.; BAIN, D., SCHNEUWLY, B.; PAS-QUIER, A. & DAVANT, C.: 1985

* Le fonctionnement des discours, Neuchâtel et Paris : Delachaux et Niestlé.

BROWN, Gilliam & YULE, George: 1983

* Discourse analysis, New York, Cambridge University Press, first éd.

CANVAT, Karl: 1994

* La notion de genre à l'articulation de la lecture et de l'écriture, IN : Les interactions lecture – écriture, Actes du colloque Théodule – Crel (Lille, Novembre 1993); réunis et présentés par Yves Reuter, collection : « Exploration », Peter Lang, (S. A., Editions scientifiques européennes : Bern, Berlin, Frankfurt/ M, New York, Paris, Wien), Suisse, 1^{ère} éd., 263 – 282.

CHARAUDEAU, Patrick:

* **1983:** Language et Discours : Eléments de sémio linguistique (Théorie et pratique), Série : Langue – Linguistique – Communication, Paris, Hachette, 1^{ère} éd.

* **2001:** Visées discursives, genres situationnels et construction textuelle, IN : Analyse des discours. Types et genres, Ed. Universitaires du Sud, Toulouse.

CHAROLLES, Michel: 2006

* De la cohérence à la cohésion du discours, IN : Cohérence et Discours, Frédéric Calas (dir.), Presses de l'Université Paris – Sorbonne, 1^{ère} éd., 25 – 38.

CHEVALIER, Jean & GHEEBRANT, Alain: 1982

* Dictionnaire des Symboles : mythes, rêves, coutumes, gestes, formes, figures, couleurs, nombres, collection «Bouquins », Paris, Editions Robert Laffon, Jupiter, 1^{ère} éd.

COIRIER, Pierre & GAONAC'H, Daniel & PASSERAULT, Jean – Michel: 1996

* Psycholinguistique Textuelle Une approche cognitive de la

compréhension et de la production des textes, Parie, Armand Colin.

COMBETTES, Bernard: 1983

* Pour une grammaire textuelle, La progression thématique, Bruxelles, De boeck et Duculot.

CORNISH, F.: 1990

* Anaphore pragmatique, référence, et modèles du discours, IN : L'anaphore et ses domaines, G. Kleiber & J.E.Tyvaert (éds.). Recherches linguistiques XIV, l'Université de Metz, Paris, Klincksieck, 81-96.

COURTES, Joseph: 2007

* La sémiotique du langage, Paris, Armand Colin, 1^{ère} éd.

DELBEQUE, Nicole: 2006

* Linguistique cognitive Comprendre comment fonctionne le langage, Collection : Champs linguistiques, Bruxelles, de boeck. Duculot, 2^{ème} éd.

DEBAISIEUX, Jeanne – Marie & deulofeu: 2006

* Cohérence et syntaxe : Le rôle des connecteurs, IN : Cohérence et Discours, Frédéric Calas (dir.), Presses de l'Université Paris – Sorbonne, 1^{ère} éd., 197 – 207.

DENHIÈRE, Guy & BAUDET, Serge: 1992

* Lecture, compréhension de texte et science cognitive, presses universitaires de France.

DICTIONNAIRE de la langue française : Encyclopédie – Noms communs – Noms propres, Italie – Edition 2 – 1994 (Hachette – spadem – adagp 1980).

DETRIE, C., SIBLOT, P. & VERINE, B.: 2001

* Termes et concepts pour l'analyse du discours Une approche praxématique, Coll. Lexica Mots et Dictionnaires, numéro 7, Paris, H. Champion, 1^{ère} éd.

DIRVEN, René & RADDEN, Günter: 2006

* La base cognitive du langage : Langage et Pensée – IN : Linguistique cognitive : Comprendre comment fonctionne le langage, Série : Champs linguistiques, Bruxelles, De Boeck. Duculot, Chap. 1, 17 – 46.

D. ROBERT, André & BOUILLAGUET, Annick: 2002

* L'analyse de contenu, Série : « Que sais – je », éd. Paris, Presses universitaires de France [PUF], 2^{ème} éd. (1^{ère} éd. 1997).

DUCROT, O.: 1980

* Les échelles argumentatives, Paris, Minuit, 1^{ère} éd.

DUCROT, O. & SCHAEFEER, J. – M.: 1995

* Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris, Seuil.

DUCROT, O. & TODOROV, T.: 1972

* Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, coll. « Points », Paris VI, Seuil, 1^{ère} éd.

DUFAYS, J. – L.: 1994

* Stéréotype et lecture, Essai sur la réception littéraire. Liège : Mardaga.

ECO, Umberto:

***1972:** La structure absente — introduction à la recherche sémiotique,

Mercure de France, Paris. [1^{ère} édition française : 1972 ; 1^{ère} édition

Italienne: 1968 ; traduit de l'italien par Uccio Esposito-Torrigiani]

***2011:** Sémiotique et Philosophie du langage, France, Quadrige/ PUF, 3^{ème} éd. [traduit de l'italien par Myriam Bouzaher], (1^{ère} édition en italien : 1984).

ECO, Umberto & RORTY, Richard & CULLER, Jonathan & BROOKE – ROSE, Christine: 1995

* Interprétation et surinterprétation, [Traduit de l'anglais par

Jean – Pierre COMETTI], Presses Universitaires de France, (1^{ère} édition en italien : 1992).

ENCYCLOPEDIA DE L'ISLAM, 2^{ème} édition (E I 2) :

- Volume X (Article: Tawrya).

ENCYCLOPOEDIA UNIVERSALIS, édition **2008**:

- Volume 2 (Article: Anthropologie).
- Volume 13 (Article: Jung (Carl Gustav)).
- Volume 18 (Articles :

Personnalisme ; Personnalité ; Personnalité morale ; Personne).

FOUCAULT, Michel: 1969

- * L'archéologie du savoir, Paris, Gallimard.

GARDET, Louis: 1977

- * Les hommes de l'Islam, Paris, Hachette, (coll. Les temps et les hommes).

GAUDREAULT, André: 1989

- * Du littéraire au filmique : système du récit, Paris, éd. Méridiens Klincksieck, 2^{ème} tirage.

GENETTE, Gérard:

- * **1972**: Figures III, Paris, Seuil.
- * **1987**: Seuils, coll. Poétique, Paris, Seuil.

GOFFMAN, E.: 1981

- * Forms of talk, Philadelphie: Univ. of Pennsylvania Press (trad. Française Façons de parler, Paris, Minuit 1987)

GOLDMANN, Lucien: 1974

- * Structures mentales et création culturelle, Paris, Anthropos, 2^{ème} éd.

GREIMAS, Algirdas Julien:

- * **1966**: Sémantique structurale, Série : Langue et langage, Paris, Librairie Larousse, 1^{ère} éd.

* **1970:** Du sens essais sémiotiques, Paris, Seuil, 1^{ère} éd.

* **1976:** Entretien avec A. J. Greimas sur les structures élémentaires de la signification, NEF, F. (Dir.), IN: Structures élémentaires de la signification, Coll. « Creusets » (dirigée par A. HELBO), Bruxelles, Complexe, 1^{ère} éd., 18 – 20.

GREVISSE, Maurice & GOOSSE, André: 2011

* Le bon usage: grammaire langue française – collection : Langues vivantes, édition : Duculot Louvain, 15^{ème} éd., (1^{ère} éd. 1936).

HAMED, Mohamed Habib: 1992

* Conte, rythme et sens, (Actes du Colloque organisé par le département d'Arabe du 24 au 27 Avril 1991), Série : Colloques – Volume : VIII, Publication de la Faculté des Lettres de la Mannouba (Université de Tunis I) ; 57 – 71.

HAMON, Philippe: 1981

* Introduction à l'analyse du descriptif, Paris, Hachette.

HENAULT, Anne:

* **1979:** Les enjeux de la sémiotique Introduction à la sémiotique générale, Paris, Presses Universitaires de France, 1^{ère} éd.

* **1983:** Narratologie, Sémiotique générale Les enjeux de la sémiotique : 2, Paris, Presses Universitaires de France, 1^{ère} éd.

HIRSCH, E. D. Jr.: 1978

* The Aims of interpretation, London, University of Chicago Press.

JAUBERT, Anna: 2006

* Les ordres du discours en perspective cohérence et pertinence, IN Cohérence et Discours, Frédéric Calas (dir.), Presses de l'Université Paris – Sorbonne, 1^{ère} éd., 15 – 21.

JOUE, Vincent: 1992

* L'effet – personnage dans le roman, PUF écriture, Paris, Presses Universitaires de France, 1^{ère} éd.

KERBRAT – ORECCHIONI, Catherine: 1998

* Les interactions verbales : Approche interactionnelle et structure des conversations, Tome I, Collection U « Linguistique », Paris, Armand Colin, 3^{ème} éd.

KLINKENBERG, Jean – Marie: 1996

* Précis de sémiotique générale, De Boeck et Larcier. S .A., 1^{ère} éd.

LEJEUNE, Philippe: 1975

* Le pacte autobiographique, Paris, Seuil.

LEPSCHY, Giulio C.: 1976

* La linguistique structurale, petite bibliothèque Payot, Paris, [Traduit de l'italien par Louis – Jean CALVET, est paru en première édition française dans la collection « Etudes et Documents Payot »].

LYONS, J.: 1980

* Sémantique linguistique, traduction de J. Durand et D. Boulonnais, collection : « Langue et langage », Paris, Librairie Larousse (pour l'édition française) [1^{ère} éd., Cambridge University Press, 1978].

LUCQUIN, Albert: 1934

* La composition française et l'éducation de la pensée, Paris, Hachette.

MAINGUENAU, Dominique:

* **1989:** Genèses du discours, Collection : Philosophie et langage, Bruxelles, P. Mardaga, 2^{ème} éd.

* **1991:** L'analyse du discours : introduction aux lectures de l'archive, Linguistique : Collection dirigée par Bernard QUEMADA et François RASTIER, Paris, Hachette Supérieur.

* **1993:** Eléments de linguistique pour le texte littéraire, Dunod, Paris, 3^{ème} éd. (Bordas, Paris, 1986, 1^{ère} éd.)

* **2005:** Analyser les textes de communication, Armand Co-

lin, Paris, 3^{ème} éd., (1^{ère} éd. 1998).

* **2007** : Linguistique pour le texte littéraire, Collection « Lettres Sup. », Armand Colin, Paris, 4^{ème} éd., (1^{ère} éd. 1986).

MARTIN, R.: 1976

* Inférence, antonymie et paraphrase éléments pour une théorie sémantique, Manuels et études linguistiques, Strasbourg, Librairie C. Klincksieck, 1^{ère} éd.

MOESCHLER, Jacques & REBOUL, Anne:

* **1994**: Dictionnaire encyclopédique de pragmatique, Paris, Seuil.

* **1998**: Pragmatique du discours De l'interprétation de l'énoncé à l'interprétation du discours, Paris, Armand Colin.

MOLINIE, Georges: 1997

* La stylistique, Série : Que sais – je, Paris, Presses Universitaires de France, 4^{ème} éd. (1^{ère} éd. 1989).

NUTTIN, Joseph: 1968

* La structure de la personnalité, collection SUB « Le psychologue », Paris, Presses Universitaires de France, 2^{ème} éd. (1^{ère} éd. 1965).

NYCKEES, Vincent: 1998

* La sémantique, Paris, Editions Belin, 1^{ère} éd.

PARRET, H.: 1996

* Les passions : essai sur la mise en discours de la subjectivité, Mardaga.

PAVEAU, Marie – Anne & SARFATI, George – Elia: 2003

* Les grandes théories de la linguistique De la grammaire comparée à la pragmatique, Armand Colin, 1^{ère} éd.

PAVEL, Thomas G.: 1988

* Univers de la fiction, col. « Poétique », Paris, Seuil, 1^{ère} éd.

PROPP, Vladimir: 1970

* Morphologie du conte, suivi de Les transformations des contes merveilleux, et de E. Mélétyński : L'étude structurale et typologique du conte, traduction de : Marguerite Derrida, Tzvetan Todorov et Claude Kahn ; Collection : Poétique, Seuil, 2^{ème} éd. (1^{ère} éd. : 1965).

RASTIER, François: 1989

* Sens et textualité, Collection : Langue, Linguistique, Communication, Paris, Hachette.

REUTER, Yves:

* **1996:** Introduction à l'analyse du roman, Paris : Dunod, 2^{ème} éd. (Bordas, Paris, 1991 pour la première édition).

* **2000:** La description (Des théories à l'enseignement – apprentissage), Paris, ESF éditeur.

RICARDOU, Jean: 1967

* Problèmes du nouveau roman, Paris, Seuil.

RICHARD, Jean – Pierre: 1979

* Microlectures, Seuil, Paris.

RICHAUDEAU, François: 1981

* Linguistique Pragmatique, Paris, Retz, 1^{ère} éd.

RICOEUR, Paul:

* **1975:** La métaphore vive, Paris, Seuil.

* Temps et récit:

- **1983:** Tome I: L'intrigue et le récit historique, Les éditions du Seuil, 1^{ère} éd.

- **1984:** Tome II: La configuration dans le récit de fiction, Les éditions du Seuil, 1^{ère} éd.

RIFFATERRE, Michael: 1979

* Sémiotique de la poésie. Traduit de l'anglais par J. J. Thomas, Paris, Seuil.

SCHAEFFER, J. – M.: 1989

* Qu'est – ce qu'un genre littéraire ?, Paris, Seuil.

SCHNEUWLY, Bernard: 1994

* Genres et types de discours : considérations psychologiques et ontogénétiques : IN : Les interactions lecture – écriture, Actes du colloque Théodule – Cirel (Lille, Novembre 1993) ; réunis et présentés par Yves Reuter, collection : « Exploration », Peter Lang, (S. A., Editions scientifiques européennes : Bern, Berlin, Frankfurt/ M, New York, Paris, Wien), Suisse, 1^{ère} éd., 155 – 173.

SPENDER, Stephen: 1993

* Autobiographie 1909 - 1950, traduit de l'anglais par Guillaume Villeneuve, France, Christian Bourgois Editeur. (1951)

SPERBER, Dan & WILSON, Dièdre: 1998

* La pertinence: Communication et cognition, Traduit de l'anglais par Abel Gerschenfeld et Dan Sperber, Paris, Minuit.

SPOOREN, Wilbert: 2006

* La structuration des textes : La linguistique textuelle – dans Linguistique cognitive : Comprendre comment fonctionne le langage (travail collectif), Série : Champs linguistiques, Bruxelles, De Boeck. Duculot, Chap. 8, 225 – 250.

SWALES, John M.: 2004

* Research Genres Explorations and Applications, Cambridge: Cambridge University Press, First published.

VRIN, J.: 1974

* Taha Hussein : La grande épreuve : Uthmân, trad. Par Louca Anouar, Paris, Lib. Philosophique. J., (coll. : Etudes musulmanes, 17). Préface de Louis Gardet.

THIBAUDET, Albert: 1938

* Réflexions sur le roman, Gallimard.

TODOROV, T.: 1990

* Genres in discourse, Cambridge: Cambridge University

Press.

TOULMIN, Stephen. E.: 1993

* Les usages de l'argumentation (1958), traduit de l'anglais par Ph. De Brabanter. P. U. F.

TOURATIER, Christian: 2000

* La sémantique, Collection Cursus ■ Lettres, Armand Colin, Paris.

VALETTE, Bernard: 1993

* Esthétique du roman moderne, Série « littérature », Paris, Nathan, 1^{ère} éd.

VAN DIJK, Teun A.:

* **1980:** Macrostructures: An Interdisciplinary Study of Global Structures in Discourse, Interaction, and Cognition, Lawrence Erlbaum Associates, Publishers, Hillsdale, New Jersey.

* **1981:** Episodes as units of discourse analysis, IN: Deborah Tannen (Ed.), Analyzing Discourse: Text and Talk. Georgetown: Georgetown University Press, 177-195.

* **1985:** Handbook of Discourse analysis Dimensions of Discourse, vol. II, Orlando: Academic Press, 1st ed.

Vazquez – ORTA, Ignacio & DIRVEN, René & PORINGS, Ralf & SPOOREN, Wilbert & VERSPOOR Marjolijn: 2006

* Quand dire c'est faire : La pragmatique – dans Linguistique cognitive : Comprendre comment fonctionne le langage (travail collectif), Série : Champs linguistiques, De Boeck. Du culot, Bruxelles, Chap. 7, 191 – 224.

VERON, Eliséo: 1988

* La sémiosis sociale. Fragments d'une théorie de la discursivité, Presses Universitaires de Vincennes, Paris.

VERSPOOR, Marjolijn & DIRVEN, René & RADDEN, Gunter: 2006

* L'assemblage de concepts : La syntaxe – dans Linguistique cognitive : Comprendre comment fonctionne le langage (travail collectif), Série : Champs linguistiques, Bruxelles, De Boeck. Duculot, Chap. 4, 105 – 138.

WAHL, François: 1968

* Qu'est – ce que le structuralisme ? 5. Philosophie – La philosophie entre l'avant et l'après du structuralisme, Série : Points Sciences humaines, Paris, Seuil.

WHORF, Benjamin Lee: 1956

* Language, Thought and Reality. Edited and with an introduction by John B. Carroll. Cambridge, MA: MIT Press.

WULF Judith: 2006

* Contribution stylistique à l'analyse de la notion de cohérence, IN : Cohérence et Discours, Frédéric Calas (dir.), Presses de l'Université Paris – Sorbonne, 1^{ère} éd., 287 – 298.

ZEKRI, Mounir: 2013

* Le Texte et le Contexte en Fonction de la Formule C – L/ L – C (Culture – Langue/ Langue – Culture), IN : Text and context, University of Sfax, Faculty of Letters and Humanitis, Grad Research Unit and Department of English, Tunis, Imprimerie Officille de la République Tunisienne, 1^{ère} éd., 65 – 89.

3 – الدوريات:

3 – 1 – العربية:

كانقا كارل:

* إشكالية الأجناس الأدبية، ترجمة: عبد الرحيم الرحوتي – كتابات معاصرة – مجلد 14 – عدد 53، جوان – جويلية 2004. 28 – 38.

3 – 2 – الأجنبية:

ADAM, Jean-Michel:

* Types de textes ou genres de discours ? Comment classer les textes qui disent de et comment faire ?, in Langages, 2001/ 35

- 141, 10-27.

* La notion de typologie de textes en didactique du français. Une notion « dépassée » ?, in Recherches, 2005/ 42, 11 – 23.

BARTHES, Roland:

* Introduction à l'analyse structurale des récits, in Communications, 1966/ 8, 1 – 27.

BAZERMAN, Charles:

* The life of genre, the life in the classroom, in: Genre and writing: Issues, arguments, alternatives, Portsmouth, 1997, 19 – 26.

BENVENSTE, Emile:

* L'appareil formel de l'énonciation, in Langages, 1970/ 17 (L'énonciation), 12 – 18.

BOISTEL, Pascale & PARISSEAU, Marie – José:

* Le personnage, en peinture et en littérature, in Bulletin Départemental du Nord (B D Nord), 2006/ 97, 68 – 72.

COMBETTES, Bernard:

* Questions de méthode et de contenu en linguistique du texte, in Etudes de linguistique appliquée, 1992/ 87, 107 – 116.

FILLIETTAZ, Laurent & GROBET, Anne:

* « L'hétérogénéité compositionnelle du discours : quelques remarques préliminaires », in Cahiers de Linguistique Française, 1999 /21, 213 – 260.

FISHMAN, J. A.:

* Who speaks what language to whom, and when?, in La linguistique 1965/ 2, 67 - 88.

FLETCHER, C. R.:

* Strategies for the allocation of short - term memory during comprehension, in Journal of Memory and Language, 1986/ 25 - 1, 43 – 58.

FLUDERNIK, Monika:

* Genres, Text Types, or Discourse Modes? Narrative Modalities and Generic Categorization, in Style, 2000/ 34 - 2, 274 – 292.

GENETTES, Gérard:

* Frontières du récit, in Communications, 1966/ 8, 152 – 163.

HAMON, Philippe:

* Qu'est – ce - qu'une description ? in Poétique, 1972/ 12, 465 – 485.

MAINGUENEAU, Dominique:

* Linguistique et littérature : le tournant discursif, publication Vox Poetica, 2002,

[Adresse originale (URL) : [http ://www.vox – poetica. Org/t/maingueneau.html](http://www.vox-poetica.org/t/maingueneau.html)]

MOLINO, Jean:

* Logiques de la description, in Poétique, 1992/91, 363 – 382.

POLLAK, W.:

* Un modèle explicatif de l'opposition aspectuelle : le schéma d'incidence, in Le Français moderne – revue de Linguistique Française, 1976/ 4, 289 – 311.

ROULET, Eddy:

* Vers une approche modulaire de l'analyse du discours ; in Cahiers de Linguistique Française, 1991/ 12, 53 – 81.

TODOROV, Tzvetan:

* Les catégories du récit littéraire, in Communications, 1966/ 8, 125 – 151.

VAN DIJK, T. A.:

* Narrative macro - structures Logical and Cognitive Foundations, in PTL: A Journal for Descriptive Poetics and Theory of Literature, 1976/ 1, 547-568.

فهرس المحتويات

المقدمة 5

1. الطرح العام للإشكالية 5
2. القضايا والإشكاليات والأسئلة 9
3. أهداف هذه الدراسة ومقاصدها 13
4. حدود المدونة 14
5. تنظيم العمل 24
6. تحديد موضوع البحث، والحاجة إلى تناوله 32
7. صعوبات البحث 36

القسم النظري 39

مقدمة القسم النظري 40

الفصل الأول: الانسجام 43

1. حدّ الانسجام ومفهومه 44
1. 1. تعريف الانسجام 44
1. 2. حدود الانسجام: أسبابها وانعكاساتها في النصّ وفي التأويل 45
2. أنساق الترابط ومؤشّراته الدالة على تماسك النصّ وانسجامه 47
2. 1. القرائن المساعدة على تحقق الانسجام 47
2. 2. خصائص الروابط 54
2. 3. قواعد الترابط 62
2. 4. معاني العلامات المميزة في السياق السردّي 64

2.	5.	أنواع الترابط بين الوحدات النصية الأساسية كما يبينها آدام	66
3.	أنواع الانسجام		68
3.	1.	الانسجام البنيوي التركيبي النحوي	68
3.	2.	الانسجام المقترن بالعلاقات المعجمية	70
3.	3.	الانسجام وفق القرائن المرجعية المؤسسة للبنية الصغرى	71
3.	4.	التطور الموضوعي ودوره في تحقيق انسجام النص	72
3.	5.	العناصر السياقية المقامية المساهمة في تحقق الانسجام	72
4.	4.	في علاقة الانسجام بالخطاب السردى	77
4.	1.	المجالات والتجليات	77
4.	2.	الانسجام وأثره في التأسيس للنظرية الأجناسية	80
		الفصل الثاني: الاستدلال	83
1.	1.	تعريف الاستدلال، وتجلياته في الخطاب	84
2.	2.	طرق الاستدلال ومناهجه	87
1.2.	1.2.	الاستدلال المنطقي	90
2.2.	2.2.	الاستدلال التركيبي	95
1.2.2.	1.2.2.	في الاستدلال على علاقة الاتساق والانسجام بالتركيب النحوي ..	96
2.2.2.	2.2.2.	العناصر المساعدة في الترتيب النحوي على إبراز الاتساق أو الانسجام في الخطاب	97
3.2.2.	3.2.2.	الاستدلال على أهمية الروابط في تحقيق الاتساق والانسجام ...	100
2.	3.	الاستدلال البلاغي	101
1.3.2.	1.3.2.	أهمية الاستدلال البلاغي وخصائصه في الخطاب:	
		بنية ودلالة	101

2.3.2. البلاغة وأبنية الخطاب 104

2. 4. الاستدلال التّداولي 107

2.1.4.2. مبادئ الاستدلال التّداولي في تحليل الخطاب وشروطه 108

2.2.4.2. مرجعيات الاستدلال التّداولي 112

2.3.4.2. الفروق في نظرية الإفادة عند كلّ من سبربر وولسن، مبدأ غرايس وقواعده 115

3. الاستدلال على أنّ تحوّل الخطاب السّردّي من مستوى التّجريد إلى الإجراء فالإلى التّجريد مجدّدًا هو جزء من انسجامه 118

الفصل الثالث: الاستدلال على انسجام الخطاب من خلال الأبنية

الصّغرى 120

1. تعريف الأبنية الصّغرى، وكيفية التّرابط بينها 121

2. أنساق الأبنية الصّغرى 122

3. من مظاهر الانسجام في البنية الصّغرى إمكانية تحوّلها من الدّلالة إلى صيغتها التّمثيلية 127

الفصل الرابع: الاستدلال على انسجام الخطاب من خلال الأبنية

الكبرى 133

1. حدّ البنية الكبرى وتعريفها 134

1.1. البنية الكبرى: بنية أم موضوع أم معنى؟ 142

2.1. كيف يساعد السّياق على تبين أبنية النّصّ الكبرى وأشكال الاتّساق بينها؟ 145

3.1. القواعد المحدّدة للأبنية الكبرى وتترابط وفقها 147

2. وظائف الأبنية الكبرى وعلاقتها بانسجام الخطاب 151

1.2. البنية الكبرى: بين حدود النّصّ/ الموضوع، وبين أجناسيّة

الخطاب	153
2. 2. الأبنية الكبرى وطبيعة العلاقات بين الأفعال والأحداث في النصّ السّرديّ	154
الفصل الخامس: الاستدلال على انسجام الخطاب السّرديّ من خلال الأبنية العليا	160
1. ما الأبنية العليا؟	161
2. أنواع الأبنية العليا الفرعية: الخصوصية والتّفاعل في إطار الخطاب السّرديّ	168
1.2. البنية العليا القائمة على السّرد	169
2.2. البنية العليا القائمة على الوصف	176
1.2.2. خصائص الوصف	176
2.2.2. من تجليات الانسجام في الخطاب السّرديّ التّحوّل من الجملة الوصفية إلى المتتالية الوصفية	178
3.2.2. الوصف والتّركيب	179
4.2.2. أجناس الوصف وأصوله البلاغية	179
5.2.2. وظائف الوصف في الخطاب السّرديّ	181
6.2.2. الوصف بين خصوصية البناء وبين سيّورة الزّمان؛ أو بين قواعد الإنشاء وتقنيته وبين تجاوزه في جدلية الأدب والواقع	183
2. 3. البنية العليا القائمة على الحوار	185
1.3.2. الإشكاليّات الحاقّة بالحوار	185
2.3.2. تجليات الحوار ومظاهر الانسجام فيه	188
3.3.2. نظام التّداول على الكلام	188
4.3.2. مكّونات التّفاعلات الكلامية	189
5.3.2. القواعد المتحكّمة في تنظيم المتتالية الحوارية	191

192	6.3.2. في أجناسيّة الحوار
194	4.2. البنية العليا الجدليّة القائمة على الحجاج و/ أو التّفسير
205	الفصل السادس: تجلّيات الاشتراك والانسجام بين مختلف الأبنية
211	1. مدى الاتّساق أو الانسجام بين البنيتين الصّغرى والكبرى
212	2. بين البنيتين الكبرى والعليا
215	3. التّفاعل بين الأبنية العليا
216	4. وظائف التّفاعل بين الأبنية
219	5. انسجام الأبنية من خلال التّشكّلات النّجديّة وخلفياتها الدّلاليّة
224	خاتمة القسم النّظريّ
232	القسم التّطبيقيّ
233	مقدّمة القسم التّطبيقيّ
244	الفصل الأوّل: الاستدلال على انسجام الخطاب السّرديّ: الأقصوصة نموذجًا
305	القسم التّأليفيّ بالنّسبة إلى الفصل الأوّل
310	الفصل الثّاني: الاستدلال على انسجام الخطاب السّرديّ: الرواية نموذجًا
397	القسم التّأليفيّ بالنّسبة إلى الفصل الثّاني
401	الفصل الثّالث: الاستدلال على انسجام الخطاب السّرديّ: السّيرة الدّاتيّة نموذجًا
510	خاتمة القسم التّطبيقيّ
518	الخاتمة العامّة
534	ثبت اصطلاحيّ عربيّ - فرنسيّ - أنكليزيّ
541	فهرس المصادر والكتب الأمّهات والمراجع الواردة في البحث

